

تَارِيخُ الْمَسِيحِيَّةِ

فجر المسيحية

بقلم
عبدالله بن محمد بن عبد الله

دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية





قبل سنوات أصدرت هذه الدار ، كتاباً عنوانه « عشرون قرناً في
حوكب التاريخ » ، إحتوى الأحداث البارزة في كل قرن من القرون
العشرين ، وسيرة بعض الشخصيات ، التى ساهمت بنصيب وافر ، فى
تطور أحداث الفترة التى عاشت فيها . وقد كان عملاً مركزاً موجزاً فى
تاريخ المسيحية ، وهى أكبر حركة عرفها التاريخ ، وقد تلقاه القراء لقاء
حسناً ، ونفدت طبعته أو كادت فى سنوات قلال .

وفى رحلة صيف إلى إنكلترا وأمريكا ، قام بها رئيس تحرير الدار ،
دلف فيها إلى المكتبات العامة فى المدن والقرى ، هاله ما شاهد من وفرة
المؤلفات ، التى صنفت عن تاريخ المسيحية ، وضائق نفسه حين فكر
فى ندرة المؤلفات الخاصة بهذا الميدان فى اللغة العربية .

ولذلك صحت عزيمة دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية ، أن تصدر
سلسلة من المؤلفات فى التاريخ الكنسى ، تتضمن خمسة مجلدات هى :

- ١ - فجر المسيحية .
- ٢ - المسيحية فى القرون الوسطى .
- ٣ - المسيحية فى عصر الإصلاح .
- ٤ - المسيحية فى العصر الحديث .
- ٥ - كنائس المشرق .

ولسنا ننكر أن جهوداً قد بذلت فى هذا المضمار ، فهناك سلسلة
« تاريخ الكنيسة القبطية » للأستاذة « إيريس حبيب المصرى » ، وهى تعتبر

مرجعاً هاما في تاريخ الكنيسة المصرية . وهناك ما قدمته مكتبة الإخوة البليموث في مجلدين تحت عنوان « تاريخ الكنيسة » ، مترجماً عن « أندرو ملر » ، وهناك أيضاً « تاريخ الكنيسة المتغربة » ، الذي أصدره الإخوة المنفتحون ، منقولا عن « برودبنت » .

كذلك قدمت لنا بيروت مرجعين عن « تاريخ الإصلاح » ، أحدهما ترجمة « الشيخ إبراهيم الحوراني » ، والثاني أصدرته الكنيسة الكاثوليكية . لكن معظم هذه الكتب ، يقدم وجهة نظر خاصة ، تدور في فلك طائفة أو جماعة بعينها ، وينقصها أيضاً التسلسل والشمول .

لذلك أحسنا بالحاجة الماسة إلى إصدار هذه السلسلة الكاملة ، في تاريخ المسيحية ، نقدم فيها الحقائق التاريخية مجردة ، بنظرة محايدة ، تتوخى الدقة والأمانة في سرد الأحداث ، دون إنفعال أو إفتعال ، في أسلوب سلس ، وإطار أدبي مقبول .

وهذا ما نرجو أن نكون قد حققناه لقرائنا الأعزاء . ، بروح المحبة ، عالمين ومقرين بعجز القلم عن الإحاطة بميدان متسع إتساع المحيط ، كالتاريخ الكنسي ، ورجاؤنا ألا نغضب أحداً بكلمة واحدة .

وليذكر القارئ أن التاريخ هو التاريخ ، وأنه لا مهادنة ولا مهادنة على حساب الحق ... وأن الأمانة تقتضي نقل الصورة كما هي بلا تزويق ولا تنميق ، وسرد الأحداث بنقلها عن مؤرخين محايدين .

وبهذا نرجو أن نكون قد أدينا أمانة في أعناقنا لله ، وللتاريخ ، وللكنيسة ، والله المستعان .

الناشر

مكتبة
المفتدين

محتويات الكتاب

صفحة

١١

تمهيد

١ - قبل إنشقاق الفجر :

[الرومان - اليونان (سقراط - أفلاطون - أرسطو - ١٧
الايقوريون - الرواقيون) اليهود - الأحوال الدينية -
الأديان الشرقية - الأحوال الأخلاقية] .

٢ - العصر الرسولي :

(يوحنا المعمدان - نشأة يسوع - ملكوت الله - الجماعة ٣٢
المسيحية الفلسطينية - الشهيد الأول - بولس والمسيحية
الوثنية - بولس) .

٤٦

٣ - عاتمة العصر الرسولي

٤ - لماذا اضطهدت المسيحية :

(تعصب اليهود - المحامع اليهودية - اليهود أمة والمسيحيون ٤٩
طائفة - اضطهاد نيرون - الاضطهاد في عصر الإمبراطور
تراجان - عبادة الإمبراطور - الإمبراطور سيفروس -
القديس إغناطيوس) .

صفحة

٥ - صر الانتصار والإنشار :

(إنتصار الحق على الباطل - أسباب ثانوية لإنتشار المسيحية : ٦٣

١ - حماس المسيحية في نشر الدعوة .

٢ - عقيدة الخلود .

٣ - الأحوال السياسية والاجتماعية والدينية .

٤ - سمو الأخلاق المسيحية .

٥ - قوة نظام الجماعات المسيحية - البيئة اليهودية -

فضل المسيحية على هذه البيئة) .

٦ - عقيدة الخلود وحياة المستقبل :

(الخلود في نظر الفلاسفة - مدارس الفكر المختلفة لم ترحب ٦٨

بالنظرية - خلو اليهودية الأولى من عقيدة الخلود - أعتناق

الفريسيين لهذه العقيدة .

٧ - الأحوال السياسية والاجتماعية والدينية :

(العظمة الرومانية في فجر المسيحية - مزايا اليونان - فشل ٧٢

الثروة المادية والثقافة العقلية - عالم ضيق آخر - رجاء

المسيا) .

٨ - سمو الأخلاق المسيحية :

(النقد اللاذع - المسيحيون أمام محكمة بليني - العيوف ٧٩

عن متع' العصر - الإفراط في الفضيلة - احتقار المعرفة التي
ليست للخلاص - الصرامة في العلاقة الجنسية - الدقة في
الحياة العملية) .

٩ - قوة نظام الجماعات المسيحية :

(مهام جديدة في إدارة الكنيسة - السياسة البدائية الأولى - ٨٥
فشل المعلمين الأنبياء وتعيين الأساقفة - تنصيب الرئاسات -
اختصاص الأسقف في الكنيسة الأولى من نشأة المجامع الإقليمية -
النزاع بين الأسقف والشعب - نشأة وظيفة رئيس الأساقفة -
مطامع أسقف رومية - التمييز بين العلمانيين ورجال
الدين) .

١٠ - كلمة حق :

(هل كان كل المسيحيين شهداء - الضعف والجنون والردة - ٩٣
معجزة المسيحية) .

١١ - موقف الشعب من المسيحية :

(بوليكارب - إيمان الدهماء في الإضطهاد) ٩٧

١٢ - المدافعون :

(كوادرتوس - أرسنديس - طاطيان - مليتو - أثيناغورس - ١٠٠
الشهيد يوستن) .

١٣ - الفتوحات المسيحية :

(ترجمة أقوال المسيح من اليونانية إلى اللاتينية - عدد المسيحيين ١٠٣
في ولايات آسيا - قبرص وكريت - هلينى الوالى الرومانى -
الذهبي الفم) .

١٤ - الإشتراكية فى المسيحية :

(بداءة الإشتراكية - تطور الإشتراكية البدائية - ثروة ١٠٧
الكنيسة - التعاون بين الكنائس الغنية والفقيرة - الأغاثة فى
هذا العصر) ؟

١٥ - إضطهاد المسيحية فى القرن الثالث :

(الإمبراطور ديسيوس - الإمبراطور جالوس - الإمبراطور ١١١
دقلديانوس - الإمبراطور جالبروس - قسطنطين الكبير)

١٦ - المهرطقات المسيحية :

(شيعة الغناطسة - البدعة المونتانية) ١١٦

١٧ - المدينتان - رومية والاسكندرية :

(الكنيسة فى رومية - ضعف كنائس آسيا الصغرى - الخلاف ١٢٣
حول ميعاد الفصح - ميعاد عيد القيامة - الإسكندرية المدرسة
الدينية الشهيرة - المسيحية خارج حدود الإمبراطورية -
الفلاسفة والمثقفون يدخلون المسيحية) .

صفحة

١٨ - بعض زعماء المسيحية في بكور التاريخ :

(إيرانيوس - ترقوليانوس - كبريانوس - أوريجانوس) ١٣١

١٩ - الموقف بتغير :

(قرار قسطنطين الكبير - نقل العاصمة إلى بيزنطة - ١٤١
الأفلاطونية الحديثة - الدولة تحاول فرض سلطانها على الكنيسة -
الكنيسة توطد دستورها) .

٢٠ - بدء المنازعات :

(الأسقف دوناتوس - مجمع إرل / المهرطقة الأريوسية - ٢٤٦
أسقف الإسكندرية يقاوم / مجمع نيقية - قوانين الإيمان
الثلاثة - إثناسيوس بطل المجمع - مجمع القسطنطينية)

٢١ - أبطال في تلك الفترة :

(الأسقف أمبروز - يوحنا فم الذهب - أغسطينوس - ١٥٥
الآباء الكبلكيون - الأسقف سينيوس - القديس مارتن -
إبرونيوس) .

٢٢ - الرهبنة في فجر المسيحية :

(عوامل النزعة الرهبانية - الرهبنة في اليهودية - مبدع ١٧٣
الرهبانية - الرهبانية في الغرب - الراهب بندكت)

صفحة

١٨٤



٢٣ - بين الشرق والغرب :

(رومية والقسطنطينية)

٢٤ - جريجوريوس العظيم :

(الإمبراطورية الرومانية الشرقية - جريجوريوس مولده ١٩٤
 ونشأته - ميله إلى حياة الرهبنة والتعبد - وحلته إلى
 القسطنطينية - إعتلاؤه الكرسي البابوي - نفوذه وسلطانه -
 لمحة عن المسيحية في بريطانيا) .

٢٥ - الكنيسة في المشرق :

(اللغات القومية في الإمبراطورية الشرقية - هرقل وانتصاراته - ٢٠٦
 يوستنيان - العرب والكنيسة الشرقية - العالم يوحنا الدمشقي)

تمهيد

الكنيسة المسيحية ، هي الهيئة التي أقامها السيد المسيح على الأرض ؛ لتنوب عنه بعد صعوده إلى السماء ، وتكون أداة لتوجيه النفوس إلى مصدر الخلاص ، وقد أيدها بروحه الأقدس ، كما نحس بذلك بوضوح في تاريخ الكنيسة الرسولية الأولى ، وآزرها بفاعلية نعمته ، لتقوم بتلك الإرسالية العظمى في تاريخ العالم . ولذلك فهي تضم جميع أبناء الله المتفرقين في كافة الطوائف المسيحية .

هذه هي كنيسة الله المقدسة ، الجامعة ، الرسولية ... هذا هو جسد المسيح السرى ، الذى هو رأسه المبارك هذه هي صورة الكنيسة الخفية غير المنظورة .

أما الطقوس ومراسم العبادة وإطارها الخارجى ، فهي لحفظ كيان الصورة . فالكنيسة — كما قلنا — هي جسد المسيح ، وهو رأسها ، والروح القدس الذى أرسل هاديا للكنيسة ، هذا الروح هو معلمها ومكملها ، ومنلدها ومرشدها . وكلمة الله التى بين يديها ، والأسرار المقدسة التى تمارسها ، هي الوسائط التى يعمل بها روح الله .

وعلى مر العصور ، تبلورت الكنيسة ، وصارت هيئة كبرى ثابتة متطورة ، لها نظمها ، ولها تاريخها . صحيح أن طريقها لم يكن على الدوام ، يقودها إلى الأمام ، لأنه إلى جوار رئيسها ورأسها العظيم يسوع المسيح ، وإلى جوار موعد الآب المبارك ، بحلول الروح القدس ، الذى

لانسكب في يوم الخميس ، كانت هناك الوسطة البشرية ، والفكر
البشرى . وكل ابن أنثى خطأ معرض للانحراف ، إن يمينا أو يساراً ،
بدافع من قصوره وعجزه .

وهكذا بدلا من أن يكون قوة دافعة للأمام ، يصبح قوة معطلة ،
وبدلا من أن يكون أداة للبر والنقاء ، في الجوهر والعقيدة والممارسة ،
يجلب عناصر يظنها - بحسب فكره - صالحة للبناء ، وهي في واقع
الأمر هشة ، تشكل أكثر من نقطة ضعف في البناء ، وتنجم عنها أخطاء
وأخطاء .

لكن على الرغم من قصور الوسطة البشرية ، فإن رعاية المسيح ونعمته ،
وحكمة الروح القدس وإرشاده ، كفيلان بأن يقيا بين الحين والحين ،
من ينبه الراكب إلى خطأ المسيرة ، ويعيد الموكب إلى الطريق السوى ،
ويذكر الأيدي العاملة ، ويحذرهما من مغبة إضافة الخشب ، والعشب ،
والقش ، إلى بناء كنيسة الله الحي ، المقامة على أساس المسيح .

فخلاص الله لن تعوقه عوامل الفرقة ، وقوة الله لن يغلبها ضعف
البشر . ومخطط الله لخلاص الإنسانية ، لا بد وأن يبلغ غايته ، ويحقق
هدفه . بل إنه يمكننا أن نقول ، أن فترات التقاعد والنكوص ،
والمعطلات التي بدا وكأنها سوف تبتلع الكنيسة ، قد أعقبتها نهضات
وانتفاضات ، دفعت بالكنيسة دفعا إلى الأمام ، وكانت المشعل المتوهج
الذي أضاء لها طريقها لأجيال قادمة ، ليس في مجال الحياة الكنسية
فحسب ، وإنما حتى في دائرة الفكر والعلوم والحضارة ، وكفة دوائر
الحياة الاجتماعية .

الإنجازات المتشعبة في تاريخ الكنيسة :

هناك أكثر من صورة ، يجدها الدارس لتاريخ الكنيسة . فالهدف الرئيسي لكنيسة المسيح ، هو ، الذهاب إلى العالم أجمع ، والكرازة بالإنجيل للخليقة كلها . لذلك فتاريخ انتشار المسيحية في أقطار العالم ، والعقبات التي صادفتها في هذا السبيل ، هو فرع من فروع تاريخ الكنيسة.

وإلى جانب القوة الخفية التي تعمل في كيان الكنيسة ، هناك الجانب المنظور ، أو الصورة المرئية للكنيسة ، وهو يتضمن النظم والممارسات والطقوس ، وهي ما يسمى « الكيان الكنسي » . وهذا الكيان الكنسي ، يتضمن أيضاً اللوائح والقوانين التي تحكم التنظيم الكنسي ، كما يتناول أيضاً ، صلة الكنيسة بالدولة ، وموقفها منها . كما يمكن أن يدخل في نطاق دائرته كذلك ، سياسة الكنيسة .

والأمر الأكثر أهمية في هذا المجال ، هو تطور الفكر العقائدي المسيحي . ونحن نبني إيماننا الأقدس ، على الكتاب المقدس ، فهو المصدر الوحيد ، والقانون الوحيد المعصوم من الخطأ ، لبنود الإيمان المسيحي القديم ، وهو الدليل الوحيد للخلاص ، لكل من يؤمن . ولكننا نؤمن أيضاً ، أن كلمات الإنجيل ، مثل حبة الحنطة ، إذا واثتها الظروف المناسبة ، لا تبقى وحدها ، لكنها تنمو في صورة سنبل ، ثم إلى قمح مكثز في هذه السنبل . فكلمة الله تتضمن الحق الكامن الذي يتكشف ، ويتبلور ، ويزدهر ، في الحق المتطور ، الذي يوائم ازدهار الفكر ، وتطور الحياة ، وتفتح ثمار العقل ، في كافة المجالات ، في بنود فروع العلم المختلفة .

ولذلك ، يدخل ضمن دائرة التاريخ الكنسى ، تطور العقيدة الكنسية ، بحسب مقتضيات تطور العلم ، وإنتصارها أيضاً فى هذا المجال ، على البدع والمهرطقات ، وكافة الطرق الجانبية .

وهناك أيضاً تاريخ العبادة ، والكنيسة بحاجة إلى العبادة الجمهورية ، لبنيان المؤمنين ، وجذب البعيدين . وأساس العبادة كلمة الله والأسرار المقدسة . لكن مع كل هذا ، فللكنيسة الحق فى أن تستخدم كافة الوسائل الأخرى ، التى تراها فعالة ، فى تحقيق هذا الهدف . فالموسيقى والألحان ، وتاريخ الترانيم ، جزء من تاريخ العبادة .

هذه وغيرها كثير ، هى الإتجاهات التى يتضمنها تاريخ الكنيسة — ولقد كان لهذه الإتجاهات المتشعبة من الأهمية ، ما جعل علوماً ثابتة تتبلور عنها ، نذكر منها على سبيل المثال : « تاريخ الإرساليات » ، وهو يبحث قصة إنتشار المسيحية وما صادفها ، « سياسة الكنيسة » ، وهو يبحث فى شئون الحكومة الكنسية وقوانينها ، أما نظم العبادة ومراسمها ، وتطور هذه النظم ، فأوضحت ضمن ما يعرف بعلم « التراث الكنسى » ، ولعل التراث ، تتفرع عنه ، الهيئات المسيحية ، والثقافة المسيحية ، والعبادة المسيحية .

تاريخ الكنيسة :

إن أول مصدر يعتمد عليه فى دراسة تاريخ الكنيسة الأولى ، هو كتاب « العهد الجديد » ، وعلى الأخص بشائر الإنجيل ، وسفر أعمال الرسل .

ثم بعد ذلك يأتى التاريخ الكنسى الذى صنفه « هيجسبس » من آسية الصغرى فى منتصف القرن الثانى للميلاد ، وقد جمع فيه كل شاردة

حوارده عن التقاليد في العصر الرسولي الأول ، ومما يؤسف له ، أنه لم يحصل إلينا سوى أجزاء متفرقة من هذا العمل التاريخي الهام .

ثم يأتي دور العمل الخالد ، الذي قدمه « يوسابيوس القيصري » ، الذي كان أسقف الكرسى قيصرية ، وهو يستحق فعلاً لقب « أبو التاريخ الكنسى » . وعمله يعتبر واحداً من أفضل الكنيسة الشرقية على الغرب . وقد ترجم تاريخ الكنيسة ليوسابيوس ، إلى عدة لغات غربية ، وأصبح المرجع الهام لأخبار الكنيسة الأولى حتى القرن الثالث الميلادى .

أما الفترة التالية للقرن الثالث ، وحتى القرون الوسطى ، فلم يكن هناك تاريخ مفصل للكنيسة ، بل كانت هناك أخبار ، وتواريخ ، وتقارير ، وهذه حتى وإن كانت على قدر كبير من الأهمية ، إلا أنها لا تغنى عن تاريخ مسلسل ومفصل .

وفي عصور الإصلاح ، استدعى الأمر دراسة علمية لتاريخ الكنيسة . فقد أهتم رواد الإصلاح وقادته ، بالرجوع إلى تاريخ الكنيسة الأولى ، لتبيان ما كانت عليه ، في عصر النقاوة الرسولية . وتبين ما صارت إليه في عصور الانحلال ، وفحص كل صغيرة وكبيرة ، في حياة البابوية ، وعقائدها ، وممارساتها . وفي الوقت عينه ، اهتم الباباوات من جانبهم ، بدراسة تاريخ الكنيسة ، ومحاولة اكتشاف ما يؤيد عقائدهم ، في ممارسات الكنيسة الأولى ، لاستخدامها في الدفاع عن أنفسهم .

واستمر الحال على هذا المنوال ، حتى منتصف القرن السابع عشر ، حينما أثرت روح المنافسة والغيرة مرة أخرى ، بالدرس والبحث ، وكانت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، هي حاملة اللواء ، فعرف ذلك بعصر النهضة .

ولم تتخلف الكنيسة المصلحة عن الركب ، فقامت بدورها بالدرس والفحص ، وخاصة في فرنسا وأقاليم الشمال .

وفي القرن الثامن عشر ، تقدمت الكنيسة اللوثرية الصفوف ، وفي ركبها سارت الكنيسة المصلحة ، بينما هبطت عزيمة الكنيسة الكاثوليكية .

ولكن حينما بدأت العقلانية تغزو دوائر الفكر اللاهوتي ، بدأت حركة البراجماتزم ، أو المذهب الدرائي ، تغزو دوائر التاريخ الكنسي ، وجعلت أحداثها نتيجة ترتيب وحسبان وأسباب مسبقة . وظلت هذه الفكرة سائدة حتى القرن التاسع عشر ، حينما تخلصت منها الكنيسة بصفة نهائية .

ونعود في النهاية ونقول ، إن الهدف من هذه السلسلة ، ليس أن نقدم مرجعاً للمتخصصين ، مؤيدا بالأسانيد والمراجع والأدلة ، والهوامش ، والبراهين ، بقدر ما نقدم صورة سريعة للقارئ العادي ، يجدها المتعة والفائدة ...

فإذا وجدت نفس واحدة شيئاً من المتعة والنور في هذه الدراسة ، فإن الكاتبين يعتقدون أنهم بهذا قد كوفتوا أكثر مما يجب ، عن شهور من الدراسة والبحث والسهر المفضي ...

وليكن المجد لله أولاً وآخراً .



قبيل انبثاق الفجر

[الرومان - اليونان : (سقراط - أفلاطون - أرسطو -
الابيقوريون - الرواقيون) - اليهود - الأحوال الدينية -
الأديان الشرقية - الأحوال الأخلاقية] .

الرومان

بزغ فجر المسيحية على عالم روماني ، كان فيه الرومان سادة العالم يومئذ ، وهذا قول حق على الرغم من وجود رقاع أخرى في العالم لم تخضع لسلطانهم . على أن علم النسر الروماني رُفِرَ يومئذ على العالم المتحضر ، وقد تجاهل الرومان من عداهم وحسبوه «برابرة» . وفي نطاق هذا العالم المتحضر ، غرست بذور المسيحية الأولى ، وحوالي سنة ٥٠ ق. م شملت الامبراطورية الرومانية أوروبا جنوب نهر الراين والدانوب وأكثر انكلترا ، ومصر وشواطئ أفريقية الشمالية ، وأغلب آسيا من البحر الأبيض المتوسط إلى بلاد ما بين النهرين (العراق الحالية) .

ولم تلجأ روما دائماً إلى القوة في إدارة هذه الأصقاع الهائلة ، بل استعانت بالدكاء والفطنة وحسن التدبير ، وأينا اتجهت جحافلها ، حملت معها أرقى حضارة لم يعهد العالم لها مثيلاً من قبل .

وقد كان هذا السلطان الشامل للامبراطورية الرومانية ، أداة أعدها الله لنشر المسيحية ، ذلك لأنها جمعت تحت لوائها كل أجناس البشر في وحدة إنسانية متماسكة ، بعد أن كانوا وحدات متشابكة يحارب بعضها بعضاً ، وبعد أن خفت شوكة تلك الجماعات والوحدات ، خضعت كلها لسلطة واحدة عليا .

وجاءت المسيحية ديناً عالمياً جامعاً لا تميز فيه بين الألوان والأجناس ، فالكل واحد في المسيح . وقد مهدت الوحدة الرومانية الطريق أمام هذا الدين .

ثم أن الحكم الروماني بسط لواء السلام العالمي (Pax Romana) لأن الحروب بين الأمم توقفت ، تحت وطأة السلطة الجبارة ، وقد كان هذا السلام عاملاً ملائماً لنشر هذا الدين ، الذي دعا البشرية إلى المحبة والائخاء والسلام . وأخيراً نرى الإدارة الرومانية قوية يقظة حكيمة ، قد جعلت التنقل والمواصلات بين رقاع العالم المتحضر آمنة ميسورة ، فظهرت البحار من القراصنة الذين عاثوا فساداً في تعطيل الملاحة . ومهدت الطرقات المعبدة إلى كل أجزاء الامبراطورية ، وأقامت المخافر على هذه الطرق ، فانقطعت بذلك عصابات السطو وقطاع الطرق ، من ثم زادت المبادلات التجارية والعلاقات الثقافية والاقتصادية بين الشعوب . ولولا ذلك لما استطاع «بولس» رسول الأمم ، أن يتنقل في حرية ويسر إلى كل البقاع حتى يبلغ رومية ، وما وراءها ، بل قل إلى أسبانيا أيضاً ، وكذلك استطاع دعاة المسيحية من بعده أن يجوبوا البلدان والأمصار لنشر رسالتهم بين الشعوب .

اليونان

يوم بزغ فجر المسيحية ، كان العالم في منطقة البحر الأبيض المتوسط متأثراً بروح الشعب اليوناني . وعلى شواطئ هذا البحر تناثرت مستعمرات يونانية ،

نشطت في أعمال التجارة والبحث والدرس ، وخاصة في أمهات المدن التي زخرت بالحياة في كل نواحي نشاطها . وكان هذا التأثير قويا ، حتى أطلق على ذلك العالم القديم لقب « اليوناني » فبينما بسطت رومية سلطانها السياسي صاغ اليونان متجهات الفكر والثقافة بين الشعوب .

وقبل مجيء المسيح بعدة قرون ، كان الشعب اليوناني أنشط شعوب العالم في الحياة العقلية والفكرية . وقد تعمقوا في دراسة كافة المشاكل التي تفتي بها الإنسان وخطرت على باله ، مثل نشأة العالم ومعنى الوجود ، الله والإنسان ، الصواب والخطأ ، وما إلى ذلك من الموضوعات التي أنضجتها قرائحهم .

ومن القرن السادس إلى القرن الثالث قبل مجيء المسيح ، شهد العالم نهضة فكرية جبارة في الفلسفة والسياسة وعلوم الدين ، وفي خلال هذه المدة برز أعلام مفكرون خلدوا للعالم ما أثرهم الباقية على الزمن . . كان من أثر هذا كله تطور عجيب في عقلية الشعب اليوناني ، فعرفوا كيف يفكرون ويبحثون في المسائل التي أثارها فلاسفتهم ، وشحذت قواهم في الفطنة والحصافة والدكاء ، ونضج في عقولهم حب الاستطلاع والبحث والاستقصاء . من ثم يصير اليوناني إنسانا طموحاً تواقاً إلى المعرفة راغباً في التفلسف عن أعمق الأشياء في الأرض وفي السماء . وقد ساد هذا المزاج العقلي الباحث المنقب ، كل مدائن العالم اليوناني — الروماني ، حيث بث دعاة المسيحية الأوائل رسالتهم ، فكانت الشعوب أكثر قابلية وأوفر تأهباً ، لتقبل الدين الجديد .

وقد قدم اليونان خدمة جليلة أخرى للمسيحية ، بأعداد اللغة التي تحدث بها دعايتها ومبشروها . وقد كانت اللغة السائدة في البلدان حول شواطئ البحر الأبيض المتوسط اليونانية الدارجة ، وهي اللغة التي كانت وسيلة التفاهم بين الشعوب . وبهذه اللغة نادى الدعاة والمبشرون الأولون — مثل « بولس » — وبها كتبت الأسفار المسيحية الأولى . ومن هنا ، لقي الدين الجامع لغة

جامعة ، حمل بها رسالته إلى أبناء الإنسانية ، وكان هذا فضل اليونان على المسيحية بتدبير من الله .

أجل لم تدخل المسيحية عالما خاويا ، بل وجدت عقول الناس حافلة بشتى الأفكار عن الكون ، والخطيئة ، والثواب ، والعقاب ، وقد تناولت هذه الموضوعات وهذبتها ، وتفاعلت معها . لم تغرس المسيحية بدورها في أرض عذراء ، بل أخذت المواد الموجودة يومئذ ، وأقامت عليها كيانها — ولسنا ننكر أن كثيرا من تلك الأفكار لم تعد توائم العصر الحديث . وهذا المزيج الفكرى يفرض على الدارس الباحث ، أن يميز بين الأفكار الباقية والأفكار الانتقالية الزائلة . فكل الناس باستثناء قلة من الفلاسفة السفسطائيين آمنوا بوجود قوة ، أو قوى غير منظورة فائقة للطبيعة ، خالدة ، تتحكم في المصير البشرى وهى تعبد أو تسترضى بالأدعية والطقوس والذبائح ، وهم قد حسبوا الأرض مركز الكون ، تدور حولها في مداراتها الشمس والسيارات والكواكب ، وفوقها السماء وتحتها مقر أرواح الراحلين من الأخيار أو الأشرار .

ولم يكن العقل البشرى قد اختمر بعد بما نسميه الناموس الطبيعى وكانت كل أعمال الطبيعة تنسب إلى قوى الخير أو الشر غير المنظورة ، التى كان سلطانها تحكما . وقد غص العالم بعدد من الأرواح الخيرة أو الشريرة ، التى تسربت إلى الحياة البشرية فى كل نواحيها واتجاهاتها ، والتى قيل أنها تملك الناس للخير أو الشر ، وذهب بعضهم إلى الاعتقاد بأن أنفس البشر إن هى إلا أرواح ساقطة سجنّت فى أجسادها المادية .

« سقراط »

وسقراط الفيلسوف اليونانى (٤٧٠ — ٣٩٩ ق . م .) عنى بتحليل الإنسان ذاته لا بالكون ، وكان سلوك الإنسان أى أخلاقياته أهم الموضوعات

التي عاجلها تفكيره الفلسفي ، وقال فيما قاله إن المسلك السليم يقوم على المعرفة ويؤدي بالإنسان إلى الفضائل الأربع ، الفطنة ، والشجاعة ، وضبط النفس ، والعدل . وقد احتلت هذه الفضائل الطبيعية المرتبة العليا في علوم الدين المسيحي في القرون الوسطى . وقرن الفضيلة بالمعرفة ، وهي العقيدة القائلة أن المعرفة تنطوي على العمل والجهد ، وقد كانت بحق تراثا حافلا بالنكبات على كل تفكير يوناني ، وكان لها أبعد الاثر في كثير من النظريات المسيحية ، وخاصة الأغنسطية التي ابتلى بها القرن الثاني المسيحي .

« أفلاطون »

وفي عهد « أفلاطون » (٤٢٧ - ٣٤٧ ق . م .) ، تلميذ « سقراط » ، بلغ العقل اليوناني المبكر ذرى إنجازاته الروحية ، وقد اتصف هذا الفيلسوف بالتقوى الخشوعية ، وبعمق النظرة الروحية . وقد نجحوا بخالف معلمه ، فقال إن أشكال هذا العالم المنظور البائدة ، لا تقدم لنا معرفة حقة ، أما المعرفة الحقة الباقية المستديمة ، فتأتينا من المامنا بالمثل ، وهي النماذج أو الأنماط الثابتة الأصلية الجامعة ، القائمة في العالم الروحي غير المنظور ، العالم الواضح الجلي ، الذي ندركه بالعقل لا بالحواس وتبتدئ حقيقته في الظواهر الطبيعية التي تمر أمام حواسنا . وقد عرفت النفس هذه المثل في كيان سابق . وظواهر هذا العالم المنظور تعيد إلى ذاكرتنا تلك المثل التي عرفناها من قبل .

وما دامت النفس كانت كائنة قبل الجسد ، فلا بد أن تكون مستقلة عنه ، ولا تتأثر بأغلاله وفنائه . وفكرة الخلود هذه كصفة من صفات النفس دون الجسد ، بدت أثيرة قوية في الفكر اليوناني . وليست كل « المثل » متساوية القدر ، فأرقاها هي « الحق والجمال والخير » . وهذا

الخير هو الذى يسود العالم ، لا مجرد الصدفة . وهو مصدر كل الرغبات والخبرات التى يجب محاكاتها فى مسالك الناس . وعالم « المثل » هذا هو الموطن الأصيل للنفس ، وفى الأقران به والشركة معه ، تلقى رضاها وقناعتها واشباع رغباتها ، والخلاص هو استكشاف الرؤيا الواضحة عن الحق والخير والجمال ، تلك الحقائق الخالدة .

« أرسطو » :

أما « أرسطو » (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) فقد كان أقل من أفلاطون روحانية ، فالعالم المنظور فى فلسفته حقيقة لا جدال فيها ، ونبد التمييز الذى ذهب إليه « أفلاطون » بين « المثل » و « الظواهر » ، وفى رأيه أن لقيام للواحد بدون الآخر ، ولا وجود لعالم من « المثل » بدون الظواهر الملازمة له . والعالم هو الموضوع « الأول » للمعرفة ، وكل ما فى العالم من أطوار وتغيرات ، تقتضى - وجود محرك أصلى هو نفسه غير قابل للتحرك ، وهنا يقدم « أرسطو » الدليل على وجود الله . على أن « المحرك الأصلى » يعمل بقصد حكيم عاقل ، فالله إذا ليس البداية فقط ، بل هو النهاية أيضاً ، التى يتجه إليها تطور العالم والإنسان مركب لا من الجسد والنفس « الحساسة » الحيوانية وحسب - بل فيه - أيضاً شعاعة إلهية ، يشترك فيها مع الله وهى خالدة - وعن الأخلاق ، ذهب « أرسطو » إلى أن السعادة ، أو الخير ، هو الهدف الذى لن نبغىه إلا بتوطيد الأساليب الذهبية .

ولم تتطور الفلسفة اليونانية علمياً تطوراً كبيراً بعد « أفلاطون » ولم يكن لها فى عصر المسيح إلا نفوذ ضئيل ، ولكن بعد مولد المسيح بقرنين ونصف من الزمن ، نهضت أفلاطونية معدلة ، عرفت فى عالم

الفلسفة بالأفلاطونية الحديثة ، كان لها أعمق الأثر في علم اللاهوت المسيحي ، وخاصة في آراء القديس « أوغسطينوس » . وكان أولئك الفلاسفة الأقدمون ، قد حللوا الإنسان من حيث علاقته بالدولة وقدره فيها . على أن فتوحات « الاسكندر الأكبر » — المتوفى سنة ٣٢٣ ق. م ، قد أدخلت تغييراً كبيراً في وجهة نظر الناس ، وكانت الثقافة اليونانية قد امتدت جذورها إلى عالم الشرق ، وكانت الدول اليونانية الصغرى قد تهاوت وفقدت استقلالها السياسى ووحدةها القومية ، ولم يكن ميسوراً أن تحتفظ الوحدات السياسية الشاسعة المتناثرة في أرجاء الشرق ، بذلك الولاء الذى أغدقه المواطنون على أثينا مثلاً في عهدها الأول ، وهنا انجبه الاهتمام إلى الفرد كوحدة مستقلة لها قدرها وكيانها ، وكان فرضاً على الفلسفة أن تشرح نظرياتها في مصطلحات الحياة الفردية ، فكيف يستطيع الفرد أن يرقى إلى أفضل مقام له .

لهذا السؤال قدمت الفلسفة اجابتين ، إحداهما كانت غريبة كل الغرابة عن فكر المسيحية ، والأخرى غريبة إلى حد ما ، ولذلك قدر لها أن تؤثر تأثيراً بليغاً في علم اللاهوت المسيحي . ونعنى بها الأبيقورية والرواقية .

أبيقور (٣٤٢ — ٢٧٠ ق. م) قضى معظم حياته في أثينا ، وقد علم أن الغبطة العظيمة أسمى هدف للإنسان ، ولن تبلغ هذه الحالة حد الكمال إلا في وضع سلبي ، يتجرد فيه الإنسان من كل ما يعكر صفاءه أو ينغص عيشه . وقال إن الد أعداء السعادة العظيمة مخاوف لا أساس لها ، أهمها الخوف من غضب الآلهة ومن الموت ، وكلاهما لا يسندهما واقع . فالآلهة موجودة ولكنها لم تخلق العالم ولا تسيطر عليه ، هذا العالم الذى — أوجدته الصدفة

ومجموعات من الذرات القائمة منذ الأزل ، والمتغيرة دائماً وكل الأشياء مادية حتى نفس الانسان ، والآله ذاتها ، أما الموت فهو نهاية كل الأشياء . ولكنه ليس شراً ، إذ لا يبقى بعده شيء من الأحساس أو الإدراك ، فالأبيقورية من حيث هي دين ، قامت على اللامبالاة وعدم الاكتراث ، شعارها لتأكل ونشرب فغدا نموت . وقد انتشرت هذه المدرسة وتغنى بعض شعراء الرومان بما حوته من جوانب مقبولة ، على أن هذه الفلسفة كنظام كانت هدامة ، وهدفت إلى سعادة شهوانية جسدية .

أما الإجابة الثانية العظمى فهي الرواقية وهي أرقى نموذج للفكر الأخلاقي الوثني القديم ، تقرب من المسيحية في بعض معانيها ، وتبتعد عنها في أخرى بعدا كبيراً ، وكان مؤسسها « زينو » (٢٠٧ ق . م) وغيره من الفلاسفة . ولئن تكن هذه الفلسفة قد ترعرعت في أثينا ، إلا أنها ازدهرت في بقاع أخرى خارج اليونان ، وخاصة في رومية ، حيث اعتنقها الفيلسوف « سينيكا » ، و « ابكتيتوس » والامبراطور « ماركوس أوريليوس » وعلا شأنها في طرسوس في بكور حياة الرسول « بولس » ، وكانت الرواقية نظاماً أخلاقياً عظيم الشأن قبل أن تكون ديناً ، وكانت فكرتها عن الكون مادية محض ، فالحقيقى هو الجسمانى المادى ، على أن هناك فارقا بين الأجسام الخشنة والأجسام الرقيقة ، والفرق بين الخشونة والرقّة ، يماثل الفرق ، بين المادة والروح . ويتخلل العالم كله نفس عاقلة وعقل ساكن فيه — هو « الكلمة » وما عقلنا إلا جزء منه — وهذا العقل هو الله ، حياة كل شيء وهو فى داخلنا حقاً . ولذا نقدر أن « نتبع الله فى داخلنا » وفى هذا المعنى نحسب نحن أيضاً ذريته ، وما الآلهة الشعبية المعروفة إلا مجرد أسماء للقوى التى تتبعث من الله .

ومادام في العالم حكمة واحدة ، فلا بد أن يكون هناك تاموس طبيعي
واحد ، ونموذج للأخلاق واحد لكل الناس ، وكل الناس أحرار أدبيا ،
ومادام الكل من الله فكل الناس إخوة ، والفوارق في الحياة عرضية ،
وأسمى واجب الحياة أن يتبع الإنسان العقل في المكان الذي يوجد فيه ، وفي
هذا هو جدير بالثناء والمديح ، وأمباطورا كان أو عبدا . والسعادة ليست
هدفا عادلا ، وإن يكن القيام بالواجب يخلق نوعا من السعادة كنتاج ثانوي .
والد أعداء الطاعة الكاملة هي الميول والشهوات التي تسلب الإنسان
صحة الحكم على الأشياء ، وهي التي يجب نبذها والعدول عنها ، والله هو
الذي يلهم كل الأعمال الصالحة . على أن الفكرة عن الله في هذه الفلسفة ،
هي حلولية بالضرورة .

إن موقف التقشف الصارم في الرواقية ، وعقيدتها في الحكمة الالهية
التي تخللت كل الأشياء وسادت كل الأشياء « الكلمة » Logos
وإصرارها على أن كل صانع للخير مقبول ، مهما يكن قدره ومكانته ،
وتأكيدا أخوة البشر - هذه كلها قد أثرت تأثيرا عميقا في علم اللاهوت
المسيحي . ففي المستويات العليا كانت عقائدها ونتائجها نبيلة ، ولكنها اتسمت
بالقسوة وضيق الأفق ، وانعدام العطف ، وكانت وقفا على الأقلية -
أما الأكثرون فلا سبيل لهم إلى مستوياتها . أما روحها فقد شح منها الكبرياء ،
بينما اتصفت المسيحية بالوداعة والتواضع ... ومهما يكن من أمر ، لم تعد
هذه الفلسفة دينيا شعبيا بين الرومان ، وإن تكن قد أدخلت إلى القانون
الروماني والفقه الروماني كثيرا من المبادئ السامية ، ورفعت من شأن
العبيد بفضل عقيدتها في مساواة بني الإنسان .

وعلى الرغم من هذا كله ، فإن الإنسان يفتقر إلى دين أعمق من الفلسفة
ونظرياتها ومطارحاتها وممارساتها . والفلسفة الرواقية المهذبة ، أعوزها

عنصران ، أولهما اليقين الذى لا ينبعث إلا من وحى إلهى ، والثانى الاخلاص والولاء لشخص هو المثل الأعلى ، وهو ما قدمته المسيحية لهذا العالم المتفلسف .

اليهود

قدر للشعب العبرانى أن توكل إليه رسالة الهية يذيعها للملأ عن الدين الحق ، وقد أعلنت لهم تدريجياً فى بدء تاريخهم رسالة خاصة ، وأوصوا أن يحرصوا على نقاوتها حتى يسلموها « فى ملء الزمن » إلى التاريخ شهادة ناطقة على محبة الله للبشرية ، وقد تنكر ذلك الشعب فى مناسبات كثيرة لهذه الوكالة النبيلة ، وعصى واستكبر ، وحاد عن الصراط المستقيم ، ومع ذلك تمت الرسالة ، وقبلتها قلة مختارة منهم ، ونبذها الأكثرون وكانوا من الضالين .

ولا نكران أن اليهود قد أعدوا مهد المسيحية ، والأوساط الملائمة لمولدها ونماؤها عند بزوغ فجرها . فهم الذين أعدوا الحياة الدينية التى عاشها ربنا « يسوع المسيح » نفسه ، وأوائل المسيحيين وبينهم الرسل الدعاة والبشرون . ولسنا نجد فى العالم حياة دينية كانت تصلح لهذا الغرض فى غير اليهودية التى نبع منها الأتقياء والأخيار الذين حملوا لواء الدعوة فى أول العهد . ومن الخواص التى تميزت بها أسمى فكرة عن الله عرفها البشر فى العهد القديم ، وأسمى نموذج للحياة الأخلاقية التى نبعت من تلك الفكرة والذين تدربوا وتروضوا فى ذلك الدين القديم كانوا أجدر الناس لفهم الدين الجديد ونشر دعوته . وكلما أصبنا حظاً وافراً فى دراسة حياة اليونان والرومان فى ذلك العصر ، أحسنا باستحالة العثور بينهم على قوم من البشر ، كانوا يصلحون أن يكونوا تلاميذ ورسلاً أمثال « بولس » مثلاً .

ثم إن اليهود مهدوا الطريق للمسيحية ، لأنهم كانوا جنساً ترقب بفارغ الصبر ما جاءت به المسيحية ، ألا وهو المخلص الالهى للبشرية ، وأعز الآمال المحبة التى انطوت عليها جوانحهم ، ذلك الرجاء فى مجيء « المسيا » المنتظر ولا جدال أن أكثرهم توقعوا هذا الرجاء فى أوضاع عالمية دنيوية ، تعيد إليهم مجدهم التليد ، وتذك أعداءهم وغاصبيهم تحت مواطئ أقدامهم ، ولكن حسبهم ذلك التوقع الحار فى مجيء واحد يبعثه الله ليفتدى شعبه . وقد وجدت المسيحية باكورة أنصارها والمؤمنين بها من بين ذلك الشعب ممن تأهبوا لاستقبال هذا المخلص الالهى .

وقد أعد اليهود للمسيحية مجموعة رائعة من الأسفار المقدسة ، وهى العهد القديم من كتابنا المقدس ، المكتنز فيه إعلان الله عن ذاته فى حياتهم القومية . وبهذه الوسيلة تزود الدين الجديد فى نشأته بمجموعة من الآداب الدينية لا مثيل لها بين الجماعات الأخرى ، والتى جاءت مصداقا لتعاليم المسيحية وظلالا للمسيح . وقبل أن يتوافر الوقت للمسيحية لى تنتج أسفارها ، وجدت بين يديها كتابات كانت لها عوناً قويا . وما انفك « يسوع » نفسه عن اللجوء للعهد القديم ، لاسناد حياته وتعاليمه ، وحذا حذوه أتباعه الأقربون من بعده فكانت تقرأ أسفار العهد القديم فى مجتمعاتهم وعبادتهم ، وفيها وجدوا الوحي والالهام .

ولا مناص من كلمة عن الدور الهام الذى لعبه يهود الشتات فى الإعداد للمسيحية ، وأقصد بذلك الجماعات اليهودية التى بعثتها الاضطهادات وعوامل التسيب : فاتخذت ملاجئها فى كل مدائن العالم اليونانى - الرومانى . ففى كل من هذه المدائن حرصوا على دينهم ، وأقاموا العبادات فى مجامعهم ، وقاموا بنشر الدعوة فى كثير من البقاع ، فكسبوا أعداداً غفيرة من الدخلاء من الأمم . وكان هؤلاء بدورهم النواة الصالحة لنشر المسيحية

فيما بعد . وذلك لأنه كان في عناصر دينهم اليهودي الذي آمنوا به عناصر مشتركة مع المسيحية ، مثل وحدانية الله ، وسمو الناموس الأدبي ، الذي اعتزت به اليهودية والمسيحية على السواء ، وأهم من هذا وذاك توقع مجيء مخلص ينقذ العالم — وكان هذا الرجاء قد اختمر في قلوب الوثنيين فهرعوا إلى المسيحية عند مجيء المسيح .

الأحوال الدينية

عند بزوغ فجر المسيحية كانت آلهة والاهات اليونان والرومان ، التي تحدثت عنها الأقاصيص والأساطير قد فقدت حيويتها ، وسقطت من عروشها ، ولم تبق حولها إلا الطقوس الجافة والممارسات الفارغة ، وانفض عنها المثقفون ، وأهملها عامة الشعب . ولنا لئري « أوغسطوس » العاهل الروماني ، الذي تربع فوق عرش رومية يوم ولد المسيح ، يضطرب ويجزع وهو يشهد انحلال الدين القديم ، ويبدل الجهود الجبارة لإحياء هذا الدين ، فأدخل عبادة الدولة الرومانية ، التي تطورت فيما بعد إلى عبادة الامبراطور ذاته . على أن هذا الدين كان سياسيا شعاره الولاء للحكومة . ولم يكن عملا دينيا ، ونظر المسيحيون الأولون إلى هذه العبادة كأنها خيانة لولاثهم للمسيح ، وعبر « يوحنا » في رؤياه عن هذا الأحساس (رؤيا ٢ : ١٣) ، ومن ناحية أخرى ، نظرت الدولة إلى موقف المسيحيين كأنه خيانة للوطن ، وهنا تثور الاضطهادات فلاستشهاد .

ومع ذلك لم يكن ذلك العصر بلادين كما نطن لأول وهلة ، فن الشرق زحفت أديان غريبة واكتسحت في أمواج متتابعة العالم المتحضر ، واكتسبت لها أنصارا ومؤمنين . ومما ساعد على ذلك سهولة المواصلات.

وتدفق جماهير غفيرة من العبيد الشرقيين إلى الجزء الغربي من العالم الروماني .

ومال كثير ممن استبد بهم الشوق للدين ، إلى هذه الأديان الشرقية التي كان من أهم مظاهرها: الفداء والسرية والتصوف . وكان من آثار هذه الأديان - وكانت في تنافس مع المسيحية خلال القرون الثلاثة الأولى - تعمق الأحساس الديني في تلك الفترة ، وكان طبيعياً أن تنتصر المسيحية في نهاية الأمر .

الأديان الشرقية :

ومن أهم تلك الأديان الشرقية دين الأم الكبرى (سيبيل) الذي نشأ في آسيا الصغرى ، وعبادة ايزيس وسرابيس في مصر ، ودين ميثرا في بلاد فارس . أما دين الأم الكبرى فكان عبادة بدائية للطبيعة ذات طقوس إباحية ، وقد جاء إلى رومية سنة ٢٠٤ ق.م ، وكان أول الأديان الشرقية التي رسخت أقدامها في العالم الروماني . أما دين ايزيس وسرابيس ، بما انطوى عليه من التشدد في التجديد وحياة المستقبل ، فقد تأصلت جذوره في رومية سنة ٨٠ ق.م ، وكان عليه قبل ذلك أن يلقي مقاومة عنيفة من الحكومة ، أما دين ميثرا فهو أنبل هذه الأديان ، وكان له ماض عريق في الشرق ، ولكنه لم يستقر في رومية إلا حوالي سنة ١٠٠ ب.م. ولم ينتشر إلا في الحقبة الأخيرة من القرن الثاني وخلال القرن الثالث ، مفضلاً ومقبولاً بين رجال الجيش . وبعد تطوره في الامبراطورية الرومانية ، اقترن هذا الدين بعبادة الشمس ، وكانت نظراته في الكون ثنائية شأن كل الأديان الفارسية ، أي وجود قوتين في الكون ، إحداهما للخير والأخرى للشر .

وتلك الأديان الشرقية التي اتخذت في أشكالها المختلفة نماذج الأسرار اليونانية القديمة ، جذبت إليها الكثيرين ، وجرت تلك الأسرار في حفلات منظمة منسقة تمثل في أوضاع تمثيلية الرغبة في التطهر من الخطيئة ، والرجاء في الخلود والغبطة في شركة دينية .

لهذا يصح القول أن العصر الذي كسبت فيه المسيحية انتصاراتها كان عصرا دينيا ، بمعنى أنه كان تواقا إلى معرفة أشكال مختلفة من الدين ، وإلى السعي للوقوف على ما هو أحسن وأفضل .. ولم يكن عصرا دينيا بمعنى الاكتفاء بدين واحد تطمئن له النفوس وتقر به العيون . كان العالم اليوناني الروماني مشبعا بحنين روحى ، خائر ، لم يستقر على حال من القلق . ويمكن القول إجمالا إنه قبيل مجئ المسيحية ، ساد المزاج الدينى العام أشياء ثلاثة : عقيدة نامية قوامها الإيمان بإله عالمى واحد ، ورغبة عارمة في التطهر من الخطيئة ، وتوق جارف لمعرفة ما يجئ بعد الموت .

الأحوال الأخلاقية

من مشاهد التاريخ التي ألفناها ، أن يصور الكتاب الحالة الأخلاقية في العالم المتحضر في خلال العصر المسيحي الأول ، بألوان قائمة السواد كأنه لم يكن في العالم شئ من الخير والصلاح ، ولسنا نجد ما يبرر هذه الفكرة من واقع بعض البيانات التي دونها التاريخ ، ولعل هذا كان مرده إلى تلك الكتابات الساخرة التي صنفها الناقدون ، وكشفوا فيها فضائح ورذائل وموبقات الطبقة الأرستقراطية . وليس من شك أن الطبقات العليا في مجتمع ذلك العصر ، كانت فاسدة عفنة . . ولكن بين الطبقات الوسطى والدنيا ، كان أناس— رجالا ونساء— تحلوا بفضائل الأخلاق والحياة الكريمة النبيلة .

ولكن بعد أن نستجمع كل الأدلة - الإيجابية والسلبية - نرانا أمام صورة حالكة فعلا . فقد كان العصر منزلقاً إلى هاوية الانحلال ، وكانت عقول الناس حائرة تتقاذفها الشكوك والالوهام ، ولم تتمكن الأديان القائمة والفلسفات السائدة من التسلط على مجريات الحياة الإنسانية ، فكانت النتيجة انحطاط المثل العليا والقيم الأخلاقية ، وكان بين الناس وفرة من النجاسة والبطر والقسوة والانانية ، مما لم نعهده في العالم المسيحي ، ولم تكن هناك قوة تمسك بزمام الأخلاق قبل السيطرة المسيحية ، وكان الميل العام في المجتمع يتجه الى الدني والانزلاق - إلى أسفل .

أجل ، كنت تحس عند بزوغ فجر المسيحية بذلك المزاج المتعب المنهوك ، والفراغ الممل المكمد ، يسيطر على الكثيرين ، وخاصة خيرة المفكرين . كان عالماً اكتنفته ظلمة اليأس والفساد . وفي مثل هذا العالم أشرق نور الفجر ، وشق سدفة الظلام يوم حمل دعاة المسيحية الأولون بشارة الخلاص الطيبة .



المفتدين

٢

العصر الرسولى

[يوحنا المعمدان - نشأة يسوع - ملكوت الله - الجماعة
المسيحية الفلسطينية - الشهيد الأول - بولس والمسيحية
الوثنية - بولس] .

يوحنا المعمدان :

كان يوحنا المعمدان ممهد الطريق ليسوع ، وهو الذى تقدم ليعلم
مجئ المسيا الذى توقعته الأجيال . وكان زاهدا متقشفا نادى برسالته فى
منطقة الأردن ، منذراً قومه باقتراب يوم دينونة شعب إسرائيل ، وحلول
عصر المسيا . وقد احتقر الشكليات فى الدين ، وسفه اعتماد الشعب على
تحدريهم من سلالة إبراهيم ، وبروح قدامى الأنبياء ، دعا الشعب إلى التوبة
والاعتصام بالحق والعدل ، وقد عمد تلاميذه رمزاً إلى غسلهم من خطاياهم .
وقد حسبه يسوع خاتمة النبيين ، ومن أعظم رجال النبوة ، ولئن يكن
كثيرون من أتباعه ومريديه صاروا فيما بعد من أتباع يسوع ، إلا أن بعضهم
قد بقى على عهدهم له ، ووجد نفر منهم فى أفسس فى تاريخ متأخر فى
عصر الرسول بولس (أعمال ١٩ : ١ - ٤) .

نشأة يسوع :

أما يسوع نفسه ، فقد تربى فى ناصرة الجليل ، فى وسط ريفى ، وفى

(١) سنعالج هذا الباب فى ايجاز ، ومن يرغب فى الاسهاب فليرجع الى مؤلفاتنا الثلاثة سماة
يسوع وسيرة رسول الجهاد وعشرون قرناً فى موكب التاريخ

بيت نجار . ونظراً لامتزاج الأجناس في هذه المنطقة رمقها أقحاح سكان اليهودية بنظرة الاحتقار ، على أنهم كانوا أمناء مخلصين للدين العبرى وتقاليده ، ومن تشبعوا برجاء المسيا . في هذا الوسط تربى يسوع وبلغ طور الرجولة ، وقد صمت التاريخ عن ذكر شيء عن حياته ، والتاريخ لا يعبأ عادة إلا بالزعماء والقواد والفاحين ، وحسبنا قولة الانجيل بأنه كان ينمو في الحكمة والقامة ووجد فضلاً عند الله والناس .

وفي هذه الحياة الوادعة الهادئة ، جذبته مناداة يوحنا المعمدان ، فانطلق إليه ، واعتمد على يديه ، ومن خلال هذه لمعمودية أحس أنه المسيا الموعود به وأنه مختار العلى والمؤسس الذى عينته السماء للملكوت الالهى - وفي صراع مع تجاربه في تأويل رسالته ، أبى كل الإباء أن يتخذ الأساليب السياسية والأنانية لتحقيق رسالته ، وأيقن الإيقان كله ، أن رسالته سماوية وأن ملكوته هو ملك السماء وتوا بدأ ينادى بهذا الملكوت ، ويشفى المرضى والمدنفين ، ويشبع الجياع ، ويواسى الحزانى والمتألمين ، فالتف حوله جمع غفير . وقد جمع حوله نفراً من أقرب المقربين اليه - الرسل الاثني عشر ومعهم فئة أخرى أكبر من أتباعه وأنصاره قوامها سبعون رجلاً . وقد استمرت خدمته قرابة ثلاث سنوات ، وحين اتضحت طبيعة رسالته الروحية وعداؤه للفريسية الضيقة المرائية ، برزت مقاومته والنيل منه ، حتى لقد هجره كثيرون من أتباعه الأولين ، وبعد الجليل انطلق إلى صور وصيدا ، ثم إلى إقليم قيصرية فيلبى ، حيث لقي اعترافاً من تلاميذه بأنه هو المسيا المنتظر وهؤلاء كان يدرّبهم ويروضهم طيلة الوقت ، ليعدهم لحمل رسالته من بعده .

وأخيراً أحس ، وهو عالم بما تخبئه له الايام من مخاطر ، أن ينطلق إلى اورشليم وثبت وجهه كالصوان ، إلى تلك المدينة الظالمة ، وهناك ألقى

القبض عليه ، وحكم عليه بالصلب في عهد « بيلاطس البنطي » (٢٦ - ٣٦ ب . م) في سنة ٣٠ ب . م على أرجح الأقوال . وفي أثر ذلك تفرق تلاميذه خائفين مذعورين ، ولكن جمعوا شملهم بعد أن أيقنوا أن سيدهم حي ، وأنه قام من الأموات . هذه قصة مقتضبة أوجزناها ، لأعظم حياة عرفتها البشرية ، فصلناها في كتابنا « حياة يسوع »

ملكوت الله

ولما شرع « يسوع » في دعوة الناس إلى تعاليمه ، بدأ بما كان مألوفاً في اليهودية المعاصرة ، ونعني بذلك : ملكوت الله ، ومجيئ المسيا . وقد كان الملكوت الذي علم به روحياً - لا مكانياً كما توقع اليهود - وشمل أبناء الإنسانية قاطبة لا الشعب المختار فقط كما زعموا - وهو الذي قال إن كثيرين يأتون من المشرق والمغرب ومن الشمال والجنوب (لوقا ١٣ : ٢٩) ولكن هذا الملكوت نزع منه اليهود الجاحدون ، لأنهم أعطوا ملكاً ولم يحسنوا سياسته وقد حسب نفسه صديقاً لأبناء وبنات هذا الملكوت ، الذين استكبر عليهم الفريسيون وحرموهم ميراثهم فيه ، وهم المنبوذون ، والعشارون ، والزناة ، والفقراء ، وتوبة هؤلاء كان لها قدرها وقيمتها في نظر الله .

وينطوي ملكوت الله ، حسب تعليم يسوع - على الاعتراف بسلطان الله وأبوته - فنحن أبناءه ، لذلك علينا أن نحب الله والقريب أي الجار والأخ في الإنسانية . ثم علينا أن نتوب عن خطايانا ، وذكرها يكون محزناً لنا . وموقف الندم والحزن يعقبه حتماً الغفران الإلهي (لوقا ١ : ٢٥ - ٢٧) . أما المستوى الأخلاقى لهذا الملكوت ، فهو أسمى ما عرفه البشر : « كونوا كاملين كما أن أباكم الذي في السماء هو كامل » (متى ٥ : ٤٢) . أما

هذا المستوى فنطو على أقصى صنوف التشدد مع النفس ، وأكرم أنواع الغفران للآخرين ، شرط مسبق لغفران الله لنا (مرقس ١١ : ٢٥) . وقد أعلن المسيح أن له سلطاناً على غفران الخطايا ، ومن أقواله وتعاليمه ، نستشف لاهوته وناسوته وهذا سر شخصيته التي قد لا تدركها الأفهام ، ولكن الكنيسة اجتهدت طوال العصور ، في اكتناه هذا السر العميق ، وقد عرفته بالاختبار ، وكان هذا أيسر من اجتهادات العقل .

وقد استعاض عن الدين الطقسي الشكلي الذي مارسه اليهود في عصره ، بتقوى النفس التي تتمثل قبل كل شيء في محبة الله « الآب » ، والقريب الأخ - محبة تنبع من القلب ، ويترجمها الاحساس الداخلي أعمالاً ظاهرة للعيان ، وأعلن صراحة أن أقوى باعث في الحياة هو الولاء لشخصه ، مظهراً للآب في السماء ، ونموذجاً للإنسانية المفتداة ، والأخ الأكبر ، وملك ملكوت الله ، ومن تعاليمه الراسخة التي اقتنع بها تلاميذه ، أن موته ليس خاتمة حياته ، بل هو مقدمة لقيامة مجيدة ، وصعود إلى السماء ، وكانت هذه العقيدة مبعث تشجيع للتلاميذ ، فأحالتهم شهوداً جبابرة بعد أن كانوا ضعافاً ناكسين على أعقابهم ، وذلك بعد أن رأوا رجاء المسيا يتحقق بمعنى روحى لم تتوقعه اليهودية ، ولم يخطر لها ببال ، مسيا عاش حقاً ، ومات ، وقام لخلاصهم ، ثم صعد إلى العرش ليكون معهم أبداً الدهر .

وقد تعمقت هذه العقيدة باختبارات يوم الخمسين . ولا يسمح المقام بشرح أحداث ذلك اليوم ، ولكن حسبنا القول أن تلك المظاهر الروحية التي تبدت يوم الخمسين ، إنما كانت دليلاً منظوراً ومسموعاً على هبة المسيح وقوته . وقد يقال أن ذلك اليوم كان مولد الكنيسة ، على أن الأصح أن يقال أن الكنيسة بدأت بشركة المسيح مع تلاميذه .

الجماعة المسيحية الفلسطينية :

نمت الجماعة المسيحية في أورشليم نمواً سريعاً ، وانضم تحت لوائها يهود ممن عاشوا في الشتات ، ومن مواطني الجليل واليهودية ، بل بعض الكهنة العبرانيين . ومن أول الأمر ، أطلقوا لقب « كنيسة » على جماعتهم ، وقد استنبطوا هذه التسمية من الترجمة السبعينية للعهد القديم ، حيث استعملت اللفظة للدلالة على شعب إسرائيل كله كجماعة مدعوة من الله . من ثم كان ملائماً جداً ، أن يطلق هذا الاسم على إسرائيل الحقيقي ، شعب الله الحقيقي ، وقد أحس المسيحيون الأولون بأنهم كذلك . وأخلصت جماعة أورشليم الأولى لعبادة الهيكل ، ولكن كانوا يقيمون فيما بينهم عبادات خاصة يومية في بيوتهم (أعمال ٢ : ١٦) ، تضمنت الصلاة والنصائح المتبادلة ، وكسر الخبز ، واستهدفت ممارسة كسر الخبز غرضين : كانت رابطة الشركة ووسيلة لإعانة المعوزين . وكانت فكرة توقع مجيء ربهم سريعاً ، باعثاً للقادرين منهم على إعالة ذوى الفاقة ، « وكان كل شيء بينهم مشتركاً » (أعمال ٢ : ٤٤) وكانت ممارسة « كسر الخبز » استمراراً وتذكراً للعشاء الأخير ، الذي تناوله الرب مع تلاميذه قبيل صليبه ، ومن هنا يصبح القول أن هذا الاجراء اقترن من أول الأمر بمعنى سرى عميق الأغوار .

أما نظام الكنيسة فكان بسيطاً ، تولى « بطرس » في أول الأمر زعامة الجماعة في أورشليم ومعه « يوحنا » . ولما دعت الحاجة عينت الكنيسة ، لجنة من سبعة أشخاص لتوزيع الاعانات على المعوزين ، وهنا نشأت فكرة تعيين الشماسة في تاريخ الكنيسة . وفي تاريخ متأخر ذكر اسم « الشيوخ » ، ولا يمكن الجزم أكان أولئك الاعضاء المتقدمين في السن أم موظفين معينين على نسق رؤساء المجمع اليهودي ، وكانت التوبة عن الخطايا

السالفة والاعتراف بالمسيح رباً ومخلصاً إيماناً بالقبول في عضوية الجماعة ،
يعقبها المعمودية باسم المسيح علامة على التطهير من الخطيئة ، ورمزا الى
علاقة جديدة بالمسيح . والتمتع بالهبات الروحية (أعمال ٢ : ٣٧) .

الشهيد الأول :

وقد أحنقت هذه الدعوة الجديدة اليهود اليونانيين ، فثاروا على الشهيد
لمسيحي الأول « استفانوس » وقتلوه رجماً بالحجارة . وفي أثر هذا ،
هجر المدينة فريق من المسيحيين ، وكانت هذه الهجرة با كورة غرس بذار المسيحية
في اليهودية والسامرة ، وفي رقاع نائية مثل قيصرية ، ودمشق ، وانطاكية
وجزيرة قبرص . وانطلق الرسل الأولون الى نواح أخرى ، ولم يحدثنا
التاريخ عنهم حديثاً واقعياً ، ولكن التقاليد تقول إن « متى » ذهب الى بلاد
العرب ، و « مرقس » الى الاسكندرية ، و « يعقوب » الى أسبانيا ، وأسرة
« لعازر » الى بلاد الغال (فرنسا) و « يوسف الرامي » الى انكلترا ،
وقوماً الى بلاد الهند ، و « يهوذا » الى سوريا وبلاد فارس ، والآخرون الى
ما بين النهرين وآسيا . ودام الهدوء النسبي الذي أعقب استشهاد « استفانوس »
فترة من الزمن ، عانت بعدها كنيسة أورشليم أخطارا أقسى وأمر حوالى
سنة ٤١ م ، أثار عجاجه هذه المرة « هيرودس أغريباس الأول » ، الذي
كان والياً من سنة ٤١ م الى سنة ٤٤ م) على المناطق التي حكمها أبوه
« هيرودس الكبير » . . . وقد زج بطرس في غيابة السجن ، ولكنه أنقذ
بطريقة معجزية ، وقطع رأس « يعقوب » الرسول ، وانتقلت زعامة
الكنيسة الى « يعقوب أخى الرب » الذي كان صاحب الكلمة العليا
حتى قبل شغله منصب الزعامة (غلاطيه ١ : ١٩ و ٢ : ٩ و أعمال ٢١ :
١٨) ، وقد بقي في هذا المنصب حتى استشهد حوالى سنة ٦٣ م — ويصلح

القول إنه كان بمثابة الأسقف الأول لهذه الكنيسة الناشئة ، ولو أن لقب (الأسقف) لم يطلق إيان حياته . وحين نفكر في تسلسل الزعامات الدينية بين الشعوب السامية ، يبدو لنا أن القوم أعاروا اهتماماً إلى علاقة الزعيم بمؤسس الدين ، وهنا نلاحظ نوعاً بدائياً من « الخلافة » ، وذلك لأن زعامة كنيسة أورشليم بعد « يعقوب » انتقلت إلى « سمعان » ، وهو من ذوى قرابة « يسوع » ، ولو أن اختياره لم يتم إلا بعد استيلاء « تيطس » الروماني على المدينة سنة ٧٠ م .

حزبان في الكنيسة :

وفي عهد زعامة « يعقوب » ، كان في كنيسة أورشليم حزبان اتفق كلاهما على سريان الشريعة الموسوية القديمة على المسيحيين من جنس اليهود - ولكنهما اختلفا في سريانها على المتنصرين من الوثنيين - وذهب أحد الجناحين إلى أن يكون سريان الشريعة عاماً شاملاً ، أما الجناح الآخر ، وكان ممثله « يعقوب » - نفسه ، فقد رأى أن يمنح الحرية للمسيحيين من أبناء الوثنية من أعباء الناموس الموسوى ، ولو أنهم لم يرحبوا بفكرة اندماج متنصرى اليهودية والوثنية في مائدة واحدة ، وقد كان « بطرس » من أنصار هذا الرأي ، على الأقل لفترة معينة (غلاطية ٢ : ١٣ - ١٦)

وقد كانت النكبة التى دمرت أورشليم سنة ٧٠ م ، وقضت على كيان أمة اليهود قضاء مبرماً بعد عصيانهم العنيد - مدمرة أيضاً للجماعات المسيحية في فلسطين ، ولو أن النكبة الأكبر ، والدمار الأشمل ، الذى قضى على آمال اليهود ، وقع في حرب الامبراطور « هادريان » من سنة ١٣٢ إلى ١٣٥ م - ولم يبق في فلسطين إلا أقلية مسيحية واهنة مبعثرة . وحتى قبل الاستيلاء الأول على المدينة سنة ٧٠ م ، كنت ترى جماعات مسيحية

ناهضة ناشطة في أجزاء أخرى من الامبراطورية الرومانية . ومع هذا احتفظت كنيسة اورشليم والجماعات الفلسطينية الملحقة بها ، بمقامها التاريخي كمنبع تفجرت منه المسيحية ، وموئل الذكريات الحبيبة المقدسة عن حياة « يسوع » وأعماله ، ولو أن تأثيرها كعامل في نشر الدعوة المسيحية ، وتطورها في التاريخ اللاحق كان ضئيلاً .

بولس والمسيحية الوثنية ^(١) :

قلنا إن الاضطهاد الذي أطاح برأس « استفانوس » ، نشأ عنه غرس بذور المسيحية فيما وراء فلسطين . فالدعاة الذين لم يدون التاريخ أسماءهم ، أذاعوا بشاراة الخلاص لمواطنيهم في كل مكان . وفي أنطاكية بالذات تأصلت عميقة جذور هذه الدعوة الجديدة . وكانت أنطاكية يومئذ عاصمة سورية ، مدينة من كبريات مدن الامبراطورية ، مركزاً تجارياً وثقافياً هاماً ، اجتمع فيه اليونان والسوريون واليهود . وهناك بثت الدعوة بين اليونانيين ، فانتشرت رسالة الانجيل بين المتنصرين من الامم — أى الوثنيين ، وهناك أطلق عليهم مواطنوهم لقب « مسيحيين » وهو لقب لم يستعمله أتباع المسيح أنفسهم ، إلا في القرن الثاني ، وإن يكن ذاع أولاً بين الوثنيين . ولم تكن أنطاكية أبعد مطاف للجهود المسيحية ، ففي سنة ٥١ أو ٥٢م — في عهد الامبراطور « كلوديوس » ، وقع اضطراب بين اليهود في رومية بسبب هذا الدين الجديد ، الذي كان قد أذاعه مرسلون مجهولون مما أيقظ اهتمام الحكومة بالأمر .

(١) هذه خلاصة وجيزة ومن أراد الاستزادة فليرجع إلى كتاب « سيرة رسول

الجهاد » للمؤلف ..

وكان من آثار اعتناق الوثنيين للمسيحية ، أن ثارت بطبيعة الحال مشكلة العلاقة بين هؤلاء الوافدين الغرباء ، وبين الناموس اليهودي ، الذي اعتصم به المتنصرون اليهود فإن فرضت أحكام الناموس على هؤلاء تسمى المسيحية مجرد طائفة من طوائف اليهودية ، وإن تقرر اعفاؤهم من قيود الناموس ، تغدو المسيحية ديناً جامعاً ، على حساب اليهودية الضيقة ، وقد أمكن حل هذه المشكلة الدقيقة ، على أساس سعة من الفكر ، وانطلاقة إلى الحرية ، وكان بطلها « الرسول بولس » .

« بولس » :

وكان « بولس » عبرانياً من عشيرة بنيامين ، وكان اسمه « شاول » ، وهذا الاسم كان لبطل العشيرة التي كان « بولس » أحد أفرادها ، ولد في مدينة طرسوس في كيليكية ، من سلالة فريسية ولكن أباه كان متمتعاً بالرعية اليونانية وكانت طرسوس يومئذ مركزاً ثقافياً مرموقاً ، نشطت فيها الفلسفة الرواقية وإذا قد تربى في بيت يهودي محافظ متزمت ، فلا تظن أنه تلقى ثقافة يونانية بمعناها الواسع ، وحتماً لم يكن يوناني النزعة والثقافة مثل فيلو الاسكندري مثلاً . على أن شاباً مثقفاً في مدينة كهذه ، لابد أن يكون قد تشبع بكثير من الآراء اليونانية ، وبالجو السياسي والديني في العالم الأكبر المحيط به خارجاً عن بيئته اليهودية المحافظة ، ومع ذلك فلا جدال في أنه قد نشأ على تقاليد أخبار اليهود . وكان يفكر في إعداد نفسه لكي ينخرط في سلك فقهاء الشريعة . يوم انتقل من بلدته ليدرس تحت إشراف غمالاتيل ، الشيخ اليهودي الدائع الصيت في أورشليم . وكان ولاؤه للنصرة الفريسية في أمته متطرفاً ومسلكه في الحياة على هذا المستوى الفريسي بلا عيب كما قال عن نفسه فيما بعد . على أنه بحكم إدراكه الروحي الرقيق أحس حتى وهو فريسي بشيء من القلق الداخلي . حين كان يفكر في مكتسباته الخلقية ، فالناموس لم يسعفه بالبر الداخلي ، وتلك كانت حالته به من اتصال بالمسيحية فإن لم يكن سمعاً بالمسما الحقيقة ، فقد نال

جزاءه الوفاق ومن العدل والحق أن يضطهد تلاميذه وأتباعه . أما ان اقتنع بأن يسوع هو مختار العلي ، فلا بد أن يخصه بكل الولاء ، وأن تبطل المقاومة الفريسية له بتدخل الهى .

ويصح القول أن تغيراً جذرياً طرأ على حياته ، ربما حوالى سنة ٣٥م وهو منطلق فى طريقه من أورشليم إلى دمشق ، يحمل رسالة للفتك بأتباع المسيحية ، وفى رؤيا فى رابعة النهار ، ظهر له المسيح فى الطريق ، يدعوهُ إلى خدمته ، وليس هنا مجال تحليل تلك الرؤيا وذلك الاختبار . وحسبنا القول أن حقيقتها لبولس ، وقوتها التى قلبت حياته رأساً على عقب ، ليست محل جدال أو نقاش ، فبعدها قد اقتنع بأن يسوع هو الحق ، وإلى هذا السيد الحديد ، قد وجه كل حياته وولائه وخدمته بحيث استطاع أن يقول فيما بعد أحيأ لا أنا بل المسيح يحيا فى (غلاطية ٢ : ٢٠) .

ولم يكن مناص من أن تترجم مثل هذه الشخصية المتوقدة تجديدها إلى عمل وجهاد . وهو لم يذكر شيئاً عن السنوات القلال التى تلت هذا الاختبار إلا انطلاقه إلى العربية ربما الصحراء جنوب دمشق — ليخلو هناك مع نفسه ومع ربه ، وبعد سنوات ثلاث من اهتدائه قام بزيارة خاطفة إلى أورشليم حيث التقى هناك — ببطرس ويعقوب أخى الرب ، ثم جاهد فى سوريا وكيلىكية بضعة سنوات تعرض فيها للخطر والألم والضعف الجسمانى . ولم تذكر رسائله إلا القليل عن هذه الخدمة ، ولكن حدث بعد ذلك أن استدعاه «برنابا» من طرسوس إلى أنطاكية .

وكان «برنابا» أحد الموفدين من أورشليم إلى أنطاكية — ربما فى سنة ٤٦م أو ٤٧م ، وكانت قد صارت مركزاً قوياً للدعوة المسيحية . وتحت الإرشاد لهما أوفدتهم الكنيسة فى أنطاكية فى رحلة تبشيرية إلى قبرص ومنها إلى

برجا وأنطاكية بيسيدية وأيقونية ولسترة ودربة وتلك التي عرفت بالرحلة الأولى^(١) التي جاء وصفها في الفصلين الثالث عشر والرابع عشر من سفر الأعمال. ولعل تلك الرحلة كانت من أروع وأنجح الجهود التبشيرية في تاريخ الكنيسة. وذلك لأنها أنتجت تأسيس مجموعة من الجماعات المسيحية في آسيا الصغرى، التي خاطبها الرسول فيما بعد في رسالته إلى غلاطية، وانتشار الكنيسة في أنطاكية، وغرس البذار في الكنائس المختلطة في قبرص وغلاطية، خلق مشكلة العلاقة بين متنصري الوثنية وبين الناموس اليهودي الذي احتفظ به مسيحيو أورشليم. وقد اضطربت كنيسة أنطاكية بالوافدين من أورشليم، الذين قالوا لهم: إن لم تختنوا حسب عادة موسى لا يمكنكم أن تخلصوا (أعمال ١٥: ١). وقد أراد «بولس» أن يقوم بتجربة، فأخذ معه «تيطس» وهو وثني متنصر، كمثال للمسيحية المتحررة من ثقل الشريعة اليهودية، وذهب إلى أورشليم مع «برنابا» لمقابلة زعماء الكنيسة هناك على انفراد، وقد تم لاتفاق بينه وبين «يعقوب» و«بطرس» و«يوحنا» على الاعتراف بسلامة وصحة عمل «بولس» بين الوثنيين وعلى تقسيم حقل العمل، على أن يجاهد زعماء الكنيسة في أورشليم بين اليهود مع الاحتفاظ بالشريعة طبعاً، وأن ينطلق «بولس وبرنابا» بالرسالة المتحررة بين الوثنيين (غلاطية ٢: ١). وكان الاتفاق مشرفاً للطرفين، ولكن لم يكن من الميسور تنفيذه كاملاً. فكيف تكون العلاقة في كنيسة مختلطة؟ وهل يقدر أن يأكل معاً اليهود المتزمتون في تناول الأطعمة مع متنصري المسيحية المتحررين من قيود الشريعة في المأكل والمشرب؟ وقد عرضت هذه.

(١) في كتاب المؤلف الذي عنوانه سيرة رسول الجهاد شرح وخرائط لهذه الرحلات ..

المشكلة على مجمع أورشليم وهو أول مجمع في تاريخ الكنيسة (غلاطية ٢ : ١٢ - ١٦ وأعمال ١٥ : ٦ - ٢٩) الذي وضع قواعد معينة أنقذت الكنيسة من الانقسام وهي بعد نبتة صغيرة .

ويعقب هذا السنوات القلال التي قضاها « بولس » في أهم رحلاته التبشيرية وهي الفترة التي كتب فيها رسائله التي أخصبت الفكر المسيحي ، ووضعت أركان العلوم اللاهوتية . ولذا يأخذ معه مسيحياً من أورشليم متمتعاً بالرعاية الرومانية يدعى « سيلا » يضطر للانفصال عن « برنابا » بسبب الخلاف معه في مشكلة الأكل ، وحول مسلك « مرقس » من أبناء عمومة « برنابا » (سفر الأعمال ١٥ : ٣٠ - ٤٠) ، وفي رحلة في إقليم غلاطية ، يصحب معه « تيموثاوس » مساعداً له . وحين تصدمه العقبات في آسيا الصغرى ، يرحل « بولس » وزملاؤه إلى مكدونية ، وهناك يؤسس الكنائس في فيلبي وتسالونيكي . أما في أثينا ، فيلقى لقاء فاتراً ولذا يقضى ثمانية عشر شهراً في عمل مفاح في كورنثوس (ربما حوالى سنة ٥١ - ٥٣ م) ، وحوالى هذه الفترة يطعن اليهود في غلاطية في سلطته الرسولية ، ومن كورنثوس يكتب إلى تلك الكنائس رسالته الماثورة ، يؤيد فيها صحة رسالته ، ويدافع عن حرية المسيحية من كافة قيود الشريعة اليهودية . وإلى أهل تسالونيكي أيضاً رسالته ، لعلاج صمماهم الخاصة لإبان الأضطهاد ومجيئ المسيح المنتظر .

وبعد ذلك يأخذ أكيلاً وبريسكلاً اللذين قبلتا زمالته في رحلته من كورنثوس إلى أفسس ، وهناك يتركهما ويقوم برحلة خاطفة إلى أورشليم وأنطاكية ، وعند عودته إلى أفسس حيث كانت قد غرست بذور المسيحية ، يقضى فيها ثلاث سنوات مجاهداً (ربما سنة ٥٣ - ٥٦) وقد واكبه التوفيق والفلاح

في خدمته التي اقترنت في الوقت عينه بكثير من المقاومة والمخاطر ، حتى .
لقد يش من حياته (٢ كورنثوس ١ : ٨) ، واضطر أخيراً أن يهرب .
طلباً في النجاة . وفي خلال مقامه في أفسس تراكتت عليه الهموم والغموم ،
بسبب الانحرافات الأخلاقية والمنازعات الحزبية ، ورفض سلطته في
كورنثوس . وقد دفعته هذه الأحوال إلى كتابة رسالته إلى أهل كورنثوس ،
بل إلى انتقاله من أفسس ليقم في كورنثوس ذاتها ثلاثة شهور ، وهناك .
عادت إليه سلطته الرسولية . وفي كورنثوس يكتب أعظم رسائله جميعاً ،
وهي الرسالة إلى رومية .

وطيلة الوقت لم يخامره شك في إمكان زوال القطيعة بين متنصرى
الوثنيين وشعب كنيسة أورشليم ، ويتحقق هذا الغرض وكتقدمة شكر من
جانب الأولين ، واعترافاً وتقديراً للكنيسة الأم ، جمع مال من المهتدين
من الوثنية لإعانة كنيسة أورشليم الفقيرة . وعلى الرغم من المخاطر ، انطلق
إلى أورشليم ، وهناك في أورشليم ألقى القبض عليه ، وسبق أسيراً مقيداً
إلى الحكومة الرومانية في قيصرية كشاغب ومكدر صفو الأمن ، وانقضت
سنتان ولم يصدر قرار فاصل في أمره ، فرفع استئنافاً إلى محكمة قيصر في
رومية . ثم قام برحلته الأخيرة في تاريخ جهاده إلى العاصمة الرومانية ، وفي
رومية عاش مخفوراً في منزله الذي اكتراه مدة سنتين — وفي خلال هذه
الفترة ، بعث برسالته إلى كنائسه الحبيبة إلى قلبه في أفسس ، وكولوسي ، وفيلبي ،
ثم رسائل وجيزة إلى فليمون وتيموثاوس (الثانية) ، ويقول بعض المؤرخين
إنه أطلق سراحه بعد هذا الحجز ، وقام برحلات أخرى ، ولكن آخرين
ينكرون هذه الواقعة . على أن أحداً منهم لا ينكر أنه استشهد بقطع رأسه ،
أثناء اضطهاد الطاغية « نيرون » سنة ٦٤ م كما سنرى فيما بعد .

كافح «بولس» كفاحاً مريراً مع بني جلدته من اليهود ، ومع المتزمتين من متنصري اليهودية ، لجعل المسيحية ديناً جامعاً متحرراً من قيود الشريعة اليهودية ، وقد أفلح في ذلك ، حتى قال بعض المعلقين إنه وازع أركان العلوم اللاهوتية المسيحية . وقد يكون هذا القول مبالغاً فيه ، وهو لم يدعيه لنفسه ولا نكران أن «بولس» أدخل على علم اللاهوت المسيحي ، الشيء الكثير من اليهودية واختبارات اليونانية ، ولا نكران أيضاً أنه قد حظى ببعد نظر دقيق حاد في فكر المسيح ، أكثر من سائر التلاميذ الأولين . يمكن القول إن «بولس» اللاهوتي ، يرسم للمسيح صورة تختلف نوعاً عن صورته في بشائر الإنجيل ، ولكن «بولس المسيحي» هو رسول الجهاد ، وصاحب الفضل الكبير في وضع أركان المسيحية الأولى .

[وعند هذا الحد نقف ، بعد الخلاصة الوجيزة عن نشأة الرسول ورحلاته ، اكتفاء بالسيرة المفصلة التي كتبناها عنه في قرابة ٤٠٠ صفحة ، نحت عنوان سيرة رسول الجهاد - أما لاهوتياته ، فلم أتعرض لها في هذا السفر التاريخي عن فجر المسيحية ، لأن لعلم اللاهوت أسفاره الخاصة به ، وكتابه الذين تخصصوا فيه] .

٣

خاتمة العصر الرسولي

لم يذكر التاريخ شيئاً عن مصير الرسل الأولين ، ويكاد يكون مؤكداً أن « بطرس » لم يكن في رومية يوم كتب « بولس » رسائله من هناك . ويذهب بعض ثقات العلماء ، أن « بطرس » لم يذهب إلى رومية إطلاقاً ، على أن الفكر السائد يؤيد أنه قضى هناك بعض الوقت على الأقل وأن إقامته هناك انتهت باستشهاده مصلوباً ، أثناء اضطهاد « نيرون » ، واستشهاده على هذا النحو وفي رومية بالذات ، يجعله مقروناً مدى العصور بالكنيسة الكاثوليكية ، وحمل باباوات رومية فيما بعد ، على الاعتقاد بأنهم خلفاء الرسول « بطرس » .

وكان الاضطهاد في عصر « نيرون » رهيباً بشعاً ، وإن يكن محلياً ، وسيجيء الحديث عن ذلك في فصول تالية . و على الرغم من قسوة هذا الاضطهاد المرير ، بقيت الكنيسة في رومية قوية مجاهدة . أما خراب أورشليم في الشرق إثر التمرد اليهودي سنة ٧٠م — فكان له أثر عميق في المسيحية ، وذلك لأنه قضى على الجماعات الفلسطينية ، وتضخم أعداد متنصري الوثنية ، من العوامل التي جعلت كفاح « بولس » للتخلص من اليهودية الناموسية الضيقة ، غير ذي موضوع ، وغدت أنطاكية ورومية وبعدها أفسس — أهم المراكز في تطور التاريخ المسيحي .

وكان المتنصرون في أوائل العهد من الطبقات الشعبية ، وإن وجد قلة من الموسرين — والطبقات العليا في المجتمع مثل ليديا في فليبي (أعمال ١٦ : ١٤) والقنصل « فلافيوس كليمنتي » وزوجته « فلافيا » دوثيلا في رومية ، وقد استشهد الزوج في عصر الامبراطور « دوميتيان » في سنة ٦٥ م ، ونفيت الزوجة من رومية ، وإلى الزوجة يرجع الفضل في انشاء أقدم السرايب المسيحية . ولم يذكر لنا التاريخ إلا القليل عن اضطهاد « دوميتيان » (٨١ - ٩٦ م) ، ولكن لا بد أنه كان عاتيا في رومية وآسيا الصغرى .

ومع أنه من اليسير جمع نتف من هنا وهناك عن هذه الفترة ، إلا أن الأربعين سنة من ٧٠ م إلى ١١٠ م ، تبقى أكثر فترات التاريخ المسيحي غموضاً وإبهاماً ، وهو أمر يؤسف له ، لأن هذه الفترة حفلت بكثير من معالم التغيير في الكنيسة نفسها ، ولأن — فيها برز كثيرون من دعاة المسيحية المجهولين بعد « بولس » ، وظهر كثير من الأفكار التي حملها بلا شك المتنصرون الوثنيون من مصادر غير مسيحية ، وخاصة حول العقائد والممارسات المسيحية ، مثل الأسرار ، والأصوام ، وأشكال العبادة ، ودستور الكنيسة نفسه خضع لبعض التعديلات .

ومن الأمثلة الدالة على مسيحية تلك الفترة ، التي نخلت من انطباعات الرسول « بولس » وآرائه ، مانجده في رسالة يعقوب التي كتبت ، إما في أواخر القرن الأول أو — أوائل القرن الثاني ، وهي فقيرة جداً في محتوياتها اللاهوتية ، وكل ارشاداتها أخلاقية — وما المسيحية في فكر الكاتب إلا مجموعة من القواعد الأخلاقية ، التي ينبغي ممارستها . وليس الايمان — كما هو الحال في نظرة « بولس » — علاقة جديدة شخصية جوهرية ،

بل هو قناعة عقلية يسندها العمل الصالح . إنها في الواقع قاموس أخلاقي جديد ، خلا من كل تعقيد (يعقوب ١ : ٢٥ ، ٢ : ١٤ ٢٥) .

وفي هذه الفترة الغامضة من التاريخ المسيحي ، كتبت بشار الإنجيل ، ويبدو لنا أنه في تاريخ مبكر كانت مجموعة من أقوال المسيح متداولة بين المسيحيين . وربما حوالي سنة ٧٥ - ٨٠م ظهرت بشارة « مرقس » على ما تقبل التقاليد الأولى في كنيسة رومية . ومن أقوال « مرقس » ومجموعات أخرى من الأقوال والحوادث ، كتبت بشارتا متى واولقا ، ربما بين سنتي ٨٠ ، ٩٥م ، والأولى كتبت في أنطاكية على أرجح الأقوال . أما بشارة يوحنا ، فكان وضعها فريداً ، ويقول ثقات المؤرخين إنها كتبت في أفسس في الفترة بين ٩٥ - ١١٠م وكانت هناك بشارت أخرى لم تبق منها إلا مقتطفات مبعثرة ، ولكنها لم تبلغ في علو القدر ما بلغت هذه البشارت الأربع ، التي تألف منها الإنجيل ، والتي حسبها الكنيسة قانونية رسمية أصيلة . وهناك ذكريات وأقوال للمسيح ، لم تدمج في بشار الإنجيل القانونية (١) ، ومرد هذا إلى الحروب اليهودية ، وإلى إنهيار الجماعات العبرانية الفلسطينية . والكنيسة المسيحية مدينة أكبر الدين إلى بشار الإنجيل ، وهي تراث مقدس عن حياة رب المسيحية وسيدها .

(١) أنظر كتاب « أقوال المسيح غير المدونة في بشار الإنجيل » الذي صدر عن هذه الدار .



لماذا اضطهدت المسيحية ؟

[السلام الرومانى - اضطهاد نيرون - الاضطهاد فى عصر
الامبراطور تراجان - عبادة الامبراطور] .

حين نفكر مليا فى طهر الديانة المسيحية ، و قدسية أحكامها الأخلاقية ،
والبراءة والسيرة النقية التى اتصف بها من آمنوا بالإنجيل فى أول العهد -
أقول حين نفكر فى هذا كله وهو حقائق تاريخية ، كنا نأمل أن يستقبل
العالم الوثنى الجاحد هذه العقائد الكريمة السمحة بالتوقير والتقدير ، وأن
يتغنى العلماء والحكماء والمفكرون بهذه الفضائل ، التى كانت فتحاً جديداً
فى عالم البشر ، وأن ينهض الحكماء وأولو الأمر والنهى ، لحماية هذا
النظام ، الذى أبدى طاعة وخضوعاً للقانون ، وإن يكن قد تنحى عن
الاشتراك الفعلى فى الحرب وشئون الدولة .

وحين نفكر فى التسامح الشامل فى الوثنية ، وعدم الأكتراث بالدين
وعيوب الفلاسفة عن الروحيات ، والسياسة التى انتهجها أمبراطورة الرومان
وأعضاء مجلس الشيوخ ، نرانا فى حيرة التساؤل حول العثرات التى تردت
فيها تلك الطائفة الناشئة - وبواعث الإثارة التى أهاجت عليهم سحق عالم
لم يكن متعصباً للدين .

ولا يسعنا إلا أن نتساءل : « ترى ما العوامل التى أغضبت أمراء
الرومان وحكامهم ، الذين أباحوا الكثير من الأوضاع الدينية التى عاشت

في أوساطهم ، في غير حرج وفي سلام ووثام ؟ وما الذي دفعهم أن يوقعوا أقسى العقوبات على فريق من مواطنيهم ، اختار لنفسه تخطاً مميزاً ، مسالماً ، في الإيمان والعبادة ؟

لقد وقفت السياسة الدينية في العالم القديم موقفاً عدائياً عنيفاً ضد المسيحية . فما انقضت ثمانون عاماً بعد موت المسيح ، حتى كان رسل المسيح وتلاميذه الأبرياء ، قد حكم عليهم بالموت في عهد وال روماني اشتهر بنزعة الفلسفية وأخلاقه الإنسانية ، وعلى مقتضى قوانين سنّها امبراطور تميز بالحكمة والعدل في سياسته العامة. وقد حفلت رسائل المدافعين الذين بعثوا بها إلى خلفاء الامبراطور تراجان ، بالشكاوى المريرة الأليمة التي قالت إن المسيحيين الذين أطاعوا حرية ضمائرهم ، كانوا الوحيدين من بين رعايا الامبراطورية الرومانية ، الذين حرّموا من كل المزايا ، التي أسبغتها الدولة على أبنائها . وقد سجل تاريخ الآباء الأولين حوادث الاضطهاد والاستشهاد ، بكل حرص وتدقيق ، وفي الفصول التالية ، يدور حديثنا مسهباً ، حول تلك الفظائع التي اقترفها الرومان لقتل المسيحية في المهد .

السلام الروماني :

قام السلام الروماني في ذلك العصر ، لا على البطش والقوة وحسب ، بل على الرضا والتوقير ، والاستسلام للتقاليد والممارسات التي تواضع عليها الناس سياسياً واجتماعياً ، ومن هنا كان مفروضاً أن تكشر الدولة عن أنيابها لكل طائفة من الناس تعزل نفسها عن المجتمع الإنساني ، وتدعى احتكار المعرفة الإلهية لنفسها وتنبذ كل وضع من أوضاع العبادات الأخرى ، كأنها وثنية لا أخلاقية .

وكانت هناك جزية تفرضها الحكومة على فئات من رعاياها . ويروى التاريخ أن اليهود كانوا الشعب الوحيد الذي أبي دفع هذه الجزية في عناد وتصلب ، ولكن الولاة الرومان تساهلوا معهم ، وأحسنوا معاملتهم . ونحن إذا عرفنا أسباب هذا التساهل ، قد نستكشف البواعث الحقيقية التي أدت إلى اضطهاد المسيحية .

لقد حرص الولاة والحكام الرومان على عدم المساس بالعبادة اليهودية في هيكل أورشليم ، ولكن حوادث تدمير الهيكل وخراب أورشليم ، قد اقترنت بأحداث كان يصح أن يأخذها الغزاة الغالبون ، مسوغاً قانونياً للاضطهاد الديني ، حرصاً على العدالة السياسية والأمن القومي . ولكن على نقيض ذلك ، يروى التاريخ أن اليهود بعد هزيمتهم المنكرة ، قلبوا ظهر الحن للسلطات الرومانية في بلدان الشتات .

والمره تلو الأخرى ، ارتكبوا مذابح مروعة وموافرت دنيئة . وإن الإنسانية لترتعد فرائصها ، حين تذكر الأعمال الوحشية البشعة ، التي اقترفوها في مدن مصر وقبرص والقيروان ، حيث عاشوا في صداقة مقنعة خفية ماكرة بين الوطنيين . وكان رد الفعل ، هو قيام الجيوش الرومانية بتشديد العقاب على جنس من المتعصبين ، الذين لم يكرهوا الرومان فقط ، بل كرهوا الجنس البشري قاطبة .

تعصب اليهود :

ومما زادهم تعصباً لدينهم ، ولددا في عداوة الرومان ، إيمانهم بأنه لا يحق أن يدفعوا جزية لسيد وثني ، وعقيدتهم التي استنبطوها من كتابات الأنبياء الأقدمين ، الذين وعدوهم بأن شخصاً يدعى « المسيا » ، سيقممه

الله لتحطيم القيود ، التي كبلهم بها عاهل الرومان ، ويعيد لنسل إبراهيم .
 أمجاد الأرض ورجاء السماء ، ومسوقا بهذه العقيدة ، جمع زعيمهم الثائر
 جيشاً هائلاً ، قاوم به سلطان الامبراطور « هادريان » سنتين كاملتين .

وعلى الرغم من هذه الثورات العنيفة ، كان أمراء الرومان يهدأون بعد
 كل انتصار على اليهود ، ويسترضونهم بعد فترة الحرب . وفي عهد
 الامبراطور « أنطونيوس بيوس » ، أعيدت لهم امتيازاتهم القديمة ، وسمح
 لهم بختان أولادهم ، بشرط ألا يطبقوها على غير أبناء الجنس اليهودي .
 وبعد خراب أورشليم سنة ٧٠ م ، سمح لهم - وهم في الشتات - أن
 ينشئوا مستعمرات عديدة في رومية والولايات الأخرى ، وأن يكون لهم
 حق الحصول على الرعوية الرومانية ، وأن يعفوا في الوقت عينه من الأعباء
 الثقال ، التي فرضت على المواطنين الآخرين . وإنك ل ترى سماحة الرومان -
 بل قل رغم احتقارهم لهذه الطائفة المغلوبة على أمرها - قد أجازت لهم تعيين
 بوليس كهنوتي . وكان لرئيس كهنتهم مقام ثابت في طهرية ، وله سلطة
 تعيين رجاله وحاشيته ورساله ، وسمح له أن يمارس سلطة مدنية معينة ،
 وأن يتلقى من إخوانه المشتتين في كل رقاع الأرض الهبات والإعانات .

المجامع اليهودية :

وفي المدن الرئيسية في الامبراطورية ، قامت المجامع اليهودية ، ومارس
 اليهود علانية في حرية تامة ، كل السبوت والأصوام ، والأعياد ،
 والمواسم ، التي فرضتها شرائع « موسى » وتقاليد الأخبار . وكان لهذه
 المعاملة اللينة أثرها في ترويضهم والعدول عن التمسك الأعمى بأحلام الأنبياء ،
 وشهوة الفتح والغزو ، وصاروا من الرعايا المسالمين النشطين في الحياة
 العملية ، وعوضاً عن كراهيتهم للجنس البشري ، وإثارتها في العنف

وسفك الدماء . راحوا يشبعون رغباتهم بأساليب أخرى ، واهتبلوا كل فرصة لمنافسة مواطنهم في التجارة وكسب المال : وهم في هذا أمراء الخدق والدهاء .

اليهود أمة والمسيحيون طائفة :

و ن كان اليهود الذين نبذوا في احتقار الآلهة التي عبدها مواطنوهم ، واستمتعوا بالحرية في ممارسة دينهم غير الاجتماعي ، فلا بد أن تكون هناك أسباب أخرى ، عرضت تلاميذ المسيح للبلايا الملاحقة ، التي أعفيت منها سلالته « إبراهيم » ، والفرق بين الفئتين بين واضح ، وله وزنه الخطير في نظر الأقدمين . فاليهود كانوا « أمة » ، وأما المسيحيون فكانوا « طائفة » وقد تكون شرائع « موسى » سخيصة في نظر الرومان ، ولكن ما دام قد مارسها ملهى أجيال فريق من المجتمع مسلم بوجوده ، وبكيانه المستقل ، جاز لسلالاته أن تحتفظ بعباداتها – وتقاليدها وعباداتها ، في حرية واستقلال ، دون إعنات من السلطة القائمة في أى عصر . وهذا المبدأ القانوني الذي احتفى به المجتمع اليهودي ، لم يصلح تطبيقه على الكنيسة الفتية الناشئة . وذلك لأن المسيحيين باعترافهم هذا الدين الجديد ، اقرافوا – في نظر مواطنهم إثمًا خطيرًا ، من حيث أنهم تحللوا من الربط التي جرى عليها العرف ، والثقافة ، وخالفوا أحكام المؤسسات الدينية في وطنهم ، واحتقروا ما آمن به مواطنوهم ، وحسبوه حقاً مقدساً .

وقد نبذ المسيحيون إجماعاً ، كل علاقة بآلهة رومية والامبراطورية والجنس البشرى كله ، ولذلك ثارت ثائرة الوثنيين ، وفي تعصب أعشى وحقد مرير ، صهروا المسيحيين أمام الشعب جماعة من الكافرين الملحدتين ، تهجموا على الدستور الديني للامبراطورية ، ولذلك استباحوا دماءهم ، وأموالهم ، وكنائسهم ، وعبادتهم .

ومما زاد ذهول الوثنيين وعملاء الامبراطورية ، أن يهجر المسيحيون
 هياكل الأبطال الأقدمين ، الذين ابتكروا الفلسفة والفنون والآداب ،
 وسنوا الشرائع والأحكام ، وقهروا العتاة الظالمين ، ويستعوضوا عن هذا
 كله في عبادتهم ، بمعلم مغمور نبت في شعب بربرى حقير ، وصلب
 كمجرم بأيدي مواطنيه ، الذين استعدوا عليه السلطة الرومانية .

اضطهاد « نرون » :

حمل الرسل وعلى رأسهم « بولس » - الدعوة إلى أرجاء الامبراطورية
 الرومانية ، وغرسوا في أماكن متفرقة هنا وهناك ، بذار جماعات
 مسيحية قليلة العدد في أول أمرها . وانتقل هذا الدين الجديد من أورشليم
 إلى حواضر الامبراطورية -- فبلغ رومية والاسكندرية حوالى منتصف القرن
 الأول ... وبين هاتين المدينتين الكبيرتين ، إنتشرت الكنائس في اليونان
 ومكدونية ، وآسيا الصغرى ، وسورية . وفي أول الأمر حسبت السلطات
 الرومانية الديانة المسيحية كطائفة من اليهودية ، التى كانت بمنجاة من
 الاضطهاد ، للأسباب التى فصلناها ، ويبدو لنا أن العداء الذى أظهره
 اليهود للمسيحية ، جعل الفرق بين الدينين واضحاً ، وزاد الوضع إيضاحاً
 فى عهد « نرون » الامبراطور الطاغية (سنة ٦٤ م) . وفى السنة العاشرة
 من حكمه ، شب حريق مروع لم تعهده البلاد من قبل ، وأتى هذا الحريق
 على آثار الفنون اليونانية والرومانية ، والهياكل المقدسة ، والقصور
 الفخمة . ويقال إن أربعة فقط من أحياء المدينة الأربعة عشر نجت من
 الدمار ، وثلاثة منها سويت بالأرض ، والسبعة الباقية أصابها الدمار
 والحراب . ولم تقف الحكومة مكتوفة اليدين أمام هذه النكبة ، ولكى
 يتقى غضبة الشعب ، فتح « نرون » أبواب حدائقه للجواهر المنكوبة ،
 وأقيمت الأبنية سراعاً ، ووزعت المواد الغذائية بأسعار معتدلة . وكما

يحدث عادة في عهود الرخاء والازدهار ، شيد القوم في سنوات قلال ، رومية الجديدة ، التي فاقت الأولى جمالا وروعة . على أن كل هذا لم ينف التهمة عن « نيرون » ، بأنه هو الذى أحرق عاصمة بلاده ، وهو الذى قتل أمه وزوجته من قبل ، وعشق غلاماً رومانياً وتزوجه ، وتردى في أبشع صنوف التبذل والإباحية والفساد ، وقيل إنه كان يغنى أثناء الحريق . نشيد خراب طروادة على قيثارته .

ولكى يبعد الامبراطور التهمة عن نفسه ، ألصقها بطائفة المسيحيين ، وفي هذا يقول « تاسيتوس » المؤرخ الرومانى :

« وبهذه التهمة أخضع « نيرون » المسيحيين لأبشع صنوف التعذيب ، وهم أولئك الذين استمدوا اسمهم وأصلهم من المسيح ، الذى مات في عهد الامبراطور « طيباريوس » ، بمقتضى حكم أصدره الوالى الرومانى « بيلاطس البنطى » . وكانت تلك الطائفة قد انتشرت فيما وراء حدود أورشليم مهدداً الأول ، وبلغت رومية ، البالوعة التى تستقبل وتحتضن كل ما هو فاسد ، وكل ما هو فظيع قاس . وقد كشفت اعترافات المقبوض عليهم جمهوراً غفيراً من الزملاء والخلان وحكم عليهم ، لا من أجل جريمة حرق رومية ، بل من أجل كراهيتهم للجنس البشرى ، وقضى كثيرون منهم بعد تعذيب مريع وإهانات مكروهة . فبعضهم سمر على الصليبان ، وبعضهم وضع داخل جلود الحيوانات المفترسة ، وتعرضوا لنهش الكلاب . وآخرون لفوا في مواد ملتهبة ، وعلقوا على مشاعل لإنارة حدائق القصر ، التى أقيم فيها في ذلك اليوم حلبات لسباق الخيل ، التى أحضرها الامبراطور نفسه ، وقد اختلط بالشعب مرتديا ثياب فارس مغوار . على أن جماهير الشعب لم تلبث طويلاً حتى انكشف لها أن تضحية أولئك التاعسين ، لم

تكن للخير العام ، بقدر ما كانت نقمة دنيئة من ظالم حاسد خوون . وذلك لأن تحقيقاً جرى في التهمة الكاذبة وثبتت براءة المسيحيين من تهمة الحريق ، ولكنهم وجدوا مذنبين لكراهيتهم الجنس البشرى كله . ولأنه لعجيب حقاً أن يبدو دين المحبة في نظر الرومان ، دين الكراهية ، والأعجب أن يكون الرومان هم الذين ينطقون بهذا الحكم .

ولكن اللهب التي تسعرت في عاصمة العالم في ذلك الزمن ، واللهب التي اكتوت بها أجساد المسيحيين الشهداء ، هذه اللهب وتلك ، كانت بمثابة أنوار وهاجة تقدمت الكنيسة لتتخذ مكانها الرفيع في تاريخ العالم .

وتلك القصور وتلك الحلبات التي شيدها الطاغية فوق تلة الفاتيكان ، والتي ارتوى أديمها بدماء المسيحيين ، إنـدثرت من الوجود ، وقام على البقعة عينها بعد إنتصار الكنيسة المسيحية المضطهدة ، هيكل عظيم ، يفوق في روعته وجلاله أمجاد الكابيتول ، وقصر سيد الرومان ، أطلقوا عليه اسم صياد وضيع مغمور من صيادي بحر الجليل — « القديس بطرس » — وقد امتد سلطانه الروحي إلى كل أرجاء المعمور .

الاضطهاد في عصر الإمبراطور « تراجان » :

رسخ الاعتقاد في نفس الروماني ، أن مدنيته وإمبراطوريته ستبقيان أبد الدهر . هذه كانت عقيدة الوثنية . ولكن المسيحي آمن في قرارة نفسه ، بأن المدنية العظيمة ستدمر ، وأن الإمبراطورية — بل العالم كله — سيزول . وآمن بأن المملكة الوحيدة الخالدة هي مملكة المسيح — ملكوت الله — والحق أن الكنيسة الأولى آمنت بأن نهاية العالم قريبة على الأبواب ، وذلك لأن التلاميذ الأول ، رأوا المسيح الذي قام من الأموات ، واقتنعوا بأنهم سيرونه في حياتهم الأرضية مرة ثانية ، آتياً في مجد وجلال ، ليهدم

نظام الأشياء الأرضية ، ويدين الأحياء والأموات ، وتوقعوا سقوط مملكة رومية ، ليقوم على أنقاضها ملكوت الله . ومن هنا كانت خيانتهم لوطنهم في عرف الرومان ، ومن هنا كانت كراهيتهم للإمبراطورية الرومانية .

وكانت الدولة في نظر العالم الوثني القديم ، الخير الأسمى ، والمثل الأعلى . ففي خدمتها والولاء لها ، تمثلت كل الفضائل الأدبية . لذلك استعار العالم الروماني عبادة الإمبراطور من بعض العبادات الشرقية القديمة ، وجعلت الوثنية هذه العبادة أسمى مظاهر الإخلاص والولاء . ففي الإمبراطور الروماني تجسدت فكرة الدولة . وكان المذبح الذي أقيم لعبادته رمزاً للقوة الأدبية العليا في الدولة .

عبادة الإمبراطور :

على أن هذه العبادة حسبها المسيحيون وثنية لا يمكن أن تأتلف مع دينهم الجديد ، وذلك لأن أسمى الأشياء في نظرهم لم يكن قيصر العظيم الرفيع الشأن ، ولا الإمبراطورية الرومانية القاهرة ، ولا الشعب الروماني النبيل ، بل كان شيئاً آخر ، ليس من هذا العالم . وقد جاءت المسيحية بنظرية جديدة في التاريخ تحدت جميع النظريات الأخرى ، نظرية سفهت كل قيم الأشياء الأرضية إذ اقترنت بالأشياء السماوية ، وأعطت ما لقيصر لقيصر ، ولكنها أعطت أيضاً ما لله لله . وهذه النظرية الجديدة قد جعلت المسيحية الدين العالمي الجديد . فبينما أغلقت اليهودية على نفسها دون العالم الخارجي ، وتحصنت بمواعيدها وعقائدها التي جعلتها وقفاً عليها دون سواها ، وبينما لجأت النظم الفلسفية إلى عقول العلماء والمفكرين ، جاهرت المسيحية في أول عهدها بقدرتها على غلبة العالم وقهره ، فخرجت إلى الطرقات والأسواق حاملة رسالتها وسحر نفوذها ، فبدلت متجهات التفكير التي حسبها القوم دعائم الخير العام .

لهذا السبب كانت المسيحية خطراً على الدولة في العرف الوثني القديم ، ذلك لأنها طعنت أسس الدولة القديمة التي زعمت أن لها الحق في تنظيم أحوال الفرد الداخلية والخارجية بما لها من قوة لا منازع لها فيها ، وقوضت أركان تلك الفضائل التي استندت إلى أن الدولة هي المثل الأعلى للخير الأسمى . وما فورات نيرون الصاخبة ، وما أحقاد الجماهير الوثنية العمياء نحو المسيحيين ، إلا مظاهر غريزية رسمت أوضاعها الفكرة السياسية القديمة عن الدولة حين أحست أن وجودها معرض للخطر .

بهذا المعنى كان المواطن المسيحي الروماني عدواً للدولة ، فاتهم بالخيانة العظمى بسبب آرائه ومعتقداته ، واستوجب الموت في نظر القانون . وظلت الجماعات المسيحية ناهضة بأعباء ثقال خلال القرون الثلاثة الأولى تحت ضغط عنيف يفرضه قانون العقوبات . ومن خطل الرأي أن نتصور أن الاضطهاد يستمر دون انقطاع في خلال هذه الفترة الطويلة ، فالواقع أن هذا القانون العنيف لم ينفذ إلا فترات متقطعة تبعاً لأهواء الحكام ونزواتهم . وتخلل الاضطهاد فترات كان فيها شيء من التسامح العملي . وقد كان الاضطهاد في الفترات الأولى محلياً ذا صبغة محدودة . فإذا اهتمت عامة الشعب بسبب وباء أو قحط أو نار ، أو إذا جن أحد ولاة الأقاليم ورأى أن ينفث سموم كيدته وخبثه في المسيحيين ، أو إذا تحدى المسيحيون أنفسهم عامة الشعب وأذكوا في صدورهم نار المقاومة — كان يشتد الاضطهاد تارة هنا وأخرى هناك . فحريق رومية مثلاً كان حجة لاضطهاد المسيحيين في عصر نيرون ، ولكنه لم يلحق بغير المسيحيين في رومية . وكذلك قضى أغناطيوس أسقف أنطاكية شهيداً (حوالي سنة ١١٥ م) ونختم بوليكارب أسقف أزمير حياته بالدم (حوالي سنة ١٥٥ م) . وثار في عهد الامبرطور مرقس أوريليوس (١٦١ — ١٨٠ م) ذلك الاضطهاد الدموي العنيف في بلاد الغال الجنوبية

الذى كان من بين ضحاياه عدد لا يحصى من أعضاء الكنيسة المسيحية في
ليون (سنة ١٧٧ م) .

الإمبراطور سفروس :

وفي عهد الإمبراطور سيفروس منع اعتناق المسيحية بقوة القانون (٢٠٢م). واضطرت نيران الإضطهاد في مصر وفي بعض ولايات أفريقية . على أنه يمكن القول مع هذا كله إنه إلى أواسط القرن الثالث لم يكن الاضطهاد عاماً شاملاً لجميع المسيحيين . وكان للكنيسة المسيحية في أرجاء الأمبراطورية الرومانية الواسعة الأرجاء فسحة من الزمن للرقى والتقدم على الرغم من المشاحنات العنيفة التي هزت أركان بعض الجماعات في رقاع مختلفة .

ولكن يصح القول كمبدأ عام ، أن اعتناق المسيحية كان في القرن الأول يعرض المرء للموت على أى حال ، وكان هذا في حد ذاته كافياً لإقامة النعمة على أى فرد. وظل هذا المبدأ سارياً حتى في الفترات التي تهاون القوم فيها في تنفيذه ، واتخذ الكاهن الوثني ، أو تاجر الأوثان الذي بارت تجارتة ، أو الوالى الشرير الخبيث ، أو الجار الحاسد الناقم ، أو العدو المنتقم — حجة لجر غريمه إلى الموت بسبب مسيحيته . فالشهيد يوستن — وهو فيلسوف اعتنق المسيحية — جزت رأسه في رومية بإيعاز مؤلف منافس له لم يستطع مباراته في الإنتاج الفلسفى . ولم يستطع التاريخ أن يحصى عدد الشهداء الذين ذهبوا ضحايا هذا القانون الجائر . والذى حمل يوستن هذا على اعتناق المسيحية ما شهدته من الشجاعة والبسالة والبطولة التي غالب بها المسيحيون الموت في سبيل عقيدتهم . وكان الوثني يخشى الموت ويرهبه ، بينما حنبه المسيح رجاً وكسباً . وقد تبدت قوة المسيحية الأدبية للعالم الوثني — قبل أى شيء آخر — في تلك الشجاعة الباسلة التي لاقى بها المسيحيون الموت ،

«شجاعة تحدث الموت ، لا بروح الاحتقار والازدراء ، ولا بروح الاستهتار
عدم الاكتراث كما فعل الرواقيون ، بل بروح الرجاء والانتصار . وقد
كان الإيمان القوة الوحيدة التي خاضت بها المسيحية بحر العداوة والدماء ،
ولكنها قوة غلبت العدو وقهرته .

وقد نظمت الإجراءات ضد المسيحيين لأول مرة في عهد الامبراطور
تراجان (سنة ١١٢ م) . فكانوا يضطهدون ويحكم عليهم لتهمة خاصة ،
لا بسبب مسيحياتهم . وظل هذا القانون معمولاً به إلى أواخر القرن الثالث .
على أن هذا القانون ، وإن بدت عليه في ظاهره مسحة التسامح ، فإنه
انطوى على فكرة خبيثة . وذلك لأنه أباح الحرية للمسيحي إذا ارتضى أن
يقدم بخوراً لتمثال الإمبراطور ، أما إذا تآبى فإنه يعرض نفسه لحكم الموت .
فكأنما جثمت وراء هذا اللين الظاهري قسوة شريرة . وكانت التجربة
رهيبة مريعة ، فان كثيرين من ذوى العزائم الخائرة استسلموا إليها . وقد
ظن بلينى حاكم ولاية بثنية ، الذى أشار بوضع هذا القانون ، أن فيه
القضاء على المسيحية . وذلك لأن المسيحي إذا تمتنع عن تقديم البخور لتمثال
الإمبراطور ، يحكم عليه بالموت ، لا بسبب مسيحيته في الظاهر . ولا بسبب
سلوكه الشخصى ، بل بتهمة الخيانة العظمى للدولة . وكانت أدلته في اتهام
المسيحيين تدور كلها حول هذه الخيانة بالذات ، دون تعرض للعقيدة .
وفى هذا من المكر والجداع والقسوة المهدبة ما يغنى عن البيان . والواقع
أن اضطهاد الدولة لم يوجه إلى عمل معين بالذات ، ولا إلى جريمة محدودة
المعالم ، بل إلى عقيدة — هى المسيحية التى أبت عبادة أى شيء أرضى ،
ولو كان هذا الشيء هو الدولة الرومانية . وقد دلت الإجراءات التى اتخذت
ضد المسيحيين ، بالأوضاع التى شرحها قانون تراجان ، على أن الدولة الوثنية

بإدعائها أنها هي المثل الأدبي الأعلى - قد أضربت حرباً شعواء في وجه المسيحية .

القديس أغناطيوس

وفي عصر تراجان هذا استشهد رجل من أبرز رجالات المسيحية في القرن الأول ، وأشهر أحبارها ، وأجل الرسولين الأولين - هو القديس أغناطيوس أسقف أنطاكية السورية . وكانت قد حلت بالبلاد بعض النكبات ، فثارت ثائرة الشعب وأخذ يتصايح ضد المسيحيين بحجة أنهم أغضبوا الآلهة .

وقد أطلق على هذا الحبر المسيحي الجليل « أغناطيوس ثاوفرس » (أى حامل الإله النوراني) وهو ثالث أساقفة أنطاكية . ويقال إنه سرياني المحدث ، وتقول التقاليد إنه هو الطفل الذي أقامه المسيح في وسط تلاميذه ليعلمهم أمثلة في البساطة والتواضع .

وقد تتلمذ للقديس بطرس ثم ليوحنا الرسول ، وأقامه الرسولان بطرس وبولس أسقفاً على كرسي أنطاكية ، وخلف القديس أفوديوس فيه حوالي سنة ٦٨ ب. م. فدبر الكنيسة الأنطاكية نحواً من أربعين سنة ، ناهجاً مناهج الرسل القديسين ، واشتهر بنشر الدعوة المسيحية في سورية في وقار ورسوخ في العلم وسمو في الفضائل .

على أن العاهل الروماني تراجان زعم أنه من حسن السياسة أن يجارى الدهماء في شعورهم وخرافاتهم ، ويوجه ضربته إلى زعيم المسيحيين استرضاء للصيحات الرأي العام . ولذلك ألقى القبض على أغناطيوس وجيء به أمام محكمة الإمبراطور .

ومن تبادل حديث مأثور معه أصدر الإمبراطور حكمه وهذا نصه :
 « بما أن أغناطيوس قد اعترف بأنه يحمل في صدره ذاك الذي صلب ،
 فانتنا نحكم عليه بأن يربط ويرسل إلى رومية العظيمة مخفوراً ، وهناك يطرح
 أمام الوحوش الضارية لتسلية جماهير الشعب » .^(١)



(١) ارجع إلى كتاب « عشرون قرناً » للمؤلف لتقرأ وصفاً رائعاً لاستشهاده ..



سر الانتصار والانتشار

[انتصار الحق على الباطل - أسباب ثانوية لانتشار المسيحية : حماس المسيحيين الأولين في نشر الدعوة - عقيدة الخلود - الأحوال السياسية والاجتماعية والدينية - سمو الأخلاق المسيحية - قوة نظام الجماعات المسيحية - البيئة اليهودية - فضل المسيحية على هذه البيئة] .

بزغت أنوار المسيحية على عالم روماني رفع ألويته على رقاع الشرق والغرب ، وكانت الإمبراطورية الرومانية قد بلغت أوج مجدها ، وراحت تهددها من الشمال قوى برية غاشمة - وتنخر فيها من الداخل عوامل الفساد والاضمحلال ، وتسير في أوصالها سيراً بطيئاً قاتلاً ، وإبان هذه الفترة من التاريخ ، يبرز في النور دين يتسرب إلى عقول الناس ضعيفاً هادئاً ، يستمد قوته ونشاطه من الاضهاد والمعاناة ، حتى يبلغ أخيراً النصر المبين ، ويرفع راية الصليب على أنقاض الكايتول الروماني . ولم يقتصر مجد المسيحية على فترة التاريخ الروماني ، فما تنقضى أربعة عشر قرناً ، حتى كان ذلك الدين قد تسلط على شعوب أوربا كلها ، بعد أن غزا بلدان الشرق وتأصلت فيها جذوره ، وحمل دعاته رسالته إلى كل أصقاع الدنيا في أفريقية وآسيا وجزر البحر النائية .

أسباب ثانوية لانتشار المسيحية :

ومما لا شك فيه أن الله ذاته قد أراد أن ينتصر حقه على أباطيل البشر ، ولكن هناك أسباباً ثانوية كان لها بعض الفضل في هذا الانتشار ، ونلخصها فيما يلي :

- ١ - حماس المسيحيين الأولين في فجر المسيحية ، وثبات إيمانهم ، وعزيمتهم في نشر الدعوة .
- ٢ - عقيدة الخلود وحياة المستقبل ، التي بثت في نفوس البشر المائتة - رجاء جديداً في حياة أخرى بعد الموت .
- ٣ - الأحوال السياسية والاجتماعية والدينية التي سادت ذلك العصر .
- ٤ - سمو الأخلاق التي اتصف بها المسيحيون في فجر المسيحية ، والتي جعلتهم صنفًا ممتازاً من بني الإنسان .
- ٥ - قوة نظام الجماعات المسيحية التي ما لبثت طويلاً حتى أضحت دولة مستقلة متزايدة في قلب الإمبراطورية الرومانية .

وسنعالج هذه الأسباب في إيجاز :

- ١ - حماس المسيحيين الأولين في نشر الدعوة .

البيئة اليهودية :

كنا نرى في العالم القديم تناسقاً دينياً عجيباً بين الشعوب ، وكان بعضها يقرض من بعض عقائد وممارسات وخرافات ، وكان بعضها يحرم عقائد البعض الآخر . وقبلما شهد التاريخ في الأزمنة الأولى تعصباً للدين أو العقيدة ، ولكن شعباً واحداً أبي كل الإباء أن يشترك في هذا الزواج الديني المشترك

بين الجنس البشرى . غاليهود الذين خضعوا لصولجان . الآشوريين والفرس
فترة من الزمن ، ذاقوا فيها مرارة العبودية والأسر ، خرجوا من هذا
المأزق في عصر الإسكندر الأكبر ، وتكاثر عددهم في الشرق بل وفي الغرب
أيضاً ، وفي كل مواقعهم أبدوا عناداً مكمداً في الاحتفاظ بطقوسهم
الخاصة وعاداتهم وتقاليدهم ، وظهروا جنساً مميزاً ، اعترفوا جبهة أو
أخفوا دهاء ومكرراً ، كراميتهم واحتقارهم لساير الجنس البشرى . فلاقسوة
أنتخوس البطليموسى الذى رش دم خنزير في مقامس هيكلمهم ، ولاألا عيب
هيرودس الأدومى ، الذى حاول استرضاءهم بشئ الأساليب ، ولا سماحة
الرومان وتساهلهم معهم ، استطاعت أن تقنع اليهود باشرارك الآخرين معهم
في ناموس « موسى » ، وجرى ذلك الحماس الأعمى والولاء العنصرى الدينى
في مجرى ضيق خانق ، حتى صار تياراً مزججراً غاضباً ، جلب عليهم فيما
بعد الولايات والمحن التى بددتهم في أنحاء الأرض في تاريخهم اللاحق .

والحق أن دين اليهود يلائم الدفاع — ولم يقصد به أن يكون ديناً للفتح
والغزو — ولم يكن مسموحاً لهم أن يتزاوجوا مع الشعوب الأخرى ،
ولا أن يعتمدوا معهم أية اتفاقات أو تحالفات ، ولم يفرض عليهم في ناموس
« موسى » ، أن يدعوا الآخرين إلى اعتناق دينهم ، وارتضت سلالات
« إبراهيم » أن بحسبوا أنفسهم — دون سواهم — ورثة العهد ، وشعب الله
المختار ، وظنوا أن إشراك الغرباء في هذا العهد يحط من قدره ويسىء إلى
كرامة صاحب العهد .

فصل المسيحية :

في هذه البيئة ، وتحت هذه الظروف ، نبتت المسيحية مسلحة بقوة
الشريعة اليهودية ، ولكنها بمنجاة من قيودها وأحكامها الثقيلة : وبقي في

المسيحية ذلك الحماس للدين وللوحداية الإلهية— كما كان في النظام القديم ، وقبلت في مبادئها شريعة « موسى » والأنبياء ، ولتأخذهم القوم أساساً جوهرياً لدعوتهم الجديدة . وخيل للناس أن المسيحية إن هي إلا طائفة جديدة من اليهودية ، وقد استبدلت الطقوس والممارسات اليهودية بعبادة روحية نقية توائم كل الأصقاع وكل أجناس البشر .

أما العهد الذي استمسكت به سلالات « إبراهيم » وفقاً عليهم ، وحكراً لهم ، فقد أعلن في المسيحية الناشئة للأحرار والعبيد ، لليونانيين والبرابرة ، لليهود والأمم ، وانفتح الباب على مصراعيه للجميع دون تمييز ، وصار فرضاً مقدساً على كل دخيل إلى المسيحية ، أن يذيع بين ذوى قرابته وأصدقائه بشري البركة التي ينعم بها في دينه الجديد .

وتاريخ كنيسة أورشليم أقوى دليل على الأثر العميق الذي طبعته اليهودية على المسيحية الناشئة ، فالخمسة عشر أسقفاً الأوائل في أورشليم ، كانوا كلهم يهوداً مختونين ، والجماعات التي كانت تحت رعايتهم ، جمعت بين شريعة موسى وتعاليم المسيح . وكان من الطبيعي أن تقبل التقاليد البدائية في كنيسة أسست بعد موت المسيح بأربعين سنة فقط ، وتولى أمرها رسل المسيح سنوات طوالاً — نموذجاً للمسيحية المحافظة . وكان من عادة الكنائس في المناطق البعيدة أن تسترشد بسياسة الكنيسة الأم ، وتمد يدها لإسعافها في محنتها بعطاياها وهداياها ... ولكن بعد أن تأسست الجماعات الغفيرة في مدن الإمبراطورية الكبرى ، في أنطاكية والاسكندرية وأفسس وكورنثوس ورومية ، قل الإلهام الذي كانت تستوحيه من أورشليم وسرعان

ما أحس المتنصرون اليهود ، الذين وضعوا أسس الكنيسة أنهم أقلية وسط الجماعات الغفيرة المتزايدة ، التي هرعت من الوثنية إلى أحضان المسيحية تحت راية المسيح، وخلع هؤلاء عن أكتافهم ثقل الشريعة اليهودية والطقوس الموسوية ، وراحت في حماس منقطع النظير ، تنشر رسالتها في أرجاء العالم .



٦

عقيدة الخلود وحياة المستقبل

[الخلود في نظر الفلاسفة - مدارس الفكر المختلفة لم
ترحب بالنظرية الفلسفية - خلو اليهودية الأولى من عقيدة
الخلود - اعتناق الفريسيين لهذه العقيدة] .

إن كتابات الفيلسوف «شيشرون» الروماني ، تصور بألوان براقية
الجهل والأخطاء والريب التي أوغلت فيها فلسفات الأقدمين عن خلود النفس
البشرية ، وحين أرادوا تطمين أنصارهم وأتباعهم من خشية الموت ، عمدوا
إلى موقف كتيب ، فقالوا إن الصدمة القاضية في الانحلال والفناء ، تريحنا
من متاعب الحياة ونكباتها ، فإن الذي لا وجود له ، لا يمكن أن يحس بالألم
على أنه كان بين فلاسفة اليونان وروما ، قلة من الحكماء ، مالوا إلى موقف
أرقى وأرفع ، واعتنقوا فكرة أكثر نبلا عن الطبيعة البشرية . وحتى هنا
لا مناص من القول إنهم في سعيهم الفكري الراقى ، إقترنت مطارحتهم -
العقلية ، بكثرة من الخيال المصحوب بالغرور والخيلاء ، وذلك لأنهم حين
نظروا إلى قدراتهم العقلية ومواهب ذاكراتهم وقوى إدراكهم ، وحين
اشرأبت نفوسهم إلى الشهرة التي ستخلد أسماءهم في بطون التاريخ ، إلى
ما وراء حدود الموت والقبر ، حين فكروا في كل هذا ، لم يسعهم أن
يحشروا أنفسهم مع الحيوانات العجماوات ، أو يفترضوا أن مخلوقاً رفعوه
إلى مرتبة الكرامة وأعجبوا به كل الإعجاب ، يمكن أن تحتويه حفرة من

الأرض في آخر المطاف ، وأن يقتصر وجوده على فترة من الزمن محدودة .
وهنا راحوا يستعينون بالعلم أو بلغة الفلسفة العقلية ، وسرعان ما اكتشفوا
أن خواص المادة لا تنطبق على خواص العقل ، من ثم لا بد أن تكون الروح
من جوهر غير قابل للفناء وهي جوهر روحي ، طاهر ، لا يتطرق إليه
الفساد ، وجدير بأن يرتفع إلى مرتبة عليا من الفضيلة والسعادة بعد إنطلاقه
من هذا السجن المادي الجسدي . ومن هذه المبادئ النبيلة البعيدة الأفق
استنتج الفلاسفة الذين اقتنوا خطى « أفلاطون » ، نتائج لا مسوغ لها ،
وأفراطوا في متجهات تفكيرهم ، فلم يقتنعوا بخلود النفس في المستقبل ، بل
زعموا أن النفس أزلية أيضاً ، تتمتع بكيان مستقل قائم بذاته ، وهو الذي
يسند الكون كله .

مدارس الفكر لم ترحب بهذه النظرية :

وعقيدة كهذه تبتمد عن الحواس وكل اختبار بشري قد تكون كافية ،
ليلهو بها العقل الفلسفي في أوقات فراغه ، وقد تدخل وميضاً من العزاء
إلى الفضيلة اليائسة ، إذا ما خلا المرء إلى نفسه في أوقات سكونه ، على أن -
مدارس الفكر المختلفة لم ترحب بهذه العقيدة ، وسرعان ما تبخرت آثارها
في زحمة الحياة العملية ، والمشاكل التجارية بين الناس . وحسبنا أن نلقى نظرة
على مشاهير القوم الذين عاصروا « شيشون » وإلى تصرفات القياصرة الأولين
والعظماء والمفكرين ، وإلى أخلاقهم وبواعثهم ، لنرى أن حياتهم لم تتأثر
إطلاقاً بعقيدة الثواب والعقاب في حياة مستقبلية . ومن اليسير أن نسمع خطباء
ذلك الزمن وهم لم يجدوا عثيرة في صدم أسماع الناس بقولهم ، إن تلك العقيدة
بليدة سخيفة يجب أن ينبذها باحتقار كل امرئ حبه الطبيعة بثقافة حرة
حوادراك سليم .

ومادامت الجهود السامية التي بذلتها الفلسفة لم تقو على إشباع الرغبة الإنسانية ، وتقوية الرجاء في حياة مستقبلة للنفس البشرية ، لم يبق إلا أن — يأتي هذا اليقين من وحى إلهي يؤيد هذا الوجود في المستقبل ، ويصف ذلك الموطن غير المنظور ، الذي كان مقدراً له أن يستقبل أنفُس البشر بعد انفصالهم عن الجسد . ولم تقو ديانات اليونان وروما على القيام بهذه المهمة .

خلو اليهودية من عقيدة الخلود :

وكنا نأمل بطبيعة الحال أن مبدأ كهذا ، يعتبر جوهرياً بالنسبة للدين . يعلن بعبارات واضحة لشعب الله في القديم ، وأن يوكل أمره لأنسال كهنوت « هارون » . ونحن لا يسعنا إلا الخضوع لأحكام الله الغامضة ، حين نرى أن عقيدة خلود النفس ، حذفت تماماً من ناموس « موسى » ، ولم تذكر إلا بصورة باهتة جداً في عصر الأنبياء ، وفي خلال الفترة الطويلة الأمد ، التي انقضت بين العبودية في مصر والعبودية في بابل . ويبدو لنا أن آمال اليهود ومخاوفهم ، قد انحصرت في المجال الضيق على هذه الأرض . وبعد أن أطلق « كورش » — الفارسي سراح الأمة الأسيرة ، وسمح لهم بالعودة إلى وطنهم ، وبعد أن أعاد « عزرا » الأحكام القديمة في دين الشعب ظهرت في أورشليم طائفتان ، هم الفريسيون والصدوقيون . وهؤلاء الأخيرون قد انتخبوا من عليّة القوم ووجوه المجتمع وأثريائه ، واستمسكوا بناموس « موسى » حرفياً ، ونبذوا عقيدة خلود النفس ، التي لم يأت لها ذكر في الوحي الإلهي ، الذي حسبوه الركن الوحيد لإيمانهم . أما الأولون — أي الفريسيون — فقد أضافوا إلى سلطان الأسفار المقدسة الأحاديث المتواترة ، وقبلوا عدة أحكام ووصايا من فلسفة دينهم ، أو أديان الشعوب الشرقية . وإنك لو اجدت في عقائد إيمانهم ، عدة مواد مثل الإيمان بالقضاء والقدر .

والملائكة والأرواح ، وحياة أخرى تحفل بألوان من الثواب والعقاب . وقد هرع إلى هذه الطائفة عامة الشعب ، والجماهير الغفيرة ، لما اشتهروا به من التقشف والتدين ، وإخضاع أنفسهم لكثرة من أحكام الدين القاسية . ولئن كانوا قد تمادوا في هذا المضمار إلى حد بعيد . وبعد أن قبلوا في إيمانهم عقيدة الخلود ، أبدوا في الاحتفاظ بها والغيرة لها ، ما اشتهرت به هذه الأمة من تعصب وتزمت في الاجتهاد والتأويل . على أن عقيدتهم لم تضيف شيئا إلى أدلة الخلود ، وبقي هذا كانه ، أن تتأيد هذه العقيدة التي أماتها الطبيعة ، ورقاها العقل ، واستراحت لها ضمائر البشر ، بحق إلهي ودليل ساطع في أمثال المسيح وتعاليمه .





الأحوال السياسية والاجتماعية والدينية

[العظمة الرومانية في فجر المسيحية – مزايا اليونانية –
فشل الثروة المادية والثقافة العقلية – عالم ضيق آخر –
رجاء المسيا] .

العظمة الرومانية :

في فجر المسيحية كانت الامبراطورية الرومانية قد بلغت أوج مجدها وعزها ، وازدهرت الحياة في الأقاليم والولايات تحت سلطان حكومة مركزية رشيدة ، وخضع الجيش كله لإرادة حديدية واحدة ، وساد السلام والأمن في داخل الإمبراطورية ، وإن يكن « سلاماً رومانياً Pax Romana » فرضته القوة والبطش . ونشطت التجارة في طرق ممهدة معبدة امتدت من الشرق إلى الغرب كما تقدم القول في فصل سابق . وإلى جانب العظمة الرومانية كنت ترى الثقافة اليونانية التي مالت إلى تحكيم العقل في كل حقائق الحياة والعالم ، وتعشقت الفن والجمال والشعر والفلسفة ، وجالت جولات صادات حول وظيفة الدولة وواجباتها ، والحرية ومعانيها ، وواجبات الفرد وحقوقه .

مزايا اليونان :

وبينما امتاز الروماني في القرن الأول بالقوة المادية والطموح إلى العظمة والجاه وبسط النفوذ وسعة السلطان وتعبيد الطرقات ، كان اليوناني مثال الأناقة في الصناعة ، والجمال في الفن ، والتعمق في الفلسفة العقلية .

ولقد مهد الروماني - وهو لا يدري - الطريق إلى المسيحية بشرائعه
الحكيمة ، وطرقاته المعبدة ، وإدارته الحازمة ، وعبقريته السياسية ،
ومرونته المدهشة ، كما مهدها اليوناني بعقليته الباحثة المنقبة ، وفلسفته
العميقة ، وتفكيره الحر ، ولغته العذبة ، وميله إلى الإقناع والإقناع ،
وتعشقه طريق الحياة الجميلة والآداب الإنسانية الرفيعة .

فشل الثروة المادية والثقافة العقلية :

ولكن تلك الثروات المادية عند الرومان ، والثقافة الذهنية عند اليونان ،
قد أعوزها الخير الأسمى ، لأن انحلالاً روحياً كان قد انساب إلى أنفس
البشر ، ذلك لأن الآلهة القديمة قد نزلت من فوق عروشها ، وخلت
هياكل جوبيتر وأبولو من ذلك الإيمان الساذج الذي اعتصم به القوم يوماً ،
كذلك خلعت السماء الأولمبية من آلهتها التي حفلت بها قديماً في أشكال من
الجمال المثالي الرائع وأوضاع من القوة الخارقة ، وأمست مجرد صور
تتغنى بها الخيالات الشعرية ، ورغب العالم المثقف عن آلهة هوميروس ،
واستورد آلهة من الخارج مثل إيزيس وأوزيريس وعبادة الفرس .

وليس معنى هذا أن العالم الوثني قد أضاع كل إحساس بحاجته للدين ،
فلما نلنا نلمح في القرنين الأول والثاني من تاريخ الإمبراطورية تطورا في النهوض
الديني تتمثله في أفاضل الفلاسفة والحكماء ، واتجهت الفلسفة بقلوب الناس
وأبصارهم إلى الإله الواحد الأسمى . وكأما كانت تلك الفلسفة المعلم الهادي
الذي أرشد العالم الوثني إلى المسيح ، كما أرشدت الشريعة اليهودية شعب
اليهود إليه . على أن الوحدانية التي مالت إليها تلك الفلسفة القديمة عجزت
عن الحلول محل عقيدة تعدد الآلهة ، وفشلت فشلاً ذريعاً في إحياء عالم
كان على وشك الفناء الروحي ، ولم تزد الناس إلا لهفة وشوقاً نحو الإله
الحق الذي جهلوه .

أما عامة الشعب فقد أغرقوا في خرافات وخزعبلات شتى . فلكل مدينة إلهها أو آلهتها ، ولكل حرفة أو تجارة ربها وحاميها ، ولحوادث الحياة مثل الميلاد والزواج آلهتها أيضاً . ونشطت بين البسطاء والجهلاء شعوزة السحر والمنجمين والعرافين ، وكان أغلب هؤلاء من العنصر اليهودي . وفضلاً عن هذا كله فقد اقتنع عامة الشعب بأن الاحتفاظ بالعبادات والنظم الدينية القديمة من مقتضيات بقاء الدولة وحفظ الأمن فيها ، فإن حاد الناس عنها حاقت بهم المصائب والنكبات - وقد كان لهذه الفكرة أثرها في اضطهاد المسيحية . على أن الفهماء والمثقفين لم يعمأوا شيئاً لمناهضة هذه الآراء السائدة بين عامة الشعب ، لأنهم ظنوا أن الأديان القديمة تمثل دور رجال الشرطة ، وحسبوا هذه المظاهر الدينية الخارجية ضرورة لا غنى عنها للعامة .

وقد حاول الأباطرة من أصحاب النفوذ والسلطان ، لأسباب وطنية ، تقوية هذه العبادات القديمة المألوفة وتحويلها إلى عبادة الدولة وعلى رأسها الإمبراطور . وتطورت الفكرة فصارت « عبادة الإمبراطور نفسه » ، وفشت في كل أنحاء الإمبراطورية ، ونصب لها كهنة رسميون تحت إشراف الدولة ، واقرنت بكثير من المظاهر الرسمية والحفلات والألعاب . وكانت تلك العبادة وطنية أكثر منها دينية . وقد تقزز المسيحيون الأول من هذه العبادة وحسبوا خيانة لعهد الولاء لربهم ، وكان هذا الموقف باعثاً من بواعث الاضطهاد الذي عانوه في العصر الأول كما قلنا .

عالم ضيق آخر :

ولكن عالماً ضيقاً آخر كان له شأن مع المسيحية عند نشأتها ، هو العالم اليهودي . وقد خضعت ولاية اليهودية - في فلسطين - للحكم الأجنبي .

منذ اجتاحت نبوخذ نصر أورشليم سنة ٥٨٦ ق. م. وصارت جزءاً من الإمبراطورية الآشورية القديمة وخلفائها من بعد الفرس والإسكندر المقدوني. ولما تحطمت إمبراطورية هذا الأخير خضعت اليهودية لبطالسة مصر ، ومن بعدهم للأسرة السلوقية في انطاكية . على أن اليهود مع خضوعهم سياسياً لهذه الدول المتعاقبة ، ظلوا حريصين على شعائرهم ونظمهم الدينية. وكانت الأسر الكهنوتية الوراثة هي الطبقة الأرستقراطية في البلاد . عنيت بالشئون السياسية ولم تكن إلا قليلاً بالشئون الدينية . وكانت وظيفة « رئيس الكهنة » مطمع زعماء الأمة لما كانت تدره من المغام المادية ، وما لا يسها من النفوذ السياسي . وقد اشترك مع صاحب هذه الوظيفة ، في إدارة الهيكل وتصريف الشئون الدينية وبعض المسائل السياسية ، هيئة - يرجع تاريخ إنشائها إلى عصر الحكم اليوناني - من المستشارين والشرح القانونيين سميت مجلس « السنهدريم » قوامها واحد وسبعون عضواً .

وكان الناموس اليهودي قانوناً دينياً ومدنياً في الوقت نفسه ، أشبه بالشرعة الإسلامية في بعض بلدان العالم الإسلامي اليوم . وكان شراحه والمجتهدون فيه - الذين أطلق عليهم لقب « الكتبة » - قادة الشعب الدينيين. وكانت أساس اليهودية الأسفار المقدسة وما استنبطه أولئك الشراح والأخبار من أحاديث وأحكام لا عد لها ولا حصر . وتمشياً مع الرغبة في الاستزادة من شرح الناموس وفهمه ، ومن الصلوات والعبادة ، قام المجمع اليهودي حينما حلت اليهودية . ولعل تاريخ إنشاء المجمع يرجع إلى عهد السبي . وكان المجمع مكاناً محلياً لاجتماع كل اليهود في المنطقة التي وجد بها تحت رئاسة نفر من « الشيوخ » يتزعمهم رئيسهم . وكان لهؤلاء سلطة الحرم ومعاقبة المعتدين . أما عباداته فكانت في منتهى البساطة ، يقوم بها أي عبراني ، وإن كانت قد جرت أن يقوم بها عادة رئيس المجمع ، وشملت الصلوات

وقراءة الناموس والأنبياء والشرح (العظة) والبركة . وبسبب هذه المجامع ، قلت قيمة الهيكل في حياة الشعب الدينية ، إلى أن انهار وتحطم في سنة ٧٠ م . دون أن يترتب على ذلك بالضرورة لإنهيار اليهودية .

وقد استقلت ولاية اليهودية حقبة من الزمن من سنة ١٦٧ ق . م . عقب ثورة المكابيين إلى أن اجتاحتها الرومان سنة ٦٣ ق . م . وفي عهد المكابيين انقسمت اليهودية أحزاباً دينية . فالحزب الأرستقراطي السياسي الذي انضمت إليه أسر زعماء الكهنة عرف بالصدوقيين . وكان حزباً عالمياً لم يعبأ بالعقائد الدينية . وكانت أكثر نظرياتهم مستقاة من اليهودية القديمة المحافظة ، فتمسكوا بالناموس فقط ، دون الأحاديث والأحكام المستنبطة ، وأنكروا القيامة وخلود النفس كما تقدم . ومع نفوذهم السياسي لم يحظوا بحب الشعب لهم ، وهو الذي كره كل نفوذ أجنبي غريب ، واعتصم بالناموس كما شرحته التقاليد والأحاديث . وكان من أنصار هذا الموقف الشعبي حزب آخر أسموا أنفسهم الفريسيين ، أي الانفصاليين ، ومن هذا العهد يبدأ النضال الطويل بين الصدوقيين والفريسيين .

ولم يكن الفريسيون حزباً سياسياً ، ولكن عنوا شديد العناية بالناموس ودقائقه وأحكامه ، وآمنوا بالأرواح الصالحة والشريرة والملائكة والشيطان ، وبالقيامة بعد الموت ، وبالثواب والعقاب في الآخرة كما قلنا من قبل . واشترأت أعناقهم وتلهفت قلوبهم لتحقيق رجاء المسيا الموعود به ، وكانوا في هذا كله على نقيض مع الصدوقيين .

رجاء المسيا :

وقد كان هذا الأمل المرموق في مجيء المسيا قبلة أنظار الفريسيين وعامة الشعب معاً ، وكان الباعث لإليه الشعور القومي الحاد والإيمان بالله . ويبلغ

هذا الشعور ذروته في فترات الإرهاق والظلم ، فإن هذا الرجاء لم يشعر به إلا قليلا في عهد المكابيين وهي فترة الاستقلال القومي ، ولكن لما اجتاحت الرومان البلاد ، وأحس الشعب بوطأة النير الأجنبي ، قوى هذا الأمل مرة أخرى ، وتوقعت الأمة تدخلا إلهيا يمحى السلطة الرومانية الغاشمة بقوة المسيا الحارقة ، ويقوم ملكوت الله الذي تبعث فيه اليهودية من جديد تحت حكم ملك بار من نسل داود ، ويعود أشتات اليهود من كل أنحاء الامبراطورية إلى الوطن القومي في اليهودية ، ويبدأ العصر الذهبي في تاريخ الأمة .

يهود الشتات :

وكانت فلسطين موطن اليهودية ومهد المسيحية . على أنه كان لشتات اليهود في أرجاء الامبراطورية أثر عظيم في تاريخ المسيحية . وقد بدأ هذا الشتات منذ الغزو الآشوري والبابلي ، وازدادت هجرة اليهود من فلسطين في حكم البطالسة وفي أوائل عهد الامبراطورية الرومانية . وقد قيل إن عدد المهاجرين من اليهود يعادل خمسة أو ستة أضعاف اليهود الذين بقوا في اليهودية . وكانت لهم جاليات كبيرة العدد في الاسكندرية ومدائن سورية وآسيا الصغرى ، وقلما خلت منهم مدينة من مدن الامبراطورية كلها . وبسبب تعصبهم لعنصريتهم ، لم تتوثق بينهم وبين الشعب الوثني الروماني روابط من المودة ، على أنهم كانوا موضع احترام الحكام والولاة لبراعتهم في التجارة وولائهم لدينهم واعتصامهم بالأخلاق السامية أحيانا كثيرة ، وكانت يهوديتهم بسيطة خالية من التعقيد الفريسي الفلسطيني ، فنادوا بإله واحد أعلن ذاته في أسفاره المقدسة ، ودعوا إلى التمسك بالأخلاق الكريمة والإيمان بالخلود والعقاب والثواب وبعض الطقوس الأخرى مثل حفظ السبت والختان والعبادة في المذبح في وضع خال من الطقسية المحكمة الدقيقة .

فقال كثيرون من الوثنيين إلى دعوتهم هذه ، وأقبل إلى المجمع كثيرون من الدخلاء الأتقياء ، الذين غدوا فيما بعد نواة دعاة المسيحية الأولين .

وقد تأثرت يهودية الشتات بالفلسفة الإغريقية وخاصة في مصر ، فترجمت أسفار العهد القديم إلى اللغة اليونانية بمدينة الاسكندرية وهي المسماة بالترجمة السبعينية ، وامتزجت أيضاً في الاسكندرية آراء العهد القديم الدينية بالآراء الفلسفية اليونانية وخاصة الأفلاطونية والرواقية . وكان أشهر أولئك الشراح الاسكندريين وأبعدهم أثراً العلامة اليهودي « فيلو » الذي اعتقد أن الكتاب المقدس هو أحكم الكتب جميعاً ووحى إلهي صادق ، وأن موسى أكبر الحكماء والمعلمين إطلاقاً ، ولكنه بطريق الاجتهاد والتأويل والتخريج وفق بين آراء الكتاب المقدس وبين أفضل الآراء والمذاهب في الأفلاطونية والرواقية . وكان لهذا المزج والتوفيق أعمق الأثر فيما بعد في نشوء الإصطلاحات اللاهوتية المسيحية ، وفي دراسة الكتاب المقدس .

تلك هي الأحوال السياسية والاجتماعية والأخلاقية التي كان لها بعض الفضل على إنتشار المسيحية .





سمو الأخلاق التي اتصف بها المسيحيون

[النقد اللاذع - المسيحيون أمام محكمة « بلينى » -
العيوف عن متع العصر - الافراط في الفضيلة - احتقار
المعرفة التي ليست للخلاص - الصرامة في العلاقة الجنسية -
الدقة في الحياة العملية] .

قد زكى المسيحى فى عهده الأول حياته بفضائله وسمو أخلاقه . وغدا
مألوما ومسلما به ، أن الاقتناع الإلهى الذى أشرق عليه نوره ، وأخضع
فكره وميوله ، لابد أن - يظهر فى الوقت عينه قلبه ، وتسلس له
تصرفاته وفعاله .. وإننا لنرى بواكير المدافعين الذين نصبوا أنفسهم للدفاع
عن حق المسيحية ، يشيدون بأعمال الطهر والبراءة التى أبدأها المسيحيون ،
كما نرى المدافعين المتأخرين يتغنون بقداصة السلف الصالح . وهؤلاء
وأولئك يرسمون بألوان مشعة ، الأخلاق الباهرة التى أدخلتها إلى العالم
المناداة برسالة الإنجيل . ومن العوامل الجوهرية التى ساعدت على هذا
التطور فى حياة المسيحيين ، التوبة عن خطاياهم التى سلفت ، والرغبة
الملحة فى ترقية المجتمع الذى عاشوا بين ظهرانيه .

النقد اللاذع :

ومن الظواهر الأولى فى فجر المسيحية ، ذلك النقد اللاذع واللوم
العنيف ، الذى ساقه المعاندون المكابرون ، فى زعمهم أن المسيحيين أغروا

أشهر المجرمين وحثالة المجتمع للانضمام إلى زمرةهم ، وهؤلاء لم يلبثوا طويلاً بعد الإحساس بالندم ووخز الضمير ، حتى أقنعوهم أن يتقدموا إلى مياه المعمودية لغسل آثامهم السابقة ، الأمر الذي أثبت الآلهة الوثنية أن تمنحهم إياه . على أن هذا اللوم حين يخلص من جهالة أصحابه وسوء نواياهم ، يقف شاهداً على كرم الكنيسة وحبها على الأشرار الساقطين ، بل هو شاهد على إمتدادها وسرعة إنتشارها .

ولن يجد دعاة المسيحية وخدامها غضاضة في الاعتراف في غير سنجل أو استحياء ، بأن كثيرين من أبرز مشايير القديسين ، كانوا قبل المعمودية من أحط الخطاة الذين لفظهم المجتمع . وقد قفا دعاة الإنجيل نتطلى سيدهم وربهم - فلم يحتقروا المجتمع البشري بكل ما فيه من سيئات وإخترافات ، ولم ينبذوا الخطاه الآثمين ، الذين طغت عليهم ظروف المجتمع الظلمة ، وساقطهم إلى اقتراف الكبائر والموبقات . وهؤلاء .. كما يحاثننا التاريخ .. بعد أن كانوا ينتقلون من آثامهم وخرافاتهم إلى رجاء الخلاود الجديد ، كانوا يكرسون أنفسهم وحياتهم لحياة التوبة والفضيلة ، وكانت شهوة الكمال تتفاعل في طبائعهم ، وتصير النزعة الغالبة في نفوسهم ، حتى اتقاء تسوية بهم إلى النقيض من بشاعة الرذيلة إلى الإفراط في الفضيلة .

ويوم كان المتنصرون يستقبلون في عداد المؤمنين وبقبولون في أسرار الكنيسة ، كانوا يلفون أنفسهم خلائق جديدة ، ذات طبائع طاهرة نقية ، تأبى كل الإباء أن تعود إلى سابق العهد والماضي البغيض . ولما كان المسيحيون في أول عهدهم ، جماعات قليلة في مجتمع وثني ، كان كل فرد فيهم يراقب في يقظة حادة مسلكه ومسلك إخوته ، يقينا منه أن له نصيباً في حسن الأحداث المشتركة إذا أحسن أتاه ، أو خيبة الأمل المشتركة إذا أساء زملاء له في الدين .

المسيحيون أمام محكمة « بلينى » :

ويروى التاريخ أن المسيحيين سيقوا يوماً إلى محكمة « بلينى الصغير » ولاية بشنية بآسيا الصغرى ، فشهدوا فى حماس وجرأة أمام الوالى الرومانى ، أنهم يعيدون كل البعد عن أى مؤامرة يجرمها القانون ، وأنهم ملتزمون التزاماً جاداً خطيراً بالامتناع عن كل الجرائم التى تعكر صفو المجتمع العام أو الخاص ، وعن السرقة والسلب والنهب والزنى والغش والفساد والرشوة . وبعد هذه المحاكمة بقرن واحد ، يكتب القديس « تروليانوس » فى كبرياء أمينة مخلصه وفى تفاخر واعتزاز - إن أحداً من المسيحيين لم يقع تحت سيف الجلاد بجريمة اقترفها ، إلا إذا كان هذا القتل دفاعاً عن دينه واستمساكاً بالحق الذى يؤثر طواعية أن يستشهد فى سبيله .

العيوف عن متع العصر :

وكانت حياتهم رضية جادة ، عافوا متع العصر وإباحيته ، وتمسكوا بالطهر والعفة والاعتدال والاقتصاد وسائر الفضائل الفردية والقومية . ولما كانت غالبيتهم تعمل فى التجارة والمهن ، فقد أحسوا أنه لزام عليهم أن يرعوا أدق قواعد الأمانة والنزاهة والانحلاص والصدق فى معاملاتهم . وقد روضهم عيوفهم عن العالم على التواضع والوداعة والصبر . وكالما أمعن الأعداء فى اضطهادهم ، زاد ترابطهم واتحادهم بعضهم مع بعض ، وكان تعاونهم المتبادل مفخرة لهم أمام أنظار الشامتين .

الإفراط فى الفضيلة :

ومما هو جدير بالذكر فى معرض الحديث عن أخلاقيات المسيحيين الأولين ، أنه حتى هفواتهم أو سقطاتهم كان مردها الإفراط فى الفضيلة ،

وذلك لأن الأساقفة وأعلام الكنيسة وحكامها ، الذين يعتد بأرائهم وسعة نفوذهم ، وقوة تأثيرهم على المبادئ والممارسات التي اعتز بها معاصروهم - قرأوا الأسفار المقدسة بروح الولاء والتعبد ، وبقليل من البحث والنقد والدرس والاستقراء، وكان من جراء هذا، أن قبلوا أحكام المسيح والرسول بمعنائها الحرفي ، على نقيض الشراح الذين خلفوهم ، والذين شطحوا أحياناً في التأويلات السائبة التصويرية ، ورغبة من آباءنا الأولين الامناء الغيورين ، في وضع كمال الانجيل فوق حكمة الفلسفة ، ذهبوا في واجبات إذلال النفس والطهر والصبر ، إلى حدود يصعب علينا بلوغها ، بسبب ما نعانیه من الضعف والفساد في هذا العصر .

إحتكار المعرفة التي ليست الخلاص :

وحيازة المعرفة وممارسة تمارين العقل والخيال ، والانسياق في الأحاديث الطريفة السائبة - هذه كلها قد تكون ملهاة للعقل الحر في أوقات فراغه ، ولكن الآباء الأولين في تشددهم ، قد نبذوا هذه الملاهى ، أو سلموا بها في أضيق الحدود ، وهم الذين احتقروا كل معرفة غير نافعة للخلاص ، والذين حسبوا كل انزلاق في الحديث إساءة لموهبة الكلام التي حباها الخالق الانسان البشرى . ونحن في عصرنا الحاضر ، الذي يقترن فيه الجسد بالنفس إقتراناً محكما ، نجز لأنفسنا أن تتذوق في براءة واعتدال بعض هذه الملاهى ، على أنه لم يكن هذا شأن أسلافنا الأتقياء ، الذين في نهضتهم لمحاكاة الملائكة في كمالهم ، احتقروا كل لذة جسمية أرضية ، وقد ظنوا أن مظاهر الفرح الدنيوى والبيوت الفاخرة والأثاثات الأنيقة ، إنما هي من أفاعيل الكبرياء والشهوانية . ويليق بالمسيحي الحق الذي يحسن بذنوبه ، أن يقنع بالمظهر البسيط المتواضع ، وفي عذلم لزخارف الدنيا وأباطيل العالم ، دققوا في كثير من التفاصيل الصغيرة التي أثارت غضبتهم

التقوية ، ونذكر من هذه الشعر المستعار—والثياب الزاهية الألوان وآلات الموسيقى ، وأوعية الذهب والفضة والوسائد الوثيرة — (لأن أباهم يعقوب أسند رأسه على حجر) ، والعنبر الأبيض ، والأنبلدة الاجنبية والحمامات الساخنة وحلق الذقون ، التي حسبها القديس « تروتوليانوس » ، أكلوبة لتشويه الوجه ، ومحاولة ممجوجة لتحسين ما أبدعه الخالق .

ولما تسربت المسيحية إلى طبقات الأغنياء والموسرين والمثقفين ، اقتصرت مراعاة هذه القواعد على القلة التي اتجه طموحها إلى القداسة الكاملة .

الصرامة في العلاقة الجنسية :

ومن هذا المنطلق عينه روعيت الصرامة في العلاقة بين الجنسين في عهد الآباء الأولين ، وهم الذين مجوا كل متعة قد تشبع الحواس الجسدية الشهوانية ، وتحط من قدر الطبيعة الروحية في الإنسان . ومن آرائهم المحبة التي اعتنقوها ، أنه لو أن آدم اعتصم بطاعته للخالق ، لكان قد عاش إلى . بد ، في حالة من البراءة العذراوية ، وأن انماطا من العيش قد سادت الفردوس ، ليحيا فيه نوع من الخلائق البريئة الخالدة . وقد شرع الزواج لأنسال آدم الساقطة ، كشرط ضروري للإبقاء على النسل ، للحد من جموج الإباحية والشهوانية الطبيعية . وأجمع رأيهم على أن السماح بالزواج الاول ، يوائم أهداف الطبيعة والمجتمع ، وأن الاختلاط الجنسي يرتفع قدره ، بحيث يكون علاقة سرية تشبه اتحاد المسيح بالكنيسة ، ولذلك لا يجوز حله بالطلاق ، بل حسبوا كل زواج ثان لونا من ألوان الزنى ، وكل من يقدم على ذلك كان يحسب متعلدا على شريعة الطهر المسيحي ، كان يحرم من التقدم لأسرار الكنيسة وكافة امتيازاتها . وما دامت الرغبة قد وصفت بأنها جريمة ، وما دام الزواج قد أبيع وهو يقتضيه ، لم يكن

مناص في ضوء هذا المبدأ ، من اعتبار العزوبة أقرب مثال للكمال الإلهي .
ولذلك امتلأت الكنيسة الاولى بعدد وافر من الجنسين رجالا ونساء ، نذروا
العفة المستديمة ، بين هؤلاء نذكر القديس «أوريغانوس» الذي حسب العزوبة
أقوى حالة لنزع سلاح المجرب الخبيث . وقام بين الزهاد المسيحيين
المتقشفين نفر كانوا مفخرة لطهر الحياة وسط لب التجارب . وههنا
نشهد الآثار المبكرة لمبادئ الرهبنة ونظمها ، التي لها شأن خطير في
تاريخ المسيحية .

الدقة في الحياة العملية :

وحتى الحياة العملية لم تسلم من هذه المبادئ التقشفية التي أملت
الأخلاقيات المسيحية البدائية في عهودها الفطرية . فلقد امتنعوا عن القسم
أمام القضاء ، ولم يقبلوا أبداً سفك دم إخوانهم في الإنسانية ، سواء
بسيف العدالة أو في الحرب ، حتى وإن هددت محاولتهم سلام المجتمع
وأمنه . وفي طاعة سلبية خضعوا لأحكام القانون ، وأبدوا الولاء كله
للولاة والحكام ، وقد عرضهم هذا الموقف لكثير من هجمات مواطنيهم
الذين تساءلوا قائلين : « ترى ماذا يكون مصير الامبراطورية إذا هاجمها
البرابرة من كل حدب ، إذا اعتنق كل الشعب عقيدة هذه الطائفة الغريبة من
البشر ؟ وإجابة على هذا السؤال المهيئ ، قال المدافعون أقوالاً غامضة مبهمه ،
وذلك لأنهم أخفوا حقيقة الأسباب التي أدخلت إلى أنفسهم الطمأنينة
والسلام ، ألا وهي توقعهم زوال هذا العالم بحكوماته ونظمه يوم المحي
الثاني لربهم وسيدهم ، الذي كان أقرب الأشياء وأحبها إلى قلوبهم .

٩

قوة نظام الجماعات المسيحية

[مهام جديدة في ادارة الكنيسة - السياسة البدائية .
الاولى - نشوء المعلمين الانبياء وتعيين الاساقفة - تنصيب
الرئاسات - اختصاص الاسقف في الكنيسة الاولى - نشأة
المجامع الاقليمية - النزاع بين الاسقف والشعب - نشأة
وظيفة رئيس الاساقفة - مطامع اسقف رومية - التمييز
بين العلماء ورجال الدين] .

ولكن السجايا البشرية ، مهما سمت واشتعلت بحماس مؤقت ، لا بد .
وأن تعود تدريجاً إلى مستواها الطبيعي اللائق بها ، وتبأشر الميول والنزعات
التي توائم حالتها الحاضرة . فالمسيحيون الأولون - كما رأينا - أنكروا على أنفسهم
لذاذات العالم ، وأبوا الانغماس في أعماله ومشاكله . ولكن سرعان ما استيقظت
فيهم رغبة العمل التي لن يخبو أوارها كلية ، ووجدوا مهام جديدة في إدارة
الكنيسة ونظمها . وذلك لأن الكنيسة بعد أن هاجمت ، كمجتمع منفصل .
أديان الإمبراطورية الرسمية ، كانت مضطرة أن تقتبس وضعاً من الأوضاع
في سياستها الداخلية ، وأن عدداً كافياً من الخدام ، يوكل إليهم لالشئون
الروحية فحسب ، بل الإدارة الدنيوية للجماعات المسيحية . ولقد انتجت
الغيرة لصيانة أمن هذا المجتمع الجديد وكرامته واتساع رقعته - روحاً
وطنية حاكت تلك الروح التي تشبعت بها عقول الرومان ، في صيانة
الجمهورية التي اعتزوا بها أيما اعتزاز . بل حاكوا الرومان أحياناً في عدم
المبالاة بالوسائل التي تدنيهم إلى غاياتهم المرجوة .

مهام جديدة في إدارة الكنيسة :

وقد مارس قادة ذلك المجتمع المسيحي وظائف عديدة ، مثل فضح الأخطاء في العقيدة التي أسموها هرطقة ، أو إدانة أفاعيل التحزب أو مناهضة الإخوة المشاغبين المخطئين وطردهم من أحضان المجتمع الذي تجاسروا على تعكير سلامه وسعادته . وقد تعلم أولئك الحكام الكنسيون ، أن يجمعوا بين حكمة الحيات وبراعة الحمام . وكثيراً ما أساءوا التقدير في كلتا الحالتين .

السياسة البدائية الأولى :

ومن اليسير أن نصور لأنفسنا ، السياسة البدائية الأولى التي اتبعتها الكنيسة في القرن الأول ، بالنظر إلى ما فعلته الكنائس في أورشليم وأفسس وكورنثوس ، وغيرها من مدن الإمبراطورية . وتلك الجماعات المنفصلة وحد بينها الإيمان والمحبة فقط ، وقام دستورهما على مبدأ الاستقلال والمساواة .

فشل المعلمين الأنبياء وتعيين الأساقفة :

أما التنظيم والعلم الإنساني ، فكان من نصيب فئة يسمونها «الأنبياء» الذين يستدعون للقيام بهذه الوظيفة ، بغض النظر عن السن أو الجنس أو القدرات الطبيعية . وكان هؤلاء كلما أحسوا بوازع إلهي ، يعلنون موحيات الروح ونداءاته في مجتمع المذنبين . ولكن في كثير من المواقف ، أسئ استخدام هذه المواهب الفذة ، وأخطأ أولئك المعلمون الأنبياء في تأويلهم واجتهادهم ، وفي توقيت نداءاتهم ودعواهم ، وبسبب كبريائهم أو غيرتهم الخاطئة ، أدخلوا في كنيسة كورنثوس الرسولية مثلاً ، سلسلة من الاضطرابات المحزنة ، وإذ يسمى نظام الأنبياء عقياً ، بل ضاراً ،

تسحب الكنيسة منهم سلطاتهم ، وتلغى وظائفهم ، ويوكل بالوظائف الدينية ، إلى خدام الكنيسة الذين أطلقوا عليهم لقب « أساقفة » ، و « شيوخ » . وفي أول الأمر كان الإسمان يدلان على معنى واحد ووظيفة واحدة ، فلقب « شيخ » عبر عن السن أو الرزانة والحكمة . أما « الأسقف » ، فقد كانت مهمته الرقابة على أخلاق وتصرفات المسيحيين الذين كانوا تحت عنايته الرعوية . وكان عدد أولئك « الشيوخ والأساقفة » ، يزيد أو يقل تبعاً لكثرة أو قلة الجماعات الناشئة ، في سلطة متساوية ومجامع مستقلة .

تنصيب الرئاسات :

على أن أكمل أوضاع المساواة والحرية ، تتطلب اليد المنظمة ممارستها . رئيس أعلى . وبحكم طبائع الأشياء تخلق المناقشات العامة في أمة هيئة وظيفة الرئيس الذي يتمتع على الأقل بسلطة جمع متجهات الفكر المختلفة ، واتخاذ القرار الحاسم في المجتمع . ورغبة في صيانة الهدوء الذي كان من المحتمل أن يشوب صفوفه شائبة في فترات الانتخاب السنوية أو الموسمية ، قرر المسيحيون الأولون ، تنصيب رئاسة مكرمة مستديمة ، واختيار أكثر الشيوخ حكمة ، وأقدسهم حياة ، وأوفرهم فضلاً ، لكي يشرف مدى حياته على القيام بواجبات الحاكم الكنسية ، وفي هذه الظروف ارتفع لقب « الأسقف » فوق لقب « الشيخ » الأقل منه شأنًا . وبينما ظل الأخير مميزاً في كل مجلس مسيحي ، احتفظ الأول بالكرامة كرئيس جديد . وقد كان لهذا النظام الأسقفي الذي أدخل إلى الكنيسة قبل نهاية القرن الأول ، مزايا جمة بعيدة الأثر ، في توطيد أركان السلام في الكنيسة ، كما كان له شأن خطير في خلق أمجاد الكنيسة في مستقبل تاريخها . وقد رحبت به كل الجماعات المسيحية المتناثرة في أرجاء الإمبراطورية ، وما تزال الكنائس

في الغرب وفي الشرق محتفظة به حتى اليوم ، كأثر من آثار النظام الكنسي
الأصيل القديم ، له قدسيته وكرامته .

اختصاص الأسقف في الكنيسة الأولى :

وقد كانت للأسقف في الكنيسة الأولى اختصاصات معينة ، أكثرها
روحية ، وفي بعض الأحيان زمنية ، مثل إجراء الأسرار ، ورئاسة الحفلات
الدينية ، ورسامة خدام الكنيسة ، وإدارة الأموال العامة . والفصل في
القضايا والمنازعات التي كان يأبى المسيحيون عرضها على المحاكم الرومانية
الوثنية . ولفترة معينة من الزمن ، كانت هذه السلطات تمارس بمشورة
مجمع الشيوخ ورضاء المسيحيين في مجتمعاتهم . وقد حسب الأساقفة الأولون
إخوة متساوين ، وخداماً مكرمين لشعب حر . وحين كانت تخلو وظيفة
الأسقفية بالموت ، كان يتم اختيار رئيس جديد من الشيوخ بانتخاب عام
يشترك فيه كل أفراد الجماعة المسيحية كواجب مقدس .

كان هذا هو الدستور الحر المعتدل ، الذي خضع له المسيحيون أكثر
من مائة عام بعد موت الرسل . وكان في داخل كل مجتمع مسيحي حكومة
جمهورية منفصلة مستقلة . ومع أنه كان متبعاً أن تتصل أبعاد الولايات
بالأخرى ، عن طريق تبادل الرسائل وإيفاد المندوبين ، إلا أن العالم المسيحي
لم يكن قد تضام بعد تحت سلطة عليا ، أو مجمع تشريعي . ولما تضاعف
عدد المؤمنين ، وكثرت الجماعات المتفرقة ، تكشفوا المزايا التي قد تعود
عليهم من التواصل ، لبحث المصالح المشتركة . وفي أواخر القرن الثاني ،
أنشأت كنائس اليونان وآسيا ما عرف في التاريخ بالمجامع الإقليمية ، التي
صاغوا هيكلها بالاقتباس من النظم القانونية والتشريعية التي كانت
سائدة في بلادهم .

نشأة المجامع الاقليمية :

وسرعان ماتقرر كعرف متواضع عليه ، وقانون مسلم به ، أن يجتمع أساقفة الكنائس المستقلة في عاصمة الولاية ، مرة في الربيع وأخرى في الخريف . وكان يشترك في مداولاتهم كمستشارين نخبة من الشيوخ الممتمزين ويحضرها أيضاً عدد من أفراد الشعب كستمعين . وقد تعرضت قراراتهم إلى كل مشا كل الإيمان والنظام ، وكان مفهوماً أن الروح القدس ، هو الذي هيمن على إجراءات هذا المجتمع المسيحي الحر ، وقد أشبع نظام المجامع كل المطامع الشخصية وكافة المصالح العامة ، وما انقضت سنوات قلال ، حتى عم هذا النظام كل أرجاء الأمبراطورية ، وأنشئت إدارة خاصة ، لتبادل المعلومات بين المجامع الإقليمية ، وتوحيد الإجراءات والقرارات من ثم تأخذ الكنيسة الكاثوليكية (الجامعة) شكل وقوة جمهورية فيدرالية جلية الشأن .

وإذ تطغى سلطات المجامع على السلطة التشريعية في الكنائس المفردة يتخذ الأساقفة من اتحادهم معاً ، فرصة للاستزادة من السلطة التنفيذية بطريقة حكمية ، وإذ تتوحد كلمتهم في تقوية مصالحهم ، يبدأون التهمج على الحقوق الأصلية التي كان يتمتع بها القساوسة والشعب . والمتبع للتاريخ الكنسي في القرن الثالث ، يشهد تغيراً في أسلوب الملاينة والاستعطاف التي جرى عليها الأساقفة ، إلى أسلوب الأمر والنهي وهنا تغرس بذور الشحنة واغتصاب السلطة التي شهدتها التاريخ فيما بعد . كلمة حق يقولها التاريخ ، إن أولئك الأساقفة في موقفهم هذا ، صانوا وحدة الكنيسة ، وقوتها بقيت ممثلة في الوظيفة الأسقفية التي تمتع فيها الأسقف بنصيب متساو مع زملائه ، ولتثبيت سلطاتهم ، ادعوا أن السلطة الأسقفية مستمدة من الله ذاته ، وأنهم

وكلاء المسيح على الأرض وخلفاء الرسل ، ونماذج رؤساء الكهنة في الشريعة الموسوية .

النزاع بين الأسقف والشعب :

ولم ينكر الأساقفة السلطة العليا في المجمع الذي ضم إخواناً مساوين لهم ، ولكن الأسقف في أبروشيته الخاصة ، أصر على طاعة كاملة من جانب القساوسة والشعب ، وتصرف كأنما الراعي في مرتبة أدنى من أفراد الرعية — على أن فرض هذه الطاعة لم يكن أمراً هيناً وإثماً ، وشهد التاريخ في حالات كثيرة لإصراراً عنيداً من جانب ، ومقاومة عنيفة من الجانب الآخر — وكسبت القضية الأسقفية الجولة في آخر المطاف ، وذلك بفضل جهود كثيرين من زعماء الكنيسة وقادتها ، أمثال الأسقف « كبريانوس » في قرطاجة بشمال أفريقية ، الذي جمع بين الفن السياسي الديني الأصيل ، وبين الفضائل المسيحية التي هيأت كثيرين منهم ليكونوا قديسين وشهداء .

نشأة وظيفة رئيس الأساقفة :

والعوامل عينا التي أفسدت في أول الأمر مبدأ المساواة بين الشيوخ ، أدخلت إلى صفوف الأساقفة مبدأ التفاوت في الرتب ، وبالتالي ، التفوق في الاختصاصات ، وكلما كانوا يجتمعون في الربيع أو الخريف في المجالس الإقليمية ، كان يميز المجتمعون المزايا الشخصية وذيوع الشهرة لكل من الأساقفة في مجتمعهم ، وكان الجمهور يتأثر بحكمة وفصاحة قلة من الزعماء . وقد حدث أن رئاسة المجمع في كل ولاية كانت تعطى عادة لأسقف عاصمة الولاية ، وسرعان ما اكتسب هذا الأسقف لقب كبير الأساقفة ، ورويدا رويدا أعد نفسه لاغتصاب سلطات زملائه ، كما فعل الأساقفة من قبل في مجمع الشيوخ .

مطامع أسقف رومية :

ومن وجهه النظر المدنية والكنسية ، كان متوقفاً أن تفوز رومية بقصب السبق ، وتطلب طاعة الولايات الأخرى لسلطانها . فقد كانت الكنيسة في رومية ، أعظم الكنائس شأنًا ، وأكثرها عددًا ، وأوسعها سلطانًا ، وأقدم المؤسسات المسيحية في الغرب ، بل هي التي تولت إيفاد دعائها ومرسلها لنشر الدعوة في أوروبا ، ثم إنها اعتزت بمركز ممتاز من حيث أنها كانت الموطن الذي جاهد واستشهد فيه الرسولان الكبيران « بولس وبطرس » . وفي حكمة ودهاء ، ادعى أسقف رومية أنه وريث المزايا والكرامة التي اختص بها الرسول « بطرس » ولم ينكر عايه أساقفة إيطاليا والولايات الأخرى الأولية في النظام الكنسي . ولكنهم أبوا عايه في اشمزاز وتقزز ، وظيفة السيد أو الملك ، وأبدى الأساقفة الآخرون في آسيا وأفريقية مقاومة عنيدة لخفض هذا السلطان الروحي والزمني . ويشهد التاريخ أن « كبريانوس » أسقف شمال أفريقية ورئيس المجامع الإقليمية ، وقف موقف المعارضة السافرة . لمطامع الأسقف الروماني ، واستمال إلى جانبه الأساقفة الشرقيين في آسيا ، وراح هؤلاء وأولئك يقدفون بعضهم بعضاً بقرارات الحرمان في غضب قاس ، وولاء لقمضيته ادعى كل من الفريقين حرصه عليها . ولا يسهل المؤرخ المسيحي إلا أن يمتلئ قلبه بالأسى والألم ، وهو يقرأ في بطون كتب التاريخ فواجع العزل والحرمان ، التي أصابت بعضاً ممن كانوا رؤساء أساقفة . وقديسين وشهداء ، ويؤلمه أشد الإيلام ، أن يرى تصارع أبطال الدين وأمرء الكنيسة الفتية التي أرادها ربها أن تكون رئيسة السلام ، وداعية الحق والخير .

التمييز بين العلمانيين ورجال الدين .

وكان لنمو السلطة الكنسية أثر آخر ، وهو خلق ذلك التمييز المأثور في التاريخ ، بين العلمانيين ورجال الدين . فالأواون هم عامة الشعب المسيحي .

والآخرون هم تلك الطبقة من الناس ، التي أفرزت لخدمة الدين . ولم يكن هذا التمييز الطبيعي معروفاً من قبل بين اليونان والرومان . وقد ثارت بين الفريقين في بعض المواقف المنازعات التي عكست سلام الكنيسة ، ولكنهم اتحدوا معاً في الغيرة والنشاط والجهاد ، في سبيل القضية المشتركة . ألا وهي امتداد المسيحية وانتشارها في كل أصقاع الأرض .





هل كان كل المسيحيين شهداء ؟

[هل كان كل المسيحيين شهداء ! ؟ - الضعف والجبن والردة - معجزة المسيحية] .

ترى ماذا كان مبعث انتصار المسيحية ؟ أكان ذلك راجعاً إلى ثبات أبنائها وشجاعتهم وبسالتهم ؟ قد يكون هذا حقاً ولكنه بعض الحق . فإنه كما حدث في عهد الوالى « بلينى » في مستهل القرن الثانى ، كذلك حدث لإبان اضطهاد « ديسيوس » ، إذ ارتد كثيرون من المسيحيين عن إيمانهم رعباً وهلعاً . وإنه لمن الشطط في التقدير أن تصور جمهرة المسيحيين في القرون الثلاثة الأولى تصويراً يجعلهم كلهم على نمط الشهداء الذى اعتزت الكنيسة بذكرياتهم وفعالهم المحيطة .

الضعف والجبن والردة :

والحق نقول إن عامة المسيحيين - في كل العصور - خامرهم شئ من الجبن وخوار العزم ، وتولاهم الضعف والجزع في اعترافهم أمام الناس وساورهم بعض الوهن في المقاومة والصمود ساعة الخطر . ولاخفاء أن كثيرين منهم ارتدوا عن دينهم في فترات الاضطهاد لينجوا بأموالهم ومناصبهم وحياتهم . وفي ذلك العصر الذى نحن بصددده كانت الجماعات المسيحية قد بـزاد عددها ، وتزايد العدد ينشأ عنه عادة بعض الوهن في القوة الداخلية المعنوية . وكانت الكنيسة قد بعدت عن الفكرة الأولى التى أملت عليها توقع نهاية العالم السريعة ، واحتلت مكانتها في العالم ، وطبيعى أن ينساب إليها

بعض روح العالم ، وفتحت أبوابها على مصاريحها ، فولج إليها عامة الشعب . جماعات وزرافات ، فاندس فيها بطبيعة الحال كثيرون من أصحاب البواعث الضعيفة الوضعية في الطبيعة البشرية . وبين أن العلاقات التي سادت الجماعة المسيحية الأولى في بدء عهدها ، يوم كان المؤمنون كأخوة في دائرة ضيقة محدودة ، ليست كذلك التي سادت بعدئذ ، يوم كان نصف سكان المدينة مثلاً من المسيحيين . وطبيعي أن تختفى بعد هذا اتوسع المحبة الأخوية العملية ، أو على الأقل تقتصر ممارستها على رجال الدين الذين يمثلون الجماعة المسيحية . ثم إن الأعضاء العلمانيين مالوا إلى التراخي والاستهتار في مراعاة نظم الكنيسة ، وظهر مرة في تاريخ المسيحية مقياسان للآداب والأخلاق : أحدهما لرجال الدين الذين كان ينتظر منهم التقيد الشديد بالصارم بأوضاع المسيحية الحقة ، والثاني للعلمانيين الذين اكتفى معهم بالإمتناع عن الكبائر والموبقات . وإنا لنشهد من منتصف القرن الثاني جنوباً إلى العالمية من جانب الكنيسة ، ولم يكن من هذا بد ، فإنه كما اقتبس العالم من روح المسيحية ، اقتبست المسيحية شيئاً من روح العالم . وحين نفكر في جماهير المؤمنين في القرن الثالث ، نجد كثيرين منهم مسيحيين بالإسم ، ونجد في أحضان الكنيسة الشيء الكثير من الكراهية والعداء والحسد والطمع . وبين أيدينا من مخلفات القرن الثاني وصف تخيله في رؤياه مسيحي من أبناء رومية يصور فيه الكنيسة ، وقد تشوه وجهها بالبقع والتجاعيد ، وأصابها أمراض مختلفة . وكان هذا هو الواقع فعلاً : فإنه على مر الزمن اندثرت روح الشهداء الأولين ووقفت الدولة الرومانية في عهد ديسيوس ودقلديانوس أمام كنيسة بدأ الهرم يدب في أعضائها ، وبعدت عن مثلها وجنحت إلى العالمية . ومن هنا كانت حالات الردة الكثيرة ، ومن هنا كان التخريب المريع الذي حل بالكنيسة . إبان الإضطهادات الكثيرة .

معجزة المسيحية :

ومع هذا كله بقيت الكنيسة فائزة منتصرة ، لم تقدر النار ولا الحديد ولا الموت أن تفت في عضدها أو تضعف من شوكتها . أما معجزة المسيحية فهي أنها غير قابلة للتدمير ، وأنها كسبت النصر على الرغم من تخلى بعض أتباعها عنها . ولم يكن للردة ولا للضعف وللخطية أثر في إضعاف قوة المسيحية التي لا تقهر . مالت إلى العالمية ، ومع ذلك ظلت خميرة صالحة تخمر العالم كله . خانها نفر كبير من أتباعها ، ومع ذلك بقيت فيها تلك الصفوة المختارة التي استطاعت على الرغم من الخطأ والقصور أن تغلب العالم ، وتقدم في أشخاص شهدائها الأمثلة الرائعة على البسالة والعظمة وتنفت روح المقاومة في الحائزين الفاترين .

ولم تكن المسيحية في ذلك العهد الدين المجهول الذي أذاع عنه المغرضون كل أنواع السخافات والوشايات كما حدث في القرنين الأول والثاني . بل كانت قد غدت قوة منظورة تبسط جناح حمايتها على أتباعها . وكان في طول العالم الوثني وعرضه حنين دفين إلى الإيمان بالوحدانية ، بعد أن تقوضت أركان العقائد والعبادات القديمة ، فمال الناس سرّاً وجهرّاً إلى الإله الحق الذي نادى به المسيحية . ولما أعلنت الدولة الحرب على المسيحية في القرن الثالث كما سنرى فيما بعد ، لم تتمكن تماماً من تجنيد كل قوات الكراهية العاصفة ، ولقى كثيرون من المسيحيين أمناً وحماً في البيوت الوثنية . وفي الغرب خاصة لم تجد قوانين دقلديانوس وجاليروس مرتعاً خصيباً وسط الشعب ، فلم تنفذ بالشدة والصرامة والعنف كما كان شأنها في الشرق . ثم إن الدولة ذاتها كانت قد أخذت في الضعف والانحلال ، وراحت خيرة العقول تفكر في غير ما فكرت به الدولة ، يضاف إلى هذا كله القوة الروحية المعنوية التي بثتها المسيحية في العالم الوثني وهو لا يدري ، وقد بلغت هذه القوة شأواً

رقيقاً ، واستخدمت كل مالهيا من موارد على الرغم من ضعف أتباعها
وخوار أنصارها .

ألم تر إلى الإحن الكثيرة التي أصابت الكنيسة في كل تاريخها ، وإلى
الظلمات الخالكة التي خاضت فيها في كل عصورها ، كيف شق نور
المسيحية طريقه كأشعة الشمس تبديد ظلمات السحب ، وتشق كثافتها
فتتوزع أضواؤها تارة هنا وأخرى هناك .

هكذا كان في ذلك العهد . غلبت الكنيسة ، لا بقوة المسيحيين أنفسهم ،
بل على الرغم من ضعفهم - غلبت بقوة الرسالة التي حملتها هدى
ونوراً للعالمين .



١١

موقف الشعب من المسيحيين

[اتهام المسيحيين بالخيانة - الشهيد « بوليكارب » -
امعان الدهماء في الاضطهاد] .

إتهام المسيحيين بالخيانة :

أتهم المسيحيون بالخيانة وكراهية الجنس البشرى ، وقد عبأت هذه
الأتهمات الكاذبة كراهية الشعب لهم ، وكان هذا الشعب أشد إمعاناً في
العداوة وتوقيع العقوبات من الولاة والأباطرة أنفسهم . وفي الوقت الذي
كتب فيه الرسول « بطرس » رسالته الأولى (سنة ٩٠ م) ، كان مجرد
اعتناق المسيحية جريمة يعاقب عليها القانون (٤ : ١٦) . ورد الامبراطور
« تراجان » على رسالة « بليسي » والى بشنية في آسيا الصغرى (١١١-١١٣ م)
يدل على أن المسيحية كانت جريمة يعاقب عليها القانون ، على أن العاهل
الروماني كان إلى حد ما ، قد أبدى اعتدالا في اتخاذ الإجراءات ، فأمر
بعدم مطاردة المسيحيين ومحاولة الايقاع بهم ، وإطلاق سراح من يقبل
التبشير للامبراطور . ومن وجهة نظر المسيحي ، لم يكن هذا القرار إلا
إصراراً على الاستشهاد . وقد أتبع خلفاء تراجان الذين جاؤوا بعده مباشرة ،
وهم هادريان (١١٧ - ١٣٨ م) ، وأنطونيوس بيوس (١٣٨ - ١٦١ م)
هذه السياسة عينها ، على أنهم لم يشجعوا ثورات الدهماء ضد
المسيحية واتهاماتهم الكيدية الحاقدة . وجاء بعدهم ماركوس اوريليوس

« (١٦١ - ١٨٠ م) ، وشدد قبضة يد القانون على أصحاب الأديان الغربية عن دين الدولة الوثني ، وأثار عاصفة اضطهاد عنيفة استمرت حتى أوائل حكم خلفه كومودوس (١٨٠ - ١٩٠ م) . على أن هذا الأخير أبدى نحو المسيحية تسامحاً قائماً على الإهمال وعدم المبالاة بهذا الدين الجديد . على أن المسيحية بقيت محرمة وجريمة يعاقب عليها القانون .

الشهيد « بوليكارب »

وفي عهد الامبراطور « ماركوس أوريليوس » (١٦١ - ١٨٠ م) . وهو الامبراطور الفيلسوف ، استشهد القديس الأسقف « بوليكارب » سنة ١٦٧ م . جرى بينه وبين حاكم الولاية (آسيا الصغرى) حديث طويل قبل استشهاده ، وأشفق الحاكم على شبته (وكان قد بلغ المائة من العمر) وأراد انقاذه بأية وسيلة ملحا عليه أن يحلف بحياة الإمبراطور ، ولكنه تأبى بشمم وشجاعة ، وقد تأثر الحاكم بشجاعة هذا الشيخ أيما تأثر فأرسل رسولا إلى الشعب يقول إن « بوليكارب » اعترف بأنه مسيحي ، فصرخوا جميعهم طالبين أن يلقي إلى الأسود ، وكانت حفلات الوحوش قد انتهت ، فطلبوا أن يحرق بالنار فلم يمانع .

وحالا راح الشعب يجمع الأخشاب من الحوانيت والحمامات القريبة ، وكان اليهود أكثر الجمع نشاطاً وشماتة ، ولما صنعوا كومة ، خلع الشيخ ثيابه في هدوء واتزان ، وصعد على الكومة . وأراد القواد أن يسمروه إلى خشبة ، فطلب إليهم أن يتركوه حراً طليقاً ، مؤكداً لهم أن السيد الذي يعبد ، سيمنحه قوة ليقف في وسط اللهب ، فربطوا يديه فقط أما هو فرفع عينيه وصلى إلى السماء وتقول التقاليد إن النار انتشرت حوله ولم تمس جسمه ، بل التفت حوله كشراع تصفقه الريح . وأخيراً أمر الحاكم أن يطعن

بالسيف ، فرأى المسيحيون المشاهدون دمًا نرف من جسده أطفأ النار .
وألح اليهود على الحاكم أن تحرق جثته حتى تصير رماداً ، ولا يسمح
للمسيحيين يدفنها لثلا ينقلبوا إلى عبادتها .

وتقول التقاليد إن هذا القديس تتلمذ في أيام شبابه للرسول «يوحنا» وأنه
تحدث إلى كثيرين ممن شاهدوا المسيح في الجسد ، وأنه بلغ المائة من العمر .

إمعان الدهماء في الاضطهاد :

قلنا إن المسيحيين أتهموا بالخيانة والإلحاد وكراهية الجنس البشرى ،
فرفضهم الآلهة الوثنية القديمة حسب إلحادا ، ورفضهم عبادة الإمبراطور
خيانة ورفضهم الاندماج في حفلات الشعب والمجتمعات الوثنية حسب
كراهية للجنس البشرى . فمن ثم اشتد هياج الجماهير ، وأمعن الشعب من
الدهماء والرعاع في العداء والاضطهاد . بل إنهم قد ذهبوا في تشويه
الحقائق والولوج في الشر الخبيث ، وسوء الظن القدر ، إلى الإدعاء بأن
حفلات العشاء الرباني التي كانوا يقيمونها خفية ، ماهي الا صنف من
صنوف الوثنية التي تبيع كل اللحوم البشرية ، لأن المسيحيين على حد قولهم
— كانوا يذبحون طفلا وليدا ويأكلون لحمه ويشربون دمه في
ولاثمهم السرية .

وكان الشعب الجاهل الحاقدا ، يعزو كل مصيبة تحل بالأمة إلى غضب
الآلهة على جماعة المسيحيين ، فإذا حدث وباء أو قحط أو هزيمة في الحرب ،
وإذا هبط الفيضان في نهر التيبر أو نهر النيل ، وإذا اهتزت الأرض
بزلازل عنيف ، اقتنع الوثنيون في خرافاتهم ، بأن كل هذا مرده إلى جرائم
المسيحيين ، واحتقارهم للآلهة ، وهم الذين تهاونت الدولة في أمرهم ،
وتساهل الأباطرة والولاة في القضاء عليهم ، فأغاظوا بذلك العدل الإلهي .

١٢

المدافعون

[كوادرتوس - أرسطيدس - طايطيان - مليتو -
أثيناغورس - الشهيد يوستن] .

وكان من أثر هذه الاتهامات البشعة المسترذلة ، موقف الحكومة
الرومانية وعملائها ، وكراهية الشعب ، أن نهض عدد من الأدباء والكتاب
للدفاع عن قضية المسيحية ، وهم الذين أطلق عليهم "Apologists" أى
المدافعين . وكان في ظهورهم دلالة بينة على أن المسيحية قد تغلغلت إلى
فئات من المثقفين ، وذلك لأن دفاعهم قد اتجه - أول ما اتجه إلى أهل
العقل والفكر ، وذوى المرتبة الرفيعة في المجتمع .

كوادرتوس - أرسطيدس :

وكان أول المدافعين « كوادرتوس » من أثينا ، الذى قدم للامبراطور
« هادريان » دفاعاً عن المسيحية سنة ١٢٥م ، وماتزال بعض فقرات هذا
الدفاع باقية في متاحف أوروبا . وتلاه أرسطيدس الفيلسوف اليونانى
المسيحى ، الذى قدم دفاعاً مماثلاً في سنة ١٤٠م إلى الامبراطور
« انطونيوس بيوس » .

الشهيد يوستن - طايطيان - مليتو - أثيناغورس

أما الشهيد « يوستن » ، فقد كتب أشهر وأروع دفاع حوالى سنة
١٣٥م ، ربما في رومية . وكان من بين المدافعين أيضاً ، تلميذه

« طاطيان » ، الذى جمع البشائر الأربع فى كتاب واحد ، متداخل بعضها فى بعض ، الذى سمي « الديايطرون » ، وقد ترجم إلى اللغة العربية فى القرن الرابع عشر (١) .

ومن بين المدافعين أيضاً « مليتو » أسقف ساردس ، الذى كتب دفاعه فيما بين سنة ١٦٩م و ١٨٠م ، « وأثيناغورس » الذى كتب حوالى سنة ١٧٧م ، وما يزال دفاعه باقياً حتى اليوم بنصه ، فى بعض مکتبات البطريركيات المسيحية .

وليس هناك ثمة دليل على أن كتابات أولئك المفكرين ، قد أنتجت أثرها فى الفكر الوثني المعاصر ، أو أن الحكام والولاة وأهل الحما قد استجابوا إلى دعوتهم . ولكن كتاباتهم كان لها أعمق الأثر فى الدوائر المسيحية . وما من شك فى أنها زادت أهل الإيمان ثقة واقتناعاً بعدالة قضيتهم ، ونبل جهادهم . وكان كثيرون من أولئك المدافعين من طبقة الفلاسفة . وقد كان لتأويلهم الفلسفى للقضية أعمق الأثر فى تطور علم اللاهوت المسيحى .

ولنا هنا وقفة مع أشهر أولئك المدافعين الذى ختم دفاعه الباسل بدمه فى رومية حوالى سنة ١٦٥م ونعني به يوستن الشهيد .

الشهيد يوستن :

ولد هذا الشهيد فى مدينة شكيم (السامرة القديمة) بفلسطين ، من سلالة وثنية ، وعاش فترة من الزمن فى أفسس ، وهناك على ما يبدو ،

(١) « الديايطرون » أحد المؤلفات التى أصدرتها دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية ويمكن الحصول عليه من مكتبة الدار .

أشرق عليه نور الحق فاهتدى . ويصف هذا الاهتداء بأروع بيان سجله التاريخ ، ولأنه كان طالباً نابهاً من طلاب الفلسفة ، قبل الفلسفة الرواقية وفلسفة « أرسطو » و « أفلاطون » ، وفي أثناء تعلقه بالأفلاطونية ، اتجه فكره إلى الأنبياء العبرانيين ، الذين حسبهم أقدم من عرف من الفلاسفة وأصدقهم في تأويل أصل الأشياء ، وهم الذين أرشدتهم الروح القدس ، فجدوا الخالق ، الله أبا الكل ، وأعلنوا ابنه المسيح . وبعد أن اقتنع برسالة قدامى الأنبياء ، يقول : « حالا اضطرم لهيب في نفسي ، وحب للأنبياء الذين كانوا أصدقاء المسيح ، وأيقنت أن هذه هي الفلسفة العليا الوحيدة ، ذات النفع والخير » من ثم لم يكن اهتداؤه اختباراً روحياً عميقاً مع الرب المقام كما حدث لبولس الرسول ، لم يكن إحساساً بغفران خطايه ، إنما كان اقتناعاً عقلياً بأن المسيحية هي أقدم وأصدق الفلسفات التي عرفها البشر ، وأقربها إلى فكر الله . وظل يحسب نفسه فيلسوفاً مسيحياً ، ثم انطلق إلى رومية ، وهناك كتب دفاعه حوالي سنة ١٥٣م موجهاً هذا الدفاع إلى الامبراطور « أنطونيوس بيوس » ، وأبنائه الذين قبحناهم ، ومدافعاً عن المسيحية ضد اضطهاد الوثنية لها ، ثم عاد إلى أفسس ، وهناك كتب حوار تريفو^(١) المشهور ، مدافعاً عن المسيحية ضد اليهودية .

وفي زيارة أخرى إلى رومية ختم جهاده بالدم ، شهيداً من شهداء المسيحية .

١٣

الفتوحات المسيحية

[ترجمة أقوال المسيح من اليونانية الى اللاتينية -
عدد المسيحيين في ولايات آسيا - قبرص وكريت - بلينى
الوالى الرومانلى - الذهبى الفم] .

قلنا فى حديث سابق إن فتوحات رومية قد مهدت الطريق ، وهيات
أسباب انتشار المسيحية . فيما بعد ، اتحدت ولايات أوربا وآسيا وأفريقية ،
تحت راية سلطان قوى واحد ، وارتبطت كلها بشرائع وعادات ولغة
واحدة . أما يهود فلسطين ، الذين توقعوا مجيء منقذ جبار من أهل الأرض
يرفع من شأنهم أمام جميع الشعوب ، لم يقبلوا المخلص الإلهى الذى
أرسلته السماء إلى دنيا البشر ، ولذلك لم يحفلوا برسالته ، ولم يدونوا
شيئاً عنه فى مؤلفاتهم ، واكتفوا فى أول العهد بإزاحته من طريقهم ، وما
دروا أنه سيتبوأ أرفع مكانة فى التاريخ اللاحق .

ترجمة أقوال المسيح من اليونانية إلى اللاتينية :

وكان من جراء هذا التعنت ، أن كتبت أقوال المسيح وأعماله باللغة
اليونانية فى أماكن بعيدة عن أورشليم ، وبعد تكاثر المؤمنين من الوثنيين
كثرة هائلة . وقد ترجمت تلك إلى اللغة اللاتينية فيما بعد ، على أنها لم
تكن مفهومة إلا لقلّة من رعايا الإمبراطورية ، ما عدا أهل سورية ومصر
والذين وضعت لهم ترجمات خاصة باللغتين . السريانية والقبطية .

وكان للطرق التي عبدها الرومان لجحافلهم وجيوشهم ، فضل كبير إذ سهلت لدعاة المسيحية ومبشريها الانتقال من دمشق إلى كورنثوس ، ومن إيطاليا إلى أسبانيا وبريطانيا . ولم يلق أولئك الفاتحون الروحيون في طريقهم ، أية عقبة قد تعوق أو تحول دون توصيل هذا الدين الجديد إلى أبعد الاصقاع ويقول المؤرخون إنه قبل عصر « دقلديانوس » الإمبراطور الروماني الذي اضطهد المسيحية ، كان قد نودي بدين المسيح في كل ولاية ، وفي كافة المدن الكبرى في الامبراطورية الرومانية . ولكن الجماعات المسيحية العديدة التي تناثرت في كل الأرجاء ، وعدد المؤمنين بالنسبة إلى جماهير الوثنية ، بقي سراً خفياً غامضاً ، لم يكشفه لنا التاريخ . على أننا سنلقى الآن نظرات عاجلى - على قدر ما توصلت إليه بحوث المؤرخين على نمو المسيحية في آسيا أو اليونان ومصر وإيطاليا ، وفي الغرب ، وفيما وراء حدود الامبراطورية الرومانية في ذلك التاريخ .

عدد المسيحيين في ولايات آسيا :

وكانت الولايات الغنية الممتدة من نهر الفرات إلى بحر اليونان ، المسرح الرئيسي العام ، الذي جال فيه وصال بغيرة متقدة وحماس منقطع النظر - رسول الأمم « بولس » العظيم ^(١) . وقد بذر بذور الإنجيل في تربة خصبة ، وراح تلاميذه من بعده يتعهدونها بالسقى والإثمار . وفي القرنين الأول والثاني ، كانت جماهير المسيحيين تقطن هذه البقعة من الأرض وهي من أقدم الجماعات المسيحية التي كان لها شأن في سورية في التاريخ المبكر ، في دمشق وحلب وأنطاكية . وقد خلد الرسول « يوحنا » في رؤياه ، أسماء كنائس سبع - هي أفسس ، وسميرنا ، وبرغاموس ، وثياتيرا ،

(١) اقرأ « سيرة رسول الجهاد » للنوئف .

«ساردس ، ولاودوكية ، وفيلادفيا - وقد امتد نشاطها بطبيعة الحال ، إلى كل الرقاع المحيطة بها .

قبرص وكريت :

وفي تاريخ مبكر أيضاً ، استقبلت هذا الدين الجديد استقبالا رائعاً جزيرتا قبرص وكريت ، وولايات تراقية ومكدونية في بلاد اليونان . وقامت أيضاً جماعات مسيحية في كورنثوس وسبارطا وأثينا . ولم يذكر لنا التاريخ شيئاً عن عدد المسيحيين في تلك الرقاع في عصرها البدائي الأول ، على أن شاهدين من أعلام الوثنية يلقيان بعض الضوء على هذا الموضوع الغامض . ففي كتابات « لوسيان » وهو فيلسوف وثني درس طبائع البشر ، ووصف أخلاقهم ، بصور حية براقية ، عاش في بنطس ، نقرأ أن وطنه الذي عاش فيه امتلاً بحشود ضخمة من الأبيقوريين والمسيحيين .

« بلينى » الوالى الرومانى :

ولم تنقض ثمانون عاماً بعد موت المسيح ، حتى نشهد والياً رومانياً في آسيا الصغرى هو « بلينى » الطيب القلب ، يندب حظ بلاده ، ويشكو من استفحال ذلك الشر الخفيف الذى حاول استئصال شأفته ، ألا وهو « المسيحية » . وفي رسالته الماثورة التى بعث بها إلى الامبراطور « تراجان » يقول إن الهياكل قد هجرت ، والذبائح قد أهملت ، والخرافات قد استشرت ، لا في المدن الكبرى وحسب ، بل في القرى والضياح ، وفي ولايتى بنطس ويثنية أيضاً . وهناك كتابات أخرى كثيرة ، تشهد لسعة انتشار الدين الجديد ، ولكن أحداً من الكتاب لم يترك لنا بياناً عن عدد المؤمنين في تلك الولايات الآسيوية . ولم يحفظ

التاريخ إلا حالة واحدة قد تلقى بصيصاً من النور على هذا الموضوع الغامض .

الذهبي الفم :

يقول القديس الذهبي الفم ، إنه كان في مدينة أنطاكية القديمة الشهيرة في عهد الامبراطور «ثيودوسيوس» ، أكثر من مائة الف نسمة من المسيحيين ، وكانت الكنيسة تعول ثلاثة آلاف من مالها العام . ويقول أيضاً ، إن عدد المؤمنين كان يزيد عن عدد اليهود الوثنيين مجتمعين معاً .

أما مدينة الإسكندرية التي كانت قريبة من فلسطين مهد المسيحية ، فقد استقبلت هذا الدين الجديد استقبالا حاراً ، وكان من أوائل المؤمنين طائفة الأسينيين اليهود ، الذين عاشوا حول بحيرة مريوط ، وعاش أولئك حياة تقشفية امتازت بالأصوام الصارمة والاشتراكية المفرطة ، والعيوف عن الزواج – والغيرة في الاستشهاد ، وحرارة الإيمان ، وإن خلا إيمانهم من النقاوة .



١٤

الاشتراكية في المسيحية

[بدءاً الاشتراكية - تطور الاشتراكية البدائية - ثروة الكنيسة - التعاون بين الكنائس الفنية والفقيرة - الاغاثة في هذا العصر] .

بدءاً الاشتراكية :

إن الإشتراكية التي راودت خيالات الفيلسوف « أفلاطون » ، والتي استقر معناها في وضع بدائي بين طائفة الأسينيين المتقشفين ، نقول إن هذه الإشتراكية قد مارسها الكنيسة الأولى في مهدها ، فترة قصيرة من الزمن ، وفي هذا يقول السفر المقدس : « وكان كل شيء بينهم مشتركاً » وبفعل الحماس الدافق باع الدخلاء الأولون إلى المسيحية كل مقتنياتهم الدنيوية التي احتقروها ، ووضعوا ثمنها عند أقدام الرسل ، وقنعوا هم أنفسهم بنصيب متساو مع الذين اشتركوا في عملية التوزيع العام .

تطور الاشتراكية البدائية :

ولكن تطورت بعد ذلك الفكرة المسيحية بعد تكاثر عدد المسيحيين ، وتمدت هذه الحركة تدريجاً ، إلى أن بطل العمل بهذا النظام القائم على الكرم المفرط . ولعله كان من الخير إبطاله ، فلو أنه استمر في أيدي الرسل ، لشابه الفساد بحكم اعوجاج الطبيعة البشرية وأثرتها . وسمح بعد ذلك لمن اعتنقوا هذا الدين الجديد ، أن يحتفظوا بأموالهم ، وينالوا حقوقهم في الإرث ، ويقبلوا الوصايا ، ويضيفوا إلى ثرواتهم ما تكسبه أيديهم بالجهد

الحلال ، والوسائل الشرعية في التجارة والصناعة . وعوضاً عن التضحية الشاملة بكل ما ملكته أيديهم ، قبل رعاة الكنيسة نصيباً معتدلاً معقولاً من أفراد الرعية ، وكان على كل مؤمن أن يقدم طوعية إلى مال عام مشترك ، تقدمته الأسبوعية أو الشهرية . كل على قدر طاقته المالية ، وتقواه الروحية . ولم تكن ترفض أية مقدمة مهما قلت ولكن بقيت نسبة العشور في الشريعة الموسوية التزاماً إلهياً مقبولاً ، وكان لإيراد كل كنيسة يتفاوت تبعاً لغنى المؤمنين وفقيرهم ، وكثرة عددهم ، وقلتهم ، في الكنائس المختلفة وروى التاريخ في عصر الإمبراطور « ديسيوس » ، أن المسيحيين في رومية احتازوا ثروة طائلة ، وأنهم استخدموا في عبادتهم آنية من الذهب والفضة ، وأن كثيرين من المؤمنين باعوا أراضيهم ودورهم ، فأغنوا بذلك أملاك الكنيسة على حساب أطفالهم البائسين ، الذين وجدوا شحاذين ، لأن والديهم كانوا قديسين .

ثروة الكنيسة :

وكانت ثروة الكنيسة في ذلك العهد أموالاً منقولة ، ولم تطمع الكنيسة في اقتناء العقارات والأراضي الثابتة ، وخاصة لأن قوانين الدولة لم تكن تسمح بمنح الأموال الثابتة لأية هيئة بدون موافقة الإمبراطور أو مجلس الشيوخ . وقيل إنه في عهد الإمبراطور « الكسندر سيفروس » ، خفض وطأة هذا القانون ، وسمح للمسيحيين باقتناء الأراضي داخل حدود رومية فقط . على أن تقدم المسيحية وسعة انتشارها وكثرة أعدادها ، كان لها شأن في تخفيف صرامة القوانين . وما بلغ القرن الثالث نهايته ، حتى كانت الكنائس الغنية في رومية ، وميلانو ، وقرطاجة ، وأنطاكية ، والأسكندرية وغيرها من مدائن إيطاليا والولايات الشرقية ، قد فازت بقسط وافر من المنح والهبات العينية .

كان ينفق من هذه الأموال العامة على مرتبات الأساقفة والقسوس، العاملين معهم، وعلى العبادات العامة مثل ولائم المحبة، وعلى الفقراء والمعوزين وغيرهم من الأراامل والأيتام والمرضى والعجزة والغرباء والحجاج، وتخفيف لوعات الأسارى والمحبوسين، وخاصة حين كان تمسكهم بالدين يسوقهم إلى مثل هذه المواقف الأليمة.

التعاون بين الكنائس الغنية والفقيرة

وقد جمع مبدأ المحبة المتبادلة والشركة الأخوية، بين الكنائس الغنية والفقيرة، وأغدق الأغنياء بسخاء على الجماعات الفقيرة البعيدة، وكان هذا كله من العوامل التي أدت إلى انتشار المسيحية وقوة تأثيرها في المجتمع، واعترف العالم الوثني يومئذ بهذا الفضل الكبير، واجتذبت بوسائل الإغاثة والإسعاف المختلفة أعداداً غفيرة إلى أحضانها، من أولئك التاعسين الذين لفظهم العالم، وأسلمهم إلى مهاوى الفقر والحاجة والضياع والمرض والعجز. وروى التاريخ أن أعداداً غفيرة من الأطفال الذين طوح بهم والدوهم إلى الموت. حسب قوانين ذلك العصر، احتضنهم المسيحيون، وتولت الكنيسة تربيتهم، ورعايتهم، والإنفاق عليهم من مالها العام.

الإغاثة في هذا العصر

وجهود الإغاثة وإسعاف المنكوبين من المبادئ المرعية حتى اليوم في خدمات الكنيسة المسيحية. وحسبك أن تقرأ ما يفعله مجمع الكنائس العالمي، وغيره من الهيئات المسيحية في هذا العصر من خدمة الإسعاف والإغاثة في بلد من بلدان العالم، تصيبه نكبة أو كارثة من الكوارث

الطبيعية كالمجاعات والفيضانات والزلازل والأوبئة والحروب الخ
لتحكم في غير تعصب ، أن مبدأ المشاركة الإنسانية الذي بدأ في الكنيسة
الأولى في فجر المسيحية ، ما فتئ يمارس حتى اليوم ، وعلى نطاق واسع
وذلك طوعاً لأمر رب المسيحية الذي جال بين الناس يصنع خيراً
في حياته على الأرض .

١٥

اضطهاد المسيحية في القرن الثالث

[الامبراطور ديسيوس - الامبراطور جالوس -
الامبراطور دقلديانوس - الامبراطور جاليروس - قسطنطين
الكبير] .

لاقت الكنيسة أعداء من الخارج ومن الداخل ، ولكنها لم تتعثر في قوتها وامتدادها وبدأت من منتصف القرن الثاني ، تلعب دورها في حياة الشعب . وما أهل القرن الثالث ، حتى أحست الوثنية أن كيانها راح يهتز ويتمايل . وكان قد بلغ عدد أفراد الجماعة المسيحية في رومية - ولعلها كانت أكثر الجماعات عدداً - حوالى عشرون ألفاً . وصارت بفضل دستورها ونظمها ، قوة اجتماعية هائلة ، تعادل قوة الدولة . فإذا رامت الإمبراطورية أن تحتفظ بمقوماتها الوطنية والسياسية ، التي ورثتها عن القرون الحوالى ، فإن الساعة هي الفرصة الملائمة للعمل والنضال .

ومن هذا التاريخ (أى حوالى منتصف القرن الثالث) ، بدأت الدولة الوثنية اضطهادها المنظم في أنحاء الإمبراطورية ، ووضعت تدابير محكمة للهجوم على الكنيسة كلها وأنفذتها بكل مالهيا من وسائل القوة وأسباب العنف والعسف .

عهد الإمبراطور ديسيوس :

وبدأ هذا الهجوم في عهد الإمبراطور « ديسيوس » (٢٤٩ - ٢٥٠)
فاصدر أوامره للقيام بإحصاء شامل لجميع المسيحيين ، وأوعز إلى السلطات

كلها في الإمبراطورية ، أن تبدأ هجوما على الجماعات المسيحية ، دون إقامة أية تهمة خاصة ، وأن ترغم المسيحيين على تقديم البخور لتمثال الإمبراطور . وأعقبت هذه الأوامر ، فترة رهيبة مروعة بذل فيها الدماء عدد لا يحصى من الشهداء .

وبعد موت « ديسيوس » ، تنفست الكنيسة الصعداء ، وأحست ببعض الفرح المؤقت .

دقلديانوس

سادت فترة من الهدوء والتسامح العملي لم ينفذ فيها قانون اضطهاد المسيحية ، إلا في حالات فردية . وقد ظلت فترة الهدوء أربعين عاماً . ولكنها كانت أشبه بالهدوء الذي يسبق العاصفة . فان الامبراطورية الرومانية في عصر « دقلديانوس » (٢٨٤ - ٣٠٥) ، قامت كلها قومة واحدة ضد عدوها البغيض ، لكي تعيد السلطان المطلق للدولة إلى سابق مجده وسؤدده . وكان هذا أمر وأعنف اضطهاد شهدته الكنيسة في تاريخها . كان نصالاً للحياة أو الموت .

وكان « دقلديانوس » هذا من أصل وضيع ، ربما من سلالة العبيد ولكنه أبلى بلاء حسناً كجندى ، فرفعه زملاؤه في الجيش إلى عرش القيصرية ، على أنه كان إدارياً ممتازاً ، وطن العزم على أن يجعل من الامبراطورية قوة هائلة للدفاع عنها ضد هجمات أعدائها . وتنظيم الإدارة الداخلية تنظيمًا يقضى على المؤامرات الخفية - لذلك عين زميلاً له من رفاق السلاح « مكسيميان » امبراطوراً في الغرب سنة ٢٨٥ ، وفي سنة ٢٩٣ ، عين اثنين من القيصرية المساعدين ، أحدهما « كوستانتيوس » في منطقة الدانوب . أما في الداخل ، فقد أبطل سلطات الجمهورية القديمة

«واختصاص مجلس الشيوخ ، جعل نفسه حاكماً دكتاتورياً مطلق السلطة ، هجر العاصمة رومية ، وجعل مقامه في نيكوديميا في آسيا الصغرى .

وكان هذا العاهل الروماني فظاً خشناً، ونصيراً للوثنية من الطراز الجاف الطباع الغشيم الخلق . ومع ذلك قضى حوالى سبعة عشر عاماً من حكمه في هجوع وهدوء ، ربما لأن زوجته « بريسكا » وابنته « فاليرا » ، كانتا من المؤمنات بالمسيحية . ولكنه ثار في أواخر عهده ثورة النمر الشرس المتعطش إلى الدماء ، وأعد هجمته المريعة على الكنيسة ، مسوقاً إلى ذلك بإيعاز صهره « جاليروس » ، وهو جندي تأجج صدره غيظاً وحقدًا وكراهية نحو المسيحيين .

وكان عدد المسيحيين قد زاد في المناصب العليا وفي القوات المسلحة وفي قصور الولاة والحكام ، وكان على الامبراطور ، إما أن يقضى على الكنيسة ورجالها ، التي حسبها دولة داخل الدولة ، أو يهادنها ويتخذها حليفة له - وقد آثر أن يختار الطريق الأول ، ويترك الطريق الثانى لخلفه « قسطنطين الكبير » كما سنرى فيما بعد .

وفي الرابع والعشرين من شهر فبراير سنة ٣٠٣ م ، أصدر العاهل الروماني أمره الملكي القاضي بعزل جميع الضباط المسيحيين من الجيش وطردهم جميع الموظفين المسيحيين من مناصبهم ، وتدمير الكنائس المسيحية ومصادرة الكتب المقدسة وإحراقها . وأعقب هذا الأمر قرار آخر ، قضى بزوج جميع رجال المسيحيين في غيابات السجون ، واكراههم على السجود لتمثال الامبراطور ، ثم قرار ثالث أصدره في سنة ٣٠٤ م ، قضى أن يعبد المسيحيون تمثال الامبراطور ، وإلا يحكم عليهم بعقوبة

الموت واتخذت أوسع الإجراءات لتنفيذ هذه القوانين تنفيذاً دقيقاً . على أن هذا لم يكن مستطاعاً في كل الأحوال .

الإمبراطور جاليروس

، في سنة ٣٠٥ م أصيب « دقلديانوس » بداء عضال يصعب البرء منه ، فتنازل عن العرش ، وغدا « جاليروس » لا منازع له في الإمبراطورية الشرقية . ومن تلك اللحظة ، بدأ الاضطهاد العنيف في الشرق بدون رحمة ولا هوادة ، وفي جنون وهياج . وكان الاضطهاد في هذه الفترة أشبه بمذابح جنونية ، لا أثر فيها لعدل ولا رحمة ، فأرغم المسيحيون بوسائل كريمة على أن يقدموا البخور للإمبراطور . وحتى الأطعمة التي عرضت للبيع في الأسواق ، مزجت بنحمر الدبائح الوثنية ، لكي يضطر المسيحيون بهذه الوسيلة إلى الإذعان والخضوع . وساد الامبراطورية كلها من أقصاها إلى أقصاها اضطراب مريع زلزل أركانها ، لأن المسيحيين أنفسهم اضطروا للمقاومة في بعض الأماكن . وبعد أربع سنوات طوال من الرعب والهول (٣٠٦ - ٣١٠ م) ، اضطرب « جاليروس » وأنفه راغم ونفسه سقيمة أن ينسحب من الميدان ، وفي الثلاثين من شهر إبريل من سنة ٣١٠ م ، أصدر وهو على سرير موته قانون التسامح العام ، معترفاً بأن المسيحية قد قهرته وأذلته . ومن تاريخ هذا الاضطهاد المريع الشنيع ، يبدأ التقويم القبطي المعروف بسنة الشهداء ، وذلك لكثرة من استشهد فيه من أبناء المسيحية .

قسطنطين الكبير

وقد أتم « قسطنطين » هذا العمل الجليل ، وجاهد تحت راية الصليب . وحرر إيطاليا أولاً من غاصبها « مكستويوس » ثم أصدر قراره المأثور في .

التاريخ ، الذى أذاعه فى رومية سنة ٣١٣ م ، وقرر به التسامح الدينى فى كل أنحاء الامبراطورية شرقاً وغرباً ، ووضعت المسيحية على قدم المساواة مع الوثنية كعقيدة شخصية تتبع ضمير الأفراد . وغدا كل إنسان حراً يختار ما يشاء من عقيدة وعبادة ، ومنح المسيحيون حرية تامة فى أداء فرائض دينهم ، وانتهت الأزمة الخانقة ، وتنفست الكنيسة الصعداء ، وبعد ظلام الليل الدامس أشرق نور الفجر الوضاء .



١٦

الهرطقات المسيحية

[شيعة الغناطسة - البدعة المونتانية]

خاضت المسيحية طريقها في تلك القرون الأولى ، وسط أشواك العداء ، من اليهودية تارة ، ومن الوثنية أخرى . ولكن أعداء آخرين من الداخل ، نصبوا أنفسهم لناوأتها والنيل منها . فما لاحت تباشير القرن الثاني ، حتى كانت قد فشت في الكنيسة آراء خاطئة ملتوية ، ومذاهب شاذة ، حادت عن الرسالة المسيحية الأولى وجوهر الإنجيل ، ونهض الملحدون والهرطقة لنشر الضلالات والنظريات الباطلة . ومما ساعد على نشر مذاهب الإلحاد ، ضعف نظام الكنيسة في أول عهدها ، وعدم تحديد عقائدها تحديداً يذهب الباطل عنها . وقد نجت الكنيسة من هذا الخطر وقهرت هؤلاء الأعداء جميعاً ، إنما فعلت ذلك عن طريق وضع نظم جامدة ، وعقائد للإيمان ثابتة ، وإدارة رئيسية غدت في ختام القرن الثاني صاحبة الأمر والنهي في كل ما يتعلق بشئون الدين .

شيعة الغناطسة :

وحدث في آسيا الصغرى ، في مستهل القرن الثاني ، أن شاعت آراء تنكر ناسوت المسيح وموته الفعلي ، وذهب مروجوها إلى أنه لم ينجس « في الجسد » ، بل في شكل روحاني . ولعل هذا هو الذي حمل الرسول « يوحنا » على أن يقول في فاتحة رسالته الأولى « ... الذي سمعناه ، الذي رأيناه بعيوننا ، الذي شاهدناه ولمسته أيدينا ... » . وكانت هذه الآراء

بداية ما عرف في التاريخ « بشيعة الغناطسة » . وقد أراد أصحاب هذه النظريات أن يوفقوا بين تناقض ظاهري ، فهم قد رأوا أن حياة الاتضاع التي عاشها المسيح على الأرض ، لا تنسجم مع مجده السابق الذي كان له قبل نزوله إليها ، لذلك أنكروا حياته الأرضية الفعلية . فالمسيح عندهم ظهر فعلاً ، وعلم تلاميذه ، ولكنه كان كائناً سماوياً ، لا لحمًا ولا دمًا . وهذه النظرية مضادة للإيمان المسيحي التاريخي ، فأحدثت أزمة داخلية في الكنيسة ، لعلها كانت أشد الأزمات ، منذ النضال الذي ثار حول ضرورة تهود الأمم قبل اعتناقهم المسيحية في القرن الأول .

وقد زعم أنصار الشيعة الأغنسطية ، أن أساس عقيدتهم هو « المعرفة » ، لا المعرفة كما نفهمها في هذا العصر ، بل المعرفة السرية الغامضة ، المستمدة من الحكمة الخارقة للطبيعة ، لإدراك أسرار الكون . وقد أدمجت الأغنسطية في معتقداتها ، عناصر مستقاة من مصادر شتى واتخذت أوضاعاً مختلفة . ويرجع أصلها في الواقع إلى ما قبل المسيحية ، وكان منها صور في اليهودية . وفي الوثنية . وبعض عناصرها مستقى من آداب مصر القديمة ، وربما من الآراء الدينية البابلية والفارسية القديمة . وذلك لأن أصحاب هذه الشيعة آمنوا بقوتين إلهيتين في الكون ، إحداهما صالحة ، وهي التي يسعى الإنسان دائماً للعودة إليها ، والأخرى شريرة ، وهي التي تقيده بأصفاد وقيود . وعندهم أن العالم المادي شر كله . ولذلك لا يمكن أن يكون الله العلي الصالح خالقه وحاكمه ، إنما الذي خلقه ويدبره كائن ناقص أدنى من الله . ولكي يخلص الإنسان ، لابد له أن ينطلق أولاً من قيود هذا العالم المادي المنظور ، وما فيه من أرواح شريرة ، والوسيلة لهذا الإنطلاق هي المعرفة ، أي الاستنارة الروحية الخفية ، التي تدنيه إلى الصلة بعالم الحقائق الروحية .

ولقد وجدت الأغنسطية في المسيحية شيئاً كثيراً استعانت به في الدفاع عن نظرياتها : فالتحذت المسيح مثلاً ، وصاغته شكلاً معيناً ، وجعلته محور نظريتها عن المعرفة العليا السامية التي تخلص الإنسان ، فهو في نظرهم قد أعلن للناس الله العلي العظيم الكامل الذي لم يكن الناس يعرفونه . وبهذه الاستنارة الروحية استطاع الروحانيون الذين دقت أحاسيسهم ، أن يعودوا إلى أحضان ملكوت الإله الصالح . وما دام العالم المادى شراً كله ، فإنه لن يمكن أن يكون المسيح قد تجسد فعلاً . ويعمل هؤلاء الأغنسطيون ظهوره في الجسد بشبح روحى ، أو على أنه استقرار مؤقت في الإنسان يسوع ، أو على أنه ميلاد من أم عذراء ، دون أن يصيبه شيء من الطبيعة المادية . أما عن الله في العهد القديم ، فقالوا إنه ليس الإله الذي أعلنه المسيح ، بل هو الكائن الأدنى الذى خلق العالم المادى المنظور .

كذلك ألفوا في أقوال بولس الرسول ، مرتعاً خصيباً لترويج أفكارهم ، فمقارنته بين الجسد والروح (رومية ٨ : ٢٢-٢٥ و ١ كور ١٥ : ٥١) ، وآراؤه في المسيح الفائز على « الرياسات والسلطين » ، الذين هم « ولاة العالم على ظلمة هذا الدهر » (كولوسى ٢ : ١٥ وأفسس ٦ : ١٢) ، وتفكيره عن المسيح كأنه « الإنسان من السماء » (١ كور ١٥ : ٤٧) . هذه كلها اتخذها القوم أسانيد لمذهبهم . وكان بولس عندهم أكبر الرسل جميعاً .

وبعد كل هذا ، نرى البدعة الأغنسطية تدور كلها حول الفكرة الفلسفية التي تقارن بين الروح والمادة ، وبين النور والظلمة ، وهي فكرة مستعارة من العالم الوثنى كما قلنا . فالله هو إله النور ، الذى انبثقت من أعماق وجوده أرواح نورانية على نظام نزولى . وإلى جانب هذا الإله

النوراني ، يوجد عالم المادة الحافل بأرواح الظلمة الشريرة . وعالمنا هذا من صنع روج من هذه الأرواح الشريرة ، ومن هنا كانت نقائصه وشروره . والمسيح هو ذلك النور الأعلى المنبثق من الله الذي غلب ملكوت الظلمة .

وفي هذه الآراء الأغنسطية ، نقدر أن نتتبع آثار فلسفة الإمبراطورية الرومانية وهي تحاول أن تجذب إليها العالم في ذلك العصر ، وتجتهد لإشباع رغبات الطبقات المثقفة ، ولهفتها إلى معرفة الإله الاسمي . على أنها تبين لنا في الوقت نفسه ، مدى تأثير المسيحية في الحياة الروحية للإمبراطورية من بداية القرن الثاني . ولكن الأغنسطية بقيت فلسفة حتى بعد أن قرنت نفسها بالمسيحية ، واتخذت عقائدها وتلاعبت بها كما حلا لأنصارها . ولذلك كان مصيرها المحتوم - شأن كل الفلسفات العقلية الأرضية - أن انتهت - على الرغم من كل ظواهرها - بالشك وعدم اليقين .

ويمكن القول بشيء من التحفظ ، أن الأغنسطية كانت بمثابة مذهب العقلين في القرن الثاني ، فاستعاضت عن المسيحية بدين فلسفي لإنارة العقل ، دين قامت أسسه على معرفة قوى الكون وأسراره ، ولكنه قام في الواقع على تقاليد الوثنية ، على آراء مستعارة من الفلسفات القديمة ، وعلى عبادة بائدة جعلت السماء والأرض آلهة لها . وبذلك بدلوا إله المسيحية الحي بإله مجهول ، هو إله الفلاسفة والأسرار العويصة .

ولقد فطنت الكنيسة إلى هذا العدو المقنع الخطر ، وأدركت أن الأغنسطية ، على الرغم من موقفها الودي نحو المسيحية ، تهدم أركان الدين الصحيح . وعرفت المسيحية أن إيمانها ليس فلسفة عالمية : وأن موضوع رسالتها ليست أفكاراً ونظريات عقلية ، وأن الحياة الصالحة المستقيمة لا تقوم على حفلة كلامية فلسفية ، بل على اختبار المحبة الإلهية المعلنة في

المسيح . لذلك أبت الكنيسة أن تهاون مع هذا العدو الماكر ، ووقفت له بالمرصاد ، حتى أذلته وخرجت باكليل الفوز والنصر .

ونستطيع أن نقدر مدى الخطر الذى استهدفت له الكنيسة : حين نفكر أن الأغنسطية استمالت إليها الطعام والرعاع بطقوسها وشعائرها ، وملكت لب العالم الوثنى كله ، بوضع ساحر من أوضاع التصوف المأخوذ عن الماضى السحيق ، وبادعائها أن فيها شعبا للعقل والقلب معا ، وانسجما مع اساليب الفكر التقليدية ، كما أنها قد استمالت إليها فى الوقت نفسه ، خاصة الشعب والمثقفين ، بوضعها قواعد من الآداب والأخلاق صارمة ، وبارواثها طمأ النفوس العطشى إلى معرفة الاله الحق .

واستغرقت معركة الكنيسة مع هذه الفلسفة المضللة طوال القرنين الثانى والثالث ، وكانت معركة حامية الوطيس ، لإنقاذ مبادئ الحق السليم الذى طغت عليه هذه المطارحات الوثنية الرمزية . وكانت الأغنسطية بمثابة معاهدة الصلح التى قدمتها ثقافة القرن الثانى للمسيحية . ولو أن المسيحية قبلت شروطها ، لضاعت واندثرت هذه الثقافة . ولكن الكنيسة كسبت المعركة ، ونرى آثار هذا النضال فى النتائج التى ترتبت عليه . فانه فى خلال المعركة ، اضطرت الكنيسة إلى أن تعين الأسفار القانونية للعهد الجديد (الإنجيل) أى تلك الأسفار التى اعتبرتها مصادر صحيحة موحى بها لإعلان الحق المسيحى ، واستبعدت الأسفار المضللة التى اذاعت تعاليم الأغنسطيين وعقائدهم الخاطئة . وفى خلال هذه المعركة ، وضعت أسس علم اللاهوت المسيحى ، ونظم الكنيسة ودستورها . وبذلك وقت الكنيسة حياتها ، لا من الدولة الوثنية فقط ، بل من الفلسفة الوثنية التى

كانت عدواً أفتك وأخطر . على أن الكنيسة لم تخرج من هذه المعركة كما كانت من قبل ، فإنه في صراعها قد تبدلت مسيحية العصر الأول البدائية ، وصارت المسيحية المنظمة « الكاثوليكية » الجامعة .

البدعة المونتانية :

وكان على الكنيسة أيضاً أن تقهر عدواً آخر — غير الأغسطية — هو ماسمي في التاريخ بالشيعة المونتانية (Montanism) . ففي منتصف القرن الثاني ظهر في مدينة فريجية بآسيا الصغرى ، رجل يدعى « مونتانوس » ، وهو كاهن وثني متنصر ، إدعى أنه نبي مسيحي ، وأن لديه رسالة جديدة عن الروح القدس .

ونادى بين الناس قائلاً ، إن مجيء المسيح قريب على الأبواب ، وأن « فريجية » هي « الملجأ الحصين » ومقر أورشليم الجديد ، ومجتمع كل المسيحيين . وأذاع دعاية خبيثة قائلاً ، إن كل النظم المسيحية الدستورية باطلة لا قيمة لها ، وأن كنيسة القديسين هي العروس الطاهرة النقية ، التي تترقب عمة عريسها . ونعى على الكنيسة امتزاجها بالعالم واندماجها فيه ، وحث على استعادة الرجاء الذي ملأ صدور المسيحيين في بدء الدعوة وجعلهم يترقبون في فارغ الصبر عودة سيدهم وربهم ، وألح على أن تنفصل الكنيسة انفصالاً تاماً ، عن كل الأشياء الأرضية . وقد لقيت دعوته قبولا حاراً في بعض الأوساط . ولو أن حركته هذه قدر لها النصر ، لاستحال العالم المسيحي جمهوراً من المعتزلين المتقشفين الزاهدين ، ولوقفت الدعوة المسيحية وقوفاً تاماً ، ولصارت المسيحية ذاتها شيعة تصوفية ، يسكن أنصارها الجبال والكهوف بعيدين عن معترك الحياة العملية .

وقد كانت دعوته في الواقع تهجماً على الأساقفة ورؤساء الكنيسة ،

فهو قد أنكر سلطان الأسقف ، وقال إن النبي هو الأداة المباشرة لتلقى الوحي الإلهي ، وهو صاحب السلطان في قبول الساقطين والمارقين إلى أحضان كنيسة القديسين ، لا الأسقف صاحب الوظيفة الرسمية . وكانت بمثابة دعوة لإحياء الكنيسة المسيحية الأولى ، والتي لم تكن تعرف وظائف رسمية ، ولم يكن لها رؤساء تتركز السلطة كلها في أيديهم . على أن السلطة الأسقفية التي كانت قد أمسكت بين أيديها ، كل شأن من شئون الكنيسة الروحية والإدارية ، قد تغلبت في آخر الأمر على أنصار هذه الدعوة . وما إن بزغ القرن الثالث ، حتى تم لها الفوز في هذا النضال ، واستتب للأسقفية سلطانها الكامل ، في الإشراف على تعاليم الكنيسة وعقائدها ، وتمكنت بذلك من القضاء على الأغنسطية وغيرها من نظريات الإلحاد والمروق .

ونكتفي الآن بهاتين البدعتين من أعداء الداخل . وقد كانت هناك بدع أخرى كثيرة تغلبت عليها المسيحية ، وخرجت سليمة كالذهب المصفى ، قوة هائلة لإخضاع العالم .



١٧

المدينتان رومية والاسكندرية

الكنيسة في رومية - ضعف كنائس آسيا الصغرى -
الخلافاً حول ميعاد عيد الفصح - ميعاد عيد القيامة -
الاسكندرية - المدرسة الدينية الشهيرة - المسيحية خارج
حدود الامبراطورية - الفلاسفة والمثقفون يدخلون المسيحية.

اشتهرت الكنيسة في رومية منذ عهد الرسول بولس . فلإلها كتب رسالته الفياضة بالمعاني ، وبين ظهرانيها ختم حياته بدم الإستشهاد ، ولعل الرسول بطرس مات هناك أيضاً شهيداً . ولقد عانت الكنيسة في رومية أمر صنوف القسوة في حوادث الأضطهاد الأولى في عصر « نيرون » ، ولكنها ثابرت وصابرت وقويت على مصادمة الخطوب . وطبيعي أن تشعر الكنيسة في عاصمة الامبراطورية بشيء من القوة والسيادة ، ولعلها كانت في مستهل القرن الثاني أكبر الجماعات المسيحية كلها ، وبلغت من سعة السلطان والكلمة المسموعة ، ما لم تبلغه كنيسة أخرى غيرها . وضاعف من قوتها ، بلها في العطاء وسخاؤها في التوزيع ، كما نستدل على ذلك من رسائل الآباء الأولين . وكان تدمير أورشليم في الحرب اليهودية الثانية (سنة ١٣٥ م) ، نهاية الزعامة المسيحية هناك ، كما أن مقاومة كنيسة رومية العنيفة المفلحة لشيوع الأغنسطية والمونتانية ، قد صلبت إرادتها وقوت أعصابها ، فحصدت ثمار ذلك النضال وفيرة ناضجة . فهناك وضعت أركان قانون الإيمان . وهناك استقر الرأي على تحديد أسفار

١. الكتاب المقدس القانونية . فضلاً عن هذا كله ، فقد كانت هي الكنيسة الوحيدة في نصف الامبراطورية الغربى ، التى اتصل بها الرسل الأولون مباشرة ، وكان لهم شأن فيها .

ومن منتصف القرن الثانى ، اعترفت لها الكنائس الأخرى بفضل السبق والتقدم . فى سنة ١٨٥ ب . م . يصور « إيرانيوس » أحد الآباء كنيسة رومية أما ، أسسها بولس وبطرس الرسولان ، ويحضى الكنائس الأخرى على السير وراءها على أنه لم يقصد بذلك السيادة القانونية ، بل الزعامة فى حفظ الإيمان الرسمى . وقد صار أسقف رومية بفضل بلائه فى النضال مع الأغسطية ، متقدماً بين أساقفة الكنيسة . ومن هنا نشأت فكرة سلطان أسقف رومية فى تصريف شئون الكنيسة العامة .

وبينما كانت رومية تزداد قوة ونفوذاً ، كانت آسيا الصغرى آخذة فى التدهور والانحطاط . فى مستهل القرن الثانى – وربما إلى ختام هذا القرن – كانت آسيا الصغرى والجزء المجاور لها من سوريا ، أكثر رقاع الإمبراطورية ولاء وإحتضاناً للمسيحية . وكانت أفسس وأنطاكية من أمهات المدن المسيحية فى ذلك العصر . ولقد ناضلت آسيا الصغرى ضد الغناتسة ، ولكنها إنقسمت ، وتوزعت جهودها بسبب الدعاية المونثانية وغيرها من المخادلات العقيمة . والأدلة من التاريخ متوافرة تشهد كلها على أن هذه المنازعات الداخلية قد امتصت حيويتها وفتت من عضدها . الخلاف كان حول ميعاد عيد الفصح وثار النزاع بين رومية وآسيا الصغرى حول تحديد ميعاد عيد القيامة . والمفروض أن هذا العيد ، كان يحتفى به فى تاريخ مبكر فى العصر الأول ، على أن أول إشارة للاحتفاء به ، دونت فى التاريخ ، بمناسبة زيارة بوليكارب أسقف أزمير لأسقف رومية فى سنة

١٥٤ أو ١٥٥ م ، وجرت العادة في ذلك العهد ، أن يحتفي المسيحيون في آسيا الصغرى بعيد القيامة ، وفي مساء اليوم الرابع عشر من شهر نيسان - مع الفصح اليهودي تماما - بغض النظر عن يوم الأسبوع الذي يقع فيه . أما رومية وبعض رقاع الشرق ، فكانت تحتفي به دائماً في يوم أحد . وهنا ثارت مشكلة : أيؤخذ يوم الأسبوع أم يوم الشهر أساسا للاحتفاء بالعيد . لم يتم الإتفاق على رأى بين « بوليكارب » أسقف أزمير وبين « أنسطوس » أسقف رومية ، وافترق الاثنان على مودة وولاء ، كل منهما متشبث برأيه .

وازدادت المشكلة تعقيدا بنزاع آخر شجر حوالى سنة ١٦٧ م في لاودوكية - إحدى مدن آسيا الصغرى - حول طبيعة الإحتفال باليوم الرابع عشر من شهر نيسان . فقد ذهب بعضهم إلى أن المسيح مات في اليوم الرابع عشر ، كما تقول بشارة يوحنا ، وذهب البعض الآخر ، إلى أن موته وقع في الخامس عشر .

كما يستدل من البشائر الثلاث الأخرى . وتفاقم النزاع حول هذا الأمر ، حتى استدعيت المجامع للانعقاد - حوالى سنة ١٩٠ م - في رومية وفلسطين وغيرهما ، وكان قراراً مؤيداً لوجهة نظر رومية . ولكن كنائس آسيا الصغرى بزعمامة الأسقف بوليكارب أثبت التسليم بهذا القرار ، فلم يكن من أسقف رومية إلا أن أصدر حرماً على الجماعات التي أثبت القبول . وما أجدى احتجاج ولا معارضة لهذا الحرم ، الذى كان أول عمل بارز دل على سلطة رومية .

وهذه المشاحنات الأليمة قد كلفت آسيا الصغرى ثمنا باهظا ، ولم يكن نفي مقدور أفسس ، أن تجارى رومية في مضمار التنافس . ومن ثم نرى انهيار

الزعامة المسيحية واليهودية ، وخلق أنطاكية من المسيحيين البارزين في القرن الثاني ، وتدهور نفوذ آسيا الصغرى — كل هذه العوامل قد جعلت رومية حوالى سنة ٢٠٠ م ، مركز المسيحية العالى الكلمة القوى السلطان — وهو مركز استغله أساقفة رومية ، وأحسنوا استغلاله لبسط نفوذهم على الكنائس المسيحية الأخرى . وما استطاعت قرطاجة ولا الإسكندرية ، بفضل ما أبدتا من بعيد الأثر في الحياة والفكر المسيحى في القرن الثالث — أن تسلب رومية هذه الزعامة ، وذلك لأن نفوذها جاء متأخراً ، بعد رومية عاصمة الإمبراطورية .

الإسكندرية

لأكثر من ستة قرون ، كانت الإسكندرية ثانى مدينة في العالم القديم ، ولم تنزها إلا رومية ، وبيزنطة بعدئذ . وقد أسسها الاسكندر الأكبر في سنة ٣٣٢ ق . م . وكانت في أول الأمر قاعدة بحرية هامة ، فجذبت إليها كثيراً من اليونانيين واليهود . وتشطت فيها الحركة العقلية نشاطاً ظاهراً ، وكانت مكتبتها أشهر مكتبات الإمبراطورية . وفي شوارعها وطرقاتها التقى الشرق بالغرب ، وفيها ترعرعت الفلسفة الإغريقية ، وإنسابت إلى محافلها العامة ، وبدأت منافساً خطيراً لليهودية وغيرها من الديانات الشرقية . وهى قد احتضنت أيضاً مذهب الفكر المصرية القديمة ، فكانت أشبه بالعاصمة الدولية المشتركة للعالم القديم . وفيها ترجمت أسفار العهد القديم إلى اللغة اليونانية ، وفيها مزج « فيلو » العالم الشهير ، اليهودية بالفلسفة الإغريقية ، وصيغ ديانته الموسوية بصيغة من فلسفة الإغريق ، وفيها نشأت الفلسفة الأفلاطونية الجديدة .

أما عن دخول المسيحية إلى الإسكندرية خاصة ، وإلى وادى النيل عامة

فإن التاريخ العالمى لم يذكر شيئاً ، ولكن التقاليد الكنسية تقول إن «البشير مرقس» نفسه ، هو من أدخل المسيحية إلى هذه الديار ، وكتب الكنيسة القبطية حافلة — بكثير من أخبار قدومه وجهاده واستشهاده فى الكنيسة .

المدرسة الدينية الشهيرة :

ولما اشتهرت تلك المدرسة بتياراتها المختلفة ، ينهل كل مرید من مناهلها ، فلا عجب أن يبعث المسيحيون بمعلميهم لبث دعوتهم ، فكانت ترى فيها حوالى سنة ١٨٥ م ، مدرسة دينية شهيرة تحت زعامة فيلسوف رواقى متنصر يدعى « بنتينوس » . ولسنا نعرف على وجه التحقيق من الذى أسسها ، ولكنها بلغت ذروة من الشهرة فى عهد « إكليمندس الإسكندرى » (حوالى سنة ٢١٥ م) . ومن الغريب أن التطور الدينى فى الإسكندرية سار فى اتجاه آسيا الصغرى والغرب . فى هذه البلدان الأخيرة تحول النضال ضد الأغنسطية إلى كراهية للفلسفة عامة ، ومحاولة للانفصال عنها كلية ، كأن لا علاقة بينها وبين المسيحية . وكان من أثر هذا النضال العنيف ، التمسك بالتقاليد الرسولية ، والتشدد فى النظام الكنسى . أما فى الإسكندرية ، فلم يبلغ هذا التشدد ما بلغه فى الغرب ولم تحسب الفلسفة عدوة للمسيحية ، لا يمكن أن تنسجم معها ، بل بالأحرى أمة معينة لها . ولذلك امتزج بالمسيحية شيء كثير من الفلسفة القديمة — وخاصة الأفلاطونية والرواقية — وكان إكليمندس علمها ، وحامل لوائها ، وهمزة الوصل بين الكنيسة وبين المدرسة ، لأنه كان أيضاً شيخاً فى كنيسة الإسكندرية . وقد نحا « إكليمندس » فى مؤلفاته القيمة عن المسيحية ، منحى « فيلو » اليهودى فى اليهودية ، فشرح عقائد المسيحية ، بمصطلحات وآراء فلسفية ، أثبت فيها علو كعبه فى التفكير ووصفاء الذهن واتزان العقل .

. وخلفه في زعامة مصر « أوريجانوس » العظيم ، رئيس مدرسة الإسكندرية المشهورة . وقد ولد من أبوين مسيحيين - ربما في الإسكندرية ما بين سنة ١٨٢ و ١٨٥م وعكف على دراسة الكتاب المقدس وكتب الفلسفة ، حتى بلغ في نضوج تفكيره ، وعمق كتاباته ، وقوة ذهنه ، مرتبة العلماء الذين اعتزت بهم الكنيسة في تاريخها . ولنا عود فيما بعد عن سيرته .

المسيحية خارج حدود الإمبراطورية :

ولم يكن تقدم المسيحية مقتصرأ على الإمبراطورية الرومانية ، ووفقاً لما أذاعه الآباء الأولون في الكنيسة البدائية ، كان هذا الدين الجديد قد توغل إلى كل رقعة من رقاع الأرض ، بعد مائة سنة من موت المسيح وفي هذا يقول الشهيد « يوستن » : « لن تجد شعباً ، يونانياً كان أو بربرياً ، أو أى جنس آخر من البشر على اختلاف مشاربهم وعاداتهم ، سواء عاش في الخيام أو تجول في عربات مغطاة ، لا يرفع فيه الدعاء إلى الآب خالق كل شيء باسم يسوع المصلوب » .

ويقول بعض المؤرخين ، إن الأغنياء والمثقفين وأبناء الطبقة العليا في المجتمع ، كانوا قلة في تلك الفترة من التاريخ ، التي شهدت بزوغ فجر المسيحية ، وأن عامة الشعب كانوا مغمورين في الجهل والفقر . ولما كانت المسيحية قد قدمت رسالتها للجنس البشرى قاطبة ، فقد كان من الطبيعي ، أن يهرع إلى أحضانها ، جماهير غفيرة من الطبقات الدنيا ، لا من الطبقات العليا . وقد شجر خلاف بين القائلين إن المسيحية إحتضنت حثالة القوم من الفلاحين والعمال والنساء والأولاد - والشحاذين والعبيد ، وبين المدافعين عن المسيحية من أثبتوا أن المسيحية تغلغلت إلى كل فئات الشعب وطبقات المجتمع .

الفلاسفة والمثقفون يدخلون المسيحية :

وكان في قصر الإمبراطور بعض من مشيريه وقواده وحرسه، وذكروا تأييداً لدفاعهم « أريتوس » الذي كان فليسوفاً أثينياً ، وقدم دفاعه المشهور عن المسيحية للإمبراطور « هدریان » ، والشهيد « مارتن » الذي تخرج في مدارس « زينون » ، وأرسطو ، وفيثاغورس ، وأفلاطون ، وأكليمندس الإسكندري ، الذي حظى بقسط وافر من اللغة والآداب اليونانية ، وترتوليانوس الذي برع في اللغة اللاتينية ، ويوليوس أفريكانوس وأوريغانوس اللذان اشتهرا في عصرهما ، بسعة الاطلاع في مختلف العلوم والثقافات ، وكان الأسقف كبريانوس أستاذاً للمنطق ، وغيرهم من فطاحل العلم وجهابذة الفلسفة .

ويقول المؤرخ جبون مؤلف انهيار الدولة الرومانية^(١) وهو ليس من أنصار المسيحية : « إننا مهما أمعنا في التجني ، فلن نقلر أن نفكر أن كثرة فقط من الذين سعدوا بمزايا المولد والمحتد والثروة ، بعدوا كلية عن حظيرة المسيحية ، وذلك لأن أعداداً ممن منحوا الرعية الرومانية ، أحضروا أمام محكمة « بليني » الوالي الروماني في آسيا الصغرى ، وسرعان ما استكشفت أن جمعا عفيراً من كل طبقة في المجتمع قد هجر دين آبائهم ولذلك نرى القديس « ترتوليانوس » يخاطب الوالي الروماني ، مشيراً إلى مخاوفه ودمائة أخلاقه ، ومؤكداً له أن إصراره على ما هو موغل فيه من مقاصده القاسية ، قد يكشف له أن بين من يحسبهم مجرمين خارجين على القانون ، كثيرين من أعضاء مجلس الشيوخ ومن أعظم الرجال وأنبلهم محتداً ، بل كثيراً من أصدقائه الأوفياء . وبعد أربعين سنة من هذا التاريخ

يقتنع الأمبراطور فاليريان بصدق هذا القول ، بدليل أنه في إحدى نشراته يشير إلى أن أعضاء مجلس الشيوخ والفرسان الرومان ، وسيدات المجتمع الراقى انضموا إلى طائفة المسيحية . وحتى في عصر « دقلديانوس » أخفى القصر الإمبراطورى ومحاكم القضاء ، حتى قوات الجيش ، أعداداً صغيرة من المسيحيين الذين حاولوا التوفيق بين مغام الحاضر ، بمثلها في حياة أخرى بعد الموت .

وبعد كل هذا ، لا ننكر أن أولئك كانوا قلة بين المسيحيين ، وأن هذا الدين الذى حمل رسالة المحبة والمساواة والرحمة ، لا بد أنه فتح مصراعيه للطبقات الدنيا في المجتمع ، والتي وجدت فيه ضالتها المنشودة وفى المسيح رئيس خلاصها . وهل نقدر أن الرسل أنفسهم ، قد اصطفاهم سيدهم من صيادى الجليل ، وأنه متى نزلنا إلى المراتب الدنيا في المجتمع يزداد إعجابنا وتقديرنا للفعال المحيطة الرائعة ، التي اتاها دعاة المسيحية الأولون .

وبعد كل هذا ، لنذكر أن وعد ملكوت السماوات ، هو للمساكين بالروح ، وأن العقول التي أضنتها محن الحياة ، وتجارب الزمن ، واحتقار الآخرين لهم ، هم في واقع الأمر أكثر الناس قبولاً للوعود الإلهية ، في حياة السعادة والغبطة في المستقبل . أما المحظوظون في هذه الدنيا ، فهم عادة يقنعون بما تملكه أيديهم من حطامها ، كما أن دعاة الحكمة الأرضية ، والضاربين في متاهات العقلية ، كثيراً ما يغترون في حماقة بتفوقهم في العقل والمعرفة .

١٨

بعض زعماء المسيحية في بكور التاريخ

(إيرانيوس - ترتوليانوس - كبريانوس - أوريجانوس)

وفي هذه الفترة من فجر التاريخ المسيحي ، يبرز أبطال الإيمان المسيحي ، وكثيرون من الشهداء الأبرار، وهانحن أولاء نذكر بعضاً من أولئك الزعماء .

إيرانيوس

كان « إيرانيوس » باكورة الزعماء اللاهوتيين في الكنيسة الجامعة (الكاثوليكية) ، التي تصدت للهراطقة المنحرفين ، وقد دافع دفاعاً بارعاً عن المسيحية التقليدية ضد هرطقة الغناطسة . وقد ولد هذا العاهل المسيحي في آسيا الصغرى ، وترعرع في سميرنا (أزمير) ، أما تاريخ مولده فقد اختلف فيه المؤرخون بين سنة ١١٥ وسنة ١٤٢ ، والرقم الأخير هو الأكثر احتمالاً ،

ومن آسيا الصغرى ، انتقل إلى ليون في فرنسا ، وهناك صار شيخاً في الكنيسة . ولما ثار الاضطهاد العنيف في ليون سنة ١١٧ م ، كان هو غائباً في رحلة إلى رومية ، ولما عاد رسم أسقفاً في ليون ، خلفاً للأسقف بوثينوس ، الذي كان قد استشهد ، وظل في مركزه الأسقفى إلى نهاية حياته .

وكان « إيرانيوس » ذا روح متوثبة ونفس حساسة ، وعقلية جبارة في اللاهوت المسيحي . وكانت نظريته اللاهوتية أن الله خالق آدم صالحاً وخالداً ، ولكنه فقد الصلاح والخلود بسقوطه وعصيانه ، وما أضاعه

آدم ، قد أعاده المسيح الكلمة (Logos) المتجسد الذى يكمل الآن كل الأشياء الناقصة . وقد خلف لعلم اللاهوت فكرته الماثورة « نحن نتبع المعلم الأوحى كلمة الله - ربنا يسوع المسيح الذى صار من فرط محبته المنزهة مثلنا لكى يرفعنا ، إلى ما كان عليه » . والمسيح فى نظره هو إعلان الله الكامل .

وكما أعلن فى فكره اللاهوتى أن المسيح هو آدم الثانى ، كذلك قال إن العذراء هى حواء الثانية - إن عقدة عصيان « حواء الأولى » قد حلها طاعة « مريم » ، وذلك لأن « حواء » المعقدة ، التى ربطتها الخطيئة بأحكام وقيود عصيانها وسقوطها قد فكت رباطها « العذراء مريم » بالإيمان . ولما لواجدون فى هذا الوصف الغريب الفكرة الأولى لتسامى العذراء ورفعها التى لعبت دوراً هاماً فى التاريخ المسيحى .

ترتوليانوس

كان ترتوليانوس من أبرز الشخصيات وأعجبها فى الكنيسة القديمة ، وقد ولد حوالى سنة ١٥٥ م ، من أسرة وثنية غنية فى مدينة قرطاجنة بشمال أفريقيا ، وقد درس القانون ، ومارس مهنته فى رومية ، وكان واسع الاطلاع قوى البنيان فى الفلسفة والتاريخ ، وأتقن اللغة اليونانية اتقاناً تاماً . وفى حوالى سنة ١٩٥ م اعتنق المسيحية ربما فى رومية . وبقدر غيرته المتحمسة فى الدين الجديد ، بهذا القدر عينه ، درس الآداب المسيحية ، المحافظة منها والمنحرفة ، وبعد ذلك يعود إلى قرطاجنة مسقط رأسه ، وهناك يرسم شيخاً ، وقد بقى فى هذه الوظيفة إلى نهاية حياته سنة ٣٢٥ م .

وقد كان في أول الأمر من أنصار الكنيسة الكاثوليكية (الجامعة)
المحافظة على الإيمان القويم . وكان من آثار الاضطهاد العنيف الذي
احتدم أواره في شمال أفريقية في سنة ٢٠٢م في عهد الامبراطور «سيفروس»
أن تشبعت نفسه بفكرة الطهورين المتمسكين بطهارة الحياة وبساطتها ،
فتعاطف مع المونتانية ، وعشق ما فيها من مظاهر التقشف والتزهد عن
الشهوات الدنيوية . وجوالى سنة ٢٩٧م انفصل عن الكنيسة (الجامعة)
التي أمعن في نقدها نقداً مرّاً ، ومات وهو ثائر عليها . ويقال إنه أسس
طائفة صغيرة كان هو عمادها .

وفي سنة ١٩٧م ، بدأ « ترتوليانوس » نشاطاً أدبياً في الدفاع عن
المسيحية وشرحها ، وظل على هذه الحال إلى سنة ٢٢٠م . وقد كان
أول كاتب من رجال الدين يكتب باللاتينية ، وذلك لأن قادة الكنيسة
الرومانية ومفكريها ، كانوا يكتبون باليونانية إلى ما بعد عهده . أما
أسلوبه فقد كان رائقاً ، واضحاً ، سهلاً ، بارعاً ، ساحراً ، قوياً ، وكان
في طريقة بيانه ودفاعه أشبه بمحام يقف في ساحة القضاء . ولم يكن لينا
منصفاً لخصومه ، ولكن روحه المضطربة بنار الغيرة والحماس ، جعلت
كل كتاباته عميقة الأثر ، حتى استحق لقب « أبي علم اللاهوت
اللاتيني » .

ولم يكن ترتوليانوس من علماء اللاهوت ، لأن افكاره استمدتها
من المدافعين أمثال « ايرانيوس » ، ومن حماة التقاليد المسيحية في
آسيا الصغرى ، واستند إلى حد كبير إلى تعاليم الرواقين والآراء
القانونية

وقد امتاز « تروتيانوس » بدقة الحس الروماني في المحافظة على النظام . وكل أقواله وكتاباتاته امتازت بالدقة والوضوح ، بعقل قانوني مدرب ، وخلع على كثير من الأفكار اللاهوتية التي شابهها الغموض والإبهام ، دقة وبراعة في التعبير لم يعهد لها الأدب المسيحي من قبل . وكان له إحساس بالخطيئة أعمق من أي كاتب مسيحي آخر منذ عهد الرسول بولس ، وكان لتعاليمه الفضل الأكبر في تطور الأفكار اللاتينية عن الخطيئة والنعمة . ويبدو أنه كان من أوائل المفكرين في عقيدة الخطيئة الأصلية ، وفي هذا يقول : « هناك إذًا بخلاف الشر الذي يطغى على النفس من تدخل الروح الشرير - شر طبيعي ينشأ من الأصل الفاسد ، ولكن قوه نعمة الله أقوى في فعلها من الطبيعة الأصلية » . وفي عرفه أن الخلاص يتم بالنعمة ، ولكن الإنسان مطالب بالشئ الكثير . ومع أن الله يغفر الخطايا السابقة في المعمودية ، فإنه لا بد من الترضية عن الخطايا التي ترتكب بعد ذلك ، بواسطة الذبائح ، وأهمها التقشف . وكلما ازداد الإنسان في توقيح العقوبة على نفسه ، قل عقاب الله له .

وأبعد مصنفاته أثراً وأعمقها روحانية ، وصفه لعقيدة الكلمة (Logos) عن المسيح . وبعقله القانوني الناضج ، خلع على هذه الفكرة اللاهوتية معاني دقيقة مسهبة ، بعدت بها عما تواضع عليه علماء اللاهوت في آسيا الصغرى . وقد شرح ذات الله في مصطلحات سبقت ماتوصل إليه قانون الإيمان ، الذي وضعه المجمع النيقوي بعد مائة سنة من هذا التاريخ .

كبريانوس

كان « كبريانوس » من وجوه كثيرة الوارث العقلي لتروتيانوس ، وقد دعاه معلمه وسيده .

وقد ولد في قرطاجة حوالي سنة ٢٠٠ م ، وقضى فيها كل حياته ،

«وكان من أهل الثراء العريض والثقافة الرفيعة ، وامتاز كأستاذ للمنطق .
وحوالى سنة ١٤٦م اعتنق المسيحية ، ولما تنقضى سنوات ثلاث ، حتى
رسم أسقفا على قرطاجة .

وفى فترة اضطهاد الامبراطور « ديسيوس » ، تولى هذا الأسقف
الغيور الفصيح الطموح . إدارة الكنيسة ، لافى قرطاجة وحدها ، بل
فى أفريقية كلها . وقد تحلى بصفات وسجايا ملكت ألباب المؤمنين ،
وأثارت أحقاد وشبهات ولاية الحكومة الوثنية . ويروى التاريخ أن أربعة من
قيصرة الرومان - بأسرهم وأخصائهم وأتباعهم ، قد هلكوا بحد
السيف فى فترة عشر سنوات ، فى خلالها تولى إدارة دفة الكنيسة فى أفريقية
بحنكة ودراية وإرشاد قويم . وفى السنة الثالثة من ولايته ، ولمدة أشهر
قلال ، أحس بشدة وطأة قرارات العاهل الرومانى « ديسيوس » ويقظة
الولاية ، وصيحات الغوغاء وجماهير الشعب ، التى نادى بأصوات
كالرعد طالبة أن يلقى « كبريانوس » زعيم المسيحيين طعاما للأسود . وهنا
أوحت إليه الحنكة أن يختفى مؤقتا عن الأنظار ، وكان فى هذا القرار سياسيا
حكما ، فانسحب إلى عزلة اختيارية فى مكان خفى ، استطاع منه أن
يكاتب قساوسة وشعوب قرطاجة ، ولذا يخفى نفسه حتى تعبر العاصفة ،
لم يفقد شيئا من قدرته وشهرته ، على أنه لم يسلم من عدل المسيحيين
المتزمين الذين حسبوا مسلكه هذا جريمة فى حق واجبه المقدس . ولكنه
برر موقفه بأنه حفظ نفسه حيا للمساهمة فى دور خطير فى تاريخ الكنيسة ، وأنه
فى فترة اختفائه ، قد تلقى الوحي من السماء . وما درى هؤلاء الناقدون أن ثمانى
سنوات لن تحول حتى يقدم هذا البطل نفسه شهيدا وفيا لقضية دينه . وقد سجل
التاريخ الصادق قصة استشهاده بصراحة غير مألوفة وإنصاف منعدم النظير ،
«لنا لى المؤرخ الشهير « جيبون » صاحب كتاب « لإنهيار الامبراطورية
الرومانية » ، وهو لم يكن متعاطفا مع المسيحية ، وفى مواقف كثيرة

أنهى باللائمة على رجالها وزعمائها - نراه يفرد لاستشهاد هذا الأسقف.
فصيلا مسهبا ، استقاه من أوثق المصادر ، وها نحن أولاء نلخص للقارئ
الكريم هذا الوصف الدقيق :

« في عهد الامبراطور « فاليريان » ، استدعى والى أفريقية باترنوس -
« كبريانوس » - للمثول أمام مجلسه الخاص ، وأطلعه على القرار
الإمبراطورى القاضى بأن الذين هجروا دين آبائهم ، ينبغي أن يعودوا
إلى ممارسة طقوس الأسلاف ، فأجابه « كبريانوس » بأنه مسيحى ، وأنه
أسقف لا يعبد إلا الإله الواحد الحق ، الذى يقدم له دعاءه كل يوم ليصون
حياة رئيس الدولة الامبراطور ، وأبى الإجابة عن بعض الأسئلة الوقحة
التي وجهها إليه الوالى ، استنادا إلى حقه القانونى كمواطن روماني - فأمر
الوالى بنفيه جزاء عصيانته ، فأبعد إلى جزيرة تبعد أربعين ميلا عن قرطاجنة ،
ولكنه عومل هناك معاملة حسنة ، وسمح له بتلقى الرسائل وزيارة أعوانه
ورعاياه .

وبعد فترة استدعى من منفاه ليقم في حديقته منزله ، وبعد سنة من
عودته ، تلقى الوالى الجديد - « جاليروس مكسيموس » - أمرا إمبراطوريا
بإعدام كل معلمى المسيحية وأساقفتها ، وقد توقع أن يكون هو أحد
الضحايا . وبعد قليل أقبل إليه إثنان من رجال الشرطة ، واقتاداه إلى منزل
أحدهما ، تكريما له قبل مثوله أمام مجلس الوالى ، وهناك أقاما له وليمة ،
وسمحو لنفر من أصدقائه بتوديعه . ثم أخذاه بعد ذلك إلى دار الوالى ،
وهناك حاول الوالى إقناعه بتقديم الديبحة للامبراطور ، فأبى كل الإباء ،
فأصدر حكما بقطع رأسه كعدو خائن للإله رومية ، وزعيم لعصابة من
العصابة المحرمين .

ولما سمعت الجماهير المحيطة بالقصر هذا الحكم ، صرخوا بصوت كالرعد « سنموت معه » ، ولكن أحداً لم يعبأ بصراخهم واقتادوه إلى ساحة الإعدام تحت حراسة قوية في مكان فسيح خارج المدينة ، وبضربة واحدة قد خرجت رأسه على الأرض ، فجمع أنصاره الذين كانوا واقفين حوله كمية من دمائه الثمينة ، وكان قد أوصاهم أن يمنحوا الجلاد بعض النقود هدية له ، وبعد أن بقيت جثته فترة من الزمن لإرواء ظمأ الشامتين ، نقله أعوانه إلى مدافن المسيحيين وسط البكاء النجيب .

أوريجانوس

كانت الإسكندرية — كما قلنا في فصل سابق — ثاني مدينة في العالم القديم ، لم تبرزها إلا رومية وبعثثد القسطنطينية ، وقد أسسها الإسكندر الأكبر سنة ٣٣٢ ق م — وكانت مركزاً تجارياً ، وفدت إليها جماعات من اليونان واليهود ، وقد اشتهرت بحياتها الفكرية والعقلية ، وبمكتبتها التي كانت أرقى مركز ثقافي في الإمبراطورية . في شوارعها التقى الشرق بالغرب ، وإنسابت إليها في غزارة الفلسفة اليونانية والديانة اليهودية والعبادات الشرقية الأخرى ، وبقيت فيها حية ، الأفكار المصرية القديمة .

في الإسكندرية ترجم العهد القديم من الكتاب المقدس إلى اليونانية ، وفيها حاول « فيلو » الفيلسوف اليهودي التوفيق بين اليهودية والفلسفة اليونانية ، كما حاول « أوريجانوس » التوفيق بين المسيحية وهذه الفلسفة . وفي الإسكندرية تأصلت جذور المسيحية في عهد مبكر . وكانت فيها مدارس لكل النظم الفلسفية ، يتلقى فيها طلابها الدرس والبحث . فكان طبعياً أن تحذو المسيحية حذو هذه المدارس ، ففي سنة ٢٨٥ م ، كنت ترى مدرسة ذائعة الصيت لتلقين المسيحية لطلابها تحت قيادة « بانتيوس » الفيلسوف البرواقي المنتصر ، وجاء بعده العالم الشهير في تاريخ المسيحية

« أكليمندس » ، الذى كان فى الوقت عينه « شيخا » فى الكنيسة ، فاستطاع أن يكون همزة وصل تربط الكنيسة بالمدرسة .

وقد وضع « أكليمندس » مؤلفات عديدة فى الفلسفة والدين وعلم اللاهوت ، دلت على عقل مدرب ناضج وفكر عميق ، وقد تفوق على الشهيد « يوستن » فى الوضوح العقلى حول « الكلمة » الإلهى ، الذى كان مصدر كل حكمة وفهم وخلق للجنس البشرى ، يسوع الكلمة ، الله خالق كل الأشياء .

على أن « أكليمندس » لم يضع نظاما لاهوتيا متكاملًا ، وترك هذه المهنة « لأوريجاتوس » تلميذه وخلفه فى قيادة الكنيسة وإدارة المدرسة .

ولد « أوريجانوس » فى الإسكندرية فى سنة ١٨٥م فى أسرة مسيحية . وكان والده « ليوتيدس » مؤمنًا حقًا ، أحسن تربيته وتدريبه على حفظ الكتاب المقدس — وفى فترة الاضطهاد التى تأججت نيرانها فى عهد « سيفروس » ، ألقى والده فى غيابة السجن وكان الولد فى السابعة عشرة من عمره ، وأحس « أوريجانوس » أن ولاءه يقضى عليه أن يتبع والده لمشاطرته آلامه ، ولكن أمه أخفت ثيابه بعد أن حارت فى إقناعه بالعدول عن عزمه . أما والده فقد قطعت رأسه بعد ذلك وصودرت أمواله ، وتركت الأسرة فى عوز وفاقة ، فأوته سيدة كريمة فى دارها . وكان أحد أساتذة الغناطسة يلتقى محاضرات فى الدار ، فامتنع « أوريجانوس » . عن سماع هذه العقائد الخاطئة المضللة . ولما كبر أبدى غيرة لحق الإنجيل . وكان يتفقد المسجونين فى زنزاناتهم ، ويرافقهم إلى ساحات الإعدام .

ويسندهم في تحمل آلام الموت بقوة إيمانه وفيض محبته ، وأكثر من مرة حاولت للدهماء القبض عليه ولكنه كان يفلت منهم .

ولما بلغ الثامنة عشرة من العمر عينه الأسقف « ديمتريوس » مدرسا في مدرسة الإسكندرية ، وقد مالت نفسه إلى التقشف وقداسة الحياة ، فلم يبقين إلا ثوبا واحدا ، لم يكن كافيا لوقايته من قرص الشتاء ، وكان يمشي حافي القدمين ، وينام في أكثر الأحيان على الأرض الصلبة ، وذهب في إذلال نفسه إلى أبعد حد ، فخصى نفسه متخذا ما جاء في بشارة متى (١٩ : ١٢) نصيحة الكمال لأجل ملكوت الله .

وفي سنة ٢١٥م ، قرر الامبراطور الروماني « كارا سالا » ، طرد كل معلمى الفلسفة من مدينة الإسكندرية ، فهرب إلى فلسطين ، وهناك رحب به صديقه القديم أسقف أورشليم . وكانت شهرته قد سبقتة إلى تلك البلاد ، فاستدعاه أسقفا أورشليم وقيصرية لإلقاء محاضرات هناك وكان بعد « علمانيا » ، فلم يرض هذا الوضع أسقف الإسكندرية ، فامرته بالعودة إلى الإسكندرية ورضى عنه إلى حين ، وعاد محاضراته في المدرسة وجاهد في إنتاجه العلمى والفلسفى .

وفي هذه الفترة قام برحلة إلى اليونان وفلسطين في سنة ٢٣٠، ٢٣١م وبمساعدة أصدقائه أساقفة فلسطين رسم شيخا ، ليكون حرا في الوعظ والتعليم ، ولكن أسقف الإسكندرية « ديمتريوس » حسب هذا الصنيع اعتداء على إختصاصه ، وعقد مجمعا قرر فيه نفي أوريجانوس من الإسكندرية وتجريده من خدمته . ولكنه ظل يمارس دراسته وتعليمه في قيصرية محاطا بجمهور من أصدقائه ومريديه الذين أجلوه وبحلوه .

وفي فترة اضطهاد الإمبراطور « ديسيوس » سنة ٢٥٠م أُلقي في السجن .
في زنزانه قلده كريمة ، وقيدت يداه ورجلاه بقيود من حديد ، وسم
أصنافا وألواناً من العذاب حتى عاجلته المنية سنة ٢٥٣ ، ٢٥٤م ، وكان
قد بلغ التاسعة والستين من العمر .

ويرى التاريخ أن كثيرين من المعجبين به كانوا يلجأون إليه طلباً
في معونته وإرشاده ، لما اتصف به من عمق في التفكير اللاهوتي ،
ودراسة الكتاب المقدس وتفسيره ، وروحانية فائقة . وقال عنه بعض
المؤرخين إن مؤلفاته الدينية اللاهوتية ، تعتبر أعظم الإنجازات العقلية في
الكنيسة قبل مجمع نيقية ، وقد كان لها أعمق الأثر في تفكير الشرق
اللاحق . ولكن من اليسير أن نرى في المناقشات والبحوث التي دارت
حول كتاباته وآرائه ، كيف حسبه المحافظون منحرفاً مهبطاً . وقد
أصدر مجمع عقد في موطنه الإسكندرية سنة ٣٩٩ أو ٤٠٠م ، قراراً
بإدانة آرائه وتطرياته ، كما أدانها الإمبراطور « يوستينيان » سنة ٥٤٣ .
وأدانها المجمع العام الخامس سنة ٥٥٣م .



مكتبة

المفتدين

١٩

الموقف يتغير

قرار قسطنطينس الكبير - نقل العاصمة الى بيزنطة -
الافلاطونية الحديثة - الدولة تحاول فرض سلطتها على
الكنيسة - الكنيسة توطد دستورها .

قرار قسطنطين الكبير

رأينا في فصل سابق كيف استطاع الإمبراطور « قسطنطين » ، الذي جاهد تحت راية الصليب ، وحرر إيطاليا أولاً من غاصبها « مكستويوس » . ثم أصدر قراره المأثور في التاريخ ، الذي أذاعه في رومية في سنة ٣١٣م . وقرر به التسامح الديني في كل أنحاء الإمبراطورية شرقاً وغرباً ، ووضعت المسيحية على قدم المساواة مع الوثنية كعقيدة شخصية تتبع ضمير الأفراد وغداً كل إنسان حراً ليختار ما يشاء من عقيدة وعبادة ، ومنح المسيحيون حرية تامة في أداء فرائض دينهم ، وردت إليهم كنائسهم المصادرة وأموالهم المنهوبة ، وقيل إن ذلك الإمبراطور شهد في امسية أحد انتصاراته على منافسيه ، صليباً من نار يرتسم في الجو ، وقد نقشته هذه الألفاظ « في هذا إنتصارك » ، كما حلم أيضاً أن المسيح يأمره أن يتخذ الصليب شعاراً لامبراطوريته ، يحارب تحت لوائه ، وفي أثر هذا الإجراء زادت أعداد أعضاء الكنيسة زيادة هائلة ، بفضل ما أبداه الإمبراطور من تعاطف وملاينة . وفي سنة ٣٢١م منحهم حق قبول الوصايا والهدايا والتركات الخيرية . وفي السنة عينها أمر بوقف العمل في أيام الاتحاد في المدن الكبرى

ومنع تقديم الذبائح الوثنية ، وقرر تشييد كنائس ضخمة في رومية وأورشليم وبيت لحم وغيرها ، بأموال من الخزانة العامة .

نقل العاصمة إلى ييزنطة

وأهم الإجراءات التي اتخذها ، نقل عاصمة ملكه ييزنطة التي بناها وأسمها رومية الجديدة ، والتي أطلق عليها العالم فيما بعد « القسطنطينية » تكريماً له وإحياء لذكره . وقد كانت بواعث إنشائها سياسية دفاعية في العام الأول ، ولكنها لعبت فيما بعد دوراً خطيراً في الشؤون الدينية ولم تزل حتى اليوم - حتى بعد أن تغير اسمها إلى استنبول ، إذ أنها تحتفظ بكرسي بطريركي مسيحي يسمى نفسه البطريرك المسكوني .

على أن المنح التي خاضها « قسطنطين » للكنيسة اقتضرت على الكنيسة المحافظة ، أي الكنيسة « الكاثوليكية » الجامعة ، أما طوائف « النهرطقة » وكانوا كثيرين ولما تستأصل شأفتهم ، فلم يكن لهم فيها نصيب . ومن الغريب أنه لم يتعرض للوثنية بسوء ، وظل هو نفسه رئيس كهنة الوثنية على الرغم من إعتناقه المسيحية وقبوله المعمودية في آخر سنة في حياته (٢٣٧ م) .

الأفلاطونية الحديثة

ومع هذا كله فقد بقيت الوثنية العدو اللدود للمسيحية ، وذلك لأن قوة روحية جديدة اختمرت في العالم الوثني ، هي التي عرفت في التاريخ بالأفلاطونية الحديثة . وقد حاولت هذه المدرسة التي يرجع تاريخها إلى القرن الثالث أن تبديل الأديان الوثنية القديمة ، وتخلق منها فلسفة حديثة مجعدة ، وتخلع على الوثنية ثوباً قشيباً من الجدة والرواء . وكان من آثار هذه الأفلاطونية الحديثة أن ارتد الإمبراطور « يوليانوس » - خليفة قسطنطين - عن المسيحية إلى عبادة الآلهة القديمة ، وعاد إلى مبادئ آبائه

وأجداده . وقد أراد إحياء الوثنية لتناهض المسيحية ، لا من حيث الثقافة فقط ، بل من حيث الروح والآداب والأخلاق والمحبة وفعل الخير . ولكأنما أراد ان يجعل من الوثنية مسيحية في قالب وثني . على أنه لم يضطهد الدين المسيحي ، وأباح الحرية لكل نوع من العبادات . ولكن هيات أن يتنافس الدين المصطنع الدين الحى الحقيقى . فانه في عهد خلفاء « يوليانوس » هذا ، عادت المسيحية إلى مكانتها التي أحياها فيها « قسطنطين » العظيم ، وصارت دين الدولة الرسمي . ولم تقو الوثنية على الوقوف في وجهها ، وذلك لأنها لم تظفر بشهداء يوثرون الموت على التسليم والارتداد . ولم يكن دين المستقبل الذي يضمن للبشرية الرقي والرخاء . وما حل القرن الخامس ، حتى كان نجم الوثنية قد أفل كعنصر من عناصر الثقافة ، وغدت الامبراطورية كلها مسيحية لحماً ودماً . وبذلك تم للكنيسة الظفر المبين ، وانتقلت من هيئة سرية مطاردة مضطهدة ، إلى كنيسة لها الحول والطول ، تسندها الإمبراطورية كلها ، وتعصدها قوات الدولة .

الدولة تحاول فرض سلطانها على الكنيسة

كان الفوز مبيناً ولكن للفوز أخطاره ومساوئه . فمع توافر الحرية ، حظيت الكنيسة بالكرامة والسلطان ، ولكن انسربت إليها المطامع والأهواء وكان أشد الأخطار ، أن الدولة قد فرضت الآن مطالبها على الكنيسة . فهي قد تبدلت من العدو إلى الحليف ، ولكنها طالبت في نظير ذلك ، ببسط نفوذها على الكنيسة ثمناً لهذا التحالف . ولم تكن الدولة الرومانية قد ألقت من قبل ، أن ترى قوى أخرى إلى جانبها تقاسمها السلطان والنفوذ . وقد زعمت الدولة أن من حقها الإشراف ، لا على السلطة الزمنية فقط ، بل على السلطة الروحية المقدسة التي تقوم بالعبادة الرسمية ، وزعمت أنها في

هذا لا تطلب شيئاً جديداً ، بل إنها تطالب بما كان لها من حق على العبادة الوثنية .

ومرة أخرى ، وقفت الكنيسة أمام الدولة تتحداها ، وتأني الخضوع لها ، وتنكر عليها سلطانها وتدخلها . وكان يصح أن تلين الدولة وتتساهل ولكنها ، وقد أضفت على الكنيسة حمايتها ، وأغدقت عليها من المنح والامتيازات ، لم تشأ أن ترضى بغير الاستسلام المطلق من جانب الكنيسة . ومن ثم نرى مهادنة الدولة الكنيسة ، وصداقتها لها ، أشد خطراً عليها من أعدائها ، وباحتضان الامبراطورية ، تعرضت القوى الروحية في الكنيسة لخطر الاختناق والفناء — وغدا تنفيذ القانون الكنسي ، واستدعاء المجالس العامة وتنفيذ قراراتها ، وتعيين الأساقفة في المراكز الهامة ، وحق الإختصاص الأعلى للمحاكم الروحية ، والقول الفصل في المشاكل الجدلية والتي قد تنشأ حول العقائد — غدت هذه كلها من الحقوق التي طالبت بها الدولة الرومانية وأصرت على إنزاعها من السلطات الدينية . ولو أن الكنيسة ارتبطت الآن ، أن تكون أداة طيعة تحت يد الامبراطورية ، لكانت ذهبت ضياعاً ، الدماء والجهود التي بذلتها في خلال القرون الثلاثة الأولى .

الكنيسة توطد دستورها

وعلى الرغم من هذا كله ، فإن الكنيسة قد انتفعت بشيء واحد من بعد أن اعترفت بها الدولة ، وذلك أنها نظمت دستورها في طول الإمبراطورية وعرضها ، ووحدت أعمالها وجهودها ، وحققت لنفسها السلطان التام على النظام الكنسي . وكان مبدأ الكنيسة الجامعة (الكاثوليكية) ، يرمى إلى وضع نظام دستوري معين ، قاهتلت هذه الفرصة ، وأحكمت نظامها

الذى صاغته على نموذج النظام فى الإمبراطورية . فكانت « المدينة » مثلاً أصغر وحدة فى النظام الإمبراطورى السياسى ، فجعلتها الكنيسة أصغر وحدة فى نظامها ، وعينت فى دائرتها أسقفاً ، وصارت دائرة « المدينة » أبرشية أسقفية . كذلك كانت الولاية فى دستور الإمبراطورية ، تشمل مدناً عدة يحكمها وال من قبل رومية ، فاقتبست الكنيسة هذا النظام عينه ، واتحدت جملة من الأبرشيات ، تحت إشراف أسقف أكبر ، وهو أسقف عاصمة الولاية وقاعدة الحكم فيها ، ومن القرن الرابع ، قضى دستور الإمبراطورية أن تؤلف وحدات من الولايات المتقاربة ، لتكون وحدة إمبراطورية ، فاقتبست الكنيسة هذا النظام فى دستورها ، وجعلت مقراً للبطريركية ، يشرف على عدد من كبار الأساقفة . وأخيراً تجمعت كل هذه الكنائس المتفرقة ، تحت هيئة واحدة عليها سميت المجمع المسكونى ، وهو يشبه المجلس الإمبراطورى فى دستور الدولة . ومن ثم كانت الكنيسة الإمبراطورية الجامعة وحدة متماسكة ، ومظهراً خارجياً منظوراً للمسيحية الواحدة الجامعة .

وكأن الإمبراطورية الرومانية فى شيخوختها ، قد خلفت للكنيسة الفتية دستوراً ونظمها ، وكان هذا الدستور تراث المستقبل المجيد . وقد انهار دستور الدولة ، وبقي دستور الكنيسة حياً خالداً حتى اليوم ، وفى نظام الكنيسة الكاثوليكية البابوية ، وهو يتدرج من وحدات صغيرة ، حتى يصل إلى الرأس وهو البابا ، الذى تشبه سلطته الكنسية سلطة قيصر رومية فى ذلك العصر الغابر . ولم يكن هذا الاتحاد بلا جدوى ، فإن الكنيسة — بعد إذ اقتبست هذا النظام الإمبراطورى ، يما عهد فيه من قوة واتساع وتماسك — استطاعت أن تركز على كيانها وسط العواطف والأنواء ، وأن تعبر عن إرادتها ووحدتها ، وأن تدافع عن حريتها وإيمانها وعقائدها .

٢٠

بدء المنازعات

(الأسقف دوناتوس - مجمع اربل - الهرطقة الأريوسية
- أسقف الاسكندرية تقاوم مجمع نيقية - قوانين الايمان
الثلاثة - اثناسيوس بطل المجمع - مجمع القسطنطينية).

أراد قسطنطين الكبير أن يوحد أمبرطواريته سياسيا وثقافياً واقتصادياً
ولعله في تعاطفه مع المسيحية قصد أن يتخذ من هذا الدين عاملاً من عوامل
هذه الوحدة ، ولكي تكون المسيحية عاملاً من عوامل الوحدة ، لامناص
من أن تكون الكنيسة واحدة خالية من بواعث الإنشقاق والمخافة بين
أفرعها . ولكنه وجد في شمال أفريقية أن اضطهاد « دقلديانوس » خلق
انشقاقاً معقداً وشخصياً في أسبابه ، وذلك لأن الحزب المحافظ هناك ادعى
أن أسقف قرطاجة الجديد تمت رسامته في سنة ٣١١ م ، بيدى إنسان
لوثته خطية مشينة قاتلة ، يوم سلم الأسفار المقدسة التي كانت بعهدته ،
إلى الوالى المضطهد ، ولم يرع الأمانة المسيحية مسوقاً إلى ذلك بالخوف
والجبن والحرص على حياته .

الأسقف دوناتوس

وحسبوا تلك الرسامة باطلة وعينوا بديلاً عنه ، ولكن خلف ذلك البديل
في كرسى الأسقفية رجل قوى الشكيمة ، شديد البأس ، يدعى « دوناتوس
الكبير » ، وقد سمي هذا الإنشقاق « الدوناتية » نسبة إلى هذا الأسقف العنيد ،
وفي سنة ٣١٣ م أغدق الإمبراطور هبات من المال على قساوسة الكنيسة الكاثوليكية .

وحرّم منها أنصار الدوناتية ، ولما شكوا هؤلاء انعقد مجمع في رومية في السنة عينها ، ولكنه حكم ضدهم ، فزادت العداوة لئدا والقطيعة مرارة ، وهنا يتدخل قسطنطين ، ويغتصب لنفسه السلطة التي كانت وبالا على الكنيسة ، ألا وهي وضعها تحت إشرافه ، والتسلط على كل شئونها ، فاستدعى مجعاً في سنة ٣١٤م في مدينة « إرل » من أعمال بلاد الغال « فرنسا » .

مجمع إرل

وقد أصدر المجمع قراره بإدانة الشيعة ، واعتبار الرسامة صالحة حتى وإن تمت بأيدي غير نقية ، ولكن أنصار هذه الشيعة رفضوا الإستسلام والخضوع لهذا القرار . فأغلق الإمبراطور كنائسهم ، ونفى أساقفتهم ، وهنا يبدأ اضطهاد المسيحيين بعضهم بعضاً ، وساد الاضطراب كل شمال أفريقيا ، مما اضطر الإمبراطور أن يعدل عن إستعمال القوة ، وفي سنة ٣٢١م ترك المنشقين لحالهم ، فزاد عددهم زيادة هائلة ، وادعوا أنهم هم الكنيسة الوحيدة التي نخلت من لوثات الخطيئة القاتلة ، وظلت هذه الشيعة عاملة ناهضة ، ولم يخف وجودها إلا بعد الفتح العربي .

الآريوسية

ومنذ أوائل القرن الثالث ، برزت بقرنيها هرطقة أخرى ، وكانت على الكنيسة أشد خطراً من سائر الهرطقات ، وذلك أن كاهنا من كهنة الكنيسة في الاسكندرية يدعى آريوس أعلن جهاراً على الملأ أن المسيح لم يكن إلهاً ، بل هو كائن وسط بين الله والانسان ، شبه إله ، خلق منذ البدء وهو ليس من جوهر الله ، ولم يكن أزلياً ، وقد حبك دعواه في عبارات خلافة ، حتى ظن كثيرون أنه يقول الحق .

ومن قبل ناضلت المسيحية اليهودية الضيقة والوثنية الغاشمة والعالمية والشاردة ، والأغسطية المتفلسفة ، وغيرها من نزعات الزيغ والالحاد ، وهي الآن تقف أمام عدو خبيث يطعن جوهر الإيمان .

ومنذ البداية كان فرضاً على المسيحية أن تواجه السؤال القائل : ماذا تظنون في المسيح ؟ وقد كان سر لاهوته المشكلة الأولى والعظمى أمام العقل المسيحي المثقف ، فن كتابات بولس ويوحنا ، إلى كتابات خلفائهم من بعد مدى الأجيال ، يقوم الإيمان المسيحي على أن يسوع المسيح هو « الأول والآخر » (رؤيا ١ : ١٧) و « بداءة خليقة الله » (رؤيا ٣ : ١٤) و « كلمة الله » (رؤيا ٩ : ١٣) الذي به خلق العالمين ، وهو حي قبل تأسيس العالم . وبهذا المعنى هو ابن الله ، بل الله ذاته . وقد وجد العقل البشرى نفسه أمام صعاب حين راح يفكر أن ابن الله الذي صار إنساناً وارتضى قيود الجسد وذلّه ، يحسب معادلاً لله ، وهو في الوقت نفسه منفصل عنه .

أفيكون المسيح مجرد إنسان قد امتاز بمواهب خاصة ، وقوى معجزية ، وكرامات قدسية ؟ ليس هنا شيء من الصعوبة البتة . والواقع أن قليلين مالوا إلى هذا الحل ، ولكنهم كانوا قلة ضئيلة لم يكن لهم شأن في تاريخ الكنيسة ، واستؤصلت هذه الهرطقة وهي نبتة صغيرة ، فلم تقم لها قائمة فيما بعد في التاريخ المسيحي . واستقر الفكر الديني من أول الأمر ، على التسليم بالوهية المسيح . ولكن الله إله واحد ، لا إله إلا هو . لذلك ذهب بعضهم إلى أن الله الآب ، تجسد في المسيح وتألم على الصليب . وأن الله الآب ، والله الإبن ، والله الروح القدس ، ليسوا إلا مظاهر مختلفة للإله الواحد الأحد . وذهب آخرون إلى أن البكائن الإلهي الذي ظهر في

المسيح ، هو كائن روحى خلق قبل إنشاء العالم ، وهو مخلوق ومع ذلك ،
أقل مرتبة من الله .

أسقف الإسكندرية يقاوم

وكلا الرأيين قد بعد عن الإيمان القويم كل البعد ، ولم يكن بد من وضع حد لهذه الآراء المتناقضة ، وصياغة قانون الإيمان السليم ، فى مصطلحات ثابتة ، لا تعيث بها أهواء الهراطقة والملحدين . وقد كان أسقف الاسكندرية أول من فطنوا إلى خطر دعاية آريوس ، فحاول أولاً فى لقاء شخصى معه ، أن يرده إلى الصواب ، ثم استدعاه إلى مجمع من الأساقفة ، فلم يرض آريوس العدول عن آرائه ، التى نظمها فى قصائد شعرية ، وأناشيد وأغان رائعة ، فشجر نزاع عنيف بين الآريوسيين وبين بقية الكنيسة ، وانتقل النزاع من مصر إلى غيرها من الأمصار . وبلغ نبأ هذا النزاع أسماع الإمبراطور قسطنطين ، وكان قد وطن العزم على أن يحتفظ بوحدة الكنيسة ، صيانة لوحدة الإمبراطورية ، فبعث برسالة إلى الإسكندرية مع الرجل الشيخ « هوسيوس » ، أسقف قرطبة . فى أسبانيا ، يرجو فيها زعماء الكنيسة فض هذا الإشكال إبقاء على الوحدة المسيحية ، فلما عاد الأسقف إلى الإمبراطور ، أبلغه أن المسألة جد خطيرة ، وأقنعه بعقد مجمع الأساقفة لفض هذا النزاع ، وغيره من أسباب الخلاف أخرى .

مجمع نيقية :

وقد عقدت الكنيسة من قبل مجامع إقليمية محلية فى القرنين الثانى والثالث ، أما الآن ، وقد تمتعت الكنيسة بحريتها ، واستندت إلى عون

الامبراطورية ، فلم يكن ثمة ما يحول دون عقد مجمع مسكوني ، يحضره ممثلون من كل رقع العالم المسيحي .

ولذلك انعقد المجمع في مدينة نيقية بآسيا الصغرى سنة ٣٢٥ م ، ولأول مرة في تاريخ الكنيسة اجتمع — على ما يقال — ثلاث مائة وثمانية عشر أسقفاً من أحيار الكنيسة ، قدموا من فلسطين وسورية وآسيا الصغرى ومصر وأفريقية وأسبانيا وبلاد القوط ، ولم يستطع أسقف رومية الحضور لكبر سنه ، وضعف صحته ، فأوفد اثنين من رجاله نائبين عنه . وكان بين المؤتمرين نساك من الصحراء ، ورجال بدت على جسومهم آثار الإضطهاد والتعذيب ، بل كان هناك أيضاً نفر من الفلاسفة الوثنيين ، الذين ساقهم حب الاستطلاع إلى هذا المحفل العظيم . وكان آريوس هناك — رجلاً أسمر البشرة ، نحيف القوام ، شاحب الوجه ، قليل العينين ، معقوص الشعر ، يرتدى ثياب الناسك الخشنة . وكان صوته جذاباً ، ساحراً في قوة الكلام وحسن التعبير . وإلى جانب أسقف الإسكندرية وقف شماس شاب ، له شعر أسمر مائل إلى الأحمرار ، وله لسان زلق قوى الحجة حلو الحديث . وقد أحضره للأسقف معه ليكون كاتم سره . ومع أنه كان شاباً في مقتبل العمر ، فقد ذاع صيته بكتابين قيمين أخرجهما للناس . أما ذلك الشاب فهو « إثناسيوس » بطل المسيحية فيما بعد .

وفي وسط القاعة أقيم عرش ، وضعت عليه نسخ من بشائر الإنجيل ، وفي أحد أطراف القاعة مقعد صغير مذهب ، وقف عنده الإمبراطور قسطنطين في ثيابه الأرجوانية المذهبة ، ينتظر الإذن من الأساقفة قبل الجلوس .

وقد ألقى الإمبراطور عند إفتتاح المؤتمر على المصالحة والهدوء ، ولكن

المناقشات اتخذت طريقاً عنيفاً ، واشتد الجدل والحوار حول مسائل الخلاف .
الكثيرة . وجاء دور مشكلة آريوس ، فاستعان أسقف الإسكندرية .
وأنصاره ، بأقوال السفر المقدس وقانون إيمان بسيط ، كان قد صاغه .
يوسيبوس أسقف قيصرية . ولكنهم رأوا أن آريوس وأتباعه قد يقبلون .
هذه الألفاظ ولكنهم يعنون منها شيئاً آخر ، فبحثوا واجتهدوا حتى عثروا
على لفظة يونانية (homousion) ومعناها « جوهر » ليثبتوا بها أن المسيح
من جوهر الله ، ومعاذل له ، وصاغوا بعض عبارات قانون الإيمان الذي
عرف فيما بعد في التاريخ بقانون الإيمان النيقوى ومطلعه :

« أو من ... و برب واحد يسوع المسيح ابن الله ... إله من إله ،
مولود غير مخلوق ، ذو جوهر واحد مع الآب ... » .

وبذلك فض المؤتمر النزاع القائم . وقرر إبعاد آريوس وأتباعه إلى
حين ، وحرق الكتاب الذي أودعه آراءه الملحدة .

قوانين الإيمان الثلاثة :

وفي الكنيسة المسيحية اليوم ثلاثة قوانين إيمان ، تنطوي كلها على عقائد
واحدة وإن اختلفت في الصياغة طولا وقصراً . أو إيجازاً وإسهاباً .
وأقدمها وأجزها هو قانون إيمان الرسل ، وهو يعبر بعبارة مختصرة
بسيطة ، عما كان يعلم به الرسل الأولون عن الله الآب ، وربنا يسوع
المسيح ، والروح القدس ، والكنيسة ، والغفران ، والحياة الأبدية . والثاني
هو قانون الإيمان النيقوى ، وسمى هكذا لأن في مجمع نيقية اتفق أئمة
الكنيسة على صياغة ألفاظ معينة للتعبير بها عن طبيعة المسيح . وهو أطول
من قانون إيمان الرسل ، تتلوه بعض الكنائس في عبادة الشركة المقدسة ..

أما الثالث فهو قانون إيمان إثناسيوس ، ولئن كان لم يكتبه بنفسه ، فإنه يعبر عن إيمان القديس إثناسيوس ، ويقال إنه كتب في القرن السادس ، ليتلى كتسبحة بعد المزامير ، وهو لا يستعمل الآن إلا نادراً ، لأنه مطول مفصل .

إثناسيوس بطل الجمع

ولم تسجل في محاضر الجمع النيقوى الأقوال التي تنفوه بها الشاب إثناسيوس ، ولكن الذي نعرفه ، أنه منذ ذلك التاريخ غدا رجلاً عظيماً في تاريخ الكنيسة ، يعجب به الكثيرون ، ويبغضه الذين لم يكونوا معه على وفاق في الرأي . وبعد المؤتمر بسنة واحدة ، سيم أسقفاً على كرسي الإسكندرية ، وقضى فترة من الزمن يكتب المؤلفات ويرعى شعبه في هدوء وسلام . وبعد ذلك إنقلبت حياته سلسلة من المخاطر والمعارك في سبيل الإيمان ، وذلك لأن قسطنطين وخلفاءه على العرش ، عادوا إلى محاربة آريوس ، وراحوا يضطهدون إثناسيوس وأنصاره اضطهاداً مرّاً ، فطرد إلى المنفى خمس مرات ، على أثر الدسائس التي حاكها أعداؤه والتهم التي أثاروها ضده . ومرة لجأ إلى حامية أسقف رومية ، وأكثر من مرة عاش طريداً متخفياً في أديرة صحراوات مصر ، يتنقل من مكان إلى آخر متنكراً ، والرهبان يخفون أمره ويتسترون عليه . ومن مخابثته بعث برسائل إلى أصدقائه ، الذين كانوا يكون كنائسهم التي إنتزعت منهم وسلمت إلى الآريوسيين .

ومرة أحاط الجند بكنيسته ، وذبحوا العابدين ذبح الأغنام ، وأخرجوا المذبح والستائر وأحرقوها في الطريق العام ، ونجا هو بحياته . ومرة فر في زوزق فطارده أعداؤه ، ولكنه نجا من أيديهم بحيلة غريبة . وكانت

أشد الضربات على نفسه هجر أصدقائه له ، وقبولهم عقيدة آريوس ،
لأنهم آمنوا بها حقاً ، بل خشية العقاب والموت . وكاد يكون وحده
في هذا النضال القاسي ، ولكنه ما تردد ولا تزعزع ، وخلد بعده المثل.
المأثور « إثناسيوس ضد العالم كله » لوصف كل بطل يناضل وحده في
معركة عنيفة .

مجمع القسطنطينية :

انتصرت الآريوسية مدى حين في الشرق ، بفضل تعضيد الأباطرة.
الذين ارتدوا عن الإيمان القويم ، ولكنها لم تستطع البقاء طويلاً ، وذلك.
لأنها انقسمت على نفسها شيعاً وأحزاباً . وجاء الإمبراطور ثيودوسيوس -
وكان من أنصار إثناسيوس - واستدعى مجعاً مسكونياً ثانياً في القسطنطينية.
(سنة ٣٨١ م) فأقر مرة أخرى قانون الإيمان النيقوي أساساً لعقائد الكنيسة.
الجامعة . وانطفأت شعلة الآريوسية من تلقاء نفسها ، لأنه أعوزتها قوة.
المقاومة واحتمال عواصف التاريخ . وكانت تلك الهزيمة المحاولة الأولى
لإحلال الفلسفة العقلية المنطقية محل الإيمان المسيحي ، فباعت في آخر الأمر
بالخيبة والفشل . وانتصرت العقيدة النيقوية ، التي ميزت ، وفي الوقت،
نفسه وحدت جوهر الآب والابن ، وصاغت عقيدة الثالوث المقدسة ،
عقيدة الوجدانية الإلهية في ثلاثة أقانيم . وعندنا أن انتصارها يرجع إلى.
أنها قد أعلنت - وفي الوقت نفسه أخفت في وقار وخشوع - سر طبيعة
المسيح . وبهذا السر العميق ، تعلق رجاء الكنيسة مدى الأجيال ، وهو
سر وقفت أمامه الإنسانية خاشعة متهيبة ، تحاول الوصول إلى أغواره ،
ولكن هيات أن تفصح . فإن الإله الذي يدركه العقل البشري ، ويحيط
به إحاطة تامة ، يبطل أن يكون إلهاً .

وبعد مجمع نيقية المسكوني ، إنعقدت مجامع مسكونية أخرى ، لفض
الإشكالات الدينية التي ثارت حول طبيعة المسيح وذاته ، وغير ذلك من
الخلافاات الكنسية ، وسميت تلك المجامع مسكونية ، لأنها ضمت ممثلين
من كافة الهيئات والعناصر المسيحية . ففي سنة ٣٨١ م ، إنعقد مجمع
القسطنطينية ، وفي سنة ٤٣١ م مجمع أفسس ، وفي سنة ٤٥١ م مجمع
-نخليدونية .



٢١

أبطال في تلك الفترة

(الأسقف أمبروز - يوحنا فم الذهب - أوغسطينوس -
الآباء الكبذوكيون - الأسقف سينيوس - القديس مارتن
أبرويناوس) .

وفي تلك الفترة من التاريخ ، برز أبطال في تاريخ المسيحية أمثال
أمبروز وإبرونيوس والآباء الكبذوكيين الثلاثة العظماء ، والقرن الرابع هو
الذي استهله « أثناسيوس » وختمه « أوغسطينوس » ، وثرانا هنا مضطرين
أن نفرد فصولاً لبعض أولئك العظماء المجاهدين ، الذين كان لهم شأن خطير
في تطور الحوادث في تلك الفترة من التاريخ المسيحي .

الأسقف أمبروز :

أرادت الدولة أن تبسط سلطانها على الكنيسة ، ولكن الكنيسة لم ترض.
مما شاة الدولة إلى الحد الذي أرادته ، ولا بدع في هذا ، فقد وضع الرسل
الأولون هذا المبدأ في حياة الكنيسة وقال « بولس » - مع الفيلسوف
الروماني « شيشرون » : إن الدولة جماعة من الناس تآلفوا معاً لإقامة
قسطاس العدل . وما دام هذا غرض الحكومة الزمنية فانه لازم على -
المسيحيين أن يطيعوا السلطات ، « لأنها مرتبة من الله » ، أما إذا حادت.
هذه السلطات عن جادة العقل ، حق على المسيحيين أن يقاوموها لأنه
« ينبغى أن يطاع الله أكثر من الناس » : على حد قول الرسل والشهداء الذين
سطروا هذه الحقيقة على صفحة التاريخ بأحرف من دماهم .

لذلك ترى الكنيسة ممثلة في زعمائها وقادتها وأساقفتها ، تعضد الإمبراطورية وتطيعها بعد أن تهاونت معها وكفت عن اضطهادها ، ولكنها لم تخش أن تعصى القيصر وسلطانها في مناسبات كثيرة . ولما أرادت الدولة أن تتدخل في شئون الكنيسة ، وتبسط عليها نفوذها ، أبت هذا كل الإباء ، وقال قائلهم في الغرب - وهو « أمبروز » أسقف ميلان - حين أراد الإمبراطور وكان مسيحياً ، أن يجعل له مكاناً بين الكهنة في الكنيسة : « إن هذه الملابس الأرجوانية تجعل مرتديها أمراء لا كهنة » ، واقتيد الإمبراطور بكل تأدب إلى مكان آخر .

وكان منصبه محفوفاً بالأخطار والمصاعب . فإن قبائل البرابرة المتوحشين من الهون والقوط والفاندال ، كانوا يزحفون جنوباً لتهديد الإمبراطورية العظيمة ، التي كانت قد بدأ يدب الضعف في كيانها . وكانت الإمبراطورية قد انقسمت بعد موت « قسطنطين الكبير » إلى شرقية وغربية ، وفي عهد « أمبروز » كان على عرش رومية ذاتها ثلاثة من الأباطرة المتنافسين على صولجان الملك ، وقدر لهذا الأسقف العظيم أن يواجه في عهده خطر عودة الوثنية إلى الدولة التي كان أذناها ، يحاولون التأثير على الإمبراطور ، وكيد الهراطقة والملحدين ، ومطالب السلطات الإمبراطورية لبسط نفوذها على الكنيسة . والفارق بين الشرق والغرب هو من وجوه كثيرة أشبه بالفارق بين « يوحنا فم الذهب » وبين « القديس أمبروز » من حيث الصفات والاختبارات . ولد « أمبروز » في مدينة « براير » بألمانيا الغربية الآن ، حيث كان والده يشغل وظيفة عليا من وظائف الدولة ، وقد تلقى العلم في رومية تاهباً للانخراط في وظائف الدولة ، وبفضل مواهبه ونزاهته ودماثة خلقه ، عينته الدولة في سنة

٣٧٤ م حاكما على ولاية في شمال إيطاليا ، على أن يقيم في ميلان ، التي كانت عاصمة إمبراطورية في ذلك الزمن .

وحدث أن توفي الأسقف الآريوسي ، وعند انتخاب خلفه ثار نزاع بين الفئتين المتنافستين ، وهنا يدخل « أمبروز » لتهديته الموقف ، فيصبح الشعب صيحة مجلجلة « أمبروز أسقف » . ونخشي أمبروز أن هذه دعوة من الله ، مع أنه لم يكن قد تعمد بعد ، وقرر أن يهب كل ثروته للفقراء والكنيسة ، ودرس اللاهوت ، وصار واعظا يشار له بالبنان . وقد امتاز بموهبة إدارية فذة ، شأن بني جلدته من الرومان ، وسرعان ما علا صيته وغدا علما من أعلام الدين .

وكان من غلاة أنصار الإيمان النيقوي ، وأبى كل الإباء أن يتهاون مع الآريوسيين ، وقاوم كل محاولاتهم للحصول على أماكن للعبادة في ميلان .

أما أروع انتصاراته ، فكانت في قضية الإمبراطور ثيودسيوس ، وقد حسبته الكنيسة الكاثوليكية أحد أعلامها وكبار اللاهوتيين فيها على أن أكثر كتاباته اللاهوتية استقفاها من أفكار علماء اليونان ، وإن يكن قد أكسبها عمقا في المعنى ، عن الخطيئة والنعمة ، ومن أقواله الماثورة : « أنا لا أتفاخر بأني بار بل بالأولى لأني قد افتديت ، أنا لا أتفاخر لأني تحررت من الخطيئة ، بل بالأولى لأن خطاياي قد غفرت » .

وقد وضع مصنفات عديدة في الأخلاقيات المسيحية ، متأثرا بحركة الزهد والتقشف التي سادت ذلك العصر .

وحدث في سنة ٣٩٠ م ، أن الإمبراطور ثيودوسيوس أمر بمذبحة رهيبة بشعة في مدينة تسالونيكي (سالونيك الحالية) ، لعقاب مواطنيها على قتلهم أحد الموظفين ، فاجتمع الشعب في ساحة الألعاب . كأنهم يشهدون حفلاً عاماً ، ثم أمر الإمبراطور أن يذبح هذا الجمهور الأعزل ذبح الأغنام . وبعد ذلك بقليل ، ذهب بموكب رسمي إلى الكنيسة في ميلان ليعبد هناك كعادته ، فلقى على الباب الأسقف أمبروز وابتدعه بقوله : « ليس إلا رب واحد وملك واحد لهذا الوجود كله » . وبكلماته اللاذعة كالنار ، منع الإمبراطور من التقدم إلى المائدة المقدسة ، بعد أن لطح يديه الأثيمين بدماء الأبرياء ، وأصر على أن يندم جهاراً أمام الشعب على فعلته الشنعاء . فأبى ثيودوسيوس هذا الإذلال ، وتجنب الكنيسة ثمانية أشهر . وعند حلول عيد الميلاد اضطر أن يخضع إلى مشيئة الأسقف ويقبل الندم والتوبة جهاراً ، وسن شريعة تقضى ألا ينفذ حكم الإعدام أو المصادرة ، إلا بعد مضي ثلاثين يوماً من تاريخ توقيعه ، وهى شريعة حكيمة ، تحد من سطوة الحاكم النزق الحاد الطباع . وبعد ذلك دخل الإمبراطور إلى الكنيسة نادماً متذللاً ، مرتدياً ثياب مواطن عادى من أبناء ميلان ، وتعلم بعد هذا الدرس ، أن يكون بطيئاً حين يفكر في الانتقام من أعدائه .

وفضلاً عن هذه الأعمال الجلييلة الباسلة ، قد صنف أمبروز كتباً عدة ، ووضع ترانيم خشوعية غير موزونة ، ما تزال باقية حتى اليوم ذخراً خالداً للكنيسة ، وأدخل نوعاً خاصاً من الأناشيد في العبادة .

يوحنا فم الذهب :

أما حياة فم الذهب ، فهي على نقیض حياة أمبروز ، وقد ولد في أسرة عريقة ثرية في مدينة أنطاكية حوالى سنة ٣٤٥ م — وقد توفى والده.

بعد مولده بقليل ، وقد تولت أمه التقية تربيته وتثقيفه ، وقد امتاز منذ
حدثته بالفصاحة وزلاقة اللسان ، وحوالى سنة ٣٧٠ م تعمد ورسم واعظا ،
ومالت نفسه إلى التقشف والزهد ، وثابر على دراساته اللاهوتية تحت رعاية
« ديدروس الطرسوسى » أحد قادة المدرسة الأنطاكية ، ولم يكتف بحياة
الزهد التى عاشها ، فصار ناسكا فى سنة ٣٧٥ م ، وبقي ناسكا حتى
اعتلت صحته ، فعاد إلى أنطاكية ، وهناك رسم شماساً سنة ٣٨١ م ،
ثم كاهناً ، وفى هذه الوظيفة قضى أسعد وأنفع أيام حياته . وقد ذاع
صيته كواعظ قدير ، وكانت الجماهير الحاشدة تهرع إلى سماعه ، بحيث
هيا زحامها فرصة للنشالين والسارقين ، واضطر فى آخر الأمر إلى أن
يحذر جماهير سامعيه ، لتركوا أكياس نقودهم فى دورهم . وقد خلعت
عليه فصاحته وزلاقة لسانه لقباً عرف به فى التاريخ « فم الذهب » أو
« ذو الفم الذهبى » . وفى سنة ٣٩٧ م سيم أسقفاً على كرسي القسطنطينية ،
فبدأت بذلك متاعبه وأعباء حياته ، ولم يكن الإقبال عليه هناك أقل منه فى
أنطاكية ، ولكن خشونة طباعه وحدته فى التشهير بالأشرار ، قد أثارت ضده
عداء رجال البلاط والكهنة وطبقات الأغنياء ، وقد أغضب بصفة خاصة
الإمبراطورة التى شبهها فى إحدى عظاته مرة بايزابل الشريرة ، وأخرى
بهيروديا الخليعة . وكان بطريرك الإسكندرية ثاوفيلس عدوا له ، فأصدر
عليه حكماً فى مجمع محلى عقده على مقربة من القسطنطينية ، وقد تأمر عليه
هؤلاء الأعداء ، وأفلحوا فى الحصول على حكم بنفيه فى سنة ٤٠٣ م .
ولكن محبة الشعب له وتعلق العامة به ، حالا دون تنفيذ هذا الحكم ،
واضطر أرباب السلطان إلى إعادته ، خشية نشوب ثورة الدهماء . وكل
هذا لم يرهبه ولم يفقده شيئاً من شجاعته فى الحملة على الأشرار ، وفضح

أعمالهم ، حتى آل الأمر إلى نفيه في السنة التالية ، وبقى في منفاه حتى قضى نحبه من فرط ما عانى من سوء المعاملة والقسوة الوحشية .

وبحسب « يوحنا فم الذهب » أوفر الكتاب إنتاجاً بين الآباء الأولين ، وأكثرهم تقوى وورعاً وقداًسة ، لم يدانه أحد في اكتساب قلوب عامة الشعب ، ولكن لم يقدر أن يستميل إليه الحكام وأولى الأمر والنهى . والمصير الذى لقيه هذا البشير الكبير وأخلص الداعين إلى البر والطهر ، يمثل مأساة تدخل السلطة الحاكمة في شئون الكنيسة ، كما يمثل بداءة الحساسيات وعوامل التحاسد ، التى ظهرت بين الكراسى الدينية الكبرى في الشرق ، ومن جراء هذه العداوة المتبادلة ، أصاب الكنيسة ما أصابها من ألم ومرارة في القرون اللاحقة .

أغسطينوس :

في عهد أغسطينوس حصلت الكنيسة الأولى على أرقى إنجازاتها الدينية منذ العصر الرسولى ، ولئن تكن آثاره في الشرق ضئيلة الشأن بحكم طبيعة القضايا التى عالجها ، فإن المسيحية في الغرب مدينة له بالشىء الكثير . ولئن تكن أفكاره اللاهوتية مدعمة بالأسفار المقدسة والفلسفة والتقاليد الكنسية ، فإنها متأصلة في اختبارات الشخصية ، فقصته في الواقع هى قصة الإنسان .

ولد « أغسطينوس » في « تاغست » في أفريقية الشمالية في سنة ٣٥٤م وكان ابناً لأب وثنى وأم مسيحية تقية تدعى « مونيكا » ، وقد شغل بال الأم التقية أن ترى ولدها يعتنق آراء شيعة من شيع الغناطسة ، ويميل إلى الفلسفة الوثنية . وكان له طبيعتان إحداهما شهوانية جسدية ، والأخرى

تاضجة العقل نزاعة إلى السعى وراء الحق أينما وجد - وقد درس المنطق في مدارس قرطاجة وبرع فيه . وفي السابعة عشرة من عمره ، اتخذ لنفسه خلية بقي معها أربعة عشرة عاماً ، ورزق منها ولدا في سنة ٣٧٢ م ، أحبه حباً جماً ، ومع ذلك امتيقت في الطبيعة الثانية ، فعكف وهو في التاسعة عشرة على دراسة « شيشرون » ، وبعد ذلك راح يدرس الأسفار المقدسة المسيحية ، وكانت صلواته في هذه الفترة : « ربني هبني عفة الحياة ولكن ليس الآن » . تسع سنوات قضاها في قرطاجة بين أنصار شيعة الغناطسة ، وكان مدرساً - للمنطق ، واتضح له بعد البحث والدرس ، فساد عقائد هذه الشيعة ، وفي سنة ٣٩٣ م رحل إلى رومية ، وهناك عين مدرساً للمنطق في ميلان ، وكانت يومئذ عاصمة الإمبراطورية الغربية . وفي ميلان يقع تحت تأثير الرجل العظيم القديس « أمبروز » ، وهناك تلحق به أمه ، وتحت تأثيرها يتخلص آسفاً من خليلته . ولم يحاول « أمبروز » أن يفرض إرادته على صديقه الشاب ، بل أخذه باللين والحسنى والعطف ، وراح « أغسطينوس » يصغي في لهفة إلى معلمه الوقور ، حتى أشرق النور على عقله ، وصار مسيحياً مخلصاً في سنة ٣٨٧ م . وروى قصة اهتدائه في كتابه المشهور « اعترافاتي » ، وقبل اهتدائه حدث له اختبار رواه تفصيلاً في كتابه ، قال فيه إنه بدأ يقرأ بعض ما كتب عن حياة الرهبنة في مصر^(١) فأحس بالخرى والتجمل ، أن يرى طائفة من أولئك الرهبان الجهلاء يقيمون تجاربهم ويتغلبون على ضعفاتهم ، وهو رجل العلم والثقافة يقف عاجزاً ذليلاً أمام هذه التجارب ، ويهرع وهو مغمور بالذل ودينونة نفسه إلى حديقة منزله ، وهناك بسمع صوت صبي من منزل مجاور يقول له « خذ واقرأ » ،

(١) سيرة أبي الرهبنة « أنطونيوس » التي كتبها أثناسيوس

فتناول نسخة من الرسالة التي كان قد قرأها ووقعت عيناه على الكلمات التالية :

« فلنخلع أعمال الظلمة ونلبس أسلحة النور ولنسلك بلباقة لا بالبطر والسكر لا بالمضاجع والعهر لا بالخصام والحسد بل البسوا الرب يسوع المسيح ولا تصنعوا تدبيراً للجسد لأجل الشهوات » (رومية ١٣: ١٣ و ١٤)

ومن تلك الساعة أحس « أغسطينوس » بسلام في العقل ، وقوة إلهية للتغلب على خطاياها وخبائثه التي كان قد فشل حتى اليوم في قهرها ، وتجددت طبيعته تجديداً جذرياً . وقد حدث اهتداؤه في صيف ٢٨٦ م ، ثم اعتزل وظيفة الأستاذية بسبب اعتلال صحته . وفي عيد الفصح من سنة ٣٨٧ م تعمد بيد الأسقف « أمبروز » في ميلان ، وبعد ذلك يعود إلى مسقط رأسه ، وفي طريق عودته تموت أمه الثقية في أونسيئا ، ويكتب قصة موتها في كتاب يحسب من أروع وأبدع وأنبأ الآثار المسيحية في الأدب المسيحي القديم . وبعد قضاء بضعة أشهر في رومية ، يعود إلى « تاغست » ، وهناك فكر في أن ينشئ ديراً ، فانطلق إلى هبو في الجزائر في سنة ٣٩١ م ، وهناك رسم قساً ، وكان متردداً في القبول ، وبعد أربع سنوات سيم أسقفاً على هبو ، وفي هذه المدينة أنشأ أول دير في تلك البقعة من أفريقية ، الذي جعله أيضاً مدرسة لتدريب القساوسة .

وكان « أوغسطينوس » من أعظم المفكرين والكتاب في الكنيسة المسيحية ، وأقدرهم وأغزرهم مادة وروحاً . وما فتئت مؤلفاته نبعاً يفيض بالخير والخصب الروحي . وقد أفاض في كتاباته عن مبلغ توكل الإنسان على الله حتى أساء فهمه بعض الكتاب المتأخرين ، وظنوا أنه ينكر إرادة الإنسان الحرة ، والواقع غير ذلك ، فانه كان يفند بكتاباته نظريات شاعت في

٢٢٣

عصره ، ذهب أصحابها إلى أن الإنسان مستطيع أن يكون صالحاً بدون معونة الله .

وأشهر مؤلفاته « مدينة الله » . فقد كانت الإمبراطورية في عصره آخذة في الانحلال ، وفي سنة ٤١٠ م أغار « أларيك » القوطي على مدينة رومية واحتلها بعد حصار طويل ، وزعم القوم يومئذ ، أن الدين المسيحي هو الذي أضعف الدولة ، وأنزل غضب الآلهة ، التي صبت على البلاد هذه الكارثة الدماء ، فكتب مؤلفه هذا « مدينة الله » دفاعاً عن المسيحية ، ووصف الكنيسة كمدينة لله يسكنها كل العابدين حقاً ، ولا تقوى عليها أبواب الهاوية .

ومات في السادسة والسبعين من عمره في أثناء حصار قبائل الفاندال للمدينة التي كانت مقر أبروشيته .

الآباء الكبذوكيون

لعبت الهرطقة الآريوسية دوراً خطيراً في تاريخ الكنيسة في القرون الأولى ، ولقد ناصرها بعض الأباطرة الذين أمسكوا بأيديهم صولجان الدنيا والدين في بعض فترات التاريخ .

وفي سنة ٣٧٢ م ، قرر الامبراطور « جوليان » نفي القديس « أثناسيوس » من مصر للمرة الرابعة ، وقد حنق عليه لأنه استمال كثيرين من أبناء الوثنية في مصر إلى الدين المسيحي ، وكان ذلك الامبراطور قد أراد إحياء الوثنية ، وتشديد الحناق على المسيحية ، وفي سنة ٣٦٢ م قضى نخبه في إحدى حملاته ضد الفرس ، وبموته فقدت رومية آخر إمبراطور وثني ، وتربع على عرش الإمبراطورية عاهل مسيحي ، ولم يكن من ديدنه التدخل

في الشؤون الكنسية إلا قليلا ، وهنا يعود القديس « أثناسيوس » من منفاه. للمرة الرابعة ، ولكن ينتهي حكم هذا الإمبراطور - جوليان - في سنة ٣٦٤ م ، ويخلفه فالنتينيان الأول (٣٦٤ - ٣٧٥ م) . ولكن هذا الإمبراطور أحس بثقل المهمة في الدفاع عن ملكه ، فاقترع حكمه على الغرب وولى أخاه « فالتي » - في الشرق . ولسوء الحظ يقع هذا الحاكم تحت نفوذ القساوسة الآريوسيين في القسطنطينية ، فيحكم على « أثناسيوس » بالنفي للمرة الخامسة في سنة ٣٦٥ م ، على أنه لم يغادر مدينته هذه المرة ، ولم يكن هذا العاهل الروماني من غلاة المنتصرين للآريوسية ، فبقى « أثناسيوس » في مدينته حتى أدركته الوفاة سنة ٣٧٣ م في الاسكندرية ، بعد أن أبلى البلاء الحسن ، وأخلص الإخلاص كله ، في جهاد وتضحية وشجاعة ، لنصرة الإيمان النيقوي ، وحق المسيحية الكامل .

وبعد موت « أثناسيوس » ، تنتقل زعامة الجهاد في كفاح الآريوسية إلى أيدي أناس جدد ، إلى الحزب النيقوي الجديد ، وعلى رأسهم الآباء الكبذوكيون الثلاثة العظام باسيل قيصرية في كبذوكية ، وجريجوريوس النزيانزي ، وجريجوريوس نياسا .

باسيل قيصرية :

ولد « باسيل » في أسرة كبذوكية رفيعة القدر ، حوالي سنة ٣٣٠ م ، وتلقى علومه في أرقى مدارس القسطنطينية وأثينا ، مع زميله في الدراسة وصديق عمره « جريجوريوس النزيانزي » ، وحوالي سنة ٣٥٧ م ، عكف على حياة الزهد والتقشف ، وهي المزاج الغالب في ذلك العصر ، وولى ظهره إلى المناصب الدنيوية وكل أسباب حياة الترف العالمة ، وعاش راهباً فعلاً ، ثم زار مصر ، وكانت في تلك الفترة الموطن الأصيل.

للرهبانية ، وأضحى فيما بعد من أكبر دعاة الرهبنة في آسيا الصغرى .
على أنه بحكم طبيعته ، لم يخلق للنسك في صومعة ، بل ظل يدير الشئون
ويدبر الأمور ، وتشاء له الأقدار أن يتصل بالقدّيس « أثناسيوس » ويشاطره
آراءه في نظرية مساواة الروح القدس بالآب والابن — وقد كانت مثار
جدل ونقاش في ذلك العصر ، وفي نصرة الإيمان النيقوى السليم . وتنبأ
له ظرف الكفاح في هذه القضية بعد أن يصير أسقف قيصرية في سنة
٣٧٠ م ، وقد خولته وظيفته سلطة كنسية على قسم كبير من آسيا الصغرى ،
التي استخدمها خير استخدام حتى تاريخ موته المبكر في سنة ٣٧٩ م ،
للسير قدماً في توطيد أركان القضية النيقوية ، وكذلك خلق أسباب التفاهم
والتعاون بين خصوم الآريوسية في الشرق وزعماء الغرب ، وهم بطيحتهم
من أنصار القانون النيقوى الأقوياء .

جريجوريوس نياسا :

أما « جريجوريوس نياسا » فهو أخو « باسيل » الأصغر ، وكان من
المناطق العظماء ، ومن فطاحل الكتاب الذين اشتهروا بصفاء الذهن ووضوح
الرؤية ، وقد بز في هذا المضمار أخاه « باسيل » ، وإن كان دونه في
موهبة الإدارة والتنظيم . وقد اشتق لقبه من مدينة كبدوكية صغرى تدعى
نياسا التي صار أسقفا لها في سنة ٣٧١ أو ٣٧٢ م ، وقد امتدت به الحياة
إلى ما بعد سنة ٣٩٤ م ، ووضع التاريخ بين الآباء الأربعة في كنيسة
المشرق .

جريجوريوس النزيانزى :

أما « جريجوريوس النزيانزى » (٣٢٩ — ٣٨٩ م) ، فقد اتخذ لقبه
من مدينة هي مسقط رأسه ، وكان والده أسقفا فيها ، ومنذ أيام الصبا ،

ربطت بين «باسيل» وأضر من الصداقة الودودة، ومالت نفسه
مثل «باسيل» إلى حياة الزهد والتقشف. وقد برز شريكه في الوعظ
والخطابة، ولما رزتم كاهناً زاح يعاون والده، ولكن رفعة «باسيل» إلى
رتبة الأسقفية في قرية سانسيا. وحوالي سنة ٣٧٨م شخص إلى القسطنطينية
للكناف ضد الآريوسية، التي كانت عقيدة الغالبية العظمى من سكان
هذه المدينة الكبرى، وفي سنة ٣٧٩م يجلس على عرش الإمبراطورية
«ثيودوسيوس»، وهو الحاكم المفرد الأخير للإمبراطورية الرومانية،
ومن أشد أنصار العقيدة النيقوية، فوجد فيه خير سند وأقوى معين. وقد
أفلح في جهاده حتى ليقال إنه اكتسب المدينة كلها لقانون الإيمان النيقوي،
ولذلك يكافئه الإمبراطور بأن يجعله أسقفا للقسطنطينية في سنة ٣٨١م.
ولكن الحزازات الحزبية وميوله الطبيعية إلى العزلة النسكية التي كثيراً ما
طارده وطرده من العالم، هذه وتلك قد حملته على التنحي عن هذه
الوظيفة الكنسية الرفيعة، وقد كان كاتباً من الطراز الأول، لا يقل في
إبداعه الفني واللاهوتي عن «جرنجوريوس نياتسا»، وهو مثله بحسب
الآباء الشرقيين، وقد خلغ عليه أهل المشرق فيما بعد لقب اللاهوتي
«إلى هؤلاء الثلاثة أكثر من غيرهم»، يرجع الفضل الأكبر في إنصاف
الإيمان النيقوي الجديد في تلك البقاع.

الأسقف سانسوس :

ولعله من الشائق حقاً، أن نذكر اسم زعيم آخر من طراز غير الطراز
التي نغزقه. يمثل لنا صورة تختلف كل الاختلاف عن الصور التي
ألفنا ونألفها في القرون الأولى من تأريخ المسيحية، أما ذلك فهو الأسقف

سينسيوس ، وكان من مواطني ليبيا في أفريقية الشمالية ، التي سميت في التاريخ القديم « سيرانيا » . وقيل عنه إنه من سلالة الإغريق الذين غزوا هذه الرقعة الأفريقية ، قبل ألف عام من ذلك التاريخ . وبعد أن درس في مدرسة الإسكندرية تحت قدمي هايبشيا الفيلسوفة ، التي أعجب بها كل الإعجاب ، انتقل إلى موطنه ، وانصرف إلى إدارة أملاكه الواسعة ، وقضى معظم وقته في الفلاحة والكتابة والدرس والصيد . وفي موضوع الصيد والقنص كتب أول مؤلفاته ، وكان قنص النعام من أعز مطالبه . كذلك قرض الشعر ، ودرس علم التنجيم ، وأخترع منظراً لقاع البحر .

ولما غزت بلاده قبائل قطاع الطرق ، الذين خرجوا عليها من مجاهل الصحراء ، تولى هو تدبير الدفاع ، فسلح الفلاحين والزراع ، وعيده الذين يملكهم ، وابتكر أسلحة جديدة للدفاع عن الوطن .

وفضلاً عن هؤلاء الغزاة من الخارج ، فإن أهل « سيرانيا » قد أوقعهم الأقدار تحت يد حاكم ظالم مغتصب . ولذلك لما خلا كرسي الأسقفية في « بتولمايس » (وهي الآن ميناء صغيرة تقع بين درنة وبنغازي) ، أجمع الشعب كله على اختيار « سينسيوس » لهذا المنصب ، ووافق على ذلك أساقفة الولاية كلهم ، كما وافق « تيودور » أسقف الإسكندرية ، وكان رئيساً لهؤلاء . أما « سينسيوس » نفسه ، فتمنع وتردد ، وحسب نفسه غير أهل لهذه الوظيفة ، وخشى أن يحرم ملذات الصيد والقنص واللذات الأخرى التي استهوته . وعلى حد قوله « جثيت على ركبتى طالباً الموت أولى من كرسي الأسقفية » .

وبعد لأي نزل على إرادة الشعب ، ولكنه اشترط أن يحتفظ بزوجه .

وكان الأساقفة لا يتزوجون عادة . وفي هذا كتب يقول : « إن الله نفسه ،
وشريعة البلاد ، ويد ثاوفيلس المباركة ، قد وهبني هذه الزوجة ، ولذلك
أعلن أمام الملائكة ، أني لن أنفصل عنها ، وأرجو أن يرزقني الله نسلاً
صالحاً بمجده على الأرض » .

وقد سيم أسقفاً على بتولمايس مسقط رأسه في سنة ٤١٠ م ، ووقع له
ما كان يخشاه . فلم يعد يجد فراغاً من الوقت لإشباع نفسه بالأمور التي
أحبها ، وقضى حياته في كفاح مع السلطة الحاكمة ، لتبتعد عن كل تدخل
في الشؤون الدينية ، وفي كفاح أيضاً مع الغزاة الذين ما فتئوا يغيرون على
البلاد بين الفينة والفينة ، وذلك لأن عبء الدفاع عن الوطن ، ظل على
منكبيه حتى بعد رسامته ، نزولاً على رغبة الشعب . وهو أول أسقف
دون التاريخ اسمه ، بين صفوف المحاربين ، وإن يكن قد فعل ذلك دفاعاً
عن شعبه ضد السلب والنهب والقتل :

على أنه مع هذا كله ، قام بواجباته الأسقفية في مدته القصيرة ،
على أحسن ما يؤدي المرء واجبه في نشاط وإخلاص وولاء .

القديس مارتن :

ومن قبل ، أشرنا إلى القديس أمبروز في الغرب ، وهو من زعماء
الكنيسة في تلك الفترة من تاريخها . بقي أن نذكر اثنين آخرين ، وهما
القديس مارتن والقديس إيرونيموس .

ويحسب مارتن عالماً من علماء الكنيسة ، وإن لم يكن من كتابها
البارزين : وقد ولد سنة ٣١٥ م ، في مكان يقرب من مدينة بودابست
الحديثة . وقد استمالته المسيحية من بدء حياته ، وأراد أن يكون راهباً ،

ولكن والده حال بينه وبين ذلك ، وأمره أن ينخرط في سلك الجندية ، حيث قضى سنوات في الجيش العامل . وفي يوم من أيام الشتاء القارصة - وهو مع فرقته في مدينة أميان بفرنسا - تقدم إليه شحاذ يكاد يكون عارياً ، وطلب إحساناً . ولم يكن لديه شيء من النقود ، فانتزع مارتن عباءته ، وشقها نصفين وأعطى نصفها لذلك الشحاذ المسكين . ونخيل إليه في تلك الليلة ، أنه شهد المسيح نفسه مرتدياً هذه الشقة من العبادة . وكانت تلك الرؤيا ، الحد الفاصل بين حياة قديمة وأخرى جديدة ، فطلق خدمة الجيش ، وصار تلميذاً لأحد الأساقفة ، وأنشأ في سنة ٣٦١ م أول دير في بلاد الغال ، أي فرنسا الآن .

وفي سنة ٣٧١ م ، سيم أسقفاً على أبروشية « تور » في فرنسا . ولما رأى كثرة طلابه ومريديه ، اختلى إلى غار في جرف ، يشرف على نهر اللوار ، لا يمكن الوصول إليه ، إلا من طريق وعر منحدر . وهناك تبعه ثمانون من طلابه ، واحتفر كل منهم لنفسه غاراً في الصخرة يأوى إليه ، وقد ارتدوا جميعاً جلود الأغنام ، ولم يأكلوا إلا وجبة واحدة في اليوم ، وأفرطوا في حياة التقشف والزهد . وكان معظم الفلاحين في أبروشية وثنين ، فجعل همه الأول إهداءهم إلى دين الحق ، وأخذ على عاتقه أن يهدم الهياكل الوثنية ، ويقيم الكنائس على أنقاضها . وكان رحيماً شفوفاً باراً بالفقراء والمذنبين . وحدث مرة أن الكونت « أفيتانوس » حاكم الولاية ، جاء إلى « تور » ومعه نفر من الأسرى ، كان قد حكم عليهم بالإعدام . فذهب « مارتن » في تلك الليلة إلى باب الكونت ، وأخذ يصيح حتى أيقظ صاحب البيت ، ولما خرج ، ألنى الأسقف « مارتن » مطروحاً على عتبة الدار ، ويداه ممدودتان بالتوسل والاستعطاف . فرفعه الكونت

وطيب خاطره ووعده أن يستبق حياة الأسرى : إكراماً له ، واستجابة لطلبه الصامت :

وحدث مرة أخرى أن شخصاً يدعى « بريسيكلان » ، وزملاء له ، اتهموا بالهرطقة ، فجاء بهم أمام الإمبراطور « مكسيموس » ، وألح الأساقفة الذين دانوهم بالهرطقة على إعدامهم . ولكن « مارتن » ، احتج على الخبز بالمتهمين أمام سلطة عالمية ، وأصر على أن في حرمانهم العقاب الكافي . ولم يغادر بلاط الإمبراطور حتى وعده بالعفو عنهم . ولما ذهب ، أقبل الأساقفة الآخرون ، وأقنعوا الإمبراطور بالعدول عن وعده ، وفعلوا قطعت رأس « بريسيكلان » وآخر معه . وكانت هذه أول مرة ، أهرق فيها دم إنسان بسبب الهرطقة .

ولما بلغ الخبر أسماع الأسقف « مارتن » ، غضب غضباً شديداً ، وأبرم على نفسه عهداً ، ليقطعن كل صلة بالأساقفة الذين حملوا الإمبراطور على إتيان هذه الفعلة الشائنة . وأراد بعد ذلك أن يتشفع لدى الإمبراطور ، عن تفرغ آخر من أنصار « بريسيكلان » ، كان قد حكم عليهم بالإعدام . فأبى الإمبراطور إجابة التماسه ، إلا إذا أعاد صلته المقطوعة بالأساقفة الآخرين ، فاضطرب إلى الإذعان ، بإبقاء على حياة المتهمين ، ولكنه فعل ذلك تحت وخبز ضمير لم يهدأ له روع ، إلى آخر حياته .

وبانت في سنة ١٠٠٠ م ، فودعه إلى مقبرته الأخير ، ألفان من الرهبان الذين أحبوّه وأخلصوا له . وكانت صفاته : وأخلاقه في عصره ، مصدر قوته وعظمته . وغلبت عليه بين عامة الشعب من الذين رأوا طرازاً جديداً من القناعة وإنكار الذات والغيرية .

القديس إيريونيوس

ومن أبطال تلك الفترة القديس «إيرونيْموس» وهو صاحب ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة اللاتينية . وقبل عصره ، كانت الترجمات اللاتينية لأسفار العهد القديم ، منقولة عن الترجمة اليونانية المعروفة بالترجمة السبعينية . فتولى «إيريونيْموس» ترجمة أسفار العهد الجديد عن اليونانية ، ونقل أسفار العهد القديم عن الأصل العبري ، وقد تعلم العبرية لهذا الغرض . بعد جهاد طويل شاق ، وعمل متواصل مضمّن به وقد بقيت ترجمته المرجع المعترف به ، في الكنيسة الغربية ، إلى عهد الإصلاح ، وما فتئت حتى اليوم ، الترجمة الرسمية في الكنيسة الكاثوليكية .

وفضلاً عن هذا العمل الجليل الخالد ، ترجم أيضاً بعض كتابات «أوريجنوس» ، وكتب عدة بحوث لاهوتية . وكان له شغف شديد بكتابة الرسائل ، وقد خلد للكنيسة تراثاً لا يفنى ، من الرسائل الحافلة بشتى المعلومات ، عن حياة الكنيسة في عصره .

وكان قد عزم في أيام شبابه ، على أن يصير راهباً ، ولكنه لم ينفذ هذا العزم فعلاً ، إلا بعد أن رأى رؤيا في خلال مرض أصابه وهو في أنطاكية . وفي تلك الرؤيا ، تمثل نفسه واقفاً أمام كرسي دينونة الله ، وسمع سؤالا : « من أنت ؟ » فأجاب « أنا مسيحي » . ولشد ما كانت دهشته أن يسمع الصوت يقول له : « أنت تكذب . لست مسيحياً » . وبعد هذه الرؤيا بقليل بدأ حياة النسل في صحراء قريبة من أنطاكية ، حيث قضى خمس سنوات . وفي وصف حياة التقشف كتب يقول : « نهراً جسمى من لفحات الشمس المحرقة ، واكتنفتني الحيات والعقارب ، واصفر وجهي من الصوم ، وتشوهت أعضاء جسمى من الجلود الحشنة ،

واسود لون جلدي من فرط الإهمال ، حتى صار كلون عبد حبشي : كان نصيبي طول اليوم الدموع والتأوهات ... » .

على أن زملاءه النساك الآخرين في الصوامع والخلوات ، لم يكونوا واضحين عنه ، واهتموه في عقيدته ، وحاول عبثاً أن يدفع عنه هذه التهمة بالإقرار والإعتراف ، وأخيراً ، اضطر إلى أن يعود إلى العالم ، وبعد أن قضى زمناً في رومية ، انطلق إلى فلسطين في سنة ٣٩٦ م ، وعاش هناك راهباً إلى آخر حياته في سنة ٤٢٠ م .



٢٢

الرهينة في فجر المسيحية

(عوامل النزعة الرهبانية - الرهينة في اليهودية - مبدع
الرهبانية - الرهبانية في الغرب - الراهب بندكت) .

أشرنا من قبل إلى أن تطور الحياة في الكنيسة المسيحية أدى إلى إنتشار
مبادئ الزهد والتقشف ، وإلى ظهور مقياسين للأخلاق ، أحدهما لرجل
الدين والآخر للفرد العلماني . وقد كسبت هذه المبادئ دفعا قويا بميول
الزهد التي كمنت في فلسفات العالم القديم ، وقد رأينا « أوريجانوس » -
مثلا وهو قد تشبع بالروح اليونانية ، يمتاز بنزعة المتطرفة ، وقبل انصرام
القرن الثالث ، كنت ترى العذراوات القديسات عنصرا ظاهرا في الكنيسة ،
وكنت ترى رجالا ونساء يمارسون الزهد وشظف الحياة دون أن يهجروا
بيوتهم . على أن الزهد بل حتى الرهينة لم تكن وقفا على المسيحية ،
لأننا نجد أنصارها وأتباعها في الأديان الأخرى في بلاد الهند وبين اليهود
واليونان والمصريين :

عوامل النزعة الرهبانية :

وهناك عوامل أخرى أدت إلى ذبوع النزعة الرهبانية ، ألا وهي إنسياب
روح الفتور في حياة الكنيسة بعد أن اتسعت دائرتها ، ودخلها أناس من
ذوى الميول الفاسدة . وقد رام بعض الأتقياء من المسيحيين أن ينجوا
بيأنفسهم ويسعوا إلى خلاصها ، بالاعتزال عن العالم وإذلال رغبات الجسد.

وكانت الفكرة السائدة أن المادة هي الأجل. كل الشرور ، والجسد جزء من المادة ، فلا مناص إذاً من قبحها وإذلاله لكي تنطلق الروح من قيدها الجسماني إلى رحاب الهيام الروحي . لذلك اعتصم أولئك الزاهدون بالفقر والتجرد من مقتنياتهم ، وارتياء الثياب الخشنة ، والإمتناع عن الطعام ، إلا ما يسد الأود ، وإرهاق أبدانهم بكل صفوف المشقات ، ونذر العفة المطلقة . - وقوله آمنوا في دواخل نفوسهم ، أن هذا هو الطريق الأمثل لبلوغ الكمال الإنساني .

الرهبنة في اليهودية :

قلنا إن الرهبنة لم تكن وقفاً على المسيحية ، فقد عاصر المسيح في حياته على الأرض طائفة يهودية من طوائف الرهبان أطلقوا على أنفسهم « الأسينيين » ، الذين ذكرهم « يوسفوس » المؤرخ اليهودي وغيره من المؤرخين . وربما كان هؤلاء هم « طائفة العهد الجديد » التي ورد ذكرها في لقائف وادي قران ، التي اكتشفت في كهف سنة ١٩٤٧ وعرفت في التاريخ بلقائف البحر الميت ، ويؤخذ مما جاء في تلك اللقائف أن تلك الطائفة قد تأسست قبل ميلاد المسيح بحوالى مائة عام ، دعا إليها شخص قيل عنه « معلم البر » ، حكم عليه بالموت « الكاهن الشرير » ، وكان كل شيء مشتركاً بين أعضائها ، وأطلقوا على أنفسهم لقب « الفقراء » ، واعتزلوا عن بقية الجماعات اليهودية ، وقضوا وقتهم في الصلاة والممارسات التعشيفية توقفاً لحجى « المسيا » المرتجى . وقد ضاقت آفاقهم ، فلم يحبوا إلا بعضهم بعضاً ، وكرهوا من عداهم من « أبناء الظلمة » ، وقد أفرطوا في التشديد على مراعاة آداب السلوك المتعارف عليها بينهم ، بحيث كانوا يوقعون العقاب على كل من يخالفها .

أولئك كانوا نموذجاً للرهبنة اليهودية في عصر المسيح ، وفي أواخر القرن الثالث المسيحى ، أخذت الرهبنة شكلاً بارزاً في حياة المسيحية ، فخرج كثيرون من الأتقياء إلى البوادي والبراري للتعبد والابتعاد عن ضوضاء الحياة المادية العالمية ، وعلى مر الزمن ، تطورت هذه الحركة حتى غدت قوة هائلة إلى جانب الكنيسة النظامية ، وتفرع موكب المسيحية إلى قوتين ، إحداهما في المدن والحضر تحت زعامة الأساقفة ، تحيا الحياة المسيحية في الأوساط الوثنية ، وهرعت الأخرى إلى القفار ، لتحيا حياة الزهد وإذلال النفس ، بالروح عينا ، التي بذل بها الشهداء حياتهم من أجل المسيح .

مبدع الرهبانية :

أما مبدع الرهبانية فهو القديس « أنطونيوس الشهيد » أبو الرهبان . بوكوب البرية ، ولد حوالي سنة ٢٥١ م ، في بلدة قمن في مصر ، من أسرة عريقة غنية ، وأبوين صالحين ، ربياه على مخافة الله . فاقببس عنهما شيئاً كثيراً من حميد الخصال وكريم الخلال . ومات والده وهو بعد في العشرين من العمر ، فعكف على إدارة أملاكه وبيته ، والعناية بأخته . وفي الكنيسة سمع ذات يوم ، قول السيد المسيح للشاب الغنى : « إن أردت أن تكون كاملاً فذهب وبع أملاكك وأعط للفقراء ، فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني » . فاتخذ هذا القول عظة لنفسه ، وأطاع الوصية حرفياً ، وباع أملاكه ، ووزعها على ذوي الحاجات ، وأودع أخته بيتاً لبعض العذارى الورعات ، وعاف الدنيا ، وانفرد في البرية ، عابداً الله ، قامعاً جسده ، مروضاً نفسه بالتقوى . وهناك حاول إبليس إغراءه بمختلف الوسائل ، ولكن غلبه بالصلاة والصبر والرجاء ، مستعيناً

في جهاده بقوة المسيح سيده وربّه . وأفلح في إماته شهواته ، وكظم غيظه ، وقمع جسده ، فلم يكن يقتات إلا بالملح والماء القراح . ولم يكن يرتدى إلا المسوح ، ولم يكن يفتش إلا الأرض وحصيماً بالية . وآوى إلى قبر مهجور ، ثم إلى قلعة متهمة ، جاداً طوال الوقت في مناضلة الأفكار الشريرة ، وأطاع الجسد الفانية ، حتى ظفر في هذا النضال العنيف ، وهذبه الترويض والتحريض ، واستفاضت أنباء صلاحه وتقواه ، فهرعت إليه الجماهير في البيرة ، تطلب البركة والشفاء على يديه ، وسار وراءه خلق كثير ، أخذوا عنه طريقته في التعب والاعتزال . فكان هو منشئ الرهبانية الانفرادية ، أي التعب في الصوامع على إنفراد . على أن هذه الحياة المفردة ، لم ترق خلفه القديس «باخوميوس» فأنشأ أول دير مسيحي في العالم ، في مصر العليا ، حوالي سنة ٣١٥ م وقبل سنة ٣٢٥ م . .

وخرج القديس «أنطونيوس» أبو الرهبان ، مرتين من عزلته في الصحراء ، إلى الحضر : مرة في عام ٣١٣ م ليشجع الشهداء ويعزى المضطهدين في شدة «مكسيمانيوس» ، وقد اشتاق أن يكون هو نفسه شهيداً ، فكان يظهر في مدينة الإسكندرية علناً ، ويتقدم إلى الحاكم ، ويحاجه لكي يحنق عليه ويعذبه ويقتله ، فينال إكليل الشهادة . ولكن لأمر ما ، امتنع الحاكم عن إيذائه ، وعاد القديس إلى صومعته في البرية . وراح الناس يتقاطرون أفواجاً للتبرك به وسماع نصائحه . ولكن خشي أن يشغله هذا عن التعب ، فانطلق إلى البرية الداخلية ، ومضى مع قوم أعراب إلى مكان بعيد ، مسيرة ثلاثة أيام ، حيث وجد عين ماء وقليلاً من زراعة القصب والنخيل ، فأحب الموضع وسكن فيه ، وكان العرب يأتون إليه بالخبز ، وكان

في المكان كثير من وحوش الفلاة ، فأنست إليه ولم تؤذه ، ولأخذ منها
أصدقاء له .

والمرة الثانية عام ٣٥١ م ، يوم قدم من عزلته ليعضد «أثناسيوس» أسقف
الإسكندرية ، في كفاحه ضد عناصر الإلحاد ، التي انسابت إلى الإيمان
القديم ، وهرطقة الزنادقة ، الذين حاولوا إفساد الحق بباطلهم . وكان
القديس «أثناسيوس» قد زاره قبل ذلك سنة ٣٣٣ م . وآوى عنده فترة من
الزمن ، التماساً للأمن ، وهرباً من الإضطهاد . فأخذ عنه ، وكتب سيرة
حياة بطل الأديرة فيما بعد ، فأقبل القوم رجالاً ونساء على قراءتها بلهف
وشغف . وبعد هذا التاريخ بمائة سنة ، قرأ القديس «أوغسطينوس» هذه
السيرة ، التي كتبها «أثناسيوس» ، فقربته إلى الله وهدت قلبه إلى الحق ،
وبعد ألف سنة لإقتناها القديس «توماس أكويناس» ، وكانت عنده خير
مدخرات الأولين . وبلغت أسماع الملك «قسطنطين» ، أنباء هذا القديس
في برية مصر ، فكتب له يمتدح ورعه وزهده ، ويطلب إليه أن يصلي
من أجله . ففرح زملاؤه في البرية برسالة القيصر ، أما هو فلم يحفل بها ،
وقال لهم : « هذه كتب الله ملك الملوك ، توصينا كل يوم ، ونحن
لا نأبه لها ، بل نعرض عنها » . ولكن بعد إلحاح زملائه ، وإقتناعه بأن
هذا الملك من أنصار الدين وحماة الكنيسة ، قبل أن يكتب له رسالة
باركه فيها ، ورجا أن يسود السلام ربوع الإمبراطورية وحياة الكنيسة .

وبعد عمر طويل شارف على المائة والخميس ، انتقل القديس إلى الحياة
الأخرى ، سليم الخواس ، في السابع عشر من شهر يناير من سنة ٣٥٦ م .
وكان قد أوصى بإخفاء جسده في البرية ، وإعطاء عكازه للقديس

«مقاريوس» ،الذى كان قد زاره وألبسه رداء الرهبنة ، وفروته للقديس «أثناسيوس» ، والملوطة الجلود لتلميذه «سرايون» .

ودون عنه رهبانه رسائل روحية ونصائح نافعة ، اعتزت بها الكنيسة والأديرة دهرأ طويلا .

ومن مصر إنتقلت الرهبانية إلى بلدان الشرق كله ، إلى سورية وفلسطين وآسيا الصغرى وبين النهرين ، حيث أسست المناسك والأديرة ، فوق قمم الجبال ، وفي تيه الصحراء ، على النماذج التى نشأت أولا فى مصر.

وقد أذل أولئك الرهبان فى ربوع الشرق أجسادهم . وتروى عنهم غرائب القصص ، فى محاولة قمع تجاربهم وشهواتهم . فكان بعضهم لا يأكل إلا مرة فى كل خمسة أيام ، ويمتنعون عن شرب الماء إلا نادراً . وعاش آخرون فى أماكن ضيقة ، بحيث لم يكن فى وسعهم مد أرجلهم فيها ، أو فوق رءوس الأعمدة . وحرّم بعضهم أنفسهم لذة النوم ، وغير ذلك من أساليب القمع والإذلال . ونحن لا ننكر أنهم فى إساءتهم إلى أجسادهم ، قد ركبوا متن الشطط ، إذ حسبوا أجسادهم أعداء لهم ، واحتقروا الزواج أيما احتقار ، ولكن لأهم عاشوا هذه الحياة القاسية فى سبيل غرض مقدس ، وكافحوا شرور العالم بأفضل الأسلحة التى عرفوها فى عصرهم ، لا يسعنا إلا الإكبار من شأنهم ، والإعتراف بأن كثيرين منهم ، بلغوا مرتبة رفيعة فى الغبطة الروحية وهدوء النفس . وتخرج من هذه الأديرة معلمون وزعماء روحانيون خلد التاريخ أسماءهم ، مثل «مكاريوس الاسكندري» ، «وهيلاريون السورى» ، وغيرهما من أبطال حياة الروح .

الرهبانة في الغرب :

أما إدخال الرهبانية في الغرب ف يرجع الفضل فيه إلى القديس «أثناسيوس الكبير» وما شارف القرن الرابع على ختامه حتى كانت توسلات ونماذج القديسين أمثال آيرونيموس وأوغسطينوس قد أضفت على الرهبنة فضلاً كبيراً وكان رائدها في فرنسا القديس مارتن الذي أنشأ ديراً في البواتية جوالى سنة ٣٦٢م وسرعان ما إنتشرت الرهبانية في الغرب يوضعها الانفرادى والجماعى وكان بواكير الرهبان من العلمانيين - كما كان الحال في الشرق - ولكن بوبيسوس الأسقف الإيطالى الذى توفى سنة ٣٧١ م كان قد قرر قبل وفاته أن يحيا قساوسة دائرته حياة الرهبنة ، وتبعاً لهذا النمط فى الحياة تأصلت عادة رسامة الرهبان للرتب الكهنوتية .

وتخبطت الرهبانية في الغرب حتى جاء بطلها وواضع نظامها القديس «بندكت» الذى ولد حوالى سنة ٤٨٠ م .

الراهب «بندكت» :

وكان القرن الخامس فاتحة لإنهيار الإمبراطورية ، وكان أيضاً بداية النزاع بين الغرب والشرق ، وكان فقيراً فى الحركات الجديدة ، وفقيراً أيضاً فى الشخصيات البارزة . ومن وسط هذه الغمام ، يخرج نور يشق سدفة الظلام ، ذلك أن رجلاً إيطالياً يدعى «بندكت» ، عريق المعتقد ، نهض واتخذ طريقه إلى كهف على مقربة من أحد قصور «نيرون» الخربة فى «ستياكوس» وهناك أقام فترة من الزمن يصوم ويصلى ، كما فعل القديس «أنطونيوس المصرى» من قبل .

وكانت فكرة الرهبانية قد انتقلت من الشرق إلى الغرب ، بفضل القديس «أثناسيوس» كما تقدم، وكان قد سافر إلى وومية سنة ٣٣٠ م ، وصحب معه راهباً من وادى النظرون يدعى «أمونيوس» . وكانت الرهبنة فكرة لم تخطر للغرب ببال ، فاستهواهم ما فيها من تعبد وروحانية ، وابتعاد عن شرور العالم ومنكراته ، وسمو الروح الإنسانية في هدأة النسك والإعزال . ولما إعتمز أتباع القديس «إيرونيemos» ، التزام العفة وضبط الشهوة ، لم يعتزلوا في أديرة في أول الأمر ، ولكنهم ذهبوا إلى خلوة في فلسطين ، كما فعل معلمهم «إيرونيemos» .

ولم تتخذ الرهبانية في الغرب شكلاً منظماً ، إلا يوم هرع الراهب «بندكت» إلى ذلك الكهف ، في سنة ٥٠٠ م، وتبعه جمهور من تلاميذه ومريديه . وبعد إقامته ثلاث سنوات في ذلك الكهف ، طرده أعداؤه من «سبياكو» ، فانطلق مع أتباعه إلى جبل كاسينو ، على مقربة من نابولي ، وهناك هدم هيكلًا قديماً للإله أبولو ، وأقام على أنقاضه ديراً ، هو الأول في تاريخ المسيحية في الغرب^(١) . ومن هذا الدير خرج رهط من الرجال ، لم يحملوا سيوفاً في أيديهم ، بل أمسكوا بدلا عنها المحاريث ، لاستغلال الأرض واستنباتها ، والأقلام ، لكتابة الرسائل والمؤلفات . وبهذه الوسيلة الهادئة المسالمة تغلبوا على الغزاة ، وأعادوا إلى الإمبراطورية مجدها البائد .

وكان دير بندكت طرازاً جديداً من الأديرة . فهو قد عرف أن

(١) دير جبل كاسينو هو الدير المشهور الذي دارت حوله معارك عنيفة بين الألمان والحلفاء في الحرب العالمية الثانية ، وقد اتخذ الألمان حصناً لمناعته، وتهدم منه جزء كبير بقنابل المحاربين ومدافعهم .

كثيرين ، قد يرتضون طائعين مختارين ، أن يهبوا أنفسهم لخدمة الله كرهبان ، ويهجروا مقتنياتهم وحياتهم الزوجية السعيدة ، ولكن قليلين ، هم الذين يقدرّون على معاناة حياة التقشف وشطف العيش ، التي ألفها رهبان الصحراوات في الشرق . ولذلك نظم قواعد ميسورة لا إعنات فيها ولا إذلال ، ودبر أن يعيش الرهبان في أسرة صغيرة ، تخضع الأسرة لرئيس تطيعه وتحترمه . ويبقى الجميع في أديرتهم ، ولا يتجولون في الأرض ، كما كان يفعل بعض الرهبان . على أن يكون كل دير مستقلاً بنفسه .

كانت الطريقة ميسورة خالية من الإفراط في القسوة والمشقة ، فكان الرهبان يستيقظون في الثانية صباحاً ، ولكنهم كانوا يأوون عند مغيب الشمس . وكانت ثيابهم نظيفة مريحة لائقة ، وأباح لهم كل أصناف الطعام العادية ، ما عدا لحوم ذوات الأربع . وكانوا يتناولون وجبتين في اليوم نصف السنة ، والنصف الآخر وجبة واحدة . ولمدة ست أو سبع ساعات في اليوم كانوا يعملون بأيديهم في الحقل أو المصنع ، ولمدة ثلاث ساعات يقرأون ويكتبون ، ويدرسون سير رهبان صحراوات مصر . على أن أهم المطالب التي فرضها « بندكت » على رجاله ، كانت الصلاة والتعبّد . فكانوا يصلون معاً ست مرات في اليوم ، ومرة أثناء الليل ، وفي أيام الآحاد ، يمارسون فريضة الشركة المقدسة .

على هذه الحال عاش « بندكت » ورهبانه مدة خمسة عشر عاماً. وفي كل سنة كان ينزل إلى سفح الجبل ، ليتحدث مع أخته « سكولستكا » ، التي كانت قد أنشأت ديراً للعداري ، على غرار الدير الذي أنشأه أخوها للرجال .

وفي سنة ٥٤٣ م مات هذا الرجل الصالح ، وبعد ست وأربعين سنة من هذا التاريخ ، أغار اللومبارديون على إيطاليا ، ففر الرهبان البندكتيون من جبل كاسينو ، إلى رومية ، يحملون معهم نظامهم وطريقتهم في الحياة .

وراح أولئك الرهبان يشيدون الأديرة في كل مكان ، يشيدونها أولاً على نسق منزل ريفي روماني ، تحيط الأبنية بالفناء ، وتجاوره حديقة وطاحون ومستشفى ومخبز . وكان لكل دير كنيسة ، وقاعة للطعام ، ومنامة ، ومغاسل ومخازن ومطبخ .

وقد عكف الرهبان المحاهدون إلى شق أخاديد الأرض وإصلاحها ، وغرس الأشجار ، وتحويل الغابات والأراضي البور ، إلى حقول ومراع ، تنبت فيها الحنطة غذاء للناس ، والعشب غذاء للبهائم . ولإيهم وفد أهالي القرى ، طلباً للعون ، والاستمتاع بالصدقة والمودة . وعلى مر الزمن ، أصبحت تلك المساكن البسيطة ، والأديرة البدائية أبنية فخمة تحيط بها الضياع والقرى والمدائن . ونشط الرهبان في الخدمة ، فلم يقتصروا على تعليم الناس الدين المسيحي ، بل أطعموهم إبان المجاعات ، لأن نشاطهم وأعمالهم جعلتهم من الأغنياء ، وأنشأوا المدارس للأحداث ، والمدارس للرهبان ، وكتبوا بالخط الأسفار القديمة ، وأودعوها مكتبات الأديرة ، وكذلك احتفظوا بكثير من مؤلفات الأقدمين الوثنية ، فأنقذوا بذلك ما أمكن إنقاذه من حطام العالم القديم . وظلوا زدهاً من الزمن ، يعلمون الشعب القراءة والكتابة ، والفلاحة والبناء ، والنقش والتصوير .

ولم يبدأ أولئك الرهبان حياتهم ليكونوا معلمين أو فلاحين أو فنانين ، ولكن في سبيل « خدمة الله » ، ألفوا أنفسهم مسوقين إلى خدمة الناس . على أنهم جعلوا « خدمة الله » همهم الأول . ففي ساعات النهار ، وفي

بكور ساعات الليل ، كانوا ينشدون ويرنمون الأغاني والتسابيح الدينية ،
بالحان موسيقية محببة ، وكانوا يكتبون الأسفار المقدسة في صفحات من
القرطاس ، مزينة بألوان زاهية متلمعة .

من ثم نرى الرهبانية تنتقل أولا من مصر إلى بلدان الشرق الأخرى ،
وتتخذ مواطنها في سواحل فلسطين الجنوبية وبادية الشام و برية قورش ،
وجبل الرها والجزيرة و طور عبيد ، وجبل الموصل وجبل ماردين
وضواحي قيصرية كبدوكية و طور سينا .

وقد استمسك رهبان الشرق بعبادة الله ، وروضوا أنفسهم على التقوى
وإذلال النفس ، والإقتصار على القليل من الطعام الذي يمسكون به الحياة ،
والإقبال على العمل الشاق ، الذي كانوا يقضون فيه الساعات الطوال .

ومن الشرق تنتقل الرهبانية إلى الغرب كما أسلفنا . على أن الأديرة
في الغرب ، لم تستطع محاكاة أديرة الشرق في التصلب والتشدد ، في
الامتناع عن أنواع المأكول المغذية ، وتساحت في كثير من المواد ، التي
حسبها الراهب الشرقي متعة للجسد . كذلك ذهبت الرهبانية في الغرب في
جهادها وتفكيرها إلى حد بعيد ، حتى غدت خلايا الأديرة ، أشبه بمناظر
تشع منها العلوم والثقافة ، وتحولت الأديرة إلى مدارس للتعليم والتهديب ،
والعمل في الحقل والمصنع ، وخرجت منها مؤثرات ، كان لها أكبر
الفضل في ترقية الحياة الاجتماعية والعلمية والعقلية والروحية . وانتقل أولئك
الزاهدون ، من خطة الإعتكاف عن العمل ، إلى خطة أخرى ، لإجهادها
فيها إلى تهذيب العالم ، وبث روح الحياة والتجديد ، في البيت والدولة
والكنيسة .

٢٣

رومية والقسطنطينية

رأينا في فصل سابق، أن دستور الكنيسة ونظمها ، وضعت على أسس النظام الإمبراطوري في الدولة الرومانية ، فكان للمدينة وما حولها أسقف محلي ، وكان لعاصمة الولاية أسقف ، يشرف على عدد من الأبرشيات الصغرى ، ومن القرن الرابع ، تألفت وحدات من الولايات المتقاربة ، على نحو ما اتبع في الإمبراطورية ، وأقامت عليها كبراً للأساقفة ، أطلق عليه فيما بعد لقب « بطريرك » .

وكان هذا التنظيم مما عني به مجمع نيقية ، وأقر سلطان أسقف عاصمة الولاية « metropoiitan » ، بالإشتراك مع الجامع الإقليمية ، على أساقفة وكنائس ولايته . على أنه كان لبعض تلك الأبرشيات ، الرئيسية ، مقام ممتاز ، خلعتة عليها التقاليد التاريخية ، فأقر المجمع أيضاً ، الإمتيازات التقليدية ، التي تمتعت بها تلك الكنائس ، وقد خص بالذكر كنائس رومية ، والإسكندرية ، وأنطاكية ، عواصم الإمبراطورية الثلاث . فكان لكرسى الإسكندرية سلطان على مصر والبلدان المجاورة ، ولكرسى أنطاكية سلطان على سورية والأقاليم المتاخمة لها في الإمبراطورية الشرقية ، ولكرسى رومية ، سلطان على إيطاليا وما جاورها .

والآن يظهر أسقف القسطنطينية - أو بيزنطة - قوة جديدة في دستور الكنيسة . فبعد أن صارت بيزنطة - كما كانوا يسمونها قديماً - العاصمة الثانية للإمبراطورية ، أحس أسقفها أن من حقه أن يحتل مكاناً بين أساقفة المدن الأخرى الكبرى ، وخاصة بسبب علاقاته مع السلطات الإمبراطورية . وفي مجمع القسطنطينية ، الذي انعقد في سنة ٣٨١ م . أعطى أسقف بيزنطة رتبة في الكنيسة ، تلى رتبة أسقف رومية مباشرة ، وفي مجمع خلقيدونية في سنة ٤٥١ م ، تقرر أن تضم إليه الأبرشيات الثلاث الكبرى ، في تراقية وآسيا الصغرى وبنطس ، وبذلك خضع له أساقفة هرقلية وأفسس وقيصرية .

كذلك راعى مجمع نيقية مكانة أسقف أورشليم ، فخلع عليه كرامة ممتازة ، لأن أورشليم هي مهد المسيحية وأم الكنائس كلها . وما حل النصف الأخير من القرن الخامس ، حتى غدت الكراسي الخمسة الكبرى في رومية والقسطنطينية والإسكندرية وأنطاكية وأورشليم ، مراكز الرئاسة العليا للعالم المسيحي ، التي يرجع إليها في تصريف شئون الكنيسة المسيحية ، وصار أساقفتها « بطارقة » . وإن يكن لقب « بطريرك » لم يعرف رسمياً قبل القرن التاسع . ولكن حول اللقب الجديد على أي حال ، لكل من هؤلاء الخمسة ، رتبة « الأب الأعظم » أو « بابا » المسيحية . والآن تبدو في الأفق مشكلة أخرى ، هي مشكلة الرئيس الأعلى للكنيسة ، ومن سيكون بين هؤلاء الخمسة الرئيس الأكبر للمسيحية كلها ...

ويشهد التاريخ على أن من غرائز الإمبراطورية الرومانية في كل تاريخها أن تقبض على أعنة العبادة الدينية الرسمية ، وتجعل رجال الدين الرسميين

آلات طيعة يأتمرون بأمرها . وأسقف القسطنطينية هو الآن أسقف البلاط الإمبراطوري ، ينتقل بين مظاهر الأبهة والجلال ، وهو صنيعة الإمبراطور الجالس على العرش ، ولا تسنده في كرسيه تقاليد ولا امتيازات كنسية ، كما هو الحال في رومية أو أنطاكية مثلاً ، فكل سلطته مستمدة من العرش ، وكل كسب لهذا الأسقف ، هو في الواقع كسب للعرش . لذلك حمل العرش هذا الكرسي - وهو أحدث الكراسي المسيحية - فوق أجنحة النسر ، وسما به ، يمسك بين يديه سلطاناً على الكنيسة . وكان معنى القرارات التي اتخذها مجمع القسطنطينية (سنة ٣٨١ م) ، ومجمع خلقيدونية (سنة ٤٥١ م) ، أن رئيس الكنيسة الأعلى ، ليس أسقف رومية ولا أسقف الإسكندرية ولا غيرها ، بل الإمبراطور ذاته . وكأنما كان عبثاً ، أن تناضل الكنيسة لوضع دستورها ونظامها ، لكي تقدم في آخر الأمر تاجاً لرئيس أرضي .

أفلم يكن في الكنيسة سلطة ما تتحدى الإمبراطورية ، وتدافع عن استقلالها ضد رئيس هذا العالم ؟

هنا انبرى أسقف رومية للنضال مع القسطنطينية ، وقد أيدته في هذا النضال ، كل الموارد والتقاليد الكنسية ، وذلك لأن قضيته في تلك الفترة ، كانت قضية حرية الكنيسة . وكان الحديث متواتراً منذ القرن الثاني ، أن كنيسة رومية ، قد أسسها الرسولان «بولس» و«بطرس» ، وأن أسقف رومية هو خليفة «بطرس» ، أمير الرسل . وإذا كان «بطرس» هو الصخرة التي أقيمت عليها الكنيسة ، وجب إذاً أن يكون أسقف رومية خليفته هو صخرة الكنيسة . ومن ذلك التاريخ ، نشأت فكرة الخلافة الرسولية التي تتشبه بها الكنيسة الكاثوليكية حتى اليوم .

• • •

١٨٧ أسقف القسطنطينية :

تطورت سلطة أسقف القسطنطينية تطوراً سريعاً ، وارتقى من رتبة أسقف خاضع لكرسى هرقاية ، إلى رتبة علت به فوق الأساقفة الآخرين وقد أخضع مجمع خلقيدونية لسلطانه ثلاثاً من الأبرشيات الكبرى ، ثم إخضع له أيضاً الكنائس الأخرى ، ليصير - وهو ليس أقدم ولا أعظم الكراسى الدينية - سيداً على الجميع ، وأسقفاً للأساقفة . فكيف تم له ذلك كله ؟

عند موت الإمبراطور « ثيودوسيوس » سنة ٣٩٥ م ، انقسمت الإمبراطورية الرومانية بين ولديه الشابين : « أوكدسيوس » للإمبراطورية الشرقية ، وعاصمتها بيزنطة ، و« هونوريوس » ، للإمبراطورية الغربية وعاصمتها رومية . وكان اعتلاؤهما العرش فاتحة عصر جديد في التاريخ ، هو بداية انهيار الإمبراطورية بغزوات برابرة الشمال ، من قبائل القوط والفاندال والهون . وفي سنوات ٤٠٨ و ٤٠٩ و ٤١٠ م على التوالي ، حاصر « ألافريك » قائد البرابرة مدينة رومية ثلاث مرات . وفي المرة الأولى قبل الفدية . وفي المرة الثانية سلمت المدينة وأقام على العرش صنيعة من صنائعه ، ثم سار بحمافله إلى « رافنا » مقر الإمبراطور ، للمطالبة بتأييد سلطانه . وإذ يرفض طلبه ، يعود أدراجه ليدخل المدينة عنوة ، وتمسى رومية الخالدة ، سيدة العالم ، فريسة سائغة للسلب والنهب بأيدي أولئك البرابرة .

فعل على أن « ألافريك » ورجاله كانوا قد عرفوا المسيحية - وإن تكن مسيحية « أريوس » - فأمر جنوده بعدم المساس بحياة أحد من الناس ، وصيانة

الكنائس الرسولية . و يروى أحد مؤرخى ذلك العصر قصة مأثورة تدل على الإحساس الدينى فى نفوس الغزاة : قال إن جندياً دخل مسكن عذراء مسيحية عجوز للسلب والنهب ، وأمرها أن تسلم ما لديها من كنوز . وكانوا قد أخفوا عندها آنية الكنيسة الكبرى وزينتها . فأظهرت فى هدوء وجلال ما لديها من كنوز للجندى الداهل - آنية من الذهب الخالص كبيرة الحجم دقيقة الصنع . وقالت له : « هذه ملك القديس «بطرس» ، وأنا امرأة لا حول لى ولا طول ، لا أستطيع صيانتها ، ونفسي طاهرة تقية ، فخذ الآنية إن شئت وقدم حساباً لله ... » .

فما كان من هذا الجندى ، إلا أن بعث برسالة إلى قائده «الاريك» . وتلقى منه الأمر أن تؤخذ هذه العذراء الطاهرة ومعها الكنوز ، فى حراسة الجند إلى الكنيسة الكبرى ، لتوضع الآنية فى مكانها .

ولكن القصور والهياكل الوثنية ، نهبت كل كنوزها وذخائرها ، وأمسى كثيرون من أفراد الأسر العريقة عبيداً أرقاء ، وهرب نفر كبير إلى مدائن أفريقية ومصر والشرق حتى غصت بهم .

وكان أسقف رومية غائباً فى «رافنا» ، يستنجد عبثاً بالإمبراطور : ولما عاد وجد رومية القديمة ، قد عبثت بها أيدي الدمار والتخريب ، والمجتمع الرومانى القديم ، قد تبعثر وتشتت . أما الكنائس وبيوت الشعب ، فلم يمسسها ضرر . إنهارت رومية الوثنية ، وقامت على أنقاضها رومية المسيحية . وغدا الأسقف أعظم رجل فى رومية ، وزاد على الأيام سلطانه ونفوذه ، واحتفظ بأمواله وأملاكه وكنائسه :

أما الدولة الشرقية فكانت أوفر حظاً من الغربية ، ولئن تكن قد فقدت بعض أطرافها ، إلا أنها بقيت محتفظة بعاصمتها ودستورها وحضارتها ودينها إلى القرن الخامس عشر .

* * *

والآن لنعد إلى منشأ النزاع بين الشرق والغرب :

كانت الإمبراطورية الغربية — حتى قبل إنهيارها — قد أمست ظلاً ، وأمسك الإمبراطور الشرقي في بزنطة أعنة السلطان على العالم الروماني .

وكانت رومية في ذلك الحين ، الكرسي الرسولي الوحيد في الغرب ، يرتبط بوشائج من الإتحاد مع أفريقية اللاتينية وقرطاجة وأسبانيا وبلاد الغال ، وكان له النفوذ الأعلى فوق الكنائس كلها . ولا يفوتنا أن رومية ، كانت عاصمة العالم يومئذ ، المدينة الخالدة ، سيدة المدائن كلها . وكان لجماعة رومية المسيحية منذ عهد «الرسول بولس» ، فضل السبق والتقدم على الجماعات الأخرى حتى في الشرق . فكل الخلافات العقائدية ، التي ثارت في القرون الثلاثة الأولى ، قد بت فيها بعد استشارة الكنيسة في رومية ، ونبتت فكرة الأسقفية ، والقانون الكنسي ، والكنيسة الكاثوليكية الجامعة ، في رومية أولاً ، وهي الكنيسة الأم للمسيحية الكاثوليكية (ونقصد بذلك المسيحية الجامعة) . فضلاً عن ذلك ، فقد كان لها من سعة الموارد المالية ، وكثرة عدد الأعضاء ، والسخاء في الإعانات ، ما قوى نفوذها ، لا في الغرب فقط ، بل في اليونان وآسيا ، وانتقل هذا النفوذ من الكنيسة إلى أسقفها حتى لقد استطاع في نهاية القرن الثاني ، أن يصدر حكم الحرمان

على كنيسة آسيا الصغرى ، في مسألة الخلاف حول منوهد الاحتفاء بعيد الفصح كما رأينا من قبل .

بكل هذه الموارد الروحية والتقليدية والمادية ، تقدم أسقف رومية للنضال ضد مطالب القسطنطينية ، التي كانت مطالب الإمبراطورية . وكان إعلان القسطنطينية عاصمة ثانية للإمبراطورية قبل قسمتها ، الضربة الأولى التي وجهت للحد من نفوذ أسقف رومية ، فكلما مال مركز الثقل في الإمبراطورية إلى الشرق ، زادت القسطنطينية نفوذاً ، وغدا أسقفها الرئيس الروحي الأعلى ، الذي تسير وراءه كل الشعوب اليونانية في الشرق ، وقد بدا هذا الميل بارزاً في مجع القسطنطينية وخلقيدونية .

وقد أفادت رومية من شيء آخر في هذا النضال . فالهرطقة الآريوسية كانت قد سويت في مجمع نيقية ، ولكن جلس خلف «قسطنطين» على العرش ، فاحتضن هذه الهرطقة التي ألقت مرتعاً خصيباً في كل ربوع الشرق . وكان من جراء هذا الانتكاس ، أن عزل «أثناسيوس» من كرسي الإسكندرية ، وفر إلى رومية ، طالباً معونة أسقفها وحماه ، وبينما حاد الشرق ، ظل الغرب أميناً للإيمان النيقوي ، بزعامة أسقف رومية ، ولم يكن «أثناسيوس» هو الأسقف الوحيد الذي استأنف قضيته أمام رومية ، فإن أساقفة الشرق الآخرين ، الذين آثروا الاعتصام بالإيمان القويم ، ضد الهرطقة الآريوسية حذوا حذوه ، وقد هيا هذا كله فرصة لرومية ، لتتدخل كرئاسة عليا في منازعات الكنائس كلها حتى الشرقية . وأصدر مجمع في رومية برئاسة أسقفها «يوليوس» ، قراراً بإعادة «أثناسيوس» إلى كرسيه ، وبطلان قراره عزله . وقد اعترض أساقفة الشرق الموالون للآريوسية على هذا القرار ، ولكن اعتراضهم لم يغير من الأمر الواقع شيئاً ، وهو أن كنيسة رومية هي

قد غدا الآن ذا نفوذ وكرامة بين الكنائس كلها في الغرب والشرق .
وأفلاح أسقف رومية ، في دعوة مجمع عام في سنة ٣٤٣م في مدينة صوفيا -
عاصمة بلغاريا الآن - وقد إنقسم الأساقفة حول الخلافات العقائدية ،
وانشطر المجلس ، فعقد أساقفة الشرق الآريوسيون ، مجمعاً خاصاً لهم في
« فيلبوبوليس » ، وظل الباقيون في مجمع صوفيا ، حيث أجمعوا على
إعطاء أسقف رومية ، حق البت في قضايا الاستئناف التي تقدم له من
الأساقفة المعزولين . وفي مجمع صوفيا هذا ، تأيدت السلطة البابوية ،
وأقر الغرب وبعض أساقفة الشرق سلطة وزعامة أسقف رومية .

وفي ختام القرن الرابع ، انتهى الخلاف الناشب بهزيمة الهرطقة
الآريوسية ، وكان إنتصار قانون الإيمان النيقوي إنتصاراً لرومية . ألم
توصم أهم الكراسي الأسقفية في الشرق بوصمة هذه الهرطقة البغيضة ؟ وأية
كنيسة غير كنيسة رومية ، حملت لواء الأرثوذكسية الصحيحة في هذه
المعارك كلها ؟ والآن تتحداها القسطنطينية بكرسيها ، فتستمد رومية من
ماضيها ، ومن نضالها الطويل ، وتقاليدها ، عزيمة لكبح جماح السلطة
الزمنية ، التي تروم الإفتئات على السلطة الروحية .

ثم كانت تلك السيول الجارفة ، من الشعوب الجرمانية في الشمال ،
التي زحفت إلى الجنوب ، واكتسحت أمامها الإمبراطورية الغربية كما
تقدم ، وإنزعجت منها سيادتها ، وأذلت كبرياء رومية . وكان سقوط
الإمبراطورية في الغرب ، فرصة أتاحت للكنيسة التخلص من السلطة
الزمنية ، التي كانت قد تركزت في القسطنطينية . فلما أقر مجمع خلقيدونية
(سنة ٤٥١ م) ، سلطان القسطنطينية ومنح أسقفها حق الزعامة والتقدم ،
احتج مندوبو أسقف رومية احتجاجاً قوياً ، ووقف الحصان وجهاً لوجه .

وقد توقف سير التاريخ في المستقبل ، على نتائج هذا الصراع ، فقد كان بداية المقاومة العنيفة ، التي أدت في آخر الأمر ، إلى شطر الكنيسة إلى معسكرين : الكاثوليكية واليونانية .

بدأت المسيحية كتلة واحدة هائلة عظيمة ، مثلها مثل دوحة وارفة الظلال ، نمت من حبه خردل صغيرة ، وتوزعت ثمارها في المشارق والمغارب ، وجاءت الشعوب لتحتفى تحت أغصانها . وبعد القرون الأولى ، لاحت سحب قائمة تندر بهبوب زوبعة عاصفة ، ومن وسط هذا القتال ، نفذت الصاعقة التي شطرت جذع الدوحة العظيمة إلى قسمين . من أجل مطامع أسقفين ، وبسبب إنقسام الإمبراطورية الرومانية نصفين ، لاتينية ويونانية ، وبسبب قيام عاصمة ثانية في القسطنطينية ، إلى جانب رومية القديمة ، انشطرت الكنيسة المسيحية الواحدة شطرين ...

وكان هذا الإنقسام ، بداية الأوجاع التي نعانها اليوم ، وأول بادرة من بوادر الغمة الأليمة ، التي تبسط ظلمتها على القلوب المخلصة الأمانة ، والتي أفقرت الكنيسة الجامعة في كل نواحي حياتها . وحين نفكر في الإنقسام الأول في تاريخ الكنيسة بين الشرق والغرب ، من ذا الذي تخامر ريبة في أن الكنيسة الشرقية ، قد تأملت من فقدانها الاتجاهات العملية القوية في كنيسة الغرب ، كما أن الكنيسة الغربية ، بجنوحها إلى النزعة القانونية الجامدة ، كانت تنفع كثيراً لو أنها إتحدت بالكنيسة الشرقية ، التي إمتازت بنزعتها الفلسفية التعبدية القوية . ألم يكن هذا الانفصال الذي بدت بوادره في هذه الفترة ، عاملاً لإفقار الكنيستين معاً ؟ ثم هناك الإنقسام الآخر في عهد الإصلاح ، بين الكنيسة الكاثوليكية الكبرى وبين

الكنائس البروتستانتية - الذى سيجيء عنه الكلام فى جزء آخر من هذه السلسلة - فإن الكنيسة اللاتينية ظلت خاضعة لتلك النزعة القانونية الجامدة ، ولم تتأثر بالحوافز الحرة فى البروتستانتية ، بينما جنحت الكنائس البروتستانتية ذاتها ، إلى التعدد شيعاً وطوائف تخاصى بالملثات ، لأن ميلها إلى الحرية ، لم يتزن بتلك المؤثرات القانونية المركزة فى الكنيسة الكاثوليكية .



٢٤

جريجوريوس العظيم

[الامبراطورية الرومانية الشرقية – جريجوريوس العظيم – مولده ونشأته – ميله الى حياة الرهبنة والتعب – رحلته الى القسطنطينية – اعتلائه الكرسي البابوي – نفوذه وسلطانه – لمحة عن المسيحية في بريطانيا] .

اندثر عرش الإمبراطورية الرومانية في رومية، وتولى ملوك الفرنجة من قبائل الشمال سلطان الحكم في الإمبراطورية الغربية . ولكن بقيت سلطة أسقف رومية – أو البابا – مرعية مهيبة الجانب . أما خلفاء أباطرة الرومان ، فقد احتفظوا بعرشهم في بيزنطة ، باسم الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، أو الإمبراطورية البيزنطية . وفي أوائل القرن السادس نهض أحدهم ، وهو يوستنيان الأول (٥٢٧ – ٥٦٥ م) فاستعاد كثيراً من الولايات التي اقتطعها الغزاة من جسم الإمبراطورية ، واسترد إيطاليا نفسها ، وأخضعها للعرش البيزنطي ، واستجلب إلى عاصمة ملكه ثروات هائلة : بنى منها الكنيسة العظمى الرائعة في بيزنطة على النمط الشرقي التي سميت « كنيسة الحكمة المقدسة » (آيا صوفيا) ، واستن قانونه المشهور ، المأخوذ من القوانين الرومانية القديمة . وما يزال قانونه باقياً حتى اليوم ، أساساً لكثير من قوانين الشعوب المتحضرة . وفي خلال حكمه ، حاول اللمبارديون والبلغار والفرس تدمير الإمبراطورية مرة أخرى ولكنهم باءوا بالفشل .

وقد حاول هذا الإمبراطور الشرقي ، بعد إعادة إيطاليا إلى ملكه ، أن يخضع أسقف رومية (البابا) لسلطانه ، ويجعله أداة طيعة في يده كعادة أباطرة الرومان . وبلغت به الرغبة الجامحة ، حد الإقدام على عزل أحد الباباوات في سنة ٥٣٧ م . وترحيله إلى القسطنطينية ، ثم نفيه إلى جزيرة نائية بعد ذلك حيث قضى نحبه . وقد أصر بعد ذلك ، على أن يكون انتخاب البابا تحت إشرافه وبرضائه . على أن استيلاء الإمبراطور الشرقي على إيطاليا لم يدم طويلا ، ففي سنة ٥٦٨ م . تنحدر من الشمال قبائل اللومباردين ، وكانوا أشد قبائل الغزاة بأسا ، وفي هذا يقول « جبون » المؤرخ الشهير : « لمدة مائتي سنة ، ظلت إيطاليا نهبا مقسما بين اللومباردين وبين والي « رافنا »^(١) عامل إمبراطور بيزنطة . وفي هذا النزاع الرهيب ، لم يستطع البابا توطيد سلطانه الأدبي الروحي ، وعانى الكرسي الديني في رومية أشد العناء » .

على أن هذه الفترة القائمة من التاريخ ، تنجب في القرن السادس ، رجلا يمسك دفة السفينة في بحر متلاطم الأمواج ، ويقوى بسحر شخصيته ، وقوة نفوذه ، على رفع لواء المسيحية في الغرب - ونعني به البابا جريجوريوس الأول - الذي يخلع عليه التاريخ لقب « العظيم » .

وينبري هذا « العظيم » لإبرام معاهدة صلح وسلام ، بين اللومباردين في إيطاليا الشمالية ، وبين إمبراطور القسطنطينية ، الذي رضى بنصيبه في إيطاليا الجنوبية وعاصمتها « رافنا » . وتخلو رومية من العرش الإمبراطوري ، ويخلو الجو فيها للسلطة البابوية ، وينتهر جريجوريوس هذه الفرصة ، فيبسط

(١) « رافنا » هي المدينة التي جعلها يوستنيان الإمبراطور الشرقي عاصمة الاقاليم التي استرده من إيطاليا وكرسيا للوالي من قبله .

نفوذه السياسى على حساب الشريكين ، اللذين تراضيا على قسمة إيطاليا .
ولو أن عرش الإمبراطورية ظل فى رومية كما كان ، ولو أن القسطنطينية
صارت عاصمة أوربا ، لتبدل مصير البابوية كسلطة زمنية ، ولما حظيت
بهذا الشأن الرفيع ، الذى كان من نصيبها فى القرون الوسطى .

وقد بسط جريجوريوس العظيم سلطانه فى رومية لمدة أربعة عشر عاماً ،
وكانت له اليد الطولى فى تكييف الحوادث . وبقوة نفوذه على المستعمرات
اللومباردية ، وعلى الإدارة والحكم ، صان عقائد الكنيسة ، وحقوق
البعثات الدينية والأديرة ، حتى ليحسب بحق أعظم سياسى فى الكنيسة فى
بكور القرون الوسطى .

ولد هذا العظيم فى رومية حوالى سنة ٥٤٠ م ، وكانت رومية التى
شهدتها أيام صبوته بائسة مهلهلة ، قد أعمل فيها البرابرة القوطيون معاول
التخريب . ولم يبق فى قصورها إلا حفنة من كبار الموظفين المدنيين .
على أنه كان قد شيد بها كنائسها السبع الفخمة ، وبينها الكنيسة الكبريان ،
اللتان بنيتا لإحياء لذكرى القديسين بطرس وبولس ، على مكانى استشهادهما
كما تقول التقاليد ، كنيسة القديس بطرس فى الفاتيكان ، والقديس بولس
فى الطريق إلى أوستيا: ولم يكن فى نظر مسيحي القرن السادس ، بقعة
أقدس من هذه البقاع ، التى أقيمت عليها كنائس الشهداء الأولين ، ولا
شئ أعز من رفات الرسل ، الذين شهدوا المخلص بعيونهم ، ولمسوه
بأيديهم .

وكان أبوا جريجوريوس تقيين ، ومن الأثرياء ، من طبقة أعيان
الرومان . وقضى أيام شبابه فى بيت أبيه ، قبالة قصور رومية ، التى

«هجرها سناكنوها» ، هرباً من البرابرة الغزاة . وتلقى الشاب علومه الكلاسيكية ، في الأدب اللاتيني والمنطق والبيان ، كما كان يفعل أبناء الطبقات العليا في ذلك العصر . ثم التحق بوظيفة حكومية ، وفي بدء عهده بالخدمة ، كان الغزاة اللومبارديون قد أخذوا يزحفون من الشمال ، وما جاءت سنة ٥٧٣ م ، حتى كانوا على أبواب رومية . وكان جريجوريوس في تلك السنة عمدة المدينة ، وهي أكبر وظيفة مدنية ، يرأس شاغلها مجلس الأعيان ، ويتولى القضاء المدني الأعلى ، في دائرة قطرها مائة ميل من العاصمة . وهو الذي يتعهد «بتموين العاصمة بالحبوب» ، ويعنى بموارد المياه ومصارفها ، ويتزعم الموظفين الباقين في رومية ، وله سلطة مالية واسعة .

وقد أكسبته هذه المهام خبرة واسعة في شئون الإدارة والتنظيم . وكما أن روح الآداب الكلاسيكية ، قد انسابت إلى عالم القرون الوسطى ، بواسطة عقلية أوغسطينوس وكتابات ، كذلك غدت فنون الإدارة والتنظيم ، تراثاً للكنيسة في القرون الوسطى بواسطة جريجوريوس العظيم .

وكان ميسوراً له أن يشغل وظيفة الوالى في « رافنا » ، عاصمة الإمبراطور البيزنطى في إيطاليا ، ولكنه ضحى بكل هذه المطامع والآمال الكبار ، وعدل عن الإستمرار في معارج الرقى المادى ، ومال إلى حياة الكمال المسيحى . ففي سنة ٥٧٤ م ، باع جريجوريوس إرثه في صقلية ، وأسس هناك ستة أديرة . ووهب باقى ميراثه للفقراء ، ولم يحتفظ إلا بقصر أبيه كدير خاص له ، وللإخوة الذين جمعهم حوله . وصار فيما بعد الحامى الأعظم للرهبان ، والمدافع عن حقوقهم وامتيازاتهم . وقد استهوته حياة الرهبنة ، وعكف على الصوم والصلاة والتأمل ، حتى كان

يشعر أحياناً أن روحه الحبسية في الجسد — على حد قوله — كانت تنطلق إلى علياء السماء ، خالصة من سجنها البشري ، وتهفو إلى الموت كوسيلة للدخول إلى الحياة الكاملة .

ظل جريجوريوس أربع سنوات ، يتدرب على الحياة التي كان مقدرًا لها ، أن تطبع أعمق الأثر في حياة أوربا في القرون الوسطى ، ولكن في سنة ٥٧٨ م ، أراد البابا أن يرفعه إلى مرتبة سامية في الكنيسة ، فأخرجه من الدير ، وعينه شماساً « سابعاً » . وفي ربيع السنة التالية ، أوفده البابا بلاجيوس ، ليكون مندوباً عنه في القسطنطينية ، وليحث الإمبراطور على إيفاد المعونة والمال والجيش ، لإنقاذ إيطاليا من غزوات اللمباردين ، ولكنه لم يوفق في هذه المهمة . ولئن يكن قد عاش في قصر — وهو في القسطنطينية — إلا أنه لم يغير حياة الرهبنة ، والتف حوله نفر من الرهبان ، مسوقين إليه بمحبته وعطفه . ولعل هذا الانزواء هو الذي منعه عن تعلم اليونانية في القسطنطينية ، وكان بلاط الإمبراطور ، ما يزال لاتينية في صبغته ، وكانت اللاتينية إلى ذلك الحين ، لغة الحياة العامة في الشرق .

وعند عودته إلى رومية ، عين رئيساً لديره القديم ، وبقى فيه من سنة ٥٨٦ م ، إلى سنة ٥٩٠ م . ومن بين رهبانه الذين يذكرونهم في رسائله ، أربعة عينوا فيما بعد أساقفة ، أحدهم أوغسطينوس أول رئيس أساقفة في كنتربري بانكلترا . وأثناء مقامه في الدير هذب محاضراته عن سفر أيوب ، التي كان قد ألقاها على رهبانه في القسطنطينية . وكان دائم الاتصال بالبابا بلاجيوس .

وفي سنة ٥٩٠ م توفي البابا بلاجيوس ، فأجمع القساوسة والشعب على

لانتخاب جريجوريوس ، وأقر الإمبراطور الشرقي هذا الانتخاب ، ورسم في خريف تلك السنة في كنيسة القديس بطرس . وظل أربعة عشر عاماً جالساً على كرسى الأسقفية في رومية - يدفع ، ما وسعته الحيلة ، أذى اللباردين عن إيطاليا الوسطى . وكان دائماً يعد أذهان قومه ، إلى توقع أحداث رهيبة بأيدي أولئك اللباردين القساة . وكان قد رأى بعينه المسيحيين يربطون من أعناقهم كالكلاب ، ويباعون عبيداً في أسواق بلاد الغال ، وسمع بأذنيه شكاوى القرويين المريرة الساكنين في المناطق الشمالية ، وشهد اللاجئين الجوع ، وهم يفرون زرافات إلى رومية ، طلباً للمأوى والغذاء . على أن هذه الأحداث كلها ، قد شحذت همته للعمل والجهاد ليل نهار في تخفيف آلام رعاياه ، والحد من نزوات الغاصبين ، وصيانة كرامة الكرسى الرسولى ، والحث على الاعتصام بأسباب البر والتقوى والهدوء ، ومعاناة الآلام في جلد وشجاعة .

وفي عهده ، أفلحت البابوية في الاحتفاظ ببعض وظائف الحكومة المدنية ، وضم شمل كنائس الغرب تحت رعايته ، وإدارة أملاك الكنيسة وأموالها مستقلة عن الدولة ، ومحاولة إنتزاع السلطة الدينية العليا ، من بطريك القسطنطينية ، وتركيزها في رومية كمركز للمسيحية العالمية ، وإرسال الوفود والبعثات إلى أنحاء أوربا ، لدعوة الشعوب إلى المسيحية ، ومحاربة الهرطقات ونظريات الإلحاد . ففي عهده إنتقلت أسبانيا من الآريوسية إلى المسيحية الحققة ، وخلصت أفريقية الشمالية من نظريات الهرطقة والملحدن .

وقد حاول بسط سلطانه على كنائس المشرق ، لأنه كان يعتقد أن صاحب الكرسى الرسولى في رومية ، هو المسئول عن إدارة الكنيسة في

العالم كله ، كخليفة للرسول بطرس . وزعم أن من حقه تأديب الأساقفة والبطاركة ، الذين يحيدون عن الإيمان القويم ، وأن قرارات المجامع ، ليست لها قوة التنفيذ ، إلا إذا أقرها الكرسي الرسولي . وكان أشد منافسيه في ذلك العصر ، بطريك القسطنطينية ، الذي استند إلى سلطة الإمبراطور . وقد شجر الخلاف بينه وبين هذا البطريرك . حول مسائل ، أهمها الخلاف على لقب « المسكوني » ، الذي خلعه بطريك القسطنطينية على نفسه . وقد احتج جريجوريوس على هذا الإدعاء ، واستعان ببعض أساقفة المشرق ، وعنف الإمبراطور على السكوت ومداواة البطريرك . ولكن ذهبت كل هذه المحاولات أدراج الرياح . بل إن الإمبراطورة ، كتبت إلى البابا ، تأمره أن يرسل رأس القديس بولس أو بعض بقاياها ، لإيداعها كنيسة تعزم بناءها ، تكريماً للرسول الكبير ، فأجابها أن في نقل رفات القديسين ، تدنيساً لكراماتهم ، وإثارة لعواطف الشعب ، وأبي عليها هذا المطلب .

ولم يكن جريجوريوس كاتباً مبتكراً ، ولا لاهوتياً متعمقاً . ولكن كتاباته استندت إلى عقائد الإيمان ، وإلى الأسفار المقدسة ، وإلى مؤلفات أوغسطينوس ، التي كانت موضع إعجابه وتقديره . واستقى فكرته عن الكنيسة من أوغسطينوس في كتابه « مدينة الله » ، وحسب الكنيسة ملكوت السماء على الأرض كما صورها الإنجيل . وقد بقيت كتاباته — على بساطتها — ذخراً للأجيال المتعاقبة ، واحتلت مكانتها في الأديرة وفي مكتبات الكنائس ، حتى لقد أطلق عليه « الدكتور الرابع في الكنيسة » . ولعل أعظم مآثره وأشهرها في التاريخ ، تلك البعثة التي أوفدها ، لدعوة أهل بريطانيا إلى المسيحية . ولا بد لنا من كلمة تمهيد قبل ذكر هذا الحادث :

المسيحية في بريطانيا :

قبل أن يضع الراهب العظيم بندكت قواعد رهبانيته ، كان قد انتشر في بلاد الغال وإيطاليا ، أديرة على غرار الأديرة التي قامت في صحراوات مصر . وإلى هذه الأديرة في الغرب ، دلف الحجاج والمسافرون ، للانصات إلى تعاليم مكتباتها من الرهبان، والأخذ عنهم في مسالك الحياة ، ودراسة الكتب التي حفلت بها . وكانت تلك الأديرة بمثابة مراكز لنشر الدعوة ، يجرى إليها المسافرون ، ويعودون إلى أوطانهم ، حاملين رسالة المسيحية إلى شعوب أوروبا .

وفي سنة ٤١٢ م ، قدم إلى أحد تلك الأديرة في بلاد الغال ، بريطاني يدعى « بترك » . وكان قد نشأ مسيحياً ، ولكن القرصان اختطفوه من حضن أبويه وهو بعد حدث صغير ، وحملوه إلى جزيرة إيرلندا الوثنية . وهناك تمكن من الفرار والقدوم إلى الدير . وقد كان حينما جاء ، رجلاً خشناً ، لم ينل قسطاً من الثقافة والعلم ، ولكنه بقي في الدير زمناً طويلاً ، وتعلمد للحبر الجليل الأسقف جرمانوس ، حتى صار راهباً فكهناً ، وأوفد إلى إيرلندا أسقفاً لها ، لنشر الدعوة بين أهلها . ويقول عن نفسه في اعترافاته ، إنه لم ينفك عن سماع هاتف داخلي ، يدعو للذهاب إلى تلك البلاد الوثنية ، وبذل حياته من أجلها . وما كان الإيرلنديون كلهم يدينون بالوثنية ، لأن أسقفاً آخر كان قد سبقه إلى تلك البلاد ، ولكنه لقي من عنت الزعماء والحكام ، ما عرقل سعيه ، وخيب آماله ، ولم يفز إلا بالقليل من المهتدين على يديه .

وكانت حياة « بترك » ، جهاداً طويلاً ومغامرة مضمينة ، بين تلك

القبائل المتبربرة ، ولكنه قضى بين ظهرانيهم ثلاثين عاماً ، ومات بعد أن صارت إيرلندا كلها مسيحية ، فيها عشرات من الأديرة ، منها خرج المرسلون والدعاة لنشر الدعوة في البلدان الأخرى .

ويحدثنا التاريخ أن الشعب الإيرلندى ، كان كثير الشغف بالموسيقى والرياضيات ، وأحب الثقافة اليونانية ومال إليها ، وكتب الكتب الخطية القديمة ، بخطوط جميلة ، تفنن في إبداعها وتزيين صفحاتها بصور رائعة دقيقة . ومن هؤلاء الإيرلنديين ، خرج سيل لا ينقطع من الدعاة والمرسلين ، إلى بلاد الغال وألمانيا وإنكلترا والنرويج وإيسلنده ، حاملين معهم عاداتهم وتقاليدهم ، وأساليب حياتهم الخشنة المتقشفة .

ومن أحد تلك الأديرة خرج الأمير الراهب « كولمبا » ، إلى جزيرة أيونا تجاه ساحل اسكتلندا ، ليعيش هناك ، مع مائة وخمسين من صحابته في أكواخ صغيرة مقببة حول كنيسة صغرى ، في الصلاة والدرس ونسخ الكتب والتعبد لله . وكانوا يقومون بزراعة الأرض ، وصيد الأسماك لإعالة أنفسهم ، وفي الوقت نفسه ، يعلمون هذا الدين الجديد لأهل اسكتلندا . وقد كان مسيحيون قليلون في اسكتلندا قبل يومهم ، أقبلوا إلى هذا الدين ، على يد راهب من رهبان تور في بلاد الغال ، ولكن جزيرة أيونا هذه ، كانت منارة الدعوة التي توزع منها النور ، لا على اسكتلندا وحدها ، بل على الجزء الشمالى مما يعرف الآن بانكلترا .

وكان الدين الجديد قد وصل إلى جنوب بريطانيا ، في تاريخ مبكر ، مع الغزاة الرومان ، وكان فيها أساقفة من بنينا في سنة ٣١٤ م ، ولما كان بترك يجاهد في إيرلندا ، تلقى معلمه جرمانوس وزميل له ، رسالة ليقبل

إلى معونة الكنيسة في بريطانيا ، التي كانت قد وقعت في أحابيل الحيرة. والإضطراب ، بسبب تعاليم بيلاجيوس ، الذي نشر آراء يناهض بها آراء القديس أوغسطينوس . وسرعان ما عاد المرسلان إلى بلاد الغال ، بعد أن قاما بواجهتهما ، حتى كان الغزاة الأنجلوسكسون ، قد اكتسحوا البلاد للمرة الثانية ، وساقوا الأهلين أمامهم إلى ويلز وسومرست. وكورنول ، على الشواطئ الجنوبية ، وعبر بعضهم بحر المانش ، ليستوطن الإقليم الشمالي من فرنسا ، الذي أطلق عليه « بريتانيا » ، وما زال معروفاً بهذا الاسم حتى اليوم . ومن ثم صارت إنكلترا الجنوبية بلاداً وثنية مرة أخرى .

وحدث أن جريجوريوس العظيم ، كان يحوب سوق مدينة رومية للعبيد ، فوقع نظره على غلمان شقر الوجوه ، تلمعت شعور رؤوسهم بلون ذهبي . ولما سأل عن موطنهم الأصلي ، اعتزم أن يحمل إليهم رسالة الدين الجديد ، وقال بأسلوبه الفكاهي ، وفي سرعة خاطر ، إن أولئك الإنكليز « Angles » لا بد يصيرون يوماً ملائكة « Angels » ، وإن بلادهم ستنتقد من الغضب الآتي ، وترفع أناشيد التسبيح للاله الحي . وكان متأهباً أن يرحل هو بنفسه إلى إنكلترا ، ولكن قومه أبوا عليه هذه المغامرة . وبعد عشر سنوات ، سنحت له الفرصة فاهتبلها ، وذلك لأن ملك كنت السكسوني اثلبرت ، كان قد تزوج من أميرة مسيحية من بنات الفرنجة « Franks » تدعى برثا ، فأوفد جريجوريوس راهباً من خيرة رجاله يدعى أوغسطينوس ، ومعه خمسون من الرفاق ، لحمل رسالة الإنجيل للأسرة الملكية في تلك البلاد . ونزل الراهب على شواطئ الجزيرة ، واتخذ طريقه إلى مقر الملك ، يحمل معه صليباً من فضة ، وعلماً من خشب ،

نقشت عليه صورة الصليب ، وكتبه الثمينة (الكتاب المقدس في مجلدين ، والإنجيل ، وبعض سير الرسل والشهداء ، وتفسير العهد الجديد) . وهناك تقدم إلى الملك في موكب في العراق ، مقدماً له هذا الدين الجديد . على أن الملك الوثني لم يفهم شيئاً ، ولم يقبل الدين . ولكنه أباح للراهب ورفاقه ، أن ينشروا الدعوة بين الشعب كما يشاءون ، وأقاموا فترة من الزمن في كنتربرى ، وشيدت الملكة برثا كنيسة صغرى لعبادة الله . واقتضى الحال جهوداً مضنية بطيئة ، واستمر الجهاد مائة عام ، قبل أن تصبح إنكلترا كلها مسيحية . ولكن منها إنتشرت بعدئذ الدعوة في رقاع أخرى ، فتزوج أدوين ملك نورثمبريا ، من ابنة الملكة المسيحية برثا ، وهذه حملت معها إلى الشمال ، راهباً يدعى بولينوس ، أفلح في حمل الملك وكهنته الوثنيين على إعتناق المسيحية . وقد اعتمد أدوين في البقعة التي يقف فيها الآن أسقف يورك لعبادة الله . وظل الراهب بولينوس وشماسه جيمس ، يدرعان البلاد شمالاً وجنوباً ، فأمن بدعوتيهما أكثرية الأهلين ، ولكن الملك الوثني « بندا » ، أغار على نورثمبريا ، وقتل ملكها ، وأمعن تقتيلاً وتعذيباً في الشعب ، فهرب الراهب بولينوس مع الملكة وأطفالها ، وظل الشماس جيمس في مركزه ، متحدياً الغزاة وابطشهم .

ونخيل الآن كأنما جهود أوغسطينوس ، والدموع والآلام التي بذلت في سبيل هداية إنكلترا قد ذهبت ضياعاً ، وتوقع الناس أن تعود إنكلترا إلى سابق وثنيتها ، ولكن أميراً شاباً إنكليزياً يدعى « أزوالد » — كان قد فر من وجه أعدائه إلى جزيرة أيونا ، وتعلم الدين الجديد هناك — عاد إلى إنكلترا وطنه ، ودافع عن نورثمبريا ، ورد عنها الغزاة الوثنيين وكسب المعركة ، ثم بعث إلى أيونا يطلب معلماً مسيحياً ، فأوفدوا إليه الراهب

٢٠٥

« أيدان » ، الذى أحبه الأهلون حباً خالصاً ، لدمائة خلقه ووداعته .
وصفاء نفسه .

وبعد ثمانية أعوام ، ثار « بندا » ملك الشمال مرة أخرى ، وقتل
أزوالد محمد السيف ، ولكنه كان آخر الملوك الوثنيين ، الذين عرفهم
البلاد ، وأخذت المسيحية تزدهر بعد موته ، ويقوى نفوذها ، ويسلب
الناس سحر تعاليمها ، وغدت إنكلترا بعد ذلك ، موطن كثير من مشاهير
العلماء وكبار المرسلين ، الذين ذكر التاريخ أسماءهم مقرونة بالتجلة
والاكبار .

وفى سنة ٦٦٨ م ، قدم إلى إنكلترا ثيودور الطرسوسى ، وهو
راهب يونانى ، موفداً إليها كرئيس أساقفة ، وقد وجد إنكلترا كلها ،
وقسمها إلى أبرشيات أسقفية ، وحمل معه كتباً قيمة من مؤلفات
هوميروس ويوسيفوس ويوحنا فم الذهب .

وفى مدرسة اكستر ، وهى إحدى المدارس الدينية الكثيرة ، التى
أنشأها المرسلون المسيحيون ، تهذب الراهب بونيفاس ، الذى عبر البحر
مسوقاً بهاتف داخلى ، لنشر الدعوة فى هولندا وألمانيا ، والذى صار فيما
بعد رسول ألمانيا وأسقفها .

٢٥

الكنيسة في المشرق

[اللغات القومية في الامبراطورية الشرقية - هرقل
وانتصاراته - يوستينيان - العرب والكنيسة الشرقية -
العالم يوحنا الدمشقي .]

كان لإنقسام الإمبراطورية الرومانية بعد عهد قسطنطين إلى شطرين -
الشرقية بلغتها اليونانية والغربية بلغتها اللاتينية - أثر عميق في تاريخ
الكنيسة . وقبل أن يحدث الإنقسام في الكنيسة بالذات ، بدأت المجموعة
المسيحية اللاتينية ، والمجموعة المسيحية اليونانية ، تسير كل منهما في اتجاه
خاص ، على أساليب من الفكر مختلفة ، وتحت تأثير عوامل في الحياة
متباينة . ولما نزلت قبائل الجرمان المتبربرة من الشمال ، ومزقت شمل
الغرب اللاتيني ، وانتزعه من ساطان الإمبراطور الروماني ، الذي كان
مقره بيزنطة ، سارت الكنيسة في الغرب في مسرى مستقل ، واتخذت
طريقها الخاصة في التاريخ .

وقدر لتاريخ المسيحية في مستقبل الأجيال ، أن تتصل اتصالاً وثيقاً
بعالم الغرب ، وأن تكون المسيحية اللاتينية ، من أهم العوامل في تطور
هذا التاريخ . أما المسيحية الشرقية ، فقد إنطوت على تقاليد لها ، وجمدت
في تفكيرها ، وكان لهذا الجمود أثره البالغ في مستقبل تاريخها . أجل ،
برز في هذه الفترة كتاب أجلاء ، أمثال الآباء الكبدوكيين الذين أشرنا

إليهم من قبل - والذين كانوا في المرتبة الأولى من مفكرى عصرهم ، وقد أخصبوا الفكر المسيحى بكتاباتهم ومؤلفاتهم . كذلك برز فيما بعد القديس يوحنا الدمشقى (٦٧٦ - ٧٥٧ م) ذلك اللاهوتى البارع ، الذى حلل العقائد المسيحية تحليلاً فلسفياً ، كما فهمته الكنيسة الأرثوذكسية . ولكن يمكن القول إجمالاً ؛ أن سير التفكير والابتكار فى الكنيسة الشرقية كاد يقف تماماً .

وكانت الإمبراطورية الشرقية البيزنطية ، حلقة من حلقات الإمبراطورية الرومانية القديمة ، فظلت الكنيسة خاضعة للبلاط الإمبراطورى فى بيزنطة ، كما كان حالها فى عصر قسطنطين وخلفائه ، وأمست شبه مصاحبة من مصالح الدولة ، وخلعت على الإمبراطور صفة مقدسة ، ولم يكن لبطريك القسطنطينية - وإن لقب بالمسكونى - مكانة البابا فى عالم الغرب .

اللغات القومية :

وفى بعض ولايات الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، نشطت اللغات القومية بين عامة الشعب ، وبقيت اليونانية لغة الخاصة والطبقات العليا ، ولما إنتشرت المسيحية بين عامة الشعب ، ظهرت مؤلفات مسيحية بهذه اللغات القومية : السريانية فى الجزيرة وبين النهرين ، والأرمنية فى أرمينية ، والقبطية فى مصر ، والأثيوبية فى الحبشة . وكان معظم هذه المؤلفات المسيحية الشرقية ، إما منقولاً نقلاً عن اليونانية ، أو مقتبساً من الآراء والتقاليد المسيحية اليونانية . على أنها تميزت ببعض الصفات القومية ، وكان من أثر ذلك ؛ ظهور نزعات قومية فى شئون الكنيسة ، تحدياً لكرسى القسطنطينية ، ولم يكن انفصال جمهرة المسيحيين فى مصر ، عن الأرثوذكسية اليونانية الشرقية فى القرن الخامس ، بسبب المشكلة التى

يسمونها « الطبيعة الواحدة » في ذات المسيح ، إلا ناشئاً في الواقع عن تلك النزعة القومية ، التي أحست بها بعض الولايات الشرقية .

هرقل وإنتصاراته :

وفي أوائل القرن السابع ، يعتلى الإمبراطور هرقل عرش الإمبراطورية الرومانية الشرقية — أو دولة الروم كما يسميها مؤرخو العرب . وقد كان وخلفاؤه الخمسة من أسرة واحدة ، اشتهر ملوكها بالخلق الكريم ، الكفاية في الحكم . وأفلح مؤسس الأسرة هرقل (٦١٠ - ٦٤١ م) ، في توطيد الأمن في ربوع إمبراطوريته ، ودفع غزوات الفرس .

وكان الفرس قبل اعتلائه العرش ، قد أغاروا في عهد عاهلهم خسرو الساساني ، على الجزيرة وبين النهرين وسورية ، وعبروا آسيا الصغرى ، وأقبلوا على خلقيدونية في سنة ٦٠٨ م . وفي السنة التالية ، فتحت لهم قيصرية في كبندوكية أبوابها . وبعد أن اعتلى هرقل عرش الإمبراطورية ، زادت هجماتهم شدة ، فدخلوا سورية في سنة ٦١٢ واستولوا على دمشق في سنة ٦١٣ ، وعلى فلسطين في سنة ٦١٤ وحمل عاهلهم الصليب الأصلي من بيت المقدس . وفي سنة ٦١٦ ، اجتاحوا مصر ثم توغلوا في آسيا الصغرى ، وحصنوا مدينة أنقرة لحماية خطوط مواصلاتهم .

وقد ظل هرقل مدة إثنتى عشرة سنة يتلقى هذه الضربات ، بما في طاقته من صبر وجاد ، ولكنه كان طيلة الوقت يعد عدته ، وينظم جيشه ، ويوحد جبهته الداخلية تأهباً للضربة القاضية . وقد استجاب الشعب إلى ندائه ، وعضده البطريك سرجيوس ، بطريك القسطنطينية يومئذ ، فوضع تحت إمرته كل كنوز الكنيسة وأموالها ، وألهب حماسة

الشعب في حرب صليبية جديدة ، لاسترجاع الأماكن المقدسة ، وإعادة الصليب الأصلي الذي صلب عليه المسيح ، وكان قد نهبه عاهل الفرس من بيت المقدس كما تقدم .

وفي خمس حملات متواليات ، يحطم هرقل شوكة الفرس ، فيسترد أذربيجان في سنة ٦٢٣ ، وأرمينية في سنة ٦٢٤ ، وكيلىكية في سنة ٦٢٦ ويهزم جيوش الفرس وحلفائهم ، الذين كانوا يحاصرون القسطنطينية . أما حملته الخامسة والأخيرة ، فقد استرد بها الجزيرة (بين النهرين) ، فاستولى على نينوى سنة ٦٢٧ ، واقتحم عاصمة الفرس سنة ٦٢٨ ، وخمل من هناك الصليب الأصلي في موكب ظافر إلى القسطنطينية ، ثم أعاده بنفسه إلى بيت المقدس . وغدا هرقل بفضل هذه الانتصارات المتوالية ، قائداً عظيماً من قادة الحروب ، الذين شاد التاريخ بذكرهم ، وكلل بالمجد هاماتهم . وتم له في سنة ٦٢٩ عقد صلح مع دولة الفرس .

وكان عليه الآن أن يعيد إلى الإمبراطورية وحدتها الدينية ، ويرد إلى أحضان الأرثوذكسية ، الولايات التي انفصلت بسبب مشكلة الطبيعة الواحدة ، وهى سورية وأرمينية ومصر ، التي أنشأت بعد انفصالها كنائس مستقلة . ويرجع تاريخ هذه المشكلة إلى مجمع خلقيدونية (٤٥١م) ، وكان قد قرر فيما قرره من قواعد الإيمان ، أن المسيح أقنوم واحد ذو طبيعتين . واعتصمت القسطنطينية بهذه العقيدة ، ولكن بعض كراسى المشرق ، مسوقين في الأغلب بنزعات قومية ، تحدوا القسطنطينية ، وتشبثوا بعقيدة الطبيعة الواحدة . وكان الأباطرة في موقف حرج ، فهم إذا هادنوا الولايات الشرقية ، أغضبوا رومية والغرب ، وإذا ضغطوا على الشرق ، تمردت عليهم هذه البلدان ، التي بدأت تختمر فيها المشاعر

القومية . على أن بعض الأباطرة ارتضوا السير مع المشرق ، ففي سنة ٤٨٢ ، أصدر الإمبراطور زينو قانوناً ، حابى به القائلين بالطبيعة الواحدة ، وقد أدى هذا إلى قطيعة بين الشرق والغرب استطالت إلى أربعين عاماً .

يوستنيان :

على أن الإمبراطور يوستنيان الأول وخلفاؤه (٥١٨ - ٦٠٩) ، ينتهجون سياسة جديدة ، ويصالحون الكنيسة الغربية ، ويلجأون إلى أساليب العنف والإرهاب ، لحمل ولايات المشرق التي شقت عصا الطاعة ، على الرجوع إلى أحضان الأرثوذكسية .

وكان يوستنيان ، مؤسس هذه الأسرة أعظمهم شأنًا ، وكان هو نفسه من أنصار قانون مجمع خلقيدونية ، ولكن زوجته ثيودورا ، كانت من أنصار الطبيعة الواحدة . ويقول أحد المؤرخين ، إن هذه المرأة الغربية الأطوار ، بدأت حياتها ممثلة وعاهراً ، وعرف عنها الخلاعة والتهتك . ويقول إنها كانت جذابة ، تنفذ نظراتها الخارقة إلى أعماق القلوب ، وإن تكن قصيرة القامة صفراء اللون . وبعد زواجها من الإمبراطور ، عافت رذائلها السابقة ، وأنشأت داراً لكفالة الساقطات ، لتكفر عن ذنوبها الماضية . وقد اشتهرت بالبخل والقسوة وحب السلطان ، وكانت صاحبة النفوذ في البلاط الإمبراطورى ، فاضطر يوستنيان تحت تأثيرها ، أن يخرج عن تقاليد أسرته ، ويصدر وثيقة يسترضى بها أنصار الطبيعة الواحدة ، ويحاول في الوقت نفسه ، أن يضمّن رضاء بابا رومية ، ثم عقد مجمعا عاماً في سنة ٥٥٣ م . أثر وثيقته ، وكان ذلك المجمع مظهراً

لسلطان الدولة ، التي أكملت يومئذ إرادتها على الكنيسة ، لأن الإمبراطور هو الذى استدعاه ورسم خطته ووضع قرارته .

على أن خلفاء يوستينيان عادوا إلى تقاليد الأسرة ، فراحوا يضطهدون أنصار الطبيعة الواحدة ، ويمعنون في القسوة عليهم والبطش بهم ، فزادت القطيعة ، وقويت النفرة ، فانفصلت الكنيسة في أرمينية . أما في سورية ، فكان بها كرسيان ، أحدهما يدين بالولاء لقرارات مجمع خلقيدونية ، والآخر يعتصم بنظرية الطبيعة الواحدة . وأتباع هذا الكرسي أطلقوا على أنفسهم « يعاقبة » . نسبة إلى كاهن يدعى « يعقوب البردعى » ، كان قد رسمه أسقف القسطنطينية السجين ، لخروجه على قرارات مجمع خلقيدونية ، وبعد رسامته ، فر الكاهن بمعونة أحد أمراء العرب النصارى الفساسنة إلى سورية ، متخفياً في ثياب شحاذ . ويقال إنه رسم أكثر من ثمانين أسقفاً وألوفاً من الكهنة .

واعتنقت مصر أيضاً عقيدة الطبيعة الواحدة ، وكان الشعور القومى في تلك الفترة مضطرباً ، فلما عزل بطريرك الإسكندرية ، نظر الشعب إلى خليفته كأنه صنيعة الغاصبين ، وظل الشجار محتدماً مائتي سنة بين الملكيين — وهم حزب الإمبراطورية الناطق باليونانية — وبين المصريين الوطنيين — وهم أبناء الشعب ، الذى كان يتكلم لغة مصرية قبطية ، ويعتصم بعقيدة الطبيعة الواحدة . وقد استنكر الشعب إملاء الأجنبي الغاضب ، وأبغض حكم دولة الروم بغضاً شديداً ، حملة على أن يفتح ذراعيه للعرب الغزاة في سنة ٦٤٢ م — وقد بقيت الكنيسة القبطية حتى اليوم ، على عقيدة الطبيعة الواحدة ، وما يزال هذا الفارق قائماً بين الكنيستين القبطية واليونانية .

قلنا إن هرقل جاول — بعد أن هزم دولة الفرس — أن يستعيد وحدة الإمبراطورية الدينية ، ولم تخل هذه المحاولة من أساليب القهر والإعنات . وكانت في المشرق أربع بطريركيات : القسطنطينية وكانت يونانية في صيغتها ، وأنطاكية وكانت سريانية في لغتها وإحساسها ، والإسكندرية وكانت قبطية مصرية . وأورشليم وكانت في ذلك العصر أقل الكراسي شأنًا . وبينما رنت أنطاكية بأبصارها إلى بطرس الرسول مفاخرة بأنه مؤسسها ، وبينما اعتزت الإسكندرية بنسبها إلى مرقس الرسول ، فإن القسطنطينية تشاغت لأنها كانت مقر الإمبراطور ومركز السلطان في الإمبراطورية . وقد وضعها مجمع خلقيدونية فوق جميع الكراسي ماعدا روميه ، وقد سعت سعياً حثيثاً لبسط سلطانها على البطريركيات الأخرى . وكان طبعاً أن يطمح أسقف العاصمة الإمبراطورية ، في هذه السلطة الأنوقراطية ، ولكن البابوية لم تفلح في الشرق مثلما أفلحت في الغرب ، بسبب الحزازات العنصرية واللغوية ، ولم تكن اللغة اليونانية في الشرق لغة جامعة في العبادة الدينية ، كما كانت اللغة اللاتينية في الغرب .

من ثم نرى الكنيسة في الشرق ، تعبت بها أيدي التفرقة بالجدل الديني ، وتنسرب إليها عوامل النفرة والانقسام لأسباب ، في ظاهرها دينية كمشكلة الطبيعة الواحدة ، وفي باطنها قومية عنصرية . ونرى الدولة موهنة للعزمات ، بعد حملاتها المتوالية على الفرس . وفي هذه الأزمة تقف الدولة والكنيسة معاً ، أمام قوة جائحة تطلع من البادية ، هي قوة العرب التي اكتسحت أمامها دولة الروم ، وأصابته الكنيسة الشرقية بطعنات في الصميم ، فلم تقو على الصمود بسبب جمودها وتخاذل فروعها وضعف شرايين الحياة فيها .

العرب والكنيسة الشرقية :

وقد بدأت غزوات الإسلام في النصف الأول من القرن السابع ، فاجتاحت أولا دولة الفرس ، التي كانت موطن النساطرة المسيحيين ، وقد أتمت القضاء على دولة الفرس في سنة ٦٥١ م ، حينما فر آخر ملوكها « يزجرد » إلى ما وراء تخوم بلاده ، وفي سنة ٦٣٤ م سقطت دمشق بأيديهم ، واستولوا على بيت المقدس سنة ٦٣٧ م ، وفي سنة ٦٣٨ م أغاروا على مصر ، فاستولوا على الإسكندرية . ويقال إن أقباط مصر رحبوا بقلوهم للتخلص من إعنات قياصرة الروم ، وأن العرب أكرموا البطريك القبطي المصري بنيامين ، وأحسنوا إليه ، ومنحوه السطة الدينية على رعاياه .

وبعد استيلائهم على الإسكندرية ، تيسر للعرب القيام بحملات بحرية ، فحاصروا القسطنطينية (٦٦٨ — ٦٧٤) ، ولكنهم ردوا عنها خائبين . وسقطت قرطاجة بأيديهم في سنة ٧٠٣ ، وبسقوطها دانت لهم دولة القانдал في أفريقية الشمالية . وفي سنة ٧١١ م عبروا البحر إلى أسبانيا فاجتاحوها كلها ، وكادت جيوشهم تتخطى نهر اللوار في فرنسا ، لتكتسح دولة الفرنجة في الغرب ، كما قضوا على دولة الروم في الشرق ، لولا أن تصدى لهم « كارل مارتل » ، فأنقذ الكنيسة الغربية من المصير الذي حل بالكنيسة الشرقية .

وكانت أمة الروم خصيبة المواهب ، لم تلبث أمة من قبل ولا بعد ، في غزارة الخيال ، وعمق التفكير ، وروعة الثقافة ، فالحمال في الطرقات تفلسف ، وحوانيت الحلاقين والحانات والفنادق ، تجاوزت في جنباتها أصداء المنازعات والمناقشات الجدلية حول أسرار الدين ، وحفلت بأحداث

العامّة بالمشاكل الدينية واللاهوتية . ولكن تلك الأمة العريقة ، التي بزت كل أمم الأرض في التفكير وخصوبة العقل ، قد اجتاحتها دولة العرب ومزقتها شراً ممزقاً ، بحيث لم تقم لها قائمة من بعد . وعلى أثر هذه النهضة العربية ، شهد الشرق ثقافة عربية بدلا من الثقافة الإغريقية . وقد تفوقت تلك الثقافة العربية على ثقافة القرون الوسطى ، في الرياضيات والعلوم الطبيعية والفلسفة ، وكان لها بعض الفضل في إحياء ثقافة القرون الوسطى . وقد امتازت ثقافة العرب بالهدوء في التفكير ، وبالخيال الشعري الشرقي الخلاب ، على أنها كانت بلا شك ، دون الثقافة الإغريقية القديمة .

ذهبت دولة الروم ، وقامت على أنقاضها دولة العرب ، وبسقوط دولة الروم ، سقطت معها الكنيسة اليونانية الشرقية . نعم بقيت قائمة كراسى الإسكندرية وأنطاكية والقدس ، وتمتعت بالتسامح الذي منحه إياها العرب ، ولكن قوة التطور والنماء ، وقفت جامدة في بزنطة والإسكندرية .

وكانت مشكلة الأيقونات والصور في الكنائس ، إحدى المشاكل التي أثارت الإنقسام بين الأقباط والزعماء . وقد بدأها الإمبراطور ليو — وهو ذلك الجندي الباسل ، الذي أنقذ القسطنطينية وصد العرب عنها — فأصدر في مستهل القرن الثامن مرسوماً ، يقضى بتدمير كل التماثيل في الكنائس ، ومحو الصور والنقوش . وكانت تلك قد غدت أشبه بعبادة الأوثان . وأمل الإمبراطور من وراء هذا الإصلاح ، أن يستميل اليهود والمسلمين إلى المسيحية النقية . ولكن نفوذ الرهبان ، وحاجة الشعب إلى المظاهر الخرافية ، كانت أقوى من الإمبراطور وجيشه ، واتفق أساقفة أورشليم وأنطاكية والإسكندرية ، على إبقاء الصور والأيقونات ، وكان قرارهم فاصلاً في

مجمع نيقية (سنة ٧٨٧ م) ، وهو المجمع المسكوني السابع ، الذي اعتبر الأيقونات والصور ذكريات مقدسة . وكانت حججهم في هذا الإبقاء ، أن الصورة للأُمى الجاهل ، هي بمثابة الكتاب للمتعلم .

يوحنا الدمشقي :

وفي أواخر القرن السابع يظهر — كما أسلفنا القول — العالم الكبير يوحنا الدمشقي وهو من أشهر العلماء اللاهوتيين الذين أنجبتهم الكنيسة الشرقية . ولد في دمشق في أواخر القرن السابع ، وكان اسمه العربي « المنصور » ، وأطلق عليه لفصاحة بيانه وذلاقة لسانه « صاب الذهب » . وكان والده سرجيوس مسيحياً ، ولي وظيفة من وظائف الدولة في حكم خلفاء بني أمية في دمشق ، وقد خلفه ابنه يوحنا في وظيفته هذه .

وكان الدمشقي من زعماء حزب الصور والأيقونات ، فكتب وهو بعد في وظيفته ، سلسلة بحوث دفاعاً عنها . وقد استبدت به نزعة روحية داخلية ، فطلق وظيفته الحكومية ، وتنازل عن كل مقتنياته العالمية ، وهرع إلى دير مار سابا على مقربة من القدس ، حيث قضى بقية حياته . وقد رسم كاهناً بيد بطريرك بيت المقدس ، وفي أواخر حياته ، جال في سورية يخطب دفاعاً عن بقاء الأيقونات والصور في الكنائس ، وزار القسطنطينية في عهد الإمبراطور قسطنطين كوبرونيوموس ، معرضاً حياته لخطر داهم .

وقد جمع عقائد الكنيسة في سفر لاهوتي فلسفي رتيب ، وعالج نظريات الهرطقة والملحدين وحللها تحليلًا بارعاً ، وأفرد قسماً في أحد مؤلفاته لعقائد الإسلام ، وكتب حديثاً ثنائياً على لسان مسيحي ومسلم ، وضع

على لسان كل منهما أدلته المنطقية لإثبات دينه ، وقد دل هذا الحديث
الجدلى ، على تعمق فى علم اللاهوت ، وبراعة فى المنطق والإقناع .

وكان من بواعث الفارقة بين الشرق والغرب ، كلمة أضيفت إلى
العبارة الخاصة بالروح القدس فى قانون الإيمان النيقوى ، وهى « المنبثق
من الآب والابن » . فلقد اعترض الشرق على الغرب لإضافته كلمة
« الابن » ، وأصر على أن تبقى العبارة « المنبثق من الآب » فقط .
وللقديس يوحنا الدمشقى رأى للتوفيق والمصالحة ضمنه إحدى رسائله ،
فلقد اقترح أن تصاغ العبارة « المنبثق من الآب بالابن » إرضاءً للفريقين .
ولم يصغ أحد إلى نصحه يومئذ ، لأن منشأ الخلاف فى الواقع بين
الكنيستين الشرقية والغربية ، لم يكن هذه اللفظة ولا غيرها من عقائد
الدين ، بل هو حب الرئاسة ، والتنازع السياسى ، والتباين الفكرى
واللغوى بين اليونان واللاتين . على أنه بعد إنقضاء قرون طوال ، أخذ
أنصار وحدة الكنيسة فى القرن العشرين ، يفكرون جدياً فى هذا الرأى
الذى تشرحه يوحنا الدمشقى اللاهوتى الشرقى فى القرن السابع .

وكانت أبحاثه ومصنفاته آخر مجهود عقلى للمسيحية اليونانية . وبعد
هذا التاريخ ، انطفأت شعلة النجاج الفكرى فى الكنيسة الشرقية ، وأمست
حالة على الدولة . وكل الذى فعلته الكنيسة الشرقية بعد ذلك ، أن سلمت
عناصر ثقافتها القديمة وعقائدها ، تراثاً إلى العناصر الصقلية ، التى كانت
قد أعوزتهم القوة الكافية ، لإحياء العالم اليونانى ، فبقيت أمة اليونان
والكنيسة اليونانية على ما هى عليه .

تَارِيخُ الْمَسِيحِيَّةِ

المسيحية في العصور الوسطى

بقلم

جَادُ الْمَنْفِلُوطِي



دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية
٣٦ شارع الجلاء - القاهرة
تليفون ٩٧١٦٥٥

دار الجيل للطباعة ١٤ قصص المرأة - النجالة
تليفون ٩٠٥٢٩٦

<http://www.al-maktabeh.com>

<http://www.al-maktabeh.com>

مقدمة

فترة العصور الوسطى في تاريخ المسيحية ، هي الفترة التي تمتد من عام ٥٩٠ إلى عام ١٥١٧ للميلاد ، وإن كان بعض المؤرخين ، يتخذ عام ٦٠٤ الميلادي ، بداية لهذه الفترة الحافلة من تاريخ المسيحية .

وقد سميت بالعصور الوسطى ، لتوسطها بين فترتين متميزتين من تاريخ المسيحية ، أولاهما هي فترة الظهور والإنتشار ، والنمو والإزدهار ، والأخرى هي فترة عصر الإصلاح البروتستانتي ، الذي بدأه « مارتن لوتر » ، في القرن السادس عشر .

وفترة العصور الوسطى هذه ، يصفها بعضهم بأنها العصور المظلمة ، وقد حق أن تدعى كذلك ، لأن الشعلة المسيحية التي بدأت مضيئة متوهجة ، فاستنار بنورها الشعب الجالس في الظلمة ، هذه الشعلة المباركة ، أمتست في فترة العصور الوسطى ، وقد خبا نورها ، فلم تعد أكثر من فتيلة مدخنة على وشك أن تنطفئ ، إذ تحالفت عليها رياح وأعاصير متعددة ، حاصرتها وحصرتها .

ويجب ألا ننسى ، أن تاريخ المسيحية في العصور الوسطى ، لا يمثل تاريخ المسيحية بوجه عام ، لكنه يركز بوجه خاص ، على تاريخ المسيحية في الغرب ، التي أمكنها أن تقف صامدة في وجه الغزو البربري ، الذي اجتاح دول أوروبا في بداية العصور الوسطى ، لا بل إنها لم تلبث أن إحتوت الغزاة ، الذين وإن كانوا قد أحرزوا الكثير من الإنتصارات العسكرية ، إلا أنهم إنهمزوا دينيا ، وانضوا تحت لواء الكنيسة ، على النقيض تماماً

لما حدث في الشرق . عندما تعرضت بلدانه لغزوات لم تصمد أمامها ، من جانب الجيوش الإسلامية ، بعدها جمدت وتجمدت الأوضاع في المراكز الدينية الكبرى ، في كل من أنطاكية والإسكندرية ، وبيت المقدس والقسطنطينية .

ومن خلال ما سنعرضه ونعرض له من أحداث هذه الفترة ، سوف يتضح لنا ، أن رب الكنيسة وحاميها ، كان يقيض لها في كل عصر ، نجوما لامعة ، وكواكب ساطعة ، تبزغ من بين سدف الظلام ، شهادة حية وناطقة ، بأن الله – سبحانه – هو العامل في التاريخ ، الموجه لأحداثه ، وهو الذي يحمي كنيسته ويحرسها ، ويحفظ إيمانها وعقيدها ، تراثا خالدا للبشرية ، ونورا يهدي الناس إلى ما فيه صلاحهم وحياتهم الأبدية .

الفترة الأولى

بداية العصور الوسطى

(٥٩٠ - ١٠٧٣ م)



الأحوال في الغرب

[جثة ونسور - الغزو الاسلامي - الكنيسة الصامدة في الغرب - امبراطورية شارلمان - البابا يتوج شارلمان امبراطورا - الامبراطورية الرومانية المقدسة - الامبراطورية الشرقية]

جثة ونسور :

ظلت الإمبراطورية الرومانية تقاوم غزو البرابرة وهجماتهم ، ردحا طويلا من الزمان ، لمتد إلى ستمائة عام .

وحوالى القرن الرابع الميلادى ، بدأت مقاومتها تتداعى وتهار ، تحت ضغط موجات الغزو المتلاحقة ، التى راح يشنها عليها أولئك البرابرة الأجلاف .

فى عام ٤١٠ م ، سار « ألاريك » على رأس جيش جرار من القوطيين إلى روما ، حيث أعملوا فيها السلب والنهب . كما ولى القوط الغربيون وجوههم صوب أسبانيا وجنوب بلاد الغال (فرنسا حاليا) ، وهناك استقروا .

أما الفرنجة ، فحطوا الرحال فى منطقة الراين وشمال فرنسا . وفى شرق الراين والدانوب ، استقر البورغنديون والقوط الشرقيون ، الذين

غزوا شمال إيطاليا ، وفي أعقابهم ، غزاها اللومبارديون ، والقوطيون ،
والسكسونيون .

وفي عام ٤٥١ ، اكتسح الجزء الباقي من إيطاليا ، جيش المغول
الهونيين بقيادة « أثيلا » ، ثم بعد ذلك استولى الأفاريون والسلافيون
والصربيون ، على أراضي الدانوب ومعظم بلاد البلقان .

وبعد ما واطدوا حكمهم في أسبانيا ، قام القوطيون في عام ٦٢٤ ،
بطرده البقية الباقية من الولاة الرومانيين ، الذين كانوا ما يزالون هناك .

هذا كله يكشف لنا الصورة الحقيقية للإمبراطورية الرومانية ، في
بداية العصور الوسطى ، ويرينا كيف أنها كانت جثة ميتة ، تجمعت عليها
نسور الغزاة ، الذين راحوا ينهشونها ، وقد أخذ كل نسر منها نصيباً .

ونود أن نشير هنا ، إلى أننا عندما نذكر « الإمبراطورية الرومانية » ،
فإننا بذلك نعني القسم الغربي من الإمبراطورية ، ذلك القسم الذي كان
يتخذ اللاتينية لغة ، ورومية عاصمة ، مذكرين بأن القسم الشرقي من
الإمبراطورية الرومانية ، كان معروفا باسم الإمبراطورية الشرقية ، أو
البيزنطية ، نسبة إلى عاصمتها بيزنطة . وهذه الإمبراطورية الشرقية ،
كانت تتخذ اليونانية لغة لها .

كما لا يفوتنا أن نشير ، إلى أن الإمبراطورية الشرقية ، هي المعروفة
عند المؤرخين العرب ، باسم « دولة الروم »

الغزو الإسلامي :

فيما بين عامي ٦١٣ ، ٦٢٩ م ، كان الفرس قد بسطوا نفوذهم ، على

كل من مصر وسوريا وفلسطين ، وامتد نفوذهم حتى شمل منطقة آسيا الصغرى إلى مضيق البوسفور .

لكن الإمبراطور « هرقل » ، الذى اعتلى عرش الإمبراطورية الشرقية ، فى أوائل القرن السابع ، استطاع أن يحطم شوكة الفرس ، ويسترد من أيادهم أذربيجان ، وأرمينية ، وكيلىكية ، وبين النهرين (العراق) ، ومصر ، وسوريا ، وفلسطين .

وفى عام ٦٢٨ ، إقتحم عاصمة الفرس ، واستولى على الصليب الأصى ، وحمله فى موكب عظيم إلى القسطنطينية ، ومن هناك أعاده إلى مدينة القدس .

فى نفس تلك الفترة ، كان الأمر قد استتب للمسلمين فى شبه الجزيرة العربية ، فاتجهت أنظارهم إلى العالم الخارجى ، وانطلقوا حاملين لواء الدعوة إلى الدين الجديد ، واجتاحت جيوشهم دولة الفرس التى كانت موطننا للمسيحيين النساطرة (أتباع نسطور) .

وفى عام ٦٣٤ ، استولت جيوش المسلمين على مدينة دمشق ، وفى عام ٦٣٧ ، سقطت فى أيديهم مدينة القدس . وفى عام ٦٣٨ ، أغارت الجيوش الإسلامية على الإسكندرية ، ويذكر المؤرخون أن أقباط مصر ، رحبوا بقدوم المسلمين ، لكى يخلصوهم من عنت الرومان وظلمهم واضطهادهم ، الذى كان سببه ما بين الأقباط والرومان من اختلافات عقائدية ، إذ كان القبط يؤمنون بأن المسيح أقنوم ذو طبيعة واحدة ، بينما كان أباطرة الرومان عموماً ، يناصرون العقيدة التى أقرها مجمع خلقيدونية (٤٥١ م .) ، والقائلة بأن المسيح أقنوم واحد ذو طبيعتين .

وبعد استيلاء العرب على مدينة الإسكندرية ، صار في مقدورهم القيام بحملات بحرية ، فحاصروا القسطنطينية ما يقرب من سبع سنوات (٦٦٨ - ٦٧٤) ، غير أنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها . وظلت القسطنطينية عاصمة للإمبراطورية الشرقية ، إلى أن وقعت في يد الأتراك في عام ١٤٥٣ ، وكان هذا خاتمة عهدا بالكرسي البطريركي التاريخي .

وفي عام ٧٠٣ ، سقطت قرطاجة في أيدي العرب ، وبسقوطها خضعت لهم دولة الفانداليين في شمال أفريقيا .

وفي عام ٧١١ ، عبر المسلمون البحر إلى أسبانيا فاكتمسحوها وكادت جيوشهم تتخطى نهر اللوار في فرنسا ، لكي تجتاح دولة الفرنجة في الغرب ، وتقضي عليها ، كما قضت من قبل على نفوذ دولة الروم في الشرق .

غير أن قوات الفرنجة ، بقيادة « كارل مارتل » ، تصدت لهم ، وفي عام ٧٣٢ ، قامت بين الفريقين معركة فاصلة بالقرب من مدينة تورز ، وفي هذه المعركة ، رجحت كفة قوات الفرنجة ، التي تمكنت من صد القوات المهاجمة ، وهكذا ، جنبوا الكنيسة في بلاد الغرب ، مواجهة المصير الذي واجهته الكنيسة في الشرق .

الكنيسة الصاعدة في الغرب :

يعوزنا الوقت إن شئنا أن نصف ما آلت إليه الأوضاع في ربوع الإمبراطورية الرومانية الغربية ، تلك الإمبراطورية التي نكست أعلامها ، وانطوت بانطوائها ، حضارة زاهرة ، وثقافة باهرة ، إنسحبت ، ليحل محلها ، عصر اتسم بالفوضى والخراب الضارب الأطناب .

ففي أوروبا الغربية بالذات ، لم تكن هناك في ذلك الوقت ، قوة مدنية تستطيع أن تحافظ على الأمن ، وتصون النظام ، وتحمي الحضارة . فكل الممالك التي أقامت القبايل الهمجية ، التي اكتسحت دول أوروبا الغربية ، تلك الممالك ، لم ترق إلى مستوى الدول المتحضرة ، أو الأنظمة المستقرة ، لأن حكامها ، كانوا يقيمون حكمهم ، على أساليب البطش والقهر والإذلال ، الأمر الذي تعذر معه قيام حكومات نظامية تستند إلى حكم وسيادة القانون .

لكن في هذه الفترة ، التي نكس فيها النسر الروماني أعلامه ، بقي علم واحد مرفوع ، يرفرف فوق الرؤوس ، ذلكم هو علم الصليب ، ظل مرفوعاً بيد الكنيسة ، التي بقيت بمفردها في الساحة صامدة ، تواجه العاصفة بثبات ، يتضاءل أمامه ثبات الرواسي الرواسخ .

وفي خلال فترة الحراب والدمار الذي حل بروما على أيدي الغزاة ، وعدم وجود سلطة زمنية ترعى شئون المواطنين ، وتقدم العون للمكوبين والمشردين ، كان البابا لا يألو جهداً في العمل على تخفيف آلام رعاياه ، ويحثهم على التجلد والثبات في مواجهة الآلام ، وتحملها بشجاعة ورسوخ في الإيمان . فالتجهد أبصار الناس إلى الكنيسة ، وإلى البابا ، كالملاجئ والملاذ .

وكما فتحت الكنيسة أحضانها لرعاياها ، مدت يدها أيضاً إلى الغزاة ، وتمكنت من احتوائهم ، فقبلت جمافل الجرمان المسيحية ديناً ، وبدلاً من مهاجمتها وتخريب منشئاتها ، أصبح هؤلاء الغزاة حراسها ، وحماها ، والمدافعين عنها .

وكان للفراغ السياسى الذى نتج عن خلورومية من العرش الإمبراطورى بعد تخلى الإمبراطور « رومولس أغسطولس » عنه فى عام ٤٨٥ ، كما سلفت الإشارة ، هذا الفراغ السياسى ، وجدت فيه الكنيسة فرصة سانحة ، لتحرر من الكثير من القيود . لأنه فى خلال تلك الفترة ، كانت رومية تابعة للعرش الإمبراطورى الشرقى فى القسطنطينية ، ونظراً لبعد الشقة ، لم يكن من الميسور أن يستمر الإشراف الإمبراطورى على الكنيسة .

وإبتداء من عهد الإمبراطور « قسطنطين بوجوناتوس » (٦٦٨-٦٨٥) ، إنتهى تدخل الإمبراطور فى موضوع اختيار الباباوات وتعيينهم ، كما تم إعفاء الباباوات من دفع الجزية لخزينة الدولة ، ثم لم تلبث الأوضاع أن تغيرت ، وأصبح أمراء المقاطعات هم الذين يدفعون الجزية للبابا . وقد حدث أن امتنع « فيلكس » حاكم رافنا ، عن دفع الجزية التى طلبها منه البابا « قسطنطين » (٧٠٨-٧١٥) ، فأرسله إلى القسطنطينية ، حيث حوكم أمام الإمبراطور « يوستينيان الثانى » ، الذى اعتبره خارجاً على القانون ومتمرداً ، وأصدر حكمه عليه ، بأن تقلع عيناه ، ولم يكتف الإمبراطور بهذا ، لكنه أتبع حكمه بأن قدم بنفسه فروض الطاعة والولاء للبابا .

وعندما قام اللومبارديون بطرد الوالى الرومانى من رافنا ، وجد البابا أنه من غير المحدى أن يطلب الحماية من الامبراطور ، الذى كان فى ذلك الوقت مشغولاً بمواجهة الغزو الإسلامى .

وكان البابا « اسطفانوس الثانى » ، رجلاً حكماً يزن الأمور بميزان دقيق ، فلجأ إلى ملك الفرنجة الصاعد « بين » ، الذى أفلح فى طرد اللومباردين من رافنا ، وأعادها إلى دائرة نفوذ الإمبراطور الرومانى .

إمبراطورية شارلمان (٧٦٨ - ٨١٤) :

عندما توفي ملك الفرنجة « بيبين » في سنة ٧٦٨ م ، خلفه في الحكم ابنه « شارلمان » وكان يشترك معه في الحكم أخوه الأصغر « كارلومان » ، الذي مات في عام ٧٧١ ، فانفرد وحده بالحكم ، وكان اسمه « تشارلس » .

وقد خضعت له كل الأمم الجرمانية ، وكانت كلها مسيحية إسما . ولما كانت قبائل السكسونيين القاطنين على الساحل الشمالى الشرقى ما تزال وثنية ، شن عليهم الملك « شارلمان » في عام ٧٧٧ ، حرباً دينية لإرغامهم على إعتناق الدين المسيحى ، وقد استمرت تلك الحرب فترة طويلة ، هرب فيها من هزب ، وأرغم الباقون على الدخول فى المسيحية ، وبدلاً من الأسر التى هربت بأكملها إلى الشمال ، قام الملك بتوطين آخرين مكانهم ، ممن يدينون له بالولاء ، لتعمير المناطق التى خلفها وراءهم أولئك الوثنيون الهاربون .

وقد حقق « شارلمان » العديد من الانتصارات ، وامتد حكمه من شواطئ الألب فى ألمانيا ، حتى بلغ إمبرو فى شمال أسبانيا ، ومن الساحل الغربى للمحيط الأطلنطى ، إلى ما وراء قيينا شرقاً ، وقد ضمت مملكته كذلك منطقة شمال إيطاليا .

وتميز « شارلمان » بقوة وحكمة بالغتين ، فى إدارة دفة الحكم فى مملكته المترامية الأطراف . ولأول مرة بدأت طلائع النور زحفها من جديد ، وراحت تطارد جحافل الظلام الفكرى ، التى كانت قد بسطت سحائبها على أوروبا الغربية ، منذ بدء الغزو البربرى لها . إذ راح ذلك الرجل العظيم ، يشجع رجال العلم على أداء رسالتهم ، فى تثقيف

العقول ، كما شجع حركة تشييد الكنائس ، والأديرة ، والمدارس الملحق بها .

وكان « شارلمان » مسيحياً ، وقد استخدم نفوذه في نشر الدين المسيحي ، وتشجيع المعلمين المسيحيين ، وتسهيل مهمتهم في نشر التعاليم المسيحية . لكن يؤخذ عليه ، أنه شن عدة حروب لإرغام الوثنيين على إعتناق المسيحية ، لأنهم دخلوها مرغمين لا مؤمنين ، فاحتفظوا بعقائدهم وعوائدهم الوثنية ، الأمر الذي أدى بمرور الزمن ، إلى دخول هذه الشوائب ، إلى العقيدة المسيحية ، والتصاقها بها ، والذي حمل الكنيسة فيما بعد الكثير من المشقات .

البابا يعوج « شارلمان » إمبراطوراً (٨٠٠ م)

وكحاكم مسيحي لغرب أوروبا ، لم يكن لشارلمان ، بد من إقامة علاقات مع البابا ، باعتباره رأس الكنيسة الغربية ، وقد نهج في هذا الطريق ، في خطوات والده « بين » ، الذي كان قد مهد له السبيل ، لإقامة مثل هذه العلاقة ، عندما استجاب لنداء البابا ، وقام بطرد جمحافل البرابرة الوثنيين التي كانت تهدد رومية . وقد مد « شارلمان » يد العون للباباوات في عصره .

وفي يوم الإحتفال بعيد الميلاد المجيد ، في سنة ٨٠٠ م ، وبينما كان « شارلمان » يشترك في الإحتفال بالعيد في رومية ، قام البابا « ليو الثالث » بوضع تاج من ذهب على رأسه ، وقد كان لهذا التتويج صدهاء الطيب في نفوس الناس ، الذين راحوا يعلنون ترحيبهم بالإمبراطور الجديد ، الذي اعتبر خلفاً للقيصرة القدامى ، كما اعتبر تتويجه بعثاً للإمبراطورية الرومانية

تلك الإمبراطورية التي كان لها تأثيرها العميق في نفوس الشعوب في دول غرب أوروبا ، الذين لم يكن يخطر في بالهم على الإطلاق ، أن تقوم إمبراطورية أخرى ، غير تلك الإمبراطورية العريقة .

وتعبيراً عن ارتباطه بالكرسی البابوي ، اعتبر « شارلمان » مدينة رومية واحدة من عواصم إمبراطوريته

لكن تلك الإمبراطورية في حقيقتها ، كانت إمبراطورية جرمانية ، لأن جميع الذين جلسوا على عرشها ، كانوا من الجرمان ، لا تربطهم بالرومان صلة ما ، رغم أنها كانت تدعى الإمبراطورية الرومانية .

وبعد موت « شارلمان » ، ثم تقسيم الإمبراطورية بين أحفاده إلى ثلاث ممالك ، وهكذا سقطت الإمبراطورية الرومانية مرة أخرى ، لكن إلى حين .

الإمبراطورية الرومانية المقدسة :

في القرن العاشر الميلادي ، قام ملك جرمانى عظيم ، هو الملك « أوتو الأول » ، بتأسيس الإمبراطورية الجرمانية من جديد ، وكانت تضم سويسرا وشمال ووسط إيطاليا .

وقام البابا بتتويج الإمبراطور في سنة ٩٦٢ م ، وبهذا تم إحياء إمبراطورية « شارلمان » ، غير أن الإمبراطورية الجديدة ، حملت اسم الإمبراطورية الرومانية المقدسة . وكانت هذه الإمبراطورية هي القوة السياسية الرئيسية والمؤثرة ، طوال فترة العصور الوسطى ، واستمرت كذلك حتى عام ١٨٠٦ م ، رغم أنها كانت قد بدأت تتداعى ونهار ، بعد انتهاء القرن الثالث عشر الميلادي .

وقد سميت بالإمبراطورية الرومانية ، باعتبارها استمراراً للقوة التي كانت تمثلها الإمبراطورية الرومانية القديمة ، وهذا هو عين السبب ، الذي أدى إلى إطلاق هذا الاسم ذاته من قبل ، على إمبراطورية « شارلمان » .

أما تلقيها بالمقدسة ، فيرجع إلى اعتبارها إمبراطورية ذات صبغة دينية . وكان الناس يعتبرون أن ملكوت الله في العالم له ممثلان ، أحدهما هو الإمبراطور ، وسلطانه يمتد إلى كافة الشؤون السياسية والزمنية ، والآخر هو البابا ، الذي يمتد سلطانه إلى الشؤون الروحية والأبدية . وتبعاً لهذا ، كانوا يعتبرون أن كلا من الإمبراطورية والكنيسة ، تضم الناس أجمعين ، مع أن الحقيقة كانت خلاف ذلك ، لأنه كانت في أوروبا الغربية ، مناطق غير خاضعة لسلطان الإمبراطورية .

وعلى هذا الأساس ، كان الاعتقاد السائد ، هو أن المجتمع البشرى يجب أن يخضع لسلطان هذين النظامين المقدسين . ومن الواضح الآن ، أن هذا الاعتقاد كان خاطئاً ، لأنه من المتعذر تقسيم السلطة بالقسط ، بين حاكمين متساويين هما البابا والإمبراطور ، لأنه لا بد أن تستأثر إحدى السلطتين (الإمبراطورية أو الكنيسة) ، بقدر أوفر من السلطة ، وتكون لها السيادة على الأخرى . وسنرى فيما بعد ، كيف لعبت هذه الحقيقة دوراً خطيراً على مسرح الأحداث ، في مراحل تالية من تاريخ الكنيسة .

الإمبراطورية الشرقية :

في هذه الفترة الحافلة بالأحداث ، والتي شهد فيها الغرب الكثير من التغيير ، كانت الإمبراطورية الشرقية تمارس سلطتها من القسطنطينية ، وكان أباطرتها يعلنون أنهم دون سواهم ، خلفاء الحكام الرومان ، والوارثون

وخدمهم لعرش الإمبراطورية الرومانية ، كما كانوا ينكرون على الحكام
الجرمان في الغرب ، أى من حق حقوق السيادة والحكم .

لكن هذه الإمبراطورية - الشرقية - كانت قد فقدت الكثير ،
بسبب الفتوحات الإسلامية ، التي استولت على الكثير ، من المناطق التي
كانت خاضعة لهذه الإمبراطورية في كل من آسيا وأفريقية ، إلا أنها رغم
ذلك كله ، ظلت فترة طويلة ، حاجزاً يحد من إمتداد الغزو الإسلامى
إلى أوروبا ، بسبب مقاومتها المستمرة لهذا الغزو ، في المناطق التابعة لها ،
في بلدان شرق أوروبا .



٢

الزحف المقدس

[بعثات تبشيرية الى انجلترا - بعثات تبشيرية الى ألمانيا - بعثات تبشيرية الى الدنمرك والسويد - أنسكار - بشارة الانجيل في النرويج وأيسلندة وجرينلاند - المسيحية تدخل الى جنوب شرق أوروبا - المسيحية تدخل الى روسيا - المسيحية تدخل الى هنغاريا وبلدان الشرق الأقصى] .

بعثات تبشيرية إلى إنكلترا :

عندما اجتاحت الأنجلو سكسون الوثنيون إنكلترا ، طردوا إلى الأجزاء الغربية من الجزر البريطانية ، كثيراً من سكانها الأصليين (البريطانيين) ، وهؤلاء حملوا معهم عقيدتهم المسيحية ، التي كانت قد نمت وترعرعت ، وبلغت حداً بالغاً من القوة ، وكانت المسيحية قد دخلت إلى الجزر البريطانية ، في القرن الثالث الميلادي .

لكن هؤلاء الغزاة ، واجهوا غزواً من طراز آخر ، لم يستطيعوا الصمود أمامه ، وأعنى به الغزو المسيحي ، مع أنه كان غزواً سلمياً . وقد جاء هذا الغزو إلى بريطانيا من مصدرين :

فن روما ، أرسل البابا « غريغوريوس الأول » إلى إنكلترا ، بعثة قوامها أربعون راهباً برئاسة « أغسطينوس » ، الذي كان رئيساً لأحد الأديرة الرومانية . وفي أعقاب هذه البعثة ، وفدت على بريطانيا بعثات تبشيرية أخرى . .

وكان « أغسطينوس » أول واحد ، يشغل منصب رئيس أساقفة إنكلترا ، وقد اتخذ كنتربري مقراً له . ثم بعد ذلك أقيم مركز مسيحي آخر في يورك ، في شمال إنكلترا .

وكانت أسكتلندا هي المصدر الثاني ، الذي وفدت منه البعثات التبشيرية إلى إنكلترا . وقد لعب الرهبان الاسكتلنديون ، الدور الأكبر ، في توصيل الرسالة المسيحية إلى بلاد الإنكليز ، وكان هؤلاء قد جاءوا من أيونا وإيرلندا ، في بكور القرن السابع الميلادي .

وفي عام ٦٣٥ م ، أسس هؤلاء الرهبان ديراً ، أصبح فيما بعد مركزاً للرساليات وبعثات التبشير . وقد تأسس هذا الدير ، في جزيرة لندسفارن ، على ساحل يوركشير ، ومن هناك انطلق الرهبان ، حاملين بشارة الإنجيل ، إلى كل الربوع ، وكان الأهالي يحبونهم ، ويحترمونهم ، ويرحبون بهم كلما تقابلوا معهم ، كما كانوا يلتصقون منهم البركات . وهؤلاء الرهبان كانوا يعقدون الندوات ، وكانت الجماهير تحيط بهم لتسمع منهم ، لاقتناع هذه الجماهير ، بأن هؤلاء الرهبان مخلصون في خدمتهم ، وأنهم لا يبيغون من وراء خدمتهم ، الحصول على أى مغنم شخصي ، وإنما كل غايتهم ، أن يوصلوا للناس رسالة الإنجيل ، وقيادتهم للحصول على الخلاص . ودون أى ملل أو كلل ، كان هؤلاء الرهبان ، يقومون بزيارة المرضى ، ويعمدون المتجددين ، وهؤلاء في الحقيقة ، هم الذين ربحوا الشعب البريطاني للمسيح .

وهكذا وجد في إنكلترا نوعان من المسيحية ، المسيحية الرومانية ، والمسيحية الأسكتلندية ، وكان كل نوع منهما يختلف عن الآخر اختلافاً طفيفاً في بعض العوائد الدينية . ويتلخص هذا الاختلاف في أن المبشرين

الرومان ، أعلنوا لاتباعهم ، أنهم ملتزمون بالخضوع لسلطان بابا رومية ، بينما لم يخضع لهذا السلطان ، أولئك الرهبان القادمون من اسكتلندا ، الذين لم يكن هناك ما يربطهم بروما .

وقد وقع صدام بين الفريقين ، وفي عام ٦٦٤م ، عقد مجمع تقرر فيه ، أن تخضع الكنيسة الإنكليزية لسلطان بابا رومية ، وربما كان الملك « أزوى » ، هو الذى لعب الدور الرئيسى ، فى إتخاذ هذا القرار .

وحوالى نهاية القرن السابع الميلادى ، كانت كنيسة إنكلترا قد تم تنظيمها ، بمعرفة « تيودور الطرسوسى » ، رئيس أساقفة كنتربرى آنذاك ، ومنذ ذلك الحين ، أصبحت المسيحية ديانة الغالبية العظمى من سكان تلك البلاد .

بعثات تبشيرية إلى ألمانيا :

وكأنما أرادت إنكلترا أن ترد الجميل ، وتشرك غيرها معها فى التمتع ببركات الإنجيل ، فأرسلت كنيستها الإرساليات والبعوث ، التى ضمت عدداً من أنبل الشخصيات . ومن أعظم مبشرى هذا العصر على الإطلاق ، فذكر « بونيفاس » ، الذى حمل بشارة الإنجيل إلى ألمانيا .

بونيفاس (٦٨٠ - ٧٥٥ م)

وهو من مواليد ديفونشير ، وكان أبواه من نبلاء القوم ، وقد إندرج فى سلك الرهبنة ، واشتهر بعلمه الغزير وإطلاعه الواسع ، فضلاً عن صلاحه وتقواه .

وفى سن مبكرة ، اقتنع بأن الله يدعوهُ ، للقيام بحمل بشارة الإنجيل ،

وتوصيلها إلى الجرمان . ولم تنفع معه توسلات أصدقائه ، الذين حاولوا أن يشنوه عن عزمه ، وقد توسم فيه هؤلاء علو الهمة ، وكانوا يتنبأون له بمستقبل باهر ومركز مرموق في وطنه .

بعد ذلك تقدم إلى البابا ، طالباً منه أن يرسله إلى ألمانيا ، وقد عمل هناك بجد ونشاط ، وربح منطقة جنوب ألمانيا للمسيح ، وأسس فيها نظاماً من أروع الأنظمة الكنسية ، وأسس العديد من المدارس والأديرة .

وكعادة المبشرين في فترة العصور الوسطى ، شن « بونيفاس » هجوماً عنيفاً على العبادة الوثنية ، منادياً للوثنيين ، بأن آلهتهم التي يعبدونها ، ليست آلهة على الإطلاق .

ومن القصص الطريفة والشهيرة ، أنه مر بقوم يعبدون شجرة مقدسة لئلا « أودين » ، وفيما هم ملتفون حول تلك الشجرة ، يقومون بطقوس عبادتهم ، تمهيداً لتقديم ذبيحة بشرية ، يسترضون بها هذا الإله ، إذا به بين خوف القوم وذهولهم ، يتقدم وفي يده فأس ، ثم يقوم بقطع الشجرة ، وانتظروا أن يقتحمه إلههم ويقضى عليه ، إلا أنه لم يصب بأذى . وبهذه الطريقة أفلح « بونيفاس » ، في تحرير هؤلاء الناس من عقائدهم الوثنية ، وضمهم إلى حظيرة المسيحية .

وقد نجح في تجنيد كثيرين من الرجال والنساء للعمل معه ، وتمت سياحته أسقفاً على منز ، وأصبح رئيساً للكنيسة في ألمانيا .

بعد ذلك كلفه البابا « زكريا » بإصلاح الكنيسة في فرنسا ، وإعادة تنظيمها ، وقد حقق نجاحاً كبيراً في القيام بهذه المهمة .

ولاذ بلغ « بونيفاس » الرابعة والسبعين من عمره ، طلب إعفائه من كافة مناصبه . إلا أنه راح يواصل عمله كواعظ متواضع بين الفرزيين ، وهم جماعة من المتوحشين ، كانوا يقيمون عند مداخل الراين ، لكنهم إنقضوا عليه وقتلوه ، فأحرز بذلك إكليل الشهادة .

بعثات تبشيرية الى الدنمرك والسويد :

في الوقت الذي كان فيه أهل الشمال ، يقومون بأعمال السلب والنهب في بلاد أوربا الساحلية ، قابلت الكنيسة هذا الهجوم بهجوم آخر مضاد ، وكان الإنجيل هو سلاحها ، الذي أرسلته إليهم في عقر دارهم .

أنسكار (٨٠١ - ٨٦٤ م)

وهو رجل فرنسي من أصل شريف ، وواحد من رهبان دير كوربي الشهير ، وكان صدره يجيش بشوق عارم ، للعمل بين الوثنيين .

وقد وافته الفرصة لتحقيق أمنية حياته ، عندما طلب ملك الدنمرك من الإمبراطور « شارلمان » ، أن يوافيه بمرسل يحمل إلى بلاده بشارة الإنجيل ، فوقع الاختيار على « أنسكار » ، الذي مضى إلى هناك ، وبعده مجموعة محدودة من الرفاق ، وبدأوا بداية طيبة ، ونجحوا في خدمتهم أيما نجاح ، ويعزى هذا النجاح ، إلى ما كان يتمتع به « أنسكار » من قوة معجزية . ومما يؤثر عنه قوله : « أنا لا أطلب غير معجزة واحدة ، هي أن يتولاني الرب بنعمته ، ويجعل مني إنساناً صالحاً . وقد إنتقل هذا الرجل العظيم إلى السماء ، في عام ٨٦٥ ، وكانت أمنية حياته ، أن يظفر بإكليل الشهادة ، ويذكر كاتب سيرته « رمبرت » ، أنه قبل إنتقاله أعلن له الرب في رؤيا ، أن تكريس الحياة تماماً للرب ، لا يقل بحال عن التضحية بالنفس ، وتحمل آلام الإستشهاد في سبيل الخدمة .

وقد واصل رفيقه « رمبرت » ومعه آخرون ، خدمتهم في السويد ، وحققوا نجاحا كبيرا حتى عام ١٠٧٥ م ، إذ صدر إعلان رسمي من ملك السويد ، يتضمن إتخاذ « ثور » و « أودين » ، إلهين يتعبد لهما أهل البلاد ، فكان هذا القرار الصخرة التي تحطمت عليها خدماتهم .

في نفس الوقت ، قام « هارولد » ملك الدنمرك ، بإصدار مرسوم ملكي ، باعتبار المسيحية ديناً رسمياً لبلاده ، رغم أنه حوالى نهاية القرن ، عاد ابنه « سوين » إلى الديانة الوثنية ، ويذكر المؤرخون أنه إعتنق المسيحية قبل وفاته .

وقد خلفه على العرش ابنه « كانيوت » ، وقد أعلن هذا الملك العظيم ، أنه لن يدين بغير المسيحية ، ومنذ ذلك التاريخ ، أصبحت المسيحية هي الديانة الرسمية للدنمرك ، وقد حققت بعد ذلك ازدهاراً عظيماً دون أى تراجع .

بشارة الإنجيل في النرويج وأيسلنده وجرينلاند :

ويقال إن بشارة الإنجيل ، قد وصلت إلى النرويج من إنكلترا ، وأنها قدمت أولاً في بلاط الملك ، غير أن رعاياه اضطروه إلى الاستمرار في العبادة الوثنية التي ظلت ديانة البلاد الرسمية ، حتى اعتلى عرش الدنمرك الملك « هارولد » (٩٦٢) ، الذي أخضع النرويج لحكمه ، وأفسح المجال لإعادة تقديم بشارة الإنجيل ، وأرغم أهل النرويج على إعتناق المسيحية ، وكان هناك صراع دام حتى جلس على عرش البلاد ، الملك « أولاف المقدس » ، وكان قد قبل المعمودية في (١٠١٧) ، فأرغم رعاياه على إعتناق المسيحية ، ويذكر المؤرخون ، أنه حينما ذهب ، في طول البلاد وعرضها ، كان يعقد المؤتمرات ، ويطالب رعاياه بقبول الإيمان الحقيقي ،

والمعمودية ، فاستجاب الناس لأوامره ، ولم يكن هناك من يجسر على التعرض بكلمة واحدة ، للديانة المسيحية .

ومن النرويج ، خرجت البعثات التبشيرية متجهة إلى أيسلنده ، وقدموا للناس العقيدة المسيحية كما كان يفهمها الملك « أولاف » ملك النرويج ، وقام هؤلاء المبشرون بتشديد العديد من الكنائس والأديرة التي حازت شهرة فائقة فيما بعد .

وحوالي سنة ١٠٠٠ م ، صدر قرار يلزم سكان أيسلنده باعتناق المسيحية ، وقبول المعمودية ، وكانت هذه نهاية للعبادة الوثنية في تلك البلاد . ورغم شبهة القهر والإعنات التي تحيط بهذا القرار ، يبدو أنه كان بداية لإشعاع روحى عم البلاد ، وأثار حياة أهلها بنور الإنجيل .

ومن النرويج وأيسلنده ، إنتقلت بشارة الإنجيل إلى كل جزر الشمال ، حتى بلغت شواطئ جرينلاند .

المسيحية تدخل إلى جنوب شرق أوروبا :

وسكان هذه المناطق ، هم من الشعوب السلافية ، وقد وصلتها بشارة الإنجيل ، عن طريق الكنيسة الشرقية . وحمل تلك البشارة إليهم أخوان من تسالونيكى ، هما « كيرلس » و « ميثودىوس » ، وكان « كيرلس » أصغر الأخوين ، يشغل منصب أستاذ للفلسفة في القسطنطينية ، ولكنه ذهب في زيارة لشبه جزيرة القرم ، بناء على طلب الإمبراطور « مايكل الثانى » (٨٦٠) ، الذى أرسل فى طلب معلم مسيحى ، يستطيع أن يدافع عن الإيمان الحق ، وقد وقع اختياره على « كيرلس » ، الذى اصطحب معه أخاه ، وقد استقرا فى مدينة تشرسون فترة ، تعلموا فيها لغة أهل البلاد ،

المفتدين

بعد ذلك بدأ يمارسان خدمة ناجحة مثمرة ، فأعلن الحاكم إعتناقه للمسيحية ، وهكذا انفتح الطريق لهذين الأخوين ، لتقديم بشارة الإنجيل بكل حرية :

وبعد فترة قضياها في القسطنطينية ، عاد الأخوان إلى الخدمة التبشيرية في مورافيا وبلغاريا . وقد وضع « كيرلس » أبجدية سلافية ، وقررا بعد ذلك أن ينقلا كتاب الصلوات إلى تلك اللغة ، غير أن الأمر كان غريباً ، لأن ثلاث لغات فقط هي وحدها التي كانت تعتبر مقدسة ، هذه اللغات هي العبرية واليونانية واللاتينية ، واستخدام لغة أخرى في العبادة ، كان أمراً غير مباح ، فسافر الأخوان للمثول أمام البابا « نيقولاوس » واستشارته في الأمر ، وقد مات البابا قبل وصولهما إلى رومية ، وخلفه على الكرسي البابوي البابا « هادريان الثاني » . الذي رحب بهما ، وتقول الأساطير ، إنه في خلال المناقشات التي كانت دائرة حول هذا الموضوع ، سمع المجتمعون صوتاً من السماء يقول : « ليسبح الرب كل حي » ، فقرر جميع الجميع على أن يمضي الأخوان في ترجمة كتاب الصلوات ، وبارك البابا هذا العمل الجليل .

وقد وقع الاختيار على « كيرلس » ، ليكون أسقفنا ، لكن المنية لم تمهله ، فمات وهو في الثانية والأربعين من عمره .

أما أخوه « ميثودْيوس » ، فقد عين رئيساً لأساقفة مورافيا وبانونيا (هنغاريا) . ومع أنه وجد صعوبة كبرى في تدبير الأمور ، في تلك المنطقة المترامية الأطراف ، إلا أنه استطاع أن يؤسس في بوهيميا كنيسة صارت فيما بعد من أشهر الكنائس في تاريخ المسيحية .

وقد توفي في عام ٨٨٥ م ، بعد أن أسس العديد من الكنائس في جميع الممالك السلافية في جنوب أوروبا .

أما قصة دخول المسيحية إلى بلغاريا ، فلأنها قصة طريفة . ففي بكنور القرن التاسع ، سطا الوثنيون القاطنون في تلك البلاد ، على إقليم من الأقاليم اليونانية ، وسبوا الكثيرين من سكان ذلك الإقليم . وكان بين هؤلاء المسيحيين ، أسقف الكنيسة ، الذي اتفق مع رفاقه على تبشير آسريهم . وكانت أخت « بوجوريس » ملك بلغاريا ، قد اختطفت في فترة مبكرة من حياتها ، مع مجموعة من السبايا ، وقضت معهم فترة من الزمان في القسطنطينية ، حيث تلقنت بعضاً من التعاليم المسيحية ، وبعد عودتها حاولت هداية أخيها ، لكن محاولاتها ذهبت أدراج الرياح ، غير أن مجاعة شديدة حدثت بعد ذلك ، كان لها تأثير كبير عليه . وكان « كيرلس » و « ميثوديوس » قد قاما بزيارة بلغاريا من قبل وهما في الطريق إلى مورافيا ، وقد تركت زيارتهما أثراً طيباً هناك . ويبدو أنه كانت هناك علاقة ما بين ملك بلغاريا والإمبراطور الجرمانى ، كل هذا لم يذهب سدى ، فقد أعلن « بوجوريس » أنه قد آمن بالإنجيل ، وقبل المعمودية ، وفي المعمودية أعطى اسم « مايكل » ، على اسم الإمبراطور اليونانى « مايكل الثالث » .

وكانت الخطوة التالية ، هى إرغام الشعب البلغارى على اعتناق المسيحية ، على غرار ما كان يفعله جميع الملوك والحكام في العصر ، وبعد مقاومة عنيفة راح ضحيتها العديد من السكان ، إنتهى الأمر بقبول المرسوم الملكى والدخول إلى المسيحية ، لكن مسيحياتهم كانت بالاسم فقط . غير أن الملك لم يكتف بهذا ، بل أظهر غيرته في إصراره على تقديم التعليم المسيحى للشعب ، ليصبحوا على علم بعقيدتهم وحقائق إيمانهم ، قد طلب

من القسطنطينية معلمين مسيحيين يقومون بهذه المهمة . وبناء على طلبه ، أرسلت الكنيسة الشرقية رئيس الأساقفة على رأس وفد مكون من عشرة من الأساقفة . وهكذا أصبحت بلغاريا تابعة للكنيسة الشرقية .

المسيحية تدخل إلى روسيا :

وكان التجار والأسرى هم أول من غرس بذار الإنجيل في تربة تلك البلاد . والبطريرك « فوتيوس » يخبرنا بأن المسيحية بدأت تأخذ طريقها إلى بلاد الروس حوالي عام ٨٦٦ م . وقبل منتصف القرن العاشر كانت قد تكونت في روسيا جماعة مسيحية ناهضة .

والعامل الفعال الذي كان له أثره في توسيع نطاق البشارة بالإنجيل في تلك البلاد ، وكسبها للمسيح ، هو « أولجا » تلك الأميرة الأرملة ، التي حكمت روسيا عندما كان أبناها « سواتسولاف » في سن لا تؤهله لتصريف شئون البلاد ، لكن ابنها لم يعرها أذنا صاغية ، ولم ينصت إلى تعاليم المسيحية التي كانت تقدمها له . غير أنه عهد إليها بالعناية بابنه « فلاديمير » الذي كان متفتح العقل على النقيض من أبيه .

وبعد اعتلائه العرش في عام ٩٨٠ م ، وفد على البلاد ممثلون للعديد من الأديان ، كل منهم راح يعرض عليه عقيدته . فجاءه في البداية مسلمون من الفولجا ، ثم جاء بعدهم ممثلون للكنيسة الغربية من الباباويين وربما أيضاً جاءه ممثلون للكنيسة البولسية . وفي أعقابهم جاءه ممثلون للدين اليهودي ، وبعد أن قدم كل فريق من هؤلاء ما عنده ، لم يجد أى فريق منهم تجاوبا من « فلاديمير » .

بعد ذلك جاء فيلسوف يوناني ، راح يحدث الإمبراطور عن قصة

للوجود منذ خلق العالم وحتى نهاية الزمان ، وقد نشر في يده لوحة تمثل منظر الدينونة في اليوم الأخير . وفي اللوحة جماعة من الناس يدخلون الجنة ، وكان منظرهم رائعاً ، يبعث في النفس الراحة والسرور ، بينما كانت مجموعة أخرى من الناس يتساقطون في هوة الجحيم .

وبعد ما تأمل فلاديمير اللوحة ، صاح قائلاً « طوبى لهم أهل اليمين ، ويا لشقاء هؤلاء الذين يقفون على اليسار ، لأن مأواهم جهنم وبئس القرار ، فقال له الفيلسوف على الفور : « إن قبلة المعمودية أيها الملك ، ستصبح فوراً من أهل اليمين السعداء » . فأجابه الملك « اتركني لأفكر » .

بعد ذلك أرسل «فلاديمير» مندوبين وسفراء إلى مختلف المراكز الدينية المسيحية ، وبعد أن فحصوا ومحصوا ، انتهوا إلى تفضيل الكنيسة الشرقية على من عداها ، إذ بهرهم منظر كنيسة أياصوفيا بمشاعلها وأضوائها ، حيث كان رجال الدين ، يحتفلون بأحد الأعياد ، وكان منظرهم رائعاً في ثيابهم البيضاء ، التي كانت كأجنحة الملائكة على أكتافهم ، فبدوا وكأنهم جماعة من الأجناد السماوية قد هبطت على الأرض ، كما أعجبوا بتسبحاتهم وصلواتهم ، فعادوا وقدموا تقريرهم للإمبراطور ، فقبل المعمودية بحسب طقس الكنيسة الشرقية ، وكان عماده في عام ٩٨٠ م ، وعند عماده أعطى له اسم « واسيلي » . ثم تزوج من الأميرة اليونانية «أنا» ، أخت الإمبراطور «باسيل الثاني» .

وبعد ذلك أمر بتعطيم الأصنام التي كان يعبدتها الروس ، وأصدر أوامره بأن يعتمد كل الشعب ويدخلوا إلى المسيحية ، وكانت مسيحياتهم إسمية ، خاصة وأنه لم يتم إنشاء المدارس اللازمة لتعليم كل هذه الأعداد .

وسرعة إنتشار المسيحية في روسيا من الظواهر الملحوظة ، ويبدو أن هذا كان راجعاً إلى عدة عوامل أهمها ، أنه كان هناك تآلف بين العنصر السلافي الذى كان ينتمى إليه سكان روسيا ، والعنصر السكندنافى الذى كان ينتمى إليه حكامهم ، هذا التآلف العنصرى ، أوجد نوعاً من التآلف الدينى ، فلم يحدث شيء من المعارضة أو المصادمات التى حدثت فى بقاع أخرى . كما أن الله كان قد رتب لهؤلاء القوم ، ذلك العمل الذى قام به « كيرلس » و « ميثوديوس » ، اللذين ترجعا العهد الجديد إلى لغة أهل البلاد قبل ذلك بنحو قرن من الزمان . وكان هذا إمتيازاً خاصاً تمتعت به تلك البلاد وحدها ، على عكس ما كان شائعاً آنذاك ، حيث كان اللغة اللاتينية هى لغة العبادة الرسمية الوحيدة فى كل مكان .

المسيحية تدخل إلى هنغاريا وبلدان الشرق الأقصى :

وقد وصلت رسالة الإنجيل إلى أهل هنغاريا أيضاً من القسطنطينية حيث حملها إليهم « جيلاس » ، الذى كان فى زيارة للقسطنطينية فى عام ٩٤٨م وهناك قبل المعمودية . وعند عودته إلى بلاده ، صحب هذا الزعيم معه الأسقف « هيروثيوس » . وقد تزوجت ابنة « جيلاس » هذا ، بالأمير جيساً ، وكانت إمراة مسيحية حقاً ، فاستطاعت أن تجعله يعطف على المسيحية ، أما ابنهما « ويلك » (Waik) ، فقد ربه تربية مسيحية ، وهو المعروف باسم « استفانوس » ، وقد اعتلى العرش فى الثامنة عشرة من عمره ، وظل يحكم فترة طويلة (٩٩٧ - ١٠٣٨ م) ، عمل خلالها على نشر الإيمان المسيحى بحسب طقس الكنيسة الشرقية ، وأقام العديد من الأديرة والكنائس والمستشفيات والمدارس والأسقفيات ، ونظم الخدمة التبشيرية لتوصيل الإنجيل إلى رعاياه . ولم يمض قرن واحد من الزمان ، حتى كانت المسيحية هى الديانة الرسمية فى هنغاريا .

ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن الكنائس النسطورية ، كانت قد حظيت برضا الحكام المسلمين أكثر من غيرها من الكنائس المسيحية ، ولهذا استطاعت أن تعمل وتواصل نشاطها في بلاد الشرق الأقصى ، فتقوت الكنائس التي كانت قد سبق لإنشاؤها في آسيا . وقد بلغ المرسلون التابعون الكنيسة النسطورية سكيثيا ومنغوليا . ويبدو أن قادة الكنيسة هناك كانوا يتوارثون اسم « برسترچون » ، وربما كان برستر تحريفا للكلمة اليونانية « برسبيتر » ومعناها « شيخ » . وتأسست كنائس كثيرة في الهند والصين ويقال إن الرب استخدم التاجر السوري « مارتوما » لحمل رسالة الإنجيل إلى تلك المقامات .



٣

تطورات داخل الكنيسة

[ظهور البابوية - معسكران في الكنيسة] .

ما أكثر التطورات التي حدثت في الكنيسة ، في خلال فترة العصور الوسطى ، وأهم هذه التطورات أمران ، الأول هو ظهور البابوية ، أما الأمر الثاني ، فهو انفصال الكنيسة الجامعة في الشرق ، عن الكنيسة الجامعة في الغرب .

(أولا) ظهور البابوية :

وهناك عدة عوامل ، أدت إلى ظهور البابوية ، نذكر منها ما يلي :

١ - فيما بين عامي ٤٠٠ ، ٧٦٨ م ، لم تقم في غرب أوروبا حكومة مدنية ذات شأن ، وهذه هي الفترة التي عانت فيها أوروبا الغربية الكثير من غزو البرابرة ، أيضاً بعد موت « شارلمان » ، وتقسيم الإمبراطورية ، وحتى قيام الإمبراطورية التي أسسها « أوتو الأول » ، في عام ٩٦٢ م ، لم يقيم في أوروبا حاكم مدني له وزن .

في نفس هذه الفترات ، وفي رومية - مركز السلطان وعاصمة الإمبراطورية ، كان الأسقف يمارس اختصاصات الحاكم الزمني ، بالإضافة إلى الخدمة الدينية ، التي كان لها أكبر التأثير على الجماهير ، التي كانت

تنظر إليه نظرة ملؤها الاحترام والتقدير أو قل التقديس . خاصة وأن الشعب كان يعتقد أن واحداً من الرسل الأولين ، مارس نفس هذا السلطان ، معلناً أن للكنيسة السيادة . ومما عزز هذا السلطان ، أن كثيرين من أساقفة رومية ، كانوا رجالاً عظماء ، قادرين على ممارسة أعمال الحكم والسيادة ، ولسنوات عديدة في أوروبا الغربية ، ظل البابا هو الممثل الوحيد للحكومة الدائمة ، وفي خلال هذه السنوات ، اتسع نفوذ البابا ، وامتد سلطانه في بعض بلدان العالم الغربي ، وإن بقي هذا السلطان محدوداً في بعض البلدان .

٢ - كان الناس ينظرون إلى الأساقفة ، على أنهم يمثلون البر والتقوى ، في وقت كان فيه معظم الحكام ، تتحكم فيهم أهواؤهم ، وتستعبد لهم شهواتهم . ففي عهد البابا « نيقولاوس الأول » (٨٥٨ - ٨٦٧ م) على سبيل المثال ، هجر ملك اللورين زوجته وإقترن بأخرى ، بإذن من رئيس الأساقفة في مملكته ، وكان هذا تصرفاً منتقداً لمخالفات الأخلاقيات العامة . وبعد صراع طويل ، أرغمه البابا على طرد الزوجة الثانية ، وإعادة زوجته الأولى . ولم يكن فعل هذا في وسع أية سلطة أخرى في العالم ، أيا كانت هذه السلطة ، ولم يخضع الملك ، إلا لخوفه من أن يصدر البابا حكماً يفصله من عضوية الكنيسة ، وكان الاعتقاد السائد ، هو أن هذا الحكم بالحرمان معناه الهلاك الأبدي لمن يصدر ضده .

وهكذا نرى ، أن البابا كان ممثلاً لسلطان أعظم من سلطان الملوك ، هذا السلطان هو القانون الأخلاقي ، الذي يعتبر واحداً من أقوى الأسباب التي أدت إلى زيادة نفوذ البابا وسلطانه . خلاصة القول ، أن البابوية في تلك الفترة ، كانت قوة للخير والتقوى والصلاح .

٢ - حالة الحراب الشامل ، التي كانت سائدة في أوروبا ، كانت تتطلب وجود حاكم قوى حازم ، ولم يجد الناس غير الأسقف ، جديراً بأن يشغل منصب الحاكم الزمنى ويباشر سلطاته ، بجانب السلطان الرومى ، وكانت هذه هى بداية ممارسة الأساقفة لسلطات زمنية في مدينة رومية ، وفي المناطق الشاسعة الأخرى في ربوع إيطاليا ، التي سلمها لهم « بين » ملك الفرنجة ، ووالد الإمبراطور الشهير « شارلمان » .

٣ - شخصية البابا « غريغوريوس الأول » ، الذى كان أول باباوات رومية ، وكان رجلاً من أعظم الرجال الذين شهدتهم بداية العصور الوسطى . وقد شغل منصبه في عام ٥٩٠ م ، وهذا التاريخ يعتبر بداية لواحدة من ثلاث فترات حاسمة في تاريخ الكنيسة .

وقد تميز هذا الرجل بصلاح يشهد له الجميع . إنه كان على قدر عظيم من التقوى والتواضع ، كما أنه كان على جانب كبير جداً من الحكمة والقدرة ، والنشاط ، والغيرة المسيحية .

وقد استخدم هذا الرجل كل ما حباه به الله من مواهب ، للعمل على إعلاء شأن أسقف رومية ، وجعله بطريركاً للغرب . وقد عمل على تثبيت أركان الكرسي البطريركى في روما ، وبسط سلطانه على الجناح الغربى من الكنيسة ، وحصل من بعض أساقفة الكراسى الأخرى ، على الإقرار بسيادة الجالس على كرسي رومية ، كما فرض عليهم إتباع طقوس العبادة المستخدمة في الكنيسة الرومانية .

كما أنه هو الذى أرسل « أغسطينوس » ورفاقه ، حاملين بشارة الإنجيل إلى إنكلترا ، وهؤلاء المرسلون ، كانوا مثالا في طاعتهم للتعاليم المسيحية ، وخضوعهم وولائهم لأسقف رومية .

ونحن نعلم الرجل كثيراً ، إن قلنا إنه وجه كل جهوده لتوسيع دائرة نفوذه ، وتعزيز سلطان كرسیه ، لأنه بذل جهوداً متصلة ومضنية ، لتنقية الكنيسة وتقويتها ، والعناية بالفقراء ، وتقديم الإنجيل للوثنيين . ويمكن القول أيضاً ، أنه وهو يعمل على تعزيز سلطان أسقف رومية ، وامتيازها عن الأساقفة الآخرين ، كان في عمله هذا ، مقتنعاً تمام الإقتناع ، وبإخلاص ، بأن خليفة الرسل ، هو الرئيس الأعلى لكافة الكنائس ، وهذا الإقتناع ، كان السبب الرئيسى ، في سعيه الدائب للحصول على الإعراف بسلطانه فيما وراء حدود بطريركية بلاد الغرب ، ومع أنه رفض أن يدعى « الأسقف المسكونى » ، إلا أنه قطع شوطاً بعيداً في طريق السيادة المسكونية .

٤ - ظهور الدكریات الزائفة ، وهى مجموعة من القرارات ، قيل إنها صادرة عن المجامع الكنسية المختلفة ، وأيضاً بعض القرارات والخطابات المنسوبة إلى بعض الباباوات ، وكان معظمها مزوراً ، باعتراف الدارسين في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية نفسها . ويقال أن هذه الكتابات تنسب إلى أساقفة رومية في القرن الثامن ، وتتضمن الإقرار بأن هؤلاء الأساقفة ، كان لهم سلطان على الكنيسة بأسرها .

وقد تمت فبركة هذه الوثائق في فرنسا ، حوالى منتصف القرن التاسع ، بقصد حماية أساقفة رومية ، من تدخل رؤساء الأساقفة ، أو أساقفة المراكز الدينية الكبرى ، أو تدخل الحكام المدنيين في شئون الكنيسة .

وكان البابا « نيقولاوس الأول » ، هو أول من استخدم هذه « الدكریات » ، لتعزيز مركزه ، على رؤساء الأساقفة ، الذين رفعوا راية العصيان في وجه رومية . وفي ذلك الزمان ، لم يكن هناك دارسون

يمكنهم معرفة حقيقة هذه الوثائق ، غير أن عدم استخدامها قبل تلك الفترة ، يؤكد عدم صحتها .

وبعد استخدام البابا « نيقولاوس الأول » لها ، صارت هذه الدكرينات جزءاً من قوانين الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، وقد أدى هذا إلى ازدياد نفوذ الباباوات .

٥ - الإرساليات والبعوث التبشيرية ، التي أرسلها الباباوات إلى كافة الأرجاء ، لعبت دوراً كبيراً ، في توسيع نفوذ الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، لأن كل قطر كسبته تلك البعث للكنيسة المسيحية ، كان بالتالي كسباً لبابا رومية ، وتوسيعاً لدائرة نفوذه . وقد رأينا في فصل سابق ، كيف خضعت كنيسة إنكلترا لسلطان البابا ، بسبب وجود المرسلين الرومان هناك .

وقد بذل « بونيفاس » كل ما في وسعه ، لتمديد نطاق إشراف البابا ، حتى يشمل كل المناطق التي كان يعمل فيها مبشراً بالإنجيل ، في ألمانيا وباراغوايا وفرنسا .

٦ - كان إنتشار الإسلام سبباً من الأسباب التي لعبت دوراً رئيسياً في تثبيت سلطان البابا ، وتوسيع دائرة نفوذه ، وقد يبدو هذا القول غريباً . لكن الغرابة تزول ، عندما نعلم أنه في بلاد الشرق التي خضعت للحكم الإسلامي ، أصاب الكنيسة في تلك البلاد الوهن والانحطاط ، خاصة بعد سقوط بلدان الشمال الأفريقي ومنطقة غرب آسيا في أيدي المسلمين ، بعد ما وضعوا أيديهم على الأقطار التي كانت مركزاً لثلاثة من الكراسي البطريركية الكبرى ، وهي كراسي أورشليم وأنطاكية والإسكندرية .

بينما كانت الكنيسة في الغرب ، في أوج مجدها ونهضتها ، وانتشارها عن طريق البعثات التبشيرية التي انطلقت هنا وهناك .

كل هذا زاد من أهمية الكنيسة الغربية برئاسة « بابا رومية » خاصة بعد أن ضعفت الكراسي الأخرى المناهضة له في بلدان الشرق .

٧ - من العوامل التي ساعدت أيضاً على ازدهار البابوية ، امتلاك الباباوات للكثير من الإقطاعيات ، التي أقطعهم إياها الأباطرة والأمراء ، فكانت للباباوات جيوش في تلك المقاطعات ، كما أنهم فرضوا على سكانها الضرائب والمكوس ، تماماً كما كانت تفعل الحكومات المدنية . وقد ظل الباباوات يحكمون تلك المقاطعات ، حتى عام ١٨٧٠ م .

(ثانياً) معسكران في الكنيسة :

من التطورات الهامة التي واجهتها الكنيسة في هذه الفترة من تاريخها ، انقسامها إلى معسكرين ، وما أتفه الأسباب التي أدت إلى هذا الانقسام .

وقد بدأ الانفصال في عام ٨٦٧م ؛ عندما وقع صدام بين بابا رومية وبطريك القسطنطينية ، فقام أحد المحامع الشرقية بعزل الأول من منصبه ، ثم جاء بعد ذلك مجمع آخر ، ألغى هذا القرار بعد سنتين اثنتين من صدوره ، الأمر الذي أوغل الصدور ، واستمرت الخلافات بينهما حتى عام ١٠٥٤ ، بسبب بعض الاختلافات البسيطة في بعض العقائد اللاهوتية .

ثم حدثت بعد ذلك مشاجرة بين البابا والبطريرك ، فأصدر البابا حكماً بقطع البطريرك ومعاونيه من عضوية الكنيسة ، وكانت هذه هي خاتمة المطاف .

ومن ذلك الوقت فصاعداً ، انقسمت الكنيسة الكاثوليكية إلى معسكرين ، أحدهما في الشرق ويضم الكنيسة اليونانية ، وتتبعها مناطق اليونان ، وشبه جزيرة البلقان ، وروسيا ، ومعظم المسيحيين في بلدان آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين ، بينما استمرت بقية أوربا في حظيرة الباباوية ، خاضعة لقوانين الكنيسة الرومانية .

وراح كل معسكر من المعسكرين يدعى أنه هو وحده الكنيسة الكاثوليكية الحق ، ويرفض الاعتراف بالمعسكر الآخر . هذا بالنسبة للكنيسة الكاثوليكية .

وينبغي ألا ننسى أنه إلى جوار هذين الجناحين ، كانت هناك الكنيسة النسطورية ، والكنيسة القبطية الأرثوذكسية ، وكنائس أخرى متفرقة في بلدان آسيا .

وقد لعب اختلاف الأجناس دوراً كبيراً في توسيع شقة الخلاف بين جناحي الكنيسة الكاثوليكية . ففي الغرب كان الجنس اللاتيني هو الجنس السائد ، وكان اختلاطه بالعنصر الألماني سبباً في تقويته ، بينما في الشرق ، كان السائد هو العنصر اليوناني ، الذي إمتزج بالدم الشرقي ، وكان هذا الإختلاف العنصري ، سبباً من أسباب النفور وسوء الفهم وعدم التعاطف .

كما أن الخلاف بين السلطينتين المدينتين ، الحاكمتين في شطرى الإمبراطورية ، سبباً آخر من أسباب إنفصال الكنيستين ، خاصة بعد ما استمرت الخلافة الإمبراطورية في الشرق ، بينما خلا الكرسي الإمبراطوري في رومية فترة من الزمان . وعند ما قامت من جديد ، الإمبراطورية في

الغرب ، بعد قيام البابا بتتويج « شارلمان » ، لم يعترف بها أباطرة القسطنطينية . وقد إنعكس الخلاف بين الحكام المدنيين ، على رجال الدين ، وترك أثره في توسيع هوة الخلاف .

ونود أن ننبه القارئ هنا ، إلى أننا في الفصول التالية ، سنركز كلامنا على الكنيسة الرومانية في الغرب ، لأنها لعبت دوراً فعالاً ومؤثراً في تاريخ العالم ، يفوق بما لا يقاس ما لعبته أختها في الشرق ، بسبب الظروف التي أحاطت بها ، والتي سلفت الإشارة إليها .





الحياة الدينية

[فساد رجال الدين - انحلال البابوية - الفساد في الاديرة - الحالة الاخلاقية لعامة الشعب - العبادة في ذلك العصر (العبادة المريمية - زيارة الأماكن المقدسة - الاعتقاد بكرامات القديسين - عبادة الخوف - الأيقونات) - الرهبان يطلقون الشرارة الأولى للإصلاح] .

إن القلب ليفعم بالأسى وتقطر النفس مرارة ، عندما نتعرض للحياة الدينية في هذه الفترة من العصور الوسطى . فقد عم الإنحطاط وساد ، ودب في الحياة دبيب الفساد ، ومن هامة الرأس إلى باطن القدم ، أصبحت الكنيسة مريضة ، مضروبة بضربة طرية ، موسومة بسمة الإنحطاط الخلقى ، لا فرق بين قائد ومقود ، الجميع زاغوا وفسدوا معاً .

فساد رجال الدين :

ولإدراك مدى الفساد الذى تفشى ، وضرب أطنابه في معسكر القادة من رجال الدين ، نسوق مثالا واحداً ، يوضح لنا حالة العاملين في الكنيسة في فرنسا .

ففي خلال القرن الثامن ، وقبل أن يقوم « بونيفاس » بحركة الإصلاح التى كلفه البابا بالقيام بها هناك ، نقول إن كثيرين من رجال الدين في فرنسا ، كانوا من جماعة العبيد الهاربين ، ولم يكن يربطهم بالكهنوت

غير المظهر الخارجى ، وقص شعورهم على طريقة الكهنة فى ذلك الزمان .
وكانوا يعتبرون الأبروشيات التى يخدمون بها ملكاً خاصاً لهم ، يتصرفون فيها
كما يشاؤون ، ويبيعونها لمن يدفع أكثر . وكان رئيس أساقفة روين أمياً
لا يقرأ ولا يكتب :

ولا نكون مغالين إن قلنا ، إن غالبية رجال الدين فى تلك الأيام كانوا
من مدمنى الخمر ، مستعبدين للعديد من الخطايا كخطيئة الزنا . وكانوا
يعيشون فى بحبوحة من العيش ، يسمعون وراء المتع العالمية ، مهملين القيام
بواجبات الخدمة الموكولة إليهم .

وإن سألت إذن لماذا تقدموا للخدمة الدينية ، نقول لك إنهم لم يأخذوها
خدمة ولكن وظائف ، وكانوا طامعين فى الربح القبيح ، يشترى المناصب
بالمال ، وكانت ظاهرة السيمونية^(١) متفشية فى ذلك الزمان .

ولم يكن الرؤساء أفضل من مرؤوسهم ، بل ربما كانوا أزدأ وأشر
منهم بكثير . وكانت السيمونية هى الطريق الوحيد للحصول على منصب
الأسقف ، وكانت هناك تعريفات محددة للحصول على هذه الوظيفة .

· انحلال البابوية :

ولم تكن البابوية بمنجاة من هذه المساوئ ، التى كانت هى الطابع
المميز لحياة الكنيسة عامة فى ذلك العصر .

وعلى مدى مائة وخمسين سنة ، بدءاً بسنة ١٨٩٠ م ، وصلت حالة
البابوية إلى أحط دركات الانحطاط ، فتشوهت الصورة الجميلة الرائعة ،

(١) شراء المناصب الدينية بالمال نسبة إلى سيمون الساحر الوارد ذكره فى سفر أعمال الرسل .

التي وصل إليها مركز البابا ، بفضل جهود البابا العظيم « غريغوريوس الأول » ، والبابا « نيقولاوس الأول » من بعده .

نعم تشوهت تلك الصورة ، وتلطخت بالكثير من التشوهات التي لم تكن تخطر على بال ، وأصبح مركز البابا موضع نزاع بين القادة السياسيين المتنافسين وأتباعهم ، وكثيراً ما قامت الحروب بسببه . وبعض الذين شغلوا ذلك المنصب ، في خلال تلك الفترة ، لم يكونوا فوق مستوى الشبهات ، بل إنهم كانوا من ذوى السمعة السيئة ، وارتكبوا أفظع أنواع الجرائم وأبشعها :

ولعدة سنوات ، ظل هذه المنصب في أيدي بعض من النسوة المغمورات ، المنتميات لإحدى العائلات ، هؤلاء كن يعطين ذلك المنصب لمن يروق لهن ، الأمر الذي دعا الإمبراطور « أوتو الأول » ، للعمل على إنقاذه من هذا الدرك الذي تردى فيه ، فجعل تعيين البابا وعزله ، حقاً من حقوقه هو ، وظل هذا الوضع مدة أربعين عاماً ، كان الإمبراطور وحده ، هو الذي يملك تعيين البابا وعزله . وإحقاقاً للحق نقول ، إن الذين شغلوا هذا المنصب في تلك الفترة ، كانوا أفضل بكثير ، من الباباوات الذين شغلوه في الفترات السابقة .

بعد ذلك ظل هذا المنصب حكراً على أسرة واحدة من الأسر الإيطالية الكريمة المتمد ، وكان البابا « بندكت التاسع » ، آخر حلقة في سلسلة الباباوات ، المنتمين لهذه الأسرة ، وقد ثار عليه الشعب ، ونادى بخلعه ، بسبب فسوقه ، وترديه في حياة الشر والرديلة .

وعودة المنصب البابوي بعد ذلك إلى ما كان له من رفعة وسمو ،

ولإحاطة الناس له بقدر كبير من الإجلال والإحترام بل والتقديس ، ترينا وتوضح لنا ، ما لهذا المنصب من تأثير في أذهان الناس في بلدان أوروبا .

الفساد في الأديرة :

حتى أولئك الذين كان يعتقد أنهم قد إنعزلوا عن العالم ، بحثا عن حياة مسيحية حقيقية ، مكرسة بالكامل للمسيح ، لم يكونوا بمنأى عن متناول الفساد ، الذي كان وباء قد تفشى في كل مكان ، وتخطى كل الحدود ، حتى بلغ الأديرة ، وانتشر بين الرهبان ، فانغمسوا في كافة المفاسد والموبقات .

الحالة الأخلاقية لعامة الشعب :

إذا كان رب البيت بالدفع ضارباً .

فشيمة أهل البيت كلهم الرقص

هذا البيت يعبر أصدق تعبير عن مستوى الحياة لدى عامة الشعب ، في عصر كانت فيه حياة القادة الدينيين على كافة المستويات ، على الصورة المشينة التي أشرنا إليها في الصفحات الفائتة .

في نهاية القرن العاشر ، كان كل إنسان في دول غرب أوروبا ، عضواً في الكنيسة ، بغض النظر عن حياته وسلوكه . وكان اهتمام الناس كله موجهاً إلى ممارسة الفروض والطقوس الدينية ، ولا شيء أكثر .

ولم يكن هناك شيء من التعليم أو التوجيه ، إلا في أحوال نادرة ، وإن وجد شيء من التعليم الديني ، لم يكن له أقل تأثير على حياة الناس وسلوكهم ، لافتقادهم القدوة الصالحة والأسوة الحسنة .

وهبوط المستوى الأخلاقي لهؤلاء الناس ، يرجع إلى أنهم كانوا مسيحيين بالإسم فقط ، دخلوا المسيحية مرغمين أو مقلدين ، أما في الواقع ، فإنهم كانوا محتفظين بأخلاقياتهم وعوائلهم الوثنية .

ثم إن الحروب والمصادمات الدموية التي كثيراً ما كانت تقع بين النبلاء ، والهجمات التي شنها البرابرة ، هذه جميعها ، أعقبتها عهد ساد فيه الإنحلال ، كما يحدث عادة في أعقاب الحروب .

وتفشى الجهل ، بعد ما إندثرت الثقافة الإغريقية الرومانية ، وشدت الرحال ، في أعقاب الغزو البربري ، أفسح المجال لدخول الكثير من العقائد الوثنية ، التي جاء بها هؤلاء المنتصرون وأدخلوها معهم إلى المسيحية . فانعكس أثرها على طرق العبادة في ذلك العصر .

ويمكن القول إن النهضة العلمية التي أحياها « شارلمان » في عصره ، كانت نقطة الضوء الوحيدة في هذه الفترة من التاريخ ، التي يمكننا أن ندعوها بحق ، العصور المظلمة .

العبادة في ذلك العصر :

حتى العبادة شابهها الكثير في هذه الفترة ، إذ أدخل إليها الوثنيون المنتصرون بعضاً من عباداتهم ، وإن لبست ثوبا مسيحياً . فظهرت القصص والأساطير التي سميت « الأساطير المسيحية » ، والتي تضمنت الكثير من القصص ، التي تدور حول أعمال القديسين ، ومعجزاتهم ، بعد وفاتهم .

كما أن الكنيسة في هذه الفترة ، لم تركز عبادتها في شخص الإله الواحد ، الذي أعلن ذاته للبشر في المسيح يسوع ، لكنها إتجهت

إلى تقديم عبادتها ، لأشخاص آخرين ، احتلوا بمضى الزمن ، مكانة عليّة ، وربما كان السبب في إنتشار تكريم القديسين وتقديم الصلوات والتوسلات إليهم ، هو أن هؤلاء كانوا بشرًا ، وأحس الشعب في جهالته ، أنهم أقرب منا من الله .

وقد إنتشرت عبادة القديسين ، وحفظت الكنيسة الكثير من أعيادهم وتذكاراتهم . وشيئاً فشيئاً ، تضخم عدد الأعياد الكنسية ، تبعاً لازدياد عدد القديسين والشهداء ، وأصبح الباباوات يعلنون قداسة بعض الأشخاص ، وهذه القرارات كانت تسبغ على عبادة الناس لهم صفة رسمية ، وتجعلها عبادة قانونية .

العبادة المريمية :

ومن أهم الشخصيات التي أصبحت الجماهير تقدم لها عبادتها ، « القديسة مريم العذراء » . ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى أن العبادة المريمية وجدت معارضة في الفترات السابقة من تاريخ الكنيسة ، وكان من هؤلاء المعارضين « أيفانيوس » ، الذي كان يؤمن باستمرار عذراوية القديسة مريم بعد ولادتها ليسوع ، لكنه رغم هذا كتب يقول : « لنكرم العذراء تكريماً يليق بها ، لكن دعونا نقدم عبادتنا للاله الواحد الآب والابن والروح القدس .

وقد اعتنق كثيرون هذه الفكرة ، لكن تطورت الأمور بعد ذلك ، حتى وصلت إلى العبادة المريمية . ثم ظهرت عقيدة الحبل بالعذراء بلادنس ، باعتبارها الإناء الذي اختاره الله ، ليحل فيه جسد الابن المبارك ، وياً من مستودعها الطاهر . لكن الآباء الدومنيكان ، رفضوا عقيدة الحبل بلادنس هذه .

زيارة الأماكن المقدسة :

تبعاً لانتشار عبادة القديسين ، شاعت بين الناس ، عادة زيارة الأماكن المقدسة ، التي تحفظ فيها مخلفات القديسين ورفاتهم ، وكان الناس يعتقدون أنهم بزيارتهم لتلك الأماكن ، ينالون الحظوة لدى الله .

وأعظم رحلة كان الناس يحرصون على القيام بها ، كانت زيارتهم للأرض المقدسة في فلسطين ، وكان الاعتقاد السائد في ذلك الوقت ، أن كل من يذهب إلى تلك البقاع ، التي وطئها أقدام السيد المسيح ، وحوارييه ، يعود من هناك كيوم ولدته أمه ، مبرأ من الذنوب ، تماماً كما لو كان لم يرتكب في حياته شراً ما ، لأن الله عندئذ ، يغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

الاعتقاد بكرامات القديسين :

وقد لعبت رفات القديسين دوراً كبيراً وخطيراً في ديانة الشعب ، وأخذ عامة الناس يتفننون في تكريم ما قيل أنه عظام بعض الرسل ، والسلاسل التي قيد بها « الرسول بطرس » ، وأشياء أخرى كثيرة ، قيل إنها من متعلقات رسل المسيح . وكل من كان في حوزته شيء من هذه الأشياء ، كان يحس بالزهو والفخر .

وكان الاعتقاد السائد ، هو أن لهذه الأشياء قدرة على إثبات المعجزات الخوارق ، ولم يكن هذا الاعتقاد محصوراً في نطاق العامة فقط ، لأنه حتى البابا « غريغوريوس الأول » ، الذي اشتهر بقدرته العقلية الفائقة ، كان كعامة الشعب ، يعتقد بأن لمخلفات الرسل والقديسين ، القدرة على إجراء المعجزات ، وكان يروي الكثير من القصص عن قوتها المعجزية .

عبادة الخوف :

وكان الناس يقدمون عبادتهم في روح الخوف ، تماماً كما كان الحال في أيام عبادتهم الوثنية ، وكان هذا تحت تأثير العقائد الوثنية ، التي حملها إلى الدائرة المسيحية ، أولئك المتنصرون ، الذين كانوا في وثنيتهم ، يعتقدون أن العالم ملىء بالأرواح والأشباح ، التي تسعى دائبة لإلحاق الأذى بأجساد البشر وأرواحهم .

وكان الناس يعتقدون أن للملائكة ، ومخلفات الرسل والقديسين ، قدرة سحرية تنقذ الناس من تأثير القوى الشيطانية ، فنظروا إليهم نظرة ملوؤها بالتقديس والإكرام ، كما اعتبروا الكهنة وأبنية الكنائس ، والممارسات الدينية ، وسائط يتبركون بها .

ثم ساد الاعتقاد بأن من يحتقر هذه الأمور ، إنما يجلب على نفسه الأذى والهلاك . وهكذا أصبحت المسيحية في نظر عامة الشعب قوة مرعبة . والخوف هو الأب الشرعي لكل اضطرابات النفس والعقل والعلاقات الاجتماعية .

وقد يستغرب الإنسان للوهلة الأولى ، ويدهشه أن يرى المسيحية وقد تحولت عن بساطتها وروحانياتها ، لتضحى على هذه الصورة ، لكن علينا أن نتذكر ، أن هؤلاء العابدين الذين دخلوا إلى المسيحية ، معظمهم جاء إلى المسيحية دون تغيير أو تجديد ، فجاءوا معهم بعقائدهم الوثنية ، ولا نجانب الصواب إن قلنا إنهم كانوا مسيحيين إسما ، وثنيين فعلا ، وظلت نظرتهم إلى المسيحية ، هي نفس النظرة التي كانوا ينظرون بها إلى عبادتهم الوثنية ، تلك العبادة التي كانت تتم في إطار من الخوف والفرع ، وما ذلك إلا لأنهم لم يختبروا فرحة الخلاص .

وربما وجد رجال الدين ، أنه لاسبيل للسيطرة على هؤلاء الأجلاف الذين لم يتهذبوا ، سوى إذكاء روح الخوف في نفوسهم ، لكي يسلس قيادهم ، ويسهل توجيههم . وربما أنهم أيضاً ، لم يروا بأساً من الإبقاء على بعض الإعتقادات الوثنية ، مع صبغها بصبغة مسيحية ، لإرضاء هؤلاء المتنصرين .

الأيقونات :

ولعله مما ساعد على استمرار هؤلاء الناس في جهالتهم ، أن العبادة كانت باللغة اللاتينية ، التي لم يكن العامة يفهمونها ، فاستعان رجال الدين بالصور واللوحات الدينية ، التي تحكى قصص الإنجيل ، وتعاليم المسيح . لكن شيئاً فشيئاً ، كسبت هذه الصور نوعاً من التقديس والتكريم ، وتطور الأمر إلى السجود ورفع الصلوات أمامها ، والتبرك بها ، وهذه دون شك صورة من صور العبادة الوثنية القديمة ، التي كانت مألوفة لدى أولئك المتنصرين في ديانتهم القديمة .

هذا هو الجانب المظلم ، من الحياة الدينية التي شهدتها الفترة التي نتحدث عنها الآن ، لكن فجأة وفي وسط الظلام ، أشرق على صفحة الكون نور .

الرهبان يطلقون الشرارة الأولى للإصلاح :

ما إن بزعت شمس القرن الحادى عشر الميلادى ، حتى بدأت نهضة دينية عمت كل نواحي الحياة في أوروبا ، بصورة تناسب ذلك العصر .

فبحلول السنة الألف بعد الميلاد ، ساد بين الناس الإعتقاد ، بأن تلك السنة هي خاتمة الألف التالية لمولد السيد المسيح ، وقد نظر إليها الناس نظرة ملؤها الخوف ، ربما لأنهم اعتقدوا أنها سنة المحيى الثانى للمسيح ، وكانت حالهم كما أسلفنا .

لكن إذ مر ذلك العام بسلام ، بدأ الناس يتنفسون الصعداء ، وبدأت تدب فيهم روح جديدة ، ولاحت عليهم علامات التقدم . ولعل السبب في هذا التقدم ، هو أن أوروبا بدأت تعرف معنى الاستقرار ، بعد فترة طويلة عانت فيها من الحروب والمصادمات الدموية . ففي ألمانيا بدأ الناس يعيدون بناء بلادهم ، وبالتدريج ، راحوا يرتقون مدارج الحضارة ، بعد أن كف النورمنديون والدانيون عن مهاجمة بلدان جنوب أوروبا ، كما كان العرب قد استتب لهم الأمر في أسبانيا ، وتوقفوا عن تسيير الجيوش إلى أوروبا .

عندئذ بدأت أوروبا تفيق لنفسها ، وراح أهلها يقدحون زناد الفكر ، وكانت هذه هي الفرصة الذهبية التي لاحت للمسيحية ، لكي تؤدي رسالتها وتقوم بدورها ، دون أن يقف في طريقها عائق ما ، من تلك العوائق التي واجهتها في القرون السابقة .

الرهبان يطلقون الشرارة الأولى للإصلاح !

ربما كانت أعظم صدمة تصيب المتأمل في الأحوال التي سادت في خلال هذه الفترة ، هي حالة الفساد التي دبت في الأديرة ، وتفشت بين الرهبان ، الذين لم يدخلوا الأديرة ، إلا هرباً من نجاسات العالم وشروره .

لكن ما يعزى النفس ، هو أنه من بين الرهبان أيضاً ، خرجت الشرارة الأولى ، وارتفعت الأصوات تنادى وتطالب بالإصلاح .

في ذلك الوقت أنشئ دير كلوني في جنوب شرق فرنسا . وقد التزم رهبان ذلك الدير بنظام « بندكت » ، في صيغته المتشددة الأولى . ومن ذلك الدير ، بدأت حركة إصلاحية شاملة عمت أرجاء كل من فرنسا وألمانيا .

فريق الرهبان المصلحين :

ظهر هذا الفريق في بكور القرن الحادى عشر الميلادى ، وقد أخذ هؤلاء المصلحون على عاتقهم ، مسئولية إصلاح الكنيسة ، وإنقاذها من أخطبوط الفساد والإ انحلال ، وكانت هذه الجماعة من الرهبان الأتقياء ، الذين تشبعوا بروح التقوى والصلاح ، والغيرة المقدسة . وكان هدفهم ، هر تحرير الكنيسة من روح العالم ، وإنقاذها من سلطان الشر والخطية .

وقد وضعوا لأنفسهم برنامجا يتكون من ثلاثة بنود :

١ - إعلان الحرب على شراء المناصب الكنسية بالمال (السيمونية) .
وقد تفشى هذا الداء فى الكنيسة عندما اتسعت دائرة ممتلكاتها ، وأنحمت جيوب قادتها وخزائنها بالمال ، خاصة وأن الأمراء والنبلاء والحكام المدنيين ، هم الذين كانوا يقومون بتعيين الأساقفة ورؤساء الأديرة . وكانت هذه هى خميرة الشر التى خسرت العجين كله ، لأنه ترتب على ذلك تعيين أشخاص غير أكفاء فى مراكز القيادة فى الكنيسة ، طالما أن لديهم المال الذى يشترى به تلك المراكز .

٢ - البند الثانى الذى وضعه فريق الرهبان المصلحين ، هو إجبار رجال الإكليروس ، على الإلتزام بحياة العزوبة ، وكانت هذه قاعدة متبعة فى الكنيسة الكاثوليكية ، قبل ذلك بزمان طويل ، غير أن كثيرين من الكهنة والأساقفة لم يلتزموا بقانون التبتل ، وكان هناك فى الفترة موضوع حديثنا ، كثيرون منهم متزوجين .

أما إصرار فريق الرهبان المصلحين ، على ضرورة العودة إلى الإلتزام بقانون عزوبة الكهنة ، فكان مبنيا على أن الكهنة والأساقفة المتزوجين ، لا بد وأن يهتموا بمستقبل أبنائهم ونسائهم ، فيعملون على مضاعفة ممتلكاتهم
(م-٤)

وأموالهم ، ولا شك في أن هذا سيكون على حساب خدمتهم وواجباتهم الدينية ، نحو الشعب .

وكان هؤلاء المصلحون ، يعتقدون أنهم لو تمكنوا من تنفيذ هذين البندين ، فإنهم سيحققون قدراً كبيراً من الإصلاح المنشود ، بتحرير الكنيسة من روح العالم .

٣ - البند الثالث من بنود البرنامج الإصلاحى ، الذى وضعه فريق الرهبان المصلحين ، كان هو تطهير حياة الإكليروس الشخصية من الخطايا التى كانوا مستعبدين لها ، وللوصول إلى تحقيق هذه الغاية ، طالبوا بإعطاء البابا سلطات واسعة ، لإصدار أحكام رادعة ، ضد كل من يخرج على تعاليم الكنيسة وقوانينها .

وقد بدأ هؤلاء الرهبان المصلحون تنفيذ برنامجهم ، فى عام ١٠٤٩م . ، عندما ارتقى الكرسي البابوى واحد منهم ، تحت اسم « البابا ليو التاسع » . وقد تبنى هذا البابا ، برنامج الإصلاح المشار إليه ، وكانت النتيجة طيبة ، إذ تحسنت الأحوال نوعاً ما .

وكل من جاء بعد ذلك من الباباوات ، كان يتبنى برنامج الإصلاح ، وعلى رأس هؤلاء الباباوات المصلحين ، يقف البابا « هلدبراند » ، الذى كان أعظمهم جميعاً ، والذى قاد بنفسه حركة إصلاحية رائعة . وسيأتى الكلام عنه فى مكان آخر من هذا الكتاب .



نظرة على الشرق

[مجادلات وانقسامات - مشكلة الايقونات والصور -
يوحنا الدمشقي] .

مجادلات وانقسامات :

ألم تسمع عن المناقشات البيزنطية ؟ إنها تعبير عن ولع البيزنطيين بالجدل والمناقشة . وقد ظهر هذا الولع بالجدل ، في استمرار المناقشات حول شخص السيد المسيح . فبعد ما وضع السؤال حول شخص المسيح على مائدة البحث في مجمع خلقيدونية (٤٥١ م) بواسطة اليعاقبة الذين كانوا منتشرين في أقاليم آسيا الصغرى وسوريا وبلاد ما بين النهرين (العراق) ، والأقباط ، وهم مسيحيو مصر ، وكان أهل هاتين الطائفتين قد انشقوا عن الكنيسة الكاثوليكية في القرن السادس الميلادي .

بعد ذلك ظهر الاعتقاد بوجود طبيعتين ومشية واحدة في شخص المسيح ، وقد اعترض الأقباط الأرثوذكس على هذا الرأي ، وفي المجمع السادس ، الذي عقد في القسطنطينية في سنة ٦٨٠ م . ، تقرر شجب هذه العقيدة .

ورغم أن الكنيسة الغربية لم تشجع هذه المجادلات ، إلا أن البابا

« هونوريوس الأول » ، انضم إلى أصحاب مذهب الطبيعتين ، فحكم مجمع القسطنطينية بعزله باعتباره هرطوقيا .

مشكلة الأيقونات والصور :

عندما سيطر المسلمون على بلاد الشرق ، وشاهدوا الصور واللوحات معلقة في الكنائس ، ورأوا الناس يتبركون بها ويسجدون أمامها ، وجد المسيحيون ذواتهم متهمين بتهمة الشرك ، والإنحراف عن عبادة الإله الواحد الأحد . وتأيد هذا الإتهام ، بالقرار الذي أصدره مجمع نيقية الثاني (٧٨٧م) . بعدم التعرض للأيقونات والصور .

وفي القرن الثامن ، عادت مشكلة الصور للظهور من جديد ، وكانت ظاهرة وجود الصور قد تفشت بشكل لافت النظر ، بعد وفاة البابا غريغوريوس الأول . ولم يقف الأمر عند حد تكريم الجهلة للصور ، لكن تطور الأمر إلى حد اعتبارها أشياء خارقة ، لدرجة أنه قيل إن لوقا البشير قد رسم بعضها منها ، وأن الرب يسوع قد رسم أيضاً بعضها ، كما شاع القول عن بعض الصور ، بأنها ليست من صنع بشر .

وعندما اعتبر المسلمون تكريم الصور شركاً ، حاول الإمبراطور « ليو » في سنة ٧٢٦ م . ، أن يعالج الموقف بحل وسط ، فقرر الإبقاء على الصور . على أن توضع على إرتفاع كبير ، بحيث يتعذر على الناس لمسها أو تقيلها ، كما اعتادوا أن يفعلوا ، وبهذا يضرب عصفورين بحجر فهو بذلك يبتقي على اللوحات الثمينة والمحبة لدى الشعب ، وفي الوقت عينه ، ينقي عن المسيحيين تهمة الشرك وتقديم العبادة لغير الله . لكن هذا الحل لم يلق قبولا من أحد من القادة الدينيين ، حتى المفكر الكبير يوحنا الدمشقي ، الذي كان من كبار مفكري ذلك العصر ، فهاجم الإمبراطور ، واعتبر

قراره تدخلا غير مرغوب في شئون الكنيسة ، معلناً أنه لا شأن للامبراطور بأمور العبادة ، التي لا يجب أن يحكم فيها غير رجال الدين . لكن الامبراطور « ليو » استطاع أن يقضى على هذه الحركة المعارضة ، وأمر بنزع الصور من الكنائس في كل ربوع الامبراطورية . وقد ذهبت أدراج الرياح ، احتجاجات البابا « غريغوريوس الثاني » ، وخلفه البابا « غريغوريوس الثالث » ، فأصدر هذا الأخير قراراً يقضى بقطع كل أعداء الصور من عضوية الكنيسة ، على أثر هذا اقتطع الامبراطور بعض مناطق جنوب إيطاليا ، وضمها إلى بطريك القسطنطينية ، وكان هذا سبباً آخر ، من أسباب توسيع شقة الخلاف بين الشرق والغرب .

وبعد وفاة الامبراطور « ليو » ، خلفه على عرش الامبراطورية ابنه « قسطنطين الخامس » الملقب « كبرونيموس » ، وكان أكثر تشدداً من أبيه في معارضة الصور ، ولما لم يستطع مقاومة الرأي العام ، دعا إلى عقد مجمع مسكوني ، لم تتوفر له سبل الانعقاد ، نظراً لأن أساقفة كل من الاسكندرية وأنطاكية وأورشليم ، لم يتمكنوا من حضور ذلك المجمع ، بسبب سقوط بلادهم في أيدي المسلمين ، فاكتفى الامبراطور بعقد مجمع إقليمي ، أصدر قراراته بوجوب إزالة الصور والتماثيل من الكنائس ، حتى صورة الصليب ، كما حرموا وضع الصور في البيوت . كذلك حرموا استخدام أي رمز ديني ، والرمز الوحيد الذي صرحوا باستخدامه في العبادة ، هو العشاء الرباني .

على أثر هذا تم جمع كل الصور والتماثيل من كل الكنائس في أنحاء الإمبراطورية وتحطيمها .

وقصة الصور في الكنيسة قصة قديمة ، ترجع إلى عهد البابا « غريغوريوس الأول » ، ويروي التاريخ أن « سيرنيوس » أسقف مرسيليا ، وجد أناساً

يسجدون أمام الصور ، فأمر بتحطيمها جميعاً ، ولما بلغ الأمر مسامع البابا ، كتب إلى هذا الأسقف يقول : « إني أحبي فيك هذه الغيرة المقدسة ، لمنع السجود لغير الخالق العظيم ، لكن ما كنت أود قط أن تحطم تلك الصور ، التي وضعت في الكنيسة لتجسيد الحقائق الروحية ، والتواريخ والقصص الدينية ، للناس الذين لا يعرفون القراءة والكتابة » . . . إلى أن وصل في خاتمة الرسالة إلى القول . . . « إن أراد أحد عمل صورة أو اقتناءها لاثمنه ، لكن إن وجدت إنساناً يسجد أمام صورة أو يتعبد لها ، فلك أن تفعل ما تشاء لمنعه من هذا العمل الشرير » .

يوحنا الدمشقي :

وهو من أشهر علماء اللاهوت في الكنيسة الشرقية وقد ولد في دمشق قرب نهاية القرن السابع ، وتوفي حوالي سنة ٧٣٦ م . وكان أبوه واحداً من موظفي الدولة في أيام بني أمية ، وبعد موته خلفه ابنه « يوحنا » في هذه الوظيفة .

ولفصاحته اعتبروه يوحنا فم الذهب الثاني ، وكانت مؤلفاته وأبحاثه موضع تقدير بين أهل زمانه .

وقد جمع عقائد الكنيسة في صورة نظامية ، في مجلد كتبه بأسلوب فلسفي عميق . وتصدى لكتابات الهراطقة وعقائدهم ، وفندها واحدة فواحدة . وكل كتاباته تدل على تعمق في علم اللاهوت ، وبراعة في قوة الإقناع ، ومقارعة الحججة بالحجة ، وتبدو قوته وبراعته في الجدل ، في المناظرة التي كتبها وجعل أحد طرفيها مؤمناً مسيحياً ، والطرف الآخر واحداً من المسلمين ، وأجرى على لسان كل منهما أدلته وبراهينه على صحة دينه .

وكان « يوحنا الدمشقي » من المدافعين عن وجود الصور والأيقونات في الكنائس ، وكتب في هذا الخصوص عدة بحوث .

وبعد فترة من الزمان قضاها في وظيفته ، إستولى عليه حنين روحى ، أدى به إلى التخلي عن وظيفته وممتلكاته ، ودخل ديرا بالقرب من بيت المقدس ، هودير مارسابا ، وهناك قضى البقية الباقية من عمره .

ومما يؤثر عنه ، أنه حاول التوفيق بين الكنيسة الشرقية وأختها في الغرب عندما شجر الخلاف بينهما حول كلمة أضيفت إلى قانون الإيمان النيقوى ، عند بحث موضوع انشقاق الروح القدس ، فاعترض الشرق على إضافة كلمة « والإبن » ، إلى العبارة القائلة « ... المنبثق من الآب » التى جعلها مجمع نيقية « ... المنبثق من الآب والإبن » ، وأصرت الكنيسة الشرقية على الإحتفاظ بالنص كما هو دون إضافة ، وتمسك الغربيون بموقفهم ، فأراد يوحنا الدمشقي أن يوفق بين وجهتى النظر ، وإقترح تعديل الصيغة لتصبح العبارة « ... المنبثق من الآب بالإبن » لكن تمسك كل من الفريقين برأيه ، لأن حقيقة الخلاف ، كانت بسبب التنازع على الرئاسة ، والخلافات السياسية .

وبرغم قيام علماء أفذاذ من بين أعضاء الكنيسة الشرقية ، أمثال « يوحنا الدمشقي » إلا أنه يمكن القول بأن هذه الكنيسة أصبحت شبه ميتة ، ولولا انضمام الكنيسة الروسية إلى دائرة الكرسي البطريركى في القسطنطينية ، لما اتسعت دائرة نفوذها البتة . ولضالة حيويتها ، لم يحدث فى الكنيسة الشرقية (اليونانية) تغيير ملموس . ولكن مما تجدر الإشارة إليه ، أن ذلك الجناح من الكنيسة ، ظل محافظاً على بساطة الإيمان المسيحى ، وإن كان هذا قد أدى بدوره ، إلى محدودية الدور الذى قامت به فى العمل على امتداد ملكوت الله .

الفترة الثانية
ذروة العصور الوسطى
(١٠٧٣ - ١٢٩٤ م)

٦

البابوية في الغرب

[البابا غريغوريوس السابع (هلدبراند) - البابا انوسنت الثالث - الكنيسة مصدر السلطات] .

البابا غريغوريوس السابع « هلدبراند » (١٠٧٣ - ١٠٨٠ م)

ولد هلدبراند لأبوين من رعايا إيطاليا ، ومع أنه لم يكن راهباً ، إلا أنه تشبع بروح الإصلاح ، التي سادت بين رهبان ديركلوني . وكان يشغل وظيفة صغيرة في الكنيسة ، لكنه مع هذا ، قام بدور فعال ، راح يؤديه من وراء الستار ، طوال الفترة من ١٠٤٩ إلى ١٠٧٣ م ، أي منذ ارتقاء البابا « ليو التاسع » ، إلى أن جلس هو على الكرسي البابوي .

وطوال الفترة السابقة لتوليّه منصب البابا ، كان هو صاحب الرأي في اختيار الباباوات ، وهو الذي كان يضع لهم الخطط والبرامج . وظل يعمل بثبات ، لتحقيق الإصلاح المنشود ، وتجديد الحياة في الكنيسة ، وكان هذا التجديد هو شغله الشاغل ، فترة طويلة من الزمان ، إلى أن أتت له الفرصة ، لتحقيق هذا الهدف المبارك ، عندما ارتقى الكرسي البابوي في عام ١٠٧٣ م ، وكان آنذاك قد ذهب لحضور قداس احتفالي أقيم على روح البابا الراحل « الإسكندر الثاني » ، في كنيسة القديس بطرس ، وما إن وقعت عليه الأنظار ، حتى راحت جماهير الحاضرين

تهتم وتصيح قائلة : « القديس بطرس يختار « هلدبراند » ، فاختاره الكاردينالات لوظيفة البابا باسم « غريغوريوس السابع » .

وكان هذا الرجل من طراز نادر ، لدرجة أن أحد الحكام العظام قال في معرض حديث له : « لو لم أكن نابليون ، لتمنيت أن أكون هلدبراند » . وهذا القول يرينا كيف أن الرجل كان واحداً من أولئك الأفذاذ ، الذين يجود بهم الزمان ، بين الحين والحين .

عندما ظهر هذا الرجل العظيم على مسرح الأحداث ، كانت البابوية قد هوت إلى الخضم ، لكنه رفعها إلى الذرى ، وجعلها أعظم قوة في غرب أوربا بأسرها . إنه كان واحداً من أعظم الباباوات جميعاً ، بل يمكن القول بضمير مستريح ، إنه المؤسس لبابوية العصور الوسطى ، حتى إذا كان قد ظهر قبله رجل عظيم مثل البابا غريغوريوس الأول .

وكان قد وضع أمامه صورة رائعة ومثلاً أعلى ، لما يجب أن تكون عليه البابوية ، وخطط ونفذ ما رسمه من خطط ، لكي يحول الحلم إلى حقيقة رائعة . ومن الأهداف العظيمة التي حققها « هلدبراند » :

١ - تحرير الكنيسة من سلطان الحكام . فقد كانت الكنيسة واقعة تحت سلطان الأباطرة ، الذين كانوا يدسون أنوفهم في شئونها ، ويتدخلون في أمورها . وفي الفترة السابقة لظهور « هلدبراند » ، كان اختيار البابا من اختصاص الإمبراطور ، وفي أثناء تولي البابا « نيقولاوس الثاني » (١٠٥٨ - ١٠٦١ م) ، تم تأسيس كلية الكرادلة ، وهؤلاء وحدهم ، صار من حقهم اختيار البابا ، وبهذه الطريقة لم يعد للإمبراطور أى تدخل في هذا الأمر ، وأصبحت الكنيسة وحدها ، هي صاحبة الحق في تعيين

البابا أو إنتخابه ، ومضى ذلك العهد ، الذى كان فيه الإمبراطور ، يعرض على الكنيسة عدداً من الأشخاص ، تختار من بينهم رئيسها ، وكان « هلدبراند » (غريغوريوس السابع) ، هو المحرك الأول لتحقيق هذا الهدف .

٢ - خطوة أخرى تكميلية ، كانت ضرورية لتحرير الكنيسة ، ألا وهى إنتزاع حق تعيين الأساقفة ، من أيدي الحكام والملوك . ولاريب فى أن « هلدبراند » ، كان على حق ، فى الإقدام على هذه الخطوة ، لأنه لم يكن من المعقول أو المقبول ، أن يقوم الملوك والحكام المدنيون ، بتعيين الأساقفة فى المناطق التى يحكمونها ، لأن منصب الأسقف من المناصب القيادية فى الكنيسة ، والكنيسة وحدها هى التى يجب أن تختار قادتها .

وقد رأى « هلدبراند » ، أن إنتزاع هذا الحق من أيدي السلطات الزمنية ، سوف يعيد الأمور إلى نصابها ، ويضع حداً للمفسد والشرور ، والسيمونية ، لأن الحكام لم يكن يهمهم أن يختاروا الأصلح والأجدر ، لكنهم كانوا يختارون الأغنى والأقدر ، والذى يدفع أكثر .

وقد واجه « هلدبراند » مقاومة عنيفة من أولئك الحكام ، الذين عز عليهم ، أن ينتزع منهم اختصاص ، ظلوا يمارسونه زمناً طويلاً ، لكنه لم يأبه بما لقيه من الأمراء فى دول غرب أوربا ، من مقاومة عنيفة ، وبقي راسخاً فى موقفه لا يتزعزع عنه ، الأمر الذى أدى فى النهاية ، إلى حدوث مواجهة بينه وبين أكبر رأس من رؤوس السلطة الزمنية ، أى الإمبراطور « هنرى الرابع » ، حاكم ألمانيا ، أو إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة .

وهكذا وقع ما لم يكن منه بد ، وحدث الصدام الذي لم يكن من الممكن تجنبه ، بين القوتين العظميين في غرب أوروبا في ذلك الوقت ، وهما الكنيسة والدولة .

ولم يرضخ الإمبراطور ، ورفض التسليم بمطالب البابا ، وبعد الكثير من الأخذ والرد ، والتهديد والوعيد ، أصدر البابا قراراً بالحرمان^(١) ضد الإمبراطور ، كما أعلن عزله من العرش . وكان الإمبراطور مكروها من رعاياه ، في بعض أرجاء الإمبراطورية ، وفي فترة سابقة ، كان بعضهم قد أعلن الثورة على الإمبراطور ، وكان هذا عاملاً هاماً ، إذ وجد « هنري الرابع » نفسه عاجزاً عن اتخاذ إجراء مضاد ، فاضطر أخيراً للخضوع ، وتقديم التنازلات ، لاسترضاء الشعب والنبلاء في ألمانيا ، وإعلان الخضوع الكامل لسلطان البابا ، حتى لا يفقد عرشه ، وذلك في خلال السنة التالية لصدور قرار البابا ، بفصله من عضوية الكنيسة . لكن في نهاية العام ، اجتمع مجلس النبلاء برئاسة البابا ، وقرر انتخاب إمبراطور آخر ، يخلف « هنري الرابع » في عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وبهذا يتم الخلاص منه نهائياً .

لكن الإمبراطور راح يحاول الحصول على إلغاء قرار الحرمان الصادر ضده ، لكي تعود إليه عضويته في الكنيسة ، وبهذه الطريقة يتقوى مركزه ، وتصبح الفرصة أمامه سانحة لاسترداد العرش .

ولم يشأ الإمبراطور أن يقف مكتوف اليدين ، فأخذ ابنه وزوجته معه إلى إيطاليا ، ووصل في شتاء عام ١٠٧٧ م ؛ إلى مدينة كانوسا حيث

(١) فصله من عضوية الكنيسة .

كان يقيم البابا ، الذى رفض أن يقابله . وراح أصدقاء الطرفين ، يتوسلون إلى البابا ، لكى يرضى عن الإمبراطور ويعقد صلحا معه ، غير أن البابا أصر على موقفه .

ومع ذلك أظهر الإمبراطور خضوعا كاملا ، وذات صباح قارس ، وقف حافى القدمين أمام باب القلعة التى يقيم فيها البابا ، وراح يقرع الباب ، طالبا الرحمة والرضا ، لكن البابا لم يلق إليه بالا ، فراح يقرع باب القلعة طيلة النهار ، ولما لم يستجب البابا ، ظل الإمبراطور على هذه الحال يومين آخرين ، يقرع ويسترحم .

وبعد طول إنتظار ، قرر البابا إلغاء قرار فصل الإمبراطور من عضوية الكنيسة ، وترك أمر إعادته إلى العرش لمجلس النبلاء ، بشرط أن يعلن خضوعه للبابا خضوعاً كاملاً ، فى كل ما يتصل بأمور الكنيسة .

وهكذا انتصر البابا على الإمبراطور ، لكن موقعة كانوسا هذه لم تكن خاتمة المطاف بالنسبة للمواجهة بينه ، وبين أعظم قوة حاكمة فى غرب أوروبا .

وكان الناس ينظرون إلى الإمبراطور ، على أنه معين بسلطان إلهى ، الأمر الذى أدى إلى التفاف الشعب فى ألمانيا حول الإمبراطور ، الذى راح يجمع حوله الأنصار ، من الناس المتعاطفين معه ، مستغلا شعور السخط ، الذى ولده فيهم موقف البابا المتشدد منه ، وإذلاله له . فعاد البابا مرة أخرى ، وأصدر قراراً بفصل الإمبراطور من عضوية الكنيسة ، لكن هذا الأخير لم يأبه هذه المرة ، وسير جيشا جرارا ، دخل به إلى رومية ، فاضطر البابا للهرب ، وظل فى المنفى ، حتى وافته المنية بعد

ذلك بعدة سنوات ، وعند موته قال : « لقد أحببت البر ، وأبغضت الإثم ، وها أنا أموت منفياً » .

على أن ما وقع في كانوسا ، كان إنتصاراً للبابا والكنيسة ، برغم كل ما حدث بعد ذلك .

ولم ينته هذا الصراع ، بين البابا والإمبراطور ، إلا في سنة ١٠٢٢م عندما تقرر أن يتم اختيار الأساقفة بواسطة الإكليروس ، على أن يؤيد البابا هذا الاختيار ، ويرخص للأساقفة بممارسة الخدمة .

وبهذا تم فصل السلطات ، وتوزيع الاختصاصات ، الإمبراطور يمنح رجال الكنيسة السلطان ، على إدارة الممتلكات والإقطاعيات ، ويمارس هو من جانبه ، السلطان على الإقطاعيين في إمبراطوريته ، والكنيسة تبشر سلطانها في تدبير أمورها ، واختيار قادتها ، بغير تدخل من السلطة الزمنية .

٣ - تحرير الكنيسة من روح العالم ، فقد رأى « هلدبراند » ، أن الأمور الدينية قد أحكمت قبضتها على رقاب رجال الإكليروس ، فوضع في قلبه تحقيق الإصلاح الذي وضع برنامجه ، رفاقه من الرهبان المصلحين . وقد رأى أنه من الضروري العودة بالإكليروس إلى حياة العزوبة ، باعتبارها خطوة هامة على الطريق ، لتحرير الكنيسة من العالم .

وكان « هلدبراند » يرى أن زواج رجال الإكليروس ، يعوقهم عن التفرغ لأداء الخدمة المطلوبة منهم ، سعياً وراء ضمان العيش والرفاهية لأبنائهم وزوجاتهم ، كما أن اهتمامهم بتدبير شئونهم العائلية ، يتم بغير

شك على حساب مصلحة الكنيسة . كان هذا هو رأى « هلدبراند » ، وربما كانت الأحوال السائدة في عصره ، هي التي أدت إلى تمسكه بهذا الرأى . غير أنه ثبت بالإختبار في الكنائس التي كانت تستخدم خداما متزوجين ، أنه لا أساس لتلك الأفكار ، التي سيطرت على فكر ذلك المصلح الكبير ، لأن كثيرين من أولئك الخدام ، أثبتوا جدارة ، ونجاحاً منقطع النظير ، في القيام بخدمتهم .

ولكى نفهم الأسباب التي حدثت بهلدبراند ، إلى الاعتراض على زواج رجال الإكليروس ، يجب أن نتذكر أن الكنيسة في عصره ، كانت تمتلك مساحات شاسعة من الأرض ، وكان يتولى إدارتها أساقفة متزوجون وكان الزواج محرماً على الإكليروس ، بحسب قوانين للكنيسة ، التي كانت تعتبر من يتزوج من هؤلاء شخصاً لا خلاق له .

وكان « هلدبراند » مقتنعاً تمام الإقتناع ، بأن حياة الرهبنة هي الصورة المثلى للحياة المسيحية الحقة . ولعله من الغريب أن يتولى هذا الرجل ، قيادة جماعة الرهبان المصلحين ، رغم أنه لم يكن راهباً ، ويبدل جهده لى يجعل رجال الإكليروس ، يحيون حياة العزوبة ، كالرهبان سواء يسواء :

وفي سبيل الوصول إلى هذا الهدف ، شن اضطهاداً عنيفاً على المتزوجين منهم ، وأرغمهم على الانفصال عن زوجاتهم ، وأصدر تعليماته إلى الشعب بتجنب الكهنة المتزوجين ونبتهم . ولئن كان لم ينجح في القضاء التام على زواج الكهنة ، إلا أنه نجح في تأليب الرأى العام ضد الكهنة المتزوجين ، الأمر الذى أدى إلى تقليل هذه الظاهرة إلى أقل حد ممكن ، أما الكنيسة عامة ، فقد جددت موقفها ، الذى أصبح ضد زواج الإكليروس على طول الخط :

البابا هو صاحب الكلمة العليا في الكنيسة :

كانت السلطة البابوية ، هي الوسيلة التي استخدمها « هلدبراند » ، لتحقيق الإصلاح المنشود في الكنيسة ، بتطهيرها من المفساد ، التي كانت قد نفشت . وكان لازماً أن تكون للبابا سلطة مطلقة ، وحكم نافذ في كل الأمور في الكنيسة :

وكان - « هلدبراند » - يرى أن الكنيسة يجب أن تكون دولة أخرى برأسها البابا ، الذي ينبغي أن يخضع له جميع الأساقفة والإكليروس والرهبان خضوعاً مطلقاً ، باعتباره خليفة « بطرس الرسول » ، وحامل مفاتيح ملكوت السموات ، الذي له أن يحل ويربط كما يروق له . وقد أفلح في استخدام هذا السلطان المطلق ، للوصول إلى أهدافه .

ومن ذلك التاريخ فصاعداً ، أصبحت إرادة البابا هي العليا ، رأيه هو الصواب ، وقوله فصل الخطاب ، في كل القضايا والشئون .

الكنيسة بحسب فكر « هلدبراند » :

لم تقف أحلام « هلدبراند » ، عند حد تحقيق الإصلاحات التي سلف ذكرها ، لكنه كان طموحاً جداً ، من جهة ما يجب أن تبلغه الكنيسة ، التي كان يرى أنها يجب أن تكون لها السيادة على العالم بأسره ، وكان تحرير الكنيسة من الروح الدنيوية ، ومن تدخل السلطات المدنية في شئونها ، مجرد خطوات على الطريق ، لتحقيق هذا الهدف الأبعد .

إنه كان يرى أن الكنيسة برئاسة البابا ، يجب أن تكون لها اليد الطولى والرأى المعلن في تسيير الأمور ، كما أنها يجب أن تكون القوة العظمى ، التي تخضع لها كل القوى الأخرى التي في العالم . وكان يرى أن الحكام

يجب أن يخضعوا لسلطان البابا ، وفي حالة عدم خضوعهم له ، يقوم البابا بعزلهم من مناصبهم ، ويحل رعاياهم من الخضوع لهم ؟ فالكنيسة هي صاحبة السلطان الروحي الفائق . من هذا نرى أن « هلدبراند » ، كان يريد أن يكون العالم مجموعة من الولايات المتحدة ، تدور كلها في فلك الكنيسة ، وتمثل لأوامر البابا ، الذي هو الرأس المنظور للكنيسة .

وهنا ينبغي ألا نتسرع في حكمنا على الرجل لثلاث نظلمه ، إن الأمر يتطلب منا أن نتخلى قليلاً عن آرائنا الشخصية ، وننظر إلى الأمور من خلال مرقبه ، وفي ظروف الزمان والمكان التي كانت محيطة به .

فجميعنا نرى أن ملكوت الله ، ينبغي أن يمتد ويتسع نطاقه إلى أن يشمل العالم بأسره . وفي العصور الوسطى ، عندما كان الناس في غرب أوروبا يسمعون هذا الكلام ، في الحال ، كانت أنظارهم تتجه إلى الكنيسة ، باعتبارها التجسيد الحي لملكوت الله ، وكانت الكنيسة الكاثوليكية ، هي الكنيسة الوحيدة التي لم يعرفوا سواها .

وفي ضوء هذا المفهوم ، كان السعي إلى أن تتبوأ هذه الكنيسة مكانتها المرموقة ، ومكانها الرائد في القيادة ، وتسيير دفة الأمور في أوروبا ، هذا كله كان يعتبر سعياً ، لتحقيق الحلم الذهبي لسيادة المسيحية . وما دامت السيادة من حق الكنيسة وحدها ، فبالطبع ينبغي أن يكون رئيس الكنيسة (البابا) ، هو الرئيس المطلق ، لكل القوى والكراسي الحاكمة في أوروبا . وكان الناس في ذلك الزمان ينظرون إلى البابا ، على أنه الشخص الذي اختاره الله ، ليكون رأساً للكنيسة ، وكان المنطق يقول ، أنه إذا كان المفروض أن تمارس الكنيسة هذا السلطان ، فلماذا ينبغي أن تمارسه من خلال البابا .

إذا نظرنا إلى الأمور بهذه النظرة ، وقسناها بهذا المقياس ، فإننا نتجنب الوقوع في تجربة إصدار أحكام خاطئة ، على أفكار « هلدبراند » ، لا بل أكثر من هذا ، سوف نجد ذواتنا مضطرين إلى إنصافه ، والوقوف بجواره ، وتأييد نظرياته وأفكاره ، هو وكل من رأى رأيه ، وعاونه في تحقيقه .

ولعل المقتطفات التالية ، من رسالة^(١) أرسلها « هلدبراند » ، إلى الملك « وليم الفاتح » ملك إنكلترا ، تكشف لنا عن سمو دوافعه ، وخلوص نيته ، في تبني فكرة سيادة الكنيسة ، وسلطان البابا :

« كما خلق الله النورين العظيمين ، ووضعهما في كبد السماء ، لينيرا صفحة الكون ، هكذا وضع في الأرض قوتين عظيمتين ، ينبغي أن يخضع لهما كل الناس ، هاتان القوتان العظيمتان هما القوة البابوية ، والقوة الملكية . والقوة الأولى هي الأعظم ، بينما الأخرى تمثل النور الأصغر .

وبحكم تعاليم الديانة المسيحية ، يجب أن تنعقد السيادة ، لقوة البابا ، الذي هو بمعونة الله ، صاحب السلطان على كافة الملوك والحكام ، من حيث أنه هو صاحب السلطان الرسولي ، والمستول عن جميع المسيحيين ، ملوكا ورعايا ، ليعطي عنهم حسابا أمام الله .

فإن كنت ترغب أن يظل السلام بلادك وشعبك ، وإن رمت النجاة من العطب والهلاك ، عليك أن تقدم لنا الطاعة الواجبة ، طاعة مطلقة ،

(١) هذه الرسالة وإن كانت لا تحمل تاريخا محددا ، غير أن الآراء أجمعت على أنها صدرت فعلا عن البابا « غريغوريوس السابع » ، وقد اعتبرها المؤرخون ، واحدة من وثائق العصور الوسطى (انظر كتاب : مقتطفات من وثائق العصور الوسطى لهندرسون) .

وتخضع لنا خضوعاً تاماً ، لأنك إذ تكرمنا ، فإنك بهذا تكرم الله وتمجده ، معطياً لهذا الأمر من الاعتبار والإهتمام ، ما تعطيه للاحتفاظ لنفسك بقدر عظيم من الكرامة والإحترام . عالماً أن عليك أن تحب الرب إلهك بكل قلبك وكل قدرتك ، وتحبه بعقل طاهر وذهن نقي .

البابا انوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦ م) :

هو الكاردينال « لوثاريوكونتي » ، وقد جلس على الكرسي البابوي في ١١٩٨ م . باسم البابا « انوسنت الثالث » ، ويعتبره بعض المؤرخين أعظم من جلس على كرسي الرسول بطرس . وقد بلغت الكنيسة في عصره ، ما لم تبلغه في عصر سلفه العظيم ، فتبوأ مكانة علياً ، وبلغت الصورة التي كان قد رسمها لها « هلدبراند » .

ومما يؤثر عن البابا « انوسنت الثالث » قوله : « إن البابا يقف في الوسط بين الإنسان وبين الله ، فهو أقل من الله ، وأسمى من الإنسان ، ولذا فهو يحكم على جميع الناس ، ولا يحكم عليه من أحد » . وهكذا جمع في يده من السلطان ، قدراً أكبر بكثير جداً ، مما كان يحول بخاطر « هلدبراند » .

وأصبح « انوسنت » ، هو الذي يتوج ويعزل الحكام والملوك ، معلناً أنهم يتسلمون تبعاً منهم من يد البابا ، ومنه يستمدون سلطتهم . وقد أرغم « فيليب » ملك فرنسا ، « ويوحنا » ملك إنجلترا ، على تقديم فروض الطاعة والولاء له ، وكان الأول - فيليب - قد هجر زوجته بسبب امرأة أخرى ، أما ملك إنجلترا ، فكان قد دب خلاف بينه وبين أسقف كنتربري .

وكانت أحكام الحرم ، هي السلاح القاطع ، الذى استخدمه البابا ضد هؤلاء الحكام . فأغلقت الكنائس ، وتوقفت الممارسات الدينية ، التى كانت فى نظر الناس ، هى الطريق الوحيد للخلاص نفوسهم ، كما منعت الصلاة على الموتى ، فبقيت جثثهم بغير دفن ، فاضطر الشعب فى كل من البلدين ، إلى مطالبة ملوكهم باسترضاء البابا ، وكان ملك إنجلترا ، أول من رضخ ، وأعلن أن إنجلترا وإيرلنده ، قد أصبحتا من ذلك الحين مقاطعتين مملوكتين للبابا ، فسمح له البابا بإدارة دفة الحكم فيهما ، مقابل دفع جزية للخزينة البابوية ، لإقراراً منه بملكية البابا لبلاده . بعد ذلك أعلن ملك فرنسا ، خضوعه لأمر البابا ، وعاد إلى حليلته ، بعد أن سرح خليلته .

وقد عرف «إنوسنت الثالث» ، بأنه المالك لمملكة سيشل ، ومن يده تسلم الملك «أراجون» تاج الملك ، ليحكمها فى ظل الخضوع ودفع الجزية للبابا . وفى ذلك الوقت ، كانت معظم بلاد غرب أوربا ، خاضعة لسلطان البابا .

والمرّة الوحيدة التى واجه فيها «إنوسنت الثالث» الفشل ، كانت فى إنكلترا ، عندما ثار البارونات على الملك «يوحنا» بعد إعلان خضوعه للبابا ، فأجبروا الملك على التوقيع على وثيقة الحقوق — «الماجنا كارتا» — فى عام ١٢١٥ م ، فأصدر البابا أمراً بأن يخضع النبلاء للملك ولا يقاوموه ، لكنهم لم يأبهوا بهذا الأمر ، وتجاهلوا مطلب البابا ، الذى أنقذه الموت ، من مواجهة هذه الهزيمة المنكرة أمام النبلاء .

من هذا نرى ، كيف أن البابوية فى عهد «إنوسنت الثالث» ، كانت قد بسطت سلطانها على أوربا الغربية ، أو بعبارة أخرى ، يمكن

القول ، إن الكنيسة من خلال البابا ، كانت في تلك الفترة ، هي التي تحكم في بلدان أوروبا الغربية . وبقيت الكنيسة تمارس هذا السلطان ، طيلة القرن الثالث عشر ، وتغلبت نهائياً على الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، التي كانت تنافسها على السلطة .

ففي خلال الفترة التي أعقبت جلوس البابا « غريغوريوس التاسع » على الكرسي البابوي ، وإلى أن جاء البابا « إنوسنت الرابع » ، كانت هناك حرب باردة ، كانت أحياناً تتحول إلى مواجهة ساخنة ، بين البابا والإمبراطور ، وظلت الأوضاع هكذا ، إلى أن انتصرت الكنيسة نهائياً ، عندما إنهزم أمامها الإمبراطور « فردريك الثاني » في عام ١٢٤٨ م . وبعد موته بعامين ، خلفه ابنه على العرش الإمبراطوري ، لكنه لم يبق في الحكم غير سنوات قلال ، بعدها خلا العرش الإمبراطوري لمدة تسعة عشر عاماً ، في نهايتها تم اختيار إمبراطور آخر ، ولم يستطع هذا أن يفعل شيئاً ، لأن الأمور كانت قد استتببت للكنيسة ، في خلال الفترة التي ظلت تحكم فيها ، وتسير دفة الأمور بغير منافس ، طوال سني خلو العرش الإمبراطوري .

الكنيسة مصدر السلطات :

في خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، مارست الكنيسة سلطاتها ، وبسطت نفوذها ، على كافة شئون الحياة اليومية ، لسكان أوروبا الغربية ، وكانت سلطاتها في هذا المجال ، تفوق أية سلطة مدنية ، لأن الناس كانوا يعتقدون ، أن ما تحله الكنيسة على الأرض يصير محلولا في السماء ، وما تربطه يصير مربوطا .

وكانت الكنيسة قد بلغت من التنظيم حداً ، جعل الناس جميعاً في أوروبا الغربية ، في متناول أحكامها وقراراتها . وقد وضعت الكنيسة بصماتها ، على كل شأن من شئون الحياة ، وتدخلت حتى في أبسط وأخص الخصوصيات ، ولم تحظ منظمة أخرى ، يمثل ما حظيت به الكنيسة آنذاك .

فمع غروب شمس القرن الثاني عشر الميلادي ، كانت أوروبا كلها مسيحية ، باستثناء أجزاء قليلة منها . ففي جنوب وشرق روسيا ، لم يكن هناك من الوثنيين ، غير بعض القبائل من عنصر آسيوي ، وأيضاً كانت هناك قلة من الوثنيين في الساحل الجنوبي الشرقي لبحر البلطيق ، وكانت أسبانيا قد خضعت للحكم الإسلامي .

وفي خلال القرن الثالث عشر ، تم إرغام الوثنيين بالقوة على إعتناق المسيحية ، بعد حروب دامية استمرت عدة سنوات . أي أنه في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، كانت المسيحية هي الديانة السائدة في كل أنحاء أوروبا على وجه التقريب . وكان معنى هذا ، أنه كان في وسع الكنيسة ، أن تقوم بنشر المعارف المسيحية بين هذه الشعوب ، خاصة وأن المسيحية ، كانت هي الديانة الرسمية في كل الدول الأوروبية تقريباً . وكانت بلاد كثيرة قد إنضوت تحت لواء المسيحية الإسمية ، مثل روسيا واليونان ومعظم دول شبه جزيرة البلقان ، وهذه المناطق كانت تتبع الكنيسة الشرقية (اليونانية) بينما كانت بقية دول أوروبا ، خاضعة لنفوذ الكنيسة الغربية أو الرومانية . ويمكن القول ، إن الكنيسة في القرن الثالث عشر ، كانت قد أصبحت منظمة عالمية ، تضم عدة دول لها وزنها المؤثر في مقدرات العالم لعنة قرون .

V

دور على مسرح الشرق

[الحروب الصليبية - أسباب الحروب الصليبية -
الحملة الأولى - الحملتان الثانية والثالثة - الحملة
الرابعة - إقامة مملكة لاتينية في الشرق - حملة الأطفال -
الحملة الخامسة - الحملة السادسة - الحملة السابعة -
الحملة الثامنة - النتائج العامة للحروب الصليبية] .

وفي هذه الفترة ، بذلت الكنيسة الغربية جهوداً متصلة ، لتوسيع
مناطق نفوذها ، وكانت أذهان المسيحيين في أوروبا الغربية وأنظارهم ،
متجهة إلى الأرض المقدسة ، في فلسطين ، بما فيها من أماكن تاريخية ،
لها مكانتها الكبرى في نفوس المسيحيين وقلوبهم ، وكانت جماهير الشعب
تمحس بالمرارة ، لوقوع تلك الأماكن في أيدي غير المسيحيين ، وفي
خلال القرن العاشر الميلادي ، ساد الاعتقاد ، بأن مجيء المسيح الثاني ،
قد بات وشيكاً ، وأنه سوف يظهر أول ما يظهر في مدينة القدس ، وقد
عز عليهم ، أن يأتي سيدهم ، وتلك الأماكن التي وطئها قدماءه ، في
أيدي غير المسيحيين ، فعقدوا العزم على تحرير المدينة المقدسة .

وفي عام ٩٩٩ للميلاد ، عبر البابا « سلفستر » ، عن رغبته في تحرير
القدس ، لكنه لم ينجح . وعندما إنقضت السنة المكملة للألف الأولى من
السنوات الميلادية ، دون أن يأتي المسيح كما توقعوا ، حاول البابا

« هلدبراند » ، أن يجند جيشاً للقيام بهذه المهمة ، لكنه لم ينجح هو الآخر . كانت هذه هي البداية لما أصبح يعرف في التاريخ باسم الحروب الصليبية ، وقد استمرت تلك الحروب حوالى قرنين من الزمان (١٠٩٦-١٢٩١م) .

ويمكن تلخيص أسباب تلك الحروب فيما يلي :

١ - إنتشار عادة الحج وزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين ، وكان الناس قد اعتادوا على زيارة تلك الأماكن ، والصلاة في بعض البقاع التاريخية ، التي لها ارتباط خاص بحياة السيد المسيح ، وفي مقدمة هذه الأماكن ، القبر المقدس ، الذي دفن فيه جسد السيد المسيح ، بعد إنزاله من على الصليب .

وكان الحجيج يعتقدون أن هذه الزيارة ، بكل ما كانوا يعانونه في سبيل القيام بها من مشقات بالغة ، هي خير وسيلة يتقربون بها إلى الله ، وينالون صفحه ورضاه .

وكان الناس ينظرون إلى الحجاج العائدين ، على أنهم أشخاص مقدسون طيلة حياتهم ، وربما كان هذا هو السبب في إطلاق لقب « المقدس » على كل من يحظى بهذه الزيارة . وكان العامة يولون الولائم للحجاج العائدين ، ويتبركون بهم .

وكان هؤلاء الحجاج ، يذهبون فرادى وجماعات . كانت هذه العادة متبعة وشائعة ، بين الفقراء والأغنياء ، والشرفاء والأدنياء ، ورجال الدين والعلمانيين ، الكل يشترق أن يزور تلك الأماكن المقدسة ، ويود لو أتاحت له فرصة للقيام بهذه الزيارة . وقد اعتبرت الحملات الصليبية ، حجا جماعيا منظماً لتلك الأماكن المقدسة .

٢ - وقوع الأماكن المقدسة في أيدي المسلمين الأتراك ، وقد تميز هؤلاء السلاجقة بتعصبهم الممقوت ، ووحشيتهم ، ومعاملتهم الفظة للحجاج المسيحيين .

ولحقاً للحق نقول ، إنه منذ استيلاء المسلمين على مدينة القدس ، في القرن السابع الميلادي ، في عهد الخليفة « عمر بن الخطاب » ، منذ ذلك التاريخ ، بدأت المدينة تنمو وتزدهر ، ولم يتعرض أحد بسوء ، لأفواج الحجاج المسيحيين ، الذين كانوا يقدون إلى المدينة المقدسة .

لكن عندما بسط الأتراك نفوذهم ، واستولوا على بلدان آسيا الصغرى وهددوا القسطنطينية ، التي كانت مركزاً من المراكز المسيحية الكبرى في الشرق ، تصدوا بعنف لجماهير الحجاج المسيحيين ، وحاولوا منعهم من زيارة البلاد المقدسة ، وعاملوهم بقسوة بالغة ، أثارت حفيظة المسيحيين في الغرب ، وولدت فيهم الإحساس بضرورة إنقاذ الأماكن المقدسة المسيحية ، وبخاصة القبر المقدس ، وتخليصه من أيدي الأتراك الذين اعتبرهم المسيحيون الأوروبيون ، أعدى أعداء المسيحية .

٣ - السبب الثالث من أسباب الحروب الصليبية ، هو إنتشار روح الفروسية في أوروبا في ذلك العصر . وكان فرسان ذلك الزمان ، من أبناء الطبقات العليا في المجتمع ، هؤلاء كانوا يتباهون ويتفاخرون ، بوقوفهم بجانب المستضعفين في الأرض ، ودفاعهم عن المظلومين ، مع أن معظم هؤلاء الفرسان والمتفرسين ، في حياتهم الخاصة ، كانوا بعيدين كل البعد ، عن حياة الفروسية الحقيقية .

وقد وجد هؤلاء الفرسان ، في الحملات الصليبية ، فرصة سانحة

لإشباع غرورهم ، وتغذية طموحهم ، وشوقهم لبلوغ مرتبة الفروسية ، لأنهم كانوا يعتقدون ، أنهم يحاربون ويقاتلون في سبيل تحقيق هدف سام ومن أجل قضية مقدسة .

٤. — كانت تلك الفترة ، فترة انتعاش ونهضة دينية ، وربما كان أقوى الأسباب التي أدت إلى الحروب الصليبية ، هو تزايد الشعور الديني في أوروبا الغربية في تلك الأيام ، والحماس الديني لدى الناس هناك ، جعلهم على أتم استعداد ، للقيام بأي عمل ، في سبيل دينهم ، وقد ظنوا — مخطئين — أنه بإمكانهم أن يلجأوا إلى الحرب ، كوسيلة لتحقيق أهداف دينية ، ناسين أن المسيحية هي دين المحبة والسلام والمسالمة .

وساد بين الناس الاعتقاد ، بأن إنضواءهم تحت لواء الصليب ، الذي رفع شعاراً لتلك الحروب ، هو الوسيلة المثلى ، لخلاص نفوسهم .

وقد ساد هذا الشعور في جميع الأوساط ، بين الجهلة والمثقفين ، والشرفاء والأدنياء . أى أنه كان شعوراً عاماً ، لدى أولئك الذين كان في يدهم تسيير دفة الأمور في العالم حينذاك .

ظلت هذه العوامل كلها حبيسة الصدور ، في أوروبا الغربية ، في خلال القرن الحادى عشر ، وعندما خرجت الفكرة إلى حيز التنفيذ ، وجدت كثيرين ينضمون إلى صفوف المحاربين ، وما إن صدرت الأوامر حتى تحركت جماعات المقاتلين .

أما البداية فكانت هكذا ، عندما سقطت أورشليم في أيدي الأتراك في عام ١٠٧٦ م ، وقفوا في طريق الحجاج الذاهبين إلى فلسطين ، وأساءوا معاملتهم كما سلف القول ، وراح الحجاج العائدون يروون الكثير من

القصص التي تتفطر لها القلوب ، عما فعله بهم الأتراك ، وقد فجرت هذه الحكايات كوامن الحقد ، إلى أن عاد من أورشليم ، ناسك يدعى « بطرس » ، هذا تقدم إلى البابا « أربان الثاني » ، طالباً منه البركة ، واستأذنه في دعوة مواطنيه إلى إنقاذ المدينة المقدسة من أيدي الأتراك ، فأذن له البابا . عندئذ راح يذرع البلاد شرقاً وغرباً ، ممتطياً ظهر حمار ، وكان رجلاً طاعناً في السن ، وكم كان منظره مؤثراً ، عندما كان الناس يرونه عارى الرأس حافى القدمين ، وحيثما ذهب ، كان يثير الحمية في نفوس سامعيه ، بدلاقة لسانه ، وقوة بيانه ، وخطبه النارية الملتهبة .

بعد ذلك عقد البابا مجمعاً في بلاسنا ، دعا لحضوره الإمبراطور « ألكسيوس كومنينوس » ، إمبراطور الإمبراطورية الشرقية ، الذي أوفد مندوبين عنه يطلبون من البابا العون والمساعدة ، لحماية القسطنطينية من الخطر الذي كان يهددها ، من غزو الأتراك ، وقد حضر المجمع ، ما لا يقل عن ألفين من الأساقفة والكهنة ، وقد تمخض هذا المجمع ، عن فكرة القيام بحملة عسكرية .

بعد ذلك عقد البابا اجتماعاً في كليرمونت في عام ١٠٩٥ م ، وعندما وقف البابا على سلم الكاتدرائية ، وبجواره مندوبو الإمبراطور الشرقي ، « وبيطرس الناسك » ، الذي راح يخطب في الجماهير المحتشدة ، اندفعت الآلاف في حماس شديد ، وارتفعت أصواتهم بالهتاف : « إنها إرادة الله » ، وسرعان ما علق كل منهم على كتفه اليمنى ، شارة حمراء عليها رسم الصليب ، الذي صار شعاراً لتلك الحملات التي اشتهرت في التاريخ باسم « الحملات الصليبية » ، نسبة لهذا الشعار .

وسرعان ما تكون جيش جرار ، وإن يكن غير منظم .. وقد اختلفت الآراء حول عدد تلك الحملات ، فقليل إنها ثمانية ، كما قال البعض إنها سبعة ، بينما قال آخرون إنها أربعة فقط .

الحملة الأولى (١٠٩٥ م) :

وقد انضم إلى هذه الحملة حوالى ستين ألف رجل ، لم يسبق لهم الاشتراك فى مثل هذا العمل ، كما لم يسبق هذه الحملة أى إعداد مما تتطلبه تلك الحملات ، لكن هؤلاء الرجال ، انضموا إليها مدفوعين إلى ذلك بحماسهم الزائد .

وقد شقت تلك الحملة طريقها إلى القسطنطينية ، عبر أراضى هنغاريا وبلغاريا . وفى الطريق سقط آلاف من الرجال ضحية الجوع والمرض ، ولسد حاجتهم إلى المؤونة والطعام ، كانوا يلجأون إلى أعمال السلب والنهب مما أدى إلى وقوع مناوشات ومصادمات ، بينهم وبين أهالى البلاد التى مرت بها الحملة فى طريقها .

وعندما وصلت البقية الباقية من رجال الحملة إلى القسطنطينية ، لم يجدوا أى ترحيب من أهلها ، مع أنهم قادمون لمساعدتهم ، ودرء الخطر عنهم . وقد عبر هؤلاء الرجال مضيق البوسفور ، لكنهم وقعوا فى الفخ ، الذى نصبه لهم الوالى السلجوقى المخادع « داود » ، الذى أرسل إليهم بعض الجواسيس ، باخبارية كاذبة تفيد أن المسيحيين قد استولوا على عاصمة نيقية فى بيشنية ، وما إن وصلوا إلى هناك ، حتى وجدوا أنفسهم ، وقد وقعوا فى كمين أعدده لهم الأتراك ، ولم ينج من أفراد هذه الحملة ، سوى أقلية ضئيلة ، وكان « بطرس الناسك » واحداً من الناجين .

وبعد عام كامل من تسيير الفرقة الأولى ، تقدم أول جيش منظم بقيادة « جودفرى » دوق اللورين ، ومجموعة من النبلاء والأمراء العظام في أوربا ، وكان قوام هذه المجموعة الثانية ، حوالى ثمانين ألف رجل ، وصلوا إلى القسطنطينية ، وعبروا إلى آسيا ، وقد أمدتهم الإمبراطورية الشرقية بكافة احتياجاتهم .

وفي البداية استولوا على نيقية ، ومنها تقدموا إلى إدسا ، وأقاموا مملكة مسيحية ، اتخذوا إدسا عاصمة لها ، ومن إدسا ، توجهوا إلى أنطاكية ، واستولوا عليها بعد قتال شرس وعنيف ، وأخيراً بلغوا القدس ، واستولوا عليها في ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩ م ، لكنهم كانوا قد تحملوا خسائر فادحة .

وقد اختير « جودفرى » دوق اللورين ، للجلوس على عرش تلك المملكة المسيحية ، لكنه رفض أن يتوج بتاج من الذهب ، بينما كان نصيب سيده (المسيح) ، تاجاً من الشوك .

وكان « بطرس الناسك » من بين الحاضرين في حفل التتويج ، وعندما رآه الحاضرون ، راحت جموعهم تنحني وتهتف له ، تقديرًا للدور الكبير الذى قام به ، فى العمل على إنقاذ الأماكن المقدسة ، وكان هذا الحفل هو آخر العهد ببطرس الناسك ، الذى اختفى بعد ذلك نهائياً من المشهد .

وفي السنة التالية ، مات « جودفرى » ، وخلفه على عرش المملكة المسيحية فى الشرق ، أخوه « بالدوين » ، الذى أقيم حفل تتويجه فى بيت لحم .

وهكذا تم تأسيس مملكة وبطركية لاتينية (رومانية) في أورشليم ،
وتم تعيين رئيس أساقفة وأساقفة هناك ، وبهذا بدا للأوروبيين ، أنهم قد حققوا
حلمهم القديم ، بإقامة دولة مسيحية في فلسطين .

الحملتان الثانية والثالثة :

وقد تم تسيير الحملة الثانية في عام ١١٤٧ م ، على أثر استيلاء الأتراك
على مدينة إدسا ، الأمر الذي عرض المملكة المسيحية للخطر . فذهب
« برنارد » ، رئيس دير كليرفو ، بتحريض الإمبراطور « كونراد الثاني »
على القيام بحملة ، يشترك فيها « لويس السابع » ملك فرنسا ، وكانت
هذه الحملة مجرد مغامرة من بدايتها إلى نهايتها ، بسبب خيانة « مانويل » ،
الإمبراطور الشرقي وغدره .

وقد حاصرت تلك الحملة مدينة دمشق ، لكنها لم تتمكن من الإستيلاء
عليها ، فعاد « كونراد » و « لويس » إلى بلديهما ، وقد امتلأت نفسيهما
بمرارة الهزيمة والفشل ، خاصة وأن « برنارد » ، كان قد سبق وتنبأ
لها بالنصر ، وقد حاول فيما بعد ، أن يعلل عدم تحقق نبوءته ، ويعزو
فشل الحملة ، إلى فساد أخلاق المقاتلين .

وفي عام ١١٨٧ م ، استولى المسلمون بقيادة « صلاح الدين » ، على
مدينة القدس .

وفي عام ١١٨٩ ، سار الأوروبيون حملة ثالثة لاسترداد بيت المقدس
وقد اشترك في تلك الحملة ، الإمبراطور « فريدريك باربارسا » ، وكان
شيخاً مهيب الطلعة ، كما اشترك معه فيها ، « فيليب أغسطس » ملك
فرنسا ، « ورتشارد قلب الأسد » ملك إنكلترا .

وتقدم الجناح الذى كان يقوده الإمبراطور « فريدريك » إلى أيقونية واستولى عليها ، لكنه أغرق فى نهر كاليكادانوس ، بينما كان يستحم فى مياهه . ويقال إنه لم يبلغ القسطنطينية ، سوى عشر عدد الرجال الذين كانوا تحت قيادته ، لأن غرق الملك ، أثر على روحهم المعنوية .

واستولت الفرق الأخرى من الحملة ، على يافا وأشقون ، وبينما الحملة ماضية فى طريقها ، اختلف « ريتشارد » مع « فيليب » ، فعاد هذا الأخير إلى بلاده (فرنسا) .

بعد ذلك اتصل « صلاح الدين الأيوبي » برتشارد قلب الأسد ، وتعهد له بضمان سلامة وصول الحجاج المسيحيين إلى الأماكن المقدسة ، وفى ضوء هذا الاتفاق ، يمم « ريتشارد » وجهه قاصداً العودة إلى إنكلترا ، لكنه أسر فى الطريق ، ثم أطلق سراحه مقابل فدية دفعها الإمبراطور « هنرى السادس » .

بعد ذلك حاول البابا « سلاستين الثالث » فى عام ١١٩٦ م ، تسيير حملة أخرى ، بالإشتراك مع الإمبراطور « هنرى السادس » ، وقد انضم إلى تلك الحملة كثيرون من النبلاء والفرسان ، غير أن الإمبراطور مات قبل البدء فى تسيير تلك الحملة . وكان المنضمون إليها جماعات متنافرة ، لم يجمع بينها سوى الحماس الكاذب ، والتعطش لسفك الدماء ، واستعراض البطولة ، تحقيقاً لروح الفروسية ، التى سادت أوروبا فى ذلك الزمان .

لهذا لم يكن لهم فكر واحد ، فحدث بينهم الكثير من سوء الفهم ، وآل بهم الأمر فى خاتمة المطاف ، إلى مذبحه رهينة فى يافا ، قضت عليهم قضاء مبرماً .

الحملة الرابعة (إقامة مملكة لاتينية في الشرق) :

وقد تم تسيير هذه الحملة في سنة ١٢٠٢ م ، في عهد البابا « إنوسنت الثالث » ، وقد نقل أفراد هذه الحملة إلى فينيسيا عن طريق البحر ، واستولت على القسطنطينية بعد معارك دامية ، اتسمت بوحشية بالغة . فسقطت الإمبراطورية البيزنطية ، وحلت محلها مملكة لاتينية ، استمرت حتى عام ١٢٦١ م ؛ بعد ذلك استرد اليونان إمبراطوريتهم الشرقية .

وهكذا نرى أن تلك الحملة - (الرابعة) - قد خرجت عن هدفها الرئيسي ، وبدلاً من استرداد القدس من أيدي غير المسيحيين ، إتجهت إلى محاربة المسيحيين ، واستولت على القسطنطينية ، وأقام المسيحيون الأوربيون لأنفسهم مملكة ، على أنقاض إمبراطورية مسيحية أخرى ، وكان هذا سبباً من أسباب توسيع شقة الخلاف ، بين الكنيستين الشرقية والغربية .

من هذا نرى ، أن هؤلاء القوم ، الذين انضوا تحت لواء الصليب ، والصليب براء منهم ومن حملاتهم ، إنما كانوا يحاربون حبا في الحرب ذاتها ، ولإشباع نهمهم للبطولة والفروسية . لقد إتخذت حملاتهم الصليب شعاراً ، لابل ستاراً ، لتحقيق أغراض ، بعيدة كل البعد عن روح المسيحية ، وديانة المصلوب ، الذي نبذ العنف ، وعلم أتباعه كيف يسالمون .

حملة الأطفال :

وهذه الحملة تصور لنا حالة الهوس الديني ، التي سيطرت على الأذهان في ذلك الزمان . وقد اشترك في هذه الحملة ثلاثون ألفاً من الأولاد والبنات ، مدفوعين بروح الحماس الديني المتهور .

وقد توجهت الحملة إلى مرسيليا ، بقيادة ولد اسمه « استفانوس » ،
وفقد الكثيرون من الأطفال قبل الوصول إلى مرسيليا .

وفي ميناء مرسيليا ، ظلوا ينتظرون ، وكان يسيطر عليهم الاعتقاد ،
بأن الله سوف يشق أمامهم مياه البحر ، لكي يعبروا هم على اليابسة ،
مثلما فعل في القديم مع بني إسرائيل ، وقت أن خرجوا من مصر ،
بقيادة موسى النبي .

وتقدم بعض التجار ، وعرضوا عليهم أن يقوموا بنقلهم بلا مقابل
إلى فلسطين خدمة لله ، وتطوعاً ، ومساهمة منهم في إتمام المهمة المقدسة ،
التي انتوى الأطفال القيام بها . فركب الأطفال المساكين ، وهم لا يعلمون .
أنهم يساقون إلى حيث يباعون في أسواق النخاسة . إذ أن أصحاب السفائن ،
لم يكونوا سوى جماعات من تجار الرقيق الماكرين ، الذين أخذوهم
وباعوهم ، في الجزائر والإسكندرية .

وكانت هناك مجموعة أخرى من الأطفال ، بقيادة واحد من أبناء
الفلاحين يدعى « نقولا » ، وقد إتجه كثيرون من هؤلاء إلى ميناء
برنديزي ، لكي يركبوا البحر من هناك إلى فلسطين ، لكن لم يسمع
عنهم بعد ذلك خبر ما .

كما وصل خمسة آلاف طفل آخرون إلى جنوه ، وقد منعهم الأهالي
من الرحيل إلى فلسطين ، فاستقروا وعاشوا هناك .

الحملة الخامسة :

في مجمع لاتيران الرابع ، أعلن البابا « إنوسنت الثالث » ، عن رغبته
الشخصية في الذهاب مع حملة حربية إلى الأراضي المقدسة ، لكن الوقت
كان متأخراً بالنسبة له ، إذ وافته المنية في عام ١٢١٦ م .

وفي السنة التالية لوفاته (١٢١٧) ، أخذ الملك « أندرو » ملك هنغاريا ، على عاتقه مهمة القيام بهذه الحملة ، غير أنه فشل في الإستيلاء على قلعة الواقعة فوق جبل تابور ، فكر عائداً إلى بلاده ، وتولى واحد من الجرمانيين قيادة الحملة بعد ذلك ، وأرسلت الإمدادات من كل من إنكلترا وفرنسا ، كما انضم إلى الحملة بعض من أهالي جبل الكرمل . وعند مجيء الإمدادات الفرنسية والإنكليزية ، أرادت أن تشق طريقها إلى فلسطين ، عبر الأراضي الساحلية المصرية ، فاستولت على دمياط ، لكن الأهالي ، قاوموهم مقاومة عنيفة ، وحاربوهم ببسالة منقطعة النظير ، واضطروهم إلى الإستسلام ، وهكذا فشلت الحملة الخامسة .

الحملة السادسة :

في عام ١٢١٤ م ، كان الإمبراطور « فردريك الثاني » ، قد تعهد بـ شيا به بالإنضمام إلى الحملة التي انهزمت عند دمياط . لكنه لم يتمكن من الوفاء بـتعهد آ نذاك .

وفي عام ١٢٢٧ م . ، جمع « فردريك » بعض القوات ، وأبحر بها من ميناء برنديزي ، لكن الحمى تفشت بين رجاله ، فاضطر للعودة إلى إيطاليا . وعلى أثر عودته ، أصدر البابا « غريغوريوس التاسع » قراراً بفصل الإمبراطور من عضوية الكنيسة .

لكن « فردريك » واصل الإعداد والإستعداد ، ولم يشأ الإنتظار حتى يصدر البابا قراراً بالعفو عنه ، وانطلق متجهاً إلى فلسطين ، ونظراً لأنه كان لم يزل تحت حكم القطع والحرق ، لم يلق أي ترحيب من الكهنة اللاتين . وكبر جرمه كثيراً ، عندما تفاوض مع السلطان ، فاعتبرت الكنيسة هذا التصرف خيانة عظيمة لها . لكنه عقد مع السلطان معاهدة ،

المفتدين

بمقتضاها أصبحت بيت المقدس ، تحت نفوذ الإمبراطور ، فيما عدا جامع
عمر ، وأيضاً مدن يافا والناصرية وبيت لحم .

وبعد التوقيع على المعاهدة ، دخل السلطان والإمبراطور معاً إلى مدينة
القدس (١٢٢٩) . ولما لم يكن هناك أحد من الكهنة لتتويجه ، قام هو
بنفسه بوضع التاج على رأسه ورأس زوجته .

بعد ذلك عاد الإمبراطور إلى أوروبا معترساً بانتصاره السلمي ، وكان البابا
حانقاً عليه أشد الحنق ، فأصدر قراراً ثانياً بحرمه ، والغريب أن هذا القرار .
الجديد ، كان بسبب ذهابه إلى فلسطين ، وتحقيق الهدف من الذهاب إلى
هناك ، دون إراقة قطرة دم واحدة ، على عكس القرار الأول ، الذي
صدر بفصله من عضوية الكنيسة ، لأنه لم يكمل مسيرته ، وعاد إلى بلاده .

الحملة السابعة :

في عام ١٢٤٥ م . ، عقد مجمع في ليون ، وأبدى « لويس التاسع »
ملك فرنسا ، استعداداً للذهاب إلى فلسطين ، التي كانت مسرحاً لمذابح
دموية ، قتل فيها كثيرون من المسيحيين ، بأيدي الأتراك الهاربين من وجه
الزحف المغولي على وسط آسيا .

وفي عام ١٢٤٨ م . ، أبحرت الحملة إلى قبرص ، حيث بقيت إلى
نهاية فصل الشتاء . بعد ذلك أخذت الحملة طريقها إلى دمياط ، واستولت
عليها ، ثم واصلت الحملة زحفها إلى القاهرة ، وفي الطريق ، أسر الملك
« لويس التاسع » ، وأخذ إلى المنصورة ، هو وعشرة آلاف جندي ،
تم أسرهم معه ، وقد أعدم المصريون معظم هؤلاء الجنود ، لم ينج منهم
سوى أقلية ضئيلة أعلنوا اعتناقهم الإسلام .

أما « لويس التاسع » ، فتم إطلاق سراحه ، مقابل الجلاء عن دمياط ، وبعد دفع فدية كبيرة . كما تم إطلاق سراح قادة الحملة ، مقابل فدية دفعوها .

وبعد قيامه بزيارة الناصرة ، وهو يرتدى ثوبا من الخيش ، عاد « لويس التاسع » إلى بلاده ، يجر جر أذيال الحية والفشل .

الحملة الثامنة :

وهي آخر الحملات الصليبية ، وقد تم تجهيزها في عام ١٢٧٠ م . ، تحت قيادة ملك فرنسا ، الذي نزل بقواته في البداية في تونس ، ويقال إن حاكم تونس ، أعلن عن رغبته في اعتناق المسيحية ، وقد تبادر إلى ذهن الملك ، أن وجود جيش كبير في تونس ، سيكون عاملاً مؤثراً في هذا الموقف .

بعد ذلك جاء الملك « أدوارد الأول » ملك إنكلترا ، على رأس جيش قوامه ألف رجل ، واستولوا على الناصرة ، وارتكبوا فيها جرائم بشعة ، راح ضحيتها كثيرون من أهل فلسطين .

في أثناء هذه الحملة ، وقعت ، محاولة لقتل الملك « إدوارد الأول » . فقامت زوجته (الملكة إليانور) بعلاجه ، وامتصت من جراحه السم بفمها ، فمات وعاش هو ، وبهذا خلفت تلك الزوجة الوفية المضحية ذكرى خالدة ، إذ ضربت مثلاً رائعاً في التضحية .

وقد ختم الملك إدوارد هذه الحملة ، بفترة سلام استمرت عشر سنوات ، عاد بعدها إلى بلاده .

وفي تونس ، مات الملك « لويس التاسع » بسبب إصابته بالطاعون .

وهكذا وصلت الحروب الصليبية إلى نهايتها ، دون أن تحقق الغرض الذي قامت من أجله . وقد استمرت تلك الحروب حوالي قرنين من الزمان .

وفي عام ١٢٩١ م . ، عادت الأمور في فلسطين مرة أخرى إلى ما كانت عليه ، وأصبحت الأماكن المقدسة المسيحية ، في أيدي المسلمين .

بعد ذلك بذلت محاولات فاشلة ، لشن حروب صليبية أخرى ، لكن الحماس الديني القديم ، كان قد انطفأت ناره ، ونجا أواره .

النتائج العامة للحروب الصليبية :

يرى البعض أن الحروب الصليبية لم تحقق نتائج سريعة في وقتها ، لكن الباحث المدقق ، يمكنه أن يرى ، أن هذه الحروب ، كانت لها آثار بعيدة ، ظهرت بعد ذلك بزمان طويل ، نذكر من هذه النتائج ما يلي :

١ - حققت تلك الحروب زيادة لنفوذ البابا ، إذ خضع لسلطانه ، جميع الحكام في دول غرب أوروبا ، فقدموا الكثير من ممتلكاتهم للكنيسة ، كما نذر بعضهم حياة الرهبنة ، وتبرع بكل ممتلكاته للكنيسة ، أي أن هذه الحروب قد أيقظت في النفوس نوعا من الحمية الدينية .

وفي أثناء تلك الحروب ، كانت الكنيسة تقوم بتحصيل ضريبة أسمتها « عشر صلاح الدين » ، ورغم توقف الحروب الصليبية ،

استمرت الكنيسة في تحصيل تلك الضريبة ، التي ظل الناس يدفعونها بعد ذلك فترة طويلة ، فكانت مصدراً كبيراً من مصادر الدخل ، يدر إيراداً كبيراً ، لخزينة البابا .

٢ - أدت هذه الحروب ، إلى التوسع في استخدام الغفرانات ، التي كانت الكنيسة تقدمها للمقاتلين والمتطوعين للقتال ، كمحافز لهم .

٣ - أيقظت هذه الحروب في النفوس روح المقاتلة ، تحت شعار الغيرة الدينية ، لأن رؤية الدم ، تثير في النفوس الرغبة في سفك المزيد منه ، لذلك لانسفرغرب، إن رأينا « سيمون دى منتفورت » يعود من إحدى الحملات الصليبية ، ليعلن حرباً ضارية ضد الألبين ، وهم فرقة من المسيحيين .

٤ - أدت تلك الحروب إلى الحيلولة دون سقوط دول شرق أوروبا في أيدي المسلمين ، الذين شغلهم الحروب الصليبية ، عن التوسع في تلك المناطق ، بالدفاع عن بلادهم .

٥ - أدت الحروب الصليبية ، إلى توحيد دول غرب أوروبا .

٦ - عاد المقاتلون الأوربيون إلى بلادهم ، بكلمات جديدة ، وأفكار عن حضارة جديدة ، هي الحضارة العريية ، التي فتحت أمامهم آفاقاً جديدة .

٧ - اتسع نطاق المعرفة ، في مجالات الصناعة والتجارة .

٨ - أدت الحروب الصليبية إلى ظهور طبقة جديدة ، هي الطبقة المتوسطة ، التي أخذت طريقها بالتدريج لتصبح العمود الفقري للمجتمعات الجديدة .

هذا بالنسبة للغرب ، أما في الشرق ، فإن هذه الحروب ، قد أوغرت صدور المسلمين ، على مواطنهم من المسيحيين الشرقيين ، وأوجدت بين الفريقين حساسيات بالغة ، لازالت تلعب دوراً خطيراً في العلاقات بينهما ، رغم أن المسيحيين الشرقيين ، لم يكن لهم في هذه الحروب ناقة ولا جمل .

كما وسعت هذه الحروب شقة الخلاف ، بين الكنيستين الشرقية والغربية .

بل ويمكننا أن نقول إن روح التعصب التي ولدتها هذه الحملات ، لم تقف عند حد ، فامتد تأثيرها ، إلى أن ظهرت فيما بعد ، في صورة التعصب الطائفي أو المذهبي ، بين أبناء الدين الواحد في الوطن الواحد .





ثروة الكنيسة

[الكنيسة في قائمة كبار الملاك - الكنيسة والمشروعات الخيرية] .

الكنيسة في قائمة كبار الملاك :

لكن تكون لدينا فكرة حقيقية ، عن مدى قوة الكنيسة الغربية في العصور الوسطى ، علينا ألا نقف عند حد الإلمام ، بمدى اتساع نفوذ الكنيسة في رقاع أوروبا ، بل يجب أن نعرف جيداً ، ما أصبح في حوزة الكنيسة من ممتلكات ومقتنيات . لقد كانت الكنيسة تملك أقطاعات شاسعة كما كانت تمتلك الكثير من القصور المنيفة ، المؤنثة بأفخر أنواع الرياش ، ومعظم هذه الممتلكات ، آل إلى الكنيسة عن طريق الهبات والتقدمات ، التي قدمها الأتقياء ، كما كان الحكام يقطعون الإقطاعات الكبيرة للأساقفة والأديرة ، لكي تتولى إدارتها واستغلالها ، مقابل تقديم العون لهؤلاء الحكام في خلال الأزمات ، وتقديم جزء من حصيلة إيرادات تلك الضياع ، لخزينة الملك .

وهناك مناطق كبيرة ، بل ممالك بأسرها ، اعتبرت أراضيها ملكاً خاصاً للبابا . وهكذا وجدت الكنيسة نفسها ، وقد أصبحت في حوزتها ، مساحات مترامية الأطراف من الأراضي في غرب أوروبا .

وعلى سبيل المثال ، كانت الكنيسة تمتلك ربع الأراضي في كل من إنكلترا وفرنسا ، كما كانت تملك أكثر من هذه النسبة في كل من إيطاليا وأسبانيا .

لهذا تدفق المال بغير حساب ، في خزينة الكنيسة ، من ريع هذه الأراضي ، ومن العشور التي كان الناس يدفعونها ، مقابل تمتعهم بالخدمات التي كانت الكنيسة تقدمها لهم ، أو مقابل شراء الغفرانات .

وكان للبابا دخله الخاص من ممتلكاته الشخصية ، ومن الضريبة السنوية ، التي يقدمها الكاثوليك في كل البلاد ، للكرسي البابوي ، تلك الضريبة التي كانوا يطلقون عليها « فلس بطرس » .

من هذا نرى أن الكنيسة كانت في هذه الفترة ، أغنى وأكبر قوة في أوروبا ، وكان لها من الموارد المالية ، ما يفوق كثيراً ما كانت تملكه أي حكومة من الحكومات المدنية آنذاك ، ولو أن الناس فقدوا إيمانهم بالسلطان الروحي للكنيسة ، ما كان لهم مناص ، من الإقرار بسلطانها بسبب ما كانت تتمتع به من غنى فائق .

الكنيسة والمشروعات الخيرية :

في العصور الوسطى ، لم تكن الحكومات تقدم للشعوب أي خدمة من الخدمات الاجتماعية أو الصحية ، أو أي شيء من الخدمات التي تقدمها الحكومات لرعاياها في أيامنا الحاضرة .

لكن الكنيسة كانت تقوم من جانبها بهذا الدور الهام ، وتقدم الكثير من هذه الخدمات العامة ، للمرضى والفقراء ولم تيخل عليهم بشيء ، لهذا كان المال عنصراً رئيسياً من العناصر التي عززت سلطان الكنيسة ، ومكانتها في قلوب الناس .

٩

نظام الكنيسة في العصور الوسطى

[البابا - رؤساء الأساقفة والأساقفة - الكهنة -
الرهبان] .

البابا :

كان البابا هو رأس الكنيسة ، والحاكم المطلق فيها ، وجميع
الأساقفة ، كانوا يدينون له بالولاء التام ، ويوجهون كل رعاياهم ،
للخضوع لأوامر البابا ، وبعد أن كان الأساقفة ، يصلون إلى مراكزهم
بطريق الانتخاب ، ابتداء من عهد البابا « إنوسنت الثالث » ، أخذ
الباباوات في أيديهم بالتدريج ، سلطة تعيين الأساقفة ، وكانت الألوف
من الرهبان ، تحت السلطان المباشر للبابا ، الذي اتسعت دائرة نفوذه .

بعد ذلك اعتبرت المراسيم البابوية ، لها نفس القوة ، التي كانت
لقرارات المحاكم الكنسية ، وأصبحت كلمة البابا هي النافذة ، وسلطته
هي العليا ، حتى الشؤون الزمنية ، أصبح تصريف معظمها ، يتم بمعرفة
البابا .

رؤساء الأساقفة والأساقفة :

بعد البابا مباشرة ، كان رؤساء الأساقفة ، يديرون مقاطعات
تتكون من عدة أبرشيات . بعد هؤلاء يأتي الأساقفة ، وكل أسقف كان

يشرف على أبروشية واحدة ، وفي هذه الأبروشية ، كان الأسقف يشرف على الكهنة العاملين فيها ، كما كان يدير الشؤون العامة للكنيسة ، ويشرف على المدارس الموجودة في أبروشيته .

وكان الأسقف كذلك ، يقوم بخدمة التثبيت ، ورسامة الكهنة في دائرة إشرافه .

وبسبب ما كان يتمتع به هؤلاء الأساقفة من غنى ، وما كان في حوزتهم من أموال وممتلكات ، كان الناس ينظرون إليهم ، على أنهم حكام روحيون . وقد عاش هؤلاء عيشة الرفاهية والتنعيم ، لم يكن هناك فرق بينهم وبين الأمراء ، وكان بوسعهم أن يجندوا الجيوش :

الكهنة :

كان الكهنة في الأبروشيات ، على اتصال مباشر بعامة الشعب ، من أعضاء الكنائس في العصور الوسطى ، وكانت لهؤلاء الكهنة سلطات واسعة ، لا يتمتع بها أحد من الكهنة في العصر الحديث ، وذلك يرجع إلى أنهم ، كانوا يحتفظون بالأسرار المقدسة ، هذه الأسرار ، التي كان الناس يعتبرونها من ألزم الضروريات لخلاص نفوسهم ، أي أنه كان للكهنة في تلك العصور سلطان خطير .

وعن طريق سر الإعراف ، كانوا يسيطرون على سلوك الناس ، ويوجهون تصرفاتهم . وكان الكهنة يقومون بتعليم الأولاد والبنات أمور دينهم ، كما كانوا أحيانا يقومون بأمر التعليم العام ، للفقراء وعامة الشعب ، بسبب قلة المدارس في ذلك الزمان . أيضاً كانوا يقدمون للناس الإعانات والصدقات ، من حصيلة النذور والعشور .

من هذا نرى أن الكاهن في تلك الأيام ، كان يمارس اختصاصات المعلم في المدرسة ، والقاضي في المنازعات البسيطة ، ورجل الشرطة في أمور الضبط والربط ، والعناية بالفقراء ، فضلاً عن الخدمة الدينية ، وممارسة الأسرار الكنسية .

ولم يكن جميع الكهنة على مستوى المسؤولية ، ولم تكن لهم الصلاحيات التي تؤهلهم ، لمباشرة كل هذه السلطات والإختصاصات ، في آن واحد معاً ، نظراً لأنه كان منهم كثيرون ، يميلون إلى حياة الراحة والدعة . ولأن بعضاً منهم ، لم يكن لديه القدر الكافي من الثقافة ، بل إن بعضاً منهم كان من الجهال .

وقد تطرقنا لشرح مسئوليات الكهنة وسلطاتهم ، للوصول إلى تكوين فكرة عن مدى ما كان للكنيسة من تأثير ، في حياة الناس ، وتدخلها في كافة شؤون حياتهم في فترة العصور الوسطى .

الرهبان :

بجانب رجال الإكليروس ، كان يقوم بالخدمة ، جيش جرار من الرهبان ، الذين كانوا يعيشون في الأديرة ، في جماعات منظمة ، لها وزنها وتأثيرها ، على حياة الكنيسة . وقد رأينا في صفحات سابقة ، كيف أخذ فريق من الرهبان على عاتقهم ، القيام بحركة إصلاحية في الكنيسة . وكان هؤلاء الرهبان من دير كلوني ، وقد نجحوا في تنفيذ البرنامج ، الذي وضعوه لإصلاح كل نواحي الحياة في الكنيسة .

ومما يوثق له ، أن مستوى الرهبان ، مال مرة أخرى للإلتحاط ، بعد تلك الحركة الإصلاحية الرائعة ، التي تمت في خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر .

لكن بعد ذلك قامت حركة رهبانية أخرى تتبع النظام البندكتي ،
الذي أصبحت تتبعه معظم الأديرة الناشئة .

وقد تزعم هذه الحركة ، « برنارد » رئيس دير كليرفو ، وكان هذا
الرجل من أعظم رجالات العصور الوسطى . وفي خلال أربعين عاماً ،
أسس حوالي خمسمائة دير من الأديرة التابعة لهذا النظام ، وكان رهبان هذه
الأديرة يعدون بالآلاف ، وكان من بينهم مجموعة من أفضل الناس ،
الذين شهدتهم تلك الفترة من الزمان . وبتأثير الحياة الفاضلة ، التي تميز
بها « برنارد » رئيس الدير ، بدأت الرهبنة تعود إلى مثلها العليا ، ويمكن
القول بأن بعض الأنظمة الرهبانية الأخرى ، قد سلكت نفس هذا المنهج .

وكان الرهبان يخضعون لإشراف الأساقفة ، الذين تقع في أروشياتهم ،
الأديرة التي يعيشون فيها .

لكن شيئاً فشيئاً ، أصبحت الأديرة تحت الإشراف المباشر للبابا ،
الذي إنتزع لنفسه هذا الحق من الأساقفة ، وكان هذا سبباً مباشراً لازدياد
نفوذ البابا ، الذي أصبحت تتبعه ، وتخضع له ، جميع الأديرة ،
بالآلاف المؤلفة من الرهبان العائشين فيها ، وما يتبعها من إقطاعيات وممتلكات
في كل أنحاء أوروبا .

وفي خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، كانت أوروبا قد بلغت
شأواً كبيراً من الحضارة ، لم يكن لها به سابق عهد ، ولم يعد الناس بحاجة
إلى الخدمات التقليدية ، التي كان يقوم بها الرهبان من قبل ، لكن بالرغم
من ذلك ، كان الرهبان يقومون بالعديد من الخدمات النافعة .

ولم يقتصر عمل الرهبان على نسخ الكتب ، وحفظها في مكتبات الأديرة

والحفاظ على هذا التراث الأدبي . بل كانت الأديرة تقدم خدمات ذات اتصال وثيق ومباشر بحياة الناس . فدارس الأديرة كانت تعلم الناس بالحجج وعندما أنشئت الجامعات في سنة ١٢٠٠ م . تقريباً ، أخذت من الأديرة اختصاص التعليم العالي ، واقتصرت خدمة الأديرة ، على تقديم المراحل الأولى والمتوسطة من التعليم ، كما كانت مستشفيات الأديرة ، تعنى بالمرضى والمسافرين الغرباء ، كما كانوا يقدمون المساعدات السخية للفقراء والمعوزين . كما كان الرهبان يسارعون بإغاثة المنكوبين في الكوارث والأوبئة ، التي كانت تهدد الناس في تلك العصور .

ولاشك في أن الفساد قد دب في الأنظمة الرهبانية في العصور الوسطى وحقاً صدق من قال ، إن حياة الرهبان في تلك العصور المظلمة ، ليست أفضل من مستوى تلك العصور ، وكانت الأثرة والأنانية هي الخطيئة الفظيعة ، التي تعرضت لها أنظمة الرهبنة المتعددة ، وذلك بسبب الثروة والممتلكات التي كانت في حوزة الأديرة ، تلك الثروة والممتلكات ، التي جاءت إلى الأديرة كعطايا وهبات ، تضاعفت نتيجة لمجهودات الرهبان ، الذين كانوا يعملون في المزارع ، وإدارة الممتلكات ، وقد ترتب على ذلك ، تضاعف اهتمام الرهبان بممتلكات أديرتهم ، أكثر من اهتمامهم بخدمة الآخرين ، والعمل على قيادتهم إلى حياة السمو الروحي .

١٠

تعاليم الكنيسة وأحكامها

[الحل والغفران - المطهر - العقوبات الكنسية -
القانون الكنسي والمحاكم المدنية - محاكم التفتيش - نظرة
الناس الى الهرطقة في العصور الوسطى] .

عندما دخلت الآلاف المؤلفة إلى المسيحية ، دون سابق تعليم أو تثقيف
روحي ، كان لزاما على الكنيسة أن تتولى تعليمهم ، بعد انضمامهم إلى
عضويتها . خاصة وأن النظام الكنسي كان قد بدأ يستقر ويأخذ وضعه ،
في الفترة التي نحن بصدددها الآن وأصبح نظاماً محكماً .

الحل والغفران :

وكانت تعاليم الكنيسة تقضي بأن يقوم كل واحد بالاعتراف أمام
الكاهن ، مرة واحدة على الأقل كل عام . وهؤلاء المعترفون ، كان عليهم
أن ينفذوا ما يأمرهم به الكاهن من أعمال ، تبعاً للخطايا التي يعترف بها كل
منهم . وكان الكاهن يوصي المعترف بالقيام ببعض الأعمال ، مثل الصوم
لمدة معينة ، أو زيارة بعض الأماكن المقدسة ، أو إتيان بعض الأعمال ،
يقصد تدليل النفس وتعذيبها ، طلباً للغفران ، وإعلاناً عن توبته .

وكانت لدى الكهنة كتب ، تتضمن بياناً بالعقوبات المقابلة ، لكل
خطيئة يرتكبها الإنسان ، وكان الهدف من تداول هذه الكتب ، هو حفظ الناس
(٢ - ٧)

من ارتكاب المعاصي ، عندما يعلمون ، ما تجلبه عليهم خطاياهم من عقوبات ، مما يتطلبه حصولهم على غفران لهذه الخطايا . وبعد قيام المعترف بكل ما يطلب منه ، كان الكاهن يعطيه الحل ، ويعلن أن الله قد غفر له خطاياهم .

بعد ذلك تطورت الفكرة ، إلى أن الكنيسة ليس من حقها فقط ، أن تعلن غفران الله لخطايا البشر ، لكنها تملك سلطة غفران الخطايا للناس بواسطة الكهنة ، وهكذا أصبح الحل الذي يعطيه الكاهن للإنسان غفرانا لخطاياهم ، وليس مجرد إعلان غفران هو من سلطان الله وحده لا سواه .

المطهر :

كانت تعاليم الكنيسة الكاثوليكية ، تعلن ، أنه بالإعتراف ، وقيام المعترف بما يوصيه به الكاهن من أعمال كفارية ، وإعلان الحل أو غفران الخطايا ، يحصل المعترف على رفع جرم الخطايا عنه ، وبالتبعية ، يرفع عنه كذلك قصاصها الأبدي ، لكن بعد ذلك يبقى ، ما كانوا يطلقون عليه « العقاب الزمني للخطية » ، والجزء الرئيسي من هذه العقوبة هو آلام المطهر ، التي يجب أن يجتاز فيها ، ويعانيها كل من يخطئ ، وهذه الآلام ، نوع من العقوبة ، عن طريقها ، تتطهر نفس الإنسان ، لكي تصبح أهلا للدخول إلى النعيم الأبدي .

وقد علمت الكنيسة ، بأن لها السلطان لتقصير فترة بقاء نفس الإنسان في المطهر ، إذا قام ببعض الإلتزامات ، التي تفرضها عليه ، في أثناء فترة حياته على الأرض . وكانت الكنيسة تمنح هؤلاء غفرانات ، تخفف عنهم عقوبة المطهر وآلامه ، وفي أواخر العصور الوسطى ، كانت هذه الغفرانات أو صكوك الغفران ، تباع لقاء قدر من المال . بعد ذلك

أعلنت الكنيسة أنه يمكن للأحياء أن يشتروا صكوك الغفران لأعزائهم الراحلين .

وربما كان الدافع إلى هذا كله ، هو أن الكنيسة كانت ترى من وراء ذلك ، إلى ترويض الطباع الخشنة ، وتهذيب الطبيعة البشرية المتمردة ، التي وجدت الكنيسة ذاتها ، مضطرة للتعامل معها ، حين دخل الوثنيون أفواجا إلى الكنيسة في غرب أوروبا ، دون أن يحصلوا على اختبار الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس ، هذا الاختبار الذي هو المدخل الطبيعي والوحيد ، للحياة المسيحية الحققة .

العقوبات الكنسية :

كان القانون الكنسي ، يتضمن عدداً من العقوبات ، التي توقع على كل من يخرج على نظامها ، وهذه العقوبات كانت تتراوح بين الإيقاف المؤقت وبين الفرز أو القطع أو الفصل من عضوية الكنيسة ، وكانت لكل مخالفة عقوبتها المناسبة ، وكانت عقوبة الحرمان أو الفرز شيئاً رهيباً بالنسبة لأهالي العصور الوسطى ، وكانت الكنيسة تحذر أعضائها من مخالطة المحرّمين والتعامل معهم ، ونظراً لأن جميع الناس كانوا أعضاء في الكنيسة ، كان المقطوع من عضوية الكنيسة ، يجد نفسه وقد نبذه الجميع وتجنبوه . وفي بعض البلاد ، كان مثل هذا الإنسان ، يحرم من كافة الحقوق الشرعية ، ويعتبر خارجاً على القانون العام . أي أنه كان ينبذ من المجتمع البشري كله ، فضلاً عن حرمانه من التقدم إلى الأسرار الكنسية وشركة القديسين ، لذلك كان الاعتقاد السائد أن مثل هذا الشخص يموت بلا رجاء ، ويمضي إلى عذاب أبدي .

وخوف الناس وإرتعابهم من عقوبة الحرم، أعطى الكنيسة سلطة كبرى في تعاملها معهم، حتى الملوك والحكام، أحنوا رؤوسهم أمام هذا السلاح الماضى، الذى كان بمثابة سيف بتار، ترفعه الكنيسة فى وجوه معارضيهـ .

القانون الكنسى والمحاكم المدنية :

لم يقف تدخل الكنيسة فى شئون الحياة اليومية للناس فى ذروة العصور الوسطى، عند حد الخضوع للنظام المحكم الذى وضعته، بحيث لا تفلت من يدها شاردة أو واردة، لكنها سنت قوانين خاصة بها، باعتبارها سلطة قائمة بذاتها، كما كانت لها محاكمها الخاصة بها، وكان البابا أو رؤساء الأساقفة أو الأساقفة، هم الذين يقومون بفحص القضايا التى كانت تنظرها تلك المحاكم، ويصدرون فيها الأحكام، تبعاً لأهمية تلك القضايا .

وهكذا وجد الناس الذين وقعت قرعتهـ فى ذلك الزمان، وجدوا ذواتهم مرغمين على الخضوع للكنيسة بقوانينها ومحاكمها وسلطاتها، تماماً كما يخضعون للحكومات المدنية بقوانينها ومحاكمها .

وكانت محاكم الكنيسة وحدها، هى المختصة بنظر قضايا رجال الإكليروس، أى أن السلطات المدنية، لم يكن لها أى شأن أو سلطان على هؤلاء . ولم تعد الكنيسة فى أوروبا الغربية فى ذلك الوقت، وسيلة لإقحام ذاتها فى قضايا الناس وخصوصياتهم، فى كافة مجالات الحياة، وإحضارها ونظرها أمام محاكمها الخاصة . بهذه الطريقة، أصبحت الكنيسة قوة تفوق ما كان لأى حكومة مدنية من حكومات ذلك العصر .

محاكم التفتيش :

وما دمتنا بصدد ذكر القانون الكنسى والمحاكم الكنسية، لا مفر لنا من

التعريج على ذكر محاكم التفتيش ، التي كانت جزءاً هاماً من الجهاز المتكامل ،
الذي أنشأته الكنيسة ، لإحكام قبضتها ، وكانت هذه المحاكم ، مختصة ببحث
قصايا الهرطقة والتعاليم المنحرفة ، وإصدار الأحكام ضد الهرطقة الذين
يخرجون على تعاليم الكنيسة وعقائدها .

وكان الخروج على تعاليم الكنيسة ، ظاهرة شائعة في خلال الفترة من
القرن الحادى عشر إلى القرن الثالث عشر .

وظهرت في الكنيسة تبعاً لهذا إتجاهات متعددة لمعالجة هذه الظاهرة .
الإتجاه الأول كان يرى ، أن هذه الظاهرة ينبغى أن تعالج بالتعليم والمتابعة
لا بالقهر والعنف ، وكان « برنارد » على رأس المنادين بهذا الرأى ، أما
الإتجاه الآخر ، فكان يرى أن الخروج على تعاليم الكنيسة ، يعتبر كفراً
وإرتداداً عن الإيمان ، ويجب التصدى له وسحقه ، وكان هذا هو الرأى
الشائع في الكنيسة .

وفي البداية كان الأمر ، وكولا للأساقفة ، لكى يعلنوا الحرب على الهرطقة
والمنحرفين ، أو بتعبير أدق ، من كانت تعتبرهم الكنيسة من وجهة نظرها ،
هرطقة ومنحرفين .

وعندما ارتقى البابا « إنوسنت الثالث » كرسي البابوية ، كانت قد كثرت
حالات الإعتراض على قوانين الكنيسة وتعاليمها ، فشن حملة ضارية على
جماعة الألبين ، الذين كانوا قد ظهروا في بروفنس قبل ذلك بحوالى
عشرين عاماً ، وقتل منهم عدة ألوف .

وقد أحس البابا بأن واجب حماية الكنيسة من الهرطقة والهرطقات ،
يتطلب قيام تنظيم مركزى ، يتولى معالجة هذه الأمور ، على مستوى الكنيسة

كلها ، في دول أوروبا الغربية بأسرها . وفي النصف الأول من القرن الثالث عشر ، ظهرت محاكم التفتيش البابوية ، وكانت الحكومات تقدم لهذه المحاكم ، كل الحالات التي تقع في دائرة اختصاصها ، لأن الحكومات كانت قد عدلت قوانينها ، وأضافت إليها مواد ، تقضي بتكفير أصحاب الآراء المعارضة لتعاليم الكنيسة .

وفي عام ١٢٢٤ م ، سن الإمبراطور « فردريك الثاني » ، قانونا يقضي بإعدام كل من ينحرف ويحيد عن تعاليم الكنيسة .

وكانت محاكم التفتيش أجهزتها البوليسية والقضائية الخاصة بها ، والمتهمون الذين كانوا يقدمون للمحاكمة أمام تلك المحاكم ، لم يكن مسموحا لهم بالدفاع عن أنفسهم ، وفي أغلب الأحوال ، كان يحكم بإدانتهم . وكان التعذيب الوحشي ، وسيلة من الوسائل التي إستخدمتها تلك المحاكم والسلطات التابعة لها ، لا تنزاع الاعترافات من أولئك المتهمين .

وقد وضعت الحكومات المدنية في أوروبا الغربية كلها ، كانه أجهزتها ، في خدمة محاكم التفتيش ، من جهة القبض على المهرطقة ، وتنفيذ الأحكام التي تصدرها ضدهم .

نظرة الناس إلى المهرطقة في العصور الوسطى :

وقد وقعت محاكم التفتيش موقعا حسنا من نفوس الناس في تلك العصور ، وحظيت بموافقة الرأي العام عليها ، وعلى إجراءاتها وأساليبها ، وكان السبب في هذا ، هو أن المهرطقة كانت تعتبر أفظع جريمة يرتكبها إنسان ، لأنه بهذا كان يعرض وحدة الكنيسة للخطر . وكان المساس بالكنيسة في ذلك الزمان ، جرما ليس بعده جرم ، لأنه كان يعتبر مساسا بالإيمان المسيحي

١٠٣

ذاته ، لأن الناس في تلك الفترة من الزمان ، لم يستطيعوا التفريق بين الإيمان في حد ذاته ، وبين الكنيسة باعتبارها المؤسسة التي تجسد هذا الإيمان ، لذلك كان المساس بواحد من الإثنين ، يعتبر تلقائياً مساساً بالآخر .

ولما كانت الكنيسة هي أساس العالم المتحضر آنذاك ، كانت نظرة الناس إلى الهراطقة ، تشبه نظرتنا نحن إلى الفوضويين والمخربين في هذه الأيام . ولم يعرف الناس في العصور الوسطى ، شيئاً عن حرية الفكر والضمير ، وقد استغرق الأمر وقتاً طويلاً ، حتى عرف المسيحيون هذه الحرية ، ولا نجاوز حد الصواب إن قلنا ، إن الجميع لم يصلوا بعد ، إلى إدراك كامل لحرية الفكر والرأى والإعتقاد ، رغم أننا نقف الآن ، على مشارف القرن الحادى والعشرين .



١١

نظام العبادة

[نظام الأسرار (سر المعمودية - سر التثبيت - سر التوبة - سر الكهنوت - سر الزواج - سر مسحة المرضى - سر ذبيحة القديسين) - الوعظ - عبادة القديسين] .

نظام الأسرار :

وتنادى الكنيسة الكاثوليكية بوجود أسرار سبعة ، وكان أول من صرح بهذه الأسرار السبعة هو « بطرس اللومباردى » في عام ١١٤٠ م ، وهذه الأسرار هي :

١ - سر المعمودية :

وكان الاعتقاد السائد ، أن كل من يعتمد ، يحصل على الخلاص والتجديد والولادة الروحية .

٢ - سر التثبيت :

وهو الخدمة المرافقة ، التي كانت تجرى ، لإدخال المعتمدين في طفوليتهم ، إلى شركة الكنيسة ، وكان هذا السر يجرى لهم ، عند بلوغهم سن التمييز ، فإذا وجدوا خالين من اللوم ، يتخذون على عانقهم ، تنفيذ التعهدات التي أخذت على والديهم أو أشابينهم وقت معموديتهم ، وعندئذ ، تثبت عضويتهم في الكنيسة .

٣ - سر التوبة :

وهو في عرف الكنيسة الكاثوليكية ينقسم إلى فضيلة وإلى سر ، والنوع الأول يقوم بالحزن على الخطية ، والعزم على تركها ، وقصد التكفير عنها لله . أما النوع الثاني ، فهو على غرار عمل المسيح لأجل غفران الخطايا المرتكبة بعد المعمودية ، على يد كاهن ذي سلطان ، وإيفاء الخاطيء عن نفسه لمتطلبات العدل الإلهي . فمادة السر هي عمل التائب المتضمن الندامة ، وإيفاء القانون ، ويراد بالندامة الحزن أو الأسف ، والإعتراف الذي يتضمنه هذا السر ، ينبغي أن يكون شفويا للكاهن .

وهذا التعليم يعني ، أنه لا يمكن أن تغفر خطية يرتكبها الإنسان بعد معموديته ، ما لم يعترف بها مرتكبها للكاهن ، الذي له سلطان الحل والربط .

٤ - سر الكهنوت :

وهذا السر يناله الكهنة وقت رسامتهم ، التي لا حق لأحد في إجرائها ، غير رؤساء الكهنة أو الأساقفة ، لأنهم وحدهم الذين لهم الامتياز الرسولي ، أن يمنحوا الروح القدس بوضع أياديهم .

٥ - سر الزواج :

وهو يشير إلى الاتحاد السري ، بين الكنيسة ورأسها الإلهي ، وإتمامه كان وسيلة ، لحلول النعمة الإلهية على الزوجين .

٦ - سر مسحة المرضى :

وهي تعرف بأنها سر تحل فيه النعمة بواسطة المسح بالزيت ، والصلاة ، وبخدمة الكاهن ، على كل من كان يصيبه مرض خطير ، من المعتمدين ، فتغفر له خطاياهم ، وتزداد قوة نفسه .

٧ - سر ذبيحة القديس أو سر الأفخارستيا :

وهذا السر هو أعظم الأسرار جميعاً ، وتعتقد الكنيسة الكاثوليكية ، أن المسيح موجود في هذا السر بجسده ونفسه ولاهوته^(١) معاً ، وأنه عندما يقول الكاهن : « هذا هو جسدي » يتحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه الحقيقيين . وعلى حد قول أحد أقطاب الكنيسة ، « ما كان قبلاً خبزاً يستحيل كله إلى جسد المسيح ، وكل ذرة من الخبز ، وكل قطرة من الخمر ، تحتوى المسيح الكامل ، وبعد أن تتم هذه الاستحالة ، يقدم الكاهن المسيح ذبيحة عن الأحياء والأموات .

هذه هي الأسرار السبعة ، التي تنادى بها الكنيسة الكاثوليكية ، سردناها بإيجاز شديد .

وهذه الأسرار كانت تمارس باعتبارها وسائل ينال الناس عن طريقها الخلاص ، وكان الاعتقاد السائد ، هو أن لهذه الأسرار في ذاتها ، قوة سرية أو قل سحرية ، تؤثر في نفوس الناس ، وأنها تؤدي بالعابدين الذين يمارسونها إلى الحصول على النعم الإلهية ، بغض النظر عن حالتهم الروحية ، لا فرق في هذا بين المؤمنين وغير المؤمنين . فبالمعمودية يتجدد المعتمد . وبالتناول ، يحصل المتناول على جسد المسيح ودمه ، وبالتالي ينال الحياة الأبدية . ولكي تكون هذه الأسرار فاعليتها ، يجب أن تتم ممارستها على يدي كاهن ، ممن حصلوا على سر الكهنوت .

الوعظ :

وتبعاً للاعتقاد بعظمة الفوائد التي يجنيها الناس ، عن طريق ممارستها

(١) أنظر مختصر اللاهوت الأدبي للأب يوحنا غوري اليسوعي العدد ٢٧٢ من المجلد الثاني .

للأسرار الكنسية ، ساد الاعتقاد بعدم أهمية الوعظ ، لهذا اعتبر الوعظ شيئاً ثانوياً ، ومن مرتبة أدنى من ممارسة الأسرار ، وأوكل أمر الوعظ للكهنة في أبروشياتهم ، وكان هؤلاء على قدر من الجهل وضحالة المعلومات ، بحيث أنهم لم يكونوا يعظون إلا في القليل النادر .

لكن عندما ظهرت الرهبنة الفرنسيسكانية ، والنظام الدومينيكاني ، استرد الوعظ مكانته ، لأن الرهبان أخذوا على عاتقهم مسئولية القيام بالوعظ ، الذي أهمله كهنة ذلك الزمان .

عبادة القديسين :

في فصل سابق ، رأينا كيف دخلت إلى المسيحية بعض العوائل الغريبة ، التي جاء بها الوافدون إليها من الوثنية ، وقد بقيت هذه العوائل ، وبمرور الزمن ، نمت وتطورت في هذه الفترة ، فترة ذروة العصور الوسطى ، فاحتلت عبادة القديسين مكانا بارزا في العبادة المسيحية . فتضاعف عدد القديسين ، الذين كان الناس يصلون إليهم ، ويطلبون منهم العون والمساعدة . كما انتشرت عبادة رفات القديسين ، وساد الاعتقاد بأن لهذه الرفات ، القدرة على عمل المعجزات ، وتداول الناس العديد من الروايات ، عن معجزات لا حصر لها . من هذه الروايات ، على سبيل المثال ، قيل إن أحد التجار في جرننجتون ، سرق ذراع يوحنا المعمدان . واحتفظ به في بيته ، وعندما شبت النار في تلك المدينة ، دمرتها تدميرا لم تترك فيها سوى بيت ذلك التاجر ، الذي لم يصب بأذى ضرر ، بسبب وجود الذراع في بيت ذلك السارق .

من كل ما سلف ذكره ، يتضح لنا أن الكنيسة كانت تحتل مكانا بارزا في حياة الناس ، وتفكيرهم في هذه الفترة من العصور الوسطى ، إذ كانوا

ينظرون إليها على أنها الوسيط بينهم وبين الله ، فأسرارها هي سبيلهم الوحيد للحصول على نعمة الله المخلصة . كما أنها بنظام الخدمة المتبع فيها ، كانت تقدم لهم الوصايا الإلهية ، وبتعاليمها ، كانت تقودهم إلى معرفة الله ، ومن ناحية أخرى ، كانت الكنيسة ترفع إلى الله الصلوات من أجل حاجات الشعب . أى أن الكنيسة فى تلك الفترة ، كانت تمثل كل شيء بالنسبة للشعب ، فهى المكان الوحيد ، الذى يقصده الناس لنوال البركات ، وكان للكهنة بسلطانهم ، هم الوسطة لنوال هذه البركات .

وفى العصور الوسطى ، كان الحديث عن الكنيسة ، يعنى بالدرجة الأولى ، الحديث عن الإكليروس ، الذين كانت لهم قوة سرية ، أعطاهم المسيح لهم ، وقت رسالتهم ، وبسر الكهنوت هذا ، كان للكهنة حق الوساطة بين الناس وبين الله . أى أنهم كان بأيديهم الحياة والموت ، السماء والجحيم ، وكان ابتعاد الإنسان عن شركة الكنيسة ، معناه الانفصال عن الله أى الهلاك الأبدى .

وكانت المسيحية فى نظر الناس فى تلك الفترة ، هى الكنيسة التى يرأسها البابا ، والكنيسة هى المسيحية . لم يخرج عن هذا الاعتقاد ، غير أقلية ضئيلة من المعترضين ، أما الأغلبية العظمى ، فكانت تعتقد أنه لكى يكون الإنسان مسيحياً ، كان عليه أن يخضع للكنيسة ، ويمثل لأوامرها .

١٢

الحياة المسيحية

[حياة القادة الدينيين : برنارد أف كليرفو - دومنيك -
فرانسز الأسيسي ريموندل - الحياة بين العامة - جبهة
معارضة للكنيسة : (بطرس والدو - بطرس دي برويز -
هنري دي لوزان - الألبين - الحرب ضد الألبين -
الكاثاريون - الأخوة)] .

حياة القادة الدينيين :

عند التأمل في الحياة المسيحية ، في ظل النظام الكنسي ، الذي كان
مسائدا في تلك الأيام ، علينا أن نفرق بين نوعين ، أولهما ، هو نوع الحياة
التي عاشها بعض من أعظم الرجال والنساء ، الذين تجاههم وتقدرهم جميع
الأجيال المسيحية ، من أمثال برنارد أف كليرفو ، ودومنيك ، وفرانسز
الأسيسي ، وبين الطابع العام للحياة الناس في تلك العصور .

ولئن كان الجو العام للحياة في تلك الأيام غائما وقائما ، إلا أننا لم نعدم
ظهور بعض الكواكب اللامعة ، التي بزغت من بين الغيوم ، لتعلن
أن الحى القيوم ، قد أبقي لنفسه بقية أمينة ، تحمل مشاعل النور ، الذي
يبعد ظلام تلك العصور .

« برنارد أف كليرفو » (١٠٩٠ - ١١٥٣ م) :

كان أبوه قد تشبع بروح الفروسية ، التي ظهرت في ذلك العصر ،

وكان صديقاً للفقراء والمعوزين ، كما كانت أمه امرأة تقيّة . بين هذين الأبوين العظيمين ، نشأ « برنارد » وقد أخذ عن أمه حب التقوى ، وكانت صحته لا تؤهله لحياة الفروسية التي كان يريد لها أبوه . وتميز « برنارد » بين أفراد أسرته ، بغيرته الشديدة على الدين ، وقد دفعه حماسه الديني لدخول أحد الأديرة ، وكان عمره آنذاك لا يزيد عن اثنتين وعشرين سنة ، وكان دخول الدير أمراً عادياً ومرغوباً في تلك الأيام . وقد أخذ معه إلى الدير إخوته وثلاثين آخرين ، وقد أهلتهم صفاته للتفوق على أقرانه في حياة الزهد والورع ، فضلاً عن أنه اختار ديراً يعيش فيه الرهبان في نظام تقشفي صارم ، إذ كان الرهبان في ذلك الدير ، يكتفون بوجبة واحدة من الطعام كل يوم ، وفترة قصيرة من الراحة والنوم ، وبقية يومهم كانوا يقضونها في العبادة والتأمل ، وكان طعامهم خالياً من اللحوم والسمك والبيض . لكن حتى هذا النظام الصارم ، لم يشبع قلب « برنارد » ، ففرض على نفسه نظاماً خاصاً ، أشد قسوة وصرامة ، فاعتلت صحته :

وبعد دخوله الدير بعامين ، وقع الاختيار على « برنارد » ، فذهب على رأس مجموعة من الرهبان ، لتأسيس دير جديد ، في وادٍ يقع في منطقة نائية ومنعزلة ، في شرق فرنسا ، ذلكم هو دير كليرفو ، الذي حاز شهرة فائقة فيما بعد ، لأنه كان يضم نخبة من أفاضل الرهبان .

وقد تأثر كثيرون بشخصية « برنارد » ، فدخلوا ذلك الدير ، لكي يكونوا على مقربة منه . وكان لحياته ، وعلاقاته الشخصية ، ومعاملاته ، وعظاته اليومية التي كان يلقيها في كنيسة الدير ، هذه كلها ، كان لها تأثير بالغ على الرهبان المحيطين به ، خاصة وأنه كان في حياته محباً للجميع ، مخلصاً وأميناً لسيدته . إنه جلس عند قدمي المعلم الأعظم ، وتعلم منه كيف

يحب الناس حباً خالصاً ، ويحس بأحاسيسهم ، يتألم لآلامهم ، ويتماطف مع المحتاجين ، ويقدم لهم ما يحتاجون . وفي رسائله التي كتبها ، عبر عن مشاعره الرقيقة تجاه الآخرين ، متمثلاً في ذلك بالمسيح ، الذي كان «برنارد» يرى فيه التجسيد الحي لمحبة الله .

وقد عبر عن إحساسه العميق بمحبة الله الفريدة ، في عدد من الترانيم التي نظمها ، وصب فيها كل مشاعره .

تأثير برنارد على أوربا :

لم يقف تأثير « برنارد » ، عند حدود دير كليرفو ، لكنه تخطى أسوار الدير ، حتى بلغ كل بقعة في أوربا ، برغم أنه لم يشغل أى منصب ديني خارج الدير الذي تولى منصب الرئاسة فيه .

ومع أن دير كليرفو ، لم يكن يملك شيئاً من الممتلكات أو الأموال ، كما لم تكن له ميليشيا كبقية الأديرة ، إلا أنه حاز شهرة لم يبلغها ديرسواه .

والسر في قوة تأثير هذا الدير ، هو شخصية رئيسه (برنارد) ، الذي تميز بحياته النقية وسيرته الطاهرة . فقصده الناس من كل حذب و صوب ، يلتمسون منه المشورة والنصح ، في كل ما يستشكل عليهم من أمور ، وهو من جانبه ، لم يكن يبخل برأى أو نصيحة ، ويقدم العون لكل الناس من جميع المستويات ، يستوى لديه الشريف والحقير ، الغني والفقير ، الكل عنده إخوة متساوون .

كما أنه لم يكن يحابي الوجوه ، أو يرهب السلطان . وما أكثر الرسائل التي وجهها إلى الباباوات وملك فرنسا ، يلومهم فيها ، على عدم الإهتمام بواجباتهم ، والإلتزام بمسئولياتهم ، في جرأة نادرة ، وشجاعة منقطعة

النظير . وعندما كان يلجأ إليه طرفان ، في مشكل ما ، كان الطرفان يلتزمان برأى « برنارد » بنفوس راضية ، لأنه لم يكن يميل إلى يمين أو يسار ، بل يلتزم جانب الحق والحق وحده .

ولقوة تأثيره على الناس ، أوكل إليه البابا أمر القيام بالدعوة للحملة الصليبية الثانية ، وكان لخطبه تأثير بالغ على الجماهير في كل من ألمانيا وفرنسا ، وكان الإمبراطور ، قد استقر رأيه على عدم الإشتراك في تلك الحملة ، لكنه ما إن سمع خطب « برنارد » ، حتى هب ووضع على صدره شارة الصليب الحمراء ، وانضم إلى صفوف المقاتلين . وهذا يرينا أن « برنارد » ، كان الزعيم الروحي وقائد الكنيسة في عصره ، لكنه مع هذا ، ظل كما هو ، لم يزايله إخلاصه أو تواضعه .

« دومنيك » (١١٧٠ - ١٢٢١ م .) :

ولد في أسبانيا بعد وفاة « برنارد » بقليل ، وبعد الإنتهاء من دراسته الجامعية ، سيم كاهنا . وفي الثلاثين من عمره ، قام بجولة في جنوب شرقي فرنسا ، وشهد بداية الحرب الشرسية ، التي شنها الباباوات ، ضد ما أسموه « هرطقة الألبين » ..

واقتنع « دومنيك » ، بأن أسلوب الحوار ، والتعليم ، وإعلان حقائق الإيمان ، هو الأسلوب الأمثل ، لمواجهة التعاليم المنحرفة ، التي شعر بأنه يجب أن تضع الكنيسة لها حداً .

وطرح فكرة تكوين مجموعة من الوعاظ ، تجوب البلاد طولا وعرضا ، لتعلم الناس أركان الإيمان ، لكن البابا « إنوسنت الثالث » تردد في التصريح له ، غير أنه تمكن من الحصول من البابا « هونوريوس

الثالث « (١٢١٦ م .) ، على تصريح بتأسيس نظام رهباني ، هو النظام الدومنيكاني . وبدأ فوراً في التنفيذ ، وقد أيدته وانضم إليه ، عدد كبير من الشبان الذين رأوا أن الحاجة فعلاً ماسة ، لنشر التعليم الصحيح .

ولم تمض أربع سنوات على بدء تنفيذ الفكرة ، حتى كانت قد تأسست ، في مناطق مختلفة في أوروبا ، أربعة بيوت ، تضم عدداً كبيراً من الرهبان الدومنيكان . وسرعان ما انتشر عمل هؤلاء الرهبان الذين راحوا يعملون بغيرة وحماس شديدين :

ولاحساساً منه بخطورة مهمة التعليم ، حاول «دومنيك» أن يستميل إليه عدداً من الجامعيين ، وقد تمكن بالفعل من إقناع عدد كبير منهم ، بالانضمام إلى القوافل العاملة من رجال هذا النظام .

وقد جعل شعار نظامه ، كلباً يحمل مشعلاً مضيئاً . وهذا الشعار مستمد أيضاً من اسمهم «دوميني كينز» ، وهو مع بعض التلاعب اللفظي ، يعني « كلاب الرب للحراسة » ، باعتبارهم حراساً للكنيسة وحفظة للإيمان ، وحمل المشعل ، يشير إلى أنهم يحملون مشعل الحق ، لإضاءة الجنس البشري .

وفي أخريات أيامه ، أبدى «دومنيك» رغبته في الذهاب على رأس بعثة تبشيرية ، تحمل الإنجيل إلى القبائل الوثنية ، القاطنة في جنوب روسيا ، غير أن صحته لم تساعد على تحقيق هذه الرغبة بنفسه ، فأرسل مجموعة من رجاله إلى هناك .

ووافته المنية بعد ذلك بأربع سنوات ، مخلفاً وراءه جيشاً جراراً من الرهبان ، الذين انتشروا في العالم حاملين نور الإنجيل إلى كل مكان ، حيث قدموا للناس خدمة لا تنسى .

(٨-٢)

وقد تميز رهبان هذا النظام بسمو المعرفة وطول الباع في العلم ، ومن بين صفوفهم خرج رجال عظماء سجل التاريخ أسماءهم بحروف من نور ، على رأسهم القديس « توما الأكويني » ، ذلك اللاهوتي البار والمعلم القدير :

ومع أن النظام الدومنيكاني ، كان قريباً من النظام الفرنسيسكاني ، إلا أن الدومنيكان ، كانوا وعاظاً متجولين ومتسولين ، يحصلون على احتياجاتهم عن طريق التسول ، وكانوا يعتقدون أنهم بهذا ، يكونون أكثر نجاحاً في خدمتهم بين العامة ، بينما كان الفرنسيسكان ، يخدمون الناس ، وفي نفس الوقت يعملون ، للحصول على حاجاتهم بعرق جبينهم .

توما الأكويني (١٢٢٤ - ١٢٧٤ م) :

ولد في قرية أكوينو الواقعة بين رومية ومونت كاسينو ، وكان مولده في عام ١٢٢٤ ، في أحضان أسرة كريمة . وتلقى تعليمه الأولي في دير سانت كاسينو ، ثم أتم دراسته بعد ذلك في مدرسة نابولي .

وعلى غير هوى من أسرته ، انضم في عام ١٢٤٣ إلى صفوف الدومنيكان ، الذين أرسلوه للعمل تحت رئاسة « البرت أف كولون » ، الذي كان واحداً من كبار الأساتذة في كولون ، وقد قضى مع هذا الأستاذ الجليل ، عدة سنوات في كولون وباريس . وفي عام ١٢٥٧ ، حصل « توما الأكويني » على درجة الدكتوراه .

وفي عام ١٢٥٢ ، طلبوه ليكون معلماً في باريس ، ومن ذلك التاريخ فصاعداً ، راح يعمل بالتدريس والكتابة إلى أن أدركته المنية في عام ١٢٧٤ ، كان في طريقة آنذاك ، لحضور المجمع العام في مدينة ليون :

وقد عاش الأكويني حياة ملوّهة التقوى والورع ، في ظل النظام الدومنيكاني ، كما أنه ساهم مساهمة كبيرة في نشر المعرفة والتعاليم الدينية ، في عصر عزت فيه المعرفة ، وكان متأثراً بأراء أرسطو وأفكاره في علم المنطق ، تلك الأفكار وهي في القرن الثاني عشر الميلادي ، وكان من أعظم دارسي الكتاب المقدس .

وكسائر أتباع النظام الدومنيكاني ، لم يعترف الأكويني بعقيدة الحبل بالعذراء بلا دنس ، التي كانت من أهم عقائد الإيمان الكاثوليكي .

وفي الجدل العقائدي ، الذي ثار بين الكنيستين الشرقية والغربية ، لعب هذا العالم الجليل ، دوراً كبيراً .

وقد اشتهر الأكويني بموسوعته اللاهوتية الرائعة ، التي قسم فيها أبحاثه إلى ثلاثة أقسام ، القسم الأول خصصه للإلهيات ، والقسم الثاني يدور البحث فيه حول الإنسان ، أما القسم الثالث ، فموضوعه هو شخص السيد المسيح ، كإنسان وإله معاً .

في الجزء الأول ، يتعرض للكلام عن وجود الله ، وطبيعته ، وثالوثه . والله عنده هو المحرك الأول ، أو العلة الأولى ، لجميع الأشياء ، فهو البداية والمنتهى لكل شيء في الوجود ، إنه المبدىء المعيد .

وفي القسم الثاني يتحدث عن الإنسان كمخلوق ساقط ، لكنه رغم هذا ، في وسعه أن يتمتع بالفداء . بعد ذلك يتطرق لبحث السلوك الإنساني بفضائله ورذائله ، ثم يدرس موضوع الناموس والنعمة . بينما في الجزء الثالث ، يتحدث عن المسيح الفادي ، الذي فتح للإنسان طريق العودة إلى الله .

وقد استخدم «الأكويني» إتساع معرفته بالكتب المقدسة ، في إثبات صحة العقائد الكنسية .

كما كتب شرحاً لبشائر الإنجيل ورسائل بولس الرسول ، استند فيه إلى أقوال آباء الكنيسة .

وفي عام ١٣٢٣ م ، قرر البابا « يوحنا الثاني والعشرين » ، التبصريح بتداول مؤلفات الأكويني .

وإنه لمن المؤسف حقاً ، أننا عند ذكر « توما الأكويني » ، نجد أن شخصية الأكويني اللاهوتي والفيلسوف ، تغطي على شخصية توما الأكويني الشاعر القديس ، الذي تميز في حياته الشخصية بورع زائد ، وتقوى منقطعة النظر .

« فرانسز الأسيسى » (١١٨٢ - ١٢٢٦) :

واحد من أعظم القادة الدينيين ، الذين شرفت بهم فترة العصور الوسطى ، وهو يحظى اليوم بالتقدير ، من كافة طوائف المسيحيين ، ذلك لأنه كان تابعاً أميناً ، وتلميذاً حقيقياً لسيدته .

ولد في مدينة أسيسى في عام ١١٨٢ م ، وكان أبوه واحداً من كبار تجار المنسوجات ، في منطقة وسط إيطاليا . وكانت أمه فرنسية ، أخذ عنها حب الموسيقى والغناء ، وعلى الأخص أناشيد الفروسية التي كان يتغنى بها الشعراء المتجولون . اسمه الأصلي « يوحنا برنادون » ، وأطلق عليه اسم فرانسز ومعناه الرجل الفرنسي ، ربما لتعاطفه مع الجنس الفرنسي ، أوحبه للروايات الفرنسية .

وقد اشتهر في أول عهده بالإسراف في إنفاق المال ، ومنافسة أبناء النبلاء في الأناقة ، وحب الملبس الفاخر ، لكنه منذ البداية ، كان مجباً للفقراء والمساكين . ويحكى أنه كان ذات مرة مشغولاً في بيع المنسوجات لواحد من تجار المدينة ، فربه شحاذ يطلب إحساناً ، ولما فرغ من البيع ، كان الشحاذ قد مضى في طريقه ، فما كان من « فرانسز » ، إلا أن ترك متجره وبضاعته ، وراح يركض في الطرقات ، يفتش ويبحث عن الشحاذ ، ولما وجدته ، نفحه قدراً كبيراً من المال .

ولما كبر « فرانسز » ، انخرط في سلك الجندية ، وانضم إلى جماعات المحاربين ، الذين كانوا منتشرين في مدينة أسيسى ، وكان أشجع فرسان عصره .

وفي شبابه أصيب بمرض شديد ، وبينما هو يتألم في فراشه ، سرح بفكره في آلام المسيح ، وإنتابته صحوة دينية ، جعلته ينشغل بالله ، ويتجه إلى إظهار نشاط كبير في خدمة المحتاجين ، وبدلاً من الاتجاه إلى إشباع ميوله نحو الفروسية ، وجه كل اهتمامه إلى المنبوذين والبؤساء ، وبالأخص المصابين بداء البرص ، الذين كان يأنف كثيراً من النظر إليهم ، ويقال إنه كان ذات مرة يمتطي صهوة جواده ، وأثناء مروره في أحد الطرق ، لمح إنساناً أبرص ، ففكر في أن يرجع من الطريق ، ويسلك طريقاً آخر ، حتى لا تقع عيناه على ذلك الإنسان ، لكنه قاوم هذا الإحساس ، وقفز بحصانه إلى الأمام ، وما أن اقترب من ذلك الأبرص ، حتى نزل من على ظهر حصانه ، وركض نحو الرجل ، وقدم له شيئاً من المال ، ولما أحس بأنّه لم يفعل شيئاً يستحق الذكر ، تقدم نحو الرجل ، واحتضنه ، وقبله . وبعد ذلك ذهب إلى مستشفى للبرص في أسيسى ، وأخذ يسعف بزلاءه ،

لاكرضى بأنف من النظر إليهم ، ولكن كإخوة له في المسيح ، وكان غريباً في تلك الأيام ، أن يهتم الناس بالبرص ، ويظهروا لهم الحنو والعطف .

كذلك أظهر « فرانسز » اهتماماً عظيماً ، بتعمير بعض الكنائس القديمة المهدامة والمهجورة ، وهو بهذه الأعمال ، كان يعبر عما يعمل في نفسه من شوق غامر ، ورغبة عارمة ، في خدمة إلهه ، لكنه حتى هذه اللحظة ، لم يكن قد وصل إلى المكان الذي كان الله ، قد أعدّه وهبّاه له .

وقد غضب عليه والده ، وحاول أن يصدّه عن هذه الخدمة ، التي كان قد كرس ذاته لها بالتّمام ، لكن ذهبت أدراج الرياح ، كل الجهود التي بذلها والده لإرجاعه ، فاستمر هو سائراً في الطريق الذي اختطه لنفسه ، طريق الخدمة ، قاعته أبوه ابناً عاقاً ، قد أصابه مس من الجن أو الجنون . وأعلن « فرانسز » أنه زاهد في ثروة أبيه وممتلكاته ، وراح يحول العالم كرجل فقير .

بعد ذلك توجه إلى إحدى الكنائس ، وفي أثناء الخدمة ، سمع الكاهن يردد الجزء الوارد في الأصحاح العاشر من بشارة القديس متى البشير ، والمختص بإرسال يسوع تلاميذه إلى العالم ، لكي يكرزوا ببشارة الملكوت ، فاعتبرها « فرانسز » دعوة خاصة ، موجهة إليه من الرب رأساً ، فأطاع في الحال .

ومع أنه كان علمانياً ، إلا أنه راح يعظ في المدينة ، بطريقة فعالة ومؤثرة ، لأنه كان يقدم للناس المسيحية العملية في بساطتها ، وكان الفضل الأكبر في تأثيره على سامعيه ، راجعاً إلى إخلاصه ومحبه يسوع ، خاصة عندما رآه الناس ، وقد تخلّى عن كل شيء ، أمواله ومقنياته ، وملابسه

الأنيقة الفاخرة ، حتى أصدقاءه هجرهم ، وراح يتجول مرتديا جلبابا من الصوف الأحمر ، وحول حقويه منطقة من جلد ، ورغم هذا الحرمان الذى فرضه على نفسه ، لم ينقصه شيء من فرحه وغبطته وخفة روحه . هذه الخصال كلها ، جذبت الناس إليه ، وإلى طريقته فى خدمة المسيح .

وفى البداية انضم إلى « فرانسز » ، اثنان من أهل بلدته ، وماهى إلا فترة وجيزة ، حتى التفت حوله عدد من الشبان الذين عمرت قلوبهم بالغيرة والحماس ، وكان أحدهم تاجرا ، باع كل ما كان عنده ، وأعطاه للفقراء ، واختار أن يحيا حياة الفقر الاختيارى ، التى فرضها « فرانسز » على نفسه . بعد ذلك راح يفكر فى تكوين أخوية يحيا أفرادها معاً ، ويكرسون ذواتهم لخدمة إخوتهم فى الإنسانية فى اسم المسيح ، وقد بدأ تكوين الأخوية الفرنسيسكانية فى عام ١٢٠٩ أو ربما فى عام ١٢١٠ م ، بعد أن حصل « فرانسز » من البابا « إوسنت الثالث » ، على موافقة مبدئية على نظام جماعته

ومن بداية الأمر ، أعلن « فرانسز » لأتباعه ، أنه لا يريد لهم أن يعتزلوا فى دير ، ولا أن يركزوا اهتمامهم على خلاص أنفسهم ، ولكن عليهم أن يذهبوا بين الناس بحبة المسيح . فراحوا يتجولون من قرية إلى أخرى ، ومن مدينة إلى أخرى ، يذيعون الأنباء السارة بين الناس ، مقتدين بسيدهم ، الذى كان يجول يصنع خيراً ، ويشفى جميع المتسلط عليهم إبليس . كلما لاحت لهم فرصة اهتبلوها ، وراحوا يقدمون خدماتهم للناس فى الساحات والأسواق والحقول ، كانوا يخدمون الفلاحين وسكان المدن ، ووجهوا عناية خاصة للمرضى بالبرص ، ولم يكن مصرحاً للراهب الفرنسيسكانى ، أن يمتلك أكثر من عباءة ورداء وكتاب مقدس ، وقلابة فى دير . وكانوا

يكرهون المال كراهية شديدة ، ربما بسبب الضربة القاصمة ، التي أصابت رجال الدين في تلك الأيام ، بسبب محبتهم للمال ، ويحكى أن واحداً من هؤلاء الرهبان ، جاء مرة ومعه قطعة من النقود ، ما إن رآها القديس «فرانسز» معه ، حتى أخذها منه ، وبعد أن رمقها بازدياء ، ألقى بها في روث البهايم .

وكان «فرانسز» ورفاقه ، يسرون جماعة معاً ، مهللين مترنمين بمحبة الله . وفي كل مكان ، كان الناس ينجذبون إليهم ، بخفة روحهم ، وابتهاجهم وفرحهم ، حتى أنهم صاهاوا يعرفون بين الناس ، رجال الله الفرحين ، وقد استمدوا هذا الفرحة ، من رئيسهم الذي كان دائماً فرحاً مسروراً ، يشكر الله ويحمده ، من أجل كل شيء في الوجود .

وقد أحب «فرانسز» سيده محبة فائقة ، أفعمت قلبه بحب غامر ، لإخوانه في الإنسانية .

وفي ذلك الوقت ، كان المسيحيون قد شغلوا بالحروب الصليبية ضد العالم الإسلامي ، بسبب وضع يده على الأماكن المقدسة المسيحية ، وفي غمرة هذا النزاع ، نسي المسيحيون واجب الكنيسة ، كما نسوا أن المسيح يحب ولا يكره ، فلدجأوا إلى الحرب والقتال .

لكن «فرانسز» ، نادى بوسيلة أخرى غير هذه ، وغامر بالوقوف في وجه هذا التيار الجارف ، وكان يقول : « ماذا ننجي من وراء قهر السلطان ! ؟ ولماذا لا نكسبه بالحب بدلاً من القتال ! ؟ »

وفي عام ١٢١٨ م ، أبحر مع جماعة من رفاقه حاملين دعوة الحب

والسلام ، فنزل في مصر ، وانضم إلى جيش الصليبيين^(١) ، وكان يومئذ يقوم بحملته الخامسة .. وذات يوم تسلل خفية هو وواحد من زملائه إلى معسكر المسلمين ، وكان الاثنان يعلمان تمام العلم ، أنهما يغامران بحياتهما ، وهما يقطعان الطريق إلى معسكر الحصوم ، لكنهما تذرعا بالشجاعة والهدوء ، وفي أثناء سيرهما ، كانا يرددان كلمات المزمور الثالث والعشرين : « الرب راعى فلا يعوزني شيء ... إن سرت في وادي ظل الموت لا أخاف شراً لأنك أنت معي » - وفجأة وقعا في أسر العرب ، فقيدهما بغلظة ، وراحوا يوقفونهما أمام ضباط الجيش واحداً بعد الآخر ، إذ حسبهما جاسوسين ، وباستجوابهما ، أجاب « فرانسز » على كل الأسئلة التي وجهت إليه ، بصوت هادئ ورزين ، وقال : « أنا مسيحي وأرغب في مقابلة السلطان : » « فأخذوه ورفيقه وأوقفوهما أمام السلطان ، الذي سألهما : « من أنتم ، وكيف أتيتما إلى هذا المكان ، ولماذا ؟ » ، فأجاب « فرانسز » : « لم يرسلنا أحد من البشر ، لكن الله هو الذي أرسلنا ، لكي نحمل إليكم رسالة محبة المسيح ، بدل هذه الحرب التي يشنها عليكم بنو قومنا » .

فتفرس فيه السلطان مبهوتا ، واستمع إلى أقواله باحترام وانتباه ، لأنه أعجب بشجاعته وغيثته ، ومغامرته في التسلل إلى معسكرات الأعداء ، واستبقاه أياماً في ضيافته ، وأحسن معاملته ، وبعد أحاديث طويلة دارت بينه وبين السلطان ، عاد « فرانسز » مشيعاً بالخفاوة والإكرام ، بعد أن أظهر لذلك الأمير العربي المسلم ، جانباً من جوانب محبة المسيح ، طغى على مظاهر القتال العنيف ، الذي كان محتدماً آنذاك ، بين المسيحية والإسلام .

(١) كان هذا الجيش معسكراً بالقرب من دمياط حيث كانت جيوش المسلمين قد تصدت لهم وعاقبتهم عن الوصول إلى الأراضي المقدسة بفلسطين .

إنتشار النظام الفرنسيسكاني :

سرعان ما انتشر نظام الفرنسيسكان أو « الإخوة الأصاغر » ، إذ حذا حذو « فرانسز » إخوة كثيرون ، من أغنياء التجار والعملاء ، وعاشوا حياة الزهد والتقشف ، وقضوا أوقاتهم في الصلاة والتعبد والخدمة ، والعناية بالمرضى والبرص ، واشتغلوا بأيديهم في الحقول والمزارع ، لكسب عيشهم بعرق جبينهم ، وعندما لا يجدون عملاً ، كانوا يستجدون ، وكان هذا هو السبب في تسميتهم « الرهبان الشحاذين » .

وعندما انعقد مؤتمرهم السنوي في عام ١٢١٧ م . ، كانت لهم فروع في كل من ألمانيا ، وهنغاريا ، وأسبانيا ، وبدأوا يرسلون الإرساليات والبعوث التبشيرية ، إلى المناطق الوثنية ، غير مباليين بما ينتظرهم هناك من أخطار ، الأمر الذي أدى إلى اعتراض أحد الكرادلة ، على هذا النوع من الخدمة ، فقال له « فرانسز » : « أتظن أن الله قد سمح بقيام هذا النظام ، من أجل الخدمة في بلادنا فقط ؟ ! إن الله قد دعانا للخدمة بين الناس من جميع الأجناس ، لإنهاض حياتهم الروحية ، وقيادتهم إلى الخلاص » .

وفي عام ١٢٢٠ م ، عاد « فرانسز الأسيسي » من رحلته التي قام بها إلى الشرق ، وآله كثيراً أن يرى المسؤولين ، الذين أوكل إليهم أمر الإشراف على الإخوة ، وقد ابتعدوا بالنظام عن مثله ومبادئه . فقد كان يدعو أتباعه إلى التجرد الكامل ، وعدم إمتلاك شيء ما ، كما أنه كان يرى ، أن الأديرة التابعة لنظامه ، يجب أن تتميز عن غيرها من الأديرة ، التي كانت منتشرة في ذلك الزمان ، والتي كانت لها ممتلكات شاسعة ، وإقطاعيات واسعة . إنه كان يرى أن حياته وحياته تابعيه ، يجب أن تكون كحياة سيدهم ، الذي لم يكن له أين يسند رأسه ، وكان مقتنعاً تماماً بالإقتناع ،

بأن عدم امتلاك شيء من حطام هذه الدنيا ، هو السبيل إلى التحرر من الهموم والاهتمامات العالمية ، وبالتالي يؤدي إلى التفرغ للخدمة ، لأنه لا يستطيع أحد أن يخدم سيدين .

لقد تألم كثيراً بعد عودته إلى إيطاليا ، إذ رأى الأخوية وقد اقتنت بعض الممتلكات ، وربما أيضاً يكون قد رأى ، أنه لم يعد في مقدوره الإستمرار في الإشراف على هذا النظام - وربما يكون قد اقتنع كذلك ، بأن الرهبان لا يستطيعون أن يدبروا أمر أنفسهم بأنفسهم ، خاصة وأن أعدادهم كانت قد زادت زيادة كبيرة ، فطلب من البابا أن يتولى الإشراف على النظام الفرنسيسكاني كله ، فاستعفى هو من الرئاسة .

وشيئاً فشيئاً ، أصبح ذلك النظام كغيره من الأنظمة الرهبانية الأخرى ، ومات القديس « فرانسز الأسيسى » وهو في الخامسة والأربعين من عمره ، بعد أن أحرز شهرة فائقة ، بما أشيع من أنه من طول ما تأمل في آلام المسيح التي عاناها على الصليب ، انطبعت في جسده آثار جراحات المسيح ،

ومما هو جدير بالذكر ، أن الفرنسيسكان لعبوا دوراً كبيراً في نشر العلم ، فحيثما ذهبوا في كل مكان ، أقاموا المدارس ، واهتموا بالتعليم . ومن الإنتقادات التي وجهت إليهم ، أنهم بدلاً من تخريج صفوف من علماء الكتاب المقدس ، والقادة الدينيين ، وجهوا جهودهم كلها إلى إنشاء المدارس لنشر العلم بين الناس ، وقد نسي هؤلاء النباقدون الحاقدون ، أن نشر التعليم بين الناس ، خدمة من أجل وأعظم الخدمات .

كذلك نجح الفرنسيسكان في نشر تعاليم الكنيسة الكاثوليكية في الشرق ، عندما نجحت إحدى الحملات الصليبية في إقامة مملكة لاتينية وبطبركية

لاتينية . كما لعبوا دوراً كبيراً أيضاً ، عندما اكتسح التتار أقطار أوروبا ، وقد حصلوا من المغول ، على تصريح بتقديم خدماتهم بين الناس .

وحيث مارس الفرنسيون خدماتهم ، كانت هذه الخدمات تؤدي إلى إنعاش الحياة الدينية بين الناس . لهذا تعددت الطلبات لإرسال بعوث منهم لتقديم رسالة الإنجيل ، وخدمات المحبة ، في بلدان العالم المختلفة .

وقد عاصر ظهور الفرنسيين ظهور النظام الدومينيكانى . ، وقد تأثر كل من النظامين بالآخر ، وأظهر كل منهما غيرة عظيمة في تقديم المواعظ للناس . ومما هو جدير بالذكر ، أن الفرنسيين والدومنيكان ، لعبوا دوراً كبيراً في مساندة البابوية ومساعدتها ، وتحقيق الصورة التي طالما راودت خيال البابا « إنوسنت الثالث » .

ومن الفرنسيين ، ذهب مرسلون إلى كثير من أنحاء العالم ، وما تزال بعثاتهم ناشطة في العديد من البلدان . كما خرج من بين صفوفهم رجال عظماء طبقت شهرتهم الآفاق :

رايموند لى (١٢٣٥ - ١٣١٥ م) :

بطل من أعظم الأبطال ، ورجل من أفاضل الرجال ، وراهب من أعظم الرهبان ، الذين أنجبتهم أديرة الفرنسيين .

ولد في جزيرة ماجوركا في عام ١٢٣٥ . وقد استحق عن جدارة لقب « بطل الحروب الصليبية » لأنه اختط لنفسه خطة جديدة وفريدة ، في مواجهته للعرب والمسلمين . فلئن كان فرسان الحملات الصليبية ، قد تعاملوا مع أهل الشرق بشريعة العين بالعين ، وتسلبوا في حربهم بالسيوف والرماح ،

وجدنا فارسنا الهمام ، يتساح بانجيل المحبة والسماح ، أما الميدان الذي اختاره لنفسه ، فكان بلدان الشمال الأفريقي .

وكان النزاع بين المسلمين والمسيحيين ، لا من أجل امتلاك الأرض المقدسة في فلسطين ، بل من أجل السيادة العالمية ، وكان نفوذ الإسلام قد بلغ أوجه في القرن الثالث عشر الميلادي ، ومنذ القرن الثامن ، كان أكثر من نصف بلاد الأندلس ، قد خضع للحكم الإسلامي ، واكتسح الغزو العربي أمامه الكنائس المسيحية في بلدان الشمال الأفريقي ، واعتنق الإسلام ألوف من المسيحيين الأقباط في مصر .

وفي عام ١٢٩١ م . ، تلقت أوروبا أنباء سقوط عكا ، وإنهيار القوة المسيحية في فلسطين ، وكانت أفريقية الشمالية كلها قد دانت للفاتحين . وكانت عوامل الحقد والغیظ تعتمل في صدور كل من المسيحيين الأوربيين والمسلمين .

في هذا الجو المشحون بشحنات ناسفة من الكراهية والتعصب ، وتربص كل من الفريقين بالآخر ، تسامى « ريموندل » فوق عصره ، كقمة جبل عال ، ارتفعت فوق منبسط من الأرض المبللة بمياه المستنقعات الآسنة .

وقرر أن يتخطى كل عوائق الكراهية ومرارة النفس ، ويتقدم وهو أعزل من كل سلاح ، سوى سلاح المحبة والعطف والأخوة الإنسانية ، يمد يد المحبة ، نحو من حسبتهم أوربا في ذلك الوقت أعدى أعداء المسيحية . ولاشك في أن هذه الخطوة كانت تتطلب شجاعة فائقة ، إذ كيف يجزئ شخص أعزل ، على التفكير في اقتحام أمنع حصون العالم الإسلامي في أفريقية في ذلك العصر .

لم يكن متهوراً ولا مندفعاً كما قد يتراءى للبعض ، لكنه كان يعلم جيداً ما هو مقدم عليه ، وكان يعرف تماماً من هم العرب ، الذين سوف يواجههم في أفريقيا الشمالية . فقرر أن يعد نفسه إعداداً ، يؤهله للقيام بمهمته خير قيام ، إذ كان قد أحس أن الأمر يتطلب رجلاً مدرب العقل ، مروض العاطفة ، له غيرة قوية ، حتى يتسنى له لقاء المسلمين في ميدان الفكر ، الذي كانوا يمسكون بزمامه في تلك الفترة من الزمان . وقد أعد نفسه إعداداً وافياً لعماله ، بإتقانه اللغة العربية ، ودراسة الفلسفة المسيحية وعلوم الجغرافيا ، التي كان العرب يضربون فيها بسهم وافر .

وكان « ريموند » قد سمع في كنيسة الفرنسيين سكان الصغيرة في بالما ، قصة « فرانسز الأسيسي » ، والمغامرة التي قام بها من أجل المسيح ، وبينما كان يصغى إلى تلك القصة ، قرر « ريموند » أن يحذو حذو « فرانسز » ، في عالم الفتح الجديد بالسلام والمحبة والأخوة ، لكسب قلوب العرب والمسلمين ، وكان قد رأى فرسانا كثيرين يذهبون إلى الأراضي المقدسة في فلسطين ، حاسبين أنهم قادرون على تحريرها بقوة السيف ، لكنهم أخيراً كانوا يهاكون قبل تحقيق أهدافهم ، فاقنع تمام الإقناع بأن غزو الأراضي المقدسة لن ينجح إلا بالطريقة التي اتبعها المسيح وحواريوه ، طريق المحبة والتضحية .

وقبل كل شيء ، قرر « ريموند » أن يتعلم اللغة العربية ، ليعرف كيف يتفاهم مع العرب ، ويدرس عاداتهم وأخلاقهم وأساليب حياتهم ، ويقرأ القرآن وكتب الحديث . ولهذا الغرض استأجر لنفسه داراً كبيرة في « بالما » وأكب على دراسة الكتب الخطية تحت إشراف عبد عربي اشتراه لكي يعاونه في دراساته ، وظل على هذه الحال تسع سنوات ، يناضل منع

اللغة العربية ، في صبر ومثابرة ، حتى ملك ناصيتها وتمكن منها
ومن فنونها :

بعد ذلك سافر إلى باريس للدرس ، والدعاية لمشروعه وبعثته ، وليثير
حماس الناس لمهمته . كما راح ينتقل كثيراً في عواصم أوروبا الكبرى ،
يدعو الناس لمعاونته في هذه الحملة ، ويستميلهم إلى هذا النوع الجديد
من الجهاد السلمي لكسب العرب .

لذلك رحب به أهل جنوة ، عندما رأوه يترقب قيام سفينة تمخر به
العباب إلى أفريقية . وظن أغلب الناس ، أن « ريموند ليل » ، يقوم
بمخاطرة غير مأمونة العواقب ، بل إن بعضهم اتهمه بالجنون ، لأنه قرر
الذهاب بمفرده إلى أرض الأعداء ، لاستمالتهم إليه بنداء المحبة ، بدلا من
استخدام السيف ، وكانت الأغلبية الساحقة - وضمنهم زعماء الكنيسة
وقادتها ، ترى أن الحرب هي أنجع وسيلة .

وبعد أن حجز لنفسه مكانا على إحدى السفن ، سيطر عليه الجوف
والجزع ، وغادرت السفينة الميناء بدونه ، بعد ذلك وقع فريسة لنوبات
من الحزى وتأنيب الضمير ، واستولى عليه شعور طاغ بالندم ، لأنه خيب
أمل سيده فيه .

بعد قليل عاودته شجاعته ، وعندما علم من أصدقائه ، أن هناك سفينة
توشك أن تبحر إلى تونس ، عزم على السفر عليها ، غير أنه أصيب بمرض
شديد ، عاقه عن السفر هذه المرة أيضاً .

وعندما علم بموعد إبحار سفينة ثالثة ، صمم على السفر مهما كلفه
الأمر ، وبعد إقلاع السفينة ، صلى وطلب من الله أن يمنحه القوة اللازمة

للقيام بمهمته ، وقد سجل إحساسه بعد ذلك فقال : « من تلك الساعة ، أصبحت إنساناً جديداً ، ولم يعد بي أى أثر للحمى ولم يراودنى مطلقاً ، أدنى إحساس بالخوف » .

وعندما نزل « ريموند » فى تونس ، قصد توا إلى المسجد الكبير فى مدينة تونس ، وكان يعرف بمسجد « شجرة الزيتون » ، وإلى جانب المسجد ، وقعت عيناه على علماء ومشايخ ذوى لحى بيضاء ، يكبون على دراسة القرآن ، ويتباحثون فى الأحاديث والسنة النبوية ، وقد أدهش أولئك الرجال ، أن يروا رجلاً غريباً يأخذ مكانه بينهم بغير سابق معرفة . وراح يحدثهم فى شئون الدين بلغة عربية فصحة ، ويتعمق فى حديثه عن طبيعة الله وذاته وصفاته ، ويقارعهم حجة بحجة ودليلاً بدليل . فآلقوا عليه الأيادى ، وأخذوه إلى السلطان قائلين إنه إنسان غريب خطر الشأن .

فأمر السلطان بالقبض عليه ، وطرحه فى سجن مظلم . غير أن شيخاً كريماً من أشياخ المسلمين ، ممن أعجبوا بفصاحة الرجل وأخلاقه وأقواله ، توسط له لدى السلطان ، وطلب إطلاق سراحه ، وفعلاً قرر السلطان ترحيله من البلاد ، وبعد إخراجه من السجن ، أخذوه فى حراسة مجموعة من الجنود إلى الميناء ، ووضعوه على ظهر السفينة التى كانت قد جاءت به ، وكانت على وشك الإبحار إلى جنوة ، وقدم إليه الجنود تحذيراً من العودة إلى تونس ، حتى لا يعرض ذاته للرجم بالحجارة .

لكن الرجل الذى تردد مرة قبل الإبحار من جنوة ، وجد فى نفسه الجرأة على الهرب من السفينة ، والعودة مرة أخرى ، إلى نفر قليل من الذين كانوا قد أحبه وأكرموه سراً . وهناك بقى شهوراً قليلة ، مختفياً بين أرصفة الميناء ، يقوم بخدمته فى محبة كاملة . وبعد أن قام متخفياً نكل ما يستطيع

إنسان أن يعمله ، عاد إلى إيطاليا ، وراح يحرض الناس هناك ، على التقرب إلى العالم الإسلامي .

وظل « ريموند لل » سنوات طويلا ، يتنقل بين المدن والموانئ الواقعة على الشواطئ الأفريقية للبحر المتوسط . متحملا العديد من الأخطار ، التي كان يتعرض لها المسافرون في تلك الأيام ، بأيدي القرصان في البحار ، وفي الغابات المظلمة ، التي يكمن فيها اللصوص والوحوش الضارية .

وفي الثمانين من عمره ، قام بمغامرته الأخيرة ، وسافر إلى ميناء صغيرة في غرب تونس ، كان قد زارها من قبل ، وكان له فيها أصدقاء وأتباع . وبعد ما قضى بضعة شهور في بيت صديق له آواه وأخفاه ، وسهل له القيام بخدماته سرا ، أحس « ريموند » أنه قد آن الأوان ، لكي يجاهد علانية ، ويندع جهرآ ، الرسالة التي كان ينادي بها في السر ، ولو دفع حياته ثمنا لذلك .

وفجأة سمعت الجموع صوتا يتصاعد من وسط ضجة سوق البلدة ، وكان ذلك الصوت ، هو صوت « ريموند » ، الذي كان الآن قد صار شيخا حطمته السنون ، وراح يدعو الناس إلى محبة الله ، فأحاط به جمهور من الناس ، وهجم عليه الدهماء ، وأخرجوه بالقوة إلى خارج السوق ، وأخذوه إلى ساحة خارج البلدة ، حيث رجموه بالحجارة ، ونال إكليل الشهادة :

ولئن كانت خاتمة « ريموند » قد اصطبغت بهذه الصبغة المأساوية ، إلا أنه حقق من النجاح أكثر مما كان يفتكر ، لأنه بشجاعته ومحبته ، فتج عيون أهل أوربا في ذلك العصر ، على أسلوب جديد ، هو أسلوب (٩-٢)

المحبة والمسالمة ، وهذا هو أقوم السبل لكسب من تحسبه عدوك ، وأنتك
بالحب ، يمكنك أن تحقق ما تعجز عن تحقيقه بالحرب .

ألم أقل لك عند بدء حديثي ، إنه كان بالفعل بطلاً من أشجع الأبطال ،
ورجالاً من أعظم الرجال ؟

الحياة بين العامة :

كان البون شاسعاً بين مستوى حياة القادة أمثال برنارد ودومنيك وفرانسز
الأسيسي ، وبين عامة الشعب ، الذين تشبعت نفوسهم بروح الخوف ،
كنتيجة حتمية لما استقر في قلوبهم ، في ضوء نظام العبادة ، الذي كان
شائعاً في ذلك الزمان ، وفي ضوء العقوبات الكنسية ، وسيف الحرم
والقطع ، الذي كان مسلطاً على الرقاب .

وكان الناس ينظرون إلى الله ، كديان قاس ، شديد البطش والعقاب ،
لا سبيل إلى إرضائه ، غير ممارسة الأسرار ، وإطاعة التعاليم ، التي يتلقونها
عن آباء اعترافهم .

وسيطرت على عقول العامة الخرافات والأوهام ، ولعل مبعث هذا ،
كان ممارسة الأسرار الكنسية ، التي كان يعتقد أن لها قوة غامضة ، لا يعرف
الناس كنهها ، خاصة وأن معظمهم كانوا من الفقراء والجهال ، وكانوا يعيشون
في أدنى مستويات الشر والفقر ، خصوصاً في كبريات المدن .

ولم يكن الناس يعرفون شيئاً اسمه محبة الله والثقة فيه ، لهذا كانوا يواظبون
على الممارسات الكنسية ، لا عن رغبة ، بل عن رهبة ، تفادياً للعقاب
الذي يصبه الله على المتهاونين . كان هذا هو حال الناس بوجه عام في كل
بلدان غرب أوروبا ، عدا ألمانيا ، حيث تميز الناس بالتقوى وإطاعة الإنجيل ،

ولم يكن هذا بسبب دور متميز قامت به الكنيسة هناك ، لكن لأن الناس أنفسهم في ألمانيا ، كانوا مدققين في حياتهم الخاصة . تشهد بهذا الترانيم التي كانوا يشدون بها هناك ، في بيوتهم وكنائسهم ، وكان الآباء يعلمون أبناءهم الوصايا العشر ، والصلاة الربانية ، وقانون الإيمان ، كما كانوا يعلمونهم بعض الصلوات . وكانوا يعلمونهم أيضاً ، أن الله هو مانح الخيرات ، وأن كل عطية صالحة ، تأتيهم مجانا من السماء ، وأن الصلاة هي السبيل الوحيد ، لتمتعهم بالقيادة الإلهية ، وحصولهم على العطايا والهبات السماوية .

جبهة معارضة للكنيسة :

ينحطىء من يظن أن العصور الوسطى ، كانت فترة الخضوع الأبكم من جميع الناس ، وتسليمهم تسليماً مطلقاً بكل ما تنادى وتعلم به الكنيسة . وقد سجل التاريخ أسماء لأشخاص وحركات معارضة ، أعلنت رأيها صريحاً ودون خوف بحسب ما وصل إليهم من نور ، نذكر فيما يلي بعضاً منهم :

« بطرس والدو » :

واحد من أعيان مدينة ليون ، وبينما كان حاضراً أحد اجتماعات مجلس المدينة ، توفي فجأة صديق له من أعضاء المجلس ، فأثر فيه هذا الحادث تأثيراً عميقاً ، وراح يفكر في أنه ربما وقع له مثل ما وقع لزميله .

وفي عام ١١٧٣ م . ، أثار انتباهه شاعر موسيقى ، كان يتجول في شوارع المدينة ، وهو ينشد أجزاء من مقطوعة عن حياة أحد القديسين ، فأخذ الشاعر معه إلى منزله ، لكي يسمع منه المقطوعة كاملة .

وفي اليوم التالي ، قصد واحداً من الكهنة المرموقين ، وسأله عن الطريقة التي يستطيع بها أن ينال القداسة العملية ، فأجابه الكاهن : « إن

أردت أن تكون كاملاً ، إذ ذهب بع كل ما عندك وأعطه للفقراء . وكان « والدو » مستعداً لأن يفعل أى شئ يعينه على بلوغ غايته ، لذلك لم يتردد أو يتوان ، ومضى ونفذ ما أشار به الكاهن ، وباع كل ما كان عنده ، وخصص ثلاثة أيام من كل أسبوع ، يطعم فيها كل من يقصده من الفقراء .

وأودع ابنتيه في دير للعداري ، وأعلن أنه قرر التفرغ لخدمة الله ، ودعا مواطنيه أن يحذوا حذوه ، فانزعجت زوجته لهذا التحول في تفكيره وتصرفاته ، فلجأت إلى الأسقف ، متوسلة إليه ، أن يمنع « والدو » من تنفيذ فكرته ، لكنه كان قد اتخذ القرار ، ولم تنفع معه أية محاولة .

وانضم إليه نفر كبير من مواطنيه ، الذين حذوا حذوه وأطلقوا على أنفسهم إسم « فقراء ليون » ، وتصادف أن اجتاحت البلاد قحط شديد ، وكانت هذه الحاجة فرصة سانحة ، لوالدو ورفاقه ، لإظهار محبتهم لمواطنيهم ، وتضحيتهم من أجلهم .

وفي بداية الأمر ، كان « والدو » ورفاقه ، يحاولون أن يصلوا إلى اختبار القداسة العملية ، في حياتهم الشخصية ، وكانت الخدمة والمحبة والتضحية ، هي طريقهم لنوال هذا الاختبار . لكن هالهم الفساد المتفشى بين رجال الدين ، فقرروا العمل على معالجة هذه الحالة .

وللوصول إلى معرفة أعمق للتعاليم الدينية ، قرر « والدو » أن يقوم بترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة القومية ، وبمعمونة ثلاثة من الدارسين ، تمكن « والدو » من إعداد ترجمة للعهد الجديد وسفر المزامير ، وأجزاء أخرى من أسفار العهد القديم . وفي الوقت عينه ، قام « والدو » بجمع مجموعة كبيرة من أقوال الآباء ، وتعليقاتهم على بعض أجزاء من الكتاب

المقدس ، وأولى اهتماماً خاصاً لأقوال أمبروز ، وجيروم ، وأغسطينوس ،
والبابا غريغوريوس الأول .

وراح « والدو » ورفاقه يجوبون الشوارع ، حاملين في أيديهم الكتب
التي أنجزوها ، وكانوا يذهبون من شارع إلى شارع ، ومن مدينة إلى
مدينة ، يقدمون للناس رسالة الإنجيل ، وكانت خدمتهم ناجحة ومثمرة .

وبنفس الحماس الذي اندفع به السبعون رسولا ، حاملين البشارة
السارة في فجر المسيحية ، هكذا انطلق « فقراء ليون » ، اثنين اثنين ،
يعطون في الأسواق ، ويفسرون الكتاب المقدس للناس في الشوارع ،
وفي طريقهم ، لم يكن لأى منهم كيس ولا مذود ، على غرار الرسل
الأولين . أما الكنائس ، فقد أغلق معظمها في وجوههم ، وكان الكهنة
يحاولون عرقلة مساعيهم ، ويضعون العقبات في طريقهم . وقد أصدر
أسقف ليون قراراً بمنع « والدو » ورفاقه من مباشرة خدمتهم .

وفي عام ١١٧٩ م ، توجه اثنان من رفاق « والدو » إلى رومية ،
يشكون إلى البابا من المعاملة السيئة التي يلقونها ، والحجر على نشاطهم ،
ويرجونه أن يسمح لهم بالعمل والخدمة دون معوقات ، وقد أخذوا معها
نسخة من ترجمة الكتاب المقدس ، التي كان زعيمهم قد أعدها . وقد
رحب البابا بهما وعبر لهما عن تقديره لهم ولنضحياتهم .

في ذلك الوقت ، كان مجمع لا تيران منعزلاً ، وكان من بين المسائل
التي تضمنها جدول أعماله ، موضوع إصلاح الأحوال في الكنيسة ، وقدم
البابا لهيئة المجمع ، إلتماس « والدو » ، الذي كان يطلب فيه الترخيص له
ولرفاقه بمباشرة نشاطهم ، فقرر المجمع إحالة هذا الإلتماس ، إلى لجنة تتولى

فحص أعمال جماعة « فقراء ليون » أو أصدقاء « والدو » ، الذين أصبحوا يعرفون فيما بعد باسم « الوالدين » .

وكان من بين أعضاء اللجنة ، شخص انكليزي يدعى « والتر مايس » ، سجل عدة ملاحظات عن هذه الجماعة ، نذكر منها قوله : « ليس هؤلاء القوم مقر ثابت ، لكنهم ينتقلون من مكان إلى مكان ، حفاة الأقدام ، يعملون اثنين اثنين ، ولا يملكون شيئاً ما ، وهم يعيشون على غرار الكنيسة الأولى ، كل شيء مشترك بينهم . وهم جماعة من العلمانيين ، لم يحصلوا على شيء من العلم ، ولا يستحقون أن يضيع المجمع وقته في الإنشغال بهم » .

ورغمًا عما انتهى إليه هذا الرجل في ختام ملاحظاته ، لم يفته أن يلاحظ مدى تأثير هؤلاء الناس ، فكتب في موضع آخر يقول : « إنهم بدأوا بداية بسيطة ، لكن علينا ألا ننسى أنهم قد يصبحون في المستقبل ، قوة لا يستهان بها . وربما يطردوننا من البيت ، لو أننا سمحنا لهم بدخوله » .

وقد سمح البابا لوالدو ورفاقه بممارسة نشاطهم ، تحت إشراف الإكليروس لأنه رأى أنه ليس من الحكمة ، أن تحمد الكنيسة جذوة هذه الغيرة الدينية . وحتى اللحظة التي نحن بصدددها الآن ، كان « والدو » ورفاقه ما يزالون أعضاء في الكنيسة الكاثوليكية ، يؤدون خدماتهم في داخلها . فبواسطة واحد من الكهنة ، وجد « والدو » طريقه إلى خدمة الله ، وفي أحد أديرة الكنيسة أودع ابنتيه ، لهذا لم ينس فضل الكنيسة عليه ، وراح يتعمق في دراسة عقائدها . ولم يخطر بباله مطلقاً أن يخرج على تعاليمها ، أو يقاوم سلطانها . واستمر فترة طويلة يعمل داخل الكنيسة ، في حدود الرخصة التي منحها له البابا في مجمع لاتران .

لكن الكهنة لم يلبثوا حتى قلبوا ظهر المحن لوالدو ورفاقه ، وراحوا يقاومونهم ويضعون في طريقهم العقبات . وهنا ، أعلن « الوالديون » عدم الاعتراف بسلطان الكنيسة ، الذي يمثله هؤلاء الكهنة ، وأعلنوا أنه حيث روح الرب هناك حرية . وعندما كان يطلب منهم الإمتناع عن الوعظ ، كانوا يجيبون بقول بطرس ويوحنا لأعضاء السندريم : « إن كان حقاً أمام الله أن نسمع لكم أكثر من الله فاحكموا أنتم » (أعمال الرسل ١٩: ٤) .

منذ ذلك التاريخ ، اعتبر الوالديون متمردين على السلطان الرسولي ، وخارجين على القانون الكنسي ، وأصبحوا عرضة لصدور الحكم بتكفيرهم ، وتوقيع أقسى العقوبات عليهم ، لكنهم لم يأبهوا .

بعد ذلك تقرر طردهم ، وحرمانهم من عضوية الكنيسة ، في مجمع فيرونا الذي انعقد في عام ١١٨٤م ، وأصدر قراراته ضدهم ، وضد عدد من الجماعات الأخرى ، التي كانت قد ظهرت في تلك الأيام . وقد تضمن القرار نداء وتحريضاً لكل فئات الشعب ، بطرد الذين يدعون أنفسهم « فقراء ليون » والجماعات الأخرى ، التي تعلم تعليماً آخر ، يختلف عن تعليم الكنيسة .

وإذ طرد « والدو » مع رفاقه من موطنهم ، راحوا يبشرون تعاليمهم في إقليم بروفنس ولا نجراند وفرنسا ولومبارديا وإيطاليا وألمانيا وأسبانيا . وحيثما ذهبوا ، كانت تعاليمهم تلقى القبول والتأييد ، وكان الناس يعتبرون تعاليمهم ، إنجيلاً جديداً . وكأنما تلك المناطق كانت تربة جيدة وجديدة ، قد سبق الله فأعدها لتقبل هذه البذار ، التي نبتت ونمت وأعطت ثمراً متكاثراً .

ومن مكان إلى مكان ، كان يلتف حول « والدو » الكثيرون من المعجبين بتعاليمه ، غير أن السلطات المدنية كانت تقاومهم ، إرضاءً لحاطر

الكنيسة وسلطاتها . وقد أحرق منهم كثيرون . فهرب « والدو » إلى بوهيميا ، وبذلك أصبح بعيداً عن متناول البابا ، وفي بوهيميا ، أسس كنيسة بلغ عدد أعضائها حوالي ثمانين ألفاً .

ولا يعلم شيء عن نهاية « والدو » أو أيامه الأخيرة . لكن أتباعه كانوا يتزايدون باستمرار . وفي عام ١١٩٨ م . وتحت تأثير أسقف تورين ، قام « أوتو الرابع » إمبراطور ألمانيا ، بإصدار قرار إمبراطوري ، بالقضاء على الوالدين . وفي كل عصر ، ابتداء من عام ١٣٠٠ م ، وحتى نهاية القرن السابع عشر ، بدأت اضطهادات مريعة ضد هذه الجماعة .

« بطرس دي برويز » :

وهو أول كاهن بدأ ينادى بتعاليم جديدة في القرن الثاني عشر . وكان قد قرأ الإنجيل بإمعان ، فاقتنع اقتناعاً تاماً ، بفكرة عبادة الله بالروح والحق . وكان من رأيه أيضاً ، أن المعمودية لا تصح قبل الإيمان ، لذلك رفض المعمودية الأطنمال ، ونادى بضرورة إعادة تعميد المؤمنين ، الذين سبق تعميدهم في طفولتهم ، قائلاً بأن ما أجرى لهم في الصغر ، ليس معمودية على الإطلاق ، لذا سمي هذا المذهب « مذهب تجديد المعمودية » .

وقد اعترض « بطرس » على ذبيحة القديس ، التي كانت الدعامة الرئيسية ، التي يستند إليها النظام الكهنوتي . كما هاجم بمنف الصداقات والصلوات ، وكل شيء مما كان يقدم من أجل الموتى الراحلين ، وكان يقول : « إن فرصة الاستفادة من وسائط النعمة ، تظل متاحة للإنسان ، طالما بقي على قيد الحياة ، أما بعد الموت ، فلا شيء يغير من وضع الإنسان » . وفي معرض اعتراضه على مباني الكنائس الفخمة ، كان يقول : « ليس هناك ما يدعو للتفنن في إقامة المباني الفخمة الضخمة . إن الله روح ،

ولا يهمه المظهر في شيء ، وكل ما يهمه ، هو القلب النقي ، والروح المنسحق .
كما قال أيضاً : « إن الإنسان يستطيع أن يعبد الله في أى مكان ، في سوق
أو في دكان ، وهو يصغى لنا ويكون معنا هناك ، تماماً كما لو كنا في كنيسة » .

وبدأ « بطرس » خدمته في موطنه لانجدك لكنهم طردوه من هناك ،
وظل عشرين عاماً يذرع مناطق جاسكونى ولا نجدك وبروفنس ، يعظ
بحرارة وينتقد العبادة المظهرية التي تعتمد على مخاطبة الحواس فقط .
وانضم إليه كثيرون من أهالى بروفنس وتقدموا ليعتمدوا بعد إيمانهم . بعد
ذلك قاموا بانتقاد الكهنة ، والاعتداء على الكنائس ، وهدموا المذابح ،
وأحرقوا الصلبان .

وفي عام ١٢٢٤ م ، وأثناء وجوده في لانجدك ، وبتحريض من الكهنة ،
ثم إلقاء الأيادى على « بطرس » ، ووضعوه فوق خازوق وأشعلوا فيه النار .

« هنرى دى لوزان » :

بعد ذلك قام رئيس دير كلونى بحملة نشطة لإعادة الأمور إلى نصابها ،
في الكنائس التي دمرها البطارسة (أتباع بطرس دى برويز) ، وذلك عن
طريق نشر تعاليم الكنيسة وعقائدها ، بقصد إعادة المسيحيين إلى حظيرة
الإيمان الكاثوليكي ، وكان يركز جهده على هذا ، أكثر من العمل على
اقتلاع المعارضين من تربة الكنيسة .

في هذا الوقت عينه ، كان هناك راهب من ذات الدير (دير كلونى) ،
يقوم بدراسة الإنجيل ، ووصل إلى الإقتناع بأن المسيحية تتطلب القيام بعمل
إيجابي لخدمة الناس ، فقرر أن يودع السلبية والنزوع إلى الإنزواء ، وخرج
من الدير ، وراح يقدم خدمته للناس ، الذين كانت بهم حاجة ماسة وشديدة

لمثل هذه الخدمة ، التي لم يفتن أحد إلى تقديمها لهم ، هذا الراهب هو « هنرى دى لوزان » .

ترك هذا الرجل الدير دون استئذان ، وراح ينتقل من بيت إلى بيت فى لوزان ، يعظ الناس ، ويعلمهم عن الحياة الروحية ، بحسب تصوره الشخصى لهذه الحياة ، فى ضوء ما قرأه فى الإنجيل .

ومن لوزان انتقل إلى وسط فرنسا ، وتبعه كثيرون ، وكونوا جماعة رسولية تولى هو رئاستها .

ولم يكن متطرفا كبطرس دى برويز ، الذى رفض وجود أى رمز فى الكنيسة ، حتى ولو كان هذا الرمز هو الصليب . لكنه حيثما ذهب ، كان يتقدمه شخص يحمل صليبا ، كدعوة موجهة للناس ، لكي يحملوا صليب المسيح .

وفى بادىء الأمر ، كان فى وعظه يركز على وجوب التوبة ، وعدم جدوى الحياة التى تخلو من ثمر الإيمان . لكنه بعد ذلك ، كان فى مواعظه يتطرق إلى تحذير الناس من الكهنة ذوى الميول والإهتمامات الدنيوية ، معلنا أن هؤلاء بسيرتهم ، وقدوتهم السيئة ، وتعليمهم ، إنما يقودون الناس إلى حياة شريرة ، كما انتقد بشدة الرؤساء الدينيين ، لأنهم لا يقدمون هؤلاء الكهنة الأشرار ، إلى محاكم تآديب كنسية .

وقد أعلن « هنرى » تأييده للرهبان المصلحين ، فى مطالباتهم بضرورة عودة الإكليروس إلى حياة العزوبة :

وكان « هنرى » فى حد ذاته ملفتا للنظر ، لأنه كان شابا قوى البينان عريض المنكبين ، كما كان حليق اللحية قصير الشعر : وكان يمشى حافى

القلمين ، مرتدياً ثياباً بالية ، في برد الشتاء القارس . وكان يمضي أغلب وقته ، ويتناول طعامه ، في الهواء الطلق ، على التلال وتحت الأشجار ، وكان يقدم معظم خدماته للفلاحين البسطاء ، مجاولاً أن يقدم لهم رسالة الإنجيل ، وقد دعاه هؤلاء « خادماً لله العظيم » وتميزت حياة « هنري » بالبساطة والتدقيق في سلوكه الشخصي ، وقبل أن يعلم الناس ، كان يعمل هو أولاً بما يعلمه ، وكانت النتيجة أن كثيرين قد تأثروا بقداسته حياته ، وسمو تعاليمه ، وقوة مواعظه . فتقدموا إليه معترفين بخطاياهم ، ومقرين بعدم جدوى الأساليب التي كانوا يلجأون إليها من قبل ، للحصول على غفران خطاياهم . وقد صدق من قال ، إن هذا الرجل (هنري) كان هوا يتفيلد العصور الوسطى .

وفي أربعماء الرماد (أربعماء أيوب) ، من عام ١١١٦ م . ، كان اثنان من تلاميذ هنري يسيران في إحدى المدن الرئيسية بمقاطعة ماين يسألان الأهالي عما إذا كان ممكناً أن يأتي معلمهما لزيارة مدينتهم ، ليقدم لهم بعض المواعظ ، ولأن شهرته كانت قد سبقته إلى هناك ، استقبلها الأهالي استقبالا حافلاً ورحبوا بالفكرة ، ولم تكن الكنيسة قد أصدرت أى حكم ، ضد هنري ورفاقه .

وعندما بدأ « هنري » رحلته إلى رومية ، طلب الأسقف من رئيس الأساقفة ، أن يرخص له بتقديم مواعظه هناك ، وكان لعظاته فعل السحر في نفوس سامعيه ، فالتف حواه الكهنة الشبان وعامة الشعب ، وأينما ذهب ، كانت الجماهير تتبعه بصورة لم يسبق لها مثيل ، فأثار هذا ضده حفيظة الكبار من رجال الإكليروس ، لكن الجمهور لم يأبه بهم ، وكرد فعل لموقفهم المعارض هنري ، قاطع الناس الكنائس ، كما وجهوا

إلى رجال الدين انتقادات مرة ولا ذعة ، فلجأ الكهنة إلى السلطات المدنية ، لحمايتهم من غضب الجماهير ، ثم أرسلوا هنرى خطاباً يتهمون فيه بأنه قد تجاوز حدود الرخصة الممنوحة له ، وأنه خرج عن تعاليم الكنيسة ، محاولين أن يلصقوا به تهمة الهرطقة ، والعمل على إحداث إنقسام فى صفوف الكنيسة ، وأنذروه بأنه إن لم يمتنع عن الوعظ فى أى مكان فى أبروشية رومية ، فإنه يعرض نفسه لصدور حكم ضده بالفصل من عضوية الكنيسة . لكنه لم يعرهم اهتماماً ، ولما تلى خطاب كبار القادة الدينيين فى رومية فى اجتماع عام ، كان يهز رأسه ، عند نهاية كل عبارة من عبارات الرسالة ، وهو يقول : « إنكم تكذبون » .

والناس من كل الفئات ، كانوا يعتبرون « هنرى » مرشدهم الروحى ، واندفعوا يقدمون له تقدمات من الفضة والذهب ، إعلاناً عن تأييدهم لموقفه ، وتشجيعاً له على الصمود فى مواجهة قادة الكنيسة ، ولكى تكون هذه التقدمات مصرفاً مالياً ثابتاً مضموناً فى حوزته ، لسد حاجته هو ورفاقه ، إذا ما نفذ الكهنة تهديداتهم ، وحكموا بقطعه من عضوية الكنيسة .

وعند عودة « هلدبرت » أسقف « لى مان » من رحلة إلى رومية ، وجد الشعور العام قد أصبح معباً ضده ، بسبب موقفه من « هنرى » ، فلم يستقبله الناس بمثل ما كانوا يقدمونه له من حفارة ، وقد قال له الناس هناك : « لقد أصبح لنا الآن كاهن آخر أفضل وأعظم منك سلطاناً » . ويرجع كره رجال الكهنوت لهنرى ، إلى خوفهم من أن يؤدى وعظه ، إلى كشف أخطائهم وخطاياهم .

ولم يشأ « هلدبرت » أن يستخدم سلطانه الكهنوتى ضد « هنرى » وتعاليمه ، لأنه وجد أنه لن يجنى من رواء هذا سوى الفشل ، نظراً لحب الناس لهنرى ،

وتقديرهم له ، وإعجابهم واقتناعهم بتعاليمه ، لهذا التقى بهنرى فى مقابلة خاصة ، وطالبه بترك الأبروشية ، والذهاب إلى مكان آخر ، يباشر فيه نشاطه ، خاصة وأنه لم يكن حتى الآن ، قد هاجم معتقدات الكنيسة وطقوسها ، وكان هجومه كله موجهاً ضد الإكليروس بوجه عام .

فترك « هنرى » لى مان ، ومضى نحو الجنوب ، فى المنطقة التى كانت من قبل ميداناً لنشاط « بطرس دى برويز » ، فاعتبره رئيس دير كلونى ، خليفة لهذا الأخير ، فقرر احتجاجه فى دير كليرفو ، تحت إشراف برنارد رئيس الدير ، الذى أطلق سراحه بعد فترة وجيزة .

بعد ذلك عاد مرة أخرى إلى جنوب فرنسا ، وراح يعظ فى المناطق المحيطة بتولوز وألبى ، حيث كانت تقيم جماعة كبيرة وقوية من المعارضين للكنيسة الكاثوليكية ، وكانوا تحت حماية حكام تلك الأقاليم .

وظل « هنرى » يباشر نشاطه بنجاح ملحوظ ، طيلة عشر سنوات ، وإذا لاحظ رئيس دير كليرفو مدى قوة هذه الجماعات ، وتأثير « هنرى » على الناس ، طالب حكام تلك المناطق بوضع حد لتلك التعاليم ، المخالفة لتعاليم الكنيسة ، خاصة وأن الناس هناك ، كانوا قد هجروا الكنائس ، وامتنعوا عن العبادة فيها ، وممارسة طقوسها .

وراح رئيس الدير يذرع بنفسه تلك الأقاليم ، يقدم للناس تعاليم الكنيسة ، ويقال إن « برنارد » أحرز نجاحاً كبيراً فى إعادة الكثيرين إلى الخطيئة .

بعد ذلك ألقى القبض مرة أخرى على « هنرى » ، وكبل بالسلاسل ، وقدم للمحاكمة فى عام ١١٤٨ م . ، وأصدر المجمع الذى تولى محاكمته ، حكماً بإعدامه ، لكن « شمشون » — رئيس الأساقفة — توسط له ، وطلب تخفيف

الحكم ، لعله يرعوى ويتوب ويرجع إلى أحضان الكنيسة ، فاستبدل الحكم بالسجن مدى الحياة .

الألبون :

بعد إحراق « بطرس دي برويز » ، وإلقاء القبض على « هنري دي لوزان » ، أصبح أتباعهما ابتداء من منتصف القرن الثاني عشر الميلادي ، يعرفون باسم الألبين ، نسبة إلى مدينة في لانجوك ، اسمها ألبى ، تقع على بعد ٤١ ميلا من تولوز ناحية الجنوب :

وربما كان أعضاء هذه الجماعات قد جاءوا من الشرق ، وهم جماعات متفرقة ، جمع بينها ووحدها ، موقفها المعارض للكنيسة ، وكانت أعدادهم تزايد باستمرار ، وعقائدهم كانت شبيهة بعقائد الدوسيتيين الذين كانوا ممنعون الزواج ، ولا يعترفون بالعهد الجديد .

وفي عام ١١٣٩ م ، حكم مجمع لا تيران الثاني بأنهم هراطقة ، كما حكم عليهم بذلك أيضاً ، مجمع لا تيران الثالث في ١١٧٩ م ، وبعض المراجع الإقليمية الأخرى . وحتى هذا الوقت ، كانت الكنيسة في مقاومتها لهذه الهرطقات ، أو التعاليم المنحرفة — في نظرها — ، تكتفي بارسال وعاظ يقدمون للناس تعاليم الكنيسة ، لكن البابا « إنوسنت الثالث » أراد أن يلجأ إلى القوة ، لمقاومة هذه الجماعات . فأرسل مندوباً عنه على رأس قوة مسلحة ، وفوضه في القضاء على هذه الحركة بكل السبل ، وقد مثل رسل البابا بأتباع هذه الشيعة أبشع تمثيل ، لكن يداً خفية امتدت إلى مندوب البابا وقتلته ، فتوقفت الحملة إلى حين .

بعد ذلك أرسل البابا مندوباً آخر ، هو « أرنولد » رئيس دير كليرفو ،

لإنهاء المهمة التي بدأها «بطرس أف كاسينو» كما عين «سينون دي مونتيفور»
إيرل لانكستر ، قائدا للقوات العسكرية ، وصدرت لهم الأوامر ،
بألا يرحموا أحداً .

ولاذ الألبيون بالكونت «ريمون السادس» كونت تولوز ، فبسط عليهم
حمايتهم ، رغم أنه لم يكن من شيعتهم ، لكنه بعد ذلك ، وتحت تأثير رجال
الدين اعترف بأنه كان مخطئاً في حمايته لهم ، وأرغم على حمل السلاح ضدهم .
وإذ وصلت الحملة إلى مدينة بزييه ، سأل رئيس الحملة مندوب البابا ،
ماذا يفعل بسكان المدينة ، فأجابه بأنهم يجب أن يبادوا أجمعين . وقد سقطت
في يد الحملة مدن وقرى عديدة من معقل الألبين . وهنا ظهرت فكرة
محاكم التفتيش . فانعقد مجمع في تولوز في عام ١٢٢٩ م ، وقرر هذا المجمع
إنشاء محاكم التفتيش ، وفي عام ١٢٣٢ ، أصدر البابا «غريغوريوس التاسع»
قراراً ، بتحديد اختصاصات هذه المحاكم .

الحرب ضد الألبين :

وقد اتسمت الحرب ضد هؤلاء بقسوة بالغة ، ووحشية منقطعة النظير ،
وبوسعك أيها القارئ العزيز ، أن تكون فكرة عن هذه الحرب ، عندما
تعرف ، أنه بتحريض البابا والسلطات الدينية ، تم تجنيد جيش قوامه نصف
مليون رجل ، زحفوا على المناطق التي كان يقيم فيها الألبيون ، ويمارسون
فيها نشاطهم .

زحف هذا الجيش الجرار ، بدون أن تكون معهم مؤونة ما ، فاضطر
المحاربون إلى السلب والنهب ، من المدن والقرى التي اجتازوا فيها ، وأشاعوا الخراب
أيها حلوا . وعندما وقعت في أيديهم معقل الألبين ، لم يرحموا امرأة
ولا طفلاً ولا شيخاً ، لم ينج منهم أحد . لأنهم أعملوا فيهم حرقاً وتقتيلاً ،

دمروا المدن والقرى وأحرقوا البيوت ، بلا رحمة ولا شفقة . والأمر المؤسف حقاً ، هو أن هذا كله ، فعلوه باسم الدين ... حقاً أيها الدين ، أى دين ، كم من المخازى ترتكب باسمك ! ؟

وفي جنوب إيطاليا ، قامت حركة مشابهة لحركة الألبين ، أسسها كاهن من لومبارديا اسمه « أرنولد » ، وصل إلى الإقتناع بأن الكهنة يجب أن يعودوا إلى نمط الحياة ، الذى كان سائداً فى العصر الرسولى الأول ، ليس من ناحية السلوك فقط ، بل من جهة موقفهم من الممتلكات ، وطبق على نفسه هذه التعاليم ، فارتدى زى الرهبان ، وعاش زاهداً لا يملك من حطام الدينا شيئاً . ووجدت تعاليمه صدى فى نفوس الناس ، فى كل من برسكيا ولومبارديا ، واضطربت نفوس الشعب بالسخط على الحالة الشائنة ، التى كان رجال الإكليروس قد تردوا فيها . فعجل البابا « إنوسنت الثانى » ، باتخاذ موقف منه ، وفى عام ١١٣٩ م ، أصدر مجمع لا يتران الثانى ، قراراً ضد « أرنولد » الذى ولى هارباً من إيطاليا إلى فرنسا ، ومنها إلى جبال الألب ، حيث وجد جماعات من الألبين ، وأصبح واحد من قادتهم .

وقد كتب « برنارد » رئيس دير كليرفو للبابا ، يطلب منه أن يضمن سلامة « أرنولد » ويكتفى بإحراق كتبه . بعد ذلك بقى أرنولد فى سويسرا خمس سنوات ، عاد بعدها إلى رومية . وهناك ثارت مشاعر الجماهير ، التى تمردت على سلطان كل من البابا والإمبراطور ، وأعادوا إلى المدينة حكم القناصل ، واستمرت الجمهورية فى رومية عشر سنوات . وفى النهاية كون البابا « أربان الرابع » والإمبراطور « فردريك الأول » ، جبهة قامت بالقضاء على هذا التمرد .

وتم تسليم « أرنولد » ليد السلطات ، فأعدم شتقا في رومية ، وبعد إعدامه ، قاموا بحرق جسده ، وقد اعتبره أهالي رومية في عداد الشهداء والصديقين .

هذه الحركة وغيرها من الحركات المشابهة ، التي ظهرت في جنوب فرنسا ، نهت أذهان المسؤولين في الكنيسة ، إلى الخطر الذي يهددها . وفي عام ١١٦٢م ، قرر البابا « الكسندر الثالث » ، أن يقوم بإجراء مضاد لحماية الكنيسة ، فاتصل بالأمراء والنبلاء ، وطالبهم بالتصدي لمثل هذه الحركات وإخمادها بالقوة ، وهدد بحرم كل من يهمل منهم في هذا الخصوص ، وفصله من عضوية الكنيسة .

وفي عام ١٦١٣م ، دعا إلى مجمع عقد في تورز ، لكي يؤكد تصميمه على تنفيذ تهديده ، في كل من يتقاعس عن الوقوف في وجه هذه الحركات ، المعارضة لتعاليم الكنيسة . وقد حضر ذلك المجمع عدد كبير من الأساقفة ، ورؤساء الأديرة ، وكهنة الأبرشيات ، والعلمانيين ، وخصوصاً من فرنسا وانكلترا .

وتعتبر قرارات هذا المجمع ، أول قرارات من نوعها ، تصدر عن كنيسة رومية ضد الحركات المعارضة لتعاليمها . وكانت هذه بداية لفترة من أسوأ الفترات في تاريخ الكنيسة ، وهي تعتبر بحق وصمة عار في جبين المسيحية ، إذ بدأت بها فترة أليمة من الإضطهادات الوحشية . فند ذلك التاريخ بدأت السلطات الدينية ، على اختلاف مستوياتها ، في فرض رقابة صارمة ، على كل من يعلم تعليماً آخر ، يختلف عن تعاليم الكنيسة ، وأصدرت قرارات بالحرم ، ضد كل من يتعاون مع هؤلاء ، أو يقبل تعاليمهم ، أو يتعامل معهم ، وكان الظن يحدو المسؤولين في الكنيسة ، بأن أعضاء هذه

الشيخ ، عندما يرون ذواتهم ، وقد نبذهم المجتمع ، سوف يضطرون إلى الرجوع ، والعودة إلى أحضان الكنيسة .

الكاثاريون :

ولكى نعرف شيئاً عما كان ينادى به بعض هذه الفرق من تعاليم ، نورد فيما يلي ، مقتطفات من رسالة كتبها في عام ١١٤٧م ، « أفيرينوس » عميد كاتدرائية ستينفيلد بالقرب من كولون ، إلى « برنارد » رئيس دير كليرفو ، حيث كتب يقول :

« لقد اكتشفنا بيننا جماعة من الهرطقة ، وقف اثنان منهم في أحد الاجتماعات ، وراحا يرددان بعضاً من أقوال المسيح والرسول . وهؤلاء الناس يدعون أنهم وحدهم الكنيسة الحقيقية ، لأنهم دون سواهم ، يسلكون بحسب تعاليم المسيح ورساله ، وهم يستخدمون الصلاة الربانية فقط في الذبيحة ، ثم بعد ذلك يتناولون جسد المسيح ودمه . وبالإضافة إلى المعمودية الماء ، يتظاهر هؤلاء بأنهم يعتمدون بالروح القدس والنار ، مشيرين بهذا إلى شهادة « يوحنا المعمدان » ، وهم ينادون بأن كل واحد من المختارين ، يمكنه أن يعتمد الآخرين ، كما أن كل مؤمن بوسعه أن يصلى على عنصرى الذبيحة المقدسة ، كما أنهم لا يقرون الزواج ولا أدري لهذا سبباً » .

وعن جماعة أخرى ، كتب « أفيرينوس » هذا يقول : « إنهم لا يعترفون بمعمودية الأطفال ، وينكرون أن الموضوع على المذبح ، هو جسد المسيح الحقيقي ، مدعين أن الكهنة قبل قدموا قدرتهم على التقديس ، كما أنهم يشجعون الزواج بأكثر من زوجة واحدة ، معتبرين الزواج الثانى زناً .

« كما أنهم لا يؤمنون بشفاعاة القديسين ، ولا بالصيام ، ويقولون إن التوبة هى وحدها طريق الخلاص والغفران ، وأنه لا وجود للمطهر ، لأن

نفوس الراقدين تمضى فور موتهم إما إلى الراحة وإما إلى العذاب . وقد زاد عدد هؤلاء زيادة عظيمة وانضم إليهم عدد كبير من الكهنة والرهبان .

ولكى نكون منصفين ، يلزم أن نشير ، إلى أنه كانت في داخل الكنيسة أصوات كثيرة تعلو ، محتجة على استخدام العنف ضد أصحاب الأفكار المخارضة . للكنيسة وتعاليمها ، نذكر من هؤلاء « القديس برنارد » رئيس دير كليرفو ، الذى علق على قول سفر « نشيد الإنشاد » : « خذوا لنا الثعالب الثعالب . الصغيرة المفسدة للكروم » فكتب يقول : « إن الهراطقة هم الثعالب الصغيرة ، وأنا أشجع غيرة الناس على الكنيسة وتعاليمها وأحيي فيهم تحمسهم في توقيع العقوبات على الخارجين عليها ، لكى أرى ، أن أفضل السبل لمقاومة هذه الحركات ، هو حث الناس وتحريضهم عن طريق التعليم ، على العودة إلى أحضان الكنيسة . أما استخدام القوة ضدهم ، فأنا لا أوافق عليه . »

وفى وصفه لأوثك القوم ، كتب « برنارد » يقول : « لو سألتهم عن إيمانهم ، أجابوك إجابات مسيحية حقة ، وعندما يحدثونك ، لا تسمع منهم نسيمة . أو شتيمة أو أية كلمة شريرة — وهم يعملون بأيديهم ليكسبوا قوت يومهم . أين إذن وجه الشبه بينهم وبين الثعالب ؟ » هكذا يتساءل « برنارد » ، ويعود ليرد على التساؤل ويقول : « من ثمارهم تعرفونهم لقد ترك الرجال نساءهم ، والنساء تركن أزواجهن ، والكهنة الذين اتبعوا تعليمهم ، تركوا كنائسهم . »

وفى هذه الرسالة ، كان « برنارد » يشير إلى جماعة كاثارى ، الذين كان فى كولون جماعة منهم . ولم يعترف هؤلاء بسلطان الكهنة أو التقليد ، كما كانوا يعترضون بشدة ، على زيارة الأضرحة والأماكن المقدسة ، وعبادة القديسين والصور ، وكانوا فى تعليمهم ، يركزون كثيراً على الأعمال الصالحة .

فبعضهم لم يقر شرعية الحرب أو القسم ، وكانوا يجوبون الأسواق ، يعطون التجار ويعلمونهم . وكانوا يحيون حياة مشتركة ، على نفس طريقة الحياة في الكنيسة الأولى ، عندما كان كل شيء مشتركاً بين المسيحيين .
وفي عام ١١٦٠م ، توجه فريق من هؤلاء الناس ، من ألمانيا إلى انكلترا ، وراحوا ينشرون تعاليمهم هناك .

الإخوة :

وهناك شبه كبير بين هؤلاء وبين الوالدين ، إلا أنهم احتفظوا ببساطة الإيمان ، واشتهروا بين جيرانهم بحياة التقوى والطهارة وعمق المعرفة ، وقد ففضوا أيديهم من الكنيسة نهائياً ، وشقوا طريقهم منفردين ، وراحوا يمارسون عبادتهم بطريقتهم الخاصة ، وباللغة اللاتينية .

وأعضاء هذه الجماعة ، كانوا من فلاحي الكتاب المقدس ، إذ كانوا يواظبون على قراءته بطريقة جعلتهم أكثر فهماً له من غيرهم ، وكانت لديهم ترجمات عديدة للكتاب المقدس وأجزاء منه . وكانت جماعة الإخوة متعاونة مترابطة في جميع أنحاء أوروبا ، وكان لهم نشاط كبير ، بين العمال في المدن وعلى الأخص في ألمانيا . وكان لهم نشاط بارز في التبشير ، إلا أن نشاطهم هذا اتسم بالسرعة ، تجنباً للإضطهاد .

وبالرغم من ظهور هذه التيارات المعارضة والمحتجة ، التي كانت تتزايد يوماً بعد يوم ، فإن الكنيسة ، لم تستفد شيئاً من هذه الحركات ، إذ وجهت كل همها إلى إسكات هذه الأصوات ، دون أن تهتم كما يجب ، بمعالجة أوجه النقص والقصور في خدماتها ، كما أنها لم تحاول أن تتلافى الأخطاء . وكانت محاكم التفتيش ، هي رد الفعل الوحيد ، لظهور هذه الحركات والتيارات ، وقد كانت لهذه المحاكم ، آثار لا يمكن إنكارها ، في تطور الأحداث التي واجهتها الكنيسة فيما بعد .

١٣

كلمة حق

عند الحديث عن كنيسة العصور الوسطى ، يطيب للبعض أن يرتدى منظاره الأسود ، فلا يرى في صورتها ، غير الظلام والقتام . ويسى هؤلاء أن هذه الكنيسة هي جزء من الكنيسة العامة ، بل إنها تمثل الجزء الأكبر من كنيسة المسيح ، وأنها رغما عن كل ماشاها من أخطاء ، قد استطاعت خلال فترة طويلة من الزمان ، أن تحفظ الإيمان المسيحي وتحافظ عليه ، ذلك الإيمان الذي تسلمته الأجيال ، خلفا عن سلف ، خلال تلك العصور .

وهل يستطيع غير مكابر ، أن ينكر فضل كنيسة العصور الوسطى على العالم ؟ وهل يمكن أن ينسى التاريخ أولئك الأبطال ، الذين أنجبتهم تلك الكنيسة ، والذين شرف الزمان بذكرهم ؟ !

لقد أنجبت لنا الكنيسة العديد من أعظم الرجال ، الذين سلف ذكرهم في فصل سابق . هؤلاء الرجال الذين عاشوا بالقرب من المسيح وتبعوا أقواله ، ونسجوا على منواله ، ولو أن كنيسة العصور الوسطى ، كانت فعلا على تلك الحالة الشوهاء الممقوته ، التي يحاول البعض تصويرها بها ، لما أنجبت أمثال هلدبراند ، وبرنارد ، ودومنيك ، وفرانسز الأسيسى وغيرهم ، لأن الشجرة تعرف من ثمرها ، فإن كانت

الشجرة رديئة ، أنتجت ثمراً رديئاً ، وإن كانت جيدة ، كان ثمراً جيداً .

ولعل الظروف والملابسات التي أحاطت بتلك الكنيسة في أيامها ، تكون ظروفًا مخففة ، لصالح الكنيسة ، لدى كل الذين يحاولون أن يقيموها ويقيموا أعمالها ، منا نحن الذين نعيش في عصر آخر ، يختلف اختلافاً كلياً ، عن تلك العصور .

فعندما كانت كنيسة العصور الوسطى ، في طور التكوين ، كانت أوروبا تعاني حالة من الفوضى والتشويش ، فالإمبراطورية الرومانية التي كانت تحكم العالم آنذاك ، كانت قد سقطت ، وكثيرون من سكان البلاد الأوروبية ، كانوا قد هجروا بلادهم ، خوفاً من الغزو البربري الذي اجتاحت تلك البلاد ، في بداية العصور الوسطى ، وكان هذا يحمل في طياته ، خطراً داهماً ، هو اجتياح الوثنية لتلك البلاد ، والقضاء على المسيحية قضاءً مبرماً .

والتصدي لهذا التيار الكاسح ، كان يتطلب قيام تنظيم قوى ، يجمع الناس في وحدة متماسكة ، تحت قيادة حكيمة واعية وحازمة معاً ، تعودهم على الانضباط ، حتى يتسنى لهم الوقوف ، في وجه هذا الطوفان الكاسح .

بعد ذلك عندما ازداد نفوذ النبلاء والأمراء ، تعرضت أوروبا لخطر آخر ، هو خطر الانقسام والتفتت ، بسبب الحروب والمنازعات ، التي كثيراً ما كانت تشجر بين بعض الأمراء وبعضهم الآخر . لكن الكنيسة التي كانت تضم تحت جناحها كل الشعوب في بلدان أوروبا

الغربية ، هذه الكنيسة وحدها ، كانت هي القوة المضادة ، التي استطاعت أن تحفظ للشعوب الأوروبية وحدتها إلى حد ما ، وكان لهذا الأمر الفضل الأكبر ، في الحفاظ على الإيمان المسيحي والحضارة الإنسانية وتطورهما .

ثم إن الكنيسة هي التي احتوت جماعات الغزو البربري التي اكتسحت أوروبا ، وقدمت لهم الدين المسيحي ، وهذبت من طباعهم ، لكي يحيا بين ظهرانيها حياة حضارية مهذبة ، تختلف تماماً عن حياتهم البربرية ، التي كانوا يحيونها من قبل . ولاننكر أن الكنيسة لم تقم بهذا الواجب كما ينبغي ، لكنها قامت به على أي حال ، بصورة ضمنت لها البقاء والاستمرار .

وإحقاقاً للحق نقول ، إنه لم يكن في الإمكان أبدع مما كان . وعلى الرغم من كل أخطائها ، كان للكنيسة فضل كبير ، في التأثير على القيم ، التي كانت سائدة بين الناس آنذاك .

وفي مجال التعليم ، أخذت الكنيسة على عاتقها القيام بهذه المهمة لعدة قرون في بلدان أوروبا ، ومعظم المتعلمين والمثقفين على قلوبهم في تلك العصور ، كانوا من الإكليروس ، والكنيسة أيضاً ، هي صاحبة الفضل ، في كل ما ظهر في فترة العصور الوسطى من فنون .

وبرغم كل ما شابها من فساد ، وما حوته تعاليمها من أخطاء ، وما انطبعت به تصرفاتها من قسوة ، بل وعنف في بعض الأحيان ، رغم هذا كله ، يمكن القول ، إن كنيسة العصور الوسطى ، كانت

واحدة من وسائل النعمة الفعالة ، التي استخدمها الله ، لنشر المسيحية ، وحفظ الإيمان المسيحي ، والحضارة المسيحية ، من التلاشي والإندثار . لأنه حتى إذا كانت الكنيسة الرسمية قد وصلت في بعض الأحيان إلى حالة الخراب ، إلا أن الرب كان يقيم من بين أعضاء الهيئات والمنظمات التابعة لها ، آلات يستخدمها لتصحيح الأخطاء ، وتصحيح المسار ، والعمل لامتداد ملكوته . وهكذا نرى أن كنيسة العصور الوسطى ، كان لها على العالم الذي عاشت فيه ، فضل لا يمكن إنكاره .



١٤

الكنيسة الشرقية في هذه الفترة

[الخدمة والعبادة بين الكنيستين الشرقية والغربية -
نشاط الكنيسة الشرقية - الكنيسة النسطورية] .

الخدمة والعبادة بين الكنيستين الشرقية والغربية :

قبل عام ١٠٥٤ م بقليل ، كان قد تم الانفصال بين الشرق والغرب ، وكانت الكنيسة الشرقية أو اليونانية ، قد انفصلت تماما عن الكنيسة الغربية ، وكان بطريرك القسطنطينية ، هو رئيس الكنيسة الشرقية ، لكن نفوذه ، لم يبلغ الحد الذي بلغه نفوذ بابا رومية ، الذي كان يرأس الكنيسة الكاثوليكية .

ورغم وجود بعض أوجه الاتفاق في نظام العبادة في كلتا الكنيستين ، إلا أنه كانت هناك بعض الاختلافات . فمثلا كانت للكنيسة اليونانية (الشرقية) تنادى بالأسرار الكنسية ، كما كانت تعمد الأطفال بالتغطيس ، وتفرض على المعترفين بعض الفرائض التي يؤدونها تكفيراً عن الخطايا التي ارتكبوها ، لكنها كانت تختلف عن الكنيسة الغربية ، في صيغة الحل الذي كان يتلوه الكاهن على المعترفين ، إذ كان كهنتها يعلنون صراحة ، أنه لا سلطان لهم لغفران الخطايا ، وأن الله وحده هو الذي يستطيع أن يغفر للناس خطاياهم ، وأن كل ما يقومون به ،

هو فقط إعلان غفران الله لخطايا المعترفين ، الذين يؤثرون ما يشير عليهم به آباء اعترافهم ، وبالتالي لم تكن الكنيسة الشرقية ، تعتبر ذاتها وسيطة بين الله والناس :

وقد اتسمت الخدمة والعبادة في الكنيسة اليونانية ، بالعديد من المظاهر والحركات ، مثل إضاءة الشموع ، والسجود ، والركوع ، وتقبيل الإنجيل ، وكان الكهنة يرتدون في أثناء الخدمة ، ثيابا زاهية متعددة الألوان ، وكان القصد من هذا كله ، هو إضفاء شيء من الجلال على الخدمة ، لزيادة تأثيرها في النفوس .

وكأختها الغربية ، لم تهتم الكنيسة الشرقية بالوعظ ، غير أنها كانت تشجع الناس على قراءة الكتاب المقدس ، كما أتمت ترجمة الكتاب المقدس إلى كثير من اللغات القومية ، التي كانت تستخدمها في العبادة ، على عكس الكنيسة الغربية ، التي كانت اللغة اللاتينية فقط هي لغة العبادة الوحيدة فيها .

وفي مجال عبادة الصور والقديسين ، كانت الكنيسة الشرقية أكثر تطرفا وتمسكاً بها من الكنيسة الغربية .

وقد اختلطت العبادة بالأساطير في الكنيسة الشرقية ، بصورة أكثر مما كان في الكنيسة الغربية ، وهذا ملحوظ بصورة محسوسة ، بين أتباع هذه الكنيسة ، من الروس واليونانيين .

وسمحت الكنيسة اليونانية للإكليروس بالزواج قبل الرسامة ، ومعظم كهنتها كانوا من المتزوجين ، أما الأساقفة ، فلم يكن مسموحاً لهم بالزواج ، ولهذا السبب ، كانوا يختارونهم دائماً من بين الرهبان .

لكن الرهبان في الأديرة التابعة للكنيسة الشرقية ، لم يبلغوا ما بلغه الرهبان في الغرب ، الذين كانوا رسل الدين والحضارة في بلدان أوروبا .

نشاط الكنيسة الشرقية :

كان نشاط الكنيسة الشرقية محدوداً في غرب آسيا ، بسبب انتشار الإسلام ، فلم تستطع أن تفعل شيئاً لنشر الدين المسيحى هناك . إلا أنها في القرن الحادى عشر الميلادى ، تمكنت من القيام ببعض النشاط التبشيرى ، في المناطق الوثنية من روسيا . إلا أن تلك الجهود ضاعت هباء ، عندما اجتاحت المغول روسيا ، وخربوها في القرن الثالث عشر ، وحالوا دون انتشار المسيحية هناك .

وقد أحاطت بالكنيسة الشرقية ظروف صعبة ، ووقفت أمامها عقبات جسام ، لكن هذه كلها ، لم تكن هى السبب الوحيد في توقف نشاطها ، وإنما السبب الرئيسى في هذا ، هو افتقارها إلى روح التقدم والتطور . إن هذه الكنيسة (الشرقية) كنيسة محافظة لا تحب التغيير .

ولم تعدل الكنيسة اليونانية شيئاً ، بعد التعديل الطفيف الذى أدخلته على العقيدة ونظام العبادة في القرن الثامن ، سوى التعديل الذى أدخلته على الرئاسة ، بسبب العوامل السياسية الضاغطة التى أدت إلى إدخال هذا التعديل .

الكنيسة النسطورية :

والحق يقال ، واصلت الكنيسة النسطورية التقدم والإنتشار ، وحازت شهرة كبيرة ، في خلال هذه الفترة من العصور الوسطى .

وفي القرن الثالث عشر الميلادي ، كانت هناك سبعون أبروشية خاضعة للبطريرك النسطوري ، وهذه الأبروشيات ، كانت تضم جموعاً غفيرة من المسيحيين المنتشرين بين إدسا في سوريا ، وبكين في بلاد الصين ، ومن سيبيريا في روسيا حتى جنوب بلاد الهند .

لكن بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر ، خسرت الكنيسة النسطورية الكثير من مناطق نفوذها ، بسبب هجمات المغول . ومنذ ذلك الحين ، لم تتمكن تلك الكنيسة من استعواض خسائرها .

ولازالت في بلاد الفرس (إيران) وسوريا ، بعض الكنائس النسطورية ، لكنها في حالة تدعو إلى الرثاء .



الفترة الثالثة
أواخر العصور الوسطى
(١٢٩٤ - ١٥١٧ م)

١٥

قوى جديدة في الميدان

[تزايد الشعور القومي بين الشعوب الأوروبية - صراع على السلطة] .

رأينا من قبل كيف أن الكنيسة استطاعت أن تنتصر على الإمبراطورية في منتصف القرن الثالث عشر ، ومنذ ذلك الحين أصبحت الكنيسة هي الولي الشرعي أو قل الوصي على كل القوى الحاكمة في دول غرب أوروبا ، دانت لها الرقاب وانحنى أمامها الرؤوس .

لكن دوام الحال من المحال ، والصراع دائماً سجال ، بين السلطتين الزمنية والدينية ، كل منهما تحاول أن تكسر عن عنقها نير الأخرى ، ليخلو لها الجو ، فتمارس وحدها السلطان ، دون منافس أودخيل .

تزايد الشعور القومي :

وقرب أواخر العصور الوسطى ، بدأت قوى جديدة تأخذ مكانها في الميدان ، إذ بدأت كل من انكلترا وفرنسا ، تبرزان كقوتين مؤثرتين على المسرح السياسي ، في أوروبا الغربية ، بعد أن توحدت شعوبهما تحت حكم بعض الملوك الأقوياء ، وبدأ يتزايد الشعور القومي بين الشعبين الإنكليزي والفرنسي ، وراحا يرفضان كل تدخل خارجي في شؤניהما ، حتى ولو كان هذا التدخل من جانب الكنيسة .

وقد حذا الشعب الألماني حذو الشعبين الإنكليزي والفرنسي ، وكان تزايد هذا الشعور القومى ، بين الشعوب الأوروبية ، واحداً من العوامل التى أدت إلى ثورة هذه الشعوب ، ضد سلطان الكنيسة ، باعتبارها قوة أجنبية تتدخل فى شئونهم الداخلية .

صراع على السلطة :

مضى عهد طويل ، والكنيسة تمارس سلطانها ووصايتها ، على الملوك والأمراء وشعوبهم من ورائهم ، فاستقر فى أذهان رجال الدين ، أن هذه الوصاية حق من حقوق السيادة ، التى لا تنزع ، وأمر مسلم به ، لا مجال للخروج عليه .

لكن جاء الوقت ، الذى جلس فيه على عرش إنكلترا الملك « إدوارد الأول » ، وعلى عرش فرنسا الملك « فيليب الرابع » الملقب « فيليب الجميل » وفى عهدهما ثار سؤال خطير : أى السلطتين أولى بمباشرة السلطات المدنية . الكنيسة أم الدولة ؟ ! ، وهل من حق الملك أن يفرض ضرائب على ممتلكات الكنيسة أم لا ؟ ! ؟

وكانت هذه بداية عصر جديد ...

١٦

ماذا في الجانب الآخر ! ؟

[حبل الاكليروس - حال الرهبان - حال الشعب] .

وهذا الجانب الآخر هو الكنيسة ، التي كانت تواجه تمردا على سلطانها ، من جانب بعض الحكام والشعوب . ماذا كان في الجانب الآخر ؟ كيف كانت الأحوال في داخلها ؟

وقد رأينا فيما سلف ، كيف كانت قوة الإكليروس ، سبباً في قوة الكنيسة وامتداد سلطانها ، وكيف كانت عظمة رجال أمثال هلدبراند ، وإنوسنت الثالث ، سبباً في خضوع الحكام لهم .

ولكن الآن ، في فترة أواخر العصور الوسطى ، تبدل الحال غير الحال ، وبعد النهضة العارمة ، التي اشتعلت جذوتها في الكنيسة ، على أيدي رهبان ديركلوني ، وغيرهم من أعضاء الأنظمة الرهبانية الأخرى ، انحسرت الموجة ، وعاد الفساد يضرب أطنا به من جديد ، ويقبض على الزمام بيد من حديد :

حالة الإكليروس :

فبين الإكليروس ، عم الفساد ، وأصبح رجال الدين في حالة يرثى لها ، وأصبحت المبادئ التي يرتكبوها على كل لسان ، وإرتفعت بعض الأصوات تشجب تصرفاتهم ، وتدين أعمالهم ، لكنهم تمادوا في غيهم ، معتمدين على ما لهم من سلطان ، استطاعوا به أن يسكتوا أصوات معارضيهم ومنتقديهم .

وقد لعبت الأموال الطائلة، التي أنفخت بها خزائن رجال الدين وجيوبهم ، دوراً كبيراً ، في إهمالهم لواجباتهم الرعوية ، وترديهم في هاوية الشر والفساد ، لأنه أصبح في مقدورهم ، تحقيق كل ما يطلبون .

ولا يمكن القول إنه لم يكن بين رجال الدين في تلك العصور أفاضل وقديسون ، لأننا لو قلنا هذا القول ، نشجى على الحقيقة والتاريخ ، لكن الغالبية العظمى من رجال الدين كانت على الصورة التي رسمناها ، وأصبح الفساد هو الطبع الغالب والسمة المميزة لهم ، لا فرق بين كاهن وأسقف . وفي خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، زاد الفساد بصورة أثارت عليهم الرأي العام ، وقد وصف سكرتير البابا « بندكت الثالث عشر » حال رجال الدين بقوله : « إن واحداً في الألف . منهم فقط ، هو الذي كان يواظب على القيام بأعباء خدمته » .

حال الرهبان :

وقد قاوم الرهبان حالة الانحطاط الخلقى ، التي سادت في ذلك الزمان ، لكن إلى حين ، ولم يلبثوا ، حتى أصبحوا هم في أديرتهم ، يعانون من الحالة عينها ، وأصبح الكثيرون من الرهبان ، مستعبدين لخطايا عديدة ، مدمنين للخمر ، وأصبح الكثيرون منهم موضع هزء وسخرية ، بسبب شرورهم ومبازلهم .

حتى الأنظمة الحديثة ، أنظمة « الرهبان الشحاذين » ، هذه الأنظمة التي ظلت زماناً طويلاً تقود ركب الإصلاح والإصلاح ، لم تلبث أن استسلمت وجرفها التيار .

لكن الأمر لم يخل من وجود مجموعات بقيت متمسكة بعهودها ، ونذورها الرهبانية ، ومثلها العليا .

بحال الشعب :

- وكنتيجه حتمية ومنطقية لانشغال الكهنة بمصالحهم الشخصية ، وإهمال واجباتهم الرعوية ، انحط حال الشعب ، خاصة وأن الوعظ في الكنائس كان نادراً ، لجهل معظم الكهنة ، وقد أدى هذا إلى جهل الناس بتعاليم الدين ، فالقداس كان يتلى باللغة اللاتينية التي كانت غير مفهومة للعامّة ، بل يمكن القول إن بعض الكهنة كانوا يرددون الصلوات كالبيغاوات التي لا تعي ما تقول ، لكنهم حفظوه من كثرة ما رددوه ، والمصدر الوحيد لتعليم الناس ، كانت مواعظ الرهبان الفرنسيسكان والدومنيكان ، الذين كانوا في هذه الفترة من الزمان ، قد فتر حماسهم ، وخففت أصواتهم .

وقد ظهر عجز الكنيسة وفشلها ، في عدم قدرتها على مواجهة الحاجات المتزايدة للشعب ، الذي كان ينمو ويزيد بمعدلات كبيرة . فابتداء من القرن الثاني عشر الميلادي ، زاد عدد السكان في مدن أوروبا ، زيادة كبيرة ، الأمر الذي كان يتطلب مضاعفة الجهود والخدمات التي تقدمها الكنيسة لهم ، لكن حدث العكس ، إذ أن اهتمام الكهنة بمصالحهم الشخصية ، أدى إلى عدم الإهتمام بحاجات الناس ، وكان هناك عجز واضح وملحوس ، في أعداد الكنائس والكهنة في العديد من الأماكن . وعاشت آلاف مؤلفة من الفقراء ، لا تجد من يقدم لها شيئاً من احتياجات الروح أو الجسد ، بعد أن طغى حب المال على الكهنة ، فتوقفوا عن بدل العطايا والإعانات ، التي كانوا يقدمونها للناس في فترات سابقة .

ثم إن تركيز الإهتمام في العبادة على ممارسة الأسرار ، والإلتجاء إلى القديسين ، وطلب شفاعتهم ، وشراء الغفران بالمال ، كل هذه أدت إلى انحطاط الحالة الروحية بين الناس ، وعدم إهتمامهم بالتدقيق

في سلوكهم وحياتهم اليومية ، فتفتشت بينهم الشرور ، وعم الفساد واستشرى .

كذلك أدى سلاح الحرم الذي كان في أيدي الكهنة ، سيفاً مسلطاً على رقاب من لا يقدم لهم فروض الطاعة والولاء ، هذا السلاح أدى بالناس إلى حالة من الخضوع ، والخنوع ، واللامبالاة بما يجري في دنيا الإكليروس ، لأن كلا يريد أن « ينفذ بجلده » من الحرم والتكفير الذي كان يجعل دم المحروم مباحاً ، ويوجب على كل من وجدته أن يقتله ، ومن يفعل هذا ، كان يعتبر نفسه يؤدي خدمة عظمى لله .

وهكذا نرى أن الكنيسة في أواخر العصور الوسطى ، وجدت نفسها عاجزة تماماً عن تقديم أى علاج للمشاكل العديدة ، التي كان يعاني منها الشعب في تلك الفترة . ناهيك عن حالة أولئك الذين كانوا معتبرين « وكلاء سرائر الله » ، أضف إلى هذا نوع الديانة التي كانت تقدمها الكنيسة للناس ، إذ اكتفت الكنيسة بذلك التنظيم الرائع العظيم ، لكن متى كان التنظيم يغني عن التعليم ؟ .

زد على ذلك أن الناس في خوفهم ورعبهم ، كانوا يعيشون في تلك الأيام ، وكأن على رؤوسهم الطير ، يخضعون للكنيسة لا خضوع الطاعة القلبية ، بل خضوع الخوف الدليل ، لهذا عندما دارت الدائرة ، وارتفعت الأصوات المحتجة ، من الأقلية القليلة ، التي وجدت في ذاتها الشجاعة لكي تفعل هذا ، وجدت هذه الأصوات قاعدة عريضة تساندها وتؤيدها .

كما أن تطور الأحداث في هذه الفترة من التاريخ ، أدى إلى حدوث ما لم يكن في الحسبان .

١٧

واهتزت الصورة !!

[في حلبة الصراع - البابوية في السبي - شرح عميق في
الجدار - طابور من الثوار : (جيرارد العظيم - يوحنا
ويكلف - يوحنا ميلكز - متياس أف جانو - يوحنا هس)] .

في حلبة الصراع :

بعد ما عانت الكنيسة ، الكثير من المتاعب ، في عصور سابقة ،
وبعد ما تعرضت له من خسارة ، بفقدانها للكثير من سلطانها وهبتها ،
جلس على الكرسي البابوي ، رجل عظيم طموح ، هو البابا « بونيفاس
الثامن » ، الذي كان من نفس مستوى عظمة وطموح هلدبراند ،
وإنوسنت الثالث . وكان يطمح في أن يعيد للكنيسة هيبتها ، ويحقق لها
أكثر مما تحقق في عهد سلفيه العظمين .

وكان يرمى إلى إحكام قبضته على زمام كل من السلطتين الزمنية
والدينية ، فيصبح امبراطور أوروبا ، بجانب كونه البابا والأب الروحي .
وبحكي أنه في خلال احتفال اليوبيل الذي أقيم في عام ١٣٠٠ م . ، تعمد
أن يظهر أمام جموع الحجاج جالسا على عرش ، واضعا فوق رأسه
التاج ، وممسكا يمينه سيف قسطنطين ، وراح يصيح : « أنا قيصر ..
أنا قيصر .. أنا امبراطور » . وسواء صحت هذه الرواية أم لم تصح ،

فلما تعبر أصدق تعبير عن شخصية البابا « بونيفاس الثامن » ،
وطموحه .

وكان ينادى بأن « رأس الكنيسة الوحيدة المقدسة الجامعة الرسولية ،
هو المسيح ونائبه بطرس ، الذى جمع فى قوته سيفين ، أحدهما دينى
روحى والآخر مدنى زمتى » . لأنه عندما قال الرسل للمسيح : « هنا
(فى الكنيسة) سيفان » ، قال لهم الرب : « هذا كثير .. هذا يكفى » .
ومضى يقول : « إن الكنيسة قد جمعت بين يديها كلتا السلطتين ،
الروحية والمدنية ، والكنيسة تمارس السلطة الروحية عن طريق الكهنة ،
بينما يقوم الحكام والملوك والفرسان ، بممارسة السلطان المدنى نيابة عن
الكنيسة ، وتحت وصاية الكهنة ورجال الدين ، وبترخيص منهم » .
لأنه — كما يقول البابا « بونيفاس الثامن » — يجب أن تخضع السلطات
المدنية ، للسلطة الدينية ، ومن يقاوم السلطان الدينى المرتب من الله ،
يكون مقاوماً لله ، وهكذا يجب على الدولة ، كل دولة ، أن تلتزم برعاياها
بضرورة الخضوع لسلطان بابا رومية ، لأن هذا الخضوع ضرورى
لحصول الناس على خلاص نفوسهم » .

وعندما حاول البابا « بونيفاس الثامن » ، تنفيذ خطته ، واجه مقاومة
عنيفة من اثنين من أقوى ملوك أوروبا فى ذلك الوقت ، هما « إدوارد
الأول » ملك انكلترا ، وفيليب الرابع ملك فرنسا ، اللذين تصديا له
بكل قوة ، ومن ورائهما جبهة قوية متماسكة ، من أمتين متحدتين .

وقد أفلح فى منع البابا من التدخل فى شئون بلديهما ، وبعد مقاومة
لا تذكر ، اضطر البابا للإستسلام . ولم يمض سوى وقت قصير ، حتى
شجر خلاف آخر ، بين البابا وفيليب الرابع ملك فرنسا ، فلجأ البابا

إلى إستخدام سلطانه ، وأصدر قراراً بحرمان فيليب وقطعه من عضوية الكنيسة ، ووجه إليه إنذاراً بعزله من العرش ، كل هذا فعله البابا ، باعتباره ملكاً للملوك . لكن الملك لم يعر الأمر اهتماماً ، بل أكثر من هذا ، امتنع عن إرسال الجزية إلى رومية كالمعتاد .

بعد ذلك أرسل الملك « فيليب » خادمه « نوجاريه » للقبض على البابا « بونيفاس الثامن » ، وبمعرفة بعض من أفراد أسرة كولونا ، التي كان بينها وبين البابا عدااء شخصي ، استطاع خادم الملك أن يفاجيء البابا في قصره ، فوق أسيراتحت رحمتهم لمدة ثلاثة أيام ثم أطلقوه ، وبعد ذلك بشهر واحد ، مات البابا « بونيفاس الثامن » .

وكان « دانتى » خصماً سياسياً للبابا ، لكنه علق على هذا الحادث بقوله : « عندما دخل القوم قصر البابا ، وأسروه ، وسخروا منه ، كان هذا العدوان واقعا على المسيح ، الذي استهزى به مرة ثانية » .

وقد حاول البابا « اكليمندس الخامس » ، الذي خلف « بونيفاس الثامن » ، أن يبدأ صفحة جديدة في علاقاته مع ملك فرنسا ، لكنه بعد فترة ، اضطر إلى إصدار مرسوم بابوي يدين الذين اعتدوا على سلفه الراحل . وبعد ذلك بأربعة أسابيع فقط من إصداره هذا المرسوم ، مات البابا ، وقال معاصروه ، إنه مات مسموماً بأيدي فرنسية . ولم يتم اختيار خلف له ، قبل انقضاء أحد عشر شهراً على وفاته .

وكان القبض على البابا « بونيفاس الثامن » ، ضربة قاصمة ، وجرحاً عديماً الشفاء ، أصاب بابوية العصور الوسطى في الصميم ، فزالت هيبتها ، وانحط قدرها ، واهتزت صورتها .

وكان هذا إيذانا بظهور قوة جديدة مناوئة للبابا ، على المسرح السياسى فى أوربا الغربية ، تلك هى القوة القومية ، التى انتصرت على البابوية بالضربة القاضية .

البابوية فى السبى (١٣٠٩ - ١٣٧٨ م) :

وهذه الفترة من تاريخ البابوية ، يدعوها الإيطاليون فترة السبى البابلى ، لأن البابوية بقيت خلالها ، بعيداً عن مقرها التقليدى فى رومية ، وظلت أسيرة تحت رحمة ملك فرنسا وخاضعة لنفوذه ثمانية وستين عاماً ، تماماً كما كان الشعب اليهودى مسبياً فى أرض بابل ، لمدة سبعين عاماً ، فى فترة سابقة من التاريخ .

وأول الباباوات الذين عاصروا فترة السبى ، هو البابا « كليمنس الخامس » (١٣٠٥ - ١٣١٣ م) . وقد اختاره الكاردينالات لمنصب البابا ، لأنه كان واحداً من أنبل الرعايا الذين يدينون بالولاء للملك « إدوارد الأول » ملك انكلترا ، وكانوا يعتقدون أنه لهذا السبب ، سيسلك سييلاً مغايراً ، للخط الذى يريده ملك فرنسا . لكنه خيب آمالهم .. إذ رضى لمطالب الملك الفرنسى ، مضحياً فى سبيل ذلك بالكثير .

وقد أعلن هذا البابا فى اجتماع عام فى سنة ١٣٠٩ م ، أنه قد نقل مقره إلى أفنيون على ساحل الرون ، وهى مدينة لايفصلها عن فرنسا سوى مجرى النهر . وبقاء البابا فى هذا المنفى الإختياري ، أفقد البابوية تأثيرها ومكانتها ، فى أذهان الناس . وضماثرهم ، وكان هذا الإنتقال إيذانا بضياع نفوذ البابوية وسلطانها .

كان هذا هو رد الفعل لدى الرأى العام فى كل مكان فى أوربا ،
حتى لدى أولئك البسطاء ، الذين لم يكن لهم أدنى حظ من الثقافة أو القدرة
على التفكير .

وقد لعبت السلطات الحاكمة فى فرنسا ، الدور الأكبر ، فى الخط
من قدر البابوية فى نظر الناس ، بجانب ما نالها من تحقير ، كنتيجة للفساد
الذى كان قد امتد إلى القصر البابوى ، والذى ضرب فيه بعض الباباوات
بسهم وافر ، وكانت لهم فيه اليد الطولى . كما خسرت البابوية البقية الباقية
من الكرامة ، بسبب الجشع الشديد ، الذى اتسم به باباوات أفنيون .

وكانت أوربا قد عانت الكثير ، فى ظل بابوية العصور الوسطى ، وأن
لها أن تتمرد ، وبدلاً من حالة الإنصياع والخضوع التى سادت عليها فى
فترة طفولتها السياسية ، بدأت تتمللمل وتتمرد ، إذ أحست بأنها تخطت
مرحلة الطفولة ، وبدأت تدخل مرحلة أخرى ، فرضت نفسها على
مجريات الأمور .

شرح عميق فى الجدار :

وكان الزمن لم يكفه ما أصاب البابوية على يديه ، حين انسحبت إلى
منفاها ، تاركة وراءها عرشها وعاصمتها ، متخذة أفنيون مقراً جديداً ،
ومننى اختيارياً لها ، حيث بقيت هناك فى سبيلها ، تجتر ذكريات الماضى
الذى ولى ...

نعم كان الزمن لم يكفه ما كان ، ففاجأ البابوية بشرخ عميق أتى على البقية
الباقية من ذلك البناء المنهار .

أما تفصيل هذا الشرح العميق الذي حدث في جدار البابوية ، فيقال إنه في عام ١٣٧٣ م ، ونزولا على إرادة الرأي العام ، عاد البابا « غريغوريوس » الحادى عشر « ، إلى المقر البابوى فى رومية ، كما قيل أيضاً ، إنه أقدم على هذه الخطوة ، تحقيقاً لرغبة القديسة « كاترين دى سين » ، وكانت ذات شخصية فذة ، أرادت أن تمحو غن جين البابوية ، العار الذى لحقها ، من جراء تركها لمقرها الممهور فى رومية ، مقر كرسى القديس بطرس الرسول ، ومثوى عظام الرسل ، والمكان الأوحى الذى يليق بخليفة القديس بطرس .

وفى عام ١٣٧٨ م ، تم اختيار البابا « أربان السادس » ، للجلوس على الكرسى البابوى فى رومية ، خلفاً للبابا « غريغوريوس الحادى عشر » .

لكن الكرادلة الفرنسيين ، قاموا بانتخاب بابا آخر هو « أكليمندس السابع » ، للجلوس على الكرسى البابوى فى أفنيون ، وهكذا وجد فى الكنيسة اثنان من الباباوات فى وقت واحد ، أحدهما فى رومية ، والآخر فى أفنيون ، واستمر الحال هكذا لفترة امتدت إلى ثلاثين عاماً .

وترتب على ذلك ، انقسام امتد حتى شمل أقطار أوربا الغربية بأسرها ، ولعبت الخلافات السياسية والأهواء الشخصية دوراً كبيراً ، فى اختيار الكرسى الذى تدين له بالولاء وتبعه ، هذه الدولة أو تلك :

وإذ أصبح الوضع سيئاً ولا يحتمل السكوت ، دعا الكرادلة المؤيدون للكرسيين إلى عقد مجمع عام ، لمعالجة هذا الانقسام . وتم انعقاد المجمع فى عام ١٤٠٩ م ، فى مدينة بيزا الإيطالية ، وأسفر المجمع عن اختيار شخص آخر ليشغل منصب البابا ، يدين له كلا الفريقين بالخضوع ، غير أن الباباوين

١٧١.

الآخرين ، رفضا الإستقالة ، . وبهذا أصبح في الكنيسة ثلاثة من الباباوات ، في وقت واحد .

بعد ذلك بثلاث سنوات ، انعمد في كونستانس بجمع آخر ، قرر عزل الباباوين الآخرين من منصبها ، وحث الثالث على الإستقالة ، وبهذا تم وضع حد للانقسام ، ووقع الاختيار على البابا « مارتن الخامس » ، الذي اعترفت به جميع الأطراف .

ولئن كان هذا البابا وخلفاؤه قد اتسموا بالحكمة وحسن الإدارة ، واستطاعوا بذلك أن يستردوا من السلطان المفقود ، قدراً أكبر بكثير مما كان منتظراً ، إلا أن البابوية لم تستطع أن تعود إلى سالف مجدها .

طابور من الثوار :

« لكل فعل رد فعل مساو له في المقدار ومضاده في الاتجاه » . تبعا لحكم هذا القانون ، ترتب على ما أصاب البابوية من إنهيار ، ظهور طابور من الثوار ، الذين تمردوا على الأوضاع السائدة في الكنيسة نذكر بعضهم فيما يلي :

١ - جيرارد العظيم أو جيرارد جروت :

وقد ظهر هذا الرجل في الأراضي الواطئة (هولنده) ، وحاز شهرة فائقة في الجامعة . وكنتيجه لوعظه ، قامت حركة « العبادة الجديدة » . ونظراً لتقواه وقوة مواعظه التف حوله الكثيرون ، وأسس عدداً من البيوت التي عرفت باسم بيوت « إخوة الحياة المشتركة » وأخوات الحياة المشتركة ، وكان الرجال يقومون بالخدمة الرعوية ، وكانت لهم مدارس لتعليم الأولاد ، وقد اشتهرت وازدهرت مدارسهم في تلك الأيام ، ولم تكن البيوت التي

أسسها « جيرارد » أنظمة رهبانية ، نظراً لسخطه على الأحوال التي كانت سائدة في عالم الأديرة في ذلك الزمان .

وتميزت حياة « جيرارد » وأتباعه بالبساطة ، وكانوا يكسبون عيشهم من عملهم في التدريس ، وممارسة بعض المهن الأخرى .

وقد انتشرت بيوت هؤلاء الأخوة في كل أرجاء الأراضي الواطئة ، وبذلوا جهداً في تشجيع استخدام العلمانيين للغة القومية في الصلوات .

وفي عام ١٣٩٨ ، دعوا عدداً كبيراً من أشهر رجال القانون ، من جامعة كولون ، واجتمعوا معاً براهب من أتباع النظام البندكتي ، وقد أصدر هؤلاء بياناً يتضمن أنه من حق العلمانيين أن يستخدموا كتباً مقدسة مكتوبة بلغتهم القومية .

وقد عرض أمر هذه الجماعة على محكمة التفتيش ، لبحث مدى قانونية نظام هؤلاء الإخوة والأخوات من أتباع « جيرارد » .

وعلى غرار نظام بيوت هؤلاء الإخوة ، قام نظام آخر شهير ، هو نظام كهنة جبل القديس أجنس ، ومن بين صفوف هذا النظام الأخير ، خرج القديس « توما الكمبيسي » ، صاحب المؤلف الشهير « الإقتداء بالمسيح » ، الذي ظهر في القرن الخامس عشر .

وقد مات « جيرارد العظيم » في نفس السنة التي مات فيها ثائر آخر ، هو « يوحنا ويكلف » .

٢- « يوحنا ويكلف » (١٣٢٤ - ١٣٨٥ م) :

وهو مواطن إنكليزي ، وقد ساعد على ظهوره ، ترايد الشعور القومي

في انكلترا ، عندما حدثت المواجهة بين الملك والبابا في عام ١٣٧٥ م ، بعد فترة من الخلاف المستمر ، والمقاومة المتصلة لسلطان البابا ، استمرت طوال خمسة وسبعين عاما . في أعقابها ظهر « يوحنا ويكلف » .

وكانت في بلاد الإنكليز جبهة قوية معارضة للبابا ، هذه الجبهة كانت تضم ملك البلاد ، والأساقفة ، وأعضاء البرلمان ، وهؤلاء كلهم أجمعوا على وضع حد لتدخل البابا في الشؤون الداخلية للكنيسة الإنكليزية .

وقد ولد « ويكلف » في يوركشير قرب رتشموند حوالي عام ١٣٢٤ م ، وذهب إلى جامعة أكسفورد ، حيث قضى معظم سني حياته . واشتهر باعتباره أول من تولى القيادة في الجامعة من بين الدراسين فيها ، وكان كاهنا لكنيسة ترورز ، واكتسب شعبية لحديثه على الفقراء .

وأول ضربة وجهها « ويكلف » للبابوية ، هي إنكاره لحق البابا في الحصول على الجزية من كنيسة انكلترا ، وكان الإنقسام الذي تعرضت له الكنيسة في ذلك الوقت ، عاملا من أهم العوامل التي شجعت « ويكلف » على توجيه ضربات أخرى .

ففضى في الشوط إلى نهايته ، وراح يهاجم البابا ورجال الإكليروس ، وينادي بأنه لا فرق ولا تمييز بين الإكليروس بسبب رتبهم الكهنوتية . بعد ذلك أنكر عقيدة استحالة عنصرى الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه الأقدسين ، كما تنادى الكنيسة الكاثوليكية ، وكانت تلك العقيدة عقيدة مركزية بالنسبة للكنيسة في تلك العصور .

وبسبب هذه التعاليم التي راح ينادي بها « ويكلف » ، غلبت السلطات الكنسية العليا مجمعا لحاكمته .

أما هو فقد وجدها فرصة سانحة يعلن فيها للشعب أفكاره وتعاليمه الجديدة ، وراح في أثناء المحاكمة ، يهاجم بعنف شديد . نظام الكنيسة في تلك الأيام ، ونادى بأن الكتاب المقدس ، هو السلطة الوحيدة المعتمدة في الأمور الدينية .

بعد ذلك بدأ « ويكلف » أروع أعماله ، بترجمة الكتاب المقدس لأول مرة ، من اللغة اللاتينية إلى اللغة الإنكليزية . وبهذا العمل المجيد ، تمكن ويكلف وأعدائه من جعل الكتاب المقدس ، كتاباً مفتوحاً أمام جميع أفراد الشعب الإنكليزي .

ولكى يتسنى له نشر أفكاره ومبادئه بين الناس ، أنشأ ويكلف نظامه الشهير « الكهنة الفقراء » ، الذين حملوا اسم « لولاردز » . وكان بعض هؤلاء من طلبة جامعة أكسفورد ، لكن معظمهم كانوا من عامة الشعب في الأبروشية التي كان « ويكلف » يقوم بخدمته الكهنوتية فيها .

وهؤلاء الكهنة الفقراء ، كانوا حفاة الأقدام ، يلبسون ثياباً خشنة ، ويحملون في أيديهم عصياً ، وفي طعامهم وسكنهم ، كانوا يعتمدون على ما يقدمه لهم الشعب من تقدمات حبية . وكانوا يجوبون البلاد من أقصاها إلى أقصاها ، وأينما ذهبوا ، كانوا يعظون الناس ويعلمونهم .

وقد زاد عددهم زيادة كبيرة ، وأصبحوا قوة مؤثرة وفعالة في نشر الديانة الإنجيلية ، ويقدمون للناس تعاليم « ويكلف » ، وبعضها من فصول الكتاب المقدس ، في لغتهم القومية .

ورغم أن هؤلاء الكهنة تعرضوا في القرن الخامس عشر ، لاضطهاد مرير ، إلا أنهم واصلوا مسيرتهم ، وظلوا يعملون إلى أن جاء عصر الإصلاح .

ونظروا لحب الناس لو يكلف ، لم تستطع السلطات الكنسية ، أن تتخذ
خضده أى إجراء صارم ، واكتفت بوصمه بالهرطقة ، ولم يتقرر إعدامه
خشية إثارة الرأى العام .

وفي عام ١٣٨٤ م ، مات « ويكلف » فى بيته ميتة طبيعية ، بينما
كان أعوانه يواصلون نشاطهم وخدمتهم فى ربوع إنكلترا .

ومن الطريف والمؤسف معاً ، أنه فى عام ١٤١٥ م ، عقد مجمع
كونستانس جلسة محاكمة « ويكلف » ، وكانت عريضة الدعوى تتضمن
خمساً وأربعين تهمة ، وفى ختام الجلسة ، أصدر المجمع قراره ، بأنه
« لو أمكن تمييز عظام « يوحنا ويكلف » ، من عظام غيره من الموتى ،
الذين يشاركونه فى مثواه الأخير ، فإن المجمع يطلب جمع رفاتة ،
وتطويعها بعيداً عن ذلك المكان ، حتى لا تتنجس بوجودها ، مدافن أبناء
الكنيسة المؤمنين » .

وقد حدث بعد ذلك بثلاثة عشر عاماً ، أنه تم تنفيذ هذا الحكم ،
بمقتضى قوار أصدره البابا « مارتن الخامس » ، فتم جمع عظام « يوحنا
ويكلف » ، وأحرقت ، وألقى الرماد المتخلف عن إحراقها ، فى مجرى
مائى بالقرب من ليرورز .

٣ - « يوحنا ميلكز » :

رغم بعد الشقة بين إنكلترا وبوهيميا ، فإن روح « ويكلف » وتعاليمه ،
كان لها فعل السحر فى بوهيميا .

وكان العامل الفعال فى هذا المجال ، هو الكائن « يوحنا ميلكز » واعظ

كاتدرائية براغ ، الذى استقال من عمله ، للقيام بخدمة الوعظ بين الفقراء ، وقد أحرز في عمله بينهم نجاحاً لا يبارى .

وفي عام ١٢٦٧ م ، توجه إلى رومية ، وحاول أن يقنع البابا « أربان الخامس » ، بأن ضد المسيح قد جاء ، وأن الحجىء الثانى للسيد المسيح قد بات وشيكاً ، لكن البابا طرده شر طردة . ومات « يوحنا ميلكز » في أفنيون .

٤ - « متياس أف جانو » :

وفي براغ ، حل محل « ميلكز » ، رجل من طراز نادر مثله ، هو « متياس أف جانو » ، وكان واعظاً بليغاً ، وفي عظاته ، كان يوجه انتقاداً مرا لرجال الدين والرهبان ، ويعرض بحالة الفساد الذى كان قد تفشى في كافة المجالات ، سواء كان هذا الفساد أخلاقياً ، أو فساداً في العبادة .

وقدم « متياس » تفسيراً للكتاب المقدس ، وعن الكنيسة قال إن يسوع بذاته ، هو وحده مع الآب والروح القدس ، الموجود في الكنيسة ، ويتولى حفظها ، وفيها الحياة الداخلية ، ويقودها إلى حياة النمو .

كما قال : « إن كل مسيحى له مسحة من القدوس ، وعلى هذا فإن كل المسيحيين هم ملوك وكهنة . ويسوع نفسه هو الألف والياء ، البداية والنهاية ، وأنه وحده المختص ، وكل من يرغب في خلاص نفسه ، عليه أن يلتقى بذاته بالتنام على الرب يسوع المسيح ، الذى هو وحده الطريق والحق والحياة » .

٥ - « يوحنا هس » (١٢٧٣ - ١٤١٥ م) :

وهو من مواليد بوهيميا ، وقد حل محل متياس في خدمة الوعظ ،
في كنيسة بيت لحم ، في مدينة براغ ، في عام ١٤٠١ ..

وكان « هس » رجلاً جماهيرياً ، ومحاضراً بليغاً في جامعة براغ ،
كما أنه كان كاهناً .

بعد ذلك أصبح المتحدث الرسمي باسم الأمة في الشؤون السياسية والدينية ،
وقد نادى بضرورة إصلاح حال الكهنة في بوهيميا ، كما كان يدافع عن
حقوق الأمة ضد الألمان . وكان يحس بأحاسيس بني قومه ، الأمر الذي
جعله موضع ثقتهم واحترامهم ، خاصة وأنه كان يحيا حياة طاهرة نقية .
هذا كله جعل الطريق أمامه سهلاً لكي يصبح قائداً دينياً ، وزعيماً قومياً ،
مرهوب الجانب .

وقد درس « هس » كتابات « ويكلف » وتعاليمه ، التي كان لها
في نفسه فعل السحر ، فتأثر بها أيما تأثر ، فراح يقدم هذه التعاليم للناس ،
وينشرها بينهم .

ومن بين ما كان ينادي به « هس » قوله : « إن المسيح وحده هو رأس
الكنيسة الحى الباقي إلى الأبد ، ولا يوجد بين الباباوات من له هذه الصفة ،
ولهذا فإن رئاسة البابا ، تعتبر مناقضة لروحانية الكنيسة ، باعتبارها جسد
المسيح الحى ، وأن المسيح فيه كل القدرة وكل الكفاية » .

وقد قاومته السلطات الكنسية ، لكنه لم يعبأ بمقاومتهم ، وراح يواصل
نشر أفكاره . وتعاليمه ، رغم أن الكنيسة اعتبرته هرطوقياً ، ينادى بتعاليم
منحرفة ومختلفة عن تعاليم الكنيسة .

وفي عام ١٤١٢ م ، أصدر البابا ضده قرارا بالحرم ، فاستأنف « هس » قرار البابا « يوحنا الثالث والعشرين » ، وطلب عقد مجمع عام لنظر الاستئناف المقدم منه .

وفي عام ١٤١٤ م ، انعقد مجمع كونستانس ، واستدعى « هس » للمثول أمام المجمع ، وقد حصل على تعهد بضمان سلامته .

وعند مثوله أمام المجمع ، واجهه البابا بتهمة الهرطقة ، وهكذا أصبح دمه مباحا ، ولم يعد التعهد بضمان سلامته ساري المفعول ، فسقطت عنه الحماية . وظلت قضيته منظورة طوال أيام ثلاثة ، وفي ختام محاكمته قال إنه جاء إلى كونستانس لايحاكم ، وإنما ليبر عن إيمانه وأفكاره تحت حماية الإمبراطور ، الذي احمر وجهه خجلا عندما نظر إليه « هس » .

وكانت أعظم تهمة واجهها « يوحنا هس » ، هي قوله أن المسيح وحده هو الذي أعطى له أن يدين ، وقد اعتبر المجمع هذا القول خروجا على السلطات والقوانين الكنسية . فصدر الحكم بتكفيره ، وتجريده من كافة الحقوق ، وهنا خر راکعا على ركبتيه ، وصلى طالبا من الله أن يصفح عن أعدائه ، بينما وقف أعضاء المجمع يرمقونه ساخرين مستهزئين .

بعد ذلك أسلموه إلى الإمبراطور ، الذي نفذ فيه حكم الإعدام ، بوضعه ، فوق خازوق ، وإشعال النار فيه ، وقد أسلم الروح وهو يصلي إلى سيده ، وكان ذلك يوم السادس من يوليو عام ١٤١٥ م .
ثم جمعوا الرماد المتخلف ، ونثروه في مياه بحيرة كونستانس ، « حتى لا تتنجس به الأرض » .

وعلى أثر إعدام «يوحنا هس» ، اشتعلت في بوهيميا نيران الغضب ،
وثارت ثائرة أهلها ، الذين كانوا يعتبرونه بطلا قوميا ليس له نظير ،
فقام فريق منهم بشن حرب استقلالية ، واستطاعوا أن يهزموا امبراطور
ألمانيا الذي فر هارباً ، واجتاحوا جزءا من الأراضي الألمانية ، وجروا
الكثير من الولايات ، على كل بلدان أوروبا .

وقد تكشفت هذه الثورة العارمة ، التي أضرمها أتباع «يوحنا هس»
وأعوانه ، عن جماعة دينية قوية خرجت من الكنيسة ، وكانت خميرة
خمرت بوهيميا بأسرها ، وامتد نشاطها إلى مورافيا ، وبعض أجزاء
من ألمانيا ، حيث انتشرت تعاليم ويكلف وهس .

وظل أتباع «هس» يقاومون حتى انتهى الأمر بهزيمتهم نهائياً
في معركة ليبان ، في ٣٠ مايو ١٤٣٤ م .



المفتدين



محاولات للإصلاح لم يكتب لها النجاح

[حاجة الساعة - مبادرة من جانب الكنيسة : (مجمع
كونستانس - مجمع بازل)] .

حاجة الساعة :

في خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين ، امتلأت ،
نفوس الناس بالاسخط العام ، على المفاسد والمبازل التي تردى فيها
رجال الدين ، على كافة المستويات .

وقد لعب الإنشقاق الكبير ، وتنازع الباباوات على الكرسي
البابوي ، وعزل البابوات المتنازعين لتوحيد الصفوف ، بعد انتهاء فترة
« السبي البابلي » ، التي نقل فيها المقر البابوي من رومية ، هذه كلها
لعبت دوراً كبيراً في إثارة شعور الرأي العام ، ونهت الأذهان إلى
ضرورة القيام بعمل ما .

وهنا يتبادر إلى الأذهان سؤال : « ألم يكن بين المسئولين والقادة
الدينيين في ذلك الزمان ، شخص حكيم غيور ، يعمل على تدارك
الأمور ، وتصحيح الأوضاع ؟ ! » .

لأنجانب الصواب إن قلنا ، إنه كان هناك ما يشبه الإجماع ، على

وجوب معالجة الأوضاع الفاسدة ، وإنقاذ الكنيسة من الهوة التي
تردت فيها .

نعم ، كان هناك اقتناع تام بأن القيام بإصلاح الأوضاع ، هو
حاجة الساعة .

مبادرة من جانب الكنيسة :

لم يقف الشعور بالسخط المتزايد ، على ما آل إليه الأمر في الكنيسة ،
عند حد الشعوب والحكام والملوك ، في كل مكان في أوروبا الغربية ،
وبالأخص في فرنسا وألمانيا ، حيث ارتفعت الصيحات والنداءات ،
مطالبة بضروة القيام بحركة تصحيحية . لأنه من بين الأصوات التي
كانت تطالب بالإصلاح ، كان هناك عدد من الأساقفة والكرادلة .
نعم حاولت الكنيسة أن تعمل شيئاً ، وتأخذ بزمام المبادرة ، وحرصاً
على تحقيق أهدافهم ، حرص طلاب الإصلاح منذ البداية ، على إحياء
النظرية القديمة ، القائلة بأن السلطة العليا في الكنيسة هي المجمع لا البابا ،
حتى لا يصطدموا بالإرادة الفردية والرأي المطلق ، فطلبوا عقد مجمع
يبتولى عملية الإصلاح ، على غرار مجمع بيزا ، الذي عقد في عام
١٤٠٥ م ، لمعالجة مشكلة تعدد الباباوات . وكانت هذه بداية لانعقاد
ما أصبح يعرف في تاريخ الكنيسة بالمجامع المصلحة .

مجمع كونستانس (١٤١٤ - ١٤١٨ م) :

ولئن كان مجمع بيزا قد فشل في تحقيق الهدف المنشود ، فإن مجمع
كونستانس استطاع في عام ١٤١٢ ، أن يرأب الصدع ، ويعيد للكنيسة
وحدتها .

وفي مجمع كونسثانس ، تطرق المجتمعون إلى بحث موضوع الإصلاح المطلوب ، وقد حدد طلاب الإصلاح هدفهم ، وقالوا إنه يجب القيام بحركة إصلاحية شاملة ، تنقل الكنيسة من الخراب والدمار ، الذي سوف يقضى عليها ، ما لم تبادر إلى إصلاح ذاتها .

وكان المجمع يضم حشداً هائلا من الأعضاء ، يمثلون كلا من السلطتين الروحية والزمنية ، في بلدان أوروبا الغربية ، ومن لم يتمكن من الحضور ، أرسل مندوبا عنه يمثل في المجمع . وعلى رأس الحاضرين ، كان الإمبراطور «سجسموند» ، الذي كان مقتنعا تماما ، بوجوب قيام الكنيسة بإصلاح ذاتها .

وبعد سنوات من الأخذ والرد ، لم يصل المجمع إلى قرار ما ، ويرجع فشل هذا المجمع ، إلى الدور الكبير الذي لعبه رجال السياسة ، الذين كانوا يدورون في فلك البابا . وهؤلاء كانوا يعارضون كل اقتراح يمس البابا ، لاحبا وكرامة ، وإنما خوفا على مصالحهم ، وامتيازاتهم الشخصية . ومراكزهم ، لأن من سيفطر بالواحد ، سوف يتغدى بالآخر .

كما لعبت النزعات القومية هي الأخرى دورها ، في انقسام الحاضرين على ذواتهم . أضف إلى هذا ، أن المجتمعين كانت تنقصهم العزيمة الراسخة ، والرأي الثابت ، والحماس الروحي ، والإحساس الكامل بالمسئولية ، تجاه تحقيق الإصلاح المطلوب .

مجمع بازل (١٤٣١ - ١٤٤٩ م) :

بعد مجمع كونسثانس بقليل ، لاحت لطلاب الإصلاح فرصة أخرى لتحقيق غايتهم ، وكانت تلك الفرصة هي انعقاد مجمع بازل .

وقد عرضت على هذا المجمع قضية الإصلاح المطلوب ، وتبودلت بين المجتمعين آراء وأفكار ، وقيل بكلام كثير كثير ، ظل يتردد طوال فترة انعقاد المجمع ، الذي يعتبر أطول مجمع في تاريخ الكنيسة ، إذ امتدت فترة انعقاده إلى تسعة عشر عاما تقريبا .

وأخيراً وجد المجتمعون أنفسهم يدورون في حاقة مفرغة ، بسبب تصارع الأفكار والآراء ، وتغلب المصالح والأهواء الشخصية ، على المصلحة العامة .

فانفض المجمع دون أن يرى الناس طحنا ، في أعقاب الجمعية التي ظلوا يسمعونها ، طوال فترة انعقاده .

وبهذا ضاعت من الكنيسة الكاثوليكية ، الفرصة الذهبية التي لاحت لها ، لتحقيق المطالب الملحة ، والإلتقاء مع الرغبة العارمة ، في إصلاح أمورها ، وتصحيح الأوضاع في داخلها ، ولو أنها فعلت ، لوفرت على ذاتها الكثير .

١٩

رياح التغيير

[نهضة فكرية شاملة - اكتشافات حديثة - حركات وتيارات جديدة - حركة احياء العلوم - « ارازمس » - اعداد الراى العام - واتضحت معالم الطريق - الظلم الاجتماعى يلعب دوره] .

نهضة فكرية شاملة :

يعتبر القرن الرابع عشر الميلادى ، بداية لعصر التحول العظيم فى أوربا ، الذى اشتهر فى التاريخ بعصر النهضة ، هذا العصر الذى شهد الميلاد الجديد ، لدول أوربا وشعوبها .

لقد عمت النهضة كل جوانب الحياة ، سواء فى الناحية الفكرية ، أو فى مجالات الطاقة البشرية ، إذ تفجرت فى أوربا فى خلال هذه الفترة ، طاقات وإمكانات الإنسان ، بصورة تجل عن كل وصف .

اكتشافات حديثة :

وقد تمثلت هذه النهضة فى مجال الإكتشافات العلمية ، فى الكشف العظيم الذى قدمه « كوبرنيكس » ، عندما اكتشف المجموعة الشمسية . وقد أحدث هذا الاكتشاف تغييراً جذرياً ، فى الأفكار التى كانت سائدة بين الناس فى ذلك الزمان ، عن الكون الذى يعيشون فيه .

١٨٥

... كما قام « كريستوفر كولمبس » ، باكتشافاته الجغرافية الشهيرة في الشرق والغرب ، وعلى أثر هذه الاكتشافات ، تحدد بصورة قاطعة ، شكل الأرض .

حركات وتيارات جديدة :

وقد ترتب على الكشوف الجغرافية الجديدة ، قيام نشاط تجارى وصناعى واسع المدى ، وبدأت تظهر في الأفق نزعات استعمارية ، راحت تتسلط على دول أوروبا .

كما نشطت بين شعوبها ، حركات قومية ، ترتب عليها ظهور قوى سياسية جديدة ومؤثرة ، في كل من فرنسا وانكلترا وأسبانيا .

حركة إحياء العلوم :

ومن أبرز الأسباب التي أدت إلى قيام هذه النهضة ، حركة إحياء العلوم ، هذه الحركة التي ترتب عليها ، اتصال الأوروبيين بمختلف الحضارات والثقافات اليونانية والرومانية .

وكان انتشار تعلم اللغة اليونانية ، عاملا رئيسيا ، ساعد الدول الأوروبية ، على اللحاق بركب الحضارة ، بعد أن انفتحت أمامها مغاليق الكنوز اليونانية الرفيعة ، في مجالات الفكر والفن والأدب ، فعوضت أوروبا في عصر النهضة هذا ، مافاتهما في العصور السابقة ، التي كانت فيها اللغة اليونانية لغة غريبة عند شعوبها .

والمتتبع للنتاج الفكرى الأوروبى في عصر النهضة الذى نحن بصدده الآن ، يستطيع أن يرى بصمات الفكر اليونانى واضحة في مجالات الفن والأدب .

وكان من أهم نتائج انتشار تعلم اللغة اليونانية ، إتاحة الفرصة لقراءة أسفار الإنجيل في لغته الأصلية ، بالإضافة إلى انفتاح أبواب المعرفة على مصاريعها ، فراح المثقفون يعبون من معينها عباً .

كما أن كثيرين من رجالات الفكر ، راحوا يشاركون في دراسة الإنجيل والإحاطة بالكثير من المبادئ والتعاليم المسيحية ، والمثال الذي ينبغى أن تكون عليه الحياة المسيحية الحقيقية . وبمقارنة الأحوال السائدة في الكنيسة في تلك الآونة ، بالصورة التي ينبغى أن تكون عليها ، أصبح هؤلاء تلقائياً ، أعضاء في الخلايا الثورية ، وجنوداً في جيش الإصلاح المرتقب .

وقد حدث هذا بصورة ملموسة في كل من ألمانيا وفرنسا وانكلترا ، حيث ظهر كثير من الشخصيات البارزة ، في تلك الفترة ، أمثال « إرازمس » ، الذي كان من أعظم رجالات الفكر المسيحي في تلك الحقبة من الزمان .

« إرازمس (١٤٦٦ : ١٥٣٦ م) :

وقد ولد في روتردام ، ثم تلقى تعليمه في إحدى المدارس الشهيرة ، التابعة لإخوة الحياة المشتركة ، التي كان قد أنشأها أتباع « جيرارد جروت » حوالي سنة ١٣٨٠م ، وكان أهم نشاط لهذه المدارس هو نسخ المخطوطات ، وتعليم الصغار . كما كانت هذه المدارس ، همزة الوصل ، بين الفكرين القديم والحديث .

وفي شبابه ، أرغم على دخول أحد الأديرة ، حيث كان ذووه من أنصار الحياة الرهبانية . وبعد سبع سنوات ، أصبح سكرتيراً لأسقف كامبري ، ثم واصل بعد ذلك تعليمه في لوفين وباريس .

في عام ١٥٩٨ ، قام بطبع مجموعة من الحكم والأمثال ، وكان هذا العمل سببا في ذبوع شهرته في ربوع أوروبا .

وقد تميز هذا العمل بأنه كان عملا إنسانيا . لكن « إرازمس » كرس الفترة التي بقيت من عمره ، للدراسات الدينية ، وكان عمله ذا طابعين .

١ - طابع انتقادي ، يهاجم مساوي عصره ، بأسلوب لاذع ، وأهم عمل له في هذا المجال ، هو مؤلفه « تمجيد الحماسة » . وقد كتبه في انكلترا في عام ١٥٠٩ م ، وهاجم فيه بعنف الاعتقاد بكرامات القديسين ، وعبادة الصور ، وكل مظاهر الجهل في العبادة ، كما هاجم عادة زيارة الأماكن المقدسة ، وشفاعة القديسين . كما طبعت له مؤلفات أخرى هاجم فيها الانحرافات التي تردى فيها بعض الباباوات ، الذين شغلتهم مطاعمهم ، في امتداد نفوذهم السياسي ، عن الاهتمام بالكنيسة الأمر الذي أدى بها ، إلى حالة الإنحطاط ، التي كانت سائدة في تلك الأيام .

وقد تميزت كتاباته بأسلوبه الساخر ، الذي كان له فعل قوى في نفوس مطالعيه ، الأمر الذي ساعد على زعزعة ثقتهم في القادة الدينيين ، وساعدهم على التمرد عليهم ، وعلى تصرفاتهم المشينة .

٢ - الطابع الثاني لكتابات « إرازمس » ، طابع بناء ، على عكس « فولتير » ، رغم ما بين الإثنين من وجوه الشبه .

فقد تميز « إرازمس » بغيرة شديدة لإصلاح الأمور في الكنيسة ، في ممارساتها ، وحياة قادتها ، وسلوك أعضائها . وللوصول إلى تحقيق هذا

الهدف ، راج بصور للناس حالة الكنيسة الأولى ، وكيف كانت المثل التي تحكم حياة قادتها وأعضائها .

وأعظم عمل قام به « إرازمس » ، هو إعداده لنسخة جديدة من الإنجيل ، وكان يرمى بهذا ، إلى تقديم أفضل النصوص المتاحة ، مع تقديم ترجمة أخرى معدلة ، للترجمة المعروفة باسم « الفولجاتا » . وقد بدأ هذا العمل في انكلترا ، وتم نشره مع إهداء إلى البابا ، في عام ١٥١٦ م .

كما قدم أيضاً تعليقات على بعض الرسائل ، وترجمات جيروم والآباء الآخرين .

ولم يكن وقدرته الفائقة ، كان الرهبان واللاهوتيون في عصره ، ينشون مواجهته ، لكنه أخيراً حوكم أمام محكمة التفتيش .

ورغماً عن رغبته في الإصلاح ، إلا أنه كان يرى ، أن إنارة الأذهان ، وتنوير العقول ، هي أفضل سبيل لتحقيق هذا الإصلاح . إنه كان يرفض استخدام العنف ، في كافة صورته ، حتى إذا كان الهدف هو الإصلاح . إن الغاية عنده ، لم تكن تبرير الوسيلة ، بأي حال من الأحوال .

وقد ساعد اختراع آلة الطباعة ، في عام ١٤٥٠ م تقريباً ، على نشر المعرفة ، بصورة لم يكن للناس بها سابق عهد ، فانتشرت آراء طلاب الإصلاح وأفكارهم .

إعداد الرأى العام :

لقد لعب « إرازمس » ورفاقه ، من أقطاب الحركة الإنسانية الدينية ، الذين ظهروا فى خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ؛ من أمثال « بوكاسيو » ، و « بترارك » الشاعر وغيرهما ، هؤلاء لعبوا دوراً كبيراً فى توجيه الرأى العام ؛ ونفثوا فى الناس فى بلدان أوروبا ، روحاً جديدة ، وكونوا رأياً عاماً قوياً ، ظهر تأثيره فيما بعد .

لأنهم بمجهودهم المتصلة ، وسعوا تخوم الناس ، فى معرفة تعاليم الكتاب المقدس ، وبهذا أعدوا الأتقياء لتقبل التطورات الأخرى ، فى كافة مجالات الحياة الدينية .

واتضحت معالم الطريق :

فى ضوء ما سلفت الإشارة إليه ، يمكن القول ، بأن حركة النهضة والإحياء ، فى مختلف متجهات الفكر والعلوم ، كانت صوت صارخ فى البرية ، أعد الطريق ، لعصر جديد .

لأن رياح التغيير التى هبت فى عصر النهضة وإحياء العلوم ، أدت إلى تغيير الكثير من المفاهيم ، التى ظلت راسخة وثابتة كحقائق ومسلمات ، لكنها فى ضوء الاكتشافات الحديثة ، اضطرت إلى إخلاء مكانها ، للحقائق الجديدة ، التى تم اكتشافها ، فخلع الناس العتيق وألقوه جانبا ، وتقبلوا الجديد ، وكان هذا مثالا يحتذى ، بالنسبة للأفكار الدينية أيضاً .

لقد مهد عصر النهضة الطريق لعصر الإصلاح ، وبغير هذه النهضة ، ما كان ممكناً أن يأتى الإصلاح .

وهنا لا يفوتني أن أشير ، إلى أن التاريخ خير شاهد ، على أن كل الداعين إلى الإصلاح ، كانوا يحملون للكنيسة في حد ذاتها ، كل تقدير واحترام ، لكنهم إن كانوا قد أبدوا سخطا واحتجاجا ، فإن هذا ، كان منصبا على الأوضاع الفاسدة ، التي ظهرت فيها ، تدفعهم إلى ذلك غيرتهم عليها ، ومحبتهم لها .

وخير دليل على ما أقول ، هو « دانتي » الشاعر الإيطالي الأشهر ، الذي كتب في « الكوميديا الإلهية » ، كثيراً من التصويرات الساخرة ، لبعض القادة الدينيين . الأمر الذي قد يصور للبعض ، أنه كان من الخارجين على الكنيسة ، لكن الحقيقة هي على النقيض من هذا التصور ، لأنه كان مخلصاً للكنيسة حتى وهو ينقد بعض أصحاب السلطان فيها . إذ كان يفعل بأحداثها ، ويعقب عليها ، وسلفت الإشارة ، إلى أنه عندما التقى رجال فيليب الجميل ملك فرنسا ، القبض على البابا « بونيفاس الثامن » علق « دانتي » على هذه الحادثة بقوله ، إن الذين لم يحترموا مركز البابا ، وتجاسروا وأقدموا على القاء القبض عليه ، إنما كانوا يكررون ما فعله جنود الرومان ورسل الكهنة اليهود قديما ، بالمسيح ، عندما أهانوه واستهزأوا به ، وعلى حد تعبيره : « إن المسيح قد استهزئ به مرة ثانية ، على أيدي أولئك الذين قبضوا على البابا ، واحتجزوه تنفيذاً لأوامر الملك » .

وعندما عاد البابا من أفنيون إلى رومية ، وجه « دانتي » إلى قادة الكنيسة رسالة قال فيها : « وأنتم يا قادة الكنيسة وحراسها ، إن كان قد فاتكم ، أن ترافقوا ركب عروس المصلوب وموكبها ، في طريقها إلى المقر الذي أعده لها الله ، فإنه بوسعكم الآن ، أن تصححوا هذه الغلطة ، وتتداركوا ما فاتكم ، ببذل كافة الجهود ، للدفاع عن عروس المسيح ،

وعرشها في روميه ، وتذودوا عنها كل أعدائها ، الذين يحاولون أن يسلبوا الكنيسة اللاتينية ، ويجردوها من أعز وأغلى امتيازاتها .

الظلم الإجتماعى يلعب دوره :

لقد شهد القرن الرابع عشر ، عدداً من الثورات ، التى قامت احتجاجاً على الظلم الإجتماعى ، الذى كان الفلاحون المساكين ، يعانون منه على أيدي الأمراء والنبلاء والإقطاعيين من كبار الملاك .

وكانت ألمانيا مهداً لتلك الثورات الشعبية العديدة ، التى أشعل نيرانها الفلاحون المظلومون ، ولجأوا فيها إلى العنف ، وقد انضمت إلى صفوف الثوار ، طوائف أخرى من العمال ، الذين أحسوا بجور القوانين ، فقاموا طالبون بحقوقهم المهضومة .

وكان الموقف السلبي الذى وقفه رجال الدين ، تجاه مظالم الأمراء والنبلاء ، وعدم تعاطفهم مع هؤلاء المطالبين بحقوقهم المسلوبة ، سبباً جعل هؤلاء الثوار ، من أبناء الطبقات المطحونة ، يقفون موقفاً ساخطاً على رجال الدين ، الذين تنكروا للمبادئ المسيحية ، التى تكفل العدالة الإجتماعية ، لكل الفئات .

وقرب نهاية القرن الخامس عشر ، زادت الحالة الإجتماعية سوءاً ، وتفاقت الأوضاع ، وكثرت الإنتفاضات الثورية ، لطلاب الإصلاح الإجتماعى ، وكانت هذه الحركات ، تواجه بمقاومة عنيفة فتخمد ، ولكنها لا تلبث حتى تعود أقوى مما كانت .

تلا ذلك ارتفاع مفاجئ في الأسعار ، جاء مصحوباً بنقص في الحاصلات الزراعية ، الأمر الذى زاد الطين بلة كما يقولون .

وازدادت الحالة سوءاً في ألمانيا ، حيث كانت الصلور تتأجج بنيران
السخط والغضب على الأحوال السائدة ، سواء في المجال الديني ،
أو الإجتماعي .

وهذا كله فعل فعله ، في إعداد المسرح ، للفصل التالي في تاريخ
المسيحية ، ألا وهو عصر الإصلاح ، الذي قاده «مارتن لوثر» ، وهو
موضوع الجزء التالي ، من سلسلة «تاريخ المسيحية» .



أهم مصادر الكتاب

History Of The Medieval Church,
By M. Deanesly.

A Handbook Of Church History,
By The Rev. Samuel G. Green D.D.

The Growth Of The Christian Church,
By Robert Hastings Nichols.

Outlines Of Church History,
By Sohm.

Short History Of The Christian Church,
By C. P. S. Clarke.

The Franciscans, (Ch. 2 — The Founder And The Beginnings Of
The Order).

By Alexander Masseron. Translated From The French,
By Warre B. Wells.

Witnesses For Christ,
By Edward Backhouse and Charles Tylor.

محتويات الكتاب

- ٣ مقدمة
- (الفترة الاولى - بداية العصور الوسطى)
- ٧ ١ - الأحوال في الغرب
- [جثة ونسور - الفوز الاسلامي - الكنيسة الصامدة في الغرب - امبراطورية شارلمان - البابا يتوج شارلمان امبراطورا - الامبراطورية الرومانية المقدسة - الامبراطورية الشرقية]
- ١٨ ٢ - الزحف المقدس
- [بعثات تبشيرية الى إنجلترا - بعثات تبشيرية الى ألمانيا - بعثات تبشيرية الى الدنمرك والسويده - « أنسكار » - بشارة الانجيل في النرويج وأيسلندا وجرينلاند - المسيحية تدخل الى جنوب شرق أوروبا - المسيحية تدخل الى روسيا - المسيحية تدخل هنغاريا وبلدان الشرق الأقصى]
- ٣١ ٣ - تطورات داخل الكنيسة
- [ظهور البابوية - معسكران في الكنيسة]
- ٣٩ ٤ - الحياة الدينية
- [فساد رجال الدين - انحلال البابوية - الفساد في الأديرة - الحالة الأخلاقية لعامة الشعب - العبادة في ذلك العصر - العبادة المريمية - زيارة الأماكن المقدسة - الاعتقاد بكرامات القديسين عبادة الخوف (الأيقونات) - الرهبان يطلقون الشرارة الأولى للأصلاح - فريق الرهبان المصلحين]
- ٥١ ٥ - نظرة على الشرق
- [مجادلات وانقسامات - مشكلة الأيقونات والصور - بوجنا الدمشقي]

١٩٥

(الفترة الثانية - دورة العصور الوسطى)

٥٩

٦ - البابوية في الغرب

[البابا غريغوريوس السابع (هلدبراند) - البابا انوسنت الثالث - الكنيسة مصدر السلطات]

٧٣

٧ - دور على مسرح الشرق

[الحروب الصليبية - أسباب الحروب الصليبية - الحملة الأولى - الحملتان الثانية والثالثة - الحملة الرابعة - اقامة مملكة لاتينية في الشبرق - حملة الاطفال - الحملة الخامسة - الحملة السادسة - الحملة السابعة - الحملة الثامنة - النتائج العامة للحروب الصليبية]

٩٠

٨ - ثروة الكنيسة

[الكنيسة في قائمة كبار الملاك - الكنيسة والمشروعات الخيرية]

(٩٢)

٩ - نظام الكنيسة في العصور الوسطى

[البابا - رؤساء الاساقفة والاساقفة - الكهنة - الرهبان]

٩٧

١٠ - تعاليم الكنيسة واحكامها

[الخل والغفران - المطهر - العقوبات الكنسية - القانون الكنسي والمحاكم المدنية - محاكم التفتيش - نظرة الناس الى الهرطقة في العصور الوسطى]

١٠٤

١١ - نظام العبادة

[نظام الاسرار (سر المعمودية - سر التثبيت - سر التوبة - سر الكهنوت - سر الزواج - سر مسحة المرضى - سر ذبيحة القديس) - الوعظ - عبادة القديسين]

١٠٩

١٢ - الحياة المسيحية

[حياة القادة الدينيين (برنارد كليرفو - دومنيك - توما الاكوينى - فرانسز الاسيسى - رايموندل) - الحياة بين العامة - جبهة معارضة للكنيسة (بطرس والسدو - بطرس دي برويز - هنرى دي لوزان - الالبينون - الكاثاريون - الاخوة)]

١٣ - كلمة الحق

١٤ - الكنيسة الشرقية في هذه الفترة

[الخدمة والعبادة بين الكنيستين الشرقية والغربية -
نشاط الكنيسة الشرقية - الكنيسة النسطورية]

(الفترة الثالثة - اواخر العصور الوسطى)

١٥ - قوى جديدة في الميدان ١٥٩

[تزايد الشعور القومي بين الشعوب الأوروبية - صراع على
السلطة]

١٦ - ماذا في الجانب الآخر ! ؟ ١٦١

[حالة الاكليروس - حال الرهبان - حال الشعب]

١٧ - واهتزت الصورة !! ١٦٥

[في حلبة الصراع - البابوية في السبى - شرح عميق في
الجدار - طابور من الثوار (جيرارد العظيم - يوحنا
ويكلف - يوحنا ميلكز - ميتاس أف جانو - يوحنا
هس)]

١٨ - محاولات للإصلاح لم يكتب لها النجاح ١٨٠

[حاجة الساعة - مبادرة من جانب الكنيسة - مجمع
كونسانس - مجمع بازل]

١٩ - رياح التغيير ١٨٤

[نهضة فكرية شاملة - اكتشافات حديثة - حركات
وتيارات جديدة - حركة احياء العلوم - ارازمس -
اعداد الراى العام - واتضحت معالم الطريق - الظلم
الاجتماعى يلعب دوره]

تَارِيخُ الْمَسِيحِيَّةِ

المسيحية في عصر الإصلاح

للدكتور
عزت زكي



دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية
٣٦ شارع الجلاء - بولاق / القاهرة
تليفون ٩٧١٦٥٥

دار الجيد للطباعة
جمهورية مصر العربية
٩٠٥٤٩٦ ، تلخون ، اقصر اللؤلؤة - الفجالة .



معالم على الطريق

[الإصلاح الدينى مرحلة تطور حاسمة فى التاريخ
- قوى ثلاث فى صف البابوية : النظام الكنسى -
النظام المدرسى - النظام الاقطاعى - نجوم فى الظلام]

الإصلاح الدينى - مرحلة تطور حاسمة فى التاريخ :

يعتبر الإصلاح الدينى الذى ظهر أول ما ظهر فى ألمانيا فى القرن السادس عشر ، أعظم مرحلة من مراحل التطور التى أتت على أوروبا ، فى التاريخ الحديث ، بل على العالم أجمع ، بعد إشراقة فجر المسيحية فى الوجود فى القرن المسيحى الأول . ولا نقول إنه لم تسبقه انتفاضات ، أو لم يظهر قبله مصلحون ، فى أكثر من بقعة من دول أوروبا ، أسهموا بنصيب كثير أو قليل ، فى إيقاظ المجتمع المسيحى ، وبعثه من رقدة وظلام العصور الوسطى على ما قوبلت به تلك الانتفاضات من عنف ساحق ، وثورة للظلام على بصيص النور ، بل نقول إن الإصلاح الدينى فى القرن السادس عشر كان بداية مرحلة ، ونهاية مرحلة . . بداية عهد جديد ، ونهاية عهد قديم . . بداية العصور الحديثة ، ونهاية العصور الوسطى . وما أشبه العالم الكائن حينذاك ببركة آسنة راكدة المياه ، فإذا بالإصلاح ذلك الحجر الذى يلتقى فى تلك البركة الراكدة ، فتتماوج الدوائر المتمركزة المرتعشة إلى الشواطئ البعيدة .

ومع أن الإصلاح كان هدفه الدين في جوهره ، ومفاهيمه ، وتطبيقه ،
ولأجل هذا السبب قامت انتقاضته ، إلا أننا نرى أكثر من دائرة أخرى
تتأثر به في قليل أو كثير : دوائر الفكر والثقافة والعلم والاجتماع ومفاهيم
الحياة بجمليتها - لقد أصبح الفكر الديني المصلح ، بكافة ما أحاط به من
ملايسات ، وما صحبه من تطورات ، القوة الدافعة للانطلاقة الجبارة
في تاريخ الحضارة الحديثة .

ولسنا نقلل بهذا من قيمة البناء القديم بواجهته العريضة . . . ولسنا نغشط حق المؤسسة القديمة ، التي حاولت على ما يبدو ، أن ترسم خطى الإمبراطورية الرومانية القديمة ، جامعة الدول كلها في نطاق واحد ، وثقافه واحدة ، وعلم يعتمد على لغة علمية واحدة ، ومركز إشعاع واحد ، هو روما المدينة المقدسة - تلك الواجهة التي وقفت والحق يقال ، ضد أمواج الغزو العثماني في الشرق ، الذي لو قدر له النجاح لاستطاع أن يصيب دول أوربا بجملتها بصبغته الخاصة ، والتي وقفت أيضاً ضد جمافل العرب المتدفقة عبر مضيق جبل طارق من الجنوب الغربي ، وقدر لها النجاح ه ولكننا نقول إن منطق التقدم الحضارى ، كان لابد وأن يدعو إلى تغيير جدرى شامل . وأن ذلك التغيير كان كززال ترك أكثر من شرخ وصدع فى ذلك البناء الجبار . وأن عوامل كثيرة من الفناء والاضمحلال ، كانت تعمل فى قلب البناء المتداعى ، بحيث أصبح من اللازم والمحتم هدم البناء الساقط ه فلم يعد بعد صالحاً للسكنى ، مع أن مصلحى النظام القديم وفلاسفته ، قدروا أنه من الممكن ضم البناء بسقالات هنا ، وترميمات هناك ، وتغطية لشروحه ، وحماية لأركانه ، لكن كل تلك الجهودات باءت بالفشل ، وأصبح من المحتم قيام بناء جديد على أنقاض البناء المتداعى ه

نعود فنقول إن الإصلاح في القرن السادس عشر ، قد طبع طابعه الفريد على المجتمع الإنساني ، وعلى الأخص دول أوربا ، وكان له من الأثر ، ما كان للقرن المسيحي الأول . وما أجمل أن نضع عصر الإصلاح هنا ، جنبا إلى جنب ، مع القرن المسيحي الرسولي في صورة مقارنة ، فكل من العصرين كان غنيا برجالاته ، غنيا بمفاهيمه الجديدة . . غنيا بإشراقته على الكون . . بنتائج ، وكل منهما كان نقطة تحول حاسمة في تاريخ البشرية . ، وكل منهما امتد أثره عبر الأجيال وتزايد ، ولم توقفه نيران المقاومة والإضطهاد ، وكل منهما شكل المجتمع الإنساني في صورة جديدة ، وأعطى للدين مفاهيمه التي ما عرفتها البشرية من قبل ، وحطم قيود التقاليد وفتح الباب للإنسان لكي يدخل في صلة حية مع المطلق — مع الله — وكل منهما ، نبع من تلاحق أحداث ، واتجاهات في الفكر ، سمحت بها العناية الإلهية ، وأسهمت بنصيبها في البعث الجديد — فالمسيحية في انطلاقتها الأولى ، تمتد جذورها في انتفاضة موسى ومن تلاه من أنبياء ، وما أسهموا به من تراث ، ويمهد لها فيما حدث للشعب العبراني من أحداث عبر التاريخ من سبي وتشريد ، أوصلته في وقت إلى انتصارات الاسكندر الأكبر عليه . ونقول الإسكندر الأكبر ، ونسقط من حسابنا أكثر من حقبة من السبي ، وذلك للأثر العظيم الذي صبغ الفكر العبراني ، نتيجة تلاحمه ، وتلاطمه ، وتفاعله مع الثقافة اليونانية ، ومن سيادة وانتشار اللغة اليونانية في أكثر من منطقة من أرض اليهود . ثم تأتي روما بحمافلها ، وعجيجهها ، وجيوشها وحديدها ونيرانها ، مع قوانينها ورباطها الشامل ، وسلامها . وفي قلب كل هذا وثنيها وتحللها الخلقى وعنفها — وفي وسط هذا كله يتبلور رجاء قديم جديد في الأمة اليهودية ، في أن ساعة الخلاص قد حانت ، وتتجه الأنظار إلى وعد قديم ، وإلى أقوال ونبوات تتردد عن المنسب المنتظر .

ويكون هذا أقوى وأعظم تمهيد لظهور المسيح ، وقبوله من الشعب كالمخلص الأوحى .

حتى إذا أتينا إلى عصر الإصلاح ، نرى أكثر من عامل يمهده ، في فساد البابوية وتدهور الرهبانية ، وجمود اللاهوتية المدرسية ، وعدم ملاءمتها ، وتفاعلها مع الشعب ومتاعبه ، ودائرة الاختبار الإنساني ، ثم محاولة التعويض التي اتجه إليها البعض ، من إندفاع إلى التصوف ، والانحراف الذي اتجه إليه البعض الآخر في مزاوله السحر والشعوذة ومناجاة الأرواح .

حتى نأتى إلى عصر النهضة ، وإحياء العلوم اليونانية والرومانية واختراع الطباعة ، وما كان له من أثر في سرعة انتشار المعرفة ، وترجمة الإنجيل في الأصل اليوناني - وفي مجال الإكتشافات الجغرافية ، كان هناك اكتشاف الدنيا الجديدة ، وما تبعه من اهتزازة في المجتمع ، واندفاع عبر البحار طمعا في الثروات ، واندفاع آخر عبر البحار من فئة أخرى ، لتقديم بشارة الإنجيل هناك .

ثم كان ظهور الروح القومية وتبلورها ، وشعور بالحرية وغيره عارمة للاستقلال - لقد كان صوت القدير في العصر المسيحي الأول ، كما كان قبيل عصر الإصلاح ، يهتف في وسط الخراب . وكان روح الله يرف على وجه الغمر ، والظلمة ، وظلال الموت - ولقد كان القرن السادس عشر بداية عصر النهضة في الدين والعلم والأدب . كان الجو مكهرباً بروح التقدم والحرية ، وبدا وكأن العالم - وحين نتحدث هكذا فنحن نشير إلى المجتمع الأوربي - يستعيد شبابه ، فقد بدأت ثلوج الشتاء تذوب تحت أشعة الشمس . أما المتزمتون المتشائمون ، فقد امتلأوا قلقاً على مصالحهم ومؤسساتهم

مونفوذهم وبدأوا يحاولون اكتشاف ثغرة هنا ، وثغرة هناك . لكن أصحاب
«العيون البصيرة» استطاعوا أن ينفذوا إلى المستقبل الباسم ، وارتسمت
أمامهم رؤيا جديدة . ولعل هتاف أحدهم - فون هاتن الألماني - تعبر عن
هذه الحقيقة : « أيها العصر الجبار ، إن العلوم تزدهر ، والروح تنبسط
بعد سبات - ما أجمل أن نحيا في هذا العصر » ، - وفي عام (١٥٢٢)
كتب لوثر : « إننا لو درسنا تاريخ العالم كله ، فلن نجد قرنا نظير هذا ، منذ
ولادة المسيح ، هذه البناءات والمشروعات - هذه الحياة المزدهرة . هذا
الرواج في الاقتصاد - هذا الازدهار في الفن ، لم تعهده البشرية منذ
إشراقة فجر المسيحية : وكم بدأت العقول تنفتح على كل شيء - حتى الصبي
في العشرين ، يستطيع أن يدرك الآن ، ما لم تستطع أن تصل إليه مجموعة
كاملة من دكاترة اللاهوت في الماضي ، ولقد أمسك الإصلاح الديني ،
بدفعة سفينة التقدم ، والنهضة والتحرر الفكري ، وقادها بنجاح ، أيما نجاح ،
وسط الأمواج والتيارات المتلاطمة ، وأنقذ أكثر من مجتمع من ثورة عارمة ،
نظير الثورة الفرنسية . لأن الإصلاح لم يكن بالكلية ثورة ، ولا بالكلية
تجديداً ، ولو أنه كان يضم العنصرين . فقد كان سلبياً محطماً للخطأ ،
إيجابياً ، بناءً للحق . لقد كان محافظاً ، كما كان يملك الروح التقدمية : فلم يهدم
ويقف مكتوف اليدين ، بل حينما هدم جداراً متداعياً ، أقام مكانه صرحاً
ولهذا قدر له النجاح . ولقد كان العالم الكائن مرتبطاً حينذاك بالكنيسة
اللاتينية - بروما الأم - وكانت روما كما أشرنا ، تضم العالم الكائن تحت
حكومة البابا الروحية وسلطة الإمبراطور المدنية ، برباط العقيدة الواحدة ،
والتقاليد الواحدة ، والنظام الواحد ، واللغة الواحدة المقدسة . ولكن حان
الوقت ، ليشق المجتمع قشرة العصور الوسطى ليخرج الفرخ الوليد إلى
عالم الحرية والازدهار ، والمفاهيم الجديدة في الحياة . ولذلك كانت الحاجة

ماسة بالكلية للإصلاح — فلقد كان فساد ومبازل الكنيسة اللاتينية ، مثار شكوى أفضل الناس من رجالاتها ومؤرخيها أنفسهم — مما دعا إلى التثام المجامع المتكررة ، أمثال مجمع بيزا ، وبازل — وكان هدف هذه المجامع إصلاح الرأس قبل الجسد — ولكن أصبح كل هذا حلماً استمر يراود مخيلات المفكرين ، قرابة قرن كامل من الزمان ، دون أن تحقق تلك المجامع شيئاً يذكر ..

فالبابوية أصبحت مؤسسة عالمية قاسية أنانية ، ازداد نيرها ثقلاً بصورة لا تطاق ، ومع أنه أمكن مؤقتاً رأب الصدع في الكرسي البابوي ومعالجة مأساة «أفتون» ، وإسدال الستار على سنوات السبي البابلي ، إلا أن أخلاقيات البابوات ، بعد فترة من التحسن ، عادت إلى أقسى مما كانت عليه — وإننا نجد بين البابوات ، من كانت له اتجاهاته البعيدة عن الدعوة الدينية ، بل وربما المقاومة للروح الدينية — فالإسكندر السادس على حد تعبير المؤرخ فيليب تشاف ، كان «عائياً في الإثم» . ويوليوس الثاني كان سياسياً مقاتلاً جباراً أكثر منه زاعياً للنفوس . أما الباباليون العاشر فقد كان اهتمامه منصباً على إحياء العلوم الوثنية ، والفن القديم ، أكثر من اهتمامه بالدين ، حتى أنه يقال إنه كان يشك في تاريخية وسلامة الأناجيل .

ولا غرابة أن يسير الكرادلة والكهنة في ركاب رؤسائهم ، ويقل احترام الناس للكهنة والدين على السواء . أما كتابات المؤرخين ورجال الفكر ، فلإنها تفيض بالشكوى من الجهل ، وقباحت الكهنة والرهبان : أما السيمونية فقد كانت شرعة لمن يريد أن ينال كرسيًا كهنوتياً ، أو يحتل منصباً كنسياً . أما الأسقفيات فكانت وقفاً على أبناء الأمراء ، والإقطاع ، دون نظر إلى درجة علمهم أو أهليتهم . أما نذر العفة ، فقد كان ستاراً لكل الموبقات .

وهذا أحد الألمان المعاصرين لعصر^(١) قبيل الإصلاح (١٥١٠) ، يقول إن ألمانيا لم تفعل شيئاً ، سوى أن تجلس على الكراسى الدينية ، كل الجهلاء ، والعالميين . ويقول آخر^(٢) إن الشيطان قد أدخل كل النبلاء إلى دائرة الكهنوت ، وأجلسهم على كراسى الأساقفة .

أما احتلال وظيفتين كنسيتين في وقت واحد ، فقد كان أمراً شائعاً . وأحد الأمثلة كاردينال ولسي رئيس أساقفة يورك ، الذي كان في خدمته خمسمائة من الخدم . أما جيمس الخامس ملك اسكتلندا ، فقد كان له خمسة من الأبناء غير الشرعيين ، أجلسهم كلهم على كراسى الأسقفيات في البلاد .

فلذا أتينا للأديرة ، فإننا نجد ما قد أصبحت دوراً للجهل ، والتخزيبات . حتى أصبحت هدفاً للاحتقار والسخرية . فلذا أتينا للدراسة اللاهوتية ، أو اللاهوت المدرسي ، فإننا نجد يعتمد على الخلاصة اللاهوتية للأكويني وعلى منطق أرسطو ، دون اتجاه إلى تعاليم الإنجيل الجوهرية .

وفي حديثنا عن لوثر ، سوف نرى زميلاً له يدعى كارلستات ، يقول إنه نال درجة الدكتوراه في اللاهوت ، قبل أن يرى نسخة كاملة من الإنجيل . ولقد كان التعليم مقصوراً على طبقة الكهنة والنبلاء . أما الشعب فقد كان غارقاً في الجهل ، لا يعرف من الإنجيل إلا الشذرات التي تتلى على مسامعه في الدروس الكتابية . أما خدمة القديس ، فقد كانت باللغة اللاتينية التي لا يدركها أحد ، وربما قارئها أيضاً .

Geller (١)

Thomas Meiner. (٢)

أما الكنائس فكانت مكدسة بالصور والتماثيل ، ورفات ومخلفات القديسين ، ومعظمها خرافي مصنوع ، نسجت حوله الروايات ، وتعاضمت الخيالات ، والشعب ينساق في التيار دون أن يدري. أما العبادة فكانت تدور حول ترديد الصلوات المحفوظة ، والسلام لمريم ، والأصوام والصدقات والاعتراف للكهنة ، وزيارة الأضرحة وكفى . أما الخطايا فيمكن غفرانها بالمال . وقد نشأت من ذلك تجارة رابحة يباركها البابا ويرعاها . والأسباب الداعية لذلك تبرز بين جيل وجيل . ولعل أقربها لعهد الإصلاح ، بناء قبة كنيسة القديس بطرس ، وقد كانت السبب المباشر ، لتفجير الإنتفاضة على الكنيسة الرومانية .

استمع إلى المؤرخ الألماني موهرل يقول « إننا لا نستطيع أن نغالط أنفسنا ، ونقول إن الكنيسة ما كانت بحاجة إلى إصلاحها . فقبييل عهد الإصلاح ، كانت هناك آلاف الأصوات ، تدعو إلى الإصلاح في الرأس كما في الجسد » .

وهذا هو أدريان السادس — أحد البابوات النادرين في القرن السادس عشر — يدعو إلى انعقاد مجمع نورمبرج ، ويحاول أن يطهر البلاط البابوي ، لكن دون جدوى . أما البابا بيوس الرابع ، فيعلن في أحد المجامع ، أن هدفه هو التطهير الأخلاقي ، وإعادة النظام الكنسي . . على أننا نقول ، إن الكنيسة كانت في حالة أقسى من ذلك ، أثناء الإنشقاق البابوي في القرن الرابع عشر . ومع ذلك فقد استطاع البابا هلدبراند ، ومن أتى بعده ، إصلاح حالتها دون ما حاجة إلى تغيير في أساس التعليم ، أو عقيدة الكنيسة . . فلماذا لم يحدث هذا في القرن السادس عشر ؟ ذلك لأن روما في ذلك العصر ، قاومت كل أساس للإصلاح ووقفت بكل عنف

فى وجه الدعوة إلى ذلك . فلم يبقَ هناك من بديل ، إلا أن يأتى الإصلاح من الخارج ، ويصبح انتفاضة على الكنيسة وثورة عليها . . لقد استخدمت روما كل ما فى أيديها من أسلحة النار ، والحديد ، والسلطان السياسى ، والضغط الدبلوماسى ، والإضطهاد المرير . . لقد فعلت ما فعلته أورشليم مع رب المجد ، حينما أعدت له صليبا سمرته عليه ، وأغلقت أبواب الجامع فى وجه تلاميذه . .

على أننا لا ينبغى أن نتذرع بالنظرة القصيرة لمنطق التاريخ والأحداث ، فخلف كل هذه ، كانت إرادة الله التى تعمل من وراء الستار . . ولقد شئت تلك الإرادة الصالحة أن يقوم صرح جديد . خارج نطاق البناء القديم . . أن تقوم مسيحية جديدة فى وجه مسيحية روما المغلقة العاتية الجبارة . . وكل حركة فى التاريخ ، نستطيع أن نحكم عليها من ثمارها .

لكننا بخائب الصواب إذا قلنا ، إن الإصلاح الدينى فى ألمانيا ، كان نبتة فجائية ، لم يسبق لها مثيل ، ولم يترعرع فى تربة البشرية نظير لها من قبل . .

فقبل لوثر وزونجلي ، كانت خميرة الإصلاح تعمل عملها فى المجتمع وكما قام التلاميذ ، بل المسيح نفسه ، من قلب الكنيسة اليهودية ، هكذا قام ، من أحضان الكنيسة الكاثوليكية ، أولئك الذين قدر لهم أن يكونوا رواد الإصلاح ، وأن ينبشوا أكداس النفاية والتقاليد التى تراكت على الزنبوع الأصيل ، فيعود ينبوع إنجيل المسيح إلى التدفق والنقاء .

لقد كانت الكنيسة الكاثوليكية ، على ما اعترافها من عيوب ، كنيسة الله الحى .

نقول بأن كافة المصلحين وُلدوا في أحضان هذه الكنيسة ، ونالوا المعمودية هناك على أيدي كهنتها ، وتعلموا في دائرتها ، بل إن البعض منهم قام بالخدمة أمام المذبح في هياكلها . وجميعهم أقسموا يمين الولاء للجالس على كرسي روما – لقد كانت صلتهم بالكنيسة شأن صلة الرسل والتلاميذ . بالهيكل اليهودي والمجامع اليهودية . ولأسباب ملزمة ، اضطروا هؤلاء كما اضطروا للتلاميذ الأولون إلى إدارة ظهورهم للكنيسة الأم ، أو إن صح التعبير ، كان مصيرهم الطرد من ربوعها – ولقد كان هدف الإصلاح أن يرجع إلى الينابيع الأولى ، لينال دفعة التقدم للأمام . لقد امتدت جذوره في أعماق القديم ليثمر أثمار المستقبل الفتية .

ولهذا وجد الصدور الرحبة والعقول المفتوحة – ولهذا قوبل بالحفاصة الفائضة من قادة الفكر والدين ، في أكثر من مجتمع ، بل من رجال الحكم والساسة أنفسهم – ولم يحدث في تاريخ المسيحية أن لقيت حركة مثل هذا القدر من الترحيب ، عدا العصر الرسولي الأول ، وما لقيته إشراقة فجر المسيحية – ولقد أسهمت أكثر من حركة سابقة في إعداد القلوب والأذهان ، ومهدت الطريق لعصر الإصلاح العظيم . فهناك من الأسباب السياسية ، وسنعرض لها في الفصل التالي ، من صراع بين الأباطرة والبابوات ، كما كانت هناك أكثر من محاولة من رجال الكنيسة في كل مجتمع للسيطرة والوقية والدس ، وهناك من الأسباب الاجتماعية ، مثل سيطرة الإقطاع ، والعبء الواقع على الطبقات الفقيرة ، وهناك ما أسهمت به المجامع في إيقاظ الوعي ، أمثال مجمع بيزا ، وكونستانس ، وبازل – وهناك جماعات التأمل الباطني أو المتصوفة الذين نبذوا القشرة الخارجية للدين ، ليفقدوا إلى الصلة المباشرة مع الله – وهناك أكثر من حركة من مصلحين ظهوروا قبل الإصلاح وجماعاتهم أمثال ويكليف والولارديين .

في إنجلترا ، وهوس والهوسيين في بوهيميا ، وجون فون جوخ وجوهان
وصل في ألمانيا والأراضي المنخفضة وسافونارولا في إيطاليا والولد نسيين
وأصدقاء الله وغيرهم . لقد كانت روح الكنيسة تتجه إلى عهد جديد .
ولم يكن هناك مبدأ أو عقيدة تداولها الإصلاح ، أو نادى بها ، لم يسبقه
إلى تداولها ، أو المناداة بها ، وربما الاستشهاد في سبيلها ، واحد
أو جماعة في القرن الرابع عشر أو الخامس عشر . ولقد قال لوثر إن
نقاده ربما يوجهون إليه النقد بأن كل ما دعا إليه ، قولا أو كتابة ، قد
استفاه من « جون وصل » — لقد كان الوقود في كل دولة من أوروبا ولم
يكن الأمر يستدعى أكثر من شرارة فيشتعل الوقود .

وسنعالج في الفصل التالي الخلفية السياسية والاجتماعية للإصلاح —
أى الحالة التى كان عليها المجتمع الأوربي ، قبيل إشراقة عهد الإصلاح .

القوى ثلاث في صف البابوية :

النظام الكنسى :

حين نعرض للقوى التى كانت في صف البابوية ، فإننا نستطيع أن
نركزها في صور ثلاث ، سنتناولها الواحدة بعد الأخرى بالبحث
والتحليل ، وهى النظام الكنسى ، والنظام المدرسى والنظام الإقطاعى —
فإذا بدأنا بالصورة الأولى ، أى النظام الكنسى الذى كان سائدا قبيل عهد
الإصلاح ، فإننا نقول إن المسيحية في الغرب ، كانت خاضعة لنظام
كنسى واحد ، الكنيسة الكاثوليكية — وفي واقع الأمر كانت تلك
إمبراطورية كنسية مترامية الأطراف ، عاصمتها روما ، ورئيسها البابا
المتربع على عرشها — وفي الأجيال السابقة كانت هناك انقسامات ،
ولفترة من الفترات كان هناك أكثر من بابا تدين له المسيحية بالطاعة ،

مثلاً كان الحال في سنوات السبي البابلي . ولكن بعد متاعب كثيرة «
ومجامع عقدت ، تمكنت الكنيسة من رأب الصدع ، وعادت إلى وحدتها
مرة أخرى :

ولقد كانت أوروبا مقسمة إلى مناطق كنسية ، على رأس كل منها
رئيس أساقفة . وكل منطقة أو ولاية ، كانت مقسمة إلى دوقيات
(Dioceses) ، كل منها يرأسها أحد الأساقفة — والدوقيات
كانت مقسمة إلى أبرشيات (Parishes) وكل أبرشية على رأسها
كاهن . وهكذا كانت هناك شبكة من النظام الكنسي تغطي كل أوروبا ،
كل خيوطها تتجه إلى روما ، ويمسك بها البابا وكرادته .

أما تلك الإمبراطورية الكنسية ، فقد كانت في واقع الأمر في
تحرر كامل ، من القوى المدنية في كل دولة أو مجتمع — لقد كانت
أعلى من الملوك في مستواها ، وفوق الأباطرة والأمراء . فهي قديمة قبل
العروش والممالك ، والملوك أنفسهم كانت تهتز عروشهم إن هم حاولوا
الوقوف ضدها ، ولذلك كان عليهم أن يخنقوا لها الرؤوس ويخطبوا ودها :
وفي نفس الوقت ، كان هذا النظام داعية لطبقة الإكليروس إلى التكبر والتعالى ،
على النظم المدنية ، والمجتمعات التي يعيشون فيها ، لأنه حتى في حالة
ارتكاب جريمة ، لم يكن من الممكن محاكمتهم على أساس القوانين السائدة في
البلاد — لقد كانوا يجاهدون للإبقاء على قوانينهم الخاصة بهم . والتي
تسرى عليهم . وكانت محاكمتهم تتم في بلاط كنسي . ونظير بولس الذي
قال قديماً « إلى قيصر أنا رافع شكواي » ، كان للواحد منهم الحق ،
في طلب عرض قضيته في روما — لقد كانوا خاضعين ليس للتاج «
بل للبابا .

وبالإضافة إلى رجال الكنيسة ، كانت هناك طوائف كثيرة من الرهبان والإخوة . وأولئك وعلى الأخص هيئات الدومنيكان والفرنسيسكان كانوا ينتشرون في المجتمعات انتشاراً كبيراً . وفي أكثر المدن كان لهم أكثر من دير ، وكان عددهم من الكثرة ، بحيث أصبحوا يكونون قوة متماسكة تحت رعاية البابا ، تفوق في سلطانها ، قوة رجال الكنيسة أنفسهم .

ومن الضروري لنا أن نلاحظ ، مدى أثر هذا النظام الكنسي ، على الممالك والشعوب . فقد كان رجاله يمسكون في أيديهم السلطة الدينية والديوية معا - وكان في حوزتهم مفاتيح السماء والأرض - فقد كانوا يقومون بعمودية الأطفال ، وعلى الرغم من أنه لم يكن لهم الحق في عقد الزيجات ، كانت كل الزيجات تتم على أيديهم . فإذا جاءت الساعة الحاسمة في حياة كل إنسان ، كانوا هم الذين يغمضون أعين الموتى . ولهم الحق في تقرير ما إذا كان المتوفى ، يجوز له أن يدفن في مقابر الكنيسة ، أم أن جسده يدنس ترابها ، لكونه منحرفاً عن تعاليمها ، ولذلك كان يحرم من هذا الإمتياز . أما تركة المتوفى ، وتوزيعها ، فقد كانت من حقهم . فإذا ظهرت وصية له ، فعلى الورثة أن يثبتوا ذلك في البلاط الكنسي - والويل ، لمن تحدته نفسه بأن يثور على نظام الكنيسة ، أو أن يقف في وجهها ، لأنهم عندئذ كانوا يسلمونه للسلطة المدنية ، لإصدار الحكم عليه ، ثم يكون نصيبه عامود (خازوق) الإحراق . بعد ذلك في الميادين العامة : أما السلطة المدنية ، فما كانت تعمل إلا في خضوع لأوامرهم ، ومؤامراتهم . ومن هنا نلاحظ أية قوة كانت لهم على العقول والأذهان ، كما على الحياة ، والمصير ، والمرقد الأخير .

وكان المال الذى يعود على أولئك كبيراً جداً . فقد كان لهم الحق فى العشور ، أى عشر الدخل ، والمحاصيل والثروة الحيوانية ، وكل شيء باسم الجمع لمصاريف الكهنة ، والكنائس ، وإصلاح الأديرة ، وغير ذلك . وكان هذا النظام سائداً لمصلحتهم منذ مئات السنين . زد على هذا ، ما كانوا يحصلون عليه لقاء كل ممارسة كنسية يقومون بها ، من عماد ، وزيجة ، وصلوات على الموتى ، وغير ذلك . أما الأخوة الرهبان فقد كان نظام الرهبنة يقضى ألا تكون لهم رواتب ثابتة . ولذلك كان عليهم أن يكسبوا قوتهم بالاستجداء من البيوت ، حتى أنهم لقبوا بالإخوة الشحاذين . ولكن ذلك لم يمنع من أن يصبحوا من الأثرياء . فقد كانت تنال عليهم النذور ، وكان الناس يعطونهم بسخاء ، لقاء صلواتهم وعظاتهم . كما كانوا يعتقدون أنهم بأكرامهم ، ينالون الخلاص والحياة الأبدية . ولذلك كان الأثرياء يوقفون عليهم الأوقاف — وعلى الرغم من القوانين التى كانت تسنها الحكومة ضد هذه التصرفات ، فإنه يقال أن ثلث أراضى أوربا كان فى حوزتهم .

وهكذا كانت ثروات رجال الكنيسة والرهبان ، وما يتدفق عليهم ، أكثر من ثروات ملوك وأمراء أوربا .

على أن هذا لم يكن فقط هو سر قوتهم ، بل كان هناك عامل آخر : الثقافة . فقد كان أولئك هم الطبقة الوحيدة المثقفة فى المجتمعات الأوروبية . وعلاوة على مراكزهم الكنسية ، كان منهم المحامون ، والدبلوماسيون ، والسفراء ، ورجال البلاط ، وحتى رؤساء الوزارات . وكانوا متغلغلين فى كافة مجريات السياسة ، ومقاليد الأمور ، فى معظم البلدان كانت بين أيديهم . ولأجل خدماتهم السياسية — كثيراً ما كانوا يكافأون برئاسة

«الأسقفيات هناك... وعلى هذا الأساس ، نستطيع أن نرى كم كان لذلك النظام من القوة والسيطرة على مقدرات الشعوب وعلى مصائرهما .
«فالبابا برجاله المسيطرين المنتشرين في كافة الدول ، يمسك بكل خيوط التأثير على مجريات السياسة في أوروبا بأكملها . وقد كان ممكناً أن يستغل ذلك النظام المتكامل لصالح تلك الدول ، لانتشار المسيحية وتقدمها ، لو أراد ذلك . ولكن شكوى أفضل الناس في تلك العصور ، أن ذلك التأثير السياسي ، كان موجهاً لتحقيق الخير لزوماً فقط . وأن فيض الأموال كان يتدفق على خزائن البابوات والكرادلة هناك .

ولقد كان لمثل هذا الوضع أثره ، في تعطيل نمو وتقدم واستقلال تلك الدول ؛ ووضع العراقيل أمام شعوبها ، في طريق الوحدة القومية ، والكيان الراسخ الثابت .

وعلى هذا فقد كان من ثمار عهد الإصلاح ؛ تحطيم ذلك النظام «التيوقراطي المستبد ، وتحرير كل أمة من نيره القاسي ، وفتح الطريق أمام تلك الأمم إلى الظهور ، والتحرر ، والكيان القومي المتميز - فلن تكون روما بعد عاصمة كل الدول ، بل يكون لكل دولة كيانه ، وصيغتها ، وقوميتها وكل شيء .

النظام المدرسي :

أما النظام الثاني الذي كان يقف ظهيراً للبابوية الرومانية فقد كان هو النظام المدرسي .

وكان ذلك النظام من أقوى الدعائم التي استندت عليها روما ، في ظهور طبقة متميزة موالية لها ، ودافعة إلى تفكك الشعوب ، لكي تصبح هي القوة المسيطرة الوحيدة ، عن طريق تلك الطبقة .

فلقد كان العالم المثقف ، عالما قائما بذاته آنذاك ، منفصلا متميزا عن كافة الطبقات — وكان كافة المثقفين يتحدثون لغة واحدة ، هي اللغة اللاتينية ، ويكتبون بتلك اللغة كافة كتبهم ، ورسائلهم . وكانت تلك هي لغة روما . كثير منهم هجر لغة بلاده التي ولد فيها ، وأصبحت روما عاصمة العالم المفكر ، وهكذا اقترن العالم الثقافي بالعالم الكنسي . وأصبح المثقفون ينظر إليهم كتابعين لرجال الكنيسة ، يتمتعون بنفس رعاية البابا ، ويعتبرهم أبناء ضمن دائرته الإمبراطورية .

ولننا نرى أنه إذا أدين شخص بتهمة أو جريمة — وهذا المثل نستقيه من تاريخ إنجلترا لقرون عديدة — واستطاع أن يثبت أنه يعرف القراءة والكتابة فإنه عندئذ تكون له نفس مزايا رجال الكنيسة ، وتحال أوراق قضيته إلى البلاط الكنسي ، ليحاكم أمام زملائه من رجال البابا . وهذا كان معناه الإعفاء من سلطان القوانين الوضعية للبلاد — هذا أعطى للمعرفة صبغة مدرسية إكليريكية ، إذ ارتبطت المعرفة والثقافة ، بالقوانين المدرسية التي تبلورت في تلك العصور ، التي كانت فيها المعرفة والثقافة وقفا على رجال الإكليروس فحسب — أو بكلمات أخرى نقول ، إن المدرسين في العصور الوسطى ، كانوا ينظرون إلى كل مفاهيم العلم والحياة والوجود . بمنظار الفكر الديني السائد آنذاك ، بل نكاد نقول إن كافة صور المعرفة ، قد أصبحت جزءا من اللاهوت . فالأرض إن كانت واقفة ، أو متحركة حول محورها ، والشمس إن كانت ثابتة في مكانها ، أو تدور حول الأرض ، وكذلك الأرض إن كانت كروية أو مسطحة — كل هذه الأمور وغيرها ، كان ينظر إليها ، ويحكم فيها من خلال آيات من الكتاب المقدس ، بدلا من إخضاعها لمنطق البحث العلمي المنزه ، والإستنتاج المبني على المعرفة والاكتشاف والاختبار

العلمي . وكل واحد تحدّثه نفسه ، بأن ينادى باكتشاف جديد ، في
أى ميدان من الميادين ، كان عليه أن يثبت صحة اكتشافه أو اختراعه ،
بما يؤيد ذلك من الكتاب المقدس . وإلا حقت محاكمته ، وحل عليه
العقاب ، وليست قصة جاليليو ببعيدة عن الأذهان ، فإذا أتينا إلى مفاهيم
المسيحية نفسها ، فإننا نرى أن الديانة ، بدلا من أن تكون قوة وحياة
لأصحابها ، كما كانت في أيام الرسل ، وعصر المسيح ، تحولت تحت
النظام المدرسى ، إلى مجموعة من الفرضيات والنظريات الفلسفية ،
وامتزجت إلى حد كبير ، بالأفلاطونية والمنطق الأرسطى ، وكتاب
اللاهوت المدرسى الذى كان يدرس للطلبة آنذاك ، كان مجلدا ضخما
يصل إلى ما يزيد على الألف صفحة .

وهكذا اتجه النظام المدرسى إلى أن يجعل العلم ، والدين ، وقفا على
طبقة رجال الكنيسة ، وبعيدا عن متناول جمهرة الشعب ، الذين كانت
اللغة اللاتينية بالنسبة لهم لغة بائدة — وفي الوقت عينه ، اتجه ذلك النظام
إلى جعل الثقافة ، حتى بالنسبة للعالم المثقف ، فى إطار النواميس المدرسية ،
ومقيدة بقيودها — وعلى ذلك فقد كان من مهمة عصر الإصلاح أن يحطم
تلك القيود ، وأن يفتح الباب على مصراعيه للجميع ، للعلم والمعرفة ،
وأن يحرر عقول البشر ، من الأغلال المدرسية والكهنوتية . فالتحرر
العلمي ، نظير التحرر الدينى ، لازم كل اللزوم للإنسان . وبدون هذا
التحرر ، لن يقدر للإنسانية أن تسير فى مضمار الرقى والتقدم
الحضارى .

ولقد كانت جامعات أوروبا مراكز إشعاع العالم المثقف . وكان هناك
ما يقرب من أربعين من تلك الجامعات ، تنتشر فى كافة أنحاء أوروبا .

وكلها مرتبطة إحداها بالأخرى . وكانت أعرقها جامعات أوكسفورد وكمبريدج في إنجلترا ، وباريس وأورليانز في فرنسا ، وبولونيا وبادوا في إيطاليا ، وكولونيا في ألمانيا . وكانت ترجع إلى قرن أو يزيد من الزمان . وأحدث تلك الجامعات ، كانت جامعة ويتنبرج ، التي يرتبط اسمها باسم المصلح الألماني لوثر . وقد قام بتأسيسها منتخب سكسونيا عام (١٥٠٢) .

وكان الطلبة على عادة التنقل من جامعة لأخرى . فطلبة أوكسفورد يمكنهم الالتحاق بجامعة باريس ، أو كولونيا ، لنوال دراسات تكميلية أو مؤهلات أعلى ، وحينما يوجد أستاذ شهير في جامعة من الجامعات ، كان الطلبة يتوافدون عليه ، من كافة أرجاء أوروبا ليتعلموا على يديه .

ولقد كان لهذا أثره البعيد المدى ، في انتشار دعوة الإصلاح ، في أكثر من عصر ، وقطر .

لنأخذ على سبيل المثال ، ويكيليف ، وحركة الإصلاح التي تزعمها في القرن الرابع عشر .

فلقد كتب كتاباته ورسائله باللاتينية في أوكسفورد . وحينما كتبت ، كان الطلبة ينقلونها بخط اليد ، وتنشر عن طريقهم في كافة أرجاء أوروبا . وكان طلبة أوكسفورد ينتقلون إلى براغ لنشر أفكاره ، وكانت كتاباته تقرأ وتناقش في بوهيميا ، كما كانت تدرس في إنجلترا وعلى هذا الأساس قام هس ، وجيروم هناك ، ليصبحا نظير ويكيليف الإنجليزي ، ويزعما حركة الإصلاح في بوهيميا . أما المناقشات التي كانت تدور بين جدران الأكاديميات ، فلم يعدم أن يتسرب البعض منها ، إلى عامة الشعب .

وتنتشر في المجتمعات ، ويكون لها أثرها . وهكذا نجد أنه على أساس دعوة ويكلييف وأفكاره في إنجلترا ، قامت الحروب الهسبية في بوهيميا ، كما قامت جماعات اللولاردز في إنجلترا .

وما حدث وقت أن كانت الطباعة غير معروفة ، انتشر وازداد ، في عصر اخترعت فيه الطباعة .

وسوف نرى في عهد الإصلاح ، كيف أن روح العلم والمعرفة ، قد انتشرت من جامعة إلى أخرى ، لتشجيع به عقول الشعب في كافة أرجاء أوروبا ، في نهاية الأمر .

إن ارتباط النظام الكنسي بالنظام المدرسي في ذلك الحين ، قد كيف بصورة واضحة ، الجو الذي فيه تفرخ حركة الإصلاح وتكاثر ، كما تنمو الحميرة الصغيرة في قلب العجين ، وتجعله يختمر كله — لقد يسرت ومهدت الطريق للإصلاح . فلم يعد للمسافات والأبعاد وفروق الجنس ، واللغة ، أى تأثير . لقد وحدث روما البابوية العالم المثقف ، كما وحدث الشعوب كلها ، في إطار واحد ، تماما كما حدث في وقت إشراق فجر المسيحية ، حينما كانت روما القيصرية ، رابطة العالم كله ، بطرقها ، وقوانينها ، وسلامها الروماني ، في وحدة متكاملة ، فسهلت الطريق لرواد المسيحية الأولين ، لنشر الدعوة بين الشعوب بلغة واحدة هي اليونانية — وهكذا قامت حركة الإصلاح ، التي لن تصبح فيها روما بعد سيدة المدائن ، ولن تكون اللغة اللاتينية بعد ، هي اللغة العلمية المقدسة ، ولن تذوب الدول والأجناس والشعوب ، في وحدة ثيوقراطية مستبدلة . فسوف يكون لكل دولة كيائها وقوميتها ، ولغتها وثقافتها وأدبها ،

وكذلك كنائسها ، ورجال الدين المنتمين إليها ، وهذا كله سوف يكون من ثمار حركة الإصلاح .

النظام الإقطاعي :

ولم يكن جانب النظام الكنسي ، والنظام المدرسي ، كان هناك النظام الإقطاعي . يقف سنداً للبابوية . وكان هذا النظام من أقوى الدعام ، التي تربط المجتمع الأوربي بالنظام القديم . كما كان له أثره ، في تأخير ظهور الدول المتحررة ، عن طريق تفكك المجتمعات هناك ، وتضارب الطبقات ، وقيام أكثر من إمارة يحارب بعضها بعضاً .

ولقد كان كل إقطاعي ملكاً صغيراً في دائرته — له بلاطه ، وحاشيته وجيشه ، وفرسانه ، كما كان له الفلاحون والأتباع والعبيد . وكثيراً ما كان يشعر من يشعر في نفسه بالقوة ، حرباً على الإقطاعيين الآخرين ، في الوقت الذي لا يسلم فيه من غزوات من هم أكثر قوة منه — وتدوم الحروب والمنازعات لسنوات عديدة — على أن ذلك النظام الإقطاعي ، كان قد بدأ يتصدع في أكثر من مكان ، كما كان قد انتهى عهده في البعض الآخر — واستسلم لسلطان التاج — وشيئاً فشيئاً عبر الأجيال ، استطاع البعض من كبار الإقطاعيين ، أن يزدادوا قوة ، في الوقت الذي دب فيه الضعف والتدهور ، إلى الصغار . وفي البلدان التي كان نظام التوريث فيها يتجه إلى الوريث الواحد ، اتحد النبلاء ، وازدادوا ثراء وقوة ، بالتصاهر ، أما العائلات التي تنتمي إلى الأسرة المالكة ، فقد كان من تعاضم شأنها ، أن ابتلعت الكثير من الأسر الأقل شأناً ، كما كان الحال في فرنسا .

ولكن الأمر كان على النقيض من ذلك في ألمانيا ، حيث نرى اتحاد

الإقطاعيات يأخذ فترة أطول . ذلك لأن نظام التوريث ، كان يتجه إلى تقسيم التركات بين الأبناء الذكور ، مما زاد في تفككها ، وأعاق تقدم الأمة نحو الوحدة ، وعرضها للحروب الأهلية الطاحنة لعشرات السنين ؛ ولكننا بوجه عام نستطيع أن نقول ، إن نظام الإقطاع كان يخطو إلى نهايته ، في كل بقعة من بقاع أوروبا .

ولقد كان هناك عامل آخر لنهاية الإقطاع ، ذلك هو التجارة — فلقد تركز النشاط التجاري في المدن الكبرى . كما كانت المدن الصغرى مراكز التسويق بين الفلاحين وبين كبار التجار . ولقد كان لهذا النشاط أثره ، في أن يهجر كثيرون من الفلاحين أراضيهم ، ويعملوا في المدن ، زد على ذلك أن المصالح التجارية كثيراً ما كانت تتعطل ، بسبب الحروب التي كانت تثور بين أمراء الإقطاع . فالطرق تقطع ، والتجارة تتعطل والقوافل التجارية إن قدر للبعض أن يغامر ويعرض تجارتها للهجوم ، والنهب من الأعداء ، فعليه أن يحميها بحراسة قوية . وهذا كان يزيد في ارتفاع الأسعار — كل هذه العوامل دفعت بالمدن الكبرى ، التي كانت تعتمد على التجارة ، إلى كره الإقطاع ، ومحاربتة بكل الوسائل . وحينما ظهرت سلطة التاج ، كانت المدن هي أقوى الدعائم ، في تأسيس وتثبيت أركان الملكية ، وكان الملوك يدعون التجار والحرفيين وكافة الهيئات في المدن ، إلى إرسال مندوبين عنهم إلى البرلمانات والمجالس النيابية ؛ لعرض وجهة نظرهم . طائفة أخرى وقع عليها الضرر أقسى الضرر بسبب الإقطاع ، تلك هي طائفة الفلاحين .

نجوم في الظلام :

ولن نعرض لتلك النجوم التي تألقت في ظلام الليل ، إلا بالقدر الذي نصل به بين الماضي والحاضر ، بين عهد ولى ، وعهد أوشك أن

يشرق فجره . فلن يعدم الليل ، بعضاً من النجوم . ولن يترك الله نفسه بلا شاهد حتى في أحلك ساعات الظلمة — ولقد ظهرت محاولات للإصلاح الذي نحن بصددده ، واتخذت أكثر من صورة . كان البعض منها يتجه إلى إصلاح الرأس ، والجسد دون الروح . لقد اتجهت في واقع الأمر ، إلى تشذيب الفروع النافرة عديمة الثمار ، وقطع الأغصان الميتة ، دون تغيير لجذع الشجرة ، وكانت تتجه إلى إزالة الأخطاء الظاهرة ، مثل المظالم ، وعجرفة البابوية ، وفساد الكهنوت وكفى . بينما كان الأمر يحتاج إلى تغيير النبع أولاً — إلى تغيير العقيدة — إلى انقلاب جذرى . وإلا فما جدوى المناداة بإصلاح الظاهر ، والقلب يسرى فيه السم . إن جميع الجامعات التي انعقدت سواء في بازل ، أو كونستانس كانت مجامع إصلاحية ، هدفها الإصلاح . ولكننا نجد المؤتمرين حتى في هذه الجامعات ، يدينون من كانوا ينادون بالإصلاح الحقيقي مثال ذلك مصلحو كونستانس ، نراهم يدينون جون هس ، ويحكمون عليه بالموت كما تقدم في المجلد الثانى من تاريخ المسيحية .

نقول إننا لن نعرض لمثل هؤلاء ، والبعض منهم ظهر في فرنسا ، أمثال « بيتر دايلى » و « جون شارليير » و « لويس من الماند » والأخير كان يحتل مرتبة كردينال ، ولن نعرض لإخوتهم ونظائريهم في ألمانيا ، والذين لقبوا بأصدقاء الإصلاح ، أمثال « ثيودور من نيم » و « جريجورى من همبورج » و « نيقولا كوسه » وغيرهم — ولكننا في سطور قلائل سوف نعرض لثلاثة من النجوم ظهروا في آفاق وظروف متباينة ، وكانوا يسرون في نفس الخط الذى سار فيه الإصلاح في ألمانيا على يدى رائده الأكبر « لوثر » ، حتى أننا نستطيع أن نلقبهم بالمصلحين الإنجيليين — وسوف نكتفى هؤلاء ، حيث أننا عرضنا في المجلد السابق لجهودات ويكلييف

في إنجلترا ، وحركة هس والمسيين في بوهيميا ، وحركة الإخوة المورافيين ، التي ارتبطت بالوالد نسيين في مورافيا .

وأول من سنعرض لهم من هذه النجوم راهب دومنكاني ، ولد عام (١٤٥٢) وغاش في إيطاليا ، ويدعى اسمه سافونا رولا ، ولقد كان مبشرا قويا ، وجسورا لا يقف في وجهه شيء . ويكنى دليلا على جرأته قوله « لقد كان للكنيسة من قبل قساوسة من ذهب وكؤوس من خشب أما الآن فالكؤوس صارت من ذهب ، والكهنة من خشب . إن صورة الدين الخارجية والبراقة قد غطت على الحالة الداخلية الروحية وأفسدتها » . وكان من نتيجة خدماته ونشاطه أن الحالة تغيرت في فلورنسا ، وأن الفلورنسيين ، ظهرت فيهم روح البساطة والوداعة .

والنهاية كانت كما يمكن أن يتوقعه أي مفكر عاقل : قبض عليه بمكائد البابا اسكندر السادس مع اثنين من أصدقائه ، وشنق الثلاثة عام (١٤٩٨) ثم أحرقت جثثهم ، وذرى رمادهم في نهر الأرنو .

ويبدو أن غلطة سافونارولا ، وهي نفس الخطأ الذي وقع فيه مصلحو تلك الآونة ، كانت جمعه بين السياسة والدين ، ومحاولته إثارة الشعب بكافة الوسائل . ولكننا نلتمس له العذر بسبب الظروف التي عاصرها .

النجم الثاني يدعى « جون ويزاليا » من جامعة إرفورت ، وقد جلب على نفسه غضب روما ، بسبب جرأته ومناذاته بأن الخلاص بالنعمة وليس بالإنخراط في الرهبنة ، أو زيارة الأماكن المقدسة أو مسحة الزيت ، أو حل الكاهن : وأن البابا والأساقفة ليسوا واسطة للخلاص - ولقد ألقى

القبض عليه عام ١٤٧٩ ، وحوكم أمام مجلس كهنوتي ، رغم شيخوخته ومرضه : وصدر الحكم عليه بالسجن ، حيث وافته المنية بعد قليل .

والنجم الثالث من أهالي هولندا . وهو أقوى شخصية ظهرت مباشرة قبل الإصلاح . ومن أشهر فلاسفة القرن الخامس عشر . وكان لمركزه كأستاذ في جامعات كولونيا ، وهيدلبرج ، وغيرها ، أثره في نشر تعاليمه بين المثقفين ، كما أنه ما كان يدخر وسعا في التشهير بالبابوية وتعاليمها وفسادها . ولقد اختير أيضاً استاذاً للعبرية في جامعة باريس ، وهناك نشر تعاليمه : ويدعى اسمه « جون ويسلاس » — ويكفي أن ندلل على عظمة ذلك الإنسان ، أن نثبت ما كتبه عنه مارتن لوثر عام (١٥٢٢) في مقدمة أحد مؤلفاته يقول :

« لقد كنت أظن أنني أقف فريداً وحيداً في حربي مع وحوش وجبابرة صكوك الغفران والمنشورات البابوية ، حتى أنني كدت أمتلىء باليأس ، من حربي مع أنبياء البعل ، وأتركهم وأنزوى بعيداً — ولكن وأنا في هذه الحالة ، إذا بي أكتشف أنه يوجد في الخفاء ، بقية لشعب الله وأرى برهانا على ذلك في كتابات « جون ويسلاس » وكما في حالتي هكذا في حالته أيضاً ، أقول إنه لا يمكن أن يقال عنا ، إننا تلقينا تعاليمنا من البشر . ولو كنت قرأت كتاباته من قبل ، لكان قد قيل عني إنني أتلقى تعاليمي منه ، لما بين مبادئ ومبادئه من اتفاق تام في العاطفة والشعور ، وحتى في نفس الكلمات التي كان يستخدمها ذلك الشخص ، الذي عاش في عصر غير عصري ، وفي ظروف غير الظروف التي عرضت لي . أما عن نفسي ، فإنني أقول ، إنني لا أستمد لذة فقط من تعاليمه ، بل قوة .

وتشجيعاً - وإنه لمن المحال على أن أشك لحظة ، في صحة التعاليم التي ناديت بها ، بعد أن رأيت التوافق العجيب بيني وبين ويسلاس ، ومن الأمور التي تدعو إلى الدهشة والغرابة ، أن يقضى ذلك الرجل العظيم ، والأستاذ الجامعي حياته ، على الرغم مما نادى به من تعاليم هـ في هدوء ، وأن يرقد في سلام ، بعد أن بلغ السبعين من العمر (١٤٨٩) وكانت آخر كلماته « شكراً لله . لم أعرف شيئاً إلا يسوع وإياه مصلوباً » .

هذا وتضييق الصفحات عن أن نعرض لآخرين مثل « الريك فون هاتن » الألماني و « روخلين » ، وغيرهما . فقد حان الوقت لندخل في موضوعنا الرئيسي - وهو الإصلاح على يد المصلح الأشهر مارتن لوثر .



٢

هكذا كانت الامبراطورية الألمانية

[هكذا كانت الامبراطورية الألمانية - راهب
ويتمبرج - بائع الففرانات - اصلاح أم ثورة ؟ -
الثورة ختام قصة]

في سياق الحديث من قبل ، أشرنا إلى أن ألمانيا كانت أبعد الكل ،
بعد إيطاليا . عن الترابط والوحدة القومية . لقد كانت تسمى نفسها
« الإمبراطورية الرومانية المقدسة » ، ولكنها كانت أبعد الكل ، عن أن
تكون إمبراطورية متماسكة . فقد كانت تنسب إلى النظام القديم ، مرتبطة
به كل الارتباط . ونظير بابا روما ، كان الإمبراطور الألماني ، على
الرغم من أنه كان يملك ولا يحكم ، يلعب نفسه بقيصر ، حامى حمى
المسيحية ورأسها ، ويفرض نفسه حاميا ، ومدافعا عن كل الدول ،
خارج نطاق بلاده . وكما أن بابا روما هو الرئيس الروحي ، هكذا كان
إمبراطور ألمانيا ، يعتبر نفسه الرئيس الزماني لكل الشعوب المسيحية . ولنا
لنجد سويسرا قبيل عهد الإصلاح وقد انسحبت عن الإمبراطورية الألمانية .
بل نجد إنجلترا ، وأسبانيا ، وفرنسا ، ما كانت في يوم من الأيام تابعة
لها . ولكن الملك الفرنسي على الرغم من هذا ، كان يقسم يمين الولاء
للإمبراطورية ، حينما يحلو له ذلك . وحتى هنري الثالث ملك بريطانيا -

تبقى الفترة التي أراد أن يكسب فيها أصواتاً ، ليجلس على عرش الجزيرة -
ما توانى عن أن يشير للمنتخبين الألمان ، أنه إن كان ملك فرنسا فرانسر
الأول ، الغريب عن إنجلترا ، يؤيد انتخاب الملك الإنجليزي ، فبالأولى
هم . ولكننا نجده بعد أن تثبت أقدامه على عرش الملك ، ينادى أنه على
الرغم من أن الدم السكسونى يجرى فى عروقه ، إلا أنه ما كان فى يوم من
الأيام خاضعاً للإمبراطورية الألمانية .

وحينما كان يخلو عرش ألمانيا ، كان الإمبراطور الجديد ، ينتخب
بمقتضى المرسوم الذهبى الصادر عام (١٣٥٦) ، بواسطة سبعة من الأمراء
المنتخبين^(١) ، ورؤساء الأساقفة : ثلاثة منهم رؤساء أساقفة مينز ، وتريفيس ،
وكولونيا ، ثم كونت بلاتين على الراين ، وملك بوهيميا ، ومنتخب
سكسونيا ورئيس براند نبرج .

أما حفلة التتويج ، فقد كانت تظهر طبيعة تلك الإمبراطورية .
فحين ينتخب الإمبراطور ، كان يتم تتويجه أولافى لكسى لا شابل ،
وهناك يقسم يمين الولاء للإيمان الكاثولى ، وحقوق المملكة
والإمبراطورية - كما يقسم يمين الخضوع للجالس على عرش روما ،
والكنيسة الرومانية . ثم يأتى بعد ذلك دور استفتاء الشعب ، أولاً باللاتينية
ثم بالألمانية . إن كانوا يرغبون فى قبول الملك سيداً ورئيساً عليهم - فإذا
تمت الموافقة وهتف الشعب « ليكن كذلك » ، يمسح الملك بحضور
المنتخبين بالزيت المقدس ، وبعد ذلك يلبسه ثلاثة من رؤساء الأساقفة

(١) - سوف تتكرر فى معرض الحديث عن الإصلاح كلمة منتخب (Elector) للإشارة
إلى بعض الأمراء أو الولاة فى إمارات ألمانيا ، الذين كان لهم حق انتخاب الإمبراطور . وقد
تكان يطلق عليهم أيضاً أسماء أخرى مثل Landgrave, Margrave

الثوب الإمبراطوري : ويسلمونه السيف التقليدي ، ويضعون على رأسه التاج . وأخيراً يقتادونه إلى عرش شارلمان الحجري ، حيث تم بقية المراسم . وهكذا يتم تتويجه ، ملكا ألمانيا ورومانيا . وفي حقيقة الأمر كانت تلزمه مراسم أخرى للتتويج ، تم على يدي بابا روما .

وعلى الرغم من ذلك ، فإننا نكرر القول ، إن الإمبراطور كان يملك ، ولا يحكم ، فلم تكن له أية سلطة حقيقية في ربوع ألمانيا . وعلى مر السنين ، تناقصت أيضاً سلطاته .

ولقد كانت للإمبراطور الضياع والأملاك يوما من الأيام ، البعض في إيطاليا والبعض على سواحل الراين . ولكن الأباطرة السابقين كانوا قد سلموا أملاكهم في إيطاليا إلى أيدي النبلاء هناك ، في صراعهم مع البابا ، كما سلموا أملاكهم إلى رؤساء أساقفة مينز ، وتريفس وكولونيا — وأولئك كانوا من المنتخبين — ليضمنوا الحصول على أصواتهم . ولأجيال طويلة لم تكن للإمبراطور أملاك على الإطلاق ، لا في ألمانيا ولا في إيطاليا وكان الإمبراطور لايزيد في سلطاته ، عن رئيس إقطاعية أو أمير منتخب .

بل لم يكن للإمبراطور ، كرئيس للإقطاع ، أي سلطان في ألمانيا . ولقد كان من العسير عليه أن يجمع جنودا أو نقودا ، في أي ظرف ، من الشعب الألماني . وعلى سبيل المثال ، نجد مكسميليان فقيرا ، إلى حد أنه أعلن يوما ، أن البابا كان ينال من ألمانيا ، عائدا يوازي خمسين ضعفا ، لما يناله هو من شعبه . وذلك على الرغم من كونه سلطانا قويا في أوروبا ، لأنه كان عميد أسرة هابسبورج ، وكان له أعوانه ومريدوه ، في كافة أنحاء أوروبا .

ولقد كان مكسمليان وريث عرش النمسا أيضاً . وازداد قوة بزواجه من ماري ، أميرة يورجاندی ، والأراضي المنخفضة (هولندا) . وجاء فيليب ابنهما ، وريثا لكل هذه العروش ، وأضاف على ذلك زواجه من يوئنه ، ابنة فردناند ملك أسبانيا — ومنهما — ولد الملك شارل ، الذي يرتبط اسمه بتاريخ الإصلاح . فكان اشارل الخامس سلطاناً على ألمانيا بحكم الوراثة ، وكان له أيضاً نفوذه في الأراضي المنخفضة ، بسبب جدته أميرة بوجاندی . واعتلى العرش عام (١٥١٩) ، وكان عرش ألمانيا مجرد رمز لقوته ، لكنه لم يكن سر سلطاناً ، أما مكسمليان فإن قوة النمسا ، هي التي جعلت الإمبراطور الألماني عظيماً — بخلاف شارل الخامس الذي كانت أسبانيا هي سر عظمته ونفوذه .

لقد كانت قوة الإمبراطور في ألمانيا ، أقل منها في أي مكان آخر . ففي ألمانيا كانت قوته تحد بالدايت أي مجلس الأشراف وهو برلمان إقطاعي وليس نيابيا وكان يضم الأمراء ، والأعيان ، ورؤساء الإقطاع ، كما يضم ممثلين عن الإمبراطور ولو أنهم قلة . وكانت تسود فيه أصوات المنتخبين على ما عداها ، وذلك على الرغم من وجود ممثلين للأمراء ، من العلمانيين ورجال الكنيسة ، كما كان يوجد به ممثلون عن المدن الحرة الخاضعة رأساً لسلطان الإمبراطور .

أما المدن الحرة ، فقد كانت بحق دعامة ألمانيا ومصدر قوتها . وكان معظم سكانها من التجار — وكانت كل مدينة تحررت من الإقطاع ، دولة حرة لها حكومتها وقوانينها ، ولها خزائنها ، التي تضم الفائض ، كما كانت تحتزن مؤنلاً عام كامل ، فيما لو حدث غزو أو حصار من الأعداء . أما المدن الصغرى ، فقد كانت تعتمد على الفلاح ، يقدم

لها من مخاضيله ، ويتبادل معها ما يريد من بضائع — وكان أهل المدن يبغضون رؤساء الإقطاع الذين يعطلون التجارة بحروبهم ، ويقطعون الطرق . وهذا ما حدا بهم إلى الاتحاد معا ، للوقوف في وجه أعدائهم ، وبخاصة مدن شمالى ألمانيا . ولقد كان التفكك الذى يعيش فيه المجتمع ، وعدم وجود حكومة مركزية ثابتة ، وقوانين تحترم وتسود ، هو الدافع إلى ذلك .

ولم توجد طبقة قاست الأمرين من الوضع الاجتماعى هناك ، قدر الفلاح الألمانى ، الذى كان يعيش فى حالة الاستعباد ، فى الوقت الذى فيه نال زملاؤه الحرية فى أكثر من بقعة من بقلع أوروبا .

لقد كان الفلاح الألمانى ، أو «البوير» ، أنجيرا مرغما مستعبدا ، لا يملك حتى الكوخ الذى يسكن فيه ، أو المزرعة التى يعمل فيها . وتحت سقف واحد ، كان ينام مع أسرته وأبقاره وخنازيره — هذه تنام على القش ، وهو ينام على غطاء يفترش به الأرض . وإلى جانب من الكوخ كان يوجد الموقد تعلوه الغلاية المتدلية من السقف ، بينما علقت جميع أدوات المطبخ على جدران الكوخ من أوانٍ وصحاف وغير ذلك . أما المنضدة المصنوعة من خشب البلوط ، والخزنة الخشبية التى كان يحفظ فيها ثيابه ، شأنها شأن الأرض والمزرعة ، والأبقار والخنازير ، كانت كلها علوية لا يملك منها شيئا ، ينتفع بها طالما كان مرتبطا بالحقل ، والسيد الإقطاعى . فإذا شاء القدر وانتهت حياته ، ولم يوجد من يخلفه فى العمل ، لم يكن لأسرته غير التشريد والعمل كأجراء فى أى مكان آخر .

ولقد كانت للفلاح ذكرياته عن أيام أفضل ، حينما كان نيره أقل ثقلا ، وحياته أكثر حرية . لكن فى القرن الرابع عشر ، انتشر الوباء الأسود ، وحصد الألوف وأصبح العمل كثيرا والفلاحون قلة .

ولقد كان هذا ممكنا أن يزيد في قيمة الفلاح ويرفع من مستواه ،
لو حدث في بادئ آخر له قوانينه النافذة . لكن الذي حدث كان على
النقيض من ذلك . فقد انتهى الأمر إلى احتكار الإقطاعيين للفلاحين ،
وزيادة عبء العمل عليهم ، دون تحسين لمستواهم ، حتى انتهوا إلى
حالة الإستعباد .

ولا غرابة أن نجد ثورة تحدث ، لمجرد أن تصدر الأوامر إلى جماعة
منهم ، بجنى سلة من ثمار الفراولة في يوم الأحد ، يوم العطلة الرسمية ،
لسيدات القلعة — فقد كانت الكأس ممتلئة وطافحة . أما القانون المدني
الروماني ، الذي كان سائدا ، وأقره الإقطاعيون ، فلم يكن إلا للدفاع
عن مصالحهم . وكان الفلاح يعتبر رقيق الأرض .

وعلى ذلك لم يبقَ من بديل لديه سوى الثورة ، وأخذ حقوقه
بالقوة .

هكذا كانت ألمانيا ، ملكا وأمراء وشعبا ، وفلاحين ، قبيل
الإصلاح .

راهب ويتمبرج :

في القرن السادس عشر ، أو على الأصح ، في مستهل ذلك القرن ،
كان الشعور العام في المجتمعات الأوروبية ، شعور تفتح وابتهاج . فقد
كان ذلك عصر إحياء النهضة الفكرية والعلمية . وبدأت مباحج العالم القديم ،
في الفلسفة ، والأدب ، والفن ، تتألق بصورة حية أمام الأنظار .

ومع أن بعث الروح اليونانية ، كان بعثا لليونانية القديمة ، أو بكلمات
أخرى ، كان بعثا للفكر الوثني ، والروح الوثنية ، إلا أنه مقابل هذا ،

لا نستطيع أن ننكر الإنجازات العظمى ، التي حققها ذلك العصر ، والمثل الفنية والسياسية والفكرية التي بعثت من جديد . بل إن الاتجاه إلى دراسة اليونانية القديمة ، وجه الأنظار إلى جمال أسفار العهد الجديد ، في اللغة الأصلية القديمة ، ودفع الباحثين إلى متابعتها ، بل مهد لترجمتها إلى اللغات القومية ، على ما أثار هذا العمل من نفور ومقاومة من جانب البابوية ، والنظام المدرسي ، وما أثاره من اضطهاد بالغ ، لكل من حاول دراسة روح الكتاب في اللغات الأصلية . . . أو ترجمته إلى اللغات القومية .

وكان من نتيجة ذلك أيضاً ، رؤية جديدة للكنيسة البابوية ، في نظمها ، وعقائدها ، وممارساتها ، في نور الوحي الإلهي ، ورغبة عارمة في الإصلاح ، من القمة إلى القاعدة .

وانعقد أكثر من مجمع للإصلاح ، مثل المجمعين اللذين عقدا في كونستانس وبازل في القرن الخامس عشر ، ولم تحقق تلك المجمع الكبرى شيئاً — على سبيل المثال مجمع كونستانس ، الذي استمر منعقدا ثلاث سنوات كاملة ، لم يحقق كسباً ، سوى إغراق البلد في فيض من المبادل والمجون . كما نجح أيضاً في إحراق شهيدى بوهيميا : جون هس وجيرون !

لقد كان عصر إحياء العلوم والآداب ، عصر انحلال خلقي وضياع للمثل ، بل إننا حتى لو دققنا التأمل في روائع الفن ، التي انحدرت إلينا من تلك الحقبة ، أمثال روائع روفائيل ، فإننا لا نحس في ألوان صور العذراء ، والملائكة ، والقديسين ، تلك المسحة الروحانية ، والهالة الإلهية ، التي ينبغي أن تكون .

في تلك الحقبة من تاريخ الكنيسة ، كان يجلس على الكرسي البابوي ، أشخاص أمثال اسكندر السادس (حتى ١٥٠٣) ، ومن بعده ابنه - سيزار بورجيا ، ويوليوس الثاني ، (حتى ١٥١٣) ، وليون العاشر (حتى عام ١٥٢١) - وهؤلاء نستطيع أن نقول إنهم كانوا رجال سياسة ، قبل أن يكونوا رجال كهنوت ، ومشجعي ثقافة دنيوية ، قبل أن يكونوا رعاة للرعية ، وأصحاب مشاريع بنائية ، قبل أن يتمجهوا إلى بناء الكنيسة الحية . فالإسكندر كان يقيم الحفلات الكبرى ، كأى واحد من الأباطرة ، أما يوليوس الثاني ، فهو الذى أعاد بناء كنيسة القديس بطرس ، وزينها بروائع رفايل ومايكل أنجلو . أما ليون العاشر ، فقد شجع الدراسات اليونانية ، والتراث الوثني القديم ، لهذا يقال إنه فضل التراث اليوناني على المسيحية ، وأفلاطون على بولس الرسول - أما الرهبان فعلى الرغم من كونهم في بادئ الأمر ، قوة خلاقية مجددة معوضة لما لم تستطع الكنيسة أن تقوم به ، إلا أن التيار الجارف كان أقوى .

غير أنه قد قدر لواحد من طبقة الرهبان ، من رهبانية القديس أوغسطينوس ، أن يكون له النصيب الأكبر في مجال الإصلاح ، وأن يتألق عبر الأجيال ، في تاريخ المسيحية المصلحة - ذلك هو الراهب الألماني مارتن لوثر - الذى ولد من أبوين من الفلاحين الفقراء ، في ازبن بمقاطعة سكسونيا ، وبرغم وضاعة نشأته ، استطاع أن يطبع بصماته الخالدة ، على صفحات التاريخ المسيحي - فإذا ألقينا الضوء على الحالة السياسية في ألمانيا ، أو الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، كما كانت تلقب نفسها إبان الحقبة التي ظهر فيها مارتن لوثر ، فلننا نرى أن الإمبراطور الذى ظهر على مسرح البلاد في تلك الحقبة ، وهو شارل الخامس ، كان سليل العائلة المالكة في أسبانيا ، في أوج عزها ، كما كان عظيم النبلاء .

في الأراضي المنخفضة ، وانتخب في عام ١٥١٩ ، ليجلس على كرسى ألمانيا ، رغم حداثة سنه — ولكننا لا ينبغي أن نرتعب أمام كلمة إمبراطور — وقد أسلفنا الحديث عن ذلك في الفصول الأولى — فلم تكن له السلطة المطلقة . ولو كان كذلك ، لما قدر للإصلاح أن يبدأ على الإطلاق ، ولسحقت الحركة الجديدة في مهدها — فلم يكن للإمبراطور سلطان على أية ولاية في ألمانيا ، عدا بعض المدن التي عرفت بالمدن الحرة . وفي عهد الإصلاح ، كانت الإمبراطورية تضم النمسا وهنغاريا ، علاوة على رقعة ألمانيا كما عرفت فيما بعد ، ولم تكن قد تبلورت عن دولة متماسكة نظير إنجلترا وفرنسا ، وأسبانيا ، لكنها كانت تتكون من دويلات ، أو دوقيات ، تتفاوت في الضخامة والقوة . أما أمراء هذه الدويلات ، الذين كان يطلق عليهم أكثر من لقب : المنتخب (Elector) أو ما لجريف ، فكانوا يعترفون بالإمبراطور كالرئيس الأعلى للإقطاعيات ، ولكن كل دويلة أو إقطاعية ، كانت بمعزل عنه في استقلال تام . هؤلاء الولاة أو « الأمراء » ، لعبوا دورهم في تاريخ الإصلاح . ولقد كان للدولة مجلس أعيان أو أمراء يعرف « بالدايت » وسوف نرى أثر الدايت في سير الأحداث .

نقول إن شارل الخامس ، كان وريثا لعرش أسبانيا وألمانيا . لكنه في طبيعته ، كان يتجه إلى أسبانيا ، فلم يكن في تفاهم على الإطلاق مع الألمان . أما في معتقده ، فقد كان شأنه شأن سواه من أبناء العصور الوسطى ، مرتبطا كل الارتباط بكنيسته ، على الرغم مما يراه فيها من مساوئ . لكنه كان يتمنى لو تم الإصلاح في داخلها ، وليس بعيدا عنها .

وفي صلته بالبابا ، لم يكن تابعا له . لقد كان يتمنى أن يكون هناك مجلس أعلى فوق سلطان البابا . لكنه مع هذا كان ضد أى تغيير في تعاليم الكنيسة ، وما كان يفهم لماذا يسعى البعض في محاولة للوقوف في وجهه عقائدها . ونستطيع أن ندرك روحه المتعصبة للكثلكة ، حين نعلم أنه بعد أن حكم البلاد ستا وثلاثين عاماً كاملة ، ورأى في النهاية أن مخططه لتثبيت أقدام البابوية في ألمانيا قد باء بالفشل ، ألقى بالتاج جانباً ، واعتزل الملك ، والتحق بأحد الأديرة وقضى بقية حياته راهباً .

لقد كان سياسياً منافقاً حيناً ، وفي أحيان أخرى قاسياً ؛ لكنه في كل الأحيان ، كان مناوئاً لكل إصلاح ، عدواً لكل تجديد في العقيدة .

وكان هناك منافس لشارل ، هو فرانسز الأول ملك فرنسا . ومن الشرق كان هناك أعداء له في جبهة أخرى . هم الأتراك ، الذين كانوا قد احتلوا القسطنطينية عام (١٤٥٣) . أما سياسته مع البابوات ، فكانت مدهنة أحياناً وأحياناً أخرى كانت معادية .

كل هذه ، تعطينا فكرة عن المتربع على كرسى الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، في فترة ظهور مارتن لوثر .

ولد مارتن لوثر عام ١٤٨٣ . من أبوين من الفلاحين الحشنيين . أصحاب الطباع الحادة ، لكنهما كانا طيبين في الأعماق . وقد كانا يحلمان بأن يصبح ابنهما محامياً . وعلى الرغم من شظف العيش وضآلة الموارد ، أرسلاه إلى الجامعة في إرفورت .

يقول لوثر « كان أبى خطاباً ، وكانت أمى تعاونه في عمله لكي نقيم أود الأسرة » ولكن الحياة بدأت تتيسر قليلاً ، حينما التحق والده بعمل

في منجم ، لاستخراج الحديد في ما نسفيلد ، واستطاع بأمانته ، أن يشق طريقه في المجتمع ، وينتخب عضوا في المجلس البلدى في المدينة .

وفي سن الرابعة عشرة ، أكمل لوثر تعليمه في مدرسة ما نسفيلد ، وأرسله أبواه إلى مدرسة الفرنسيين في مجدبرج ، هناك وجد نفسه في وسط جديد . ولكن الأمر الذي كان ينغص عليه حياته ، قلة الموارد بين يديه حتى قيل إنه كان يشحن الحبز من إخوانه . وقيل إنه كان يستعين على شطف الحياة ، بترتيل الأناشيد الدينية ، والاستجداء أمام بيوت المحسنين وهذه العادة كانت متبعة في عصره . يستعين بها الطلبة الفقراء لسد نفقاتهم ولكنه كان مترددا جباناً ، كثيراً ما يسىء فهم تصرف إنسان رحيم ، فيهرب أمامه وهو قادم له بالطعام - حتى لقد فكر مرارا في ترك التعليم بسبب هذه الظروف . سنة كاملة قضاه في هذا العذاب . حتى قبض الله له أسرة رحيمة ، أعجبت فيها الزوجه الثقية بصوته الجميل ، وهو ينشد الترانيم أمام باب البيت ، وقررت مع زوجها إيواؤه في المنزل :

هنا بدأ لوثر يواصل نشاطه ، في دراسة الآداب والعلوم والموسيقى . وكثيراً ما كان يطرب أمه التي تبتته ، بالضرب على العود ، وترديد الترانيم . وبذلك تربى فيه حب الموسيقى ، الذي لازمه طيلة حياته ، حتى ألف ولحن العديد من الترانيم .

وفي عام ١٥٠١ وكانت سنه ، لم تتجاوز الثامنة عشرة بعد ، ألحقه والده بجامعة إرفرت لدراسة القانون . وكانت أحواله قد تحسنت قليلا . وإننا لنجد آثار التربية الدينية المتزمنة في صباه تظهر عليه ، حتى أنه يدرس على مضض ، مؤلفات أرسطو ، وكانت على رأس قائمة الدراسة الجامعية . وكان كرهه لمنطق أرسطو بالغاً ، حتى أنه كان يقول :

لزملائة . لو لم يكن أرسطو إنسانا لا اعتبرته شيطانا - سنوات عدة قضاها في دراسة الفلسفة ، وفي السهر على مؤلفات توما الأكويني ، وبونا فنشيرا وأوكهام وغيرهم من المدرسين ، لكن هذه كلها ما كان لها أثرها في تسكين ضميره ، أو إراحة قلبه . ومع ذلك فبذكائه ، استطاع أن يبرز أقرانه في هذا المجال ، حتى أنه في سن العشرين . نال درجة بكالوريوس في الآداب . وبعدها بسنتين نال درجة الدكتوراه في الفلسفة .

وكانت نعمة الله تعمل فيه ، فابتدأ يمتليء حزنا على مصيره الروحي . وفي تلك الأثناء عثر في مكتبة الجامعة ، على نسخة من الكتاب المقدس باللغة اللاتينية . وقد شغف لوثر بالكتاب « المحرم » على الشعب شغفا شديداً ، ومع ذلك كان الكتاب المقدس مغلقا أمام ذهنه . يقول « هوذا كتابي المقدس بين يدي ، وأنا شغوف بدراسته ، لكن ما هي وسياتي لإدراكه ؟ وكيف السبيل إلى فهمه ! ؟ » .

ومع شدة تأثيره به ، إلا أنه استمر على ما هو عليه . حتى أننا نراه في مرض خطير ، ألم به في تلك الأثناء ، لجأ إلى طلب القديسين والتشفع بهم « يا عذراء مريم خلصيني » ويقول في مذكراته « لو أنني مت في تلك الأثناء ، لكانت العذراء والإيمان بها حجتى أمام الله ، ولا شيء آخر » .

وتعود إلى لوثر صحته . ويشغل وقته إلى جوار دراسة القانون بتدريس الفلسفة لبعض الطلبة . وبينما هو منهمك في هذا المجال ، إذا بحادثة تحدث تغير مجرى حياته ، عندما وجد صديقا له يدعى ألكسيس يموت فجأة ، ربما قدراً ، وربما اغتيالاً .

فارتعد لوثر أمام حدث صديقه ، وراح يقول في نفسه ، لو كنت

مكانه فإذا يكون مصيرى ؟ وإذا بمخاوف الموت والأبدية تعاوده بقوة . مضاعفة . ويهيم على وجهه فى ضواحي إرفرت . وفجأة وكان الجو ملبدًا بالغيوم ، إذا الرعد يدوى ، والبرق يبرق ، ويرى لوثر بعينى رأسه . لسانا من النار فى صاعقة هابطة يدوى على مقربة منه . فتصور أن ساعة الدينونة قد حانت فارتمى على الأرض ، صارخاً للقديسة حنة ، أنه إن نجا من هذا المصير ، فسيهجر العالم ويقضى بقية عمره بن جدران الدير .

وفى ١٧ أغسطس عام ١٥٠٥ ، أى بعد ذلك الحادث بأسبوعين اثنين ، دعا لوثر أصدقاءه إلى حفلة مسائية . وما كانوا يدرون وهم يستمعون إلى عزفه على العود ، أنها حفلة الوداع . وبعد أن انفرط عقد المجتمعين فى ساعة متأخرة من الليل ، إذا به يسرع والظلام يكتنفه إلى دير القديس أوغسطينوس بإرفرت ، ويدق الباب وهو يقول : « افتح لى باسم الله » ويجيبه صوت الفرير حارس الباب « ماذا تريد » فيكون جوابه « أريد أن أكرس نفسى لله » .

لكن هل كان حقاً كذلك ؟

لقد كان الدافع هو الرعب من الموت ، والحالة الطارئة ، والنذر الذى قطعه على نفسه .

وأعاد لوثر للجامعة روبه الجامعى ، وخاتم الوظيفة . حتى ملابسه وزعها ، حتى لا يبتى ما يذكره بالعالم . وقد حزن والده وكذلك أصدقاءه . حزنا بالغاً بسبب هذا التصرف — وكان التدريب قاسياً على نفسه فى بادئ الأمر ، حتى أنه كان من ضمن بنود إذلال النفس ، أن يحمل «نودا» على ظهره ، ويسير فى طرقات إرفورت ، يشحذ الخبز والطعام من

ببيت لبيت ، وهو الأستاذ الجامعي ، الذي نال أرقى الإجازات العلمية — إلا أنه يبدو أن الجامعة طلبت من رئيس الدير ، إعفاءه من هذه المهمة ، فأصبح يجد متسعا من الوقت للدرس والتأمل ، واستطاع بمعاونة زميل له يدعى لانج ، أن يدرس أصول اللغتين العبرية واليونانية .

وهناك في كنيسة الدير ، وجد كتابا مقدسا مربوطا بالسلاسل ، فكان يتردد على الكنيسة ليدرس الكتاب . على أن قراءته لم تزده إلا اضطرابا و يقينا بهلاكه . لقد دخل الدير وأصبح راهبا ، وفاق أقرانه في الأصوام ، والأسهار ، وإذلال الجسد ، وكم من الليالي قضى ، وهو راكع على البلاط يصلي للتديسين ، لكنه ما أفاد شيئا ، رغم أنه أصاب جسمه الهزال ، وعقله الشطط ، فكان يرى أرواحا ، وشياطين تحيط به . لقد كان يسعى للحصول على سلام الله بمجهوداته وبره . ومع ذلك لم يحصد إلا الفشل . لقد كان مستعدا أن يبذل أى مجهود ليحصل على الخلاص الكامل . يقول بعد ذلك : « كنت راهبا تقيا — واتبعت قواعد الرهبنة التي أنتمى إليها بأكثر تدقيق — وإن كانت السماء تعطى بالأعمال ، فإن كل الرهبان حولي يشهدون لي بتدقيق في الحياة . ولو كنت بقيت أكثر ، لكان موتى محققا بسبب الأسهار ، والأصوام ، والقرارات ، وأعمال الإماتة الأخرى . »

ويروى عنه أنه في مرة من المرات ، في يأسه القاتل ، وشعوره بخطيته ، أغلق باب صومعته على نفسه أياما ، وهو لا يسمح لأحد بالدخول ، إلى أن هيا الله زميلا كان يعرف أحواله ، فكسر باب الصومعة ، ووجده ملقى على وجهه ، في حالة غيبوبة هستيرية . . .

أخيراً التقى بمن يدعى جون ستوبتز ، رئيس رهبانية الرهبان الأوغسطينيين .
الذى أرشده إلى الطريق السوى .

وكان الرئيس في زيارة للدير ، فهاهنا منظر لوثر وحالته ،
وكانت نصيحته له « أنت تخطيء إذ تظن أنك تستطيع أن تقف أمام الله
بأعمالك . إن الخلاص رحمة تفيض من لدن الله ، على أساس الإيمان
بالمسيح - » ثم نصحه بأن يدرس الكتاب المقدس .

وأصيب لوثر بالمرض ، وفي مرضه القاسي ، زاره راهب شيخ
أفضى إليه لوثر بوساوسه ومخاوفه وشعوره بخطيته . فما كان من ذلك
الراهب ، إلا أن قال له : « ردد معي من قانون الإيمان هذه الكلمات :
أومن بمغفرة الخطايا » .

وكانت هذه بداية عهد جديد لمصلح ألمانيا العظيم - ولم تكن
السنوات التي قضاها راهب ويتمبرج في الدير عبثاً - ففيها حدثت نقطة
التحول في حياته - كما أنها كانت إجازة ، درس فيها أصول اللغتين
العبرية واليونانية ، مما مهد لترجمته القادمة للكتاب المقدس إلى اللغة
الألمانية .

وحتى هذا الحين ، كان لوثر في أحضان كنيسة روما - وفي
عام ١٥٠٧ سيم كاهناً ، وفي عام ١٥٠٨ عين أستاذاً محاضراً في جامعة
وitemبرج ، التي أنشأها منتخب سكسونيا . ومع ذلك كان ما يزال
مرتبطاً بالدير . فكان يتخذة محلاً لإقامته ، ويشاء القدر أن تحدث منازعات
بين الرهبان ورئيس الرهبانية ، وأوفده الرئيس لعرض الشكوى على البابا
في روما . وكانت هذه أول زيارة له لمقر البابوية .

ورأى راهب ويتمبرج الزاهد المتعبد في طريق سفره ، حياة البذخ التي يحياها رهبان روما . رأى موائد الأخوة الذين نذروا نذر الفاقة ، تموج بأطايب البابا وخمر مشروبه حتى في أيام الجمعة أيام الصيام عن اللحوم ، كانت هناك أطباق اللحوم . وأسرع الراهب الشاب هاربا ، يقطع الطريق على قدميه ، مستريحاً كلما اشتد به التعب ، حتى وصل أخيراً إلى مدينة المدائن روما ، المدينة المقامة على التلال السبعة .

نقول إن روما بالنسبة للألماني المتعبد ، كانت نظير أورشليم ، أو أكثر قداسة . لقد كان يرى فيها المدينة التي تضم قبور الرسل ، والتي تقديست بدماء الشهداء . وعندما وصل إلى أبوابها ، ركم على ركبتيه ، وهتف رافعا يديه « إله ياروما المباركة إني أحبيك يا مثلثة القداسة بدم الشهداء » ولكنه سرعان ما امتلأ قلبه حزناً ، حينما دخل المدينة ، ورأى حياة رجال الكنيسة - في فرصة من الفرص حينما كان يقوم بخدمة القداس رأى كاهنا إلى جواره ، وقد أنجز سبعة قداديس . وإذا بالكاهن يقول له ساخراً « أسرع - أسرع ، وأعد المسيح لأمه المقدسة - » إشارة إلى القربان :

كانت هذه هي الديانة التي التقى بها لوثر الراهب في قلب دائرة الإشعاع المسيحية .

لقد كان يتوقع أن يرى رجال الدين ، يسرعون بعد نهاية القداس لزيارة المريض وتعزية الحزين ، والكتاب المقدس بين أيديهم ، ولكنه عوضاً عن ذلك ، رأى الكرادلة في عرباتهم الذهبية التي تجرها الجياد ذات الأغطية المطعمة بالفضة ، والخدم يروحون لهم بمراوح من ريش النعام . رأى أموراً لا يصح السكوت عليها ، ويصبح السكوت عليها في الكتابة لثلاً

تتدنس هذه الصفحات - ومع ذلك كان لوثر ما يزال يتوسم خيراً في عقيدته - فإنه في يوم من الأيام ، راح يزحف مع الزاحفين على درجات السلم ، الذي قيل إنه سلم القديس بطرس ، وأنه انتقل بطريقة معجزية إلى روما . راح يزحف لكي ينال الغفران ، الذي وعد به البابا - وعندها خيل إليه أنه يسمع صوتاً يقول له « أما البار فبالإيمان يحيا » ، عندئذ امتلاً خجلاً وانسحب من بين الزاحفين - وما أن انتهت مهمته ، حتى أسرع عائداً إلى بلاده ، والحجل يملأ نفسه . والمرارة تكسر قلبه .

وفي ويتمبرج ، راح يوالى دراساته ، حتى نال درجة الدكتوراه في اللاهوت . بعد ذلك عين كاهناً لكنيسة الأبروشية . ومن عام ١٥١٢ إلى ١٥١٧ لم يكن لوثر إلا الكاهن الأمين لشعبه ، المخلص لكنيسته ، على الرغم مما يراه فيها من مساوئ ، المشتاق من أعماق قلبه ، إلى إصلاحها ، دون أن يفكر في التخلي عنها .

وإذا أردنا تقييم فكر لوثر حتى ذلك الحين ، فإننا نقول إن عقيدته كانت تركز على الإنجيل أولاً ، ثم على أعمال القديس أوغسطينوس - الجانب الذي اعتنقه كلفن منها فيما بعد والذي بنيت عليه الكالفينية ، والتي أبرز ما فيها ، أن كل شيء مقدر حدوثه ، بحسب مشيئة الله ، وأن الإنسان خاضع في تصرفاته وأحداثه لإرادة عليا ، وأن قليلين من المختارين قدر لهم أن ينالوا نعمة الإيمان ، ويجدوا الخلاص .

هذا التعليم الأوغسطيني ، هو جزء من الشيولوجية المدرسية التي رفضتها جماعة الإصلاح في أو كسفورد . وفي عدم قبولها ، كانت نقطة الخلاف مع لوثر . ولكنهما كانا يتفقان في أمر واحد : أن الديانة لا تدور حول التقاليد والطقوس وكفى ، لكنها اختبار ينبع من أعماق القلب ، وأن العبادة الحقيقية ، هي العبادة بالروح والحق :

بائع الغفرانات :

واستمر لوثر في المناداة بعقائده الأوغسطينية في ويتمبرج ، في الوقت الذي كان فيه إرازمس يعدّ العدة لطبعة ثانية من ترجمته للإنجيل ، ويرسل نسخة من « أتوبيا » و « الرئيس المسيحي » آملا أن تتغير حال روما ، تحت سلطة البابا ليو العاشر .

لكن ذلك البابا ، ما كان يختلف عن أسلافه في شيء - كانت دول أوروبا في ذلك الحين على حافة الإفلاس ، بسبب الحروب الصليبية التي أثارها البابوات . زهاء المائتي عام ، في الشرق الأوسط ، كما في أوروبا والتي يقال إنه هلك فيها ما يصل إلى الستة ملايين من الأنفس . لكن هذه الحروب عينا ، كانت مصدر ثروة لاتقدر لروما والبابوية . كانت أملاك كل محارب من الصليبيين ، توضع تحت حراسة الأسقف حتى يعود ، وغالبا مالا يعود ، فتضم إلى أملاك الكنيسة .

لكن الحروب الصليبية كانت قد انتهت إلى غير رجعة ، وسقط آخر معقل للغرب ، مدينة عكا ، في أيدي الاتراك عام (١٢٩١) ، وماتت الدجاجة التي كانت تبيض ذها للبابوية . وبدأت المشكلة من جديد . كيف يخترع البابا قصة جديدة تكون مصدر ربح يعوض له ما ضاع ؟

وبدأت القصة في آخر سنة من القرن الثالث عشر ، حينما أعلن البابا أن السنة الأولى من القرن الرابع عشر هي سنة اليوبيل ، وأنه إن كانت قد ضاعت أورشليم ، فإن روما المقدسة ، مازالت قائمة بقبور الرسل والقديسين . وأن من يقوم بالحج إلى قبري القديس بطرس وبولس ، مرة كل يوم ، مدة ثلاثين يوما في حالة أبناء روما ، ومدة خمسة عشر يوما للقادمين من بعيد ، يحصل على الغفران الكامل لخطاياهم ، ماضيها ،

بحاضرها ، ومستقبلها . لقد أصبح الغفران الآن في متناول الجميع ، بعد أن كان وقفا على الصليبيين . ووصل الحماس الدينى إلى منتهاه فى جميع أوربا . وتدفقت الجماهير على روما من كل حذب وصوب ، وكما يقول أحد المؤرخين « كنت ترى أسراباً بأكملها طوال العام تغد من كافة دول أوربا . ومن ألمانيا . وتتكدس زاحمة الطرقات . والكل يطمع فى نوال الغفران البابوى » .

ولقد سميت هذه السنة بالسنة الذهبية . فقد كانت أكداس الذهب والفضة التى تكوم على قبرى الرسولين . بهذا القدر ، حتى أن كاهنين عينا لجمعها ، وكانا ، يحرفان الأكداس ليلاً ونهاراً بالجاروف — سنة كاملة استمر هذا الفيض ، وزار خلالها روما ، ما يزيد على مليونين من الأنفس .

ولقد كانت هذه تجربة عظمى ناجحة ، فاقت فى نجاحها كل تصورات البابا بونيفاس ، وعلى منواله نسج من أتى بعده حتى أن اكلمندس السادس جعل سنة اليوبيل كل خمسين سنة فقط (١٣٥٠) . أما أربان السادس (١٣٨٩) فجعلها كل ثلاثين عاماً ، حتى إذا اتينا لبولس الثانى (١٤٧٥) نراه يجعلها كل خمسة وعشرين عاماً لا أكثر — هنا نرى البابا ليو العاشر يتربع على عرش بطرس (١٥١٣) وكان سليل آل مديتشى ، وفيه كان يجرى مع الدم الملكى نخب الفخفة والظهور . وقد أدخل فى البلاط البابوى مظاهر العظمة التى اشتهرت بها أسرة دى مديتشى — وكان يعمل على إعداد تصميم كامل لنقوش وصور الجدران وسقف كنيسة القديس بطرس التى تضم الآن روائع مايكل أنجلو — من هنا كان بحاجة إلى المال الوفير .

صحيح أن البابا ليولم يكن أفضل من سالفه في الناحية الخلقية ، لكنه .
على الأقل ، كان أكثر رقة من يوليوس الثاني الدموي ، الذي أغرق .
أوروبا في المذابح البشرية .

نقول إن المشكلة الآن كانت المال . كيف يوفره لمشروعاته الباهظة ؟
وهذه تفكيره إلى تخفيض أسعار الغفرانات ، وجعلها ملكا مشاعا للجميع
وسلعة تشتري في أي وقت ، وتجارة يقوم بها باعة متجولون ، يوفر
على البعيدين مشقة السفر والحضور إلى روما .

وكانت هناك تسعيرة : الذنب الأكبر غفرانه بسعر أكبر .. التكفير
عن الخطية المميتة له سعر يزيد عن سواها — الكذب والنصب والسرقة .
لها أسعار أقل — وليفعل الخاطيء ما يشاء فهناك صك مكتوب بإمضاء .
البابا نفسه يضمن غفران السماء .

وكان باعة الغفرانات ، وجميعهم من رجال الكنيسة ، يطوفون
الطرق بمواكب فخمة ومظاهر عظيمة وأمامهم مناد . فإذا وصل إلى
مدينة ما ، يتجه إلى بيت الحاكم ، ويوجه إليه التحية « نعمة الله
والآب المقدس عند أبوابك » . وتكفي هذه التحية لتلهب قلوب كبار
المدينة وصغارها بالحماس ، وأحيانا كان يحدث اتفاق سرى بين بائع
الغفرانات وبين الحاكم ، على أن يتقاسم معه الأرباح مقابل تشجيعه له .
وسرعان ما ترى الجموع وقد خرجت من كل مكان ، يحملون الشموع
والرايات والشعارات كما في الموالد الشعبية ، ويتقدمهم الضاربون على
الطبول والدفوف . أما الموكب نفسه — فكان يضم الراهبات والراهبان .
وهم يهتفون : اشترُوا اشترُوا — والنواقيس تدق والكل في فرح .

وكان مندوب البابا أو البائع ، يجلس بكل اللباس الكنسى الفاخر
 فى عربة ، وهو يحمل صليبا أحمر اللون ، وأمامه المرسوم البابوى
 للغفران على وسادة من قطيفة . حتى إذا وصل الموكب إلى كنيسة ما ،
 كان المندوب ينزل ، ويدخل الكنيسة ، وأمام المنبر ، يعدد فوائد
 صكوك الغفران ومنافعها الجمّة - وفى يوم من الأيام وصل إلى
 دويتمبرج ، واحد من بائعى الغفرانات يدعى جون تنزل - وراح هذا
 يملأ المدينة صياحا . ويتناقل الناس عظاته « إن صكوك الغفران ، هى
 أثمن وأشرف هبات الله للبشر - تعالوا أعطيكم صكوكا صحيحة ،
 بها تضمّنون غفران الخطايا ، حتى تلك التى تنوون ارتكابها - لأننى لن
 أَرْضَى بأن أستبدل امتيازاتى ، ببركات القديس بطرس نفسه فى السماء
 فقد خلصت بهذه الصكوك ، نفوسا أكثر من النفوس التى خلصها
 القديس بطرس بخدماته ... لا توجد خطية مهما عظمت ، لا تستطيع
 الغفرانات أن تكفر عنها . أيها الكاهن - أيها النبيل - أيها الزوجة -
 الشاب - الشابة - تعالوا . إن غفراناتى لا تقف عند حد الأحياء
 فقط ، بل تتجاوزها إلى الموتى . ألا تسمعون أقرباءكم فى أعماق الهاوية
 يصرخون مستغيثين « إننا نتعذب ونقاسى أهوالا مرة . وفى إمكانكم
 إنقاذنا بشيء من الإحسان التافه - أيها الأغبياء وقساة القلوب ألا تدركون
 أنه فى نفس اللحظة التى ترن فيها نقودكم فى قاع الصندوق تنطلق النفس
 من المطهر وتطير حرة إلى السماء . إن الرب إلهنا قد سلم كل السلطان
 إلى البابا » .

ولم يطق لوثر السكوت على هذا الحال - فابتدأ يناشد الشعب الألمانى
 أن ينفذ عن تلك الترهات . وكتب احتجاجا ضد بيع الغفرانات ضمنه

خمساً وتسعين حجة ، وعلق هذا الاحتجاج على باب كنيسة ويتمبرج -
(عام ١٥١٧) .

يقول « ان الله وحده يمحو الخطايا - وهو يغفر للذين يتوبون توبة حقيقية دون حاجة إلى حل من إنسان - للكنيسة أن ترفع ما توقعه من جزاء . أما سلطانها فلا يتعدى الحاضر ، ولا يمكن أن يتناول ما بعد الموت . من هو هذا الإنسان الذي يجرؤ على القول ، إن الخطيئ يستطيع الحصول على خلاص نفسه بحفنة من النقود ؟ إن كل مسيحي حقيقى يشترك فى بركات المسيح بنعمة الله ، بدون خطاب توصية من البابا ، أوصك غفران منه » .

وساد الإضطراب سكان المدينة وتناقل الجميع فحوى الاحتجاج ، كما أن الحجاج القادمين إلى ويتمبرج من أماكن بعيدة ، حملوا إلى كل مكان مضمون اعتراض لوثر . وقد قيل إنه فى أقل من أسبوعين ، وصلت أخبار هذا الاحتجاج إلى جميع سكان ألمانيا .

وهنا ثارت ثائرة روما - واتقلبت إلى مغارة تتصايح فيها اللذئاب . فهاذا يتبقى لهم ، لو ضاع منهم السلطان على الأحياء والأموات ؟ - أما لوثر فقد استمر فى طريقه ، يعمل فى هدوء فى كنيسة ويتمبرج ، حتى كان ربيع عام (١٥١٨) ، حينما عقد مجمع عام فى مدينة هيدلبرج للربان الأوغسطينيين ، ووجهت الدعوة إلى لوثر لحضوره .

وقد حاول أصدقاء لوثر منعه من الذهاب . لكن روحه الشجاعة أثبت ذلك . وهناك سجل انتصار أعظيا أمام دكاترة اللاهوت القادمين من أكثر من بلد ، وبهرهم بعلمه ومعرفته العميقة بالكتاب - ثم عاد إلى ويتمبرج فى حراسة أصدقائه .

هنا بدأ تنزل يتمحرك للرد على هجوم لوثر ، مؤكدا سلطان البابا
وسلطان مندوبيه من الكهنة ، لغفران كل الخطايا ، غفرانا كاملا
أبديا ، الأمر الذى دفع لوثر إلى كتابة تفسيرات أو «قرارات» لبنوده
الخمس والتسعين ، يشرح فيها وجهة نظره ، مستشهدا بما ورد فى الكتاب
المقدس .

غير أنه ما كان يهم تنزل أوغيره ، أن يكتب لوثر احتجاجا ،
ويلقه على باب كنيسة القصر فى ويتمبرج ، أو أن يقرأ هذا على الشعب
لو لم يشعر بأن وراء اوثر من يسنده ويرعاه ، متمثلا فى شخص منتخب
سكسونيا . وكان منتخب سكسونيا هذا ، شخصية نبيلة راجحة الفكر ، وكان
يريد صالح شعبه ، ولقد استحوذ لوثر على مشاعره . ويقال أنه رأى فى
منامه ، أن قلم لوثر ظل يطول ويطول ، حتى وصل إلى القصر البابوى
فى روما ، ولمس تاج البابا المثلث ، وأسقطه إلى الأرض . ومهما يكن
من أمر ، كان منتخب سكسونيا أعقل من أن يسمح لتنزل وأمثاله ،
أن يدخلوا مرة ثانية إلى البلاد — ثم بعد عام أو عامين من النقاش الحاد —
إذا السماء تهبط سندا متعلما للوثر — هو ، فيليب ملانكتون من جامعة
توبنجتن . وقد انضم هذا إلى هيئة التدريس بجامعة ويتمبرج ، وكان عالما
فى العبرية واليونانية ، متأثرا بآراء إرازمس ، وقد أعجب هذا راهب
و يتمبرج . وفى المشاهدات الجدلية الحامية التى كانت بين لوثر وأعدائه ،
كان ملانكتون إلى جواره دائما ، وكان الإثنين سبب شهرة جامعة
و يتمبرج الناشئة ، التى سرعان ما أوفدت إليها جموع الطلبة من كل
مكان لكى يروا الراهب الجريء الذى تحدى مندوب البابا ، والعالم
الذى يسنده :

في تلك الاثناء (١٥١٩). انتهت المعركة السياسية حول عرش ألمانيا ،
باننخاب شارل الخامس الذي أشرنا إليه في الفصل السابق .

وبينما كانت الأحداث تجري على مسرح السياسة ، كان العراك مستمرا
بين لوثر والبابوية . وكان لهذا أثره في أن يراجع لوثر معتقداته ، في نور هذه
الأحداث . لقد رأى أن معتقداته الأوغسطينية ، تشبه معتقدات ويكلف
وهس ، اللذين أدانتهم الكنيسة ، حتى أنه كتب في مذكراته « لقد كنت
هسيا دون أن أعلم . وأعتقد أن بولس الرسول وأوغسطينوس كانا هسيين ! » .
الحقيقة أن «ويكلف» و«هس» و«لوثر» كانوا جميعا متأثرين بأعمال
القديس أوغسطينوس ، وأن أفكارهم التي تبلورت ، هي التي عرفت فيما بعد
باللاهوت الكلفيني .

حتى ذلك الحين ، كان لوثر يبعث إلى البابا بخطاباته بروح التأدب ، ويرى
فيه الأب الروحي . . لكنه حينما اكتشف هذه الحقيقة ، بدأ الصراع السافر
بينه وبين البابوية . فلاعصمة بعد في البابا . . ألم يقف في وجه ويكلف
وهس ؟

ونظير هذين الشهيدين ماذا ينتظر بعد ؟ .

وهكذا كتب رسالتين ، ضمنهما نبذتين ، إحداهما موجهة إلى « نبلاء
وأشراف الأمة الألمانية » (عام ١٥٢٠) . وقد ختمها متحديا البابا بالقول .:

« يكفي كل هذا . لقد غنيت حتى الآن بنعمة مرتفعة . لكن لدى نعمة
جديدة ، سوف تجعل آذان روما وأتباعها تصاب بالحكة .. أو تدركين يا عزيزتي
روما ما أعنيه ؟

أما الثانية وهي النعمة الجديدة فكانت ضد روما ، وكانت بعنوان «السي البابلي ليس للبابوية بل للكنيسة» . وفيها كرر هجومه على صكوك الغفران ، وعلى عصمة البابا ، ووصل الى حد القول ، إن البابا محتمل دجال ، والبابوية مملكة بابل . . أما أسرار الكنيسة فن قال إنها سبعة ؟ إن العهد الجديد لا يتحدث إلا عن ثلاثة أسرار : المعمودية ، والتوبة ، والعشاء الرباني . ثم ختم الرسالة بالقول « إنني أعرف أن البابا يعد مرسوم حرمانى معلنا أننى مارق هرطوقى . . فليضع ضمن أسبابه هذا المكتوب الذى أرسله إليه » !

وبينما كانت مطابع ألمانيا تخرج آلاف النسخ باللغتين اللاتينية لمعلمى أوروبا . والألمانية لعامة الشعب هناك ، كان البابا بالفعل قد أعد مرسوم الحرمان ، وأرسله على عجل إلى منتخب سكسونيا ، ليسلم الهرطوقى مارتن لوثر للكاردينال توماس كاجنان ، الذى كان قد تلقى تعليمات مسبقة من البابا ، بالحكم عليه بالموت حرقا .

وأصبح الأمر الآن متوقفا على موقف منتخب سكسونيا ، هل سينصاع لأوامر البابا ، أم يعارضها ؟ ! فعلى يديه يتوقف مصير لوثر . وكان هو وسكرتيره فى بلاط الملك شارل ، بمناسبة تتويجه . أما لوثر وملانكثون ، فقد كانا على صلة دائمة بسكرتير المنتخب ، وقد كتب ملانكثون مستعظفا السكرتير قائلا : « إن رجلا مثل لوثر ، يمكن أن نضعه ليس فوق مستوى رجال عصره فحسب ، بل فوق مستوى أوغسطينوس نفسه » . وفى نفس الوقت ، كان إرازمس فى بلاط الملك شارل الخامس يبذل جهده من الجانب الآخر ، مع أمير سكسونيا ، للمحافظة على حياة الراهب المهدد .

أما المنتخب كما أسلفنا ، فقد كان إنسانا راجح الفكر ، يحب شعبه .

ويرى أخطاء البابوية ويحاول أن يكون في جانب الصواب . ودبر السكرتير مقابلة بين المنتخب وبين إرازمس ، وقال المنتخب لإرازمس « أريد أن أعرف رأيك صراحة في لوثر » فكان جوابه « لقد ارتكب لوثر جريمتين : لقد صفع البابا على تاجه ولكز الرهبان في بطونهم ! » وكانت هذه هي الحقيقة .

وتذكر المنتخب الرؤيا التي رآها : قلم لوثر الذي تطاول حتى أسقط تاج البابا . لقد كان البابا حقاً صديقاً لإرازمس ولكن هذا لم يمنعه من أن يقول كلمة الحق . أما الرهبان فقد كانوا من ألد أعدائه . فهم أعداء كل جديد وتجديد . وقبل أن ينتهي اللقاء ، كتب إرازمس بخط يده وثيقة يقول فيها ، إن سر عداوة الرهبان للعلم ، هي سر عداوتهم للوثر ، وأن محاولة لوثر نشر أفكاره ، هي بدافع طلب الخير لإخوته . وأنه لا مطلق له ، وعلى أقل تقدير ، فإن عقائد وتصرفات أعدائه ، هي أكثر شراً . أما وثيقة البابا ، فكل إنسان شريف ، لابد وأن يرفضها إلا أن إرازمس لم يتزدد ، في أن يدين روح لوثر العنيفة ، وطلب من المنتخب أن يدعوهم إلى الهدوء والحكمة .

وأخذ أمير سكسونيا برأى إرازمس . وكان في تمسكه بلوثر محافظاً على حياة راهب ويتمبرج ، وراداً لكيد أعدائه — لقد بدأ منذ تلك الساعة في رعاية الراهب التأثر — ولو أنه أرسل إليه ينصحه بالهدوء والتعقل .

لكن نصيحة الأمير جاءت متأخرة — فلقد أراد لوثر أن يشهد العالم كله ، كيف أن راهباً صغيراً في مدينة مغمورة في ألمانيا ، استطاع أن يتحدى إكبر رأس في الكنيسة المسيحية . كان المرسوم البابوي قد وصل إلى

لوثر ، فى العاشر من ديسمبر عام ١٥٢٠ ، ودبر لوثر موكبا من دكاترة جامعة ويتمبرج ، مع حشد كبير من أصدقائه ، حتى خرج بهم خارج المدينة ، وبجوار نهر ألب ، أشعل وثيقة خليفة الله على الأرض ، مع سلسلة من كتب القانون الكنسى ، التى كانت مقدسة لدى الكنيسة ، وذرى رمادها مع مياه النهر ، معلنا أمام حشود الشعب الألمانى الهاتفة ، أن ألمانيا ليست ذبلا للبابوية . ثم عاد وسط هتافات الشعب إلى بيته. ويبدو أن السماء أرادت إشعال هذه الشرارة ، لتندلع نار الإصلاح .

بهذه الصورة أصبح لوثر البوق الداعى إلى الإصلاح ، مهددا بالثورة إن لم يحدث هذا ، ولقد كان حقا يلعب بالنار . لكن مامن خطوة جريئة فى تاريخ الإنسانية ، إلا وكان رائدها القلب المتعب إلى جوار الرأى الراجح .

ولو كان لوثر قد انصباع إلى نصيحة المعتدلين ، أمثال إرازمس ، فربما كان اسمه قد طوى فى صحائف التاريخ ، كرائد انتفاضة لم يقدر لها النجاح ، شأنه شأن جيروم ومس .

اصلاح أم ثورة ؟ !

نعم كان لوثر يلعب بالنار حينما تحدى البابا — فمن الممكن أن الشرارة التى أشعلها تشعل الوقود المعد — لقد كان إرازمس على حق ، عندما عبر عن مخاوفه ، إذ رأى فى ألمانيا أرواحا ، أكثر وحشية واندفاعا من لوثر .

فليس بعيدا إلى الشمال من « ورمز » ، حيث كان أول استعداد لاجتماع الدايت الألمانى ، تحت حكم الإمبراطور شارل الخامس ،

كانت هناك قلعة ابنبرج ، حيث كان رئيسها فرانز ، قد جمع حوله نخبة من الرؤساء الثائرين - وكان فرانز نفسه واحداً من أولئك ، الذين يعتبرهم التاريخ بالنسبة لألمانيا ، في مقام « روبن هود » الثائر في تاريخ إنجلترا .

هذا الفارس كانت مهمته الحرب ، بل كان الأمراء يؤجرونه مع رجاله ، للانتقام من أعدائهم . وكان من الأمور المؤكدة ، أن يقف إلى جانب لوثر . وكان أحد أصدقائه المقيمين معه « الريخ فون هاتن » ، فارساً نظيره ، يقلب ناراً ، لكن سلاحه كان القلم لا السيف . لم يكن معلماً نظير إرازمس ، ولكن الفاقة والمعاناة ، جعلته يغمس قلمه في مداد الحقد والمرارة . وعلى نفس نمط إرازمس في كتابه « الغباوة تمدح » ، استخدم السخرية المرة . ولقد قام بزيارة روما . واتخذ مبادئها مادة لأشعاره ، التي كان يكتبها باللاتينية ، ملقبا البابا بسيمون روما ، الذي يتدفق ذهب ألمانيا في خزانته ، بينما أبناؤها من الفلاحين يتضورون جوعاً . وحينما ظهر لوثر على مسرح التاريخ ، ألقى هاتون بكل ثقله في المعركة إلى جواره . ولم تمنعه دهوع أسرته ، وتوسلاتهم ، من أن يؤيد الراهب الثائر ، وكان في أشعاره يقول : « الحرية لنا - ينبغي أن تنفصل ألمانيا عن روما » استمع إليه وهو يخاطب لوثر قائلاً :

« يا خادماً لله لا تخف ولا تيأس . »

« فها أنا إلى جوارك أمد يدي إليك . »

« ولن أراجع عن أغلى تضحية . »

« حتى ولو كان فيها بذل دمي . »

وفي عشية انعقاد مجلس « الدايت » ، نشر احتجاجه على « سلطان البابا الهمجي غير المسيحي » ، الذي يستنزف دماء ألمانيا ، في سبيل بذخه ، ومظاهره ، ومظالمه ، ولقد حان الوقت لنكسر عنانير روما « (١ . هـ) ثم اتجه بالرجاء إلى الإمبراطور ، كقائد الأمة ورئيسها ، ليعجل بيوم الخلاص ، « أنشر شعار النسر الألماني أيها الملك العظيم ونحن سنرفعه . وإن لم يفلح الصوت الهادي ، فلدينا الجيش والسيف والعتاد » .

ويبدو أن هذه الصرخة الموجهة للإمبراطور ، كانت تتضمن معنى آخر غير الصراع مع روما : كانت صرخة الفلاحين ضد مظالم الإقطاع ، وصرخة أمة مفككة ، تنادى بأنه قد آن الأوان ، لتصبح أمة واحدة ، شأنها شأن إنجلترا وفرنسا .

وقد أثبتت الأحداث التي جاءت بعد ذلك ، صدق هذا التكهن — لقد كان صراع لوثر مع البابوية مظهراً واحداً ، من مظاهر بركان ، كان مكتوماً حتى هذه الساعة ، وها قد آن له الأوان لينطلق وينفجر ويقذف النار والحمم .

وقد أوصل لوثر الصراع إلى حافة الهوة .

وبقي لنا أن نتساءل ، هل سيضحي الإمبراطور بالشعب وبلوثر ، على مذبح صداقته للبابا ، أم أنه سيكون أكثر حكمه وتأيداً لشعبه ! ؟

نقول إن لوثر كان متشائماً ، وكذلك إرازمس الذي قال « لارجاء في شارل . إنه محاط بالبابويين والسفسطائيين » .

لكن هاتن كان متفائلاً جدّاً التفاؤل . فإذا خضع الإمبراطور لمطالب الشعب ، حسنا يفعل ، وإلا ، فلا بديل عن الثورة والعنف ،

وسيد بن خطاب العرش أمام الدايت في أول انعقاد له ، السياسة التي سوف يسير عليها عاهل البلاد .

وكان جدول أعمال الدايت في تلك الجلسة يتضمن العديد من المسائل ، ومنها « مناقشة كتابات الراهب مارتن لوثر ضد بلاط روما ، والتي يؤيدها منتخب سكسونيا وباقي الأمراء » وافتتح المجلس في أواخر يناير (١٥٢١) . وبينما كان في آخر مناقشاته بخصوص بعض الأمور السياسية ، إذا بالإمبراطور يتلقى قراراً من روما ، ويقرأ هذا القرار على الأعضاء ، بضرورة سرعة اتخاذ الإجراءات القانونية اللازمة ، بحق سلطانه ، ضد الراهب المارق مارتن لوثر .

لقد أتاحت الفرصة الآن للإمبراطور ، الذي أمر بإحراق مؤلفات لوثر في الأراضي المنخفضة (هولندا) ، أن يظهر هنا أيضاً سلطانه في ألمانيا ، كالدافع عن وحدة الكنيسة ، وحامي حماها ضد البدع والهرطقات ، ألا يقول البابا له : « هل تحمل السيف عبثاً ؟ وما فائدته إن لم تستخدمه ضد المبتدعين الذين هم أكثر شراً من الكفار ؟ » .

وظهر خطيب بابوي مفوه في يوم لاحق ، وقف يخطب تسع ساعات في مجلس الدايت ضد لوثر ، مبيناً أن ترك الحبل على الغارب لمثل هؤلاء الهرطقة ، ستكون نهايته العودة بألمانيا ، إلى عهد البربرية والوثنية ، وإثارة روح البلبلة والصراع — ثم ختم خطابه ، بأن يقوم المجلس برئاسة الإمبراطور ، بإصدار حكم الهرطقة عليه غيابياً .

وتصل الأخبار إلى « هاتن » في القلعة ، ويغلي الدم في عروقه ويرسل إلى الإمبراطور رسالة من نار يقول فيها .

ماذا ؟ هل هذا ما استحقته منك ألمانيا ، أن تهوى بها إلى الحضيض .
وتجعلها تركع عند أقدام روما ؟ هل حرصا منك تفعل هذا ؟ قدنا
إلى المعركة - النار - دع كل الأمم تتحد ضدنا ، وكل الشعوب
تثور علينا ، حتى نثبت للعالم معدننا في ساعة الخطر .

وأرسل أيضاً خطابات مماثلة إلى أعضاء المجلس .

وكانت نتيجة ذلك ، أن اتخذ الأعضاء قرارا ، بأنه « من العار أن
يحكم على إنسان ، دون أن يسمع منه أى دفاع . وأنه لكبرامة الإمبراطور
لو تنازل لوثر عن تصرفاته الخاطئة . فمن الممكن مناقشة أفكاره العلمية
مناقشة موضوعية . أما من جهة خضوع البلاد لروما وطغيانها ، فإن هذا
يتعارض مع سلطان الإمبراطور » .

ووافق شارل على رأى المجلس ، وفي ٦ مارس أصدر قراراً
بالتسامح مع مجمع وزمر ، لمناقشة آراء لوثر ، مع إعطاء كافة الضمانات
بالحفاظ على حياته .

وفي صباح ٢ إبريل (١٥٢١) ، وصل رسول الإمبراطور ليصطحب
لوثر إلى وزمر . وقبل أن نعرض لأحداث هذا المجمع ، يجمل بنا أن نقدم
صورة عن نفسية لوثر في هذه الحقبة الحرجة .

أما كونه قد ترك ويتمبرج ، وهو مصمم على الصراع ضد البابا إلى
النهاية ، فهذا يتضح من أصول كتاب تركه ، ليقوم أحد أصدقائه
بإصداره أثناء غيابه ، وفيه عديد من اللوحات المعبرة .

والكتاب على حد تعبيره ، نافع للعلمانيين ، وفيه يضع مقارنة بين

المسيح وبين البابا - في صورة منها نرى المسيح يرفض التاج ، ومقابلها صورة البابا بتاجه البابوى .

وفي صورة ثانية نرى المسيح في ردائه الأرجوانى ، وعلى رأسه إكليل الشوك ، ومقابلها البابا على العرش بكل مظاهر العظمة البابوية - وفي الثالثة نرى المسيح يغسل أقدام تلاميذه ، وتقابلها صورة البابا وقد مد قدمه ، ليقبل رجال البلاط لإصبع القدم .

وفي رابعة نرى المسيح تحت ثقل صليبه ، ويقابلها البابا محمولا على الأعناق - وفي خامسة نرى المسيح يطرد الباعة من الهيكل ، يقابلها البابا يبيع الغفرانات وأمامه أكداس مكدسة من الذهب .

وفي سادسة نرى المسيح يدخل أورشليم راكبا على أتان ، يقابلها دخول البابا إلى روما في محفله العظيم .

وآخر صورة من هذه الصور ، تصور المسيح صاعدا على جبل الزيتون ، ويقابلها البابا في لباسه الفاخر ، والأبالسة والشياطين تهوى به إلى قرار الجحيم ، وحوله النيران تندلع . هذا الكتاب الذى تركه كما أشرنا فى يدى صديق له ، وواحد من كبار الفنانين الألمان ، ليشرق على إصداره ، يرينا روح التحدى ، التى غادر بها لوثر ويتمبرج . لكن وراء هذه الروح ، كان إحساسه و يقينه بأنه إنما يعارك معركة الله ، ويصارع صراع الحق . قال لصديقه ملانكثون أثناء افتراقه « إن لم يقدر لى أن أعود يا عزيزى ، وإن نجح الأعداء فى إنهاء حياتى ، فإننى أترك المشعل بين يديك ، بقلب مطمئن » .

ووسط دموع أصدقائه ، دخل العربية المغلقة ، وبدأ رحلته التي استغرقت اثني عشر يوماً .

كثيرون من أصدقائه كانوا يعتقدون أنه راحل لنهايته — في وسط الطريق كان هناك كاهن من أصدقائه ، يعلق فوق جدار غرفته صورة سافونا رولا . وحين مرت عربية لوثر ، أخذ الصورة ورفعها في صمت أمام عينيه ، وهو يقول : « قف ثابتاً في الحق الذي ناديت به ، وسيقف الله إلى جوارك » .

وحيثما وصلت العربية ، كانت الجماهير تستقبله استقبالا حماسيا — وذات مرة اعتلى منبر كنيسة أحد الأديرة ، وراح يعظ بكل جسارة — وفي أخرى راحت الجموع تردد في شبيه لصلوات القديس اللاتيني ، قداسا ساخرأ من نوع آخر ضد البابا وطغمته .

« يارب ارحمنا .

» من الجالس على عرش البابوية .

» من جشع بابا روما .

» من مؤامرات أعداء الحق .

» يارب خلصنا .

» ليكون لوثر عامود الإيمان .

» شاهداً أميناً لك .

» وليصل إلى ورمز ويرجع بسلام .

» يارب اسمعنا .

وحينما وصلت إلى مسامع الحزب البابوي أنباء الحماس الذي استقبل به لوثر في الطريق امتلأ الجميع قلقاً وخوفاً من الشعب - وأرسل شارل إليه مندوبين يطلبون منه شيئاً من التنازل والاعتذار للبابا، وتسوية الموقف دون إثارة المشاكل. غير أن لوثر أصر على عرض قضيته أمام المجمع. وحينما حاول البعض أن يثنيه عن عزمه، مذكراً إياه بمصير « هس »، كان جوابه الجريء « لقد أحرقوا هس، ولكنهم لم يستطيعوا أن يحرقوا الحق ». ثم كتب في مذكراته بعد ذلك يقول: « لقد كان إبليس يعرف أنني لن أراجع، حتى ولو تكلمت الشياطين كلها في ورمز، بعدد قطع القرميد التي على أسطح المنازل ».

وإذا اقترب من المدينة، تقدمت كوكبة من الفرسان، على رأس مجموعة من الحرس لحراسته، وأحاطت بالعربة المغلقة، بينما تكأ كأت الجماهير من الخلف تتبع الموكب، وكان منتخب سكسونيا، قد أرسل هذا الحرس لحراسته.

وفي صبيحة اليوم التالي، مثل لوثر أمام المجمع، وكان يضم بعضاً من المنتخبين وعدداً من رؤساء الأساقفة والأساقفة والنبلاء، كان عددهم يزيد على المائتين وعلى رأسهم الإمبراطور.

ووقف المدعى أمام منضدة تكلمت عليها كتب لوثر، وأشار إليها وقال موجه الكلام إليه: « هل تعترف بأن هذه كتاباتك؟ وهل أنت على استعداد أن تسحب التعاليم الهرطوقية التي تحتويها؟ » فأجاب لوثر: « أما عن الكتب فهي كتاباتي، ولا أنكر ذلك، أما الإجابة عن السؤال الثاني، فهي تحتاج إلى مهلة للتفكير ». فتفاعل الحزب البابوي، إذ كان أعضاؤه يتوقعون أن يزجر لوثر كالأسد، لكن ها هو يبدو أمامهم

كالحمل ، ويطلب مهلة للتفكير . ولعله يفكر في التراجع والاستغفار .
وأعيد لوثر إلى الفندق الذى يأويه . ولكننا نعرف قراره سلفاً من خطاب
كان قد أرسله إلى صديق له ، يقول فيه :

« لقد أجبت بالإيجاب عن كتي . وسأتحدث غداً عن عقائدى ،
وبنعمة المسيح لن أراجع عن واحدة منها » .

في ذلك المساء ، سمعت أصوات شجار في الشوارع بالقرب من
الفندق ، وقامت الشرطة بتفريق الجموع . أما لوثر فقد كان في غرفته
وأمامه كتابه المفتوح ، وهو في نوع آخر من الصراع . لقد كان يصلى
بصوت مرتفع ، وجميل ، أن يحفظ لنا التاريخ صلاته في تلك الساعات
الخرجة ، وفيها يقول :

« أيها الإله السرمدي ، ما أقسى هذا الوجود ، أنظر ، إنه يفتح
فاه ليبتلعني ، وأنا مسكين — ما أضعف الجسد ، وما أقوى الشيطان .
قد أتت ساعتى ، والحكم صدر على مسبقاً : يا إلهي ، أعنني . أرجوك
أن تفعل هذا ، لأن القضية ليست قضيتي ، بل قضيتك وهي قضية
عادلة — أيها الإله الأمين ، إني لأضع ثقتي في إنسان — وباطلاً أفعل —
إن كل من يفعل ذلك مصيره الفشل . يا إلهي ! ! أتسمعي ؟ لماذا
تختبئ في يوم الشر ؟ ! لقد اخترتني أنت للعمل — قف بجانبى من أجل
خاطر حبيبك يسوع » . . .

« أيها الرب إلهي ، إني على استعداد أن أبذل نفسي في سبيل حقلك
لن أتركك ، ولن أدعك تتركني — ولو امتلأ العالم بالشياطين —
ولو احترق جسمي — ولو ذبحوني ذبحاً . . . وطرحوني للأرض ومزقوني

إربأ ، ولو احترق جسدى حتى صار رماداً ، تبقى نفسى لك — وتسكن معك إلى أبد الآبدين .

وجاء اليوم التالى ، ووقف لوثر مرة ثانية أمام أعضاء المجمع ، وهتف المدعى « مارتن لوثر — لقد اعترفت بالأمس بأنك صاحب هذه الكتب ، هل أنت مستعد اسحبها أم لا ؟ وهل تدافع عنها كلها أم تتنازل عن بعضها ؟ » .

ويبدو أن الموقف فى البداية تغلب على لوثر ، فابتدأ بالتحديات الكثيرة للمجتمعين ، غير أنه سرعان ما عاد إلى رباطة جأشه ، وبدأ يتحدث عن كتبه .

« هناك الكتب التى تحدثت فيها عن الأخلاقيات وبنود الإيمان ، وهذه يمتدحها حتى الأعداء — فكيف أسحب مثل هذه ! ؟ »

« وهناك الكتب ضد البابوية ، وعقائدها ، وممارساتها ، التى أرهقت المسيحية وحطمتها ، جسداً ، وروحاً . فى هذا لا يختلف إثنان لأنه اختبار الجميع ، وموضوع شكوى الجميع ، والجميع يشهدون أن قوانين البابا ، وتعاليم رجاله قد أرهقت ضمائر الشعب ، وامتصت دماء أمة عظيمة مثل ألمانيا — فإذا سحبت مثل هذه الكتابات ، فكأنى أشجع الظلم والطغيان ، وأزيد النير ثقلاً على أكتافنا ، وأكون ملذباً فى حق إخوتى » .

« أما النوع الثالث ، فقد كتبت ضد أشخاص ساندوا الظلم والطغيان ، وظنوا أن فى خدمتهم للبابوية خدمة لله — وأنا لا أقول إننى منزّه عن الخطأ ، ولكنى لا أدافع عن نفسى بل عن عقيدة المسيح . لذلك فلننى

أقول ، إننى لا أستطيع أن أسحب واحدا من كتبي هذه ، وإنى على استعداد أمامكم ، أن أجادل أى شخص يظهر لى ، فى أى واحد منها ، أننى. جانبى الصواب « . فى هذه اللحظة توقف لوثر عن الكلام ، فقد أرققه سهره بالأمس ، وراح العرق يتصبب من جبينه . ولقد كان يتكلم باللغة الألمانية ، التى ما كان يعرفها الملك نصف الألمانى ، ولا الأساقفة القادمون من بعيد . فأنحنى عليه منتخب سكسونيا ، وطلب منه إعادة الخطاب باللاتينية . وما أن فعل ذلك ، وعرف المجتمعون فحواه ، حتى علت صيحات الغضب ، وعاد المدعى يهتف له . لم نأتِ إلى هنا لمناقشة آراء — إننا نسألك سؤالاً واحداً ، هل تسحب كتبك أم لا ؟ — وجاء الجواب القاطع — إننى لا أستطيع أن أسحب أقوالى ، لأنه من الخطر أن يتكلم المسيحى ضد ضميره — هذا هو موقفى ، ولا أستطيع أن أفعل غير ذلك . فليكن الله معينا لى . آمين . »

وانسحب الجميع لراحة الليل ؛ فى انتظار ، قرار الامبراطور . وجاء القرار فى اليوم التالى ، بأن لوثر سترفع عنه الحصانة الكهنوتية ، ويطرده من الخدمة باعتباره شخصاً له مبادئ هرطوقية « وبصفتى سليل أباطرة ألمانيا ، وأمراء النمسا وبرغنديا ، الذين اشتهروا بحماية الإيمان الكاثوليكي . سوف أطرده لوثر الأوغسطينى ، وأحرم عليه أن يتسبب فى أقل اضطراب بين الشعب . وسأطرده وأتباعه كهراطة ، جديرين بالحرم ، وبكل وسيلة تؤدى لهلاكهم . . . وإنى أطلب من الأمراء ، أن يؤيدونى فى هذا . » وعلت همهمات التذمر من البابويين قائلين : « إن نهر الراين ينبغى أن يجرف رماده ، كما ابتلع رماد جون هس . لكن الأمراء لم يوافقوا على هذا الاقتراح ، وعارضوه بشده . فى نفس الوقت وصلت الأنباء إلى قلعة فرانز . . . وثار هاتن ، وفى الليل ، عاقت فى ساحة المدينة لوحة كتب عليها : « إن أربعمائة

فارس ألماني ، وثمانية آلاف مقاتل، مستعدون للدفاع عن لوثر ضد الحزب البابوي . . وتضاربت الشائعات أيضا ؛ عن تحركات جماعية من أقصى حدود الولايات الألمانية ، على استعداد للهجوم على مدينة ورمز الأثرية وانقاذ لوثر .

وتحت تأثير هذه الشائعات ، اضطر الإمبراطور إلى التراجع ، وأعطى مهلة للراهب النائر ، بالانسحاب إلى بلده ويتمبرج ، في مدى ثلاثة أسابيع . . ونزل لوثر إلى شوارع ورمز نزول الأبطال ، واستقبلته الجموع بالهتاف ، فلقد حارب ليس معركة فرد ، بل معركة أمة ، ودافع ليس عن مصيره فقط ، وإنما عن مصير المسيحية جمعاء . .

ولم يجد البابا من وسيلة سوى الإغتيال، والمؤامرات، وبلغ مسامع أصدقاء لوثر ، أنه في طريق عودته ، سوف تمزقه خناجر البابويين . . وقد حدث بالفعل ما كان يتوقعه الجميع — لكن بصورة أخرى . . ففي الطريق ، اعترضت مركبة لوثر عصابة من « قطاع الطرق » ، وهجمت على عربة المصلح .

فشارت الشائعات بأن روما قد حققت هدفها ، وأن لوثر قد وقع أخيراً في قبضة أعدائه . وأنه ربما يلاقى نفس المصير ، الذي لاقاه هس منذ قرن من الزمان .

غير أن تلك العصابة ، لم تكن غير جماعة من الفرسان من أصدقائه ، أنذكروا في زى اللصوص ، واختطفوه إلى قلعة وارنبرج لحمايته من أعدائه .

وهذه القلعة التي دعاها لوثر بجزيرة بطمس ، كانت قلعة منيعة على جبل شامخ ، تطل على مدينة الزناخ ، المدينة التي نشأ فيها أولا . ولكي لا تثار الشبهات حول وجوده ، خلعوا عنه الثوب الكهنوتي ، وألزموه بأن يطلق شعره ولحيته ، وأعطى لقب « الشريف جورج » تلك كانت حالة من التغيير الكلي في حياة الراهب الثائر ، حتى أن جسده أصابته العلل ، وعقله أصابه الملل .

وفي رسائله ومذكراته التي كتبها في هذه الفترة نجده يشكو مر الشكوى من حالات الحمول التي بدأت تسيطر عليه ، بسبب الأطعمة الفاخرة التي كانت تقدم له . غير أن هذه الفترة لم تضع عبثاً ، وإن كان قد حرم من منبر كنيسة ويتمبرج ، إلا أنه وجد أمامه منبر الكتابة . وفي عزلة الإضطرابية هذه ، أتم أجمل وأقوى كتاباته ، التي خلدت اسمه على مر الأجيال ، وكانت الوثود الحقيقي لئيران الإصلاح ، ونعني بها ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة الألمانية . ففي صيف عام (١٥٢١) ، انتهى من ترجمة العهد الجديد ، كما بذل جهداً في دراسة اللغة العبرية ، حتى يتسنى له إتمام ترجمة باقي الكتاب .

وفي عام (١٥٢٢) ، نشرت الترجمة الألمانية ، بعد مراجعة ملائكثون لها . ويكفي أن يقول فيها دوينيه : « لقد كتبت في نفس الأسلوب الأصلي ، وبلغة قوية شابة ، فكانت مشوقة وجذابة لكافة الأذهان ، من أدناها إلى أسماها » . بل إن المؤرخ البابوي ميمبورج ، اعترف بأن « ترجمة لوثر » كانت في غاية الرشاقة وجمال الأسلوب ، حتى قرأها كل إنسان في ألمانيا ، وإن نساء من أرقى الطبقات وأشهرها ، كن يدرسن هذه الترجمة بشغف ، ويدافعن عن تعاليم المصلح ضد الأساقفة والرهبان .

ولم تنقضى عشر سنوات حتى كان العهد الجديد ، قد طبع في أكثر من مدينة سبعة وخمسين طبعة ، أما العهد القديم ، فقد انتهى لوثر من ترجمته في عام (١٥٣٠) ، وبعد ذلك نشر الكتاب كله بعهديه القديم والجديد .

نعود إلى الحزب البابوي فنقول ، إنه بعد التهديد الذي نالوه على أيدي فرانز وهاتن ، وانقضاء عدة أسابيع دون أن يحدث شيء ، ابتداءً أعضاءه يفيقون من الصدمة ، وراحوا يلحون على شارل الخامس ، بأن يسرع بإصدار المرسوم النهائي ضد لوثر وجماعته . ورأى منتخب سكسونيا أن الريح لم تعد مواتية ، وأن شارل قد انحاز نهائياً للحزب ، فكتب إلى أخيه يقول : « إنه ليس حنان وقيافا فقط ، بل بيلاطس وهيردوس أيضاً ، قد اتحدا ضد لوثر » . ولقد نجح المندوب البابوي في الثامن من مايو عام (١٥٢١) ، في أن يعقد بين البابا ، والإمبراطور ، معاهدة صداقة ودفاع مشترك ، فيها تعهد البابا ببذل أقصى جهده ، لطرد الفرنسيين من ميلان وجنوا ، مقابل مجهودات شارل لسحق لوثر وعصابته .

وبقى على المندوب صياغة المرسوم ضد لوثر ، وموافقة المنتخبين أو الأمراء عليه . وكتب المرسوم على عجل ، ويعد بيان مشوش للأخطار الدينية ، والسياسية ، التي تتعرض لها البلاد بسبب لوثر ، والتي ظهرت بوادرها في روح التمرد ، والثورة ، والحماسة ، التي سادت في أكثر من مكان ، والتي تهدد مصالح الأمراء أنفسهم ، بتمرد أتباعهم من الفلاحين عليهم ، اضطر الأمراء إلى الموافقة على المرسوم البابوي . أما منتخب سكسونيا ، فلما لم يجد أدنى جدوى من مجهوداته ، غادر ورمز عائداً إلى دوقيته .

وفي هذا كتب ولرز سكرتير الإمبراطور ، لصديق له في أسبانيا .
 « وهكذا أسدل الستار على هذه المأساة . ولكني أقول إنها ليست النهاية ،
 بل البداية ، لأنني أرى نفسية الألمان ، في ثورة عارمة ضد البابا ورجاله
 ويبدو وكأنهم لا يعيرون أى التفات لقرار الإمبراطور ، لأنه بعد صدوره
 ازدادت كتب لوثر بيعاً ، حتى أنك لتجد البائعين يقفون عارضين كتبه
 في زوايا الشوارع والأسواق . لذلك تستطيع أن تخمن ما سيحدث ، لو
 ترك الإمبراطور البلاد ، لتسوية المشاكل في أسبانيا .

« ولقد كان ممكناً تلافي الحالة بشيء من الحكمة ، ولكن مادام البابا
 يصصر على حرق لوثر وكتاباتة ، فلنرى المجتمع المسيحي كله في خطر
 الإنهيار ، إلا إذا تداركتنا رحمة الله » .

ولقد انتصر البابا وحزبه ، وأصبح الإمبراطور شارل في صفه .
 وبينما راح البابا يجند القوى لطرد الفرنسيين من ميلان وجنوا ، راح شارل
 في نفس الوقت يجند القوى لتنفيذ قرار حرمان لوثر وطرده . لقد فضل
 الإمبراطور مصالحه ومصالح البابا ، على مصالحة الشعب الألماني ، وكما
 قال إرازمس : « إن البابا والأمراء ، يعاملون الشعب وكأنه قطيع في سوق
 الماشية » . لقد وقف هنري الثامن ملك إنجلترا ، ضد جماعة الإصلاح
 في أكسفورد كما أسلفنا ، ووقف شارل الخامس ملك ألمانيا ، في وجه
 لوثر وجماعة الإصلاح هناك .

ولم يبقَ من بديل إلا الثورة .

الثورة ... الثورة !

منذ ذلك الحين - (عام ١٥٢٠) وتعاليم لوثر تشق طريقها في كافة
 أرجاء ألمانيا . كثيرون من الرهبان من زملائه الأوغسطينيين ، وغيرهم ،

هجرُوا الأديرة ، منادين بما ينادى به لوثر . وكثيرون أيضاً من كهنة الأبرشيات ، أصبحوا لوثرين ، وتبعهم كنائسهم كذلك . حتى الأساقفة اعتنق كثيرون منهم التعاليم الجديدة . وحيثما لم يوجد رجال كنيسة ، طاف الشباب والكتاب في أيديهم ، منادين في القرى بإنجيل الخلاص . بل حتى أتباع المذهب الإنساني (Humanism) ، وجديبينهم مفكرون ، رأوا في « مسيحية لوثر » ، شيئاً يستحق التقدير . وقدمت لوحات مبسطة ، وتعاليم على لوحات ، لمن فاتهم حظ التعليم . أما « الأخوة » الذين تأثروا من قبل بتعاليم هس واعتنقوها ، فقد قابلوا اللوثرية بحماس بالغ .

وانتشرت اللوثرية انتشاراً واسعاً . إنها كانت حركة انتعاشية للمسيحية . لقد كانت في لوثر ، طاقة لا تنضب من الحياة الروحية ، على الرغم من أخطائه . ومن كنزه ، كان يخرج ما هو جديد جددة الحياة ، وما هو قديم قدم الحق المسيحي . وفي تعليمه عن كهنوت جميع المؤمنين في المسيح ، حرر الناس من عبودية الكهنوت ، وفي تعليمه ببطلان الإعراف للكهنة ، ونوال الغفران منه ، والإعراف للرب وحده ، بالخطية ، قدم للناس تعليماً أفضل . أما سكان المدن الحرة ، حيث تقل الكنائس والكهنة ، فقد كانت استجابتهم أقوى وأعمق ، لأن القوى المضادة هناك كانت أقل . وكم كان جميلاً أن تظهر آثار مجهودات لوثر ، فيستطيع كل إنسان أن تكون له علاقة شخصية مع إلهه ، دون عون من كاهن . ويستطيع أن يصل إلى إدراك كلمة الله ، دون حاجة لأن يسأل رجل الكنيسة . ويستطيع أن يقرأ الكتاب في لغته ، بديلاً عن لغة ميتة لا تفهمها عامة الشعب .

وبينما كانت كلمة الحق تنتشر لم يقف البابا ساكناً . لكنه كان يعمل عن طريق عملائه ، لبث الفرقة بين صفوف الأمراء الألمان ، وقد ساعدته

الظروف على ذلك ، كما سنعرض لذلك فيما بعد ، فانقسم الأمراء إلى فريقين أحدهما مؤيد والآخر معارض للحركة اللوثرية .

وكم كانت دهشة الحزب البابوي ، حينما رأى الناس لا يهتمون كثيراً بقرار الإمبراطور . لقد سبى لوثر قلوبهم بجرأته النادرة ، ولحق قرار الإمبراطور بمرسوم البابا الأسبق . أما أعوان الإمبراطور ، فقد كانوا يجتهدون في مصادرة كتب لوثر وإحراقها أينما وجدت . ولكن هذا أدى إلى زيادة انتشارها . على أن شيئاً آخر لم يحسب له البابويون حساباً : لقد أسكتوا لوثر على ما يبدو . وسواء كان آمناً في قلب قلعة دار تهرج ، أو كان يكتب هناك ، فالمهم أنه اختفى من أمام عيون الشعب ، فلم يعد يهز المنابر والقلوب بعد . لكن سقوط الشعلة من يدي لوثر في تلك الفترة ، لم يمنع من أن تتلقفها أيدي أخرى أكثر شراسة ووحشية . وحين انزوى عن الأنظار ، برزت إلى خشبة المسرح شخصيات ، أقل ما يقال فيها ، إنها تفكر بمنطق الرعاع — في تلك الفترة الحرجة ، لإذراح كثير من الرهبان يثرون ويحطمون الأديرة ، وينخرطون في سلك الأعمال التجارية . بينما تمرد الشعب ، وراح يحطم الصور والتماثيل ، وينهب مقدسات الكنائس ، وظهرت جماعات تنادى بنبوات ، وتقود الجماهير بتعاليم غريبة — ووقعت اعتداءات على الكهنة ورجال الدين ومطاردة للرهبان — وفي « زويكاو » ، بالقرب من حدود بوهيميا ، ظهر نساك يدعى كلاوس ستورخ ، خيل إليه مع جماعة من أصحابه ، أن رسائل السماء تصلهم ، وأن وحيًا يهبط عليهم — فما الداعي إلى الكهنة وهم الأنبياء؟ وما لزوم الكتاب المقدس والوحي ينزل عليهم؟ وهكذا ، جالوا بين الناس ، يحرضون لجموع على ارتكاب أعمال وحشية .

وطاردتهم السلطات من زويكاو ، فوصل شتات منهم إلى ويتمبرج ، حيث كانت الجموع في غاية التحمس ، تحت زعامة قائد يدعى كارلستاد .

وكارلستاد نفسه انساق في تيارهم . وحصلت ثورات ومظاهرات - واندفعت الجماهير الطائشة في ارتكاب أعمال العنف . حتى ملانكثون نفسه كاد يصدق رسالة هذه الجماعات ، على الرغم من أنهم كانوا ينادون ببطلان العلم الجسدي ، والدراسة في الجامعات !!

وعندما بلغت هذه الأنباء المؤسفة مسامع راهب ويتمبرج ؛ القابع في القلعة في ثيابه التنكيرية ، وعلم بهذه التصرفات الضارة والمميتة لحركة الإصلاح ، اعتبرها وصمة عار في جبينها . وعلى الرغم من الأخطار التي كانت تحيق به ، إذا به يطرح في شجاعة ثياب التنكر ، ويغادر حصنه ، ويظهر على منبره القديم في ويتمبرج ، داعياً شعبه إلى الهدوء والسكينة ، مبيناً لهم ، كيف أنه لم يستخدم العنف يوماً ولم يناد به ، وأن الإنجيل المسيح ، سوف يعمل عمله في تغيير كل الظروف ، دون ما حاجة إلى استخدام القوة . فهدأت الجموع وانصاعت لنصائحه ، أما قادة العنف ، فجاءوا إليه ، متوقعين منه أن يؤيد رسالتهم . غير أن لوثر أكد لهم أنه لا يشك لحظة ، في أنهم مخلصون ، ولكنه يخشى أن يكون إخلاصهم مبنياً على أساس خاطيء ، فعاد النظام مرة أخرى إلى ويتمبرج ، وعاد الكتاب المقدس إلى أيدي الناس ، القانون الأوحد للإيمان ، والمصدر الأوحد للعبادة والسلوك . أما « أنبياء » زويكاو ، فالبثوا أن غادروا ويتمبرج إلى أماكن بعيدة عن محل إقامة لوثر - وبعد هذه الأحداث ، يظهر واحد من أتباع ستورخ ، إنسان ثائر باسم « مندر » ، وبدلاً من أن

يذهب إلى ويتمبرج ، يرحل إلى بوهيميا ، وإلى حدود ألمانيا ، حيث
ركز مناداته بين الطبقات الكادحة ، وقد عرف هناك بنبي الفلاحين .
ورغم روحه الثائرة ، فإننا لا نستطيع إلا أن نقر بإخلاصه . لقد كان
يعتقد في نفسه أنه ملهم بوحى إلهي ، وكان ينادى بدعوته كني . وزيادة
على ما نادى به لوثر ، كان يدعو إلى وجوب إلغاء اللغة اللاتينية من الخدمة
الدينية ، وإحلال الألمانية مكانها . وكان ينادى باستخدام السيف حيث
لا تجدى روح اللطف ، ومن ذا الذي يلومه ؟ إن والده نفسه كان قد سقط
ضحية صراع مع أحد رجال الإقطاع ، وهكذا اعتقد أن السماء قد
أرسلته للانتقام ، لحقوق هذه الطبقة الكادحة . ومن مكان إلى مكان ،
راح يتنقل منادياً بإنجيل الثورة ، إلى جوار إنجيل الإصلاح .

وفي نوفمبر عام (١٥٢٤) ، اندلعت نيران الثورة في مقاطعة سوابيا ،
حين طلب رجال الكونت « لوبفين » من الفلاحين في يوم عطلة لهم ، أن
يقوموا بجمع أسماك القواقع لسكان القلعة . وعندها ، ثار الفلاحون
وتمردوا ، ولم تغلج كل الوسائل في إقناعهم بالعودة لأعمالهم - وقدم
الفلاحون قائمة بمطالبهم ، مكونة من اثني عشر بنداً ، أهمها التحرر من
نير أسيادهم ، وحق اختيار الكهنة ، وعدم دفع العشور عن الأشياء
الصغيرة كنتاج الماشية والدجاج - ولم تكن كل مطالبهم في حدود طاقة
الإقطاع لإجابتها . فحرية اختيار الكهنة ، معناها أنهم قد يختارون أى
واحد من جماعة « أنبياء الله » الثائرة ، والتحرر من نير أسيادهم ، معناه
اختلال ميزان العمل في المزارع . أما العشور فنحن نتصور حرص رجال
روما ، على الحصول على كل صغيرة وكبيرة باسم الدين .

ولما لم يكن من الحرب بد ، أرسل أمراء سوابيا قواتهم إلى الفلاحين

الثائرين الفقراء ، غير المدربين على القتال ، في أبريل عام (١٥٢٥) ، فذبحوا منهم الألوف ، وألقوا بجثثهم في النهر - وأثارت أنباء هذه المذبحة ، الفلاحين في كافة أرجاء ألمانيا . . . ففي قلعة ونزبرج ، يبدو وكأن الكونت هافشتين رئيسها قد فقد اتزانه ، بسبب تلك الأحداث ، فظن جماعة من الفلاحين في الطريق قادمة لاختطافه : فذبحهم بسيفه ، فكانت النتيجة أن الفلاحين ثاروا ، وحاصروا القلعة ، واستطاعوا اقتحامها ، وذبحوا كل من فيها ، حتى الكونتيسة وأطفالها الصغار ، وانطلقت صرخات الرعب في أوروبا - صرخات لم تنطلق ، عندما ذبح الألوف من فلاحى سوابيا . فما قيمة دم الفلاحين إزاء دماء النبلاء ؟ وما حياة أولئك بجوار حياة الأشراف ؟

وعلى الرغم مما قوبلت به ثورة الفلاحين ، التي امتدت إلى عدة مدن أخرى ، من عنف وقسوة - فإن الثورة استمرت وتزايدت . وانطلق « منذر » إلى ثورنجيا من مكان إلى مكان ، مشيرا ، ومشجعا ، ومواسيا - وتزعم ثورة قاسية في مدينة ولهاوزين ، ناطقا بنبوات صارخة ، وويلات على الأعداء . ونظير ما فعله سافونارولا في فلورنسا ، كان موقفه هكذا ، حتى أن نوعا من العدالة الاجتماعية ، بدأ يسود المنطقة ، وراح النبلاء يوزعون الطعام بأنفسهم على الفلاحين .

لكن « منذر » لم يكتف بذلك . فحين وصلت أخبار مذبحة سوابيا ، صرخ في الفلاحين - « هيا اكسروا قيودكم . حاربوا حروب الرب ، لأن الوقت قد حان ، لاتشفقوا على أحد ، ثوروا في المدن وفي الضواحي ، هيا إلى الأمام ، مادام السيف يقطر دما اقتلوا المنافقين المتكبرين ، فلن تنعموا بالحياة ، ما بقي واحد منهم على قيد الحياة » .

وجمع حوله ثمانية آلاف من الفلاحين ، لكن النهاية كانت قريبة —
إذ هاجمه الأمراء بقواتهم المدربة ، ولقي خمسة آلاف فلاح مصرعهم
وانتشرت جثثهم في الوادي — أما « منذر » فقد هرب متخفياً ، لكنه
سرعان ما اكتشف وقطعت رأسه .

وهكذا انتهت ثورة الفلاحين إلى الفشل ، وأنخفت ثورة أنبياء
زويكاو ، وانتفاضة منذر وجماعته ، وأصبح على الفلاحين التعساء ،
أن يقضوا قرنين أو ثلاثة قرون من الزمان ، تحت سياط النبلاء والأشراف .
ويقال إن مئة ألف قد هلكوا في هذه الحروب ، أي ما يصل إلى عشرين
ضعفاً للذين أعدموا في باريس أثناء الثورة الفرنسية — أما لوثر ، فقد
وقف إلى جانب القوات الحاكمة . لقد كان مبدأه منذ البداية ، هو عدم
استخدام العنف ضد السلطات . كما أن الإصلاح كان قد قام على أكتاف
الأمراء . ولكي يبريء نفسه من شبهة وجود أية صلة بينه وبين ثورة
الفلاحين ، كان نداؤه للأمراء ، « اسحقوهم بلا شفقة » . لقد كان
الفلاحون يعتقدون أن لوثر سيكون ظهيراً لهم ، لأنه من أبناء الطبقة
العاملة ، لكن خاب ظنهم — أما منذر وجماعته من أنبياء الثورة ، فلا
غربة أن يقف لوثر في وجوههم . لقد كان يرى النهاية منذ البداية ،
وحاول أن ينصحهم بالتخلي بروح الإتران ، غير أنهم ازدادوا جنونا
واندفاعا .

نقول إن أوربا مدينة بالكثير لزعيم الإصلاح في ألمانيا ، بسبب عدم
لجوئه للقوة في الدفاع عن مبادئه ، وعدم استخدام العنف : لكننا لا يمكن ،
ولا يمكن أيضاً للتاريخ أن يغتفر له ، دعوته للأمراء لسحق الفلاحين دون
رحمة . ألم تكن ثورة الفلاحين إلى حد ما ، متأثرة باندفاعه ضد البابوية

تقى بعض التصرفات ؟ إن منظر راهب ويتمبرج على رأس زملائه ، وقد أشعل النار في مرسوم البابا ، وكتب القانون الكنسى ، لابد أنه ، كما لها أثرها - وهذا هو ما قاله إرازمس نفسه : « إن أوروبا كلها ستغرق في طوفان من الثورات العالمية » ولقد حدث هذا بالفعل . ترى من الملووم في هذه الأحداث ؟ لقد ألقى الرهبان باللوم على إرازمس ومدرسته الفكرية الجديدة ، وأنحى إرازمس باللائمة على لوثر ، وألقى لوثر اللوم على « أنبياء » الثورة ، فمن الملووم إذا ؟

إن أولئك جميعا لالوم عليهم ، فالذنب كان ذنب أولئك الاقطاعيين الجشعين ، الذين لم يقبلوا الأخذ بأسباب العدالة الاجتماعية ، وعلى البابا والإمبراطور ، والحزب البابوى ، الذين لم يأخذوا بأسباب الإصلاح وتضحيتهم بالمصلحة العامة في سبيل مصالحهم الشخصية ، ومداهنتهم للبابوية ، كل هذه مجتمعة ، كانت العوامل التى أدت إلى ثورة الفلاحين ، وإلى المذابح الدموية التى هلك فيها الألوف . لكننا نقول إن أميراً واحداً على الأقل ، لم يكن ضد الفلاحين ، ذلكم هو منتخب سكسونيا ، الذى كان على فراش مرضه الأخير ، حينما وصلته أنباء الثورات ، فأرسل إلى أخيه ووريثه يقول : « إذا كان الفلاحون سيحكمون ، فليكن مشيئة الله » ، وإلى خدمه الذين اتفوا حوله قال ساعة موته : « يا أولادى الأعزاء ، إن كنت قد أسأت إلى واحد منكم ، سامحونى فى حق محبة الله . إننا نحن الأمراء ، كثيراً ما نتصرف نحو الفقراء تصرفات لاتليق » .

والآن دعونا نرى ما حل بالقوى العظمى ، التى تأمرت على لوثر ، وأبرمت معاهدة ورمز السرية ، التى بمقتضاها تعهد الإمبراطور شارل ، بطرد الفرنسيين من ميلان وجنوا .

وقد انضم هنري الثامن ملك إنجلترا ، إلى هذا الحلف ضد فرنسا .
بتأثيرات وزيره الكاردينال ولسبي . وكان هنري يحلم بإعادة المناطق الفرنسية
التي كانت خاضعة لانجلترا ، وكان ولسبي يطمع في أن يصبح ، خليفة
لبطرس الرسول ، بعد البابا الذي كان جالسا على الكرسي آنذاك .

أما الجولة الأولى بين شارل الخامس وملك فرنسا ، فقد كانت في
الشمال ، ولم تسفر عن شيء . وفي نفس الوقت ، كانت قوات الحلفاء ،
تتحرك ضد القوات الفرنسية في شمال إيطاليا — واستطاعت أن تدخل ميلان
في أواخر عام (١٥٢١) . لكن البابا ليو ، لم ينعم بشمار هذا النصر .
إذ انتهت حياته بالسقم ، في أول ديسمبر من نفس العام . وتولى بعده
أدريان السادس . الذي كان مرييا لشارل ، وكان معتدلا يرغب في السلام
ولو أن الظروف لم تكن في صفه — فلم يبق طويلا في منصبه ، لأنه مات
بعد عامين ، وخلفه أكلمندس السابع .

في تلك الأثناء ، ظن هنري أن الريح في صفه ، فهاجم بأسطوله
سواحل فرنسا . لكنه لم يصل من غزوه إلى شيء ، سوى إثارة أحقاد
فرانسز ، ملك فرنسا ، الذي جند كل جيشه ، وعبر الألب لتأديب
هذا الحلف الثلاثي ، واستعادة ميلان . وقد اعتقد البابا ، أن النصر
سيكون خليفة ، فعقد معه حلفا سريا . وانتهى الأمر بهزيمة ملك فرنسا
وأسره ، لكن شارل علم بقصة الحلف السري ، وقد أدى هذا إلى حدوث
قطيعة بينه وبين البابا .

فلماذا أتينا إلى المشاكل الدينية ، فلإننا نجد مجمع سبيرز يلتئم ، ويطلب
فيه البابا ، عن طريق قاصده الرسولي ، تنفيذ قرارات مجمع ورمز ،
واتخاذ أقصى الإجراءات ضد لوثر وهرطقته وكان هذا مستحيلا ، فقد

تغيرت الظروف ، وأصبح حزب منتخبة سكسونيا الجديد ، في ملء قوته ، كما أن القطيعة بين الإمبراطور والبابا كان لها أثرها .

فلم يعد شارل الخامس يهتم بعد - بتأييد البابا الذي خانته مع ملك فرنسا ، وعقد معاهدة سرية معه . وهكذا انتهى مجمع سبيرز إلى القرار الآتي :

« بمقتضى قرار مجمع سبيرز ، تستطيع كل ولاية أودوقية ، أن تحيا وتحكم وتتصرف وتعتقد ، في حدود مسؤوليتها أمام الله والإمبراطور . » . وكان معنى هذا ، هو إطلاق الحرية السياسية والدينية . ومعناه أيضاً ، أن حزب لوثر والأمراء الذين إلى جانبه ، قد أصبحوا أحراراً في التصرف كما يرون . ومنذ صدور هذا القرار ، انقسمت ألمانيا قسمين ، جانب يمالئ البابا ، والآخر يناصر لوثر ، ويدين بمبادئ الإصلاح .

والخطوة التالية جاءت من جانب الإمارات والدويلات التي كانت تناصر اللوثرية . فقد عازمت على اتخاذ خطوة إيجابية لتأديب البابا ، وإيقافه عند حده - وتحت إمرة قائد متعصب ، يعرف باسم فرندزبرج ، التأم جيش ألماني جرار ، يدين بمبادئ اللوثرية ، من بقايا ضحايا ثورة الفلاحين ، يلهبه الحقد والحماسة ، وتغذيه روح الانتقام . أما شعار قائد الجيش فكان : « سوف أذهب إلى روما لأشلق البابا ! » .

وعبر الجيش المتحمس جبال الألب ، من معابر سرية ، تقل فيها الحراسة ، وهبط إلى سهول لومبارديا ، حيث انضم إليه جيش أسباني (١٥٢٧) .

ولم تمض أسابيع ، حتى كان الجيش المتحد ، الذي يبلغ قوامه عشرين ألف مقاتل ، يدق أبواب روما . واستطاع الجند بالمعاول والتسلق ،

أن يفتحوا ثغرة في الجدار المنيع ، ويصلوا إلى الداخل . ومع أن المدافع كانت مصوبة إلى صدورهم ، إلا أنه لم يفقد منهم ، أكثر من أربعة آلاف مقاتل — أما البابا ، والكرادلة ، والأساقفة ، فقد هربوا وتحصنوا في قلعة سان أنجيلو ، تاركين القصر البابوي بتحفه وروائعته ، للنهب والسلب مع قصور الكرادلة .

وبعد أن أكمل الجند مهمتهم في نهب التحف ، اتجهوا إلى بيوت الكرادلة والنبلاء — حتى كنيسة القديس بطرس لم تسلم من النهب ، ثم تحصنوا في أماكنهم ، وأمامهم باقى المدينة . وقد حاول أبناء روما استمالة البابا ، ليعقد صلحاً معهم ، لكنه رفض باصرار .

يقول مورخ معاصر عن قصة شاهد عيان (١) .

« وقر القرار على مهاجمة المدينة من الداخل . وتدفق الألمان والأسبان ينيهون ويقتلون دون مراعاة لأى اعتبار . حتى الأطفال والنساء ، لم تشفع لهم استرحاماتهم ودموعهم . وعبثاً حاول القواد إيفاف الجند الثماليين بخمرة النصر — والويل كل الويل لمن كان يقع في أيديهم ، من الأساقفة أو الكهنة ، أو الرهبان . لقد كان انتقاماً لم يشهد مثله التاريخ — أما الكرادلة الذين لم ينجحوا في الهرب ، فقد كان نصيبهم السحل في شوارع روما حتى الموت .

وشوهدت جماعة تمسك بأحد الأساقفة ، كللت رأسه بأغصان الشجر وعرضته في السوق للبيع كالسوائم ، قبل الإجهاز عليه .

(١) Valdez — Dialogue on the Sack of Rome.

« أما الكنائس ، فقد تحولت إلى اصطبلات للخيل ، وتكدست الخيول داخل كنيسة القديس بطرس وخارجها ، والويل للراهبان والعذارى ، فقد كان الجند ينتزعوهن انتزاعاً من الأديرة ومن احضان أمهاتهن . »

هذا هو وصف شاهد عيان لما حدث . وهكذا كانت نتيجة تأمر البابا السابق مع الإمبراطور شارل الخامس ضد حركة الإصلاح ، ونتيجة قرارات مجامع ورمز ، وسبيرز . لقد خربت روما ، على أيدي جنود الإمبراطور حليف البابا ، بصورة أقسى مما حدث في هجوم الوندال منذ عشرة قرون — وهكذا كسرت للأبد شوكة روما ، ولم تعد بعد عاصمة للمسيحية . وتداعى النظام القديم ، الذى ظلت تسيطر به على مقدرات العالم الغربى ، زهاء ثلاثة عشر قرناً أويزيد . وبدأت تشرق فى الأفق أنوار عهد جديد — لانقول إن مثل هذه الأعمال الوحشية كانت من ثماره ، لكننا نقول إنها أخطاء وثغرات فى الطريق ، الإصلاح منها براء ، والتاريخ أصدق شاهد .

ختم قصة :

ولم يسلم حزب الإصلاح من الانشقاق ، فقد قامت حركة جديدة فى سويسرا الألمانية بزعامة هلدريش زونجلي : وهذه انتشرت فى جنوب ألمانيا ، وكسبت لصفها كثيرين من الأمراء والمدن الحرة ، حتى أصبح الذين تحت زعامة زونجلي أكثر عدداً ، وأقوى نفوذاً . وفى المجمع الذى عقد عام ١٥٢٦ ، كسب هذان الحزبان الجولة ، واستطاعا أن يكسبا القرار ، بأن كل حاكم له الحرية ، فى اختيار نوع المعتقدات ، التى يسير عليها هو وولايته . منذ ذاك الحين ، ابتداءً فريق من [[الحكام أو الأمراء ، تنظيم الكنائس التى تحت نفوذهم ، لتكون وفق نظام العبادة والمعتقدات ، التى ينادى بها رجال الإصلاح — ولم يعترض الملك شارل على

ذلك ، بسبب القطيعة التي كانت قائمة بينه وبين البابا ، وبسبب انشغاله في ميدان الحرب — ولكن في مجمع سبيرز ، الذي انعقد عام (١٥٢٩) ، كان حزب الكاثوليك — وسنبداً تسميتهم بهذا الاسم من الآن فصاعداً — أكثر قوة وهكذا استطاعوا ، أن ينتصروا ، بقرار منع اللوثرية من الإنتشار ، وكذلك عدم الاعتراف بالزونجية . على هذا القرار احتج اللوثيريون والزونجيون معا . ومن هنا لقب حزب الإصلاح بالمعتريين أو المحتجين . وهى الكلمة التي نقلت حرفياً عن الإنكليزية ، فأصبحوا يلقبون بالبروتستانت . وبينما كانت الأمور تسير على هذا النحو ، عاد الإمبراطور إلى بلاده لأول مرة بعد مجمع ورمز ، (في أثناء غيابه كان يحكم ألمانيا شقيقه بديلاً عنه) ، وقد وطد الإمبراطور عزمه ، على أن يفض جميع المشاكل الدينية ، التي مزقت البلاد حسب فكره ، وأثارت القلاقل ، فهو على الرغم من خلافه مع البابا مازال في الأعماق رومانياً يحب كنيسته ، ولا يريد أدنى تغيير في نظامها أو عقيدتها . لقد تغلب الآن على أعدائه ، وأصبح الجو ملائماً له ، لعلاج المشاكل الداخلية — وهكذا دعا إلى عقد مجمع أوجسبرج (عام ١٥٣٠) ، لتسوية جميع الخلافات ، بين حزب الإصلاح والحزب الكاثوليكي . أما اللوثيريون وأشياعهم ، فقد قدموا إقرار أوجسبرج الشهير ، الذي يتضمن كل وجهات نظرهم ، والذي أصبح فيما بعد واحداً من النواميس العقائدية للوثيريين . ولقد كتبه فيليب ملانكثون الذي أصبح القائد الثاني بعد لوثر . أما الإمبراطور ، فقد حاول أن يصل إلى اتفاق عقائدى بين اللوثيريين والبابويين ، محاولاً بذلك إرجاع حزب الإصلاح إلى أحضان الكنيسة الأم . ولكنه لم يستطع ، وهكذا أصدر الإمبراطور قراره ، بأنه لاسيبل إلى محق البروتستانتية إلا بالحرب (إبريل ١٥٣١) . لكن مضى وقت طويل ، قبل أن ينفذ الإمبراطور وعيده .

فلقد كان الأتراك يدقون من الشرق ، حدود مقاطعة أوستريا (النمسا) .
ثم كان انشغال الإمبراطور بعد ذلك بالخلاف بينه وبين البابا ، حول
تنفيذ برنامج إصلاحى شامل للكنيسة . وفى نفس الوقت ، كانت الحميرة
تعمل عملها فى العجين ، وكانت مبادئ الإصلاح تنتشر فى كل مكان ،
وترسخ فى الأذهان . وبدأ وكأن ألمانيا كلها ، قد انحازت إلى صف لوثر .
أما المحاولات السلمية التى بذلها الإمبراطور ، فى محاولة لإقناع اللوثرين
فقد ذهبت كلها أدراج الرياح ، ولم يبقَ من بديل سوى القتال .

ويعمر لوثر حتى يرى الصراع بين الإمبراطور ، وحزب الإصلاح
فقد انتهت حياته فى سن الثالثة والستين ، وتكنى هذه الصلاة التى نطق بها
« هو يسلم الروح ، لترينا أى نوع من الناس كان .

« أيها الإله السرمدي الرحيم أبي السماوى ، أبا ربنا يسوع المسيح
والله كل تعزية ، أشكرك إذ أعلنت لى ابنك يسوع المسيح ، الذى
آمنت به . ، وبه كبرزت ، واعترفت . والذى أحبه ، وأعبدته كخلصى
وفادى العزيز - أتضرع إليك ربى يسوع المسيح أن تقبل نفسى . أيها
الآب السماوى - إني وإن كنت أنتزع من هذه الحياة ، وأودع هذا
الجسد ، فلننى موقن أنني سأسكن معك إلى الأبد . ولن يستطيع أحد أن
يخطفنى منك » وبعد صمت قليل عاد يكرر ثلاثاً « أنت قد فديتنى أيها
الإله الحق . فى يديك أستودع روحى » وعندما سأله أحدهم « أبى المحبوب
هل مازلت تؤمن أن يسوع المسيح ابن الله ، هو مخلصنا وفادينا ؟ » كان
جوابه « نعم - نعم - » . وكانت هذه آخر كلماته .

ولقد صلى على جثمانه فى ايزلبن . ثم نقل فى اليوم التالى إلى ويتمبرج ،
حيث دفن وسط مظاهر الحزن البالغ ، وقد رافقت الموكب أرملة لوثر

وبنتاها وأولادها الثلاثة ، ثم مدير جامعة ويتمبرج وأساتذتها وطلابها .
ثم الرؤساء والنبلاء تتبعهم جماهير الشعب الألماني . وقد ألقى ملانكشن
خطاب التأبين .

إن كثيرين من المؤرخين الكاثوليك وأشياعهم ، يوجهون النقد المرير
إلى زعيم الإصلاح في ألمانيا ، ولاعجب في ذلك . وحياتهم الأولى
والأخيرة ، هي نقضه لعهد الرهبانية ، وزواجه من كاترين فون بورا .
ولكن ألا نستطيع أن نقول ، إن سيرة الرهبان ، وحياتهم ، وتصرفاتهم ،
بما أفضنا في الحديث عنه في فصول هذا الكتاب ، كانت أكبر دافع
إلى الهروب من هذا الجو الرهيب ! ؟ إن كثيرين من الرهبان والراهبات
قد ساروا على مثال لوثر . ولو أننا كنا قد عشنا في تلك القرون ، ورأينا
بأعيننا العثرات والظروف الاجتماعية التي أحاطت بهم ، لالتبسنا لهم
الكثير من العذر . على كل حال كما يقول ملر ، الإنسان معرض
للضعف . ورجال الله الذين ورد ذكرهم في الكتاب المقدس ، لم تخل
حياتهم ، من مطاعن وجهت إليهم . ويكفي أن نرى لوثر في بيته السعيد ،
وسط أولاده وبناته ، وزوجة محبة عاقلة ، كانت عوناً له في أكثر
من محنة ، ومرشداً في أكثر من ظرف حال ، ومشجعاً حينما كان
يرى العالم كله ، وقد وقف ضده - وإن حياة عائلية سعيدة استمرت
عشرين عاماً كاملة ، تكفيها لكى نرى في نورها ، أن هذه كانت
إرادة الله ، وأن الله قد أوجد له معيناً نظيره .

ولقد كان لوثر لثلاثين عاماً كاملة ، رائد أعظم حركة إصلاحية
انتعاشية عرفها التاريخ - وبالوعظ والكتابة^(١) وتدريب الوعاظ .

(١) بلغت مؤلفات لوثر ستين مجلداً ، أما رسائله فيخطها الاحصاء

والافتقار ، والنصح ، أعطى الكثير في سبيل ذلك . ويكفى أنه حطم السلاسل التي كان الكتاب المقدس مقيدا بها ، وأطلقه من عقاله ، فأصبح هذا الكتاب قوة عظيمة جبارة في أيدي الشعب الألماني ، يستطيع كل واحد أن يقرأه ويستوعبه ويجد فيه البركة .

إن لوثر كإنسان كانت له ضعفاته . والكثير من ألفاظه وعباراته كان جافا خشنا ، واستعاراته في بعض الأحيان ، كانت تبدو وحشية قاسية . لكن هذه كانت لغة العصر ، وقد انساق لوثر في تيارات العصر . ولكننا نقول إنه مع هذا ، استطاع بنعمة الله أن يعمل المعجزات . وفي حياته ، رأى معظم دويلات ألمانيا ، تدين بمبادئ الإصلاح ، في مثلث قاعدته شواطئ بحر البلطيق من الغرب ، إلى حدود شرق روسيا ، وبقية أراضي سويسرا . وفي كنائس هذا المثلث المتسع العريض ، العريض ، كان إنجيل المسيح يركز به ، في لغة الشعب .

والمزامير والتراتيم ، تردد باللغة الألمانية . ولقد كتب لوثر البعض منها ، ولعل أشهرها هي ترنيمة « الله قوة لنا ، وحمانا الوطيد » فلكم ألهمت هذه الترنيمة قلوب الملايين في الشرق والغرب . أما عن النهضة الفكرية ، فقد حرصت الثورة اللوثرية — وإحقاقا للحق نقول ، إن الكنيسة الكاثوليكية هي الرائد الأول في هذا المجال — حرصت على تعميم المدارس إلى جوار الكنائس . فقد كان لوثر يبدى اهتماما كبيرا ، بتعليم الصغار حقائق الدين السليم . ولقد نصب رعاة أكفاء على الكنائس . كما ألحقت بكل مقاطعة ، محاكم كنسية يشرف عليها الأمراء : ومن العجيب جدا أن هذا الانقلاب الهائل قد حدث في كافة أرجاء ألمانيا ، بصورة لم يتصورها أحد :

وبدأت حرب الإمبراطور شارل الخامس ضد البروتستانت عام (١٥٤٦) . ومع أنه في البداية كان منتصرا في كل الجبهات ، إلا أن منتخب سكسونيا ، الذى تولى الحكم بعد وفاة فردريك ألقى بكل ثقله في المعركة ، فرجحت كفة الإصلاح ، واستطاع هذا أن يطارده فلول الجيش الإمبراطورى ، خارج حدود ألمانيا . وإذا أحس الإمبراطور بأن الحظ لم يعد حليفه — وأنه أخفق في أكثر من ميدان ، تنازل عن العرش لأخيه فرد ناند ، وباع ممتلكاته ، والتحق بأحد الأديرة في أسبانيا . ولم يعمر طويلا إذ إنتهت حياته بعد عامين اثنين من دخوله الدير .

أما فردناند ، فقد كان عقله أكثر رجاجة واتساعا . وفي أول جلسة له في الدايت أى البرلمان الألماني ، (١٥٥٥) أعلن عفوا شاملا ، ومعاودة سلام أوجسبرج ، التى فيها ترك الحرية لكل دوق ، وكل حاكم لسكى يقرر نوع الديانة التى يختارها لمقاطعته . وهكذا أصبحت اللوثرية ديناً رسمياً تعترف به البلاد ، ومذهبا قانونيا ، على الأقل في دائرة حدود ألمانيا ، وتأمنت الثورة العظيمة الانفصالية الأولى ضد روما .

أما تأثير لوثر خارج حدود ألمانيا ، وماتبع حركة الانفصال فيها عن روما ، من حركات مشابهة في دول أوروبا ، فهذا أطول من أن نعرض له أو نحتويه . ففي بلدان أوروبا في بوهيميا ، والمجر ، وبولندا ، وإنجلترا ، واسكتلندا ، وفرنسا ، والأرض المنخفضة ، وسكندنافيا وحتى في إيطاليا وأسبانيا شقت هذه الكتابات طريقها . وحدثت تحركات إصلاحية سنعرض لها في شيء من التفصيل . ومع أنها قد تكون اتخذت هذا الطابع ، أو ذاك ، إلا أن الباعث الأول ، والملمح الأول ، كان

مصلح ألمانيا - فعلى سبيل المثال نجد أثر كلفن والكلفينية ، أقوى في بعض البلدان ، لكن الإصلاح في سكندناوة ، كان لوثريا خالصا .

وفي الدانمرك والنرويج ، أصبحت الكنيسة الرسمية هي اللوثرية بقرار الملك عام (١٦٣٦) . أما كنيسة السويد ، فقد اضطبغت باللوثرية ، قبل ذلك التاريخ بسنوات عشر ، ولحقت بها كنيسة المجر بعد ذلك .



٣

الإصلاح في سويسرا

[زونجلى - بيع الففرانات في سويسرا - مجمع
زيورخ - تحطيم الصور والتماثيل - صراع بين
اللوثريين والزونجليين - حلف بين المصلحين - حرب
بين الكاثوليك والمصلحين - موت زونجلى]

والآن ، وقد فرغنا من الجانب الأكبر من عبء هذه الدراسة ، فإننا
نعتقد أن الوقت قد حان ، لنلقى نظرة طائفة على حركات الإصلاح ، في
أكثر من دولة من دول أوروبا .

ولأنه لمن الغريب أن نلاحظ وجود وحدة كاملة وانسجام تام ، بين
عمل الله في كل من ألمانيا وسويسرا ، رغم أن حركتي الإصلاح فيهما ،
كانتا مستقلتين ، إحداهما عن الأخرى ، وكانتا تحت ظروف متباينة ،
فمن الوجهة السياسية والاجتماعية ، كان الاختلاف عظيمًا بين هذه وتلك .
فنظام الحكم في ألمانيا كان ملكيًا ، بينما الحكم في سويسرا كان جمهوريًا .
وكانت سويسرا تضم ثلاث عشرة جمهورية ، تعرف باسم « كانتون » .
وعلى ذلك فالإصلاح في ألمانيا ، كان صراعاً ضد سلطة الإمبراطور ، أما
في سويسرا ، فكان ثورة على النظام الديمقراطي . ولكن مما يشير إلى
أن هذا هو إصبع الله ، أن الإصلاح بدأ تقريباً في نفس الوقت في هذه

وتلك - يقول زونجلى بطل الإصلاح في سويسرا - « بدأت أكرز بالإنجيل عام (١٥١٦) . أى فى وقت لم يكن فيه اسم لوثر معروفاً أو مسموعاً عنه فى هذه الدولة . لى لم أتعلم لإنجيل المسيح من لوثر ، بل من كلمة الله مباشرة » .

ويقول دوبنييه . إن الذى أعطى الحق للوثر من السماء ، أعطاه أيضاً « لزونجلى » . على أنه كانت هناك مميزات تختص بها كل حركة من الحركتين : فى ألمانيا ، كان لوثر وحده بوق الله المدوى .

زونجلى :

أما فى سويسرا ، فإن مجموعة من النجوم الالامعة تتألق فى ظلام الليل ، وأكثر من اسم يتلألأ هناك ، أمثال ليوجودا ، وكابشوا ، وفارل ، وكلفن ، وزونجلى . ولكن الأخير هو الذى يعلو اسمه بين الجميع ولم تكن ظروف زونجلى العائلية مثل ظروف لوثر . فأسرته كانت لها مكانتها ، وقد ولد عام (١٤٨٤) فى قرية فلدهاوس ، على بحيرة زيورخ وهى قرية مغمورة هناك . ولنجاحه فى الدراسة صمم والده على تكريسه للكنيسة ، وهكذا أرسله لمواولة دراساته فى برن وفينا . وهناك فى برن ، أعجب فريق رهبان الدومنيكان بصوته ومواهبه ، فأغروه بدخول الدير . ولكن والده حينما سمع بذلك ، عارض تصرفه بشدة ، وأمره بأن يغادر برن ويذهب إلى فينا . وكان زونجلى طبعاً ، فهرب من الدير ، وعاد إلى دراسته .

وفى بازل ، درس زونجلى العلوم اللاهوتية على يدى توماس ونباخ ، الذى كان لاهوتياً مستنيراً ، لا يخفى على تلاميذه ، أخطاء روما العقائدية ، وهكذا تلقى زونجلى عنه ، ما تلقينه لوثر من ستوبتز من أن التبرير بالإيمان . وكان يقول لتلاميذه ، إنه عما قريب سوف يأتى الوقت ، الذى فيه يلتقى

الناس بعلم اللاهوت جانباً ، وتنهض تعاليم الكنيسة الأولى ، مؤكداً أيضاً « أن موت المسيح هو الفدية الوحيدة لنفوسهم » .

وفي الدراسة كان له أيضاً أصدقاء ، الذين أسهموا فيما بعد بنصيب كبير ، في إصلاح الكنيسة . كان هناك ابن كاهن من الألزاس ، ويعرف باسم « ليوجودا » أو أسديهودا ، وآخر يدعى كابيتو ، وغيرهما . وقد كون معهم صداقات العمر . ونظير لوثر ، كان زونجلي مغرمًا بالعزف على الآلات الموسيقية .

وبعد أن انتهى من الدراسات اللاهوتية ، وحصل على درجة أستاذ في الآداب ، اختارته مدينة جلاريس ليكون راعياً لها (١٥٠٦) . وهناك قضى عشر سنوات يقوم بعمل الله بأمانة ، وفي أثناء هذه الفترة قام بنسخ رسائل بولس في الأصل اليوناني ، مع تعليقات كثيرة ، وهوامش وتفسير عن أشهر الآباء . ولا تزال هذه النسخة موجودة في مكتبة زيورخ .

كما أنه درس اللاتينية وكتابات الآباء . وعن ذلك قال « إن هذا كان مجرد المعرفة فقط ، لا لناخذ آراءهم قضية مسلمة - » وكان على معرفة أيضاً بكتابات ويكليف ، وهس ، ولكن كتابات إرازمس كانت الأثرة لديه .

في تلك الأثناء هدد ملك فرنسا بالانتقام من البابا ، بسبب تحالفه مع شارل الخامس ضده . وخشى البابا مغبة هذا التهديد ، فأرسل في طلب تأييد سويسرا ، التي أرسلت له الجيوش ، وكان زونجلي بين الذين أرسلوا ، وكان يحمل سيفه ، على الرغم من كونه رجل دين ، وقد حمل سيفه دفاعاً عن روما . وجرت العادة أن يرافق أمير الولاية وراعي

الأبروشية الجيوش في الحرب . ومع أن الانتصار كان حليف السويسريين في الجولة الأولى ، إلا أن الدائرة دارت عليهم بعد ذلك ، وهلك نخيرة الشباب منهم بسيوف الفرنسيين ، في موقعة مارنيان الشهيرة .

وكان من نتيجة هذه الجولة الإضطرابية لكاهن جلاريس ، أن رأى حاجة بلاده إلى الإصلاح الديني ، والإصلاح الإجتماعي أيضاً . فامعني هذه القوانين التي تدفع بالشباب إلى الموت في أرض غريبة ، وحروب لمصلحة دولة أخرى ؟ أما في دائرة الدين ، فقد رأى عن كثب ، كما رأى من قبل راهب ويتمبرج ، كبرياء الأساقفة ، وأبهتهم ، وجشع الكهنة ، وجهلهم ، واستباحة الرهبان ، وتبذلم . فراح من منبره بعزم مقدس . ينادى أكثر من ذي قبل ، بوجوب فحص كل هذه الأمور . في نور كلمة الله ، والعمل على إصلاح الكنيسة .

وكثيرون يتساءلون ، من السابق في مجال الإصلاح ، لوثر أم زونجلي ؟ ولكن يبدو أن الإثنين بدأ منفصلين في وقت واحد ، على أنه إن كان إصلاح لوثر يتميز بالثورة والعنف ، فإن كرازة زونجلي كانت أكثر هدوءاً .

وفي عام (١٥١٦) دعى زونجلي من رئيس دير البندكتيين في أفسس ، ليكون واعظاً لكنيسة الدير . أما ذلك الدير ، فقد نسجت حوله أكثر من قصة ، وأصبح مزاراً لأكثر من جماعة . فهناك تمثال العذراء ، الذي نسبت إليه المعجزات ، حتى أصبحت المدينة كعبة القصاد . يتوافد عليها السائحون من كافة أنحاء أوروبا ، وعلى باب الدير أيضاً ، تمثال لملاك يحمل لوحة نقش عليها « هنا تستطيع أن تنال غفراناً كاملاً لخطاياك » .

وفي عيد الملائكة ، كان مألوفاً أن ترى الجموع تصعد الجبل لزيارة الدير ، وهم ينشدون مدائحهم وتراتيلهم ، مائة ألف كل عام ، كانت تزور هذه المدينة ، للتبرك ، وطلب المعجزات ، ونوال الغفرانات ، بشفاة سيدة الدير العذراء مريم — أما رئيس الدير ، فن الغريب أنه كان يمتلك أكبر مجموعة من الخيل في سويسرا ، وكان رجالاً مستنيراً . وحينما ألح عليه الزوار مرة ، بأن يقوم بخدمة القديس ، كان جوابه « إذا كان يسوع المسيح حاضراً بالحقيقة في الخبز والخبز ، فأنا لست مستحقاً أن أتداوله بيدي . وإذا لم يكن حاضراً ، فأكون أكبر كذاب ومنافق لأني أقدم للناس خبزاً ، وهم يظنونه جسد المسيح ، ليكون موضع سجودهم وتعبدهم . أما مدير الدير ، فقد كان راهباً تقياً يحب العلماء — ولما سمع بشهرة زونجلي ، دعاه ليكون في هذا المركز للاستفادة منه — ولم تزد نصيحة زونجلي على القول « أدرس الكتاب المقدس ، فسيأتي الوقت الذي يصبح فيه هذا الكتاب أساس الإيمان الوحيد ، وليس أقوال القديس جيروم ولا سائر الآباء » وحينما كان يرى الجموع تأتي من بعيد ، حاملين النذور والعطايا ، لنوال الغفران من سيدة الرسل ، كان يصرخ فيهم ، إن الخلاص عطية مجانية باستحقاق يسوع المسيح ، يعطيها الله لمن يطلب بروح الإيمان ، كما أن الله موجود في الدير ، بكيفية لا تختلف عن وجوده في أي مكان آخر . فهو حال في كل مكان ، « وهو على استعداد أن يسمع صلواتكم وأنتم في بيوتكم . هل تستطيع سفرات الحج الطويلة ، أو الصور ، أو التشفع بالعذراء ، أن تحصل لكم على نعمة الله ؟ وما قيمة الثياب البيضاء ، أو الحذاء المطرز بالذهب ، أو القبة اللامعة في عطية الخلاص ؟ إن الله ينظر إلى القلب ، ولكن قلوبنا بعيدة عنه » وكما أن كلمة الله خارقة إلى مفرق النفس ومميزة ، هكذا كانت تقسم المجتمعين

إلى فريقين : فريق يقبل نعمة الله ببساطة ، ويعود في ملء البركة ، وفريق آخر يعميه التعصب لعقيدته الأولى ، فيزداد غيظاً وحقدًا ، وفي وسط هؤلاء وأولئك ، كانت كلمة الله تنمو وتزايد ، وعبادة العذراء تناقص يوماً بعد يوم .

على أننا نندهش للغاية ، إذ نرى كارزاً جريئاً بالحق نظير زونجلي ، يظل الحزب البابوي على تمسكه به : ربما كانوا يدركون ما له من مكانة في نفوس الشعب ، وكانوا يأملون أنه يوماً من الأيام ، سوف يرجع إلى صفهم . لقد كان بابا روما في تلك الحقبة ، أكثر دهاء من سابقه ، فأعطى شيئاً من الحرية للشخصيات البارزة ، ماداموا يعترفون بسيادة خليفة بطرس وسلطانته . وهكذا تعترينا الدهشة ، حين نرى البابا ليو العاشر (١٥١٨) يظهر تقديره لزونجلي ، فيعينه قسيساً خاصاً للكرسي البابوي ، مركز يطمع فيه كثيرون . ويستمر زونجلي عامين كاملين ، يتقاضى راتبه من روما نفسها . إلا أن ذلك المصلح العظيم ، كان يعرف بالاختبار ، ما عرفه لوثر من قبل ، وهو أنه لا جدوى من إصلاح كنيسة روما من الداخل ، وأن الإصلاح لابد وأن يأتي من دائرة بعيدة عنها .

وبعد قضاء ثلاثة أعوام في أنسديلن ، وصلته دعوة من كهنة كاتدرائية زيورخ ، ليكون واعظاً هناك ، وكانت زيورخ تعتبر عاصمة اتحاد الدويلات أو الإمارات السويسرية ، التي كانت تعرف باسم الكانتونات . وهناك أتاحت له الفرصة للإتصال بأرقى الطبقات ، وكان تأثيره عظيماً على كافة الإمارات .

ولكنه اشترط ألا يسير على نمط القراءات المعينة على مر السنين

لمناسبات والأعياد ، وغير تلك الطريقة التي ظلت سائدة في الكنائس البابوية منذ عهد شارلمان ، والتي تسير عليها كافة الكنائس التقليدية حتى يومنا الحاضر . لقد كان يرى أن مثل هذه الطريقة تخنق حرية الروح في التعبير — وهكذا بدأ بدراسة شاملة لحياة المسيح ، كما يعلنها البشير متى .

وحينما اعترض البعض على ذلك ، كان جوابه « أليست هذه هي الطريقة القديمة في عصور الآباء ؟ ألا تذكرون عظات يوحنا فم الذهب عن إنجيل متى ؟ وعظمت أوغسطينوس عن يوحنا ؟ هنا نرى روح الإصلاح التي تأتي في رفق وهودة ، ولا تصدم السامعين بلغة وحشية نظير لوثر . ولقد كان من تأثير ذلك ، أن أصدر المجلس الأعلى قراراً ، ألا يقدم الوعاظ أية تعاليم من عندياتهم . لا تستند إلى الكتاب المقدس . كان ذلك بعد عام واحد من وجود زونجلي في زيورخ .

بيع الغفرانات في سويسرا :

إلى أن تتكرر مهزلة تنزل وبيع الغفرانات في سويسرا . فيغد إليها عملاق من الفرنسيين يدعى شمشون ، ويعبر الألب في موكب بابوي عظيم بالطبل والزمير . وكان من تأثير زونجلي أن بضاعته بارت ، واضطر إلى تخفيض أسعار بيع الغفرانات للفقراء ، بما يوازي بضعة مليات . . . فلأغنياء غفرانات على رقوق من الجلد بأربعة شلنات فقط ، وللفقراء حل من البابا على ورق عادي بملايم ، هكذا بلغت قيمة البابا ليو العاشر في سويسرا .

وفي نفس الوقت ، كان زونجلي يعد الشعب في زيورخ ، للقاء هذا الطفيلي الغريب ، الذي في وقاحته لم يكلف نفسه أخذ الإذن من أسقف كونستانس ، فأصدر الأسقف أمره إلى جميع الكهنة في البلاد ،

ببطرده حينما ذهب - نقول إن زونجلى كان يعد الشعب ، بالإعلان عن
غفران الله المحباني ، الذى ليس بحاجة إلى بيع أو شراء ، لأن الثمن قد
دفعه المسيح بالكامل على الصليب . ثم يضيف من اختباره ، « حينما يحاول
الشیطان إزعاجى بتقصيراتى وعجزى ، أسمع صوت الله فى الإنجيل يقول
لى ، ما لا تستطيع أنت أن تفعله ، قد أكمله المسيح بالتمام » .

وهكذا عندما اقترب شمشون « الجبار » من المدينة ، أرسل إليه أهل
زيورخ وفدأ ، يطلب منه أن يعود أدراجه إلى روما .

وهنا ثارت ثائرة المجمع المقدس على تصرفات زونجلى . الذى كان قد
عين كما أسلفنا قساً للكرسى البابوى ، فأرسلوا يستدعونه لمحاكمته (عام
١٥١٩) . لكن البابا كان قد تعلم درساً ، من الكلمة التى قالها له راهب
ويتمبرج ، فتجنب إثارة ثورة أخرى ، فى بلاد أكثر عنفاً وتماسكاً ،
نظير « كانتونات » سويسرا .

يقول المؤرخ دوبنييه :

« إن مجمع سويسرا كان أكثر حزمًا من مجمع ألمانيا . ذلك لأنه لم يكن
هناك كرادلة وأساقفة ، لذلك رأى البابا أنه من الحكمة أن يتصرف بشيء
من الكياسة والحلم . منذ ذلك الحين ، وجد زونجلى نفسه فى موقف معادٍ
للبابا ، على الرغم من أن الأخير حاول إغراءه بالوعود بواسطة رسول
خاص . وهكذا ، رفض الراتب الذى كان يصله من روما قائلاً : « كنت
أعتقد أننى أستطيع أن أتمتع بسخاء البابا ، وأنادى بمعتقداتى بضمير صالِح
ولكنى حينما تقدمت فى معرفة ابن الله ، رأيت أننى ينبغى أن أرفض البابا
«عطاياه » ومن ذلك الوقت بدأ تعليم زونجلى يشمر ثمرة الطيب فى نفوس

الشعب . وأبطل الكثير من عادات وتقاليد الكنيسة البابوية . فالصوم الكبير لم تعد له مكانته عند الشعب بعد ، وكثرت شكاوى رجال الدين من مخالفات التقاليد الأخرى .

واضطرت السلطات إلى الزج بالكثيرين في السجون ، لكن الشعب كان يعترض ، بأنه لا فرق بين طعام وطعام . وليس ما يدخل الفم ينجس الإنسان بل ما يخرج من الفم — ولما رأى أسقف كونسطنس هذه الحالة ، أرسل مرسوماً ضد « البدع المستحدثة » ، حاثا الشعب على الالتفاف حول الكنيسة ، حتى يصدر المجمع مرسومه . وابتدأت المؤامرات تحاك ضد زونجلي ، حتى كانت السلطات تعين له بصفته رئيس كهنة زيورخ ، حراسا لحراسته من شر أعدائه .

وقد بدأ زونجلي يرى نذر العاصفة تتجمع من بعيد — ولكن هذا لم يوقفه عند حده ، فابتدأ يكتب النبد ويصدر النشرات ، دفاعاً عن الحق وعن أصدقائه . وكان من نتيجة ذلك ، أن انتشرت مبادئ الإصلاح ، في طول البلاد وعرضها ، حتى كتب إرازمس يقول :

« إن روح الإصلاح قد نمت وترعرعت ، في جميع أصقاع الاتحاد السويسري ، حتى أن ما يربو على مائة ألف نفس ، قد أصبحوا من أتباع مبادئ لوثر » .

ولقد كان عام ١٥٢٠ ، هو العام الذي تدخلت فيه السلطات ، ضد حركة الإصلاح في سويسرا . فعلاوة على موضوع الصوم الكبير ، راح زونجلي ينادي ضد عدم زواج الإكليروس ، مينا القباحات التي يرتكبها رجال الكنيسة ، باقتناء المحظيات وغير ذلك — وكان من نتيجة مناداة

«زونجلى» ، أن كثيرين من القساوسة نقضوا « نذر العفة » وتزوجوا . ومع أننا رأينا أسقف كونستانس يناصر زونجلى فى بادىء الأمر ، إلا أننا نراه وقد عاد ينقلب عليه ، ناعثاً الكهنة الذين تزوجوا ، بأنهم هراطقة لوثريون ، مطالباً السلطات الحكومية بمحاكمتهم ، على أن هذا الإضطهاد كان بمثابة الريح للنار زادت اشتعالاً - وبعد أن كان الإصلاح محصوراً فى دائرة ضيقة ، إذا به ينتشر ويمتد ، حتى ساد المدينة الإضطراب ، وانقسمت على نفسها . وانتهر الرهبان الفرصة ، وقدموا دعوى إلى مجلس الشيوخ ضد زونجلى ، الذى لا ينفك يشهر بهم ، ويجعلهم مدعاة للسخرية والاحتقار - أو يسمح لهم على الأقل بالوعظ عن الآباء والفلاسفة والمدرسين .

وفى الوقت نفسه تقدم الأسقف بشكوى إلى المجلس ضد زونجلى ضمنها الكثير من التهم - لكن بطل الإصلاح استطاع أن يفند ما واحدة بغد الأخرى ، وانتهى الصراع بينه وبين الأسقف ، إلى إخفاق الأخير فى النيل منه . كما كان نتاج هذا الصراع ، حصيلة قوية من الرسائل والوثائق التى تؤيد الحق الإنجيلي ، وأيضا البيان الشهير ، الذى تلخص فيه زونجلى خلاصة العقائد فى الكنيسة المصلحة ، والذى يتضمن سبعة وستين فقرة ، من بنود الإيمان التى نادى بها .

مجمع زيورخ :

والتأم مجمع زيورخ فى يناير (١٥٢٣) ، لمناقشة بيان زونجلى ، ولم يستطع واحد أن يقاوم روح الحكمة التى فيه . وهكذا انتهى إلى إصدار مرسوم «فحواه» ، « أن زونجلى تحدى خصومه علانية ، بأن يتقدموا إلى مناقشة مبادئه ، أو دحضها ، على أساس من الكتاب المقدس . ولكن حيث أن

واحداً لم يتقدم للقيام بهذه المهمة ، فله كل الحق في أن يستمر كارزا ومبشراً بكلمة الله ، كما كان يفعل سابقاً . وكل من يتعرض له ، أو يتهمة بالهرطقة ، يعرض نفسه للعقاب الشديد . وعلى كل واحد من رجال الدين ، أن يخذو حذوه ، ولا ينادوا بأي تعليم لا يمكن البرهنة عليه من الكتاب المقدس .

ولقد كان لهذا المرسوم ، وقعه في تثبيت أقدام الإصلاح في سويسرا ، ودفع عجلته للأمام . ومع أن البابا دبر محاولة للقضاء على حياة زونجلي ، إلا أن الله حفظه من مكائد البابا وخنجره — ولما لم تفلح المكائد ، جرب البابا هادريان سلاح المداينة واللفظ . وأرسل له خطاباً مع رسول بدأه القول « ابني المحبوب » ووعد به بأن رئيس الكنيسة طوع بنانه ، في كل شيء . عدا كرسي البابوية . ولكن زونجلي كان صلب العود ، وكما يقول دوبينيه : « لقد وجدت فيه روما عدواً أكثر صلابة من لوثر » فلوثر كانت له . الخلفية الرومانية القوية — لقد كان راهباً ، وكان متشبعاً بالعقائد البابوية من قبل . لذلك فلإننا نراه في عقيدة العشاء الرباني ، يتخذ موقفاً أقل تشدداً من زونجلي ، وعقيدة عليها مسحة الفكر الروماني . أما زونجلي فقد كان يحارب كل تقليد ، وكل عقيدة غير كتابية ، دون رفق أو هوادة . لقد كان مبدأه : الكتاب وحده وليس سواه . ولوثر كان معرضاً للوسواس والتقلبات النفسية ، التي ما وجدت طريقها يوماً إلى قلب زونجلي . وإننا نلمس رهبة الأعداء من الأخير ، في رسالة بعث بها فابر ، من الحزب البابوي ، إلى صديق له يقول فيها « ليس عندي من أخبار جديدة ، أبلغك إياها ، سوى أن لوثر ثانياً ظهر في زيورخ ، وهو أشد من سابقه » . ومع أن طريقة زونجلي في صراعه مع أعدائه ، كانت هادئة كتابية تتجه إلى مقارعة الحججة بالحجة ، على غير طريقة راهب ويتمبرج الثائر ،

إلا أن الله استخدم الإثنين كلا بطريقته الخاصة ، ومواهبه الخاصة .
لهدف واحد ، وقصد واحد ، ألا وهو إعلان الحق الإلهي ، وتثبيته
في عقول الناس وضمائرهم .

تخطيم الصور والتماثيل :

بعد هذا ظهرت رسالة كتبها أحد المتحمسين من القساوسة الزونجليين ،
بعنوان « حكم الله ضد الصور والتماثيل » . وقد أثارت هذه الرسالة ثائرة
سكان زيورخ ، فالتجھوا في مظاهرة كبرى ، إلى صليب مقام خارج
المدينة ، مزين بالزينات ، وراحوا يهون عليه بالمعاول ، ويسقطونه ،
الأمر الذي أفرغ أعوان البابوية فتعالى صياحهم — إذ اعتبروا أن ما فعله
أولئك كان عملاً مشيناً ، لأنهم دنسوا أشياء مقدسة ، ولا عقاب لهم
إلا الموت . وتم القبض على زعماء « الفتنة » وزج بهم في السجن تمهيداً
لمحاكمتهم — لكن في يوم المحاكمة . انقسم أعضاء المحكمة فريقين : فريق
يرى أن « الجرم » يستحق الموت ، وفريق آخر يرى أن العمل بهدف
نبيل . ولو أنه نفذ بطريقة غير سليمة . وفي الوقت نفسه ، كان صوت
زونجلى يعلو هاتفاً ، بأن الناموس القديم يحرم عبادة الأصنام ، وأن
الذين حطموا الصليب لا ذنب عليهم ، سوى مقاومتهم لرجال
السلطة .

وانقسمت المدينة كلها إلى فريقين متصارعين ، بسبب هذه القضية .
واستدعى زونجلى وأصحابه إلى مجمع عقد بينهم وبين البابويين ، وناقش
موضوع الصور والتماثيل ، كما ناقش موضوع العشاء الرباني . وكان
أساس المحاكمة كلمة الله وليس سواها . وهنا لم يجد البابويون ما يقدمونه .
فانتصر الحق . وقد قال زونجلى والدموع تملأ عينيه « إن الله معنا ، والقضية

قضيته ، وهو لابد ناصرها . فلنقدم إلى الأمام باسم الرب » . أما القرار النهائي ، فكان مناشدة كل واحد أن يستخدم كلمة الله أساسا ، ونبراسا ، ومقياسا له — نقول مناشدة كل واحد ، وليس إرغامه . لأنه على حد تعبير زونجلى « هناك نفوس ضعيفة تحتاج إلى تدعيم » ، وهيابة تحتاج إلى تشجيع ، وأن غالبية الشعب ليست لديها الاستنارة الكافية ، بحيث تقبل بالأجماع ، مثل هذه التغييرات الكبرى — « وهكذا نسمح لكل قسيس بأن يتصرف حسبما يراه لاثقا إلى حين .

ثم وقعت أحداث تلو أحداث ، فأصدر مجلس مدينة زيورخ قراره ، بناء على طلب زونجلى وأصدقائه ، بأن يعطى المجد لله وحده ، وأن الصور والتماثيل يجب إزالتها من كافة الكنائس في المنطقة ، وأن تباع نفائسها ، وتوزع أثمانها على الفقراء ، وأن المجلس يعين هيئة خاصة مكونة من اثني عشر مستشاراً مع ثلاثة من الرعاة ، ومهندس معماري ، ونجارين ، وغيرهم ، للقيام بإزالة الصور والتماثيل فلا يحق لفرد عادي ، أن يقوم بذلك بنفسه . فكانت هذه الهيئة تطوف على الكنائس واحدة بعد الأخرى ، فتدخلها وتغلق أبوابها ، وتنزع الصور ، والشعارات ، وتحطمها ، وتحرقها بالنار ، ثم يطلى مكانها . وقال زونجلى في سخرية : إن تمثال السيدة العذراء الشهير في الدير ، والذي نسجت حوله القصص والكرامات ، لم يستطع أن يقاوم الأذرع الفتية التي هوت عليه بالمعاول وحطمته — لقد استسلم في النهاية — وحين وصلت أنباء تحطيم الصور والتماثيل إلى لوثر ، عارض هذا الأمر بشدة . فالمصلح الألماني لم يكن يرغب في الانفصال عن الكنيسة مطلقا . لقد كان يود أن يظل متحدا بها . وكان يرى ، ورأيه هذا فيه من الخطر ما فيه ، بأن تحتفظ الكنيسة بما لا يتعارض مع الكتاب المقدس بصفة ضريحة مباشرة .

وهذا مبدأ غير أمين . نقول إنه كان يقنع بأن يعمل على تطهير الكنيسة البابوية ويبقى فيها لو كان ذلك ممكنا . بينما تخطى زونجلي كل الحواجز ، وأسقطها من حسابه بالكلية ، ورأى أن يعود بالكنيسة إلى حالة البساطة . الرسولية الأولى ، وإلى التمسك بكل ما هو مسطر في كلمة الله ، لا يحيد عنها يميننا ولا شمالا .

صحيح أن زونجلي اتفق مع مصلح ألمانيا ، بأن الخلاص بالنعمة . وليس بالأعمال ، وأنه لا مجال للاستحقاق البشرى ، ولا المتاجرة في خلاص النفوس . لكن مصلح سويسرا زاد على ذلك ، بأن جعل الكتاب المقدس الدستور الوحيد ، الذي تقاس عليه نظم العبادة . وبهذا وجه ضربة قاضية للعبادة في الكنيسة الرومانية .

على أن تحطيم الصور والتماثيل ، قد جرمه أيضا إخلاء أكبر دير للنساء في زيورخ ، وتسليم كافة ممتلكاته للحكومة ، الأمر الذي أثلج صدور المؤمنين في زيورخ ، بينما أثار حنق كافة الكانتونات الكاثوليكية . وعلى أثر ذلك ، أصدر البابا اكلمنس السابع ، بياننا يناشد فيه أبناء الإيمان القويم ، في البلد الغيور الحبيب ، أن يلاشوا اللوثرية من أرض سويسرا — وعندها اتحدت الولايات كلها ، وأرسلت تهديدا إلى زيورخ . ومقاطعتها ، بأنهم على استعداد أن يقفوا في وجوههم بقوة السلاح ، إذا اقتضى الأمر ذلك .

بعد ذلك تعقدت الأمور ، وذبح جنود البابوية مكيدة في ظلام الليل ، كان من نتائجها اختطاف قسيس بلدة تورجو . فثارت ثائرة البعض ، وصمموا على الانتقام ، وأشعلوا النار في دير هناك ، وقد ألقى القبض على أوكلن مساعد زونجلي مع آخرين . وكانت نتيجة كل هذا ، استشهاد ثلاثة تحت سيف المقصلة .

لكن زونجلي ، وأسد يهوذا ، وانجلادت ، لم تمنعهم الأحداث عن المضي قدماً في طريق الإصلاح . فبعد صكوك الغفران ، وبعد الصور والتماثيل ، جاء دور ذبيحة القديس . ففي أبريل عام (١٥٢٥) تقدم الثلاثة ، إلى مجلس مدينة زيورخ ، يطلبون إلغاء ذبيحة القديس . وعلى أثر ذلك التأم المجلس ، ودارت المناقشات ، وفي نور الكتاب ، اكتشف عدم مطابقة العقيدة البابوية لما جاء في الكتاب . وبعد جلسة ثانية ، صدر القرار بإلغاء القديس ، من كافة الكنائس ، وممارسة العشاء الرباني . طبقاً لرسم المسيح والرسول . « وليكن القديس لاغياً في كل مكان بصفة قاطعة ، وليطرح جانباً كشيء أثري لا يتكرر » .

وعلى الأثر أزيلت المذابح من الكنائس ، ووضعت بدلاً منها موائد الشركة . ومع أنه قد أعطيت المهلة للضعفاء وكبار السن ، بأن يستمروا في نظامهم ، إلا أنه ما لبث ذلك النظام أن تلاشى بمرور الزمن - وتأكيداً لذلك ، أصدر زونجلي نشرات وكتباً في هذا المجال ، « عن الديانة الكاذبة » - أما عن تأثير كتابات زونجلي ، فإننا نلمسه مما كتبه إليه راهبة من دير كونيغزفلت في برن حيث تقول :

« لتكثر لك النعمة والسلام من الله ابينا والرب يسوع المسيح . إني أستعطفك أيها السيد العزيز ، والعالم المحترم ، أن تتقبل خطابي هذا . فإن محبة المسيح تحصرني بأن أوجهه إليك ، لاسيما منذ أن سمعت أن الكرازة بإنجيل الخلاص تنتشر من يوم إلى يوم ، بفضل مجهوداتك التبشيرية . من أجل هذا ، أقدم الشكر والحمد لله السرمدى ، الذى أنارنا من جديد ، وأرسل إلينا بروحه القدوس ، طلائع كثيرة مثل هذه ، نحمل كلماته المباركة . وفي الوقت نفسه أرفع إليه تعالى أحر الصلوات ،

أن يوشحك بالقوة مع جميع الذين ينادون بأخباره المفرحة . وأن
يسلحكم جميعا ، ضد أعداء الحق ، حتى تتغلغل كلمته الإلهية إلى
أعماق القلوب ، وتنمو معرفته لدى جميع الناس .

بل إن الراهبات من قلب الدير ، طلبن من مجلس المدينة السماح لهن
بالخروج لخدمة الجماهير ، والتبشير باسم المسيح . « إنها ليست حرية
الجسد التي نطلبها » - هكذا كتبن - ولكنها حرية الروح . وإزاء
إصرارهن استجابت السلطات لرجائهن - وانفتحت أبواب الدير على
مصاريعها . وكانت طعنة جديدة في قلب النظم البابوية .

ومن برن انتقل الإصلاح إلى بازل . وهناك حدثت مواجهة مسلحة .
بين البابويين وبين المتحمسين للإصلاح . وإزاء ذلك اضطر مجلس المدينة
إلى تعيين داوريات للحراسة . وقد وقعت حادثة صغيرة كان لها أثرها .
فبينما كان أحد الجنود المعيّنين لحراسة كنيسة القديس بطرس في بازل ،
يمر في دوريته بداخل الكنيسة ، إذا به يدفع برمحه ، بدافع حب الاستطلاع
هابا جانبا مغلقا . فانفتح الباب ، وإذا بغرفة ممتلئة بالتماثيل المقدسة ،
وسقط تماثيل منها على الأرض وتحطم . فتدافع الجند ، وراحوا يسحبون
التماثيل واحداً بعد الآخر ويحطمونها . وسرعان ما امتلأ المكان بأشلاء
تماثيل القديسين من أيدي وأرجل وسيقان وروؤوس محطمة . فثار الكهنة وحاولوا
منع الجنود لكن دون جدوى . وانتشر الخبر في جميع أرجاء بازل .
وتجمهر الناس وهم يقولون . « لماذا نترك هذه الأصنام التي هي مصدر
كل شقاء وبلاء ؟ وهجموا على الكنيسة ، وانتزعوا بقية التماثيل والصور
وكل شيء ، وكوموها في الميدان كومة كبيرة وأشعلوا فيها النيران .

أما الكهنة فقد فزعوا من الشعب ، واختبأوا كالفيران في الشقوق . .
 وحاول أعضاء المجلس تهدئة ثائرة الجماهير دون جدوى . لقد انتصر
 الشعب وما استغرق سنوات طويلة في النقاش والجدل دون الوصول إلى
 نتيجة ما . استطاع أن يصل إليه شعب بازل الباسل ، في ساعات
 معدودات . ونخضع المجلس لمطالب الشعب . وأصدر قرارا يقول :
 « من اليوم فصاعدا تلغى التماثيل والصور ويبطل القداس ، ويكون في
 كل كنيسة خدام مخصصون للكراسة بكلمة الله - » .

وهكذا انتصرت حركة الإصلاح في بازل ، كما انتصرت من قبل
 في برن وزيورخ ، ومع أن الإصلاح بدأ في بازل بصورة عنيفة ،
 إلا أن النتيجة كانت حلوة ، وتمت دون إراقة دماء . وفي يوم الأحد
 التالي لصدور القرار ، أقيمت الشعائر الدينية في كافة الكنائس هناك . على
 طريقة المصلحين ، وأنشدت التراتيل والمزامير باللغة الألمانية - كما
 صدر بعد ذلك عفو شامل عن كافة من اشتهر كوا في الشعب .

منذ ذلك الحين ، تغيرت معالم الحياة في المدينة . وبدأ الكهنة والرهبان
 ورجال البابوية - يحزمون أمتعتهم للرحيل ، ليس خوفا من أي ضرر ،
 بل كرها لبلاد ليس لهم فيها عيش ، ولن تنطلي بعد أحاييلهم على شعبها .
 ومع أن إرازمس ، مدهنة للأمرء ، غادر بازل معهم ، إلا أن هذا
 لم يمنعه ، من أن يبدى الملاحظة الساخرة قائلا . لقد كانت الشتائم
 والإهانات التي انتهت على الصور والتماثيل بهذه القسوة ، حتى أنه من
 المستغرب ، كيف أن أولئك القديسين الذين تمثلهم ، والذين اشتهروا
 بالمعجزات وأعمال الانتقام ، التزموا الصمت ، ولم يظهروا شيئا من
 كراماتهم ، أو انتقاماتهم .

الصراع بين اللوثريين وأتباع زونجلي :

ثم نأتى بعد ذلك إلى الصراع بين اللوثريين ، والزونجليين ، وهو أمر محزن حول عقيدة العشاء الربانى ، والإنشقاق الذى جاء نتيجة ذلك بين الكنائس التى لقبت فيما بعد باللوثرية ، والكنائس التى عرفت بعد ذلك بالمصلحة (Reformed) فى الوقت الذى نرى فيه لوثر - كما أسلفنا - يبقى على الطقس البابوى فى الممارسة : صليب المذبح يبقى وربما الشمعتان فإن زونجلي يغير كل شئ . إنه لا يريد أن يبقى أى شئ له رائحة القديم - كما أن الخلاف لم يتوقف عند حد الممارسة فحسب ، بل امتد إلى العقيدة نفسها . ولتصفية هذه الخلافات ، تم عقد مجمع يضم مندوباً عن كل جماعة ، مع لفيف من المؤيدين مقابل الآخر . لفحص جميع عقائد الإصلاح . وقد بلغت فى مجموعها خمسة عشر بنداً ، اتفقوا عليها جميعاً عدا البند الأخير ، وهو الخاص بمواد العشاء الربانى . أما لوثر فقد كان يؤمن بما يسمى ازدواج المادة - وهى عقيدة وسط بين البابوية وبين الفكر المصلح . بمعنى أنه كان يؤمن بحلول جسد المسيح فى الخبز ، ودم المسيح فى الخمر ، يعنى كانت البابوية تؤمن بالحلول الفعلى للجسد والدم (Transubstantialism) أما لوثر فكان يؤمن بالوجود المزدوج (Constantialism) وهناك فارق بين العقيدتين . أنه لم يكن يؤمن كالبابويين بأن عشاء الرب ذبيحة فعلية ، وأن الجسد والدم بالفعل يكونان بين يدى الكاهن ، بتأثير صلوات القداس . ولكنه كان يؤمن أن الجسد والدم موجودان تحت صورتي الخبز والخمر ، وأن المشترك كان يأخذ بالفعل جسد المسيح ويتناول دم المسيح .

أما زونجلي فقد رفض هذه وتلك . لقد كان بسيطاً فى أفكاره عن العشاء المقدس . فكان يؤمن أن العشاء الربانى ، ليس سوى تذكار لموت

المسيح ، وآلامه ، وانكسار جسده على الصليب ، وسفك دمه هناك .
 هذا هو غرض المسيح من إثبات هذه الفريضة : « إصنعوا هذا لذكركم
 لأنكم كلما أكلتم وشربتم - تخبرون بموت الرب » لكنه في نفس
 الوقت ، كان يؤكد أن تناول هذا التذكار لا يتم إلا بالإيمان . فنحن
 نخبر بموت الرب ، موته لأجلنا . لذلك فنحن نستريح بالإيمان بموته
 كأساس الراسخ لحياتنا الأبدية ، ونتغذى بفرح القلب بأثمار الفداء
 الكامل ، كشىء تام وكامل ومحقق .

لكن عقيدة زونجلي لم تحز قبول لوثر . ومع أن اللوثريين والزونجليين
 اتحدا معا في الحرب ضد شارل الخامس ، إلا أنه لم يقدر للحركتين
 أن تتفقا على الإطلاق ، وكان هذا الخلاف كافيا لانقسام الحركتين
 إلى النهاية .

نأتى الآن إلى الحديث عن الخطأ الكبير ، الذى وقع فيه لوثر ، كما
 وقع فيه زميله في سويسرا . وكان السبب في التخبط والتناقض ، الذى
 نلمسه في تصرفات وأقاويل لوثر ، وكان السبب أيضاً في نهاية زونجلي
 المفجعة ، ألا وهو خلط الدين بالسياسة ، أو محاولة الإصلاح ، بالإعتماد
 على السلطات الزمنية ، في سبيل تثبيت أركان الحق ، واتخاذ السياسة
 مركبا للدين . إن الغلطة التى قاومها المصلحان في البابوية ، قد سقطاهما
 أيضاً فيها . فقد رأينا لوثر يعتمد في نجاح حركته وحمائتها ، على حماية
 منتخب سكسونيا ، وتأيد الأمراء في مجلس الدايت أو مجلس الأعيان .
 الألماني . أما زونجلي ، فقد ذهب إلى أبعد من ذلك ، إذ أنه عندما
 قامت الإضطرابات وأحدثت المخاطر ، ظن أن من واجبه أن يعتمد على
 قوة السلاح ، وتأيد مجلس الشيوخ ، للوقوف في وجه أعدائه .

وكانت نتيجة هذا وبالأعلى على حركة الإصلاح في سويسرا ، وكادت تطيح بها بالكلية .

فمنذ الوقت الذي فيه تناولت الحكومات شئون الكنيسة ، تداخلت السياسة في شئون الدين ، وتداخلت خدام الإنجيل في السياسة . وراحت السياسة في سويسرا - بضمير صالح بطبيعة الحال - يتدخلون في كل صغيرة وكبيرة من شئون الدين : فخدمة القديس محرمه وجميع مظاهر العبادة البابوية لا محل لها . أما انتقاد التغييرات الحديثة فجرمة ، والعادات التي كانت سارية في الأعياد ممنوعة منعاً باتاً . والمواظبة على حضور الاجتماعات والخدمات فهي فرض حكومي تفرضه السلطات - لقد كان زونجلي يهبط بهذا من مستوى دعوته الروحية ، إلى مستوى الآلية والسلطان السياسي ، وكان يخضع نفسه ، ودعوته ، وكنائسه للسلطات المدنية .

حلف بين المصلحين :

وما جاء بعد ذلك كان أمراً وأقسى ، وربما كان السبب المباشر لتجمع الغيوم في الأفق وإثارة الكانتونات السويسرية البابوية عليه .

فقد حاول أن يعقد بين الكانتونات المصلحة ، ما يعرف بالحلف المسيحي العسكري ، وكانت كونستانس أول من استجاب لهذا التحالف العسكري ، وقد تبعها برن وبازل ، وأربعة ولايات أخرى - وقد سبب هذا التحالف انشقاقاً في الكتلة المصلحة ، كما أظهر خصوماً عديدين للزونجلي ، حتى من أقوى أنصاره السابقين . ولربما نلتبس العذر له ، في أن الكنيسة التي ترعرع في أحضانها ، كانت منذ البداية تمسك

بالسلطة الزمنية ، إلى جوار السلطة الدينية ، وإذ سمع البابا بأنباء ذلك الحلف راح صدره يغلي بالحقد ، فأرسل رسله يستعدون أهالي المناطق الجبلية الشرسين ، الموالين لروما ضد أولئك . ولم يكن ذلك بالأمر العسير . فليس أسهل من إثارة الإنسان الجاهل ، إذا مست تقاليده وطقوسه . لكن أولئك كانوا أضعف من الوقوف بمفردهم ، في وجه الكانتونات الزونجالية — وهكذا عقدوا حلفاً مع فردناند أمير النمسا ، تعهد بمقتضاه أن يمدهم بالرجال والمركبات والعتاد . ثم بدأ التحرش بين القرنيين .

حرب بين الكاثوليك والمصلحين :

فدبر البابويون حادث اختطاف جيمس سيرا ز قسيس زيورخ . وبعد محاكمة صورية لا سبب إلا أنه من أتباع زونجلى ، صدر عليه الحكم بالإعدام حرقاً ، ونفذ فيه الحكم — وثار زونجلى لهذه الجريمة ، وراح يرفع صوته منادياً بالانتقام ، ووضع حد لهذه الأعمال الوحشية قائلاً : « نحن لا نريد أن نسفك دم إنسان . وإنما نريد أن نقص أجنحة الأعداء . وعندما تكون لدينا قضية عادلة ، يجب أن نعرف كيف ندافع عنها ، نظير يشوع ، وجدعون ، حتى لو اقتضى الأمر سفك دمائنا في سبيلها » .

وهنا نلاحظ أن دعوة زونجلى للحرب ، لم تكن يدافع تثبيت الإيمان ، بل بسبب خلافات سياسية وهذا يثبت به بقوله « إننا لانلزم أحداً بترك القداس والطقوس وكافة العقائد المنحرفة ، والخرافات ، فكلمة الله قادرة أن تمحوها ، كما تمحو الريح الأترية . فلنطلب إلى أعدائنا الداح بحرية الكرازة ، والتخلي عن التحالف العسكري مع النمسا » ، وهذه كما نرى دعوة لاصلة لها بالدين .

أما المقاطعات الكاثوليكية فكانت هي الأخرى تعد نفسها للحرب .
ولكن الزونجليين كانوا أكثر عدة . كما أن المقاطعات الكاثوليكية الجبلية ،
كانت تعتمد في مواردها الغذائية ، على ما يصلها من كانتونات أعدائها .
وإذ رأى أتباع زونجلى ، أن البابويين يرتكبون الفظائع ضد من يقع بين
أيديهم ، أغلقوا الأسواق في وجوههم ، ومنعوا عنهم الطعام . فانتشرت
المجاعات والأوبئة والموت في المقاطعات الجبلية . وكان رد البابويين .
« إن كان الزونجليون قد سدوا المسالك في وجوهنا ، فسنتق لنا طريقا
بالسيف » . وقد بذلت محاولات عديدة للتوفيق بين الجانبين ، لكن
دون جدوى . ومهما قيل عن محاولات قام بها زونجلى لتخفيف حدة التوتر ،
بمحاولة إقناع الكانتونات التابعة له ، بأن تفك الحصار الإقتصادي ،
فإننا لا يمكن إلا أن نحمله مسئولية وصول الأمور إلى هذا الحد من السوء .
كما أن ذلك الموقف غير المسيحي ، قد أثار نفور كثيرين من حركة
الإصلاح ، وحول كثيرين إلى صف الأعداء — حتى جاء وقت قرر فيه
زونجلى ترك السفينة بمن فيها ، لولا رجاء أعضاء مجلس زيورخ ، الذين
أكدوا له أن السفينة ستغرق في هذا الخضم ، إن هو تخلى عنها في هذه
العاصفة الهوجاء .

وخلال هذه الفترة الطويلة ، كان البابويون يستكملون استعداداتهم
العسكرية ، ويحسنون موقفهم ، حتى إذا أهل شهر أكتوبر (١٥٣١)
تحركت جيوشهم لمهاجمة مشارف زيورخ . وما لبثت أن دقت نواقيس
الخطر ، في كافة بلدان المقاطعة ، وقراها ، داعية الناس إلى حمل
السلاح . ولم يتجمع سوى عدد ضئيل ، لا يصل إلى الألف ، على رأسهم
قائد الجماعة ، بصحبة زونجلى ، وكانت العادة أن يرافق القسيس
الجنود في المعركة . عدا ذلك ، كان هناك خمسة وعشرون قسيسا في

رفقتهم . أما زونجلى ، فقد قبل زوجته وأولاده قبل الرحيل ، وقال لهم .
والدموع في عينيه : « أنا أعلم أنى أنا المقصود بهذا كله . وقد حدث كل .
هذا رغبة في القضاء على - ولكن ثقى في الله وحده ، وإنى أسلم نفسى
لمشيئته الصالحة » .

وكانت محاربة غير متكافئة : جيوش الكانتونات الجبلية الخمسة ،
تؤيدها كتيبة مسلحة من النمسا ، ضد حفنة لا تتعدى الثمانمائة نفس .

ودارت المعركة وصياح البابويين يعلو « قد وقعتم في أيدينا أيها
المهراطقة محطى التماثيل » . وكانت معركة طاحنة هلك فيها خيرة
شباب زيورخ ، ولكن أعظم خسارة كانت هى مصرع بطل الإصلاح
فى سويسرا .

موت زونجلى :

ولترك المؤرخ فيليب تشاف يروى لنا نهاية ذلك البطل « لقد انتهت
حياته وهو لم يتجاوز الثامنة والأربعين ، مع بضعة من أقارب زوجته
وأصدقائه . وما استخدم الأسلحة لقتل أعدائه ، ولكنه كان يكتفى بتشجيع
الجند : لا تخافوا . تشددوا - تشجعوا - إن قضيتنا عادلة - استودعوا
أنفسكم بين يدي الله ، فهو الذى يعتنى بنا جميعا . ولكن مشيئته » .
وهرع إلى جوار جندى يحتضر ، وانحنى عليه يشجعه ، وفجأة أصابه
حجر فى رأسه ، فسقط على الأرض ممددا . وعاد يرفع رأسه ، فجاءت
ضربات أخرى . وعندها تحسس جراحه النازفة وقال « وماذا بهم ؟ إنهم
قد يقتلون الجسد ، لكنهم لا يستطيعون أن يقتلوا الروح » .

وبقى ممددا تحت تلك الشجرة التى عرفت فيما بعد باسمه ، وقد تثبتت
عيناه فى السماء ، وضم يديه فى وضع الصلاة . وبعد برهة انتشر الأعداء

كالجوارح ، بين الموتى والمحتضرين يسلبونهم حتى مآزرهم . ولما وصل
اثنان منهم إلى زونجلى ، قالوا له « هل نحضر لك قسيسا ؟ أم لعلك تصلى
للقديسين ؟ » ولكنه هز رأسه مرتين . وعندها تقدم ثالث ورفع مشعله .
ونظر إليه فعرفه فهوى عليه بالسيف ، وقطع رأسه ، وهو يقول « مت
أيها الهرطوقى العنيد ! » .

وبقى جسده ملقى طول الليل . وفى الصباح انتشرت الأنباء بأن زونجلى
قد لقي مصرعه . وتدافع الجند يمتعون أنظارهم ، بروية الجسد الحامد ،
وحينما رآه أحد كهنة زيورخ البابويين السابقين ، تساقطت الدموع من
عينيه وهو يقول « مهما كانت عقيدتك فقد كنت وطنيا مخلصا . ليت الله
يغفر ذنوبك » .

لكن المتعصبين لم يكتفوا بذلك . بل طلبوا بأن تنفذ فى الجثمان مراسم
معاملة الخونة . وقد قام شريف لوزرن بهذا العمل البربرى ، فقسم جسده
إلى أربعة أجزاء ، ثم أحرقه ومزج الرماد برماد خنازير ، وذرى مع
الرياح .

والآن نطوى هذه الصفحات الحزينة ، لننتقل إلى صور أخرى من
الإصلاح فى دول أوروبا .





الإصلاح في فرنسا وسويسرا الفرنسية

[كلفن يكمل ما بدأه زونجلي - ثيولوجية كلفن
- الأوضاع في جنيف - أثر كلفن في فرنسا - مذبحة
الهوجنوت .]

إن الحسائر التي منيت بها ثورة الإصلاح في سويسرا الألمانية ، قد
عوضتها نهضة الإصلاح في كانتونات سويسرا الفرنسية : في فود ونيوشاتل
روجنوا . لقد اتجهت الحركة المصلحة إلى الغرب . وما لم يتمه زونجلي ،
استطاع كلفن أن يقوم به . حتى قيل إن جنيف قد حلت محل زيورخ ،
وأصبحت قبلة البروتستانت ، كما كانت روما قبلة الكاثوليك . ومنها
(زيورخ) أشرفت الأفكار والعقائد المصلحة على فرنسا ، وهولندا ،
وإنجلترا ، واسكتلندا - والإصلاح في سويسرا الفرنسية ، لا يمكننا أن
نفصله عن الإصلاح في فرنسا بجمليتها . فأول المنادين بالإصلاح في غرب
سويسرا كانوا من الفرنسيين ، الذين هربوا من بلادهم بسبب الإضطهاد -
وعن طريق تلاميذهم ، أصبحوا نواة الإصلاح في فرنسا - إن الكنائس
المصلحة في كلا البلدين واحدة . وإبان المذابح التي أثارها الكاثوليك على
الهوجنوت ، نجد جماعات منهم تأوى إلى نيوشاتل وجنيف . إن
السويسري الفرنسي ، تجرأ في دماثة رقة الشخصية الفرنسية ، إلى جوار
قوة الشخصية السويسرية ، وحبها للحرية .

كلفن :

والآن نأتى إلى الحديث عن جون كلفن ، المؤسس الرئيسى للكنيسة المصلحة فى فرنسا ، وفى سويسرا الفرنسية — والذي طبع طابعه على كافة الكنائس المصلحة فى أوربا ، وأمريكا ، لأجيال قادمة — نكاد نقول إنه كان الشخصية التى تحتاجها أرضه وبلاده . فلو وضع فى زيورخ ، أو فى ويتمبرج ، لما استطاع أن يقوم بمجادة بالدور الذى قام به زونجلى أو لوثر . إن النعمة الإلهية تعرف كيف تضع الرجل المناسب فى المكان المناسب .

ولقد استمرت رسالة لوثر تسعة وعشرين عاما (١٥١٧ — ١٥٤٦) ، وزونجلى استمر مؤديا رسالته إثني عشر عاما (١٥١٩ — ١٥٣١) . أما كلفن ، فقد قارب فى مدة خدمته خدمة لوثر (١٥٣٦ — ١٥٦٤) : الأول استمرت حياته إلى الثالثة والستين ، والثانى لم يعمر أكثر من سبعة وأربعين عاما ، أما كلفن ، فلم يزد عمره عن الرابعة والخمسين . ومع أن كلفن لم تتميز حياته بالمآسى التى تميزت بها حياة كل من لوثر وزونجلى إلا أن الهدوء النسبى الذى تمتع به ، قد أتاح له فرصة تنميق مبادئ الإصلاح ، وتهذيبها ، وكما قيل : لقد قام لوثر وزونجلى بقطع الأحجار من المحاجر ، وقام كلفن بصقلها وتجميلها — لقد قام الأولان بتقديم الأفكار الجديدة ، واستطاع الأخير أن يهذبها فى نظام ثابت — لقد قام كلفن على أكتاف لوثر وزونجلى ، واستطاع أن يعلو بالبناء إلى فوق .

ولم تكن فى شخصيته ألمعية لوثر ، ولا قوة زونجلى ، لكنه ترك الكنيسة أفضل حالا . لقد كان — إذا صح التعبير — رواقيا مسيحيا عنيقا : لايلين حتى مع نفسه ، لكنه كان يطوى ضلوعه على قلب رحيم . ولم يثر

اسمه حماس الجماهير . ولم تقم له التماثيل ، نظير ما أقيم لزونجلي . حتى المكان الذي دفن فيه جسده في جنيف ، لا يعرفه أحد . لكنه فاقهم في متانة خلقه ، وقوة تهذيبه . وما قدمه من تراث ديني .

ولكم اختلفت ظروف نشأة الثلاثة — فلوثر كان ابن فلاح تهاب في مدرسة الرهبنة والتصوف . بتأثيرات أوغسطينوس وتولار وستوبتز . أما زونجلي فكان ابن حاكم سويسري وبطل وطني ، ودارس للأدب الكلاسيكي . وإرازمس . دخل من النهضة إلى الإصلاح . أما كلفن فهو مواطن فرنسي ، جامعي قانوني ، درس القانون واللاهوت . وبعقليته المنطقية المهيبة . تأهل لأن يبنى بناء « الكومنولث » المسيحي .

ولم يلتقِ لوثر بزونجلي غير مرة واحدة . ومع ذلك لم يفهم أحدهم الآخر . ولقد مد بطل إصلاح سويسرا ، يد الصداقة إلى بطل ألمانيا . لكن لوثر رفضها في تمسكه بعقيدة خاصة . لكن كلفن لم يلتقِ بأى من الإثنين ، بل كان صديقا لملانكثن حتى نهاية العمر . ومع ذلك ، فقد كان يقدر لوثر فوق زونجلي ، وكان يقول : « لو قال عنى لوثر أننى الشيطان بعينه ، فإننى لا أنفك أسميه خادماً الله الأمين » أما لوثر فلم يتعرف إلا على كتابين اثنين من كتابات كلفن ، فأعجب به أيما إعجاب وكان يرسل له تحياته عن طريق ملانكثن .

ثيولوجية كلفن :

وفى ثيولوجيته . كان كلفن وسطاً بين لوثر وزونجلي . أما ملانكثن فقد كان الوسيط بين لوثر وكلفن . كان الصديق للإثنين ، ولو أننا نقول إنه كان مغايراً في طبعه لهذا وذاك : رجل سلام بين رجل ثورة .

أما المراسلات بين كلفن وملانكثن والتي تدور حول مشكلة الاختيار المسبق ، والإرادة الحرة ، فهي تكشف عن نفسية وعقلية كل منهما . فإن الاختلاف البين في العقيدة ، لم يكن له أثره على الصداقة الشخصية .

إن الصداقة التي ضمت المصلحين في أكثر من بقعة وشعب ، تبين لنا أن اليد المدبرة واحدة — إنها يد الله وتدبير الله . لقد كان الجميع على رغم اختلاف النشأة والظروف والفكر والعقيدة الفرعية ، يعملون معا للهدف الواحد ، الذي في سبيله كانوا على استعداد أن يجابهوا الموت والنيران دون أدنى تردد .

فلو أننا نظرنا إلى مكانة كلفن في التاريخ المسيحي ، فإننا نقول إنه كان قبل كل شيء لاهوتيا عظيما ، فهو يحتل مركز الصدارة في تبويب العقيدة المسيحية المصلحة . فهو ليس أقل من أوغسطينوس وسط الآباء ، أو توما الأكويني وسط المدرسين .

أما ثيولوجيته ، فهي ، تقوم على معرفة دقيقة للكتاب المقدس . فهو أقدر مفسر للكلمة بين المصلحين — وتفسيراته تعتبر من أقوى ما ظهر في هذا المجال ، بين القدامى والمحدثين . إن فكره اللاهوتي فكري كتابي ، أكثر منه فلسافياً مدرسياً . وهو يصطبغ بصبغة روحانية تعبدية . فضلا عن ذلك ، كانت له الجدلية المنطقية ، بحيث يقنع بكل سهولة من يخالفه في الرأي — وهكذا استطاع أن يبني بناء لاهوتيا متكاملًا ، عرف فيما بعد بالكلفينية .

والكلفينية من أقوى النظم العقائدية في الكنيسة — وهي أقوى منطلقا من اللوثرية والأرمينية—ونستطيع أن نضعها جنبا إلى جنب مع الأغسطينية ،

فهى تشاركها عمق التغلغل فى الفكر الرسولى البولسى ، فى تعليمه عن الخطية والنعمة — ولكن العيب الوحيد فيها ، هو تضيق دائرة عمل النعمة الإلهية ، حتى لاتضم إلا فئة قليلة مختارة ، مناقضة بهذا إعلان الله ، عن محبته للعالم أجمع — إنها ثيولوجية سلطان الله ، أكثر من قلب الله . ومع ذلك ، فمحنة الله المعلنة فى المسيح ، هى مفتاح شخصية كلفن ورسالته — كما أنها الحل الوحيد لمشكلة الخطية ؟

ولم يحدث فى كيان كلفن الثيولوجى ، ذلك التطور والتغير ، الذى نلمسه فى فكر لوثر وملاكثن ، وذلك التناقض الذى نلمسه فيهما : لقد استمر متمسكا بعقيدة شبابه حتى نهاية حياته . ولعل العمل الذى يلخص عقيدته بكاملها ، هو « أسس الديانة المسيحية » . وهو عمل دفاعى (Apologetic) له قيمته .

وفى المقام الثانى ، يأتى دور كلفن كمشرع . فهو واضح أسس السياسة الكنسية ، التى حصنت البروتستانتية ، وزادت من قوتها ، وجعلتها تقف فى وجه تنظيم روما القوى من جانب ، والانحرافات العقائدية عن الحق المسيحى من الجانب الآخر — بهذا نستطيع أن نضعه فى صف البابا هلدبراند ، الرجل الحديدى ، الذى أصلح البابوية فى عصره ، على أساس مبادئ الزهد والتقشف ، وأرسى قواعد ثيوقراطية العصور الوسطى — بينما استطاع كلفن ، أن يشكل الكنيسة المصلحة ، على أساس مبادئ اجتماعية سليمة ، وأقام ثيوقراطية جديدة ، على أساس الكهنوت العام المشترك لكل المؤمنين . الأول أثبت سلطان الكنيسة على الدولة ، والثانى أثبت سلطان المسيح على الكنيسة والدولة معا — لقد وحد كلفن القوى الروحية والزمنية معا — كدراعى الله العاملين فى الوجود ، على

أساس خضوع الدولة لناموس المسيح . وآخر مظهر لهذه الثيوقراطية الكلفينية ، هم البيورتان في إنجلترا (١٦٢٠) ، الذين استمر أثرهم لعدة قرون .

وقد قال جون نو كس مصلح اسكتلندا : «إن المدرسة التي أقامها كلفن للمسيح هي أكمل مدرسة ظهرت منذ العصر الرسولي » .

إن كلفن في تشدده ونظامه ، يبدو لنا كابن للعهد الموسوى ، أكثر منه ابناً العهد الجديد . ومع أنه قد مضى ، إلا أن نظامه قد تبلور في العصور اللاحقة ، في أكثر من هيئة لها نظمها الأخلاقية المتشددة نظير المشيخية وغيرها .

هذا المزيج من العقيدة المتزمتة ، والنظام المتشدد ، هو الأساس الذي قامت عليه هيئات الهوجنوت في فرنسا والبيورتان (المتطهرين) في إنجلترا ، والمتعاهدين في اسكتلندا ، والآباء المهاجرين في مقاطعة إنجلترا الجديدة - على أن الجانب الثالث في تأثير كلفن ، كان أثره في تطور الأدب الفرنسى . فهو يحتل مكانة لا تبارى ، في تاريخ اللغة الفرنسية ، كما أن لوثر كان له فضله على اللغة الألمانية . أما لوثر فقد أعطى للألمان ترجمة عظمى للكتاب المقدس في لغتهم القومية ، كما أعطى كتاباً للترانيم . أما كلفن ، فمع أنه لم يكن له الحظ في ترجمة الكتاب إلى الفرنسية ، إلا أنه قدم مؤلفاته العديدة في اللغة الفرنسية الكلاسيكية ، كما في اللغة اللاتينية . لقد كان من تلاميذ عصر النهضة . لكنه جعل النهضة الأتاتان الذى يركبه المسيح ، ويدخل به إلى المجتمع الأدبى .

إن اللغة الفرنسية الحديثة ، وكذلك الأدب الفرنسى الحديث ، يؤرخان من عصر كلفن ورابليه (١٤٨٣ - ١٥٥٣) . لكن كلفن ،

كان يتميز عن زميله الساخر الأبيقورى ، بروحه المتدينة ، وخدماته للفكر اللاهوتى المسيحى .

ولد كلفن فى نيون من أعمال بيكاردى الفرنسية . وكان والده محاميا ناجحا ، له صلواته بالنبلاء ورجال الكنيسة فى دائرته .

ولقد تلقى أوائل تدريبه فى بيت أحد النبلاء مع أبنائه . وهذا التدريب كان له أثره فى تهذيب شخصية كلفن وصقله . وحين بلغ الرابعة عشرة من العمر ، كانت أمنية والده ، أن يجعله ينخرط فى سلك الكهنوت ، وهكذا أرسله إلى باريس ليتلقى دراسات تمهيدية لذلك — وبعد مرور خمس سنوات على دراساته ، عاد والده وقرر أن يصبح محاميا . فأرسله للإلتحاق بجامعة أورليانز وبورجز ، ولم يعمر والده طويلا ، فقد مات قبل أن يتجاوز كلفن الثانية والعشرين ولم يكمل دراساته بعد . وهكذا أتاحت له الفرصة ليتم رغبة كان يتمناها ، وهى أن يصبح من رجال الأدب . ولأجل هذا عاد إلى باريس ، لينال إجازته العلمية فى أكبر جامعاتها .

أما متى ، وكيف ، وأين أصبح كلفن من أتباع الحركة الإصلاحية ، فإننا لا نستطيع أن نجزم . ولعل ذلك جاء نتيجة لدراسته لكتابات لوثر نفسه — ولقد حدث هذا التغيير فى حياته فجأة ، واقترب بحياة روحية سليمة ، وتدين عميق . وقد أعلن تجديده عام (١٥٣٣) وفى أواخر ذلك العام ، اضطر إلى الهروب من باريس ، عندما بدأ يحس بقرب حدوث موجة من الاضطهاد . وكان لم يتجاوز بعد السادسة والعشرين من العمر ، عندما نشر فى بازل كتابه الأول « أسس الديانة المسيحية » ، وقد رفعه هذا الكتاب إلى مصاف قادة الكنيسة المصلحة : وكان الكتاب فى بادئ الأمر

بحثاً مختصراً : ولكنه في طبعاته اللاحقة ، تطور ليصبح عملاً كلاسيكياً مطولاً مبوباً ، من أجزاء وفصول ، حتى إننا نعتبره إقراراً للإيمان المسيحي ، كما يتمسك به البروتستانت . وعلى كثرة ما صدر بعده من إقرارات للإيمان ، فإنه لم يصدر حتى الآن ، ما يضارعه في الشكل أو المضمون . إنه دفاع قوى عن الحق المسيحي ، ضد هجمات البابويين والمغرضين . وفي يناير (١٥٣٦) قضى كلفن ليلة في جنيف . وهذه كانت مدينة كبرى ، تضم في ذلك الحين ، ثلاثة عشر ألفاً من الأنفس - كانت مدينة ناجحة ، لكنها منحلة أخلاقياً . ولقد نجح فيها عمل الإصلاح على يدى الواعظ الفرنسى ، والقائد الجسور ولیم فارل . وكان يحكمها أسقف هو أيضاً ، سيدها الإقطاعى ، غير أنها استطاعت أن تكسب حريتها وتنتصر عليه ، وتعلن نفسها كواحدة من أتباع الحركة البروتستانتية . لكن فارل كان يرى أن ما قام به لم يكن سوى البداية . وأن الصبغة الخارجية التى اصطبغت بها المدينة ، مازال أمامها الكثير ، حتى تتغلغل فى الداخل ، وتغير الطباع ، والأخلاق . وأحس بأنه ليس الإنسان الكفء للقيام بهذا الدور . وبينما كان يبحث عن يقوم بمعاونته ، التقى بكلفن ، الذى تصادف وجوده كما أسلفنا فى تلك الليلة فى المدينة - وكانت مواهب المصلح الفرنسى هى الوحيدة التى يحتاجها فارل ، وتحتاجها جنيف . لكن كلفن كان مصراً على الإستمرار فى دراساته ، رغم توسلات فارل . ولما لم يجد فارل وسيلة لإقناعه ، قال له أخيراً « إن لعنة الله سوف تستقر عليك ، إن رفضت دعوته للخدمة هنا ، فى المكان الذى يحتاج إليك » . وهكذا بصُلوات كثيرة أقنعه بالعمل .

وقد التقى كلفن أول ما التقى بما خيب رجاءه - إذ كان سكان المدينة قانعين بحياتهم ، ولا يريدون تغيير نظمهم في شيء . فلم يقبلوا في أعماق قلوبهم روح الإصلاح . وهكذا اشتدت المعارضة ضد كلفن وفارل ، مما انتهى بنفيهما خارج المدينة . وقد قضى كلفن سنوات ثلاث في ستراسبورج راعياً للفرنسيين البروتستانت . وهناك تعرف بكثيرين من قادة الإصلاح ، وظهر بينهم وتميز عنهم .

الأوضاع في جنيف :

أما في جنيف فقد سارت الأمور من سيء إلى أسوأ ، حتى أن الجماعة الطبية في المدينة ، رأت الخسارة التي لحقت بها بغياب كلفن ، فأرسلت تدعوه وتلح في الرجاء . وبعد تردد كثير ، عاد إليها في عام (١٥٤١) . لكنه في أعماق قلبه ، قرر أن يجعل من المجتمع هناك ، مدينة مسيحية مثالية ، تصبح مركز إشعاع إنجيلي للبروتستانت في كل مكان ، ولقد كان يعرف أن الكنيسة الرومانية الكاثوليكية لن ترضى بهذا ، وأنها ستناصبه أقصى درجات العداء . غير أنه أعد نفسه لأسوأ النروض .

وكانت طريقته لجعل جنيف مدينة مثالية ، أن يعيد تنظيم الكنيسة ، وتنظيم النظام التربوي بجمليته : فإذا جئنا للكنيسة ، فلإننا نراها تشرف على حياة الأهالي بجمليتها ، لأن المدينة قبل مجيء كلفن ، قررت أن تكون ضمن حركة الإصلاح . وهكذا ، فإن تنظيم الكنيسة البروتستانتية ، كان معناه التأثير على كافة أفراد الشعب هناك . . وبدأ كلفن خطته ، بتعيين رعاة أكفاء ، متعلمين ، غيورين في الخدمة ، أمناء في الرعاية . ثم أنشأ مجلس الشيوخ الكنسي ، مكوناً من كبار رجال الكنيسة ، وكانت وظيفة هذا المجلس ، هي الإشراف على الرعاية معاً : أما الشمامسة ، فكانوا هيئة

تدبيرية ، تشرف على تقديم الإعانات للأسر المحتاجة وتقوم بالخدمات الاجتماعية في الكنيسة .

ونخطة كلفن لتطوير نظم التربية ، كانت تهدف إلى ربط التعليم بالدين . فالإيمان المصلح بحاجة إلى رعاية متعلمين ، وبحاجة إلى رعاية مثقفة . وهكذا أقام مجموعة من المدارس الحرة ، على رأسها الأكاديمية العليا ، التي تتيح لطلابها نوال الدرجات الجامعية ، وفيها تدرس العلوم اللاهوتية . ولقد حرص كل الحرص على أن يجتذب لها أفضل الأساتذة وأقواهم ، حتى أصبحت جنيف مركزاً للعلم ، وطبقت شهرتها آفاق أوربا . . . ولقد تخرج كثيرون من أكاديمية جنيف ، ممن وفدوا من أكثر من بلد ، وعادوا إلى بلادهم ، ليحتلوا مراكزهم كرعاة ناجحين للكنائس .

وخلال حياته وخدمته في جنيف التي استغرقت ثلاثة وعشرين عاماً ، رأى كلفن الكثير من ثمار عمله وخدماته . أما المدينة المنحلة ، فقد أصبحت مدينة مثالية ، مشهوداً لها بنظامها ، ومسيحياتها ، وحياة سكانها . ولم يصل كلفن إلى هذا بسهولة ويسر ، بل قاسى الكثير من المقاومة والإعراض حتى بدا له في وقت من الأوقات ، أنه لا جدوى من أتعابه ، وأن الأجر به أن ينفذ يده من كل شيء ويعود أدراجه . ولكنه ظل يجاهد ، وزاد في نجاح مجهوداته ، وفود كثيرين من البروتستانت اللاجئين من الإضطهاد من دول أخرى ، واستقرارهم في المدينة ، وهؤلاء كانوا تطعماً قوياً لشعبها ، وغرساً جديداً في وسطها .

ولإزاء هذه المجهودات المضيئة ، لم يكن غريباً أن نجد كلفن في السنوات التسع الأخيرة من حياته ، حاكم المدينة الفعلي الذي لا ينزع

إلى أن جاءت هرطقة سيرفيتوس ، وهو طبيب أسباني ، أنكر تعليم الثالوث الأقدس ، فكانت النتيجة أن التأم مجلس محاكمته ، وكان كلفن أحد قضائه ، وأصدر عليه حكم الإعدام ، وتم تنفيذ ذلك بإحراقه علناً ، في أحد ميادين جنيف . وقد وجه النقد إلى كلفن بسبب ذلك ، وفقد شيئاً من شعبيته . لكننا نستطيع أن نقول إن تلك كانت العادة السارية في القرون الوسطى ، وإن الانحراف عن الإيمان القويم ، كان نصيبه أن يفضى بصاحبه إلى عامود الإحراق . إننا ننظر إلى مثل هذه التصرفات ، في نور حضارة القرن العشرين . لكن ينبغي أن نذكر ، أن المجتمع البروتستانتي ، كان موافقاً على مثل هذا الحكم ، بل إنه إذا لم يظهر كلفن مثل هذه الروح الحازمة ، فلربما اتهمه أعداءه بالتسيب ، وقرنوا هذه الهرطقة بحركته — إن كلفن بجهاذه في جنيف ، قد استطاع أن يصل إلى نتائج ثلاث ، فقد أصبحت المدينة أخلاقياً ، مثال المدينة التي تتمسك بمبادئ الإصلاح . وهكذا أصبحت مركز إشعاع لكافة المناطق التي تحيط بها — ثم صارت ملجأ لكل المضطهدين بسبب تمسكهم بالحق . وإليها كان يفد اللاجئون من فرنسا ، وهولندا ، وألمانيا واسكتلندا ، فيجدون الباب المفتوح والقلب المفتوح .

كما أنها كانت مركز تدريب للقادة البروتستانت ، يتخرج الخدام والرعاة والمبشرون من أكاديميتها ، ليذهبوا إلى بلدانهم ، رسلاً للإصلاح في كل مكان ، ويكونون نواة لنشر التعاليم الجديدة . ويكفي أن نقول إن جون نوكس ؛ بطل الإصلاح في اسكتلندا ، استلم تأثيراته من لقائه بكلفن ، وتأثر به — إن كلفن بما قام به في جنيف ، أستطاع أن يدفع بالمدينة إلى الأمام في طريق التطور . أما الطريق الثاني الذي اتبعه كلفن في هذا السبيل ، فقد كان اتصاله بالقادة البروتستانت في أكثر من مكان .

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نقول ، إنه كان على رأس الإصلاح في فرنسا ، ولو أنه لم يعد إلى بلاده ، قبل أن يبلغ السابعة والأربعين من العمر . على هذا النمط كان أثره في حركة الإصلاح في أكثر من دولة وقطر .

والطريق الثالث كان تأثيره بكتابه ، وعلى الأخص كتابه الأشهر « أسس الديانة المسيحية » .

وهكذا استطاعت أفكار كلفن ، أن تسيطر على حركة الإصلاح في كل من فرنسا ، وهولندا ، واسكتلندا ، وأجزاء من ألمانيا . بل كان لها الأثر الأكبر في إنجلترا . وحين نتأمل الإنجازات العظمى للبروتستانت في تلك الدول ، يجب ألا ننسى ، أن الفضل يرجع إلى المصلح الفرنسي أصلاً جون كلفن .

أثر كلفن في فرنسا :

والآن لا ضير علينا ، لو تحدثنا في كلمات قلائل ، عن أثر كلفن في فرنسا ، وعن حركة الإصلاح هناك — ففي مستهل القرن السادس عشر ، ظهر بعض من الذين تأثروا بعصر النهضة ، ودرسوا الكتاب المقدس في لغاته الأصلية ، وأصبحوا متحمسين لتفسيره والمناداة به . ولكن حينما قامت ثورة الإصلاح في ألمانيا ، وانتشرت كتب لوثر وأفكاره ، تفتحت الأذهان إلى خطورة ذلك على كيان الكنيسة الكاثوليكية . وبدأ عصر الإضطهاد الديني — إلى أن جاء عام (١٥٣٨) ، حينما قرر الملك فرانسيس الأول ، أن يقاوم بكل قواه التعاليم البروتستانتية . في تلك الأثناء ، كان كلفن يحتل مركز الصدارة في المناداة بالإصلاح ، في جنيف ، وعن طريق قساوسته ومبشره وكتابه ، كان له الأثر الأكبر ، في توجيه حركة الإصلاح هناك . وعلى الرغم مما لقيه المصلحون في فرنسا ، من مقاومة دهوية ،

انتشر الإصلاح انتشار النار في الهشيم ، في كل جزء من ربوعها . وفي عام (١٥٥٩) ، تأسست بالفعل الكنيسة البروتستانتية الفرنسية . وعلى نمطها ونمط سياستها ، قامت الكنيسة الأسكتلندية في العام التالي ، ونظمت الكنائس المشيخية الأخرى - في تلك الفترة ، بدأت صبغة البروتستانتية تتغير إلى حد ما . وكما حدث في حركة الإصلاح في سويسرا ، حينما مدت الكنيسة يدها إلى الجالسين على كراسي الحكم ، واختلط الدين بالسياسة هناك ، هكذا حدث في حركة الإصلاح في فرنسا ، إذ أن كثيرين من الأمراء ورجال الطبقة العليا والنبلاء ، انضموا إلى الحركة البروتستانتية ، واحتلوا القيادة فيها . وكان البعض من هؤلاء الأمراء ، يجرى في عروقهم الدم الملكي . وهؤلاء بالطبع ، شعروا أنه من المهانة أن يعاملوا باحتقار ، أو يقع عليهم الإضطهاد ، فقرروا المطالبة بحقوقهم ، وضمان حياتهم ، وكرامتهم ، وإلا فلا بديل للثورة المسلحة . إن جهادهم لم يكن مقصوراً على العمل لنشر التعاليم المصلحة فحسب ، بل امتد إلى المطالبة بضمان حقوقهم ، وحياتهم - هذه الحركة الجديدة التي ولدت في أحضان البروتستانتية الفرنسية ، عرفت في التاريخ باسم حركة « الهوجنوت » ، ونظم أولئك صفوفهم ، تحت إمرة أدميرال كولني ، والأمير كوندى ضد كاترين دي مديتشي . واندلعت الحرب عام (١٥٦٢) وهي واحدة من الحروب الدينية الثمانية ، التي كادت تحطم فرنسا .

مذبحة الهوجنوت :

أما روح الحيانة ، فقد ظهرت بأجلى صورها في مذبحة سان برثولماوس التي قام بها الكاثوليك . وكان المسئولون عن هذه المذبحة هم كاترين دي مديتشي ، والبابا بيوس ، وفيليب الثاني ملك أسبانيا .

ولكى يجتذب ملك فرنسا جموع الهوجنوت في بقعة واحدة ، تظاهر بأنه يريد أن يضع دعائم سلام دائم بين أطراف النزاع في بلاده - فأعلن أنه سيزوج شقيقته مرجريت دى فالوا لهنرى دى نافار ، أحد الملوك الذين اعتنقوا العقيدة البروتستانتية . كما أرسل رسلا لكولونى ، وكبار زعماء الهوجنوت ، داعياً الجميع إلى حفل الزواج ، الذى سيقام فى باريس . وعقد الزواج فى كاتدرائية نوتردام دى بارى ، فى ١٨ أغسطس عام (١٥٧٢) فى احتفال عظيم . ثم أعقب الإحتفال سلسلة من الولائم الملكية ، اشترك فيها البروتستانت مع الكاثوليك . وبذلك تبددت مخاوف الهوجنوت وبدأ كأن عصر سلام سيشرق على البلاد ، بعد طول صراع وحروب دامية . ولكن فى نفس الوقت الذى كان فيه البروتستانت فى فرح واستبشار كان الكاثوليك يرتبون الترتيبات اللازمة ، لمذبحة رهينة لجميع أفراد الهوجنوت .

وأول محاولة فى هذا الصدد ، كانت لاغتيال القائد البروتستانى كولى فقد تبرع الملك بخمسة آلاف قطعة ذهبية ، لمن يأبى برأسه . غير أن المحاولة لم يقدر لها النجاح . وأظهر الملك الفرنسى المنافق استياءه لهذا الحادث ، وأقسم أن ينتقم من فاعله شر الإنتقام .

وكانت ليلة ٢٤ أغسطس هى ساعة الصفر لبدء المذبحة . وحينما اقتربت الساعة من الثالثة بعد منتصف الليل ، كانت ليلة عيد القديس برثولماوس ، دق الناقوس الكبير ، ناقوس كنيسة سان جرمانوس ، مؤذناً بحلول ساعة صلاة البكور . وكانت هذه هى الإشارة المتفق عليها .

فما لبثت أجراس كافة الكنائس فى باريس أن دقت دقاتها . وفى نفس الوقت ، انطلق الرعاع السفاحون ، يطلقون بنادقهم . وكانوا قد اتفقوا

فما بينهم ، على أن يرتدوا قبعة يميزها صليب أبيض . وكل من لم تميزه هذه العلامة كان نصيبه الموت .

وأسرع دوق جيز إلى مسكن كولوني - الذي استيقظ على صوت إطلاق الرصاص - على رأس ثلثمائة جندي . وأمر أحد خدامه بأن يغتاله . فما لبث أن أغمد السيف في صدره ، وألقى بجثته إلى الشارع . ولما عرف الكاثوليك أن قائد البروتستانت قد اغتيل ، تعالت صيحات انتصارهم . « لله وللملك » ، واندفعوا كالوحوش الضارية ينقلون مهمتهم . فحوصرت جميع بيوت البروتستانت ، واقتحمها السفاحون ، وذبحوا كل من فيها ، حتى النساء والأطفال ، وألقوا بجثثهم إلى الشوارع . ولم يأت اليوم الرابع حتى كان الهوجنوت قد محقوا من باريس ، وغصت الشوارع بأكوام المذبوحين ، وسالت دماؤهم أنهاراً . أما هنري دى نافار ، وضيوف الملك الذين أفرد لهم جناحاً خاصاً في قصره ، فقد استدعاهم الوجوش واحداً بعد الآخر ، وذبحوهم في الشارع ذبح النعاج ، تحت سمع وبصر الملك الفرنسي ، وألقوا بجثثهم في نهر السين .

وفي يوم الخميس ، عقد الكهنة الكاثوليك مهرجاناً عاماً ، وارتفعت من على المنابر صلوات الشكر لله وصلك البابا بيوس ميدالية ذهبية بهذه المناسبة ، على أحد وجهيها صورته ، وعلى الوجه الآخر صورة الجند يطاردون الهوجنوت ، وقد بدوا في شكل خنازير ، وأعلن غفراناً عاماً لهذه المناسبة السعيدة . ويقدر عدد الذين هلكوا في تلك الأيام القليلة ، بحوالى سبعين ألفاً . منهم أربعة آلاف قتلوا في باريس . ولقد عم الاستياء في جميع الممالك التي أقرت عقائد الإصلاح ، في إنجلترا ، وألمانيا ، وسويسرا . وأعلنت الملكة اليصابات الحداد في البلاط الملكي - أما في سويسرا ، فأقيم يوم صلاة عام ، في ذكرى هذه الحادثة المشؤمة .

أما الملك الفرنسي القاسى ، الذى غرر به الكاثوليك ، وقالوا له :
« إن الأمر الإلهى لك هو ، إذهب وحرّم عماليق » فلم يعمر أكثر - من
عامين بعد هذه المذبحة .

وفى أخريات أيامه ، أصيب بالجنون ، فكان فى اليقظة كما فى المنام ،
يرى جثث الموتى حوله ، برووسهم المقطوعة فى كل مكان - على سريريه -
وعلى مائدته ، حتى أتى الموت أخيراً وأنهى حياته .

ومثلاً دبرت مذبحة باريس هكذا ، دبرت مذابح أخرى فى أكثر من
إقليم . لكن لئننى عشرة مقاطعة ، رفضت تنفيذ أوامر الملك - ومن
الأشخاص الجديرين بالثناء ، أسقف ليزيه ، الذى حينما جاءه الأمر بذبح
الموحدون ، كان جوابه على الرسول : « لا ياسيدى - إن أولئك الذين
تأمرنى بذبحهم ، هم أيضاً رعيتى - وإن كانوا قد ضلوا عن القطيع الذى
عهد به إلى يسوع المسيح ، فإننى أرجو يوماً رجوعهم . فالراعى الصالح
لا يسمح بسفك دماء خرافه ، بل بالعكس يبذل دمه وحياته من
أجلهم » .

أما فى روان ، وتولوز ، وأورليانز ، وليون ، فقد استمر ذبح
البروتستانت ستة أسابيع كاملة . ونهبت ونخربت بيوتهم ، وجرفت مياه
الأنهار الألوف من الجثث .

وأعتقد أن الصفحات تضيق عن ذكر كافة الحروب والمذابح الأخرى ،
« التى دبرتها روما ضد البروتستانت » .

ولكن على الرغم من هذه الضربة القاضية ، استطاعت البقية الباقية ، أن تنظم صفوفها ، وتستمر في القتال حتى عام (١٥٩٨) ، حينما انتهت الحرب بمرسوم نانتس الملكي الشهير ، الذي أعطى البروتستانت شيئاً من الحقوق . وتضمن بنوداً من التسامح ، ونضرب صفحاً عن بقية ما ورد في الصفحات الخزينة .





الإصلاح في هولندا واسكتلندا ووسط أوروبا

[هولندا (الأراضي المنخفضة) - مجمع دوريت -
السويد - الدانمرك - اسكتلندا - جون نويس]

لقد كانت بلاد الأراضي المنخفضة ، هي التركة التي ورثها شارل الخامس ، ليكمل سلسلة عدااته واعتداءاته ، ضد تحركات الإصلاح ، فحينما بدأت تنتشر العقائد اللوثرية هناك ، أقام محاكم التفتيش ، التي كان من نتائجها إحراق شخصين عام (١٥٢٣) وكانا أول شهيدين من شهداء الإصلاح . لقد ظل ذلك الملك الأسباني الأصل ، نصف الألماني ، يحارب حركات الإصلاح في كافة البلدان ، التي تقع تحت سلطانه ، لمدة تقرب من ثلاثين عاماً ، قاتلاً الألوف من رعاياه ، ومع ذلك استمرت حركات الإصلاح في تقدم وازدهار . وبظهور كلفن ، ازدادت رسوخاً وانتشاراً ، بتغلغل المبشرين من فرنسا ، وجنيف . وهنا بدت الكلفينية كما في كل مكان آخر - أرسخ قدماً .

وفي عام (١٥٥٥) ، بعد استقالة شارل ، خلفه في الحكم في أسبانيا ، كما في الأراضي المنخفضة ، فيليبس الثاني ، الذي كان أكثر قسوة وجموداً ، حتى أن كثيراً من المناطق ، أظهرت روح التمرد على القسوة والمظالم الأسبانية ، التي كانت تستنزف ثرواتهم ، وتصادر حرياتهم ،

وتبشش بأحرارهم . وقد ظهر في تلك الحقبة الكثيرون من الأبطال ، الذين كان معظمهم من البروتستانت . وهكذا اقترنت الحركة البروتستانتية هناك بحركات التحرر الوطني .

أما حركات التحرر الوطني ، فقد تزعمها ولیم الصامت أمير أورنج ، وهو ألماني الأصل . وكان من أنبل من ظهوروا هناك . وإذ رأى أن فيليب الثاني يكتل قواته لسحق كل مقاومة لحكمه ، انسحب من ألمانيا ليعيد نفسه للحرب . ومع أنه في الأصل كان كاثوليكيًا ، إلا أن أمور الدين لم تكن تهمه كثيرًا ، حتى أننا نراه يعتنق المبادئ البروتستانتية ، ويدأوم على دراسة الكتاب المقدس ، الأمر الذي انتهى به ، إلى أن يكون تابعاً متحمساً لمبادئ الإصلاح . زد على ذلك أن ما شاهده من مناظر الإستشهاد ، قد عمق فيه الشعور الديني ، وهكذا أيقن في نفسه ، أن العناية الإلهية قد اختارته ، أداة في يد القدير ، لتخليص شعبه من ظلم الحكم الإسباني . وقد تمثل نبه ، في عقله المتسع ، وقلبه الرحيم ، وروحه المتوقدة . وهذه هي مؤهلات القائد الناجح – وطوال عمره ، كان هدفه أن يكفل حرية العقيدة لكل إنسان – وفي عام (١٥٦٧) ، تحركت الجيوش الأسبانية تحت قيادة عملاق بابوي قاس هو دوق ألفا ، وكان لبطشة ومذابحه أكبر الأثر ، في إضعاف حركة الإصلاح ، في الجانب الجنوبي من المنطقة . وفي العام التالي ، زحف ولیم الصامت في حربه التحريرية ، وتوالت انتصاراته ، ومواقفه ، التي تكون فصلاً من أمتع الفصول في تاريخ حروب التحرير . وحينما رأى أن البروتستانتية قد كسرت شوكتها في الجنوب ، ألقى بثقله مع أهل الشمال . وقد حدثت نقطة التحول في الحرب حينما قطع الأهالي السدود ، وأغرقوا المناطق بفيضان المياه ، ومهدوا لوصول السفن بالإمدادات والعتاد إلى الداخل ، لمعونة السكان الثائرين .

وبعد عراك مرير ، استطاعوا أن يفكوا حصار ليدن . ومع أنه بقيت أكثر من جولة أخرى مع فيليب الثاني ، إلا أنه كتب له الانتصار أخيراً .

ولم يتمتع ذلك القائد طويلاً بثمار انتصاره . فقد دبر البابويون اغتياله — حسب العادة — عام (١٥٨٤م) . لكن مثاله ظل يلهم جيش التحرير « ألا نبخل بالمال أو بالدم بمعونة الله ، في سبيل الوصول للهدف المحيد » . حتى تم النصر للمصلحين في عام (١٦٠٩) .

وهكذا ظهرت للوجود دولة هولندا البروتستانتية الفتية . وقد تأسست كنيستها بإقرار الإيمان المصلح ، وبنوع من الحكومة ، يقوم على أساس تعاليم كلفن . ومن كنيسة هولندا تفرعت الكنيسة المصلحة في أمريكا ، وهي تلقب أحياناً بالكنيسة الهولندية المصلحة . وفي مستهل القرن السابع عشر حدث خلاف حول بعض الأمور اللاهوتية في المجتمع هناك . فتمسك فريق منهم بالفكر الكلفيني في أضيق حدوده من ناحية الاختيار المسبق (Predestination) ، وفحواها أن الله قد اختار البعض للهلاك ، والبعض الآخر للخلاص ، وزادوا على ما نادى به كلفن نفسه . بينما قام فريق آخر يناهض هذا الرأي ، وينادى بأن المسيح مات عن الجميع ، وأن هدف الله منذ البدء ، هو خلاص الجميع في يسوع المسيح . وقد لقب الحزب الأخير بالأرمينيين ، نسبة إلى أرمينيوس الذي تزعم هذه الحركة .

مجمع دوريت :

ولكى يحسم هذا النزاع العقائدي ، عقد مجمع دوريت (١٦١٨) ، الذي ناصر الرأي الأول ، وأدان الرأي الثاني . ولكن مع ذلك انتشرت تعاليم الأرمينيين في إنجلترا ، ثم بعد ذلك في أمريكا . فإذا أتينا إلى تطور الإصلاح في ألمانيا نقول ، إنه كان هناك كثيرون من أتباع زونجلي ، في

قلب كنيسة ألمانيا ، وعلى الأخص في الجنوب . وكان أولئك هم نواة الكنيسة الألمانية المصلحة . وحينما ابتدأ تأثير كلفن في جنيف ، وامتد إلى ما حولها ، فضلت بعض المناطق عقيدة كلفن على عقيدة لوثر . وقد ظهر هذا بصورة واضحة ، في المناطق الكاثنة بوادي الراين ، حيث كان رئيسها المنتخب فردريك الثالث ، إنساناً شديداً التدين وكلفينياً مخلصاً . وهكذا ازداد عدد المصلحين وتكاثر ، وصدر قانون إيمانهم (١٥٦٣) باسم « إقرار إيمان هيدلبرج » .

أما في المجر فقد انتشرت التعاليم البروتستانتية بسرعة في القرن السادس عشر . هناك كان اللوثريون جنباً إلى جنب مع الكلفينيين ، الذين كانوا يكونون الأغلبية . ومع ذلك ، ورغم الكثير من الخلافات ، قامت كنيسة مصلحة قوية . أما في الدانمرك والسويد فقد انتهيا إلى الانفصال عن روما ، وأكن كانت لهما ظروفهما الخاصة . فبنذ عام (١٥٢٠) إلى عام (١٥٢٥) ، كان يحكمهما دكتاتور ظالم هو الملك كرستيان الثاني ، لم تكن له المقدرة على تدبير شئون بلاده ، ولكنه أراد أن يجعل من نفسه ملكاً مطلقاً . فثارت عليه الدولتان وتم خلعها عن العرش ، واتخذت كل دولة طريقها .

السويد :

أما في السويد ، فقد ضاق الشعب ذرعاً بمظالم كل من الإقطاعيين والكهنة على السواء — واشتاق أفرادهم إلى ملك قوى صالح يتولى حكمهم . هذا ما كان يتمناه الفلاحون في ألمانيا ، ولكنهم لم يصلوا إلى تحقيقه . أما في السويد ، فقد تمكن الشعب من تحقيق ذلك ، بانتخاب الملك جوستاف ، واحد من النبلاء الذين وقفوا إلى جوار الشعب ، في صراعه ضد الملك الأسبق . ولقد ساندته الشعب في برنامج إصلاحى شامل ، نظير ذلك البرنامج

الذى قام بتحقيقه هنرى الثامن فى انجلترا ، أما رجال الكنيسة ، فقد أذلوا
أيما إذلال ، واستولت الدولة على كافة أملاكهم ، واستطاعت السويد
فى سنوات قلائل ، أن تتبوأ مكانها البارز بين الدول الحديثة . بل إنها
لعبت فيما بعد ، دوراً هاماً فى الأحداث ، فى الصراع الكبير بين الكاثوليك
وقوات البروتستانت ، إذ قام جوستاف بدور هام فى حرب الأعوام
الثلاثين .

الدانمرك :

وفى الدانمرك أيضاً ، وكانت الزويج معها تحت نفس التاج ، حلت
ملكىة جديدة بدلا من الملكىة السابقة المستبدة ، وقامت الملكىة الدنمركىة ،
على أنقاض الكنيسة المانهار . أما اللوثرىة فقد ازدهرت وانتشرت ، بحيث
جاء الوقت الذى أصبحت فيه الدانمرك ، دولة بروتستانتىة ، لعبت دورها
هى الأخرى فى حرب الثلاثين .

اسكتلندا :

أما اسكتلندا فقد كانت مملكة مستقلة فى القرن السادس عشر ، تربطها
صداقة مع فرنسا أكثر منها مع انجلترا . أما كهنتها ، فلم يكونوا من عتاولة
البابوىة . لا غرابة إذا أنه حينها بدأت تعاليم الإصلاح تنتشر ، قبلها الشعب
بسرعة ، على الرغم من معارضة الكنيسة ، والحكومة ، وإحراق الكثيرين
من المبشرين البروتستانت ، حتى قيل إن كل شخص كان يملك نسخة من
العهد الجديد من ترجمة وليم تندرل الإنجليزىة — وكما قيل إن الكتاب المقدس
ظل يحجب البلاد طولها وعرضها ، ومر على أبواب قصر رئيس الأساقفة ،
دون أن يحس بوقع أقدامه ، وسار فى الشوارع والأزقة ، دون أن
يلحظه جواسيسه . ومع أن هذه شهادة حق ، إلا أننا لا ننكر ، أن الكنيسة

هناك اعتمدت أيضاً بدماء الشهداء— وكان أول الضحايا باتريك هاملتون —
 حفيد الملك جيمس الثاني . وقد تلقى دراساته في جامعة باريس ، حيث
 حصل على درجة الأستاذية في الآداب . ومنها عاد إلى بلاده (١٥٢٣) ،
 والتحق بجامعة سان أندروس . وقد أثار حوله الشبهات ، بسبب صراحته
 ومجادلاته ، ضد مفسد الكنيسة ، الأمر الذي أثار عليه رجال البابا . ولما
 أحس هو بذلك هاجر إلى ألمانيا ، وفي ويتمبرج قضى فترة مع ملانكثون
 ولوثر . ثم عاد إلى بلاده في عام (١٥٢٧) ، لينادي بإنجيل المسيح . وقد
 قدمت الشكاوى ضده إلى بيتون رئيس الأساقفة في سان أندروس .

وحسب عادة رجال البابا استدرجه الأسقف إلى شرك ، مدعياً أنه
 يريد أن يتناقش معه بحضور آخرين ، في هذه الأمور . ولم يكن باتريك
 يدري أنه يستدرجه إلى محكمة كاملة عقدت على عجل ، وأحيط مبناها
 بالوف من الجند المسلحين لأن الأسقف كان يعرف أن صحبته من البيت
 الملكي ، ووقف باتريك أمام المحكمة ، ونوقشت آراؤه ، واكتشف
 أن به « عدوى هرطوقية لوثرية » ، فصدر الحكم بإعدامه حرقاً في
 نفس اليوم .

واستدعى الجند . واقتيد مقيداً إلى الميدان . وهناك ربط إلى عامود
 الإحراق . وربطت إلى جسده شحنات صغيرة من ملح البارود . ويقال أنه
 تعذب كثيراً ، لأن الخشب لم يكن جافاً ، فاستمر احتراقه ست ساعات .
 وكانت آخر كلماته « حتى متى يارب يغطي الظلام هذه المملكة ؟ إلى متى
 تسمح بظلم الإنسان ؟ وبعد فترة همس « أيها الرب يسوع إقبل روحي » .

وقد عم اسكتلندا شعور عام بالاستياء ، بسبب هذا الشاب . وكانت
 جنازته هي بذور حركة الإصلاح هناك .

أما الشهيد الثاني فراهب من البندكتيين ، اكتشفت لديه نسخة من العهد الجديد . وكان هذا أقوى دليل لإدانته . ولأجل هذا نفذ فيه حكم الإعدام ، حرقاً على سارية مرتفعة ، كما أوصى بذلك رئيس الأساقفة ، حتى يرى الناس عقاب من يعتنق هرطقة البروتستانت . على أن هذا قد زاد النار اشتعالاً .

ومن الغريب أن حركة الإصلاح في اسكتلندا ، بدأت بين رجال الإكليروس وكبار اللوردات ، والأشراف . وكان معظم شهدائها في بادئ الأمر ، من الرهبان والكهنة . فكان موت الشهيد الواحد ، يجلب في أثره إيمان جماعات أخرى . ويعوزنا الوقت لتتحدث عن اليسوس وسيتون . وسترانيون ونورمان وغيرهم .

وبعد موت رئيس الأساقفة جلس على كرسيه ابن أخيه ، وكان متعصباً أشد التعصب ، حتى أنه أحرق خمسة من الكهنة والرهبان في يوم واحد ، فوق أحد التلال في أدنبره . لهذا هرب كثيرون من وجهه هذا المحنون واستقر بهم المقام في إنجلترا . وكان بين هؤلاء الهاربين جورج بوكنان ، الذي نظم المزامير شعراً ، لترتل في كنائس اسكتلندا ، وكذلك جماعات أخرى من العلماء وكبار المفكرين .

وكان الملك هنري الثاني قد وقف موقفاً شجاعاً ، حينما رأى أن الأوزة السمينية في إنجلترا ، لم تكن سوى أملاك الكنيسة ، فلم يتردد في تأميمها وضمها للدولة — وظل ينصح جيمس الثاني ملك اسكتلندا بأن يحدو حذوه . ولكن جيمس ربما — خوفاً من بطش البابا ، وربما شعوراً منه بقدسية هذه الأملاك — أحجم عن ذلك . وفي نفس الوقت قدم البابويون للملك قائمة

بأسماء مئات اللوردات والأشراف وراحوا يلحسون عليه في ذبحهم ، ومصادرة أملاكهم . ولم تكن تلك الأسماء ، إلا مجموعة ممن عرفوا بانحيازهم لتعاليم الإصلاح . وكانت هذه هي نخطهم لإطفاء كل نور في ظلام اسكتلندا .

وانحاز الملك لرأيهم ووعدهم بتحقيق رغبتهم . لكن شيئاً ما عطل هذا الإجراء الدموي ، فيحدث سوء تفاهم بينه وبين هنري الثامن المتعجرف ، يدفع بملك إنجلترا إلى إرسال جيوشه لتأديب ملك اسكتلندا . وبطبيعة الحال يعي ملك اسكتلندا جيوشه . ويستثنى من ذلك قائمة الأشراف الذين يريد أن يوقع بهم . ولكن هذا الاستثناء أضعف من قوة جيشه ، وانتهى بهزيمة . فاعتزل في قصره وبعد عدة أسابيع مات حزناً وكداً . وهكذا فشلت مؤامرة أذنان البابا .

ومن بعد جيمس جلس على العرش إيرل آران ، وكان من المناصرين للإصلاح ، وكان اسمه على قائمة الأشخاص المطلوب إعدامهم — فبدأ بذلك عصر جديد للبروتستانت ، ولحركة الإصلاح .

ففي عام (١٥٤٣) أصدر البرلمان الاسكتلندي قراراً بإباحة تداول الكتاب المقدس باللغة القومية ، وأنه « لا جريمة على الإطلاق في اقتنائه ودراسته » .

ومن ذلك الحين ، شق الكتاب طريقه في المجتمع الاسكتلندي ، واحتل مكانه في كل بيت وكل قلب . ومع ذلك بقي البابويون في مراكزهم وما زال القانون سائداً ضد الهراطقة ، وما زال بيتون ينفث سماً وتهديداً . في تلك الآونة ظهر جورج ويشارت (١٥٤٤) ، وبدأ ينادى بالحق ، ولما ضاقت

الكنائس بالمجتمعين لسماعه ، كان يعقد الاجتماعات في الحقول ، والأسواق ونتيجة لمناداته دب الحماس في الشعب ، واشتعلت نيران الثورة ، فهاجم الناس على الأديرة في دندى ، وأعملوا فيها النهب والسلب وأحرقوها . ومنذ ذلك الوقت كان رئيس الأساقفة يتحين الفرص للإيقاع به .

وبنفس الطريقة التي اتبعها مع باتريك أرسل رجاله ليلا - وأحاطوا بالبيت الذى كان فيه ، وكان في ضيافة أحد اللوردات . وتحت وعد زائف بالأمان ، أطبقوا على فريستهم ، وزجوا به في السجن .

وبعد محاكمة صورية صدر ضده حكم بالإعدام . فأحرق في الميدان ، أمام قصر سان أندروس ، بينما جهزت شرقة القصر بمختلف وسائل الراحة الفاخرة ، لكي يتمتع كاردينال اسكتلندا أنظاره ، بروية ضحيته وهو يحترق .

وبينما كان الشهيد يجود بأنفاسه الأخيرة ، وسط ألسنة النيران ، نظر إلى الكاردينال وهتف : « إن ذاك الذى يتمتع أنظاره بروية عذاباتي ، سيشتق بعد أيام قليلة ، في نفس هذه النافذة ويتدلى جسده منها . »

وقد حدث هذا بالفعل . فقد دبر أصدقاء ويشارت مع آخرين ، مكيدة للإنتقام منه . فحاصروا قصره ، وكسروا الأبواب ، وقتلوه في غرفة نومه ، وعلقوه في نفس الشرفة ، وتدلّى جسده في الشارع .

جون نوكس :

وهكذا زالت آخر عقبة في طريق الإصلاح واحتل المصلحون قصره . حتى جاء مصلح اسكتلندا الأشهر « جون نوكس » ، الذى ظهر في أواخر فترات حياة ويشارت . وقد راح هذا ينادى بمبادئ الإصلاح بكل شجاعة.

وفي أول موعظة له في كنيسة سان أندروس ، لقب البابا بالمسيح الدجال ، إنسان الخطية الذي سيبيده الرب بنفخة فيه . وكانت نتيجة خدماته ، أن اعتنق الإيمان كثيرون من رجال القصر .

ودبر البابويون المكائد لاسترداد قصر الكاردينال . وحاصروه ، وأسروا جميع من فيه ، وحملوهم إلى سجون فرنسا ، وضمنهم نوكس . ولسنا ندرى الظروف التي أدت إلى إطلاق سراحه ومن معه . في تلك الأثناء كانت تجلس على عرش اسكتلندا الملكة ماري وكان لشقيقتها الضلع الأكبر في ملبحة سان برثولماوس . ولما خشي على حياته ، آثر نوكس أن يلجأ إلى سويسرا ، وهناك توطدت الصلة بينه وبين كلفن ، الذي كان في أوج شهرته . وكان لمصلح سويسرا أثره الكبير على مصلح اسكتلندا .

وفي عام (١٥٥٥) ، عاد نوكس إلى اسكتلندا ، بعد غياب دام ثماني سنوات . واستطاع في فترة قصيرة ، أن يقنع العديد من أصدقائه ، برأيه في العبادة في الكنيسة البابوية ، فانسحبوا وكونوا نواة الكنيسة المصلحة في اسكتلندا ، ومارسوا خدمة العشاء الرباني كما تمارس في الكنائس البروتستانتية . وكان ضمنهم كثيرون من النبلاء ، والأشراف . وقد قام بعد ذلك بالتبشير في كابل وكنجهام وغيرهما . ولكن لما أحس بأن وجوده سيثير عاصفة جديدة من الإضطهاد ، فضل الإنسحاب مرة أخرى إلى سويسرا .

منذ ذلك الوقت صار تقدم الإصلاح سريعاً ، وحاسماً . وكانت الجماعات تجتمع للصلاة ودراسة الكلمة . وكانت الخطوة الأولى ، هي خطوة العهد الذي قطعه اللوردات على أنفسهم وفيه يتعهدون ، بأن يضعوا أموالهم وحياتهم وقواهم ، لحفظ وتثبيت وتقديم كلمة الله . ومع أن الملكة

المتعصبة أصدرت مرسوماً بمنع الاجتماعات أو التبشير أو ممارسة الأسرار ،
يدون أخذ ترخيص من الأساقفة ، إلا أن اللوردات لم يهتموا بهذا ، ووقفوا
يداً واحدة ، مما جعل الملكة تراجع عن تهديدها .

وأحس المتعاهدون بحاجتهم إلى يد قوية تجمع شملهم ، وتشد أزرهم .
ولم يكن أمامهم إلا دعوة نوكس . فوصل إلى البلاد في مايو (١٥٥٩) ،
وهناك في مدينة برث ، ألقى إحدى مواظبه الملتبهة ، ضد القديس ،
والتمثيل . الأمر الذي أغاظ كاهناً في كنيسة قريبة ، فأسرع بإقامة مراسم
القديس ، فهتف به أحد الصبية « هذه وثنية » ثم أمسك بحجر وضربه في
قلب الكنيسة ، فحطم تمثالا . على أثر ذلك اشتبك الشعب مع الكاهن ،
وقاموا بتحطيم التماثيل والصور ، وهاجت المدينة كلها - وفي ساعات
كانت جميع الأديرة خربة ومحطمة - وعبثاً حاول الحكام والمبشرون نهضة
الشعب - ثم ما لبث الشعب أن امتد إلى بقية مدن اسكتلندا - ولقد نسب
إلى نوكس القول « اهدموا الأوكار تطر الغربان » .

فتميزت الملكة غيظاً ، وأقسمت أن تسوى مدينة برث بالأرض . غير
أن اللوردات وقفوا وقفة قوية مما اضطر الملكة إلى عقد صلح معهم - وفي
عام ١٥٦٠ ، ماتت الملكة ماري ، فاستراحت البلاد . وفي أواخر ذلك
العام ، بفضل مجهودات نوكس وزملائه ، دعى البرلمان للإنعقاد، وقرر
إلغاء الرئاسة الدينية الرومانية نهائياً ، وجعل البروتستانتية ديانة الدولة
الرسمية .

ثم صدر كتاب « سياسة الكنيسة » ، وهو أساس تنظيم الكنيسة المشيخية .
وفيه تقسم الوظائف الكنسية إلى الخدام ، وهم الذين يقومون بالوعظ

والإرشاد ، والدكاترة ، وهم يشرحون الحق الإلهي لطلبة الجامعات ،
 وهم معاونون للخدام ، والشمامسة ووظائفهم تدبيرية . ثم أنشئت محاكم
 أربع : مجلس الكنيسة ، ومجلس المشيخة ، ومجمع الأقاليم ، ثم السنودس
 العام . نفس النظام الذى تسير عليه الكنيسة المشيخية الإنجيلية بوادى النيل ،
 وكافة بلدان الشرق الأوسط .



٦

الإصلاح في إنجلترا وأيرلنده

[الملك هنرى الثامن - صراع بين الملك والكنيسة
- قرار البرلمان الانجليزى بانهاء السلطة البابوية -
الملكة ماري الدموية - الإصلاح في ايرلندا]

وإننا لنجد سمات متباينة لثورات الإصلاح في كل مكان قامت فيه .
وكما يقول المؤرخ دوينى ، كانت نشأة الإصلاح فى ألمانيا ، بين طبقة
الفلاحين ، أما فى سويسرا ، فقد أشرق نور الإصلاح من رحاب الجامعيين ،
وفى فرنسا ظهرت الإنتفاضة بين العسكريين . لكن هذه السمات المتباينة ،
كانت متحدة فى الهدف .. فإذا أتينا إلى إنجلترا فإننا نجد ظروف انتفاضتها ،
وانفصالها عن روما ، تختلف عن مظهر انتفاضة الإصلاح فى سويسرا
وألمانيا . .

أولا - لأن إنجلترا كانت دولة متماسكة قوية ، لها حكومتها المركزية .
لذلك فلما بدلا من الإنشقاق إلى دويلات وأحزاب متصارعة ، كل دويلة منها
لها لونها وصبغتها ، نقول بديلا عن ذلك كانت هناك أمة واحدة متماسكة ،
إذا اعتنقت مذهباً ، فجميعها تعتنقه ، وإذا ثارت ثورة ، فجميعها تتكاتف
وتتآزر . . الملك والبرلمان الانجليزى يعملان معا . وهكذا كان من السهل

كما سئرى ، نقل التشريع الكنسى من السلطة البابوية إلى التاج الإنجليزى .

وثانياً - إنه فى الدويلات الألمانية كما فى الكانتونات السويسرية ، كانت الحركة الدينية سابقة ومؤثرة فى التحرك السياسى . لكن الأمر فى إنجلترا كان على نقيض ذلك . فقد كانت الأسباب السياسية سابقة للتغيير الدينى . فكان التحرك السياسى أولاً ، ثم أتى بعده على أمد طويل تغيير العقيدة ونظام العبادة . أى أن السياسة كانت محركاً للدين وسابقة له .

الملك هنرى الثامن :

ولنبداً من الربع الأول للقرن السادس عشر (١٥٢١) فى هذا التاريخ كان الملك هنرى الثامن مرتبطاً بروما ، ومناهضاً للحركة اللوثرية . وفى مجمع ورمز انضم إلى جناح البابا وامبراطور ألمانيا ، ليس فقط ضد فرنسا بل أيضاً ضد لوثر - وبينما كان مجمع ورمز منعقداً ، كتب هنرى رسالته الشهيرة ضد لوثر ، مدافعاً فيها عن سلطان البابا الإلهى ، الأمر الذى جعل البابا يسبغ عليه لقب « حامى حمى الإيمان » .

فى تلك الأثناء كان سيرتوماس مور فى خدمة الملك ، وعرض عليه الملك رسالته ، وكلنا نعرف موقف مور من البابوية ، من تصويره سكان « يوتوبيا »^(١) ينتخبون « بابا » حسب مزاجهم . وهكذا ناقش مور الملك فى هذا الأمر ، فإذا بجلالته يجيب أنه لا مجال للتحول عن هذا الرأى . وقد عرف السر بعد ذلك - أما الأسباب التى دفعت هنرى الثامن ، للتمسك بسلطان البابا الإلهى ، فهى التى انتهت فيما بعد ، إلى انفصال

(١) وهى المدينة المثالية التى ابتدئها خيال مور ، وقدمها ليصور لنا المجتمع المثالى .

انجلترا عن البابوية وإلى القطيعة بينه وبين البابا - فقد كان يطمع في تأييد البابا له . ولكن هذا لم يحدث مما أدى إلى تطور الأحداث بعد ذلك بصورة سريعة وفي الاتجاه المضاد :

صراع بين الملك والكنيسة :

ونحن نعرف حرص ملوك إنجلترا في القرون الوسطى ، على الحفاظ على العرش ، في جواز آخر بالمؤامرات والثورات . ولقد تمثل هذا الحرص في هنري السابع ، الذي هداه تفكيره إلى عقد الزواج ، بين ابنه آرثر وبين كاترين بنت فردناند ، وإليزابلا ملكي أسبانيا . لكن المنية لم تمهل آرثر أكثر من ستة شهور . ورأى الملك أن يحتفظ بالعروس الأرملة ، وبفوائد التحالف مع أسبانيا ، فزوج كاترين لابنه الثاني هنري الثامن .

هنا بدأ الصراع بين الملك ، والكنيسة .

فمعظم الأساقفة كانوا يعارضون مثل هذا الزواج ، ويرون مخالفته للشريعة المسيحية . ولكن نتيجة لإصرار الملك ، أصدر البابا يوليوس الثاني مرسوما بالتصديق عليه ، وقد تم ذلك عقب ارتقاء هنري الثامن لعرش الملك .

وقد انقضت على هذا الزواج سبع عشرة سنة ، أنجب الملك خلالها ثلاثة أولاد وابنتين . لم يبق على قيد الحياة منهم سوى طفلة ماري - ويقال أن الملك أراد أن يتخلص من هذا الزواج ، لأنه شعر بأن موت أبنائه تأديب من الله له ، لأنه تزوج بامرأة أخيه . ويقال أيضاً أن الملك أغرم بسيدة من سيدات القصر تدعى آن بولين ، وأراد الاقتران بها . ومهما يكن من أمر ، فقد لجأ هنري الثامن إلى البابا الجديد ، لاستصدار

مرسوم بعدم شرعية زواجه الأول ، وبأن له الحرية في أن يقترن بأخرى غير أن البابا الجديد وقع في حيرة . فلو قام بهذا ، فإن معناه أن سلفه قد أخطأ في مرسومه . زد على ذلك ، أن جيوش الملك شارل ملك ألمانيا ، وابن أخي كاترين ، كانت في إيطاليا . ولم يكن البابا يريد أن يصدمه بطلاق عمنه .

فلجأ البابا إلى المماطلة . وبعد سبع سنوات كاملة ، ضاق هنري الثامن ذرعا بالبابا ووعوده . فلماذا لا يمسك بالسلطة التشريعية ويلغى سلطان البابا نهائيا ، ويضع حداً لتدخله في شئون إنجلترا ؟ !

قرار البرلمان الانجليزي بانتهاء السلطة البابوية :

وفي عام ١٥٣٤ ، أصدر البرلمان قرارا إجماعيا ، بإنهاء السلطة البابوية في إنجلترا ، والتوقف نهائيا عن دفع أى نوع من الهبات لكنيسة روما . لكن قطيعة الملك مع البابا ، لم يكن معناها مصالحة وتأبيداً ، أو حتى مهادنة لحركات الإصلاح ، بل على النقيض من ذلك . لقد رأى أن يصالح الأساقفة الذين حرموا عطف البابا ، بصب جام غضبه على على أتباع لوثر ، والمارقين عن الإيمان (ا. ه.) فعقد معهم اتفاقا ، أطلق بمقتضاه أيديهم في أن يقبضوا على من يشاؤون من « الهراطقة » ، ويسجنوهم ويحرقوهم أحياء . وهكذا بدأ الإضطهاد المنظم ، لأتباع حركة الإصلاح وقادتها . ومن بين الذين كانوا ضحايا هذه الحقبة سيرتوماس مور ، حامل أختام الملك ، والصدیق الشخصي لهنري الثامن ، والذي قاد الحملة ضد اللوثرين في إنجلترا ، فترة من الزمن . إن مور كان متعلقا بالبابا ، رغم معارضته واعتراضه على فساد رجال الكنيسة . وكان يرى أن أجيالا طويلة متعاقبة تمسكت بسلطان البابا الروحي ، لا يمكن أن تكون على خطأ ولا بد وأن تكون في البابا مسحة من القداسة والكرامة .

بهذا الرأي وقف مور في وجه لوثر ، ولم ينل رضاه ، كما وقف في وجه أتباعه — وبهذا الرأي أيضا ، وقف في وجه هنري الثامن ، حينما أعلن نقل السلطة في البلاد ، من يد البابا إلى يديه ، وانفصال إنجلترا نهائيا عن روما — وكانت حياته هي الثمن .

أما « مجموعة أو كسفورد » ، فعلى الرغم من أنها كانت تنادى بالإصلاح ، إلا أنها لم تكن على وفاق مع لوثر ، ومبادئه الأوغسطينية وما كانت لترضى بتغيير في نظام الكنيسة أو في طقوس العبادة .

وها هو إرازمس ، على الرغم من أنه كان سندا للراهب الألماني الأوغسطيني في حركته ، إلا أنه كان يطلب منه الاعتدال . وكان يرجو بذلك ألا يحدث في جسم الكنيسة ، ذلك الصدع الذي ترتب على أعمال لوثر وتصرفاته .

نقول إن الخطوة التالية للملك هنري ، كانت تحدى البابا ، وزواجه من آن بولين عام (١٥٣٢) .

وقد اعتبر زواجه من كاترين باطلا ، وصدق على ذلك كرانمر رئيس أساقفة كانتربري ، كما وافق البرلمان على ذلك ، وهكذا قطعت كل صلة بروما . وانسلخت إنجلترا عن الكتلة الرومانية — نقول إن كل هذا حدث ، دون أن تصبح إنجلترا بروتستانتية أو تغير عقيدتها الكاثوليكية ونظام أساقفتها وكهنتها ، أو تخفف من اضطهادها ، لمن تشتم فيهم أدنى مروق عن الكاثوليكية . إن الانفصال عن روما ، لم يكن يقدم أو يؤخر في هذا المجال ، بل ربما كما أشرنا ، زاد في شراسة رجال الكنيسة ، ودفعهم إلى نوع من التعويض عن خسارة الصلة بروما : كل ما في الأمر

أن شتيمة اليا با ، لم تعد هرطقة أوجرما ، ولكن التهجم على نظام الكنيسة وعقيدتها ، كان جرماً يعاقب مرتكبه بالموت . لقد كانت نصيحة ولسي القسيس الخاص للملك هنرى ، التى أسداها له قبل موته (١٥٣٠) ، لمحى الهرطقة من البلاد ولا تدع داء اللوثرية الخبيث يستشرى فى إنجلترا .

ومن بين الذين تعرضوا للإضطهاد ولیم تندال ، الذى يدين له الإنجليز ، بأول ترجمة كاملة للعهد الجديد فى اللغة الإنجليزية ، وقد لقي التعذيب على يدى توماس مور نفسه ، كمنحرف تفوح منه رائحة اللوثرية — وفى تلك الأثناء حدثت فى روما ، أعمال التخريب التى امتدت إلى كنيسة القديس بطرس ، على أيدي الثوار . فخاف أن تتعرض إنجلترا لما حدث فى ألمانيا من ثورات الفلاحين ، وما حدث فى إيطاليا من تخريب الغوغاء ، فأصدر بياناً قال فيه إن الهرطقة ممنوعة وسيتم إعدام كل من ينحرف عن العقيدة الكاثوليكية. ولما تولى السطة بعد سقوط ولسي (١٥٢٩) قام بتنفيذ مرسومه ، مستعينا فى هذا المجال بالأساقفة والكهنة . وكم من جماعات لاقت التعذيب ، فى تلك العصور الوحشية ، لتعترف « بمروقها » عن الإيمان القويم ، لكن والحق يقال ، كان سيرتوماس مور ، يبذل أقصى الجهد فى إقناع ضحاياه ، بساطان الكنيسة وسلامة عقيدتها — وكان بذلك ينقذ أجسادهم ، وأرواحهم ، على حسب ظنه — ثلاثة فقط فى أواخر فترة حكمه أشعلت فيهم النيران فى سميث فيلد . وكانت آخر صلواتهم « يارب اغفر للسير توماس مور » « يارب افتح عيني حاكم البلاد » ومن الغريب أن يلقى مور نهايته بعد ذلك عام (١٥٣٥) بسبب معارضته للملك .

وما أن حدث الانفصال عن روما ، حتى قدم مور استقالته ، عائداً إلى بيته في خلسيا ، قائلاً للملك في صراحة ، إنه لا يوافق على طلاق كاترين ، ولا يمكن أن يكون مؤيدا لزوجته من بولين ، أو يحضر حفل تنويجها - وحينما هدده الملك بالموت ، كان جوابه « إن التهديد للأطفال وليس لي ». واحد فقط من الأساقفة وقف معه هذا الموقف ، هو الأسقف فيشر . ولأجل هذا قبض على الإثنين ، وأرسلوا إلى سجن القلعة تمهيداً لإصدار حكم الإعدام عليهما ، ولعله وهو يقاسى هناك في سجنه ، كتب لأصدقائه من الولاة والذين هم في منصب تلك النصيحة « ألا يدعوا غيرتهم الدينية تغلب الروح الإنسانية وتطغى على مشاعر الرحمة في قلوبهم .

وفي نفس العام ، وصلت الأنباء إلى صديقه إرازمس ، الذي لم يعمر بعده غير بضعة شهور . وكان يكتب في ذلك الحين كتاباً عن « نقاوة الكنيسة » ، ووصف فيه مور بأنه : روح أكثر نقاوة وبراءة من الثلج .

وقد يلتبس لنا القارئ الكريم العذر في إطالة الحديث عن الثلاثة العظام من أكسفورد ، الذين كان لهم أكبر الأثر ليس في محيطهم فحسب بل في أكثر من بقعة من أوروبا : كولييت وإرازمس ، ومع أنه كانت لهم أخطاؤهم إلا أنه يكفي ما قدمه إرازمس من كتابات ، وفوقها كلها ترجمة العهد الجديد الذي مهد الطريق لأكثر من انتفاضة للإصلاح في أوروبا .

وكان لسخرية إرازمس من الرهبان الأثر السريع ، ولا سيما في إنجلترا وظهرت الحاجة الملحة لإصلاح عاجل في الأديرة . لقد أحنى الأساقفة والكهنة رؤوسهم للملك ، وسلموا له في مسألة السلطة التشريعية ،

والإنفصال عن روما ، وها قد جاء الدور على الأديرة والرهبان لكن
يحاسبوا حسابا عسيرا .

فبعد موت مور أصدر الوزير توماس كرومويل مستشار الملك
للشئون الكنسية ، قراراً بحملة للتفتيش العام على الأديرة .

فاكتشف أن الشائعات التي كانت تتردد ، لم تكن على غير أساس
من الصحة . وأن ما أشيع عن أخلاقيات الرهبان وتصرفاتهم كان صحيحاً
فلقد بنى التعفن والفساد بثرة هناك . بل إن المفتشين اكتشفوا أن ما أشيع
كان صورة مصغرة للحقيقة المؤسفة ، وعندها رفعوا تقاريرهم مؤيدة بالحقائق
إلى مجلس العموم البريطاني ، وخلاصتها أن ثلثي الرهبان كانوا يعيشون
عيشة النجاسة والدعارة تحت ستار مآزر الرهبنة .

زد على ذلك أن الملك هنرى كان مهتداً بالانتقام من جانب شارل
الخامس ، وربما يثير شارل البابا ، ويثير البابا رجال الكنيسة والرهبان ،
فتكون ثورة دموية . لذلك فكر الملك الماكر أن يتغدى بالرهبان ، قبل
أن يتعشوا هم به ، ويضم أملاكهم للدولة .

وفي جلسة طارئة التأم مجلس العموم برئاسة الملك هنرى ، وقرر
أعضاؤه بالإجماع ، إلغاء جميع الأديرة ونظام الرهبنة من إنجلترا ،
وضم جميع ممتلكاتها ، وكانت تصل إلى خمس أراضى البلاد ، إلى
الدولة . وكذلك الإستيلاء على صندوق ذخائر توماس بيكيت ، وكانت
البابوية قد رفعتة إلى مرتبة القديسين ، ومسح اسمه من تقويم القديسين —
أما الرهبان فقد هاموا على وجوههم في البلاد مما سبب أكثر من
مشكلة .

وبالرغم من كل ما قام به من اجراءات ضد الكنيسة البابوية ، فإن الملك هنري كان كاثوليكياً في الأعماق . وقد أصدر بناء على تأثير بعض المقربين إليه من البابويين ، قانوناً من بنود ست ، يحكم بالموت على من يخالف واحداً منها .

أما هذه البنود فخاصة بتعاليم الإستمالة ، والإعتراف ، ونذر العفة البابوي ، والقدايس الخصوصية ، وزواج الإكليروس ، وتداول العشاء الرباني ، بغير أيدي الكهنة . وبالطبع ازدحمت سجون إنجلترا بالأبرياء — وكان الكاثوليك يحرقون لإنكارهم سلطان الملك ، وكان البروتستانت يحرقون بتهمة الهرطقة . ويقال إن من أحرقوا في عهد هنري الثامن ، قد وصل إلى اثنين وسبعين ألفاً .

لكن في وسط هذه الظروف النارية ، كانت خميرة الإصلاح تعمل عملها ، على أيدي كرانمر ، وتندال ، وكوفردال وغيرهم — أما كرانمر الذي كان من المقربين للملك ، فقد عمل على إطلاق سراح الكتاب المقدس في أيدي الناس . بينما قام تندال بترجمة العهد الجديد إلى اللغة الانجليزية ، ثم بعد ذلك قام بترجمة الكتاب كله بالاشتراك مع كوفردال . وبمجهودات كرانمر أيضاً ، وضعت نسخة من الكتاب المقدس ، مربوطة بسلسلة إلى أحد الأعمدة في كل كنيسة ، حتى يتسنى لكل من يريد ، الإطلاع عليها . وهكذا ، فإن إنجلترا مدينة لهؤلاء الأبطال ، وعلى الأخص وليام تندال ، الذي عاش ليرى إنجيله مصدراً بأمر ملكي ، لكن حياته النيرة انتهت بالاستشهاد على أيدي الفلاندرز .

وفي عام (١٥٣٦) ماتت كاترين . وفي نفس العام وجهت إلى يولين تهمة التآمر على الملك ونفذ فيها حكم الإعدام .

بعد ذلك تزوج الملك لثالث مرة بـجين سيمور . على أمل أن تنجب له وريثاً للعرش . وفي نفس الوقت ، بدأ البابا في « العمل » ، فأصدر حكم الحرم على هنرى . تبعت ذلك ثورة عارمة قام بها الحزب البابوى ، وقد بدأت الثورة في يوركشير ، وقد تزعمها الأشراف على أمل وصول مساعدات من الخارج . لكن فشلت الثورة وهوت رؤوس زعمائها تحت حد السيف .

وأخيرا ولد لهنرى وريث - (الذى أصبح فيما بعد الامير ادوارد) - وماتت الأم أثناء ولادته ، فأصبح المكان خاليا لزوجة رابعة . وقد دفع كرومويل إلى الملك آن كليف ، إحدى قريبات منتخب سكسونيا الألمانى ، وذلك حرصا منه على أن تجلس على العرش زوجة بروتستانتية . فأعجب الملك بها ، وتم الزواج عام (١٥٣٩) . لكن يبدو أن الملكة التى لم تكن تعرف كلمة واحدة من لغة زوجها ، لم ترق للملك فطلقها ونخوفا من تزايد نفوذ كرومويل ، دبر له مكيدة ، وأصدر عليه حكم الإعدام ، وتزوج الملك بعد ذلك مرتين .

وأخيرا مات هنرى فى أوائل ١٥٤٧ فى ظروف سياسية قاسية ، فالخزانة خاوية بسبب حروبه مع فرنسا . وفرانسيس الأول يهدد إنجلترا بالغزو . وكان موته بعد موت لوثر بسنة واحدة . وفى مستهل الحرب الأهلية ، التى أثارها شارل الخامس فى بلاده ، وبعد موت الملك هنرى الثامن ، جلس على عرش إنجلترا الملك إدوارد السادس ، الذى كان واقعا تحت تأثير كرانمر ، فتمتع البروتستانت نسيبا بفترة من الراحة :

الملكة ماري الدموية :

وتحت حكم ماري الدموية الكاثوليكية التي جلست على العرش بعد ذلك ، والتي لم تزد مدة حكمها على خمس سنوات أحرق خلالها ما يقرب من ثلاثمائة شهيد - وأخيراً استقرت البلاد في حضن البروتستانتية ، وتم الانفصال نهائياً عن روما ، تحت حكم الملكة الصالحة أليصابات .

ومهما يكن الرأي في أخطاء هنري ومظالمه ، ودكتاتوريته ، إلا أنه يكفي أنه جنب بلاده ثورة أهلية ، ودماء تراق دون جدوى . كما مهد بسياسته للانفصال التام عن روما وكسر شوكة البابوية في إنجلترا .

زد على ذلك أن ما دفع بلاداً مثل دويلات ألمانيا إلى الثورة ، بسبب رفض « الدايت » الاستجابة لمطالب الإصلاح ، قد تجنبه هنري (١٥٢٩ - ١٥٣٦) ، حينما عمل بمعونة البرلمان الإنجليزي ، لبرنامج إصلاحى شامل ، في كل المرافق ، ضمن به خضوع رجال الكنيسة ، وتطهير الأديرة - وبينما كانت أسبانيا ودويلات ألمانيا ، ترزحان تحت عبء مظالم العرش من ناحية ، ومظالم البابوية من ناحية أخرى ، كانت إنجلترا بمنأى عن كل هذه التيارات والعواصف .

الإصلاح في أيرلندا :

أما في أيرلندا ، فقد ارتبط الإصلاح فيها بارتباطها بالتاج البريطاني ، ولقد ارتبطت أيرلندا بإنجلترا ، عن طريق معاهدة عقدت بين هنري الثاني والبابا أدريان الرابع ، مع أساقفة أيرلندا - ولقد كان الأساقفة وراء هذا الحلف ، لزيادة أموالهم وإيراداتهم ، وإن كانوا بذلك قد باعوا بلادهم للأجنبي . فلقد كانوا في حالة من الفاقة والمذلة ، لأن البلاد كانت تحت سلطان الأشراف : ولذلك رحبوا بمثل هذا

الحلف ، وبسيادة ملك إنجلترا في ذلك الوقت ، ومن خلفه روما ،
لحمايتهم وشد أزرها .

ولقد كان الأمير الأيرلندي سيدا مطلقا على الكهنة ، كما على بقية
الشعب . ولكن هنري الثاني أدخل النظام السائد في إنجلترا - ونقلت
امتيازات الكنيسة الإنجليزية إلى الكنيسة الأيرلندية ، التي أصبحت
خاضعة رأساً للبابا ، وكان له مطلق التصرف في شئونها . ولكي يتغلغل
هنري بنفذه في الكنيسة الأيرلندية ، ملأ جميع المراكز الخالية في
الكنيسة ، بأساقفة من الإنجليز ، مما جعل روح الحسد والشقاق يدب
فيها بعد ، بين أولئك وهؤلاء ، ودأبما كانت الشكاوى تصل إلى روما ،
وتقوم بالفصل فيها .

ومن هنا بدأ النزاع بين ملوك الإنجليز وكهنة أيرلندا ، وسعى
كثيرون من الكهنة إلى نقل تبعيتهم إلى روما مباشرة ، باعتبارهم رجال
البابا . وهكذا استمر النزاع إلى عصر الإصلاح . وحينما جاء عصر هنري
الثامن ، ونقل السلطة إليه ، وألغى سلطان البابا ، وقام بتطهير الأديرة
والكنائس ، أراد أن ينقل برنامج الإصلاح إلى بلاد أيرلندا . لكن
كثيرين وقفوا في وجه الملك بزعامة جورج كرومر ، مما أعاق تقدم
حركة الإصلاح في أيرلندا فترة من الزمن .

ثم تطورت الأمور بعد ذلك ، وناصر جورج براون رئيس أساقفة
دبلن ، وهو إصلاحى العقيدة ، ناصر برنامج الملك ضد عقائد الكنيسة
الكاثوليكية وفسادها . وقد كان براون غيورا لتعاليم الإصلاح ، مما
عرض حياته للخطر على أيدي الكاثوليك المتعصبين . لكن بعد مجهودات
مضنية ، دعى البرلمان الأيرلندي للإنعقاد في مدينة دبلن عام (١٥٣٦)

وحصل جورج براون على أغلبية ساحقة تؤيد الإصلاح . وأصبحت العقائد المصلحة هي دين الدولة الرسمي . وقد سنت القوانين للحفاظ على هذا الوضع - ونودي بملك إنجلترا كالرئيس الزماني للكنيسة هناك - وفصلت أيرلندا عن روما ، وكل من نادى بسلطان البابا كان يعرض نفسه لأقسى العقوبات .

وقد لعبت روما لعبتها المعروفة في أيرلندا ، فأثارت الموالين لها من رؤساء الشمال بقيادة « أونيل » ، وهربت لهم الدخائر والعتاد . وتكون منهم جيش حاول الثورة ، وإعادة البلاد مرة أخرى لسلطان البابوية . لكن الملك هنري كان متيقظا ، وحاسبا حسابه لكل هذا . ففشلت الثورة وتبدد أتباعها ، وضعف تأثير الأشراف في الشمال ، وكسرت شوكة البابوية ، ولو أن الكهنة لم يكن من السهل اكتسابهم لصف الإصلاح ؟

وفي عصر إدوارد السادس ، وتحت تأثير كرنمر ، أصدر إدوارد أمراً بإحلال النظام الديني السائد في إنجلترا ، محل كافة النظم والعبادات البابوية التي كانت سائدة حتى ذلك الحين في أيرلندا . وقد أثار هذا رجال البابا . ف عقدوا اجتماعا يضم الأساقفة وجميع الكهنة الكاثوليك ، وأظهروا معارضتهم للنظام الجديد . لكن المعارضة انتهت أيضاً إلى الفشل . وأجريت أول خدمة على نظام كنائس إنجلترا ، في كنيسة المسيح بدبلن في عيد القيامة عام ١٥٥١ .

فلما كان حكم ماري الدموية ، عادت الكاثوليكية إلى البلاد مرة أخرى ، وأعطيت الحرية لممارسة خدمة القداس في الكنائس . وقرر البرلمان اعتبار

المتمسكين بالبروتستانتية هراطقة يستحقون الموت ، حتى جاء حكم الملكة اليصابات ، فعادت شمس الإصلاح تشرق مرة ثانية في البلاد ، وعادت البروتستانتية لتكون دين الدولة الرسمي . ثم حدثت عدة تطورات لاداعي لذكرها ، انتهت إلى تبلور وظهور الكنيسة الأيرلندية المشيخية في خاتمة المطاف - مبشرة بالإنجيل ومنادية بالحق في كافة الربوع .



V

الإصلاح في الكنيسة الكاثوليكية

[طريقان للإصلاح - الإصلاح المضاد في الكنيسة
الكاثوليكية - محاولة لجمع الشمل - مجمع راتسبون
- جمعية اليسوعيين - مجمع ترنت] .

طريقان للإصلاح :

لقد كان هناك طريقان للإصلاح . وكل منهما له مؤيدوه والداعون
إليه : الأول الإصلاح الخلقى . . . تنقية الكنيسة من كل ما يشين
كرامتها . . . من الكهنة المنحرفين ، والرهبان الذين تنكروا لدعوتهم .
وهكذا تصبح مؤهلة لعملها ، ودعوتها ، على أن تظل العقيدة ،
والممارسة الكنسية دون تغيير .

والثانى هو الإصلاح العقائدى . وهنأرى البعض أن العيب لا يمكن
فقط فى أخلاقيات رجال الكنيسة ، بل أيضاً فى عقيدتها . وأنه لو أمكن
الوصول إلى منتصف الطريق ، لملاقاة العقيدة المصلحة ، فلربما هدأت
الحركة البروتستانتية ، وعاد المقاومون إلى حظيرة أجدادهم ، وانتهى
الصراع فى كيان الكنيسة الكاثوليكية .

لكن الدعوة الأخيرة لم تنجح على الإطلاق . وملاقاة الدعوة المصلحة
فى منتصف الطريق . لم يقدر لها أن تتم . . . وبقي على الكنيسة الرومانية-

الكاثوليكية أن تبدأ بإصلاح دوائرها . وتعد العدة لصراع طويل مرير مع البروتستانت ، متمسكة بعقائدها ، وتعاليها ، وممارساتها التي تميزت بها . . . هذه المحاولة كثنقية الكنيسة من الداخل . وترتيب صفوفها لمحاربة الخارجين عليها ، هي التي عرفت بالإصلاح المضاد .

الإصلاح المضاد أو رد الفعل في الكنيسة الكاثوليكية :

ولقد كان من أقوى ردود الفعل للثورة البروتستانتية ، الإصلاح في قلب الكنيسة الرومانية نفسها — وينبغي أن نضع في ذاكرتنا على الدوام ، أن الكنيسة الكاثوليكية في العصور الحديثة ، هي كنيسة مصلحة في حدود دائرتها ، وعقيدتها ، تماماً كالكنائس البروتستانتية وليطل القارىء أناته علينا لتتبع خيط الإصلاح هناك — لرى الدوافع الملزمة التي دفعت إليه .

فالعواصف التي هبت حولها في كل مكان ، كانت خليقة — مهما كان للكنيسة من القوة والثبات ، أن تجعلها تهتز اهتزازاً . وكذلك العوامل التي كانت في داخلها ، والتي كانت تعمل كالخميرة في قلب العجين ، مها حاولت أن تتجاهلها ، أو تقف في وجهها بالحديد والنار .

ولقد ضج العالم الكائن حينذاك من فضائح البابوية ، وفساد رجال الكنيسة . وكان أكثر الكل تفتحاً على هذه الحقائق ، أبناء إيطاليا أنفسهم الذين كانوا على علم بما يجرى تحت سمعهم وبصرهم . الهيئة الوحيدة التي كانت قانعة بالحال على ما هي عليه ، هي هيئة المنتفعين « الكوربا » أو البلاط البابوى ، البطانة السياسية التي كانت محيطة بالبابا . أما خارج هذه الدائرة فقد كان الشعور عاماً ، في كافة الدول والطبقات ، بوجوب الإسراع بإصلاح شامل ، وتطهير الكنيسة في الداخل والخارج . إننا لنجد وسط الأضواء الصارخة ، كهنة ، ورهباناً ، وأساقفة ، وحتى كرادلة . زد على ذلك

أن عصر النهضة كان قد فتح الأذهان والعيون ، وفتح الطريق إلى دراسة حية للكتب المقدسة في لغتها الأصلية ، مما دعا البعض إلى المناداة أيضاً بإصلاح في العقيدة ، وكان الوقود الذي زاد في اشتعال لهيب المعارضة للكنيسة ، والمطالبة بإصلاحها . وهكذا قام من قلب الكنيسة ، كثيرون ينادون بالإصلاح .

ولترك مللر يحدثنا عن مقام البابوية عند الإيطاليين أنفسهم يقول :

« لم يكن المقام البابوي قليل الاحترام ، عند قوم أكثر مما كان عند الإيطاليين أنفسهم فلربما كان للبابا هيئته وسلطانه ، في البلاد البعيدة عن كرسى حكمه . أما في إيطاليا فقد كان كل شيء تحت سماع الإيطاليين وبصرهم . رذائل البابوات ، ومفاسد البطانة البابوية ، والجشع ، والترف والخداع ، والمؤامرات التي كانت تبيض وتفرخ ، في قلب القصر البابوي . لقد كان هم كل بابا ، أن يجمع أكبر قدر من الثروة لنفسه ، وأن يحيط نفسه بأقاربه ، ويغدق عليهم الضياع والمقتنيات . لذلك كان الإيطاليون ، وعلى الأخص طبقة المفكرين فيهم . على استعداد لتقبل أي بديل . فإذا أضفنا إلى هذه كلها ، الضربات التي توالى على البابوية ، من الكنائس التي ثارت عليها وانفضت عنها ، فإننا نرى أنه لا بد وأن تحدث نتيجة ما .

وإذا عرضنا في كلمات . إلى أثر ظهور لوثر وحركة الإصلاح ، بوجه عام على إيطاليا ، فإننا نقول إنه منذ ظهور مصلح ألمانيا ، وانتشار كتاباته ، رحبت الدوائر العلمية بها هناك . ثم جاء دور ملانكتون . وزونجلي وإرازمس وغيرهم ، ممن كانت لهم ثمرات أعلامهم ، وترجم الكثير من أعمالهم إلى الإيطالية ، ولاقت هناك انتشاراً وذبوعاً . ونحن عندما نقول هذا لا نقوله اعتباطاً ، بل إستناداً إلى شهادات المؤرخين .

ولمدة تقرب من عشرين عاماً ، استمرت حركة المناداة بالحق في إيطاليا دون مقاومة تذكر . لأن البابا كان مشغولاً بموقعه بين شارل الخامس ملك ألمانيا ، وفرانسز الأول ملك فرنسا ، فلم يعر هذه الحركات التفاتاً .

وفي عام (١٥٤٢) ، تنبه البابا للخطر الذي يهدد إيطاليا ، فراح يثبت عيونه وجواسيسه ، مستخدماً محاكم التفتيش أداة للارهاب .

ومع ذلك ، لم يجتد كل هذا ، فقد كانت عيوب البابوية واضحة للعيان . وكما أشرنا كان هناك كرادلة وقفوا في وجه البابا ، أمثال الكاردينال زميني في أسبانيا ، ومورتون ، وولسي في إنجلترا ، الذين طلبوا من البابا التصريح لهم بالتفتيش على الأديرة ، وكشف ما خفي وما ظهر من عيوبها ، تمهيداً لإصلاحها . إننا لا ينبغي أن نتصور أن رجال الكنيسة الكاثوليكية كانوا جميعاً فاسدين .

كما أنه لا ينبغي أن يفوتنا ، أن البابوات كانوا يتفاوتون في درجات الانحراف ، ودرجة رغبتهم في الإصلاح . فالبابا أدريان على سبيل المثال ، كان نظير هلدبراند يرغب في الإصلاح ولو أن فترة حكمه القصيرة ، لم تمهله لتظهر ثمار الإصلاح في حياته . أما أكلمندس السابع فقد كان نسبياً أفضل من سواه . ولو أنه لم يكن سياسياً محنكاً ، وهكذا انتهى إلى أن يصبح تحت يد شارل الخامس .

ومع ذلك فإن كثيرين ، وعلى الأخص ممن كانوا يعتنقون العقيدة لأوغسطينية في التبرير بالإيمان ، كانوا أكثر تعاطفاً وتجاوباً مع لوثر وحركته في ألمانيا ، وكانوا يرغبون في إصلاح جذري في الكنيسة ، يتيح للمُنشقين البروتستانت ، العودة إلى أحضان الكنيسة الأم . ومن هؤلاء كان

وعاظ ، ومبشرون ، وسيدات نبيلات . لهن مكانتهن في المجتمع . وهؤلاء أيضاً من جانبهم ، كانوا يأملون أن تنجح الوساطة في حل الخلافات بين البروتستانت ، وبين متطرفي الكنيسة الرومانية - وأن تنجح مناداتهم بطلب الإصلاح في قلب الكنيسة نفسها - نقسول إنه كان هناك طريقان لإصلاح الكنيسة . وكان لكل منهما أنصاره ومؤيدوه . أما الأولى فقد كانت ترتكن على أساس إصلاح أخلاقيات الكنيسة . فعلى الكنيسة أن تنقى نفسها من الثعالب المفسدة للكروم . فتمحو ما يشين سمعة سياستها ، وتطهر نفسها مما يشين كيانها الخلقي ، وهكذا تصبح أكثر كفاءة ، لأن تضم جميع فرائدها تحت جناحها . إن هذا سوف ينفخ فيها روحاً جديدة ، ولتبقى العقيدة ، والطقوس كما هي دون أدنى تغيير أو تبديل .

لكن الطريق الثانية كانت ترى أن الفساد يكمن ليس في كيان الكنيسة الأخلاقي ، بل في جوهرها العقائدي . فالعقيدة هي التي تبنى الأخلاق . وعلى ذلك ينبغي إصلاح البابوية في عقيدتها . والمنادون بهذه الطريقة ، كما أشرنا ، كانوا موالين لحركات الإصلاح في ألمانيا وسويسرا وغيرها ، لقد كانوا يرون أنه لو أخذت الكنيسة برأى أولئك المصلحين ، وراجعت نفسها في الكثير من عقائدها ، فلن يكون هناك انشقاق بعد ، ولن يكون خلاف ، وستسرع « خراف بيت إسرائيل الضالة » طائفة مختارة إلى راعيها البابا . ولكن الفريق الثاني كان واهماً مفرطاً في التفاؤل ، لأنه لو تنازلت البابوية عن عقائدها ، فإنها تكون قد فقدت كل شيء ، وماذا يتبقى لها بعد ؟ وحتى لو اتفق الطرفان على كافة العقائد ، هل يمكن أن يكون هناك اتفاق بين عقيدة البروتستانت بكنهوت جميع المؤمنين ، وعقيدة البابويين بسلطان رجال الكنيسة وسلطة البابا الإلهية ؟ .

محاولة لجمع الشمل :

ولإننا لنجد بابا بعيد النظر ، أو لعله كان طيب النية ، ذلك هو البابا بولس الثالث (١٥٣٤) ، وجلسه على كرسى البابوية ، تجددت أحلام الموالين للإصلاح ، بعهد أقل عنفاً ، وأكثر تسامحاً ، وعلى الأنحص حينما رفع اثنان من أصدقاء إرازمس إلى رتبة الكرادلة . ونحن نعرف موقف إرازمس من الكنيسة ، وكيف أنه كان موالياً لمصلح ألمانيا ، وداعية لإصلاح الكنيسة وتنقيتها . بل لقد أشيع أيضاً ، أن البابا يعتزم رفع مقام إرازمس إلى رتبة كاردينال ، وأن الأسقف فيشر ، الذى وقف في وجه ملك إنجلترا سيرقى هو الآخر ، لولا أن هنرى الثامن أسرع بقطع رأسه . هذه الأنباء وغيرها ، بعثت الأمل في قلب سير توماس مور وهو في سجنه . يأن أياماً سعيدة سوف تأتى على الكنيسة ، وأن شيئاً من الوفاق بين الكاثوليك والبروتستانت ، سوف يتم ، وأن الصمدع الذى حدث في جسم الكنيسة سوف يزول . كان المستقيل ييشر بالخير ، كما بدا ذلك ، حتى أن البابا بولس الثالث ، كتب إلى إرازمس يخبره بأنه قد عزم على عقد مجمع للمصالحة بين الأطراف المتنازعة . ويطلب منه أن يبذل جهده لإنجاح هذا المجمع ، غير أن ظروفًا خاصة أخرت تنفيذ هذه الفكرة .

مجمع راتسبون :

وفي عام (١٥٤١) أى بعد سنوات خمس من موت إرازمس ، أرسل البابا مندوباً عنه إلى مجمع راتسبون ، ليرى إن كان ممكناً لقاء الأصدقاء على أرض مشتركة ، وإن كان ممكناً الصلح مع البروتستانت . أما لوثر فقد كان منذ البداية يرفض مثل هذه اللقاءات .

ويلتقى الرسول بملائكتون ، ويتفق معه على مبدأ التبرير بالإيمان حسب العقيدة الأوغسطينية ، كأساس للوحدة المنشودة . لكن تدخل سياسياً ،

سرعان ما قتل هذه الفكرة في مهدها . إذ قام ملك فرنسا باقناع البابا ، بأن
وحدة مثل هذه مع البروتستانت المنشقين ، سوف يكون من شأنها تقوية
مركز شارل الخامس ملك ألمانيا ، وعسود البابا . وعندها تراجع البابا
هولس عن عرضه .

ومن الجانب الآخر ، لم يكن لوثر كما أشرنا ، مستريحاً لمثل ذلك
الإنفاق مع البابا . وبصراحته المعهودة قال : « إنني أتوقع وجود الشيطان
بصورة أو بأخرى في هذه المهمة » .

وعلى ذلك أرجئت كل هذه الأمور ، لتناقش في مجمع ترنت ، الذي
سوف نشير إليه فيما بعد .

ولكن حدث في الوقت نفسه ، أن ظهرت على مسرح الأحداث ،
قوة جديدة لتأخذ العنان من يدي الوساطة الإيطالية ، وتغلق باب الصلح
مع البروتستانت للأبد ، على أساس الإصلاح في قلب الكنيسة الرومانية
نفسها ، ومجابهة البروتستانت بسلاح مماثل ، والإعداد لحرب طويلة
الأمم . فلن تتغير عقائد الكنيسة في جوهرها . ولكن سيكون هناك تنظيم
جديد . وإصلاح خلقي ، بحيث تستطيع الكنيسة أن تقف في وجه
أعدائها الجدد - وتحاربهم بنفس السلاح - هذه المحاولة العظيمة للكنيسة
الرومانية . أن تظهر كيانها وتعيد تنظيم نفسها وقوتها ، للتغلب على
البروتستانتية ، هي التي عرفت باسم الإصلاح المضاد . ويرجع الفضل
فيها إلى إغناطيوس ليولا . وجمعية يسوع أو اليسوعيين الجيزويت التي
ظهرت للوجود عام (١٥٤٠) .

جمعية اليسوعيين :

. ومؤسس هذه الجماعة أو الهيئة فارس شاب أسباني . ولد عام (١٤٩١) ..
فهو لذلك يصغر لوثر بعشر سنوات . ولقد كان جندياً في جيش أسبانيا ،
الجيش الذي تشبع بروح الفروسية والشجاعة ، التي استطاع أن يطرد بها
الأعداء من أسبانيا ، ولكنه تحول بعد ذلك لمحاربة اليهود ، وكل «المهرطقة»
المارقين على الإيمان الكاثوليكي .

وكان ليولا في عامه الثلاثين ، حينما حارب ضد قوات النافار الثائرة ،
التي كانت تغذيها فرنسا ، وأصابته طلقة حطمت عظام ساقه . وكان كل
أمله ، كأى فارس شجاع ، أن يشفى ويعود للميدان . وفي سبيل هذا
استسلم لعمليتين جراحيتين ، لم يستفد منهما شيئاً . بل أصابته الحمى ،
وأشرف على الموت . وهنا بدأت أفكاره تتجه اتجاهاً روحياً . فلماذا
لا يصبح قديساً عظيماً مثل القديس فرانسس أودومينيك ؟ ! . ولكن الطريق
إلى ذلك ، هو أن يصبح واحداً من رجال الله ، وهو حتى الآن ليس
كذلك . وهكذا ملائته الرغبة في أن يتقرب إلى الله ، ويكون في سلام
معه ، فدخل أحد الأديرة ، وألقى بثقله في حياة الرهبنة . وقرر وهو
يجمع على ساقه العرجاء ، أن يصبح جندياً في جيش المسيح ، بدلا من
أن يكون جندياً فارساً في جيش أسبانيا .

وتتوالى القصص والتقاليد ، ودائماً ينسج الكاثوليك الأقاصيص حول
قديسهم ، عن الصور التي ألهمت خياله وزادت يقينه . فهو يرى العذراء
في رؤيا ، فتسر له بأنه موضوع تكليف إلهي من السماء ، ليكون
الابن الحقيقي للكنيسة ، والعدو المنتقم من أعدائها ، سواء كانوا
من اليهود أم الكفار أم من المهراطقة .

ولقد بدأ في إعداد نفسه لهذا الهدف ، فأكثر من الصوم ، وأعمال الإماتة ، والزهد . حتى لقد قيل إنه كان يرتدى على اللحم ، رداء من الشعر الخشن ، ويتمنطق على وسطه بمنطقة من سلاسل حديدية . وأحيانا كان يطرز إزاره بالأشواك . أما طعامه فكان من الخبز اليابس ، والماء القراح ، وبعض الأعشاب . ولقد درب نفسه على أحط الأعمال ، مثل تضييد القروح العفنة في المستشفيات ، وحمل بقايا المرضى وغير ذلك . بعد ذلك اعتزل الناس لكي يعيش ، في مغارة ممتنعا عن الطعام ، حتى قيل إنه رأى رؤى كثيرة ، وأصبح قريبا من السماء . وكانت كل هذه الرؤى ، تدعوه إلى تأسيس هيئة رهبانية ، نظامها كنظام الجندية ، وأتباعها جنود في جيش روحي ، شعارهم النظام الصارم ، والإخلاص للهدف الواحد ، والطاعة لمن هم أعلى ، والخدمة بلا غرض ولا حساب للربط العائلية ، تلك الهيئة عرفت باسم الجزويت .

حتى هذه الساعة نقول إن بداية حياته لم تكن تفرق كثيراً عن بداية حياة لوثر ، لكنه بعد ذلك يبدأ في الإفتراق عنه . فهو ما يزال متمسكا بكنيسته ، وعقيدته هي عقيدة القرون الوسطى . فهو يؤمن بأن الكنيسة معينة من الله ، لتمثله على الأرض ، وهو في شخصيته تتميز صفات الجندي الصارم ، التي تميز خلق الأسباني ، والطاعة العمياء التي تميز حياة الجندي ، فهو يرى أن الديانة الحقيقية تكمن في الطاعة للكنيسة ، وأن خدمة الله تتمثل في خدمة ممثله على الأرض . وهذا معناه . كسب أتباع جدد للكنيسة الكاثوليكية ، وكسر شوكة أصدادها ، وإيقاف كل التعاليم التي تناقضها .

ولقد كان مخلصا غاية الإخلاص لهذه الأهداف ، عاملا بكل جهده وإخلاص قلبه لتحقيقها .

وقد أشار عليه رؤساؤه بأن يدرس العلوم اللاهوتية قبل أن يقوم بأى عمل ، فرحل إلى باريس ، والتحق بجامعة . . . وهناك بثاقب بصيرته ، استطاع أن يختار تسعة من الزملاء ، ليكونوا نواة الهيئة المنشودة ، وكلهم شخصيات ذات كفاءات ممتازة . من ضمن هؤلاء شاب أسباني نبيل يدعى فرانز زافيير ، رأى فيه الروح الملتهبة الغيورة والقلب المخلص ، فعمل على استمالته إليه . ولقد كان هدف زافيير في البداية ، هو المركز والشهرة ومدح الناس ، فقال له إغناطيوس : وماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ؟ فاستسلم النبيل كأنما بفاعلية السحر . وأصبح تلميذاً لإغناطيوس . بل إنه قد فاق أستاذه في الأصوام والصلوات وإذلال الجسد ، ولم يمض وقت طويل حتى أصبح رسول الجمعية أو مرسلها الغيور إلى بلاد الهند ، يحمل على كتفه مئوده ، وفي يده صليبه ، ويسعى ليعمد الهنود في الإيمان الجديد . ثم رحل بعد ذلك إلى الصين واليابان ، موالياً جهاده الروحي - إحدى عشرة سنة كاملة ، قضاه مبشراً بالمسيحية كاسباً لها أتباعاً ، حتى وضع حياته أخيراً في ساحل جزيرة موحشة من جزر الصين ، وكانت آخر كلماته : « يا إلهي عليك توكلت أفلا تدعني أخزي مدى الدهر . . . » .

بأولئك التسعة وعاشرهم ليولا ، تأسست جمعية يسوع عام (١٥٤٠) وتزايدت بسرعة منذ البداية ، كاسباً لها أتباعاً . وكانت تقبل ضمن أتباعها الكهنة والعلمانيين بلا تفرقة . وحتى ذلك الحين لم يكن لها اللباس المميز .

هكذا كان الجيزويت ، وهكذا كانت أهدافهم في البداية - صورة من الجهاد الروحي المنظم ، والروح العسكرية ، والطاعة المطلقة .

« على كل عضو أن يطيع مروؤسه كأنما هو المسيح على الأرض » .
نعم هكذا ظهروا في فترة عصيبة من تاريخ الكنيسة الكاثوليكية ،
ليبعثوا الروح في كيائها المتداعى . لقد ظهروا كرد فعل للإنحلال الذى
تميزت به البابوية ، وعلى الأخص في حقبتها الأخيرة . لقد كان أولئك
الرجال مخلصين تماما لكنيستهم ، عاملين خيرا وسلامتها ، لأنهم كانوا
ما يزالون يؤمنون بها . وفي الوقت الذى اتجهت فيه غيرة المصلحين من
البروتستانت ، وجهة بعيدة عن الكنيسة الكاثوليكية ، اتجه هؤلاء في
غيرتهم التى ما كانت تقل عن غيرة أولئك ، إلى الإصلاح في قلب الكنيسة
نفسها . وبدلا من أن يتخذوا من لاهوتية القديس أوغسطين ، نبراسا
لعقيديتهم ، اتجهوا إلى مثال القديس فرانسيس الأسيسى ، ليكون نبراسا
لهم مع إيمان مطلق بسلطان الكنيسة ، تاركين الجدل جانبا ، سائرين
في طريق الطاعة المطلقة لها ، سائلين خيرا وسلامتها .

ولم يكن مجهود ليولا بدون جدوى . فقبل أن تنتهى حياته ،
رأى بعينى رأسه ثمار مجهوداته . فلقد أصبح تعداد جمعية يسوع أكثر
من مائة مدرسة يسوعية أو كلية لتدريب الجيزويت . ولقد قسم بثاقب
فكره مناطق العالم ، أوربا ، وأفريقيا ، والهند ، والبرازيل ،
إلى اثنتى عشرة منطقة جزويتية ، لكل منطقة رئيس . أما هو فالرئيس
الأعلى ، الذى يسيطر على كافة هذه المناطق من خلال أولئك الرؤساء .
صورة لمخطط قوى يهدف للبقاء زمنا طويلا .

ولقد كان للجيزويت ثلاث طرق رئيسية ، لمواجهة البروتستانتية ..
ففى الكنائس التى أسسوها ، أقاموا رعاية ممتازين ، منتخبين ، لتقديم

الخدمات الممتازة ، وهكذا نفخوا روحاً جديدةً . نظام العيادة الكاثوليكية وفي مجال الخدمات التربوية أسسوا المدارس لتعليم الصغار . ومع العلوم ، بثوا فيهم روح الحب والتقدير للكنيسة ، ومن خلال الصغار ، تطرقوا إلى عائلاتهم ، واستطاعوا أن يكسبهم . وبهذه الطريقة استطاعوا أن يسردوا مناطق واسعة ، كانت واقعة تحت النفوذ البروتستانتي في ألمانيا أما الجامعات الكاثوليكية ، فقد زودوها بأكفأ الأساتذة . وهكذا ضمنوا جيلاً جديداً من الشباب تربي في أحضان الكنيسة .

أما الطريقة الثالثة فكانت تتجه إلى المجال السياسي ، وكان أقصى همهم أن يجلس على كراسي الحكم شخصيات كاثوليكية ، أو على الأقل يحاط الحاكم ، ببطانة كاثوليكية . . . من هنا جاءت المؤامرات والشحناء ، وما تجره في أذيالها من اغتيلات وحروب ، وبهذه الطريقة أصبح البروتستانت موضع اضطهاد طيلة الوقت .

ولقد استطاعت هذه الجمعية أن تنتشر ، وتسيطر خلال سنوات قلائل في كافة أنحاء العالم الكائن .

”مجمع ترنت“ :

على أن الدبلوماسية الكاثوليكية رأت أيضاً ، ضرورة انعقاد مجمع ترنت (١٥٤٥ - ١٥٥٥) . والتأم المجمع وطالب الحزب الكاثوليكي بأن يكون تعليم التبشير بالإيمان هو العقيدة المشتركة أو الأساس الواحد ، الذي عليه تبنى الوحدة . . . ولكن الجيزويت كانوا ممثلين أيضاً في المجمع . وهكذا قاوموا القرار بكل شدة . وارتفعت حمى النقاش إلى درجة كبرى بين المعارضين والمؤيدين ، حتى أنه قيل إن كاهنا تشبث

في غضبه بلحية زميل له . وانتصر الجزويت في النهاية واستطاعوا أن ينفذوا أغراضهم .

لقد فشل مجمع ترنت في الوصول إلى الوحدة المنشودة بين الكاثوليك والبروتستانت . وانتصر الجانب المتشدد في الحزب البابوي ، وجلهم من اليسوعيين . أما حزب الاعتدال والمصالحة ، فقد انسحب بعد فشله في الوصول لأغراضه . . . كانت هذه هي نتيجة أول مجمع يعقد في ترنت .

وعلى أثر ذلك حصل أحد الكرادلة المتعصبين على مرسوم بابوي ، يبيح إقامة محاكم التفتيش التي كانت من أقسى الأسلحة التي استخدمها الكاثوليك في أسبانيا ضد البروتستانت هناك ، بإقامة تلك المحاكم في روما . وبدأ الاضطهاد المنظم هناك ، وكان أوائل ضحاياهم أعضاء حزب الاعتدال والمصالحة في مجمع ترنت .

وقد انفرط عقد المجمع ، على وعد بالإلتزام في فرص قادمة ، ولكن بسبب الخلاف بين البابا وشارل الخامس ، تأجل عقد المجمع عدة سنوات . ومات البابا بولس الثالث ، وانتهى عهد اثنين من البابوات من بعده ، قبل أن يعقد المجمع مرة ثانية ، في عهد البابا بولس الرابع (١٥٥٥) ، وهو نفس العام الذي انتهت فيه الحرب الأهلية في ألمانيا ، بين شارل الخامس والبروتستانت بمعاهدة أوجسبرج ، والتي أصبحت فيها الولايات البروتستانتية حقيقة واقعة .

وفي المجمع الثاني الذي عقد في ترنت أيضاً ، كان اليسوعيون هم القوة الغالبة فيه . فقد استتب كل شيء من جهة سياسة الكنيسة الخارجية :

وبقى تصحيح أخطاء رجال الكنيسة ، ووضع أساس عقائدى منظم لها ،
وتثبيت سلطان البابا الإلهى . وقد رتبت بنود الإيمان الكاثوليكي ، فى كل
ما يتعلق بالعقيدة فى معارضة البروتستانت . . . وهكذا أصبح فى يد
كل كاهن السلاح الذى يقاوم به « الهراطقة » ، ويكسب به الأتباع
الجدد . ثم ثوقشت مشكلة تنظيم الكنيسة ، وعزل القيادات غير الصالحة .
ومع أن « الكوربا » أو بطانة البابا ، حاولت تعطيل البت فى هذا الأمر ،
إلا أنه أحرز بعض التقدم ، وكانت هناك بعض النتائج ، منها الإكثار
من إقامة معاهد لاهوتية ، وتنظيم سياسة الكنيسة .

إن مجمع ترنت ، قد مهد السبيل للكنيسة الكاثوليكية ، لتحارب
أعداءها وهى واقفة على أرض أكثر صلابة .

وماذا كانت النتائج ؟ ..

قبل أن نعرض للنتائج المترتبة على الإصلاح المضاد ، علينا أن نقرر
إنصافا للحقيقة ، أن القائمين بذلك الإصلاح كانوا أناسا مخلصين بوجه عام .
وأنه وإن كانت النتيجة وبالأعلى البروتستانتية ، وتقلصا لنفوذها فى
أكثر من مكان ، مما سنعرض له ، إلا أن الهدف الرئيسى للذين
قاموا بذلك الإصلاح ، كان خيرا للكنيسة التى ينتمون إليها . وأصدق
مثال على ذلك ، حياة ليولا وزافير وغيرهما . إن بعض المؤرخين ،
يعتقدون أن الأمر كان منذ البداية لعبة كبرى للبابوية ، ومناورة
جديدة ، بعد أن أخفقت وسائل النار والحديد فى القضاء على البروتستانت
وأن ليولا وزافير و مجمع ترنت وكرادلة الوساطة وغيرهم كانوا قطع
الشطرنج ، بين يدي البابا ، يحركها كيفما شاء . ولكن الواقع
يشير إلى غير ذلك .

فإذا تطرقنا للحديث عن النتائج ، نقول إن البابوية كانت حتى عام (١٥٦١) في أخرج وأحلك حالاتها ، على الرغم مما أظهرته من استعراض عضلاتها أمام الجميع . فلقد اكتسحت البروتستانتية ، أكثر من دائرة في دول أوروبا . وعلى وجه الخصوص في ألمانيا ، التي كانت من قبل تحت السيطرة التامة للبابوية . ولقد حاولت الكنيسة في عصر البابا بيوس الخامس أن تمحق البروتستانتية هناك ، فألبت عليها ثلاث قوى : الإمبراطور شارل الخامس امبراطور ألمانيا ، وملكى أسبانيا وفرنسا - ولكنها لم تستطع أن تحقق أغراضها .

والآن جاء دورها للإنتصار عن طريق اليسوعيين - في مناطق كثيرة من ألمانيا ، مثل أوستريا وكارنثيا وبافاريا ، وأجزاء متعددة من حوض الراين ، تلك المناطق التي كان يحكمها ملوك أقوىاء موالون لروما ، كانت هناك أيضاً جماعات بروتستانتية قوية . وكانت تتمتع بالكثير من التسامح ، ويسمح لها بحرية العبادة والتبشير . ولكن تحت تأثير رجال الجيزويت ، أصبح الحكام في حالة من العداوة والقساوة ، يسلطون عليهم سيف الاضطهاد ويطاردونهم ، ويقبضون عليهم ، وتمتلىء بهم السجون . وفي هولندا كان نفس الوضع . أما في هولندا فقد تمكن اليسوعيون من محق البروتستانتية محققاً تاماً في الجزء الجنوبي منها .

على أن أقوى المؤامرات كانت تلك التي وجهت إلى إنجلترا . وكانت الكنيسة البابوية تعرف أنه طالما قامت لإنجلترا قائمة ، فستظل الشوكة القوية في جنبها ، وستظل أمام أنظار الدول ، المثال الذي يغرى الكثيرين بالثورة عليها والانفصال عنها .

وعندها بدأ اليسوعيون في إيفار صدر فيليب الثاني ملك أسبانيا ، وتأليه عليها . فأعد أسطولاً الجبار ، الذي عرف بالأرمادا ، لمهاجمتها

وحصار موانئها . لكن شجاعة البحارة الإنجليز في القرن السادس عشر ، التي أصبحت موضوعاً لأكثر من قصة ، تصدت لهذا الأسطول . كما أن العناية الإلهية أرسلت عاصفة رهيبة عصفت بالأسطول وحطمته .

على أننا نعتقد بأننا لا نوفي بحسنا حقه ما لم نتحدث بكلمات قليلة عن الجانب المرسل في حركة الإصلاح المضاد في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية .

نقول إن كل أجداد المرسلين في تلك الحقبة كانت وقفاً على الكاثوليك . فلم يفعل البروتستانت شيئاً يذكر في مجال تقديم بشاراة الإنجيل لغير المؤمنين ولعل أحد أسباب ذلك ، أنهم لم يكن لهم من الإمكانيات ما يساعدهم على ذلك . كما أن كل مجهوداتهم كانت مركزة للوقوف على أقدامهم في وجه أعدائهم . ثم إن قاداتهم قادة الإصلاح أنفسهم ، لم يكن في برنامجهم تقديم الإنجيل للبعيدين ، واكتفوا بتقديم البشارة لإخوتهم فقط ، وعلى منوالهم سار أتباعهم . ولم تشعر البروتستانتية بمسئوليتها في هذا المجال ، حتى أهل القرن الثامن عشر ، أو العصر المرسل كما يسمونه .

خلال هذه الفترة كان الكاثوليك أكثر نشاطاً وغيرة — ولقد فتحت مجالات جديدة للتبشير باكتشاف أرض جديدة في الشرق والغرب ، في القرنين الخامس عشر والسادس عشر . في هذه المجالات كان الرواد الأول من الفرنسيين ، والدومنيكان . وكانت الحكومات التي قامت بهذه الاكتشافات ترى أن إدخال المسيحية إلى تلك المناطق جزء من رسالتها ، فكانت تعاون المرسلين في مهمتهم . وكان الرهبان والكهنة هم أول الوافدين إلى تلك البلاد من الغرب .

على أن أعظم التحركات المرسلية الكاثوليكية ، تمت على أيدي الجيزويت.

فقد كان لنشاطهم وغيرتهم وبطولاتهم ، ما أهلهم لحمل الإنجيل إلى الأراضى البعيدة .

ولقد أشرنا إلى زافير ، وكيف أنه فى السنة التى تأسست فيها جمعية اليسوعيين اصطحب اثنين من الأعضاء ، وبدأ فى الحال حملته المرسلية فى بلاد الهند . ولقد كان هناك مرسلون من البرتغال . أما زافير ، فقد ركز تبشيره على الشاطئ الجنوبى . وكانت طريقة التبشير بدائية . فبعد تعليم بسيط للحقائق الأولية فى الديانة ، كان يدعو جماعات منهم ، لنوال المعمودية . ولكن غيرته المتقدة كانت تؤثر فى القلوب وتكسبه الأتباع . واتسع العمل ، فاقضى الأمر إرسال مزيد من المبشرين الجيزويت من أوربا .

ومن الهند ، رحل زافير إلى اليابان (١٥٤٩) حيث زرع بذور المسيحية هناك ، ووضع مع زملائه الأساس الروحى للكنيسة المسيحية فى تلك البلاد — وبعد ذلك انتقل إلى الصين حيث انتهت حياته عام (١٥٥٢) .

وأه زافير فى الصين أتمه ماتيو ريكي الجيزويتى (١٥٨٣) . ولقد كان ماتيو على علم بالتنجيم ، وتقويم البلدان . وعن طريق ذلك وصل إلى قصر الإمبراطور واستطاع أن يكسب ثقته ، وصداقته ، فسمح له بالعمل كما فتح البلاد على مصراعيها للمرسلين اليسوعيين فوفدوا بالآلاف .

وفى المستعمرات الفرنسية فى ذلك الحين ، فى أمريكا الشمالية ، وباراجواى ، شق اليسوعيون طريقهم . وكما يقول روبرت نيكول « فى الشجاعة والإخلاص والتضحية لم يكن هناك نظير اليسوعيين الفرنسيين ، الذين كانوا يلترعون المنطقة كلها ، من سان لورنس إلى مصب الميسيسى » .

وفي كل مكان ذهب إليه رواد الإصلاح المضاد ، كانوا بسرعة عجيبة يقيمون البنايات والأديرة والكنائس ، التي تعتبر بحق جزءاً من التراث المسيحي الثمين .

والسؤال الذي كان يدور ، في تلك الأيام ، في ذهن كل واحد : ماذا يكون مستقبل أسبانيا ، وفرنسا ، في ضوء الأحداث التي عرضنا لها آنفاً ؟

أما عن أسبانيا فإننا نقول إن شارل الخامس قد ورث الملكية المطلقة عن فردناند وإيزابلا .

ونقطة العيب في النظام الأسباني ، كانت محاولة بعث قوة قومية ، عن طريق إخضاع كل الطبقات للملكية المطلقة . . . ونقطة الضعف هذه ، كانت الدودة التي نخرت في قلب الأمة ، وأدت إلى تداعبها في عصور لاحقة .

ولقد عقد مجمع ترنت ، وأصدر قراراته بسلطان البابا الأعلى على الكنيسة ، إبان قوة وسلطان أسبانيا . فاليسوعيون الأسبان ، هم الذين كانوا وراء تلك القرارات . . . وهم الذين تبناوا محاكم التفتيش الأسبانية ، لتكون سلاحاً مسلطاً على الناس ، لفرض سلطان الكنيسة . أما فيليب الثاني الذي كان خلفاً لشارل الخامس ، فقد كان حاكماً مطلقاً نظيره ، وكان هدفه تثبيت العرش الأسباني المطلق ، وكذلك دعم الساطان البابوي بالحديد والنار . . .

على هذا الأساس شقت سفن الأرمادا مياه البحر المحيط ، لترغم إنجلترا على الركوع عند أقدام البابوية مرة ثانية — وكان ذلك إبان

حكم الملكة أليصابات . وعلى هذا الأساس أيضا ، نفذ فيليب الثاني مخططة
السياسي في الأراضي المنخفضة . أما المناطق الشمالية من هولندا ، فقد ثارت
واستطاعت أن تكسر نير كل من أسبانيا وروما معاً . ونفس السياسة الخاطئة
انتهجها في أسبانيا . لكن الأسبان لم يستطيعوا لسوء الحظ أن يحطموا
القيود . وكانت النتيجة اختناق الحياة القومية . وتدهور التجارة ،
واندثار التراث الأدبي .

لقد كانت أسبانيا في وقت من الأوقات متسعة بأملاكها ومستعمراتها
وكانت لها مكانتها وسطوتها بين دول أوروبا . لكن هذه المكانة لم تكن
على أساس تقدمها الحضاري . ولم تكن على أساس تكاتف كل الطبقات
وتماسكها في وحدة لا تنقسم . لقد كانت متمسكة بالنظام القديم المهدد
بالإنهيار ، ولذلك كانت في طريقها إلى البوار .

وفي فرنسا ، لم تفلح الملكية المطلقة في حفظ كيائها أيضاً . لقد كانت
فرنسا فريسة لجشع فرانز الأول ، وحروبه . وبينما كان الملكان يتنافسان
للتفوق العسكري في إيطاليا ، كان شعب كل منهما يقاسى الأمرين .
وكانت مطامع ملك فرنسا بهذه الصورة ، حتى أنه بينما كان يحارب
المرطقة في بلاده ، كان على استعداد لأن يعقد تحالفاً مع البروتستانت
الألمان ، في سبيل الوصول إلى مطامعه العسكرية .

زد على ذلك أن الطريقة التي جوبهت بها الثورة البروتستانية في فرنسا ،
قد تركت جروحا لا تمحى في جسم الأمة ، نستطيع أن نتبعها إلى ما بعد
ذلك بأجيال . فلقد انتشرت الكلفينية في عصر فرانز الأول ، بين طبقة
النبل والأشراف الذين أذلوا وكسرت شوكتهم ليخلوا الطريق
للملكية المستبدة .

ولقد كان نتيجة لهذا ، في العصور اللاحقة ، أن قام النبلاء البروتستانت بالثورة ضد العرش الكاثوليكي . واستمرت الحروب الأهلية الطاحنة ، بالطبع على فترات متقطعة لمدة تقرب من أربعين عاما . : ويقال أن ضحاياها وصلوا إلى المليون شخص .

لقد كان اضطهاد « الهراطقة » في فرنسا عملا سياسيا ودينيا في الوقت عينه ، وكانت العنجهية الدينية ، والمطامع السياسية وراء المجازر الرهيبة التي سودت صفحات التاريخ الفرنسي :





الأثر الاجتماعي والاقتصادي لعصر الإصلاح

[مد حضارى - حصيلة ثورة الإصلاح : تبلور
الحياة القومية وظهور الدول - علاقات الأمم -
ازدهار اللغات والآداب القومية - ازدهار التعليم
القومى - أثر الإصلاح فى الحياة العائلية - أثر
الإصلاح فى الديانة العامة - هل حقق الإصلاح روح
التسامح الدينى ؟]

أشرنا فى مقدمة هذه الدراسة إلى أن الانتقال من الحضارة القديمة
المتداعية ، إلى حضارة جديدة وعهد أفضل ، اقتضى تغييراً هائلاً ولكنه
تدرجى ، وانقلاباً ثورياً ولكن فى مراحل بطيئة . حتى إذا أتت اللحظة
الفاصلة ، كان لابد من الصراع النهائى الحاسم .

مد حضارى :

ولقد عرضنا للخطوط التاريخية لهذه الأزمة ، وحاولنا أن نظهرها
فى صلتها بالمستقبل كما بالماضى . ورأينا كيف أن الثورة البروتستانتية
بوجه عام ، كانت موجة واحدة عارمة من مد حضارى ، اتخذ أكثر
من شكل وصورة ، وظهر ليس بالمظهر الدينى فحسب ، بل أيضاً فى
انتفاضات شعبية واجتماعية . لقد بدأ برفض مطالب الإصلاح فى الدايت .

الألماني ، وتبلور في ثورة الفلاحين وتخريب روما ، وكان الدافع لثورة الشمال في الأراضي المنخفضة . والحرب الثلاثين ، وانتفاضة كرومويل ، و ثورة البيورتان في إنجلترا ، وظهور الولايات الأمريكية المستقلة ، حتى انفجر في بركان الثورة الفرنسية .

ولا يمكننا على الإطلاق أن نفصل بين المطالبة بالإصلاح الديني ، وبين المطالبة بالإصلاح الاجتماعي . لقد كان هناك خيط واحد يربط بين هذه وتلك ، كما لا يمكننا أن نتجاهل الخط التقدمي ، الذي كان يسعى لهدفه المحدد ، خلال هذه الأحداث كلها .

إن أعداء التقدمية والإصلاح ، يلقون باللائمة في الأحداث المؤسفة ، والطريق الدامي الذي سارت فيه هذه التحركات ، على زعماء الإصلاح أنفسهم . ولكنهم لو فتحوا أعينهم لرأوا أن جمودهم وتوقفهم العنيد ، ورفضهم لكل بنود الإصلاح ، ، كان السبب فيما حدث . لقد كان الجواد منطلقا ، شاؤوا أو لم يشاؤوا . لكنهم كانوا يستطيعون أن يقفوا على ظهره ويمسكوا بالعنان ، بدلا من الوقوف في وجهه ، ومحاولة إيقافه . وعندها تصبح النتيجة تقدما هادئا مسالما ، بدلا من حمامات الدم . لقد كان لهم من القوة والسلطان ما يعينهم على ذلك ، ولكنهم اختاروا الطريق الأردأ ، ودفعوا بعشرة أجيال متتابعة من تاريخ الإنسانية ، في ثورات دموية متعاقبة .

.. حصيلة ثورة الإصلاح :

وقبل أن نختم حديثنا عن تاريخ الإصلاح ، نريد أن نجلس جلسة هادئة . ونحسب حصيلة الثورة البروتستانتية والمكاسب ، التي حققتها في سطور .

تبلور الحياة القومية وظهور الدول :

وأول هذه المكاسب تبلور الحياة القومية وظهور الدول بمفهومها الحديث .

وقد سلفت الإشارة إلى أنه في العصور الوسطى ، كانت سلطة البابوية ، تعتبر العالم كله وحدة كنسية مترامية الأطراف مركزها روما : ومع أن الثورة البروتستانتية لم تنجح في بعض الأماكن ، ولم يقدر لها سوى النجاح الجزئي في أماكن أخرى ، إلا أنه حينما نجحت تبلورت الحياة القومية ، وظهرت الدولة المتناسكة ، وذابت الطبقات في وحدة متكاملة . وقلت - إن لم تكن قد زالت - الفروق الطبقية .

وحيثما فشلت أيضا ، كان لها رد فعل كأي ثورة فاشلة . فكل فعل لا بد وأن يكون له رد فعل . هذه نظرية أساسية . لقد كانت الدول الكاثوليكية في مركز القوة ظاهريا ، حينما كانت تمسك في يديها بالسلطة الدينية والمدنية معاً . ولكنها كانت قوة ظاهرية ، لا تستند إلى دعم من الشعب بطبقاته المختلفة ، بل تهدف إلى تقوية الملكية الاستبدادية ، وتثبيت دعائم الإمبراطورية الكنسية . لذلك فقد رأينا في فرنسا كما في أسبانيا : مذلة الشعب تحت استبدادية كل من التاج والكنيسة ، وقد اتجهت القوة الاستبدادية إلى محاكم التفتيش في أسبانيا . كما استخدمت سجن الباستيل لقتل الحريات في فرنسا - الإثنتان كانتا تتجهان معاً لقتل الروح القومية ، وزيادة الفروق الطبقية ، ولمنع قيام الأمة الواحدة المتناسكة بالمصالح المشتركة . وهكذا عطلت الركب عن اللحاق بموكب الحضارة الحديثة ، وانتهت إلى سلسلة من الثورات والتيارات المتضاربة ، التي تفت في عضد الأمة . وكم من أمم جنت من الثمار المرة الشائكة ، حصاد أجيال . ومن يزرع الشوك لا يجمع إلا أن يجنى الشوك .

وحيثما نجحت الثورة البروتستانتية جزئيا ، كما في سويسرا وألمانيا ، رأينا كيف انتهت إلى مجتمع غير متجانس ، سرعان مادب فيه التنافس والتنازع ، ونشبت الحرب الأهلية وتعطل ظهور الحياة القومية لعدة أجيال : ولقد كان الشعب حرا في سويسرا ، ولكن في ألمانيا حيث كان الفلاحون يعانون من عبودية الإقطاع ، لم يتبلور المجتمع عن حياة متحررة للفلاح حتى القرن التاسع عشر .

علاقات الأمم بعضها ببعض :

والأمر الثاني يختص بعلاقات الأمم بعضها ببعض . والصراع البروتستانتي لم يجد شيئا في تبلور العلاقات بين الشعوب . فقد استمرت الإمبراطورية الكنسية قائمة . وفي كافة الأحداث التي تميزت بها حقبة الإصلاح ، في الصراع بين أسبانيا وفرنسا على السيادة في المجتمع المسيحي ، ومجهودات آل هابسبرج ، لتوحيد أكبر عدد من الدول تحت حكمهم ، ومطامع فرنسا وأسبانيا في إيطاليا ، وهنري الثامن ومشروعاته التوسعية في فرنسا في كل هذه لم يكن لثورة الإصلاح الديني أى تأثير . ومع أن مصلحي أو كسفورد ، كوليت وإرازمس ، ومور ، حاولوا أن يوجدوا نوعا من الصلات الدبلوماسية بين الأمراء ، في أكثر من دولة ، على أساس الناموس الذهبي في العلاقات ، ليس لفائدة الأمراء بل لمنفعة شعوبهم ، إلا أن البابوات والأمراء ، فضلوا السير على منهاج مكيافيللى ، بدلا من أخلاقيات الأمير المسيحي لإرازمس . لقد فضلوا - على حد تعبير إرازمس معاملة الشعوب ، وكأنها قطيع من الماشية في السوق .

ومع ذلك نقول ، إن مجهودات زعماء الإصلاح لم تذهب هباء ، فقبل أن ينقضى قرن واحد من الزمان ، ظهر هوجو جروتيس ، الذى

يعتبر أب القانون الدولى ، والعلاقات الدولية الحديثة ، والذي كان مشبعاً بروح إرازمس ، وأرسى القوانين الدولية ، على أساس التاموس الذهبى .

ازدهار اللغات والآداب القومية :

والأمر الثالث : فى ازدهار اللغات القومية والآداب القومية . لم يتضح قط أثر ثورات الإصلاح فى دوائر الحياة القومية ، قدر ما اتضح فى ازدهار اللغات والآداب القومية .

ففى ألمانيا اتجه لوثر وهاتن بكتاباتهم ، إلى المتعلمين بالكتابة باللغة اللاتينية ، كما إلى الشعب باستخدام اللغة الألمانية . بل إن لوثر وصل فى تبسيطه للفكر ، أن قدمه لرجل الشارع ، فى صورة لوحات فنية . كل هذا ، عاون على خلق أدب قومى شعبى . وهذا التحول من اللاتينية إلى اللغة الألمانية ، كان من الجانب الواحد ، ضربة للنظام المدرسى السائد (Scholasticism) . ومن الجانب الآخر كان ازدهاراً للأدب القومى . البلاد . وأعظم هدية قدمها لوثر للشعب الألمانى ، كانت الكتاب المقدس ، باللغة الألمانية مع كتاب الترانيم الألمانى . فاللغة القومية الحية التى كتب بها ، حددت مستقبل اللغة ، ومنهجها فى البلاد - إن اللغة الألمانية التى يتحدث بها الألمان ، والتى انتهجها أدباء الألمان فيما بعد ، هى لغة لوثر فى الكتاب المقدس .

وكذلك نال الأدب الفرنسى دفعة قوية من ثورة الإصلاح . فاللغة الفرنسية التى استخدمها كلفن فى الكتاب المقدس ، وفى « أسس الديانة المسيحية » ، أصبحت اللغة الكلاسيكية فى الدين والفلسفة على السواء ، فى

الوقت الذى أصبحت فيه لغة رابيلية من الجانب الآخر ، المهاج الذى صار عليه كتاب الأدب الخفيف .

وفى إنجلترا نلاحظ نفس الظاهرة . فظهور المصلحين أدى إلى ظهور عشرات من الكتب والنبد والرسائل ، التى كتبت بالإنجليزية ، دفاعاً عن عقيدتهم ، ورداً على أعدائهم . كما أعطى دفعة جديدة للأدب الإنجليزى ، ومهد الطريق فى عصور قادمة لظهور شيكسبير وملتون . ولا ينبغي أن ننسى الكتاب المقدس فى الإنجليزية ، الذى حدد شكل ومضمون الإنجليزية الحديثة . إن قوة وحلاوة وبساطة ترجمة الكتاب المقدس إلى الإنجليزية ، تلك الترجمة التى كان يرجع إليها الإنجليز بين الحين والحين ، كأجمل وأكمل عمل أدبى كلاسيكى ، والتى وجدت طريقها بين كافة الطبقات والأذواق ، كانت الملهم للشعراء والأدباء فى أكثر من جيل ، وكانت المهد لترجمات قادمة . إن الأدب الإنجليزى والمجتمع الانجليزى ، مدينان بالكثير لوليم تندل ورفقائه .

ازدهار التعليم القومى :

والنتيجة الرابعة نلمسها فى ازدهار التعليم القومى :

فالحركة البروتستانتية التى كان من ثمارها ازدهار اللغة القومية والأدب القومى ، قد فتحت الباب على مصراعيه لكل الشعب ، للتعليم والمدارس . وكان العلم قبل ذلك وقفناً على طبقة رجال الكنيسة وأبناء النبلاء . ولكن ما أن أهمل عصر الإصلاح ، حتى قام سافونارولا بفتح المدارس فى فلورنسا ، كذلك فتحت المدارس فى إنجلترا ، ولما جاء الجيل التالى الذى قام بتأسيس المدارس اللغوية ، التى اقترنت باسم الملك إدوارد السادس ،

أما لوثر فقد أسس المدارس الشعبية في ألمانيا ، وقد قام كلفن بعمل مماثل في سويسرا ، ونوكس في اسكتلندا . وأخيراً جاء دور الآباء المهاجرين ، ليحملوا نفس الروح ونفس الغيرة معهم إلى انجلترا الجديدة أى أمريكا :

ويلاحظ القارئ أن الجيزويت أتوا بعد ذلك ، وقادوا ثورة الإصلاح في قلب الكنيسة الكاثوليكية . فإن كنا نرى فيهم الغيرة على التعليم وتأسيس المدارس ، فما ذلك إلا ثمرة أخرى من ثمار الإصلاح البروتستانتي ، ومنافسة لرواد الإصلاح .

أثر الإصلاح في الحياة العائلية :

ولا شيء أدعى إلى استقرار المجتمع ، من حياة عائلية مستقرة في خوف الله ، والسير في رضاه - فالروح العائلية بكافة مظاهرها ، حتى الغريزية منها ، هي التي تبني الأسرة : وعلى أكتاف الأسرة يبنى المجتمع . وهذه ظاهرة تتبلور بأكثر وضوح ، في الدول التوتونية (Teutonic) . فالربط العائلية قوية بهذه الصورة ، حتى أنها تمتد لتشمل ليس أفراد الأسرة الواحدة فحسب ، بل أيضاً أفراد القبيلة (Clan) ، بل كيان الأمة بأسرها ، ممهدة لسيادة روح الهدوء والسلام بين الجميع .

نقول إن الروح العائلية كانت مهتدة بالإنهيار ، بسبب تأثير الكهنة والراهبان والراهبات ، الذين يعيشون حياة العزوبة القهرية .

هذا النظام خلق ما نسميه طبقية جنسية ، واضعاً حياة الأسرة العادية ، في مستوى أقل من حياة ما يسمى بالتبطل ، معطياً فكرة ضمنية ، بأن

الزواج شر وخطيئة ، خاطفاً من أبناء الأسر الكريمة زهرات الشباب ، ممن كان يمكن أن يصبحوا أعمدة في عائلاتهم ، ومجتمعاتهم ، لتزج بهم خلف الجدران الرمادية ، في حياة تواكلية كسولة ، وهروبية إنطوائية ، تخشى مجابهة المجتمع بمشاكله ، وتعقيم للإمكانيات والمواهب والخدمات وكل شيء - هذا إذا نظرنا إلى الجانب الحسن - ولن نزيد أكثر من هذا ، فقد سبق وأشرنا بما فيه الكفاية إلى الإنحلال الخلقي ، الأمر الذي تحدث عنه مؤرخو الكاثوليكية قبل سواهم ، معتردين بأن ذلك كان عصر ضعف الكنيسة وتدهورها وركودها .

نقول إن حل الأديرة ، وحل الرهبان من نذورهم ، ليعيشوا كما يرغبون ، والسماح للكهنة بالزواج ، والعيشة السوية ، كانت خطوات تقدمية حضارية ، غاية في الأهمية ، من الناحية الخلقية ، والسياسية ، كما من الناحية الدينية :

أثر الإصلاح على الديانة العامة :

ولقد كان من نتيجة عصر الإصلاح ، ترقية الحياة القومية ، وأهداف الحضارة المسيحية - فالديانة لم تعد وقفاً على طبقة الإكليروس فحسب ، بل ملكاً مشاعاً للشعب . فالعبادة تقدم في اللغة القومية ، ليس في لغة غير مفهومة . والكتاب المقدس صار يقرأ ، ليس في لغة قديمة ميتة ، بل في لغة الشعب - والفكر الديني ، لم يعد مقصوراً على الكهنة فقط ، بل أصبح الكتاب المقدس في يد رجل الشارع يدرسه لنفسه ، ويسعد به ، فازداد بذلك الإقتناع القلبي الداخلي بالديانة ، وكانت هذه هي الخطوة الأولى في طريق الحرية الفكرية . لا نقول إن تلك الحرية كانت منزهة عن الأخطاء ، ولكنها على الأقل ، كانت أفضل من كتاب مقيد بالسلاسل ، وعقول مقيدة بالأغلال :

نلاحظ أيضاً أن تقريب الديانة لضمير الفرد ، في كافة طبقات الشعب وزرع روح المسؤولية في الإنسان ، بدلا من اعتماده على الكاهن أو الكنيسة ، قد كان في اتساق ليس فقط مع اتجاهات الحضارة الحديثة ، بل أيضاً مع طبيعة الديانة المسيحية نفسها ، في نبعها الأصيل ، كما نادى بها المسيح ورسله ، مما رجع بها إلى الهدف الأول ، الذي قامت من أجله .

لقد كانت المسيحية هي القوة التي كمنت خلف الإصلاح الديني ، والتي خلقت المد الحضاري في العصور الحديثة . فلم يستطع دعاة المذهب الإنساني (Humanism) ، أن يطبعوا طابعهم نصف الوثني ، على منهاج الحضارة الحديثة . وكان رواد الإصلاح ، باقتناع مسيحي داخلي ، وغير ملتزمة في الأعماق ، هم الذين فعلوا ذلك . لذلك فالبشرية مدينة للمسيحية قبل أي قوة أخرى ، بتأثيرها في دفع ركب الحضارة ، والوصول بالإنسانية إلى أسنى درجات الخير .

هل حقق الإصلاح روح التسامح الديني ؟ :

وفي هذا نقول إن عهد الإصلاح ، قد انساق في نفس التيار ، الذي كان سائدا في تلك العصور . فلم يحقق تقدما كثيرا في هذا المجال .

لقد كان هدف ثورة الإصلاح ، هو تحرير عقول الناس من القيود الكنسية والمدرسية . لأجل هذا قامت ، ولم يكن هذا هدفاً صغيراً في ذاته . ولكن زعماء الإصلاح اعتنقوا ثيولوجية معينة ، هي بوجه عام ثيولوجية القديس أوغسطينوس ، وفي سبيل تثبيت هذه الثيولوجية ، فرضوها فرضاً على أتباعهم . بمعنى أنهم حرروا الناس من إيديولوجية معينة ، ليخضعوهم لإيديولوجية جديدة ، بطريقة لا تقل عنفا عن الطريقة التي كان يتبعها غيرهم .

وخلال دراستنا ، رأينا مصلحي أو كسفورد ، يهدفون إلى ترك الناس على سجيّتهم ، ليصلوا إلى اقتناع كامل عن طريق البحث ، بل إنهم كانوا ينادون بروح التسامح بين الإخوة ، أبناء الكنيسة الواحدة ، الذين يعتقدون آراء متباينة . ومع ذلك فإن سيرتوماس مور ، مع أنه ينادى بالتسامح الديني في عمله « أتوبيا » ، إذ رأى حالة الفوضى التي تميزت بها الدول التي اعتنقت البروتستانتية في بادئ الأمر ، وخوفاً من أن تنتشر عدواها إلى الجزيرة الإنجليزية ، تحول هو نفسه إلى حاكم مستبد . وفي نفس الطريق ، سار كافة المصلحين دون استثناء .

وكما كان الكاثوليك يحرقون البروتستانت ، كان البروتستانت – إذا أتاحت لهم الفرصة – يخربون الأديرة ، ويحرقون الكنائس ، ويفتكون بأعدائهم . بل إن الشيع المتضاربة التي تفرعت عن البروتستانت ، بدأت تضطهد إحداها الأخرى . فاللوثريون كانوا يضطهدون أتباع كلفن وزونجلي . وكلفن أصدر حكم الموت حرقاً على سرفيتوس ، واتباع سياسة الإستبداد في جنيف .

فإذا أتينا إلى الكنيسة الإنجليزية ، بعد انفصالها عن روما ، فإننا نراها تثير حرباً لاهوادة فيها ، ضد من كان يخالفها في الرأي . وتحت حكم « ماري الدموية » سالت دماء البروتستانت أنهاراً ، ثم بعد ذلك جاء دور البيورتان في مجال الإضطهاد ، فيهرب البيورتان مهاجرين إلى الدنيا الجديدة . وفي نيو إنجلند ، أصدروا أحكام الموت على الآخرين ، الذين كانوا ينادون بعقيدة مغايرة لعقيدتهم .

ومع ذلك نقول ، إن التسامح الديني ، وإن لم يكن قد آتى ثماره في ذلك الحين ، أو في أجيال تالية ، فإن البذار قد بذر . وكتابات مور وأعمال إرازمس عملت أكبر العمل ، في تهيئة العقول والقلوب .

والآن نأتى إلى السؤال : لماذا كان نجاح الثورة البروتستانتية جزئيا ؟
ولماذا رافقت هذه الثورة ظواهر مؤسفة ؟

إن ما يتحدث به أعداء الإصلاح ، عن النتائج والثمار ، التى نجمت عنه من فوضى ، واضطرابات وحروب أهلية ، ودماء مراكمة ، وهى حقائق تاريخية لا تنكر ، قد تجعلنا نرى أن نجاح الثورة البروتستانتية لم يكن كاملا ، بل كان مبتورا ، وقد تجعلنا نميل إلى الاعتقاد ، بأن مضارها كانت أكثر من منافعها - فهل هذا حق ؟

نقول كلا . فالتقدم لابد وأن تصحبه عثرات . الجمود فى مأمن من التعثر ، ولكن احتمال السقوط يكون أكثر فى المسير ، والأفضل التقدم على ما فيه من خطر التعثر .

ولقد كان هناك تقدم فى المضمار الحضارى - وإن كانت هناك عثرات ، فليس من العسير علينا تتبع أسبابها . لكن نسأل أنفسنا ، لماذا لم يستطع العقل الإنسانى فى تلك الحقبة ، التحرر التام من قيوده ؟ نجب إنه كان ما يزال مقيدا إلى القديم . كانت حدود المعرفة ضيقة ، فلم يستطع العقل أن يصل إلى نظرة عريضة متسعة ، أكثر من حدود الدائرة التى عرفها ، وعاصرها ، وتأثر بها .

لنأخذ صورا من هذه المعرفة المحدودة : لقد كان إنسان العصور الوسطى يعتقد أن الأرض هى مركز الكون ، وأن جميع الأفلاك والأجرام السماوية تدور حولها مرة كل أربع وعشرين ساعة . أما كون الأرض تدور حول نفسها ، وتدور حول الشمس ، فقد كان فكرا غريبا عليهم وراحوا يقولون : « ينبغى أن نرى آثار هذه الحركة » ، ثم تساءلوا

لو كان هذا صحيحا أما كانت تنقلب الكنائس ، والقلاع والأبراج ؟
الأرض لا بد وأن تكون واقفة ، والأجرام السماوية هي التي تدور في
محاراتها حول الأرض .

ثم في معرفتهم المحدودة ، قسموا الكواكب إلى ثقيلة وأخرى خفيفة—
وبمعرفة بدائية لنا موس الجاذبية ، قسموا السماء إلى دوائر . فالداخلية
أو الأقرب إلى المركز (الأرض) تضم عطارد والزهرة والشمس ،
وبعدها تأتي دائرة المريخ وزحل ، ثم دائرة الكواكب الثابتة ، وأخيراً
هناك في أقصى الخارج ، دائرة تاسعة ، تضم ما يسمى بالسديم الدائم ،
الذي يعطى الحركة لكل الكواكب . وفي صورة غائمة غير محددة ، كانوا
يعتقدون بأن السماء لا بد وأن تأتي خلف هذه الدائرة التاسعة . وكم دارت
مناقشات بين اللاهوتيين حول هذه الإلهامات . أما إرازمس فكان
يسخر من أولئك ، الذين « يخلقون دوائر فلكية حسب أمزجتهم ،
ويحددون وضع السماء في مكان أعلى ، يتسع للأرواح السعيدة لتمد مواعدها ،
أو تلعب كرة القدم » .

هكذا كان فكر الأقدمين عن الكون : دوائر في داخل دوائر مركزها
الأرض ، وتدور حول الأرض كل ٢٤ ساعة .

وحينما كان يعرض لهم السؤال ، كيف يمكن أن تدور هذه الدوائر ؟
وبأية قوة تدور ؟ كان العقلاء منهم نظير إرازمس يجيبون « الله وحده .
يعلم » لكن الذين كانوا متعلقين بالخزعبلات فقط ، كانوا يقدمون أجوبة
متباينة . وإننا نجد لوثر ، ضمن الذين كانوا يرجعون بكل شيء إلى
قوة مخلوقات غير منظورة ، فكان يقول « لا بد وأن الملائكة هي التي
تحرك هذه الأفلاك . وهناك من كانوا يؤمنون بتأثير الكواكب في مصائر

البشر وأقدارهم ، أو ما نسميه بعلم التنجيم . فحينما تقترب المذنبات من الأرض ، فمعنى هذا أن أحداثا هامة وشيكة الوقوع . وحينما يلتقي برجان في مثلث معين ، فلهذا معنى مغاير . ولقد بذل مصلحو أو كسفورد ، مجهودات جبارة لتعديل أفكار الناس ، وتحريرهم من هذه الخرافات ، كما كان لوثر دائم السخرية منها ، بينما كان ملانكثون متعلقا بها ، على الرغم من ذلك . وكان لوثر يرد عليه : « لقد ولد يعقوب وعيسو في يوم واحد وساعة واحدة . فلو كان للكواكب تأثير ، فلماذا اختارت السعد لهذا والنحس لذاك ؟ » .

نفس الخزعبلات التي كانت تدفع الناس إلى الاعتقاد ، بأن حركة الكواكب من تأثير الملائكة ، وأن للكواكب أثرها ، في مقدرات الناس وحياتهم ، دفعتهم إلى تصديق الخوارق والصور الشاذة . حتى ملانكثون انساق في نفس التيار .

أيضاً كان لوثر يعتقد في قوة السحر والأرواح الشريرة . لأجل هذا صدر حكم الموت حرقاً على المئات بل الألوف من العجائز في ألمانيا ، لا لشيء إلا لشبهة قيامهن بهذه الممارسة الشيطانية . ومن الغريب أن عدد اللائي أحرقن في عهد الإصلاح ، كان أكبر الأعداد كلها .

لقد كانت الهرطقة وممارسة السحرهما الجريمتان اللتان كان عقابهما الموت حرقاً وليس هكذا فحسب ، بل حتى التسول في إنجلترا ، كان جريمة يعاقب عليها بالشنق . لقد كان القانون الجنائي وحشيا في تلك العصور .

وبعد ثورة الفلاحين في ألمانيا ، أصدر الإقطاعي « أسقف بيمبرج »

قانونا للجنايات ، يبيح في المحاكمات قطع الأباهم ، وفقاً العيين ،
 واستخدام سرير التعذيب ، والشنق ، وقطع الرأس ، وغير هذه من
 الأساليب الوحشية . وكان هذا لا يكفي ، فكانت تنتظر من تنفذ فيه الأحكام ،
 أهوال أقسى ، حينما تحمله الأبالسة في زفة شيطانية إلى نيران الجحيم
 المستعرة . ولقد أراد بهذا ، أن يخيف أتباعه من الفلاحين المساكين ،
 ويدفعهم إلى الخنوع والاستسلام . هنا نستطيع أن نرى ، كيف كانت السلطة
 المدنية والدينية ، تشتركان معاً في استخدام الأساليب الوحشية ، للقمع .
 والإرهاب .

من هذا كله نخلص ، إلى أن ذلك العصر ، كان ضيق الفكر ، متزمتاً ،
 إلى أقصى حد . ومن ثم لم يكن مستعداً ، لقبول أى فكر أوسع من
 أفقه . وقد قدر لهذه الحزعبلات والتصرفات الوحشية ، أن تظل مسيطرة
 على العقول والقلوب ، ردحا من الزمن ، ولا تزول إلا تدريجياً ، مع
 إشراق فجر المعرفة ، وتقدم الحضارة . لكن قبل هذا ، لم يكن من
 المنطقي أن ننتظر وجود روح التسامح ، أو حرية الفكر . .

ومع ذلك فإنه مع إشراق عهد الإصلاح ، أشرق عصر الحرية ونور العلم
 والمعرفة . . ولن نتحدث عن الإكتشافات الجغرافية التي فتحت آفاقاً جديدة ،
 وعلى الأخص في العلوم الإنسانية ، ولن نتحدث عن اكتشاف رأس الرجاء
 الصالح ، وما تبع ذلك من تفاعل تجارى ، ونشاط اقتصادى بين الشرق
 والغرب ، ولن نتحدث عن تقدم علوم الفلك في ذلك العصر—ولكننا نقول
 إن معرفة عامة بالكون ، وغوامضه ، بدأت تشرق على الإنسانية قبل
 أن يأتى عصر جاليليو .

فقد ظهر عالم معاصر لمصلح ألمانيا ، يدعى كبرنكان من بولندا ، وكان له شرف تصحيح الكثير من الآراء العلمية والفلكية المغلوطة السائدة على أساس الملاحظة النيرة والاستنتاج السديد . ونحن نعرف كيف أن كنيسة العصور الوسطى ، كانت تصر على إخضاع كل كشف علمي ، لمفاهيم الدين السائدة ، ولما ورد في الكتاب المقدس . وهكذا ، خوفاً من أن يتهم بالهرطقة ، ظل ذلك العالم يعمل في صمت ، طيلة ستة وثلاثين عاماً ، أي طيلة المدة التي كانت فيها الثورة البروتستانتية تعارك معركتها الخالدة . وكان يدون كل ما يعن له من استنتاجات ، ولكنه لم يجرؤ أن ينشر كتاباته ، أو يدعها تظهر للوجود ، حتى عصر بولس الثالث الذي هدأت فيه العاصفة قليلاً . وكان كبرنكان في ذلك الحين ، شيخاً حطمته الأيام ، عندما أرسل كتاباته ونتائج أبحاثه إلى المطبعة . كان في ذلك الوقت على فراش مرضه الأخير ، وكانت كل أمنيته ، أن يشاهد أبحاثه تظهر للوجود ، قبل أن تنتهي حياته ، وكان من حسن حظّه ، أن أتيح له أن يتصفح النسخة الأولى ، ودموع الفرح في عينيه . ولم يلبث طويلاً حتى فارق الحياة في عام (١٥٤٣) ، وكان قد بلغ السبعين من عمره .

وجاء بعده غيره ، أمثال كبلر وجاليليو ، ليسيروا في نهجه . وهكذا نستطيع أن نقول ، إن كبرنكان كان رائد الحركة العلمية المتحررة ، والبحث العلمي ، ومحور الفكر الثقافي ، من قيود الإكليريكية في ذلك العصر ، تماماً كما كان لوثر رائد التحرر الديني ، ومحور الفكر الإنساني من قيود الكنيسة - ولقد كانت بالطبع بداية - واقتضى الأمر أجيالاً طويلاً طويلة من السعى المضني . لكن هذا الرجل البولندي العالم ، كان رائد الحركة التحررية العلمية ، إبان إشراقة شمس الإصلاح .

والآن حان الوقت لنطوى هذه الصفحات ، ولن نجد لدينا متسعا من الوقت ، لتحدث عن الآثار الاقتصادية لثورة الإصلاح . لكن يكفيننا أن نقول ، إن البناء القديم كان يتداعى ، فى أكثر من مكان ، فخلينا السبيل لقيام بناء جديد ، أكثر روعة ، وسموا ، على ما فيه من قصور وبدائية . وبقي للأجيال القادمة أن تم ذلك البناء وتتوجه :

والفضل للمتقدم وواضع الأساس :



٩

ملحق للدراسة

ملحق (١) بين الإصلاح والعقلانية .

ملحق (٢) أخلاقيات لوثر .



بين الاصلاح والعقلانية

وإذا كنا نقصد بالعقلانية البحث المنطقي العقلي ، المنزه عن الغرض ، والمبنى على أساس العقل ، فإن المسيحية لا تتعارض مع العقل سوى ، الكاثوليكية نفسها تقر بذلك ، والبروتستانتية توسع الدائرة . وكل من الاثنتين ، أسهم في أكثر من هيئة ونظام مدرسي ، لا يتعارض مع الإيمان القويم – إن المسيحية فوق العقل ولكنها لا تتضارب معه .

وفي كلمات نقول ، إن الكاثوليكية تنبر بشدة على التقليد مع الكتاب المقدس كأساس للإيمان . فالتقليد عندها ، أو تعاليم الكنيسة المعصومة ، وعلى رأسها البابا ، يكاد يسمو على الأسفار المقدسة ، بحيث جعلت الكتاب مؤيداً للتقاليد ، ومفسراً لها .

أما البروتستانتية ، فهي تتخذ الكتاب المقدس وحده ، أساساً ودستوراً للإيمان المسيحي ، ولو أنها تتخذ من التقاليد والعقل سنداً ، ومؤيداً للأسفار المقدسة . وتنبد كل ما يتعارض مع الحق الكتابي – فإذا جئنا للعقلانية ، فلإننا نجدها ترفع العقل فوق الكتاب ، وفوق التقاليد ، وتقبل الكتاب والتقاليد ، في حدود دائرة العقل فحسب . فالعقل هو أساس الإيمان والتصديق .

ولقد وجه النقد إلى البروتستانتية ، بأنها أم العقلانية – لكن هذا قد يكون صحيحاً من جانب ، وغير صحيح من جانب آخر . فإذا كانت البروتستانتية هي التي خطت الخطوة الأولى ، في تحرير العقول من سلطان

الكنيسة ، إلا أن العقلانية اندفعت في طريقها ، في محاولة تحرير العقل من سلطان كل من الكنيسة والكتاب المقدس معاً .

إن الرومانية الكاثوليكية ، توجه النقد إلى غريمتها البروتستانتية . بأنها أساس كل انحراف ، وكل حركة مشوهة ضد المسيحية . لكن هذه التهمة يمكن الرد عليها بالحقيقة التاريخية : إن أقسى حالات الإلحاد ، والثورة على الكنيسة ، قد ولدت في أحضان مجتمعات كاثوليكية لحماودما كأقصى رد فعل ، لطغيان الكنيسة والدولة . أما وسط الطبقة المثقفة المستنيرة ، فإن تمسك الكنيسة بما تسميه « ما فوق الطبيعي » ، قد أدى في النهاية إلى تبلور أكثر من حركة مناهضة ...

إن الدارس المنصف لحركة الإصلاح في منابعها ، يستطيع أن يرى أن الإصلاح وقف في وجه الإلحادية في عصر النهضة ، وتحدى الحركات التطرفية الثورية ، نظير ثورة الفلاحين في ألمانيا ، وتصدى لها ، بغض النظر عما نجم عن ذلك من نتائج مؤسفة ، وقاوم حركة المنحليين الليبرتيين في جنيف . فإذا كان الإصلاح قد فتح الطريق أمام سلطان العقل ، وشطحاته ، وتطرفاته ... العقلانية تؤكد سلطان العقل ضد الوحي . والحرية ضد السلطان الكنسي ، والإستبداد الإجتماعي ، وتقف في وجه الكنيسة والكتاب معاً . إنها تنكر المعجزى وفوق الطبيعي . أما شعورها بالنسبة للخطية وجرمها ، فهو سطحي ، يرتبط ببدعة بيلاجيوس .

بينما الإصلاح يتخذ العقيدة الأوغسطينية أساساً ، وينطلق من منطلق أقصى درجات الإقتناع بالخطية والمذنوبية ، والحاجة إلى النعمة المخلصة . فالنظامان يناقض أحدهما الآخر ، نظرياً وعملياً . فالعقلانية في المسيحية الحديثة ، هي نظيرة الغنوسية في الكنيسة القديمة ، ثورة الفكر على

الإيمان والكنيسة ، وتقدير أسمى للفلسفة النظرية على الوحي . ولو أنها
تحتوى عنصراً واحداً مفيداً ، هو روح البحث العلمى ، الذى منه تفرعت
العلوم الحديثة المرتبطة بدراسة الكتاب ...

بعد هذه الإستهلاله ، نرى أنه لا ضير علينا ، من الخوض فى بحثنا
بقليل من الإفاضة ... ولنبدأ قبل كل شئ بالحديث عن صلة الإصلاح
باستخدام العقل كمبدأ عام ...

نقول إن ثورة الإصلاح قامت أساساً ضد الاستغلال والطغيان الدينى
والعقلى ، مؤكدة حق الإنسان فى الحكم على الأشياء بعقله وضميره . وعلى
ذلك فهى تتيح للمرء قدراً أكبر من البحث المتحرر ، والمعرفة ، والنقد
أكثر مما تبيحه الكنيسة الكاثوليكية ، التى تستلزم من أتباعها الإيمان بعصمة
الكنيسة ، والخضوع المطلق لسلطانها . فالإصلاح إنطلاقة إلى الأمام ،
لكنها انطلاقة تتمشى مع الإيمان بالوحي ، فيما يقدمه لنا عن دوائر تسمو
عن الزمن ، والأحاسيس . فما الذى نعرفه عن الخلق وعن الدهر الآتى ،
إلا ما أعلنه لنا الله فى كتابه ؟ إن الفكر الإنسانى قد يبرهن على إمكانية
وجود الله ، وخلود النفس ، ولكنه لن يستطيع أن يؤكد ذلك . لذلك
فن المنطقى والمعقول أن نؤمن بما هو فوق الطبيعى ، على أساس ما أعلن
لنا فى شهادة الله ...

ولقد استخدم المصلحون عقولهم ، ومنطقهم ، فى صراعهم مع السلطة
الكنسية ففى ورمز ، رفض لوثر أن ينصاع لمقاوميه ، إلا على أساس
أسانيد من الكتاب المقدس . ولقد كان ممكناً فى تلك الفترة أن ينحاز إلى
صف دعاة مذهب الإنسانية ، أو ينخرط فى سلك العقلانيين . لكن طبيعته
الدينية القوية المسيطرة ، غلبت كل هذه التيارات .

وفي كافة الظروف التي جاز فيها ظل متمسكا بكتابه ، وبإيمانه . لقد كان لوثر يعرف عدوه وبهذا الإيمان استطاع أن يتصدى لكل حركة عقلانية تحاول أن تتطرق إلى دائرة الإيمان القويم ، وخشى من تزعزع مقام الدين في قلوب الناس . بل إنه في غيرته الروحية ، نسي كل ما كان مدينا به لشخص نظير إرازمس ، داعياً إياه الأبيقوري ، الشكاك ، بل الملاحد . ومع تقديره لنعمة العقل في كيان الإنسان ، إلا أنه ، لم يتوان يوماً عن مهاجمة العقل ، إذا رآه يجلس على الكرسي ، قاضياً في أمور الإيمان .

أما زونجلي ، فقد كان أكثر الكل عقلانية بين المصلحين . وربما كان ذلك بسبب وقوعه تحت تأثير إرازمس .

وهو لم يقع تحت التأثيرات التي وقع تحتها لوثر . ولم يعرف الرهينة وأثرها . لقد كان يفضل المعاني الصريحة للكتاب ، واعتنق آراء تقدمية جعلت لوثر وكلفن يصدمان بها . لكنه مع ذلك كان يحترم كلمة الله . ولم يفكر يوماً ، بأن يرفعها فوق مستوى العقل . وما كانت خلافاته مع لوثر ، إلا على أساس التفسيرات المتباينة لكلمة الحق ... أما كلفن فقد كان أقوى لاهوتي ، ومفسر بين المصلحين . وهو لم ينقض على العقل نظير لوثر ، بل جعل منه خادماً لاغنى عنه للإعلان الإلهي . وقد وضع أساس أقوى النظم الكنسية التي وقفت في وجه العقلانية ، والكاثوليكية معاً . وإن كنا نجد كنيسة سويسرا قد انحرفت عن مبادئه في القرن الثامن عشر ، واعتنقت آراء السوسينيين ، فهو ليس ملوماً لذلك ، إلا إذا كنا نلوم لوثر لأجل الموجه العقلانية في ألمانيا ، والكاثوليكية بسبب كتابات فولتير ؟ .

لكن العقلانية بدأت تتراجع وتخفف من حلتها ، في فترات لاحقة ،
وتنحني أمام الإيمان القويم . فالبحث أثبت قانونية الأناجيل وسفر الأعمال .
أما رسائل رومية و.كورنثوس وغلاطية ، وسفر الرؤيا ، فقد ثبتت
صحتها وتاريخيتها . ويكفي الاعتراف بمسيح الأناجيل ورسائل بولس ...
إن العقلانية . وإن كانت في مظهرها الهدام ، قد اجتاحت أكثر مناطق
أوروبا ، إلا أننا نستطيع أن نقول ، إنها فتحت المجال أمام علوم كتابية ،
لم تكن موجودة من قبل ، مثل الدراسة اللغوية للآيات ، والنقد
الكتابي ، والتفسير التاريخي للأسفار . كما أنها وسعت الأفق ، بدراسة
ظروف كتابة الأسفار المقدسة ، والجانب المادي والتاريخي للمسيح
والمسيحية .

أخلاقيات لوثر

من بين الكتب التي صدرت مؤخرًا . في العربية بروح النقد ضد لوثر ، كتاب نقله عن الإنجليزية « رمزي يسي » بعنوان « من لوثر إلى هتلر » . ولعل كاتبه في الأصل الإنجليزي كاثوليكي . لذلك لاغربة أن نجد جانبًا منه ، يبدو فيه التحامل البين على زعيم الإصلاح في ألمانيا . أما ذلك الجانب ، فهو يظهر من تحليل نفسية لوثر ، في حياة الرهبنة الأولى ، وسنى حياته قبل التجديد . وهو هنا يتهمة بالقلق النفسى ، والاضطراب والهلوسة الدينية ، والتوتر . ونحن لا ننكر ما قاله هو عن نفسه ، قبل أن تفتقده نعمة الله . ولا ننكر قوله « لا بأس بحالتى الجسمية ولكن نفسى تتعذب ... إن نوبات اليأس تجتاحنى ، وعواصف القنوط قد انهالت على . لقد فقدت الرجاء فى المسيح إلى النهاية . إلى غير ذلك من الشواهد التى أثبتتها الكاتب سالف الذكر .

ولكننا نقول ، والتاريخ يؤيد هذه الحقيقة ، إنه فى حالة الأشخاص الذين يحدث فيهم ذلك التغيير الحاسم ، بين حياة وحياة ، وهدف وهدف ، تحدث تلك الأزمة الطاحنة ، التى لا يستغرب أن تكون مصحوبة بحالات نفسية عنيفة من الحزن والإكتئاب . وتاريخ التصوف المسيحى ، يؤيد تلك الفترة التى يتحدث عنها القديس يوحنا الصليبي ، بأنها « ليلة النفس السوداء » .

أما انتزاع اقتباسات من هنا وهناك ، ليدلل بها الكاتب على فساد أخلاق لوثر ، فلا أساس لها . وما نود أن نقوله ، إننا لو اتبعنا

هذا القياس ، لقلنا إن بولس الرسول الذى كان قبلا فريسيا مدققا فى سلوكه ، هو أشر الناس ، لأنه يتحدث عن اختباريه (رومية ٦) ، ولأنه يقول عن نفسه ، إنه « أول الخطاة » . إن الذين اختبروا حياة النعمة فى سموها ، لا يمكن إلا أن يشعروا بالفارق العظيم ، بينها وبين حياتهم الأولى . فيجسم لهم الضمير المستنير خطاياهم الأولى ، مهما كانت ضئيلة ، أمام إعلان قداسة الله وسموه .

ويمكننا أن نقول إن لوثر ، مؤلف الترانيم شاعر . والشاعر يمكن أن يتخذ من الاستعارة اللفظية ، ما يقوى ويؤكد الحق الذى ينادى به . مثال ذلك قوله « اقررف الخطية ... اقررفها بشجاعة . فالإيمان أكبر شجاعة » أنه لا يدعو هنا إلى الاندفاع فى الخطية ، بل يقول إنك مهما اقررفت من الخطايا ، واندفعت فى سبيلك أيما اندفاع ، فإن الإيمان الأكبر بمراحم الله وغفرانه ، كفيل بأن يمحو عنك كل الخطايا .

ثم فى نقد المؤلف لأفكار لوثر عن الزواج — فهاذا فى قوله « إن الزواج علاج التحرق ... » — الكلمة أثبتتها الرسول من قبل . أما ما يشير إلى شدة احتراقه بنار الشهوة ، ولعل هذا كان قبل زواجه — فإننا نجد مثالا له فى الحالات والمصارعات التى كانت تنتاب الأنبا انطونيوس فى ترهبه فى الصحراء ، والصور التى كانت تتجسم له ، من جراء أعصابه المحترقة ، فى صورة امرأة تغريه ، وما شابه ذلك .

أما قوله « بالرغم من اعترافى بأن الزواج خير ، فأنا لا أسلم بعدم وجود خطية فيه على الإطلاق — وما من زواج يتم ، إلا ويشوبه لثم » . فإننا نطلب من المؤلف أو المعرب ، أن يقابل هذا بتحذير الرسول بولس للمتزوجين « ليكن الزواج مكرما عند الجميع والمضجع غير نجس

أما العاهرون والزناة فسيدينهم الله » — والنصيحة هنا للمتزوجين . أى أن فعل الخطية ، يمكن أن يشوب حتى العلاقة الزوجية المباحة ، فيقع الإنسان في دائرة الفعل الفاحش .

أما من جهة زواجه بإحدى الراهبات ، فلنستمع إلى ما يقوله هو :

« لقد أحرست بهذا السنة المفترين على » . وفي موضع آخر يقول « لقد تزوجت منها إذ لابد أن أسخر من الشيطان ، والمعارضين ، والأمراء ، ورجال الدين ، وإننى على استعداد أن أرتكب ما يروونه أمرا مشينا ، إذا وجدت في هذا ما يرضى الله ، حتى إن تسبب في غيظهم » .

أما التعليم الذى نادى به لوثر بخصوص الرهبنة ، بخصوص نقضه لعهدا ، فهو تعليم جذرى فى صميم العقيدة المصلحة . فلا رهبانية فى المسيحية الكتابية ، ولا سر فى قطع العهد للإنزواء والتحرق ، والوقوف فى وجه الطبيعة البشرية . ولا خدمة للمسيحية فى الكسل ، وطى اليدين باسم الدين ، وعدم مجابهة مشكلات المجتمع فى إيجابية وواقعية . شئ واحد تؤيد الناقد فيه ، ذلكم هو نقده لسياسة لوثر ، وموقفه من المشكلات الاجتماعية ، ومناقضته لنفسه فى هذا المجال .

ويبدو أن جذور هذا الموقف ، تمتد إلى أن اللوثرية ، نشأت وترعرعت فى حماية أحد الأمراء ، هو منتخب سكسونيا ، ومن انحاز إلى صفه من الأمراء بعد ذلك . فلولا رعاية أولئك له ، لكان مصير لوثر إلى الحريق ، ومصير ثورة الإصلاح إلى الاندثار ، شأنها شأن الوالدينية والهوسية ، وغيرها من الحركات التى وئدت فى مهدها . لذلك لا غرابة أن يدهن لوثر — والإنسان إنسان مهما سمانى مثله — أولئك

الذين احتضنوه ورعوه ، ودافعوا عنه وأيدوه . ولقد كان خليقا به أن يكون غير ذلك ، أى يضع الدين فى جانب ، والسياسة فى جانب آخر ، لا يجعل من الدين مركبا ذلولا للأمرء والمنتخبين ، ولكن الظروف هى التى اضطرتة ، إلى ما نعتقد أنه كان مصدر عذاب لضميره حتى نهاية العمر إن موقفه من الفلاحين ، لم يكن موقفا إنسانيا على الإطلاق . فكم بالحرى رائد ثورة روحية ؟ .

لكن للإنصاف نقول ، إنه يكفى زعيم الإصلاح فخراً ، أنه جعل الكتاب المقدس مفتوحاً أمام رجل الشارع . أى أنه أثر بصورة أو بأخرى ، فى حركات الإصلاح التى قامت فى أكثر من مكان ، وهذا كله لا بد وأن يشفع للوثر ، عما ارتكبه من أخطاء . إنه ليس لها ، لكنه أولاً وأخيراً إنسان كأى إنسان .



مراجع

لطالب الإستزادة الرجوع إلى المراجع التالية ، وقد رجعنا إلى معظمها ...

أولا - مراجع أجنبية في التاريخ الكنسى :

1. Text Book of Church History, 2 vols. — Dr. Kurtz.
2. Turning Points of General Church History — Cutts.
3. The Growth of the Christian Church — Nichols.
4. The Era of the Protestant Revolution — Seebohm.
5. The Pilgrim Church — Broadbent.
6. Ecclesiastical History — Fitzgerald.
7. History of the Christian Church, vols. 6 and 7 — Philip Schaff.
8. When God Came — Bradsly.
9. The Story of the Church — Benziger Bros.
10. The Holy Roman Empire — Bryce.
11. The English Bible.

ثانيا - مراجع في التاريخ العام :

12. World History — Fox.
13. The Story of Mankind — Van Loon.
14. Outline of the History of the World — H. G. Wells.

ثالثا - قواميس وموسوعات :

15. Encycl. of Religious Knowledge, 12 vols. — Schaff and Herzog.
16. A Dictionary of Church History — (Oxford).
17. Ecclesia — Histoire de l'Eglise.

المهتدين

رابعاً - مراجع عربية ومترجمة :

- ١ - مختصر تاريخ الكنيسة - (أندرو مللر)
- ٢ - تاريخ الإصلاح - (دوبنييه)
- ٣ - عشرون قرناً في موكب التاريخ - (حبيب سعيد)
- ٤ - مايكل انجلو - (الألف كتاب)
- ٥ - ربحانة النفوس في أصل الطقوس - (شنيدر - بروت)
- ٦ - من لوثر إلى هتلر - (رمزي يسي)



المفتدين

فهرس الكتاب

صفحة

- ١ - معالم على الطريق ٣
[الإصلاح الديني مرحلة تطور حاسمة في التاريخ - قوى
ثلاث في صف البابوية : النظام الكنسي - النظام المدرسي
- النظام الإقطاعي - نجوم في الظلام]
- ٢ - هكذا كانت الإمبراطورية الألمانية ٢٨
[هكذا كانت الإمبراطورية الألمانية - راهب ويتخرج
- بائع الغفرانات - إصلاح أم ثورة ؟ - الثورة - ختام
قصة]
- ٣ - الإصلاح في سويسرا ٨٦
[زونجلي - بيع الغفرانات في سويسرا - مجمع زيورخ
- تحطيم الصور والتماثيل - صراع بين اللوثريين والزونجليين
- حلف بين المصلحين - حرب بين الكاثوليك والمصلحين
- موت زونجلي]
- ٤ - الإصلاح في فرنسا وسويسرا الفرنسية ١١٠
[كلفن يكمل مبادئ زونجلي - ثيولوجية كلفن - الأوضاع
في جنيف - أثر كلفن في فرنسا - مذبحه الهوجنوت]

٥ - الإصلاح في هولندا واسكتلندا ووسط أوروبا ١١٧

[هولندا (الأراضي المنخفضة) - مجمع دوريت - السويد -
الدايمرك - اسكتلندا - جون نو كس]

٦ - الإصلاح في إنجلترا وأيرلنده ١٣٩

[الملك هنري الثامن - صراع بين الملك والكنيسة - قرار
البرلمان الإنجليزي بإنهاء السلطة البابوية - الملكة ماري
الدموية - الإصلاح في أيرلنده]

٧ - الإصلاح في الكنيسة الكاثوليكية ١٥٣

[طريقان للإصلاح - الإصلاح المضاد في الكنيسة الكاثوليكية -
محاولة لجمع الشمل - مجمع راتسبون - جمعية اليسوعيين -
مجمع ترنت]

٨ - الأثر الاجتماعي والاقتصادي لعصر الإصلاح ١٧٣

[مدحضاري - حصيلة ثورة الإصلاح : تبلور الحياة القومية
وظهور الدول - علاقات الأمم - ازدهار اللغات والآداب
القومية - ازدهار التعليم القومي - أثر الإصلاح في الحياة
العائلية - أثر الإصلاح في الديانة العامة - هل حقق الإصلاح
روح التسامح الديني ؟]

ملاحق للدراسة ١٨٩

ملحق (١) بين الإصلاح والعقلانية

ملحق (٢) أخلاقيات لوثر

مراجع الكتاب